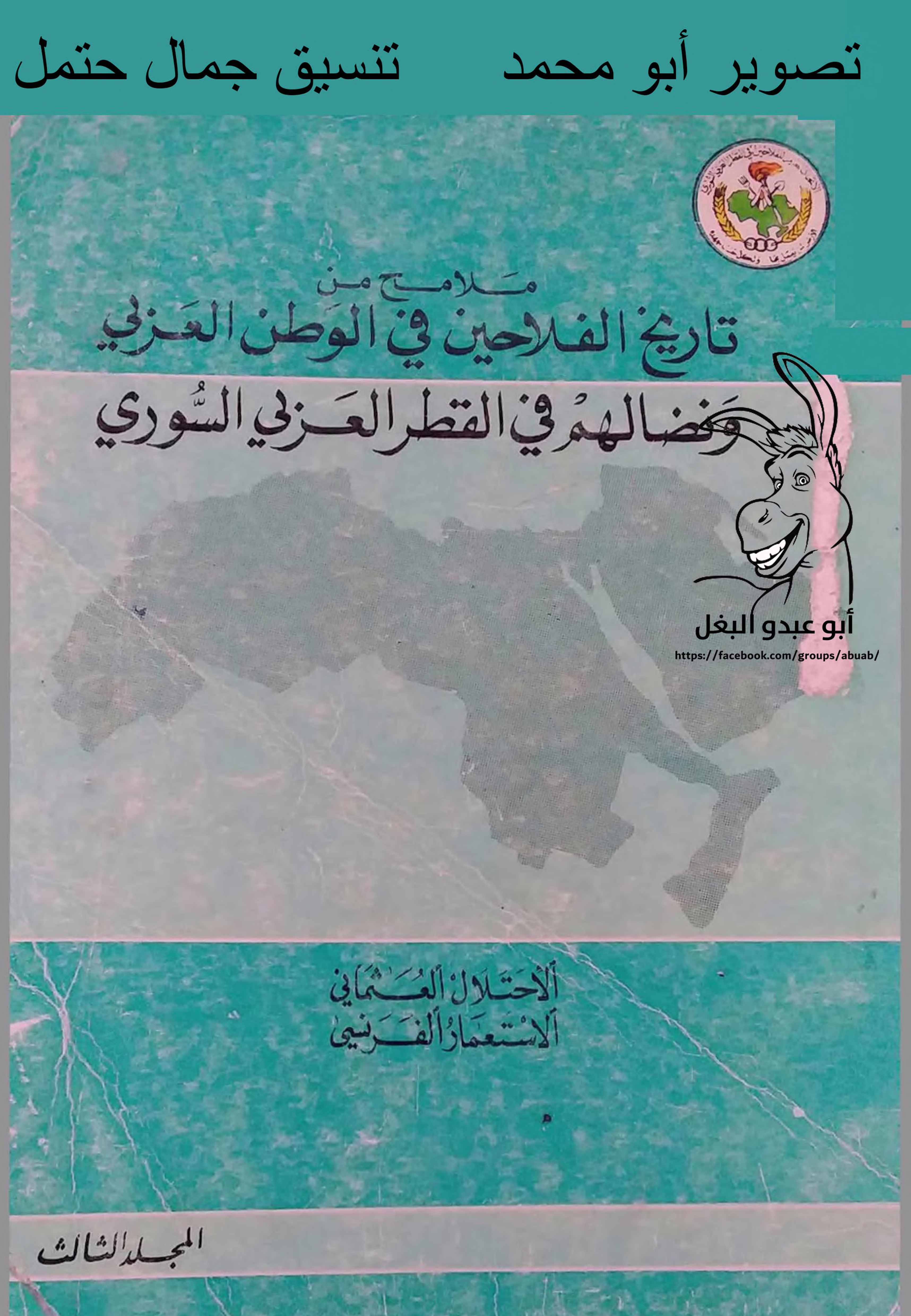


ملامح من
تاريخ الفلاحين في الوطن العربي
ونضالهم في القطر العربي السوري
أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/
الاحتلال العثماني
الاستعمار الفرنسي
المجلد الثالث

المجلد الثالث

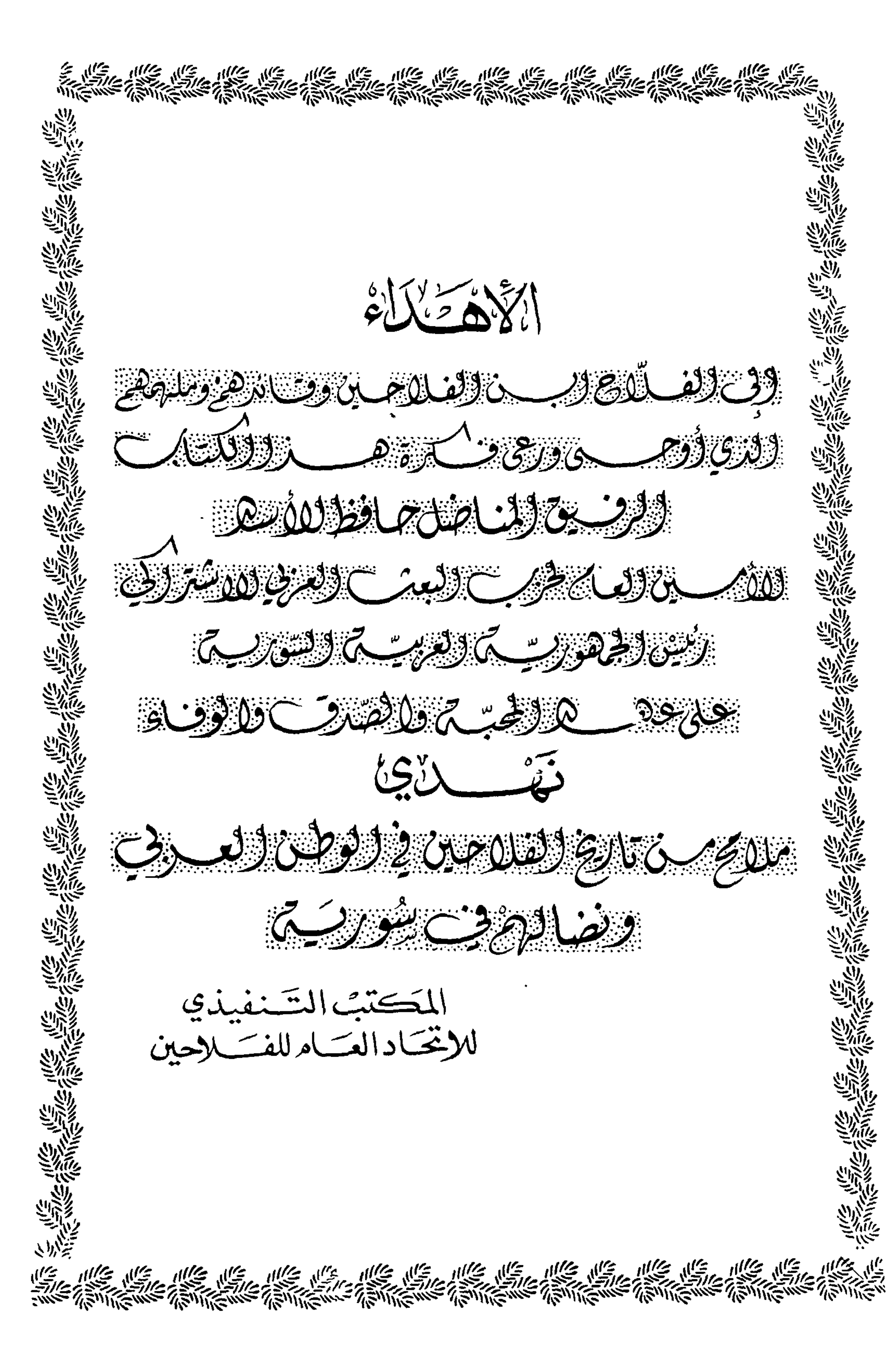
ملامح من
تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري

العصر الحديث

المسألة الزراعية والحركات الفلاحية من الاحتلال العثماني حتى الاستعمار الفرنسي

المؤلفون

المجلد	العنوان	المؤلف
المجلد الأول	العصر القديم	الدكتور نعيم فرح
المجلد الثاني	العصر الراشدي والأموي	الأستاذ محمد محفل
	العصر العباسي	الأستاذ برهان الدين عبد الرحمن دلو
	العصر الأيوبي والمملوكي	الدكتور عادل سليمان زيتون
المجلد الثالث	الاحتلال العثماني الاستعمار الفرنسي	الدكتور عبد الله فايز حنا
المجلد الرابع	المرحلة المعاصرة	الدكتور عبد الله فايز حنا
المجلد الخامس	دراسات ميدانية	الدكتور عبد الله فايز حنا



الإهداء

إلى الفلاح ابن الفلاحين وقائدهم وملهمهم

الذي أوحى ورعى فكرة هذا الكتاب

الرفيق المناضل حافظ الأسد

الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي

رئيس الجمهورية العربية السورية

على عهد المحبة والصدق والوفاء

نهدي

ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي

ونضالهم في سورية

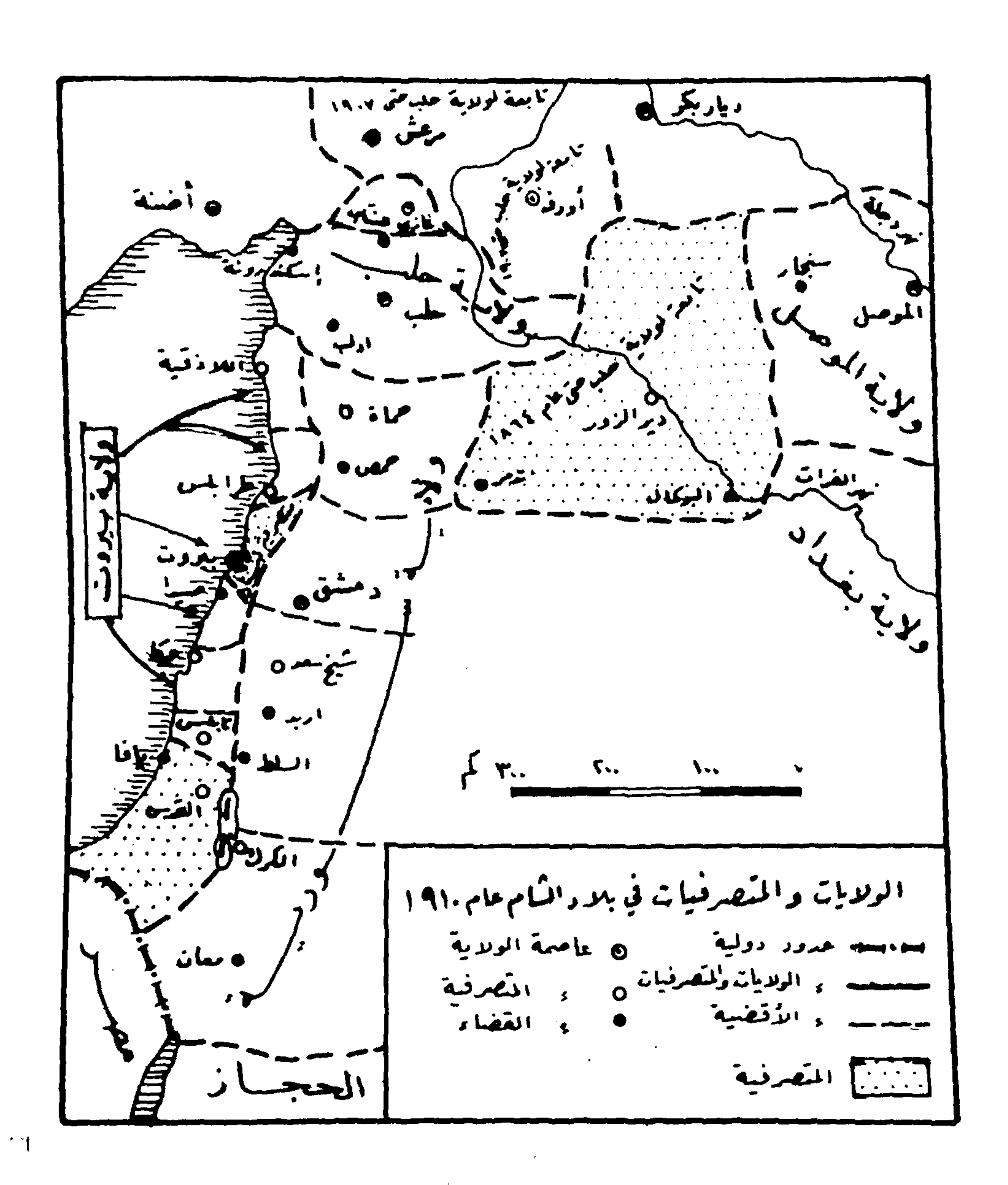
المكتب التنفيذي

للاتحاد العام للفلاحين

الباب الأول

الحكم العثماني الاقطاعي وطرق استثماره للفلاحين

- الحكم العثماني الاقطاعي في بلاد الشام
- اشكال ملكية الارض
- الصراع بين القوى الاقطاعية الحاكمة قبل القرن التاسع عشر للسيطرة على الارض واستثمار فلاحيها
- صور من الحياة في الولايات العربية « الشامية » قبل عهد الاصلاحات في القرن التاسع عشر



الولايات والمتصرفيات في بلاد الشام عام ١٩١٠
حدود دولية
الولايات والمتصرفيات
الأقضية
عاصمة الولاية
المتصرفية
القضاء
المتصرفية
٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ كم
ديار بكر
مرعش
أضنة
أورفة
حلب
ولاية حلب
سنجار
الموصل
ولاية الموصل
اللاذقية
حماة
حمص
دير الزور
الفرات
طرابلس
ولاية بيروت
بيروت
دمشق
ولاية بغداد
عكا
شيخ سعد
اربد
يافا
القدس
الكرك
معان
الحجاز

الفصل الأول

الحكم العثماني الاقطاعي في بلاد الشام

١ ـ الادارة العثمانية لبلاد الشام :

في بداية القرن الثالث عشر استقرت في آسيا الصغرى (الاناضول) قبيلة ادغوز التركية القادمة من موطنها الاصلي في اواسط آسيا ، واستطاع زعيمها « ارطغرل » أن ينال من سلاجقة الروم حق الاقامة في مقاطعة متاخمة لاراضي الدولة البيزنطية ، وهكذا تأسست امارة عثمان ، التي وجدت امامها مجالا واسعا لفتح الاقاليم البيزنطية . فاخذت هذه الدولة تكبر وتتسع في الاناضول والبلقان على حساب البيزنطيين ، الى ان تمكن « محمد الثاني » اخيرا ، من فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ فجعلها عاصمة العثمانيين(١) .

بعد ان اتم العثمانيون احتلال شبه جزيرة البلقان ، حول السلطان سليم الاول انظاره نحو الشرق الاسلامي ، فاحتدم الصراع بين القوى الثلاث :

السلطنة العثمانية ، والسلطنة المملوكية ، والدولة الصفوية .

وفي آب ١٥١٦ م هزم العثمانيون المماليك في مرج دابق قرب حلب ، التي قاسى اهلها الأمرين من حكم المماليك ، وبعد احتلال حلب تقدم السلطان سليم باتجاه دمشق ، التي اعلن زعماؤها (قضاة المذاهب الاربعة ، نقيب الاشراف ، نائب القلعة المملوكي) خضوعهم للفاتح الجديد ، وفي دمشق حاول العثمانيون ادخال تنظيمات جديدة تتعلق بالتاكد من هوية اصحاب الوظائف الدينية ومستنداتهم ، وكذلك اصحاب الاقطاعات ومنشوراتهم ، واجروا احصاء للسكان والممتلكات بغية فرض الضرائب عليها ، فأثار ذلك نقمة الدمشقيين ، مما دفع السلطان سليم لالغاء هذه الاجراءات وسعى للتقرب من الاهالي فوزع المال على العلماء ، وزار قبر زعيم الصوفية محي الدين بن عربي في الصالحية(٢) .

ويلاحظ ان الشعب لم يقاوم العثمانيين ، ولم يدافع ، في الوقت نفسه ، عن المماليك ، بسبب مظالمهم ، بل وقف كالمتفرج ، وهو يستبدل حاكما اقطاعيا غير عربي بحاكم آخر اقطاعي غير عربي .

وبعد ان استتب الامر للسلطان سليم الاول في بلاد الشام توجه الى مصر فدخل القاهرة بعد معركة عنيفة مع المماليك في كانون الثاني ١٥١٧ . وباحتلال مصر وخضوع الحجاز بلغت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني اقصى اتساعها ، فوصلت حدودها الى اقصى شبه الجزيرة العربية وامتدت الى شمالي افريقيا وخضعت لها اراضي الرافدين ، وعلى هذا النحو دخلت البلاد العربية في دائرة الاستغلال الاقطاعي العثماني . لكن سياسة التوسع العثماني قادت الى الركود العام في المناطق المفتوحة وادت الى انتفاضة الشعوب ولا سيما في البلقان في وجه الاضطهاد الاقطاعي العثماني . اما في الاقطار العربية ، فتلبس العثمانيون حماية الاماكن المقدسة والدفاع عن سلامة طرق الحج ، فاسهم هذا في تدعيم مواقعهم المعنوية وساعدهم في الحصول على موارد هائلة مكنتهم من إحكام سيطرتهم على الوطن العربي .

وقسم العثمانيون بلاد الشام الى ثلاث ولايات ، تتبع مراكزها في حلب ودمشق وطرابلس . ثم احدثوا ولاية صيدا ، وبقي الحكم في كثير من المناطق في ايدي العصبيات المحلية الاقطاعية ، وقد سارت السياسة العثمانية على إثارة العصبيات المحلية بعضها ببعض ، وجعلت منها اداة في يد الدولة وتقتطع المتنفذين الاراضي وتطلب منهم ان يدفعوا لها الاموال وتطلق يدهم في جبايتها . فاشتد التنافس على المناصب في الولايات ، فدخلت بذلك سوق المزايدات كما في السلع التي تباع وتشرى(٣) .

وقد قدر احد قناصل البندقية في حلب اثمان الوظائف الرئيسية كما يلي : الولاية (٨٠٫٠٠٠) الى (١٠٠٫٠٠٠) دوقة ذهبية ، الدفتردارية (محصل الاموال) (٤٠٫٠٠٠) الى (٥٠٫٠٠٠) دوقة ذهبية ، القضاء ما يعادل ثمن الدفتردارية او ينقص عنه قليلا . وكانت الدوقة تعادل نصف ليرة ذهبية عثمانية(٤) .

وهكذا اصبح من مصلحة ذوي النفوذ في القسطنطينية ان يكثروا من العزل

والتنصيب لابتزاز الاموال . فمناصب الولاة كمناصب القضاة وسائر الموظفين لها اثمان عند اصحاب النفوذ من رجال الباب العالي او محظيات القصر الشاهاني ، ولكل وظيفة قدر معلوم من المال والهدايا واللحم البشري على شكل رقيق ابيض احيانا . ولهذا اتصفت الادارة العثمانية بالاكثار من تغيير الباشوات والحكام واستغلال الرعية الى ابعد الحدود بواسطة العساكر ، مما ادى الى كثرة حوادث السلب والنهب والقتل والسبي والمصادرة .

وقد تعاقب على دمشق من عام ١٥١٦ الى ١٩١٨ قرابة مائتين وسبعين واليا حكموها قرابة اربعة قرون . اما حلب فحكمها خلال الفترة ذاتها اكثر من مئتي وال(٥) . بمعدل سنة ونصف ، مدة ولاية الحاكم .

وكان هؤلاء الولاة من جنسيات مختلفة صربية والبانية وشركسية ومجرية وايطالية وشعوب أوربية اخرى ، وندر من كان منهم من اصل عربي أو تركي . وكان اكثرهم قد بدأ حياته غلاما نصرانيا دخل في خدمة السلطان كأحد مماليكه بطريق الاسر او الشراء أو المصادرة (دفشرمة) ثم الحق بمدرسة البلاط وتخرج منها بعد ذلك وترقى في مناصب الدولة . كما وجد بعض الولاة المتخرجين من قسم الحريم او كانوا مماليك لدى الولاة وتخرجوا من ديوان الوالي(٦) .

واستمر الوضع على هذا الحال حتى القرن الثامن عشر . حين وصل الى سدة الولاية « الاحرار » المنشأ .

وعلى العموم فان الوالي كان يسعى لدى وصوله الى الولاية الى بعث الرهبة والخوف في قلوب الرعية . فكثيرا ما يقتل اعيان المدينة خوفا من نفوذهم ويأمر بجمع الاموال من الناس وينهب الحارات وكان آخرون يأمرون بمعاقبة القتلة والمجرمين واللصوص بشنقهم . وبعضهم يقوم (بأعمال الخير) لكسب ود العامة ، مثل ختان الاولاد الصغار وكسوهم الثياب الجديدة . واهتم بعضهم برقابة المكاييل والاوزان .

على ان هناك امرين عني بهما ولاة دمشق ، الاول الاشراف على بناء الترب والمساجد والحمامات والخانات والتكايا والقصور والاسواق والمدارس والجسور ،

والثاني العناية بطريق الحج(٧) . اذ ان هذه هي المهمة الرئيسية لوالي دمشق ، وعلى نجاحها يتوقف مستقبله .

وعرف نائب الوالي باسم المتسلم او قائمقام الولاية ، واطلق عليه احيانا اسم الكتخدا (كيخية) وكان ممثلا للوالي في حال غيابه او عزله . وكثيرا ما اصطدم الوالي مع نائبه ، وحيكت المؤامرات والدسائس بين الطرفين في التنافس على المنصب الاول .

واطلق على الدائرة التي تهتم بشؤون الاقطاعات تسمية (الدفترخانة) . ومع ضعف نظام الاقطاعات (التيمار ، الزعامة) اخذت تبرز اهمية دائرة اخرى هي دائرة الشؤون المالية المعروفة « بالدفتردارية » ، التي تولت اضافة الى تامين رواتب الموظفين والجند ـ جباية الضرائب من الاراضي الاميرية ، التي اطلق عليها اختصارا اسم (الميري) . وسنفرد بحثا خاصا لدراسة اراضي الميري وتطور تحصيل الاموال منها .

وكان على الدفتردار (مدير الخزينة) ان يؤمن ، بمساعدة الوالي ارسال الميري الى الباب العالي . والميري هنا لها معنى ثان وهو المبلغ المرسل من الولاية المجبى من اراضي الميري لسد مصاريف الادارة المركزية . وكان الدفتردار منفصلا عن الوالي ويعين مباشرة بفرمان من العاصمة ، يخوله تصريف امور الولاية المالية ، والهدف من ذلك خلق التوازن بين الوالي والدفتردار(٨) .

وتحت امرة الدفتردار عدد من الجباة وصفهم الشماس قسطنطين في منتصف القرن السابع عشر بانهم « كفرة أشرار ، ما يقدر احد على عزلهم لانهم كانوا يدخلوا يبرطلوا الخراجي (اي جامع ضريبة الخراج والعشر ـ المؤلف) كل سنة فيبقوا جباة يتحكمون بالفقراء والمساكين »(٩) .

واضافة الى الوالي ونائبه والدفتردار ،وجد في قمة السلطة في الولاية المفتي والقاضي اللذين استقرت في يديهما السلطة القضائية . وقد اختلف نفوذ كل منهما تبعا لاختلاف الولاة ورجال السلطة الادارية وحدة الصراعات الاجتماعية وحالة الامن السائدة .

وقد تمتع قضاة دمشق ببعض النفوذ واعتبروا ـ حسبما ورد في البديري ـ

مسؤولين عن مكافحة الغلاء ومراقبة الاسعار . وكان على القاضي المعين بأمر من استنبول ان يدفع الرشوة لمن يساعده في الوصول الى المنصب . ولهذا كان عليه أن يمارس الدور نفسه ويرتشي لكي يعوض ما دفعه ويحقق الربح المطلوب . والرشوة كانت اما عن طريق الاحكام الصادرة عنه ، او عن طريق تعيين نوابه . وكان في دمشق ثماني محاكم شرعية كان على قضاتها ، وهم من ابناء العائلات المحلية مثل الغزي والكزبري والاسطواني .. الخ ، شراء مناصبهم من القاضي ، ويرد في كتب المؤرخين دور القاضي ، وهو مستقل عن الوالي في كثير من تحركات العامة سلبا او ايجابا(١٠) .

اما المفتي فكان يعين من قبل شيخ الاسلام في استنبول . وقد اختلفت منزلته من زمن لآخر . فكان رجال الافتاء ، على العموم اقل منزلة من القضاة ، وجهازهم اقل تنظيما . ومن مهام المفتي ابداء الراي في بعض المسائل الفقهية عند استشارته ، فيضع السائل مشكلته في نصوص محدودة بحيث يجيب عنها المفتي بالسلب أو الايجاب ولم تكن الفتاوى المتناقضة نادرة الوقوع(١١) .

ويمكن وضع الوالي والمتسلم والقاضي والمفتي والدفتردار جميعا في كفة ميزان الجهاز الاداري ، حتى يعادلوا الكفة المقابلة ، التي تربعت فيها السلطة العسكرية اي الانكشارية ، التي كان دورها بارزا في تصريف شؤون الحكم وتحركات العامة ، واتسمت علاقتها بالسلطة المركزية والجهاز الاداري في الولاية والاشراف والعامة ، بسمات واضحة لا يمكن اغفالها .

٢ ـ الاقطاعية العثمانية في بلاد الشام :

كانت الدولة العثمانية ، دولة عسكرية على قاعدة اقطاعية ، استطاعت ان تتوسع عسكريا بسبب ضعف جيرانها ولا سيما الدولة البيزنطية ، وبفضل جيوشها القوية السريعة الحركة آنذاك . كما أن البناء المتكامل للدولة ولنظام الحياة وتشويق المحاربين بالغنائم والغزو ساعد الدولة العثمانية بضم البلدان الاخرى ، فوصلت الاقطاعية العسكرية العثمانية الى الاوج في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠

ـ ١٥٦٦) وتمكنت من الاستمرار اربعة قرون ، رغم تدهورها ؛ بسبب عوامل داخلية وخارجية سنأتي عليها .

٦ ـ الاقطاعية الحربية :

اعتبرت البلاد المفتوحة ملكا للسلطان ، الذي منحها بصورة مؤقتة ، أي غير وراثية ، للمحاربين والقواد والامراء . ولا يعني منح مقاطعة الى شخص ما ، تمليكه القرى والاراضي التي تتألف منها المقاطعة ، بل كان يعني تفويضه حق جباية الضرائب(١٢) وارسال قسم منها الى العاصمة والاحتفاظ بالباقي لـه ولحاشيته وعسـكره .

وقد قسمت المقاطعات حسب اتساعهـا وواردادتها الى ثلاثة اقسـام كونت الاقطاعات الحربية السائدة وهي(١٣) :

١ ـ الاقطاع الخاص : وهو في الغالب اقطاع الولاة ، كما منح ايضا لافراد الاسرة الحاكمة والمقربين منهم . والاقطاع الخاص لا يتصل بشخص الحاكم بل بمنصبه ، وكان للسلطان ايضا اقطاعاته الخاصة المنظمة ، التي اطلق عليها « خاص همايون » أو « خاص سلطاني » .

٢ ـ زعامت : وهو ما لا تقل غلته (حاصل) عن ٢٠ الف اقجة (وحدة النقد العثمانية الفضية) وعلى صاحبه أن يسير الى الحرب بنفسه ويتقدم عددا من الجند يتناسب مع انتاج اقطاع الزعامة ، أي ان الزعامة منحت غالبا لضباط السباهية (الفرسان) وكبار الموظفين مثل الدفتردار في الايالة ورئيس الالاي في اللواء وقواد القلاع ومن كان في منزلتهم .

٣ ـ تيمـار : وهو ما لا تزيد غلته على ١٩٫٩٩٩ اقجة . وقد يتوسع في مدلول تيمار فيطلق على النوعين الاخيرين واحيانا على الانواع الثلاثة . وقـد اعطيت التيمارات للجند السباهية (الفرسان) ليعيشوا منها ويجندوا آخرين من ايرادها ولا يخفى أن صاحب « الزعامت أو التيمار » كان يعطي هذه الاراضي بدوره الى الفلاحين مقابل قسم معين من المحصول تختلف كميته من منطقة الى اخرى . ومعنى

ذلك أن التيمار وثيق الصلة بالتزامات الخدمة العسكرية . والفلاحون هم الذين حرثوا اراضي التيمارات والزعامات والخاصات لحساب الاسياد العسكريين الكبار والصغار وغيرهم من كبار الموظفين .

كان معظم الاراضي في شمال سورية اراضي تيمار وزعامت (اطلق عليها ايضا اسم ديموز) دفع فلاحوها الضريبة مرتين او ثلاث مرات في السنة . المرة الاولى بعد الحصاد والثانية بعد قطاف شجر الزيتون ، واخيرا بعد بيع العسل والحرير في الاماكن المتوفرة فيهما . وقد بلغ اقطاع ايالة حلب سنويا ثمانمئة وسبعة عشر الف اقجة . وكان في الايالة مائة واربع زعامات وسبعمائة وتسعون اقطاعيا وحاميتها تبلغ ٢٥٠٠ فارس(١٤) .

وكانت الاراضي المزروعة حبوبا تدفع عن كل حوش ما يساوي اربعين اقجة باسم « رسم جفت » واراضي اشجار الزيتون دفعت في دمشق عن كل شجرة زيتون اقجة واحدة ، وفي حماه نصف اقجة . وفي كل من القدس وصفد ونابلس وحمص قسمت واردات شجر الزيتون مناصفة بين صاحب الاقطاع (تيمار او زعامت) والفلاح . اما في طرابلس الشام فكان وارد شجر الزيتون يعود بمجموعه لصاحب الاقطاع . وكان على الفلاح أن يدفع اقجة عن كل اربع شجرات توت . كما فرضت الضرائب على اشجار التين والجوز والعنب واختلفت قيمتها باختلاف سطوة وظلم صاحب الاقطاع (زعامت أو تيمار) (١٥) .

ففي لواء اللجون منطقة حيفا التابعة في أوائل العهد العثماني لصفد نص القانون على ما يلي(١٦) :

اذا كان الزيتون رومانيا ، فنصف حاصله يعطى للسباهية ، اما اذا كان الزيتون اسلاميا* فقد كانت الدولة تجبي اقجة عثمانية عن كل شجرتين . وكانت الدولة تأخذ عن كل شجرة كرمة خمس اقجات عثمانية .

---

* الزيتون الروماني : ملك للمسيحيين ، الذين اعتبروا روما نسبة الى بيزنطة .
الزيتون الاسلامي : ملك المسلمين وضريبته اقل من السابق .

والجدير بالملاحظة ان الضريبة على الاشجار يشار اليها في الدفاتر المالية بالمصطلح الاسلامي المعروف « خراج » اما الضريبة المحصلة عن الماعز فيشار اليها باسم « رسم » والقاعدة التي اتبعت في جبايتها ان تؤخذ اقجة واحدة عن كل راسين من الماعز . والطريف ان العثمانيين كانوا يجبون رسوماً على المناحل بمعدل اقجة واحدة عن كل منحلة .

والملاحظ بدراسة دفاتر الطابو المتعلقة ببلاد الشام أن تربية النحل كانت منتشرة في هذه البلاد . وكانت الحاصلات المنقولة من الحقول الى المدن تدفع ضريبة خاصة . وداخل خانات الشام هناك ضريبة « رسم القبان » وهي عبارة عن خمس بارات (اي اقجة وربع) عن كل حمل من الرز وبارتين عن حمل الخروب وسبع بارات عن حمل الخيار وخمس بارات عن حمل الزيت وسبع بارات عن كل حمل خضرة وبارتين عن حمل المشمش ونصف بارة عن كيل اللبن .. وهكذا .

والطريف ــ حسب ما روى الحسني ــ ان ضريبة باسم « العزبة » استوفيت في حماة عن كل شاب غير متزوج بلغت قيمتها ست بارات . وعند الزواج تدفع الفتاة البكر ــ ٦٠ ــ بارة والارملة اذا تزوجت تدفع ــ ٣٠ ــ بارة (الاقجة = اربع بارات)(١٧) .

وكانت القاعدة في دمشق الشام انه عند عقد نكاح بنت بكر ان تأخذ الدولة مائة وخمسة وعشرين درهماً ، عشرون منها تعطى للقاضي الحنفي ، ودرهم واحد للماذون الذي اجرى العقد ، واربعة للشهود ، اما المائة الباقية فكانت اما أن تحول للخاص السلطاني ، او لخاص أمير اللواء ، أو لاحد اصحاب التيمارات حسبما يحدد ذلك دفتر الطابو . اما في حالة الارملة او المطلقة فكان الرسم دون ذلك ويبلغ خمسة وسبعين درهما ، خمسة وعشرون منها توزع بالطريقة نفسها ، والباقي يحول اما للخاص أو لصاحب الزعامة أو للمستفيد من التيمار(١٨) .

ب ــ دراسة وثائقية لاحدى مناطق بلاد الشام في عهد الاقطاعية الحربية :

كانت بلاد الشام رسمياً ضمن مجموعة الاقاليم التي يجري حكمها على طريقة

نظام « التيمار » وهذا يعني ماليا أن واردات كل « لواء » تابع لاحدى ولايات بلاد الشام يجب تقسيمها بين :

- « البادیشاه » اي السلطان .
- « المير لواء » أو « المير ميران » أي حاكم المقاطعة .
- عدد كبير من أصحاب « التيمار » أو « الزعامت » .
- مؤسسات (وقفية) متنوعة .

وفي الدراسة التي قام بها الباحث الالماني «فهيتروت» بالاشتراك مع الفلسطيني كمال عبد الفتاح مسح مالي للمناطق المتاخمة للصحراء وكيفية ادارتها ماليا في أواخر القرن السادس عشر ، وفيما يلي مقتطفات وتلخيص لتلك الدراسة (١٩) .

- في منطقة الكرك والشوبك جنوبي شرقي الاردن « لم تكن اية قرية تدفع ضرائبها الى خاص البادیشاه كما لم تكن اية قرية ضمن اي تيمار او زعامت وكل الموارد من هذه المناطق كانت تدفع لـ « مير لواء الكرك والشوبك » .

- يعتقد أن الاعتراف الرسمي بـ « مير لواء الكرك والشوبك » نوع من الحل الوسط اتبعته (الدفترخانة) في حل المشكلة . فقد تم الحفاظ على صورة وهمية للحكم المباشر بواسطة منح لقب ، قد يكون أعطي لشيخ محلي اعترف به .

- تبع لواء تدمر في تلك الفترة ست وثلاثون وحدة مالية باستثناء قرية صدد وسكانها من المسيحيين فكانت ملكا للسلطان (خاص شاهي) ، وتعود واردات هذه القرى الى (خاص مير لواء تدمر) .

- كان تحصيل الضرائب من البدو أمرا غير مستقر وكان اصعب الصعب ،اضافة ضرائب على القبائل البدوية الى دخل اي صاحب زعامت او تيمار صغير . فلم تكن لدى اصحاب الزعامت والتيمار القوة الكافية لتحصيل مثل هذه الضرائب . كما أن الحكومة لم تحاول تعيين شيوخ البدو في مرتبة سباهي أو زعيم ، اذ لا يمكن الاعتماد عليهم كجند سباهية .

ـ من خلال دراسة الدفاتر المفصلة لعـام ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٦ م المحفوظة في ارشيف الطابو في انقرة يتبين ان كلا من اهالي المدن والبدو كانوا يدفعون ضرائب بصورة اقل من الريفيين وان الريف كان يتحمل العبء الاكبر من الضرائب « ٢٤٥٠» اقجة للعائلة الريفية مقابل /٥ر٩٣/ اقجة للعائلة في المدينة .

ـ وتبين الدراسة ان معظم العوائد (الضرائب) من لواء القدس دفعت للاوقاف ولم يكن للخاص السلطاني هنا الا حصة صغيرة جدا ، وواضح أن تلك العوائد تذهب للمؤسسات الدينية والتعليمية في القدس والخليـل . وعلى العكس مـن القدس فان معظم القرى في لواء صفد دفعت عوائدها للخاص السلطاني . اما لواء اللجون (منطقة حيفا) فليس للاوقاف فيه حصة البتة في حين ذهبت معظم العوائد لاصحاب الزعامت والتيمار ، ويلاحظ ان عوائد القرى المتجاورة كانت تذهب لاكثر من مستفيد من العوائد (السلطان ، الوقف ، أمير اللواء ، اصحاب الزعامت والتيمار) كما ان القرى التابعة لصاحب زعامة واحدة ليست بالضرورة متلاصقة بل كانت في الغـالب متفرقة ضمن أراضي الناحية أو عدة نواح . وهذا التوزيع بدا واضحا في لواءاللجون (حيفا) والقصد منه عدم السماح بتكوين مناطق نفوذ متصلة لاصحاب الزعامت هؤلاء احترازا من التمرد على السلطـة .

ـ فيما بعد جرى امتصاص اقطاعات التيمار ضمن املاك الدولة الميري واعطـي اصحابها تعويضا أو اجرا سنويا .

وحول عائدات الوالي المختلفة يقدم لنامخائيل الصباغ صاحب كتاب « تاريـخ الشيخ ضاهر العمر » صورة عن اصناف الضرائب والمغارم التي شكلت دخل والي عكا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (٢٠) على النحو الاتي :

اولا ـ مال التزام جبل لبنان وجبل عامل وبلاد صفد من المشايخ والامراء .

ثانيا ـ مال التزام الجمرك في المدن البحريـة صيدا وصور وعكـا على الوارد والصادر واهم الصادرات حينئذ القطن والسمسم .

ثالثا ــ مال الخراج على الاراضي وكان يؤخذ مقابل هذا ربع حاصلاتها .

رابعا ــ مال الجزية ويسميه الاتراك « مال الاعناق » وكان يسميه العرب في صدر الاسلام « مال الجوالي » وهو يؤخذ من اهل الذمة من اليهود والنصارى .

خامسا ــ مال « الباج » وهو رسم خفارة الطريق من الغرباء والتجار .

سادسا ــ مال « المغارم العمومية » التي يتقاضاها من جميع أهل الايالة والخصوصية التي يفرضها او يأخذها من بعض الافراد على سبيل الجزاء او على سبيل الاعانة .

سابعا ــ دخل بيت مال المسلمين واهم مافيه مخلفات من لاوريث له من اهل البلاد والجند والحجاج وابناء السبيل .

ثامنا ــ مال العوائد أو الهدايا من الاتباع المأمورين ومن الاغنياء والامراء والمشايخ وقناصل الافرنج وتجارهم الذين كانوا في الايالة بصفة مستأمنين ، فانه كان يتقاضى ذلك منهم كحق واجب عليهم . ورفض دفع هذا المال أو قطع هذه العوائد صعب ويعد اهانة او حطا من كرامة الوزير .

ج ــ الجيش العثماني :

تألف الجيش العثماني من ثلاثة اقسام رئيسية :

١ ــ **الجنود الاقطاعيون المعروفون بالسباهية** : اي الفرسان ، الذين منحوا اقطاعات التيمار مقابل تجهيزعدد من الجنود يتوقف عددهم تبعالسعة التيمار ومقدار وارداته . ومعنى ذلك أن المورد الاساسي للسباهية هو العائدات التي يجمعونها من الفلاحين المقيمين في تيمارهم (اقطاعهم) اضافة الى غنائم الحرب . وبعد انحطاط هذا النظام وتهرب السباهية من المسير الى الحرب اخذ السلاطين يعتمدون اكثر فاكثر على الانكشارية (٢١) .

ومع تطور أسلحة القتال أثبت هذا النظام فشله فلم يعد بالامكان احضار الفلاح

من ارضه وقذفه الى جبهة القتال دون ان يمر في ادوار طويلة معقدة من التمرين والتدريب . (٢٢) فكان هذا باعثا على الغائه ، واعتماد البديل ، وهو :

٢ ـ الانكشارية :

ابتكر سلاطين بني عثمان منذ عهد اورخان «القرن السابع عشر» ـ طريقة جديدة لبناء جيش جديد عن طريق استرقاق اطفال بلاد (دار الحرب) وتدجينهم في مؤسسات خاصة وتربيتهم للخدمة في المؤسسات المدنية والعسكرية . ومن هؤلاء الاطفال المصادرين (الارقاء) تكون الجيش الانكشاري ومعناه (يني تشري) أي النظام الجديد . وبهذا الجيش الانكشاري استطاع العثمانيون توسيع ممتلكاتهم وبناء امبراطورية عالمية . وهذه من الحالات النادرة في التاريخ حيث يقوم الحاكم بمصادرة الانسان كي يزوده بكفاءة معينة ويحدد له المستقبل ثم يحتكر هذه الكفاءة لمصلحته او مصلحة الجهاز الذي يشرف عليه . لقد صادر السلطان ، الانسان ودربه ودجنه كما يفعل بالحيوان دون أن يدع العاطفة تفسد عليه عمله وخططه(٢٣) .

وكان خيرة الشبان المصادرين، بمايعرفون بالدفشرمة، يدربون تدريبا خاصا في مدارس القصور السلطانية وبعد تخرجهم تسند اليهم المناصب العالية في العاصمة ومراكز الولايات اما الاكثرية المصادرة فكانوا يدربون جنودا في عداد الجيش الانكشاري . وقد اطلق عليهم اسم (قابي قول) ، اي عبيد السلطان .

عام /١٥٨٢/ بدأ مراد الثالث بالسماح لعدد كبير من الاشخاص للالتحاق بوجاق الانكشارية متخطيا النظم القديمة (نظام المصادرة والتدجين والتدريب) وهادفا الى السيطرة على الانكشارية بعد أن قوي نفوذها ، فأجهزت الانكشارية عليه . ثم جاء مراد الرابع فالغى نظام المصادرة (الدفشرمة) مما اضعف القوة المنتقاة المدربة داخل الانكشارية والاستعاضة عنهابقوى غير مدربة لاتخضع لنظام ولا تدين بالولاء الاالسلب والنهب (٢٤) .

٣ ـ الجند الخاص او المرتزقة :

وهم عساكر الولاة وحرسهم الخاص . وكانت نفقات هذا الجند تؤمن عادة اما

من واردات الخزينة السلطانية ، او بفرض الضرائب الاضافية ، او بمصادرة امـوال بعض فئات السكان والقيام بعمليات السلب والنهب .

وكان هؤلاء الجنود في غالبيتهم من حثالة المدن ومن الهاربين من الريف وشذاذ المرتزقة واللصوص الذين لا ينتمون الى اية فئة اجتماعية ، فهم معزولون عن مجتمع القرية الحرة ، وعن العلاقات الاقطاعية والتنظيمات الحرفية . ومع تفكك العـلاقات الاقطاعية ازداد عدد المرتزقة ، فعاثوا في الارض فسادا ودمارا .

د ـ القوى العسكرية العثمانية في بلاد الشام :

تنوعت القوى العسكرية في بلاد الشام في القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر وتحديدا أيام الحملة المصرية سنة /١٨٣٢/ . وانصب اهتمام الدولة العثمانية في البداية بالجنود الاقطاعيين المعروفين بالسباهية ، اي الفرسان ، الذين منحـوا اقطاعات التيمار او الزعامت ثم اولت اهتمامها للانكشارية الذين جمعوا من بـلاد الحرب عن طريق الخمس اولا ثم الدفشرمـة (المصادرة) ثانيا . ولكن بعد انتهـاء الفتوحات توقفت المصادرة وقل عدد المجندين عن هذا الطريق فاخذ قادة الجنـد في دمشق يقبلون في صفوفهم رجال العصابات وارباب الحرف والفلاحين حتى يتقووا بهم ويدعموا نفوذهم وعرف هؤلاء الجند الداخلون في سلك الانكشارية باسم الانكشارية المحلية تمييزا لها عن الانكشارية الاتيـة من استنبول .

وبهذا ظهرت في ولايات الشام ثلاث مجموعات رئيسـية « طوائف » للعسـكر وهي(٢٥) :

١ ـ القابي قول اي عبيد السلطان :

وهم انكشارية الدولة وكانوا جندا مشاة ، ندر أن اتصلوا بالاهالي ، وكانوا في غالبيتهم غرباء يقيمون في قلعة دمشق ، ويملكون مفاتيح ابوابها .

٢ ـ الانكشارية اليرلية او المحلية او البلدية :

وكانوا من الفرسان ، وهم من أبناء الشام . والكلمة التركية YER تعني محل اي العسكر المحليين .

وقد انضم الى الانكشارية عدد من أهل الحرف والصناعات للاستفادة من امتيازاتها ، واقام هؤلاء خارج قلعة دمشق في حي الميدان جنوب دمشق وفي حي ساروجة القريب من القلعة . وبسبب هذا الواقع حملت الانكشارية المحلية اليرلية (ينكرجية) صفتين متناقضتين :

آ ـ فهم بصفتهم جنودا في دولة اقطاعية عسكرية وورثي الانكشارية السابقين ، اتسموا بحب السيطرة والاستغلال واضطهاد الاخرين . وعاثوا في الارض فسادا ، وسرت اليهم عدوى الاستعلاء والاستبداد والطغيان ، وكانوا على اهل دمشق وفلاحيها حيثما حلوا ، حربا وبلاء وشرا مستطيرا .

ب ـ ولكنهم من جهة ثانية وبسبب ارتباطهم ـ رحما واقتصادا ، بالسكان المحليين وخوفا على امتيازاتهم المهددة من ممثلي السلطة المركزية ، وقفوا الى جانب سكان المدينة فيكثير من المحن لمقاومة القابي قول او الوالي او الجند الخاص .وبمعنى آخر وقفوا الى جانب العامة عندما كانوا ضعافا او مهددين من طوائف الجند الاخرى ولكنهم سرعان ما كانوا يتمردون على ابناء جلدتهم وينقلبون على حلفائهم المحليين عندما يكون لهم النصر على منافسيهم .وكان على العامة أن تاخذ هذا الواقع بالحسبان في تحديد تحركاتها .

٣ ـ الجند الخاص او المرتزقة :

وهم اخلاط من اقوام شتى استخدمهم الولاة لحراستهم ولمقاومة القابي قول احيانا والانكشارية اليرلية احيانا اخرى . وكذلك لمساعدة الولاة في حراسة الحج الشامي ، وهم على أنواع اهمها :

آ ــ اللاوند : وأصلهم بحارة ، وهم من أخلاط شتى عرفوا بالفساد والافساد وعندما حل السلطان تنظيمهم تفرقوا في الولايات ودخلوا في خدمة الولاة وأصحاب العصبيات .

ب ــ المغاربة : وهم من المشاة .

ج ــ التفنكجية (وهي مشتقة من تفنكة اي بندقية) وهم مشاة حاملو البنادق ومعظمهم من الموصل او بغداد .

د ــ الاكراد والتركمان : وهم فرسان ، وكثيرا ما اطلق عليهم اسم « الدالاتية »

ولنترك مخائيل الصباغ صاحب « كتاب تاريخ الشيخ ظاهر العمر » والمعاصر للاحداث يصف لنا حالة الجنود المرتزقة التي أسماها (عسكر الايالة) اي الولاية . كتب الصباغ :

(عسكر الايالة أخلاط من الارناؤوط والاكراد والتركمان ومن اهل بغداد او العراق) وهم الخيالة وكان المشاة غالبا من المغاربة من اهل تونس والجزائر وطرابلس ومصر والسودان وفيهم العبيد السود والمماليك البيض فكانوا يتالفون من طوائف مختلفة على اختلاف لغاتهمو بلادهم ويجتمعون الى وجاق او مطبخ خاص يتناولون فيه قوتهم ، واليه تنسب افرادهم وتوسم على زنودهم علامته او نيشانه . وكان لكل وجاق رئيس أو زعيم من أفراده يتكلم بلسانهم وله الكلمة النافذة فيهم وبيده زمام أمرهم لدى الوزير ، وهو يوزع عليهم الجامكية التي هي اعطيات الوزير ، ويقال له آغا الوجاق وبلوكباشي وشاويش . ومن حيث أنهم غرباء ومأجورون عند الوزير (الوالي) فلم يكن يهمهم امر البلاد ولا الاهالي ولذا لم يكونوا على شيء من حسن النظام العسكري والتربية ، ولم يكونوا من العيال الشريفة بل كانوا غالبا من الرعاع واهل العصابات والشقاوة ، فكان دأبهم الثقلة على الاهالي في ديارهم والتعدي عليهم ، وهم يحسبون ذلك غنيمة باردة بدون حرب ولا قتال . وقد أحلها لهم هذا سكوت الوزير ورضاه الصريح والحاجة والعادة ، ولهذا كان عسكر الدولة يحسب البلاء الاعظم على اصحاب

القرى والمزارع الذين لم يكن لهم قوة ان يدفعوا تعديهم عنهم . وهم يفعلون ذلك باسم الدولة العليا أو باسم الوزير نائب السلطان ولي النعم . ولهذا كان عسكر الدولة أو « الدالاتية » مكروها ومحتقرا حتى كان يضرب المثل بسفالتهم . مما لايزال دارجا الى اليوم بقولهم فلان نظير عسكر الدولة ملحة على ذيله اي لاذمة له ولا عهد ولا يذكر الخبز ولا الملح بفيه ، اي انه غدار لا امانة له .

اما الغزي فيذكر في كتابه « نهر الذهب في تاريخ حلب » اخبارا وافية عن الانكشارية اليرلية وهم من المرتزقة الدمشقية التي حكمت حلب فترة من الزمن . جاء في كتاب الغزي في حوادث /١٠١١/ مايلي : (٢٦) .

وفي ربيعها فتك ابراهيم باشا بالانكشارية الدمشقيين وكانوا قد استطالوا على فقراء حلب وافحشوا في ظلم الرعايا جاعلين وسيلة ذلك تحصيل الاموال السلطانية ، فيتوصلون الى اغراضهم الفاسدة حتى تزوجوا النساء في حلب وصارت لهم قرى واملاك . وكان من جملة اعمالهم الفظيعة انهم يعطون مال السلطنة عن القرية وياخذون من اهلها اضعافا مضاعفة ويبقى اهل القرية جميعا خدمة لهم ياخذون منهم جميع محاصيلهم ... وطغوا وبغوا وخافهم الكبير والصغير من اهل حلب واستولوا على اكثر قراها بحيث قلت الاموال السلطانية ، وصار أهل القرى كالارقاء لهم . ولما استحكم نصوح باشا (الوالي الجديد) من أمره واستعد لكبحهم اخذ في رفع أيديهم عن القرى واجلائهم الى بلادهم وحصل بينه وبينهم وقعة عظيمة . وكان مساعده عليهم حسين باشا حاكم كلز ففروا بين يديه هاربين الى حماه ثم جمعوا وحشدوا وجاؤوا الى كلز وحاصروها وخربوا ماحولها من القرى كالباب واعزاز وقرى حلب ونهبوا الاموال وهتكوا اعراض النساء وافتضت عدة ابكار . ودخل بعض أشقيائهم بلكز الحمام وفعلوا افاعيل الجاهلية وضربوا على حمص وحماه ضرائب من المال .. ثم عادوا الى دمشق ونهبوا قراها وعاثوا فسادا فيها ، وكان ذلك في سنة / ١٠١٢ ولما اتت سنة /١٠١٣ تفرقوا عن بعضهم لعجزهم وانقطع امرهم عن حلب وكفى الله المؤمنين القتال) .

وهناك معاصر آخر للاحداث هو حسن آغا العبد وصف لنا في تاريخه حالة

العساكر ووضعها المتردي أثناء حصار نابليون بونابرت لعكا بعد احتلال مصر عام /١٧٩٩/ . فالعساكر العثمانية الذاهبة لقتال نابليون انشغلت في صفد في النهب والسلب وعندما اصطدمت بقوة ضئيلة من الجيش الفرنسي سرعان ماولت الادبار تاركة وراءها أسلابها . وفيما يلي مقطع من وصف حسن آغا وبلغته (٢٧) لحالة تلك العساكر :

« وفي يوم الاثنين ختام شهر شوال طلع من الشام أيضا عسكر .. فمنهم فرقة توجهت الى صفد(١) غالبهم قبقول » فنهبوا اهل صفد ، وعملوا امورا مغايرة في البلد ، فاجت الهم فرقة من الكفرة(٢) فولوا هاربين منهم الى الشام وفاتوا أواعيهم »(٣) .

ويمضي حسن آغا العبد في وصف مظالم العساكر العثمانية ونهبها للفلاحين وتخريبها للقرى كتب في تاريخه عن احداث /١٧٩٩/ (٢٨) :

« وعندنا في الشام مشتغلين مع العساكر هلي (٤) في الشام بالخنايق (٥) والجروحة والفسوق مع بعضهم البعض . وطالت قعدتهم عندنا في الشام ، وكل يوم يدور العسكر على الضيع والبساتين حتى أكلت خيلهم الشعير ، واكلوا الفاكية (٦) هلي حولا (٧) الشام ، أحضروا الدالاتية الذين خربوا في جميع قرى الشام ، واكلوا مغلهم ،وحرقوا ابوابهم ، وصار منهم تعدي زايد من قتل وسلب وتشليح(٨) وغير ذلك » .

وعلى الرغم من مجيء العسكر من الشمال باتجاه دمشق فان الفوضى كانت ضاربة أطنابها والعسكر كما يروي حسن آغا العبد « ضرب جميع قرى الشام واكلوا زرعهم » وكانت غرارة القمح بخمسين قرش والشعير بثلاثين قرش فصارت غرارة القمح بماية قرش والشعير بستين قرش .

---

١ ــ صفد مدينة تقع على جبال الجليل في شمالي فلسطين .
٢ ــ يريد من الفرنسيين جنود نابليون .
٣ ــ اي تركوا متاعهم .
٤ ــ اي الذين .
٥ ــ مفردها (خناقة) وتعني المشاجرة .
٦ ــ الفاكهة .
٧ ــ اي ، التي حول الشام .
٨ ــ اي التعرية وسلب الثياب وما في الثياب .

ذكرنا أن انحطاط النظام الاقطاعي العثماني (نظام التيمار والزعامت) دفع الدولة للاعتماد على الانكشارية . وهذه الانكشارية تحولت مع الزمن ومع الغاء نظام الدفشرية (المصادرة) الى انكشارية ذات جذور محلية . وبعد امتصاص الاقطاعات (تيمار) ضمن املاك الدولة ، اعطي اصحابها تعويضا او اجرا سنويا ، وبدات القوات الاقطاعية والانكشارية المتمركزة محليا (السباهية واليرلية) بالاستيطان في المدن السورية منذ أواخر القرن السادس عشر ، وفي القرن السابع عشر (٢٩) .

كانت الحكومة العثمانية تعتمد بصورة خاصة على المجموعات شبه العسكرية في دمشق لضمان مرور قوافل الحج السنوية في المنطقة ، في طريقها الى مكة والمدينة ، دون حوادث . وبحلول الربع الثاني من القرن السابع عشر احرزت مجموعات دمشق شبه العسكرية مركزا محليا قويا ، حتى ان الحكومة العثمانية بدات بتعيين رؤساء هذه المجموعات أمراء للحج . ومع انه جرت محاولات لاحقة من الحكومة لاعادة السيطرة المركزية على الحج ، فان العلاقات الحسنة مع المجموعات الدمشقية شبه العسكرية ، بقيت عنصرا اساسيا للسيطرة العثمانية على المناطق الواقعة جنوب دمشق ، وهو ممر قوافل الحج. ولهذا السبب منح الزعماء او اغوات دمشق السيطرة على اراض ، وقرى او مناطق من المدينة مقابل تنظيم الامن واداء واجبات الشرطة وجمع الضرائب ، ومهام الحماية . كما انهم منحوا سلطات قانونية على اراضي زراعة الحبوب التي كانت تشكل خلفية من المناطق الريفية محيطة بدمشق مثل: جوار حمص وحماه ، وعلى منحدرات جبال لبنان الشرقية ، وفي البقاع والسهول الواقعة جنوب وجنوب شرقي دمشق التي تعرف عامة باسم حوران ، وكانت الاراضي الممنوحة لهم معفاة من الضرائب، كما كان فائض مزروعاتها مكافأة للأغوات على الخدمات التي يقدمونها(٣٠) .

هـ ــ زوال القوى العسكرية الاقطاعية في النصف الاول من القرن التاسع عشر:

وهكذا نرى ان الجيش العثماني باقسامه المختلفة اصبح عامل خراب الدولة العثمانية . وتحول الى آلة فساد وفوضى ، ومع قلة خبرة عناصره في شؤون القتال كثرت حوادث تعدياتهم على اموال الناس وارواحهم واعراضهم . فقد تحولوا من (ضباط امن ودفاع) الى (آلات شر وفساد) .

وعلى الرغم من تطور الاسلحة وفنون القتال ، التي هيأتها الثورة الصناعية في اوروبا احتفظ الانكشاريون باسلحتهم وانظمتهم القديمة المستمدة من ظروف العصور الوسطى الاقطاعية . وامسوا بذلك مرآة التخلف الاقطاعي واداته في تثبيت العلاقات الاقطاعية الشرقية السائدة آنذاك .

وبسبب اختلال الاوضاع الاجتماعية وتمثيلهم للنظام الاجتماعي الاقطاعي الشرقي المتصدع ومنشئهم التاريخي المأسوي تضاءل ارتباط الانكشارية بثكناتهم ، وصار الكثيرون منهم لا يذهبون الى الثكنات الا لاستلام المرتبات — التي كانت تسمى باسم (العلوفات) .

وكثيرا ما باعوا تذاكر علوفاتهم الى الراغبين من الناس ، كما تباع الاسهم والسندات . وامسوا لا يجتمعون الا لاعلان العصيان والمطالبة بزيادة العلوفات والعطايا ، أو تنصيب وعزل وال أو قتله عن طريق الدسائس والمؤامرات . وعند اعلان الحرب لا تجد منهم الا اعدادا ضئيلة سرعان ما كانت تولي الادبار من أول اصطدام مع العدو ، ثم يعودون الى المدن ، لينشروا الشائعات عن بطولاتهم وانتصاراتهم الموهومة .

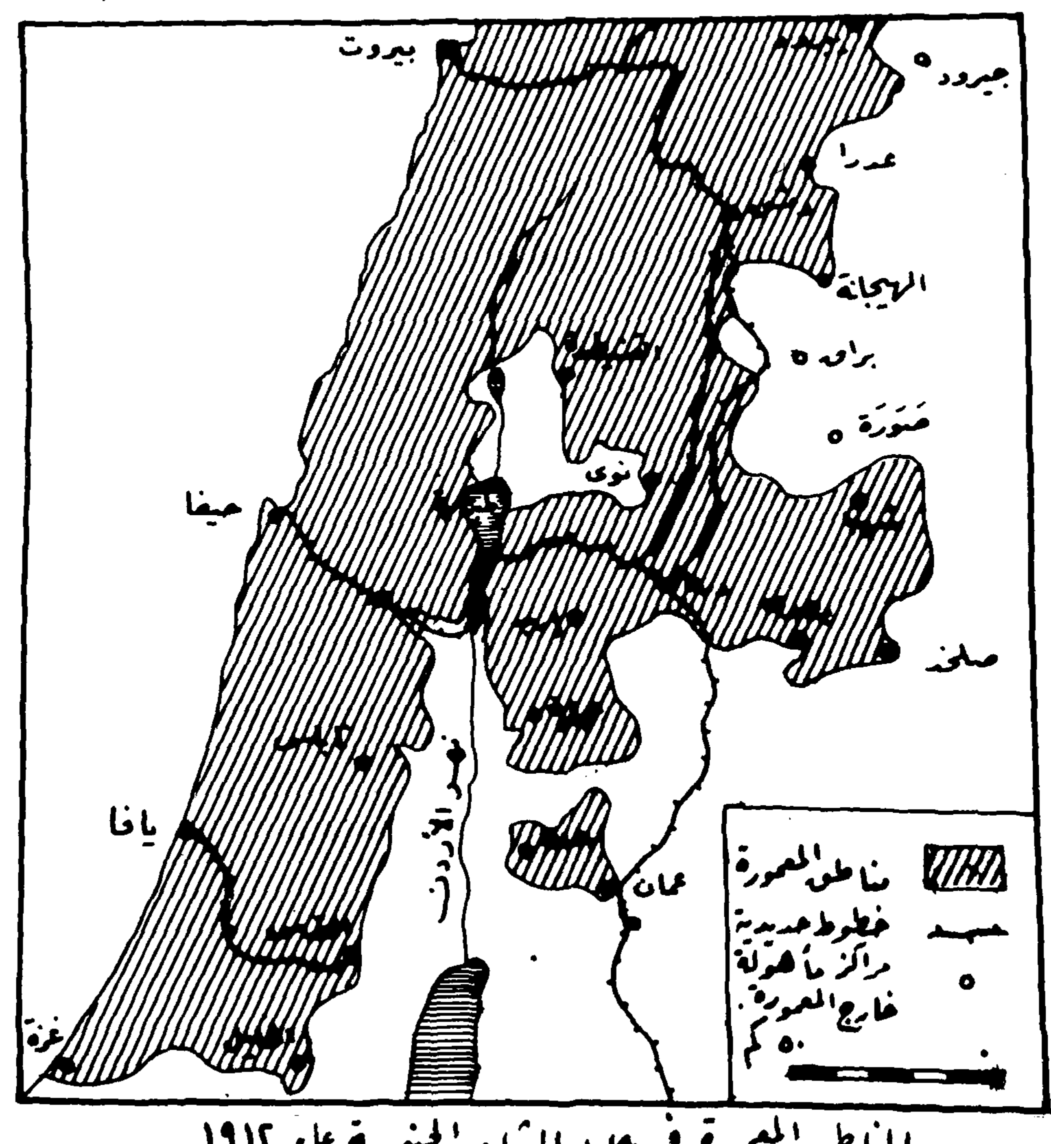
تغلغل الانكشاريون في الحرف والنقابات واحتكروا كثيرا من المهن ، مما أدى الى فساد الحرف وتأخرها . وقد فشلت جهود الدولة لقطع العلاقة بين العسكريين والحرف . وتحولت القوى العسكرية الى كتل ترث احتكار المهن والحرف وتتمتع بامتيازات كثيرة وتتناول جرايات ثابتة ومحددة ومعينة . فكان أن قامت العامة والعلماء — كما سنرى — لمقاومتهم والحد من نفوذهم والقضاء على بؤر الفساد ومصدر الفتنة واحد أسباب التخلف والفوضى والتأخر .

وفي أواخر القرن السابع عشر عانت الدولة العثمانية ازمة خطيرة جدا اضطربت لها جميع ميادين الحياة الاجتماعية. فقد تدهور الاقتصاد ودب الفساد في جهاز الدولة وخرجت الاقاليم عن طاعة الحكومة المركزية ، وفقد الجيش المتفسخ قدرته القتالية، وانحطت الثقافة .

وبعد قيام الثورة البورجوازية الفرنسية بهجومها الظافر ، سعى السلطان لاقامة حلف ضد هجمات البورجوازية الفرنسية مع بريطانيا وروسيا القيصرية . وبدات محاولات الاصلاح تسير سيرا حثيثا ، ولكنها سرعان ما اصيبت بنكسة خطيرة في عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ — ١٨٠٧) اذ ثار الانكشارية على حركة الاصلاح

وخلعوا السلطـان وقتلوه .

وبدا واضحا ان حركة الاصلاح لن يكتب لها النجاح الا بابادة قوى الانكشاريـة احد مصادر الفساد والفوضى . وهذا ما قام به السلطان محمود الثانـي في / ١٥ / حزيران / ١٨٢٦ / اذ قام هذا السلطان بحركة جريئـة ادت الى ابادة الانكشاريـة ومحوهم وحل فرق الدراويش التابعة لهم المعروفة بالبكتاشية . وبالقضاء على الانكشارية في العاصمة أولا ومن ثم الولايات زال أحـد مصادر الفوضى والفســاد في الدولة العثمانية ، التي تلقت في هذه الفترة ضربات من الغرب في البلقان ومن الشرق مع فتح ابراهيم باشا لسورية ووصوله الى مشارف العاصمة عام ١٨٣١ .



المناطق المعمورة في بلاد الشام الجنوبية عام ١٩١٢

الفصل الثاني

اشكال ملكية الارض

لم يؤد احتلال الاتراك العثمانيين للبلاد العربية في القرن السادس عشر الى تغييرات جذرية في العلاقات الاقتصادية ــ الاجتماعية السائدة . كما ان نظام ملكية الارض لم تجر عليه تبدلات جوهرية . وفي القرن التاسع عشر وجدت اربعة اصناف رئيسية للتملك هي :

١ ــ الملكية المشاعية للارض :

هذه الاراضي هي من بقايا عهد المشاعية البدائية في عصور ما قبل التاريخ ، واستمرت رغم انف الزمن الذي عرف نظام الرق والنظام الاقطاعي . ولكن الفتح العثماني لبلاد الشام ادى الى تراجع ملكية القرى ، بسبب محاولة السلطات العثمانية إلحاق المشاعية الفلاحية العربية بنظام الاستغلال الاقطاعي . فمشاعية القرية الفلاحية كانت مثقلة بالضرائب الاقطاعية وبأعمال السخرة وغيرها من الاعباء الاقطاعية ، هذه السياسة أدت الى تراجع المشاعية الفلاحية والقبلية الى المناطق النائية . لقد ذكر فولتي عام /١٧٨٤/ عند وصفه لاحد شيوخ القبيلة في جنوب فلسطين ، العديد من العادات القديمة الموروثة من الماضي . وكان الشيخ يعنى بنفسه بالمواشي ويعمل يدا بيد مع افراد عائلته ، ويقوم بغير ذلك من الاعمال المشابهة في الوقت الذي كان / ٥٠٠ / خيال تحت أمرته(٣٢) .

ويذكر الدكتور عبد العزيز الدوري ان اهل القرى في السودان ومصر كانوا في العصر العباسي يتوازعون الاراضي الزراعية فيما بينهم حسب امكانياتهم المادية وقدرتهم على الزرع . وكانوا يتعاونون في دفع الضريبة من جهة ، وفي تخصيص نسبة من المال او المحصول لاغراضهم المشتركة . وكانت مثل هذه القرى تسعى الى ان يمثلها احد ابنائها في جباية الضريبة بعد ان يوزعوا المبلغ المطلوب فيما بينهم(٣٣) .

ان وجود هذه القرى في العصر العباسي، وفيما بعد، ما هو الا استمرار للمشاعية الفلاحية القديمة او بعث جديد لها ، فذكرياتها السابقة كانت لا تزال عالقة في اذهان الفلاحين . ولكن هذه المشاعية الفلاحية في العصر العباسي تختلف، في بعض الامور، عن المشاعية الفلاحية في العهود السابقة . فالمشاعيات الفلاحية ، في العصر العباسي

وما بعده ، ظهرت في ظل دولة ذات طبيعة اقطاعية ، تجبي الضرائب وتمارس حكما طبقيا ، في حين عاشت المشاعية الفلاحية في عصور ما قبل التاريخ دون ان تعرف ما هي الدولة التي ظهرت كأداة قمع في يد الاسياد بظهور نظام الرق ومن ثم الاقطاعي .

ان ما نريد التاكيد عليه هنا هو ان الارض المشاع كانت دائما عرضة للاستيلاء عليها من مراكز القوى العصبية والسلطة ، وبخاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين عندما اسبغ قانون الاراضي وقانون تسجيل الاراضي الصفة المقدسة على الملكية الخاصة ، وامست الفئات المتنفذة لا تخشى المصادرة وتسعى لتسجيل الارض باسمها واستغلال الارض مع الفلاحين العاملين القائمين عليها .

٢ ــ الاراضي الخاصة او الملك الصرف :

وهذه تنقسم بدورها الى صنفين :

آ ــ الاراضي الخاصة المملوكة من الاقطاعيين من امراء وارستقراطية واصحاب عصبيات وكبار رجال الدولة وبعض اغنياء المدن .

ب ــ الاراضي الفلاحية وهي ملك الفلاحين الاغنياء والمتوسطين وبعض الفقراء .

وكانت مساحات هذه الاراضي تضيق وتتسع تبعا لنسبة القوى المتصارعة على امتلاك الارض فتارة تزداد أملاك الفلاحين وطورا تتسع املاك الاقطاعية ، ومرة ثالثة تتقلص هذه وتلك ، لحساب الاراضي الاميرية او الموقوفة .

وبموجب قانون الاراضي العثماني الصادر عام ١٨٥٨ (٢٤) قسمت الارض المملوكة التي (يتصرف بها صاحبها كيف شاء) الى اربعة اقسام :

ــ العرصات : وهي الاراضي التي افرزت من الاراضي الاميرية وملكت تملكا صحيحا ليتصرف بها اصحابها كما يشاؤون .

— الاراضي العشرية : التي وزعت وملكت ايام الفتح على الفاتحين .
— الاراضي الخراجية : وهي الارض التي تقرر ابقاؤها في ايدي اهاليها الاصليين غير المسلمين .

لقد كانت حيازة الارض تجري بطرق مختلفة اهمها : شراء الارض بأسعار رخيصة واحيانا بالحيلة من الفلاحين الذين حل بهم الخراب ، احياء الارض الموات ، او الاستيلاء بالقوة او عن طريق الخداع على أراضي الفلاحين او المالكين الآخرين .

ففي خططه اورد محمد كرد علي الاساليب المتعددة لاستيلاء الأسر الغنية المتنفذة في دمشق على القرى ، ومن هذه الاساليب(٣٥) :

١ — تنازل مالكي الارض لأرباب النفوذ ليحموهم من ظلم الحكام والمرابين واخذوا ثمنها بضع عباءات وغلايين أو قفة من البن أو رطلا من الدخان او اقة من الحلواء المعروفة بالبقلاوة .

٢ — تسجيل الاسماء في دائرة التمليك باسم المتنفذين، لما شرعت الدولة العثمانية عام /١٨٨٢/ بتسجيل الاملاك على أصحابها في دائرة التمليك خاف كثير من الفلاحين من ظلم عمال الحكومة ومن وضع الرسوم فقبلوا بتسجيلها باسم « أرباب المكانة في البلاد » .

٣ — وبعض الفلاحين خاف من تسجيل اسمه في النفوس عندما ظهرت دائرة النفوس فتخلوا « للاعيان » عن أراضيهم .

٤ — ومن اهل القرى من خرجوا عن ملك اراضيهم لانه وجد فيها قتيل . وكانت العادة أن يلزم أهل الارض بدية من يقتل فيها أو تفرض غرامة ثقيلة عليهم . وكثير من هؤلاء ترك أرضه مخافة ان يلزموا بما لا قبل لهم بأدائه .

٥ — ومن القرى ما خرج عن ملك اهله — كما وقع لاهل مرج بن عامر في القرن

التاسع عشر لما عجزوا عن دفع الاموال الاميرية فباعته الحكومة التركية بثمن بخس لرجل من تجار بيروت (آل سرسق) مقابل رشوة قبضها الوالي .

٦ — ومن المرابين من اخذوا قرى كثيرة في الديار الشامية لانهم كانوا لا يشفقون على الفلاح باشتطاطهم في اخذ الربا الفاحش ، الذي بلغ من الخريف الى البيدر (حزيران) مبلغ المئة بمئة وثلاثين ، وأحيانا بمئة وخمسين . ولذلك فان الفلاح كان مجبرا اخيرا على بيع ارضه للمرابي لسداد ديونه ..

وساق المحبي قصة احد المرابين في القرن الحادي عشر الهجري وهو برهان الدين ابن محمد البهنسي الدمشقي المشهور « بشقلبها » من ذوي البيوت بدمشق الذي خرج منهم علماء وفضلاء .. نشأ في مبدأ امره يبيع الحرير بحانوت قرب باب من أبواب جامع بني امية . ثم نما حاله واثرى .. وبعد ان ذكر المحبي الوظائف التي تقلدها قال : « وبقي يعامل الفلاحين واشتُهر بالربا وبلغ فيه مبلغا ليس وراءه غاية ، وكان اذا استحق ماله على الدائن يغلظ عليه في طلبه ويقول لا سبيل الا ان تعطيني مالي أو « تشقلبه » وهذه عبارة جارية على ألسن العوام ، يقولون شقلب ماله أي رابح فيه مرة ثانية فكان منهم من يعطيه ماله ومنهم من يرابحه وبذلك عرف « بشقلبها » وجمع كنوزا نفيسة واملاكا وعقارات » (٣٦) .

وروى لنا الاستاذ منيب اليوسفي(٣٧) من ابناء معرة النعمان كيف حول آل الحراكي في معرة النعمان من افراد عاديين الى اقطاعيين ملكوا حوالي / ٥٠ / قرية في قضاء المعرة . قال اليوسفي :

ان الاقطاع نشأ عندنا من لا شيء . كان لخان شيخون مزرعة اسمها : معراتا ، ظهر فيها رجل فقير امتهن المزهر وضرب الشيش وهو محمد المعراتي . وبعد ان ضاقت به الدنيا في قضاء المعرة سار الى استنبول سيرا على الاقدام . وكان يتقن الزعبرة والخلط . في استنبول استطاع ان يكسب ثقة السلطان عبد الحميد واصبح من مشايخ الطرق المشهورين ذوي الباع والطول . كان يتسقط اخبار اهل الشام ثم يزعم امام عبد الحميد انه يرى منامات . وبعد مدة تصدق المنامات مما جعل السلطان

عبد الحميد يعتقد بكراماته فاعطاه دفترا مختوما صفحاته بيضاء يمكن بواسطته منح لقب الباشوية لمن يشاء . ان محمد المعراتي هذا هو المعروف باسم « ابو الهدى الصيادي » وبعد أن لمع نجمه في استنبول تزوج بنت نورس الحراكي من المعرة. وذهب نورس الحراكي الى استنبول فقيرا وعاد بلقب « باشا » ففرض سلطته على المعرة . وهذا ما مكنه من تسجيل خمسين قرية باسمه عن طريق الاحتيال والتزوير وشهادات الزور والشراء الاسمي أو الشراء بمبالغ زهيدة جدا ، واخذ نورس باشا الحراكي يستخدم المجرمين زلما عنده لارهاب الفلاحين

ولا بد من الاشارة مرة أخرى الى أن التطورات الجارية في الدولة العثمانية والتأثيرات الخارجية والدخول في السوق الراسمالية المالية وغزو الافكار البورجوازية الليبرالية ، والعوامل الداخلية السائرة في طريق تطور الانتاج السلعي المعد للسوق وارتفاع أسعار المنتجات الزراعية دفعت المتنفذين للاندفاع بصورة جنونية لتسجيل الاراضي وتحويلها الى ملكية خاصة اقطاعية . وهذا أسهم بشكل واضح في رسم تخوم واضحة لطبقة اقطاعية اخذت في التكون في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، وبدت ملامحها واضحة في مطالع القرن العشرين .

هذه الطبقة الاقطاعية الجديدة تختلف كثيرا عن الطبقة الاقطاعية العثمانية السابقة التي تحدثنا عنها ، والتي لم تكن تملك الارض وانما تتصرف بالقسم الاكبر من انتاجها عن طريق جمع الضرائب وفرض الغرامات والمصادرات والسلب والنهب .

وقبل منتصف القرن التاسع عشر كان الاستثمار الاقطاعي من قبل الجهاز الاداري العثماني الحاكم يتم في معظمه بصورة غير مباشرة عن طريق الضرائب ، التي يتمتع بخيراتها الجهاز الاداري العثماني الاقطاعي . أما الشكل الجديد للاستثمار الاقطاعي فيتصف بالاستثمار المباشر للفلاحين من طبقة كبار الملاك المتكونة حديثا مع بقاء الشكل السابق للاستثمار الاقطاعي القائم على جمع الضرائب من أراضي الميري ، واملاك الدولة التي كان الملاك الجدد يزحفون رويدا رويدا لتحويلها الى ملكية خاصة ، وهذا ما سنعالجه في فصل لاحق .

٣ ـ الاراضي الوقفيـة :

اختلف علماء الشرع في تعريف الوقف . فذهب الامام الاعظم ابو حنيفة على انـه حبس العين على حكم ملك الواقف والتصدق بالمنفعـة ، كالعاريـة فلا يلزم ولا يزول ملكه الى أن يحكم به حاكم أو يعلق بموته بأن يقول اذا مت فقد وقفت(٣٨) .

وحسب شهادة المقريزي كانت الارض الوقفية زمن المماليك صنفين(٣٩) :

المجموعة الاولى : جعلت وقفا محبسا على الجوامع والمدارس والفرانـك وعلـى جهات البر ، وعلى ذراري واقفي تلك الارض وعتقائهم .

المجموعة الثانية : الاحباس ، وهذا الصنف يجري فيه اراض بيد قوم يأكلونهـا ، أما عن قيامهم بمصالح بمسجد أو جامع ، وما يكون لهم في مقابله عمل .

وتقسم الاوقاف باعتبار الانتفاع بها الى :

ـ مسقفات ، وهي الاراضي المنشأ عليها الابنية والمعدة للبناء .

ـ مستغلات ، وهي الاراضي التي يستفاد منها بالزراعة وغرس الاشجار(٣٩) .

وقد قسمت الاوقاف بموجب المادة الرابعة من « قانون الاراضـي العثمانـي » الصادر سنة ١٨٥٨ باعتبار ماهيتها ، الى صحيحـة وغـير صحيحـة . فالاوقاف الصحيحة ما كانت ملكا صرفا فوقفـه أصحابه ، وفقا للمنهج الشرعي وجرت علـيه نصوص الشريعة . وهي المعروفة بالاوقاف الذرية (الاهلية) التي يعود الانتفاع بهـا لافراد العائلة التي أوقفها أصابها ، والاوقاف غير الصحيحة هي اراض اميرية رصـد ريعها او مرتباتها من السلاطين أو باذنهم لجهة خيرية ، مع بقاء رقبتها عائدة لبيت المال مثل الاراضي الاميرية الصرف وهي المعروفة بالاوقاف الخيرية . وفي كلتا الحالتين لم تكن هذه الاراضي الاميرية تخضع لضرائب خاصة بها فهي معفاة من الضرائب،وهذا مما يعطيها ويعطي القائمين عليها امتيازا خاصا .

اما حالة الفلاحين المعاشية في الاراضي الموقوفة فلم تكن افضل من حالة زملائهم الذين كانوا يعملون في الاقطاعيات . وكانت ــ كما يذكر الدكتور عبدالعزيز الدوري ــ ــ بعض الشخصيات الدينية المتنفذة تتولى اراضي الوقوف(٤٠) . وكان شيئا مألوفا ان عددا كبيرا من العائلات الميسورة ورثت هذا « الغنى » عن طريق توليها لأراضي الاوقاف .

خلال العهد العثماني نشطت عملية انتقال ملكية الاراضي والعقارات الى ملكية وقفية سواء كانت خيرية او ذرية (اهلية) ، ومع كثرة المصادرة وبخاصة في القرن الثامن عشر لجأ المتنفذون من الحكام واصحاب الثروة الى نقل اموالهم وما استغلوه ونهبوه من جهد المنتجين في المدينة والريف الى مؤسسات الاوقاف وبخاصة الذرية (الاهلية) منها واناطوا مهمة الاشراف والادارة باقربائهم فضمنوا بذلك موردا ثابتا لهم ولذراريهم من بعدهم وحافظوا بذلك على الثروة التي نهبوها في الاصل بحكم موقعهم في جهاز السلطة الاقطاعية . وهكذا فعملية الوقف الذري (الاهلي) هي شكل من اشكال الاستغلال الاقطاعي ووسيلة لجأ اليها المتنفذون لحماية « ثرواتهم » في صراعهم بعضهم مع البعض الآخر ومع السلطة المركزية حول ملكية الارض وضمان الثروة. وعلى الرغم من ذلك فان موارد الاوقاف استخدمت لاعاشة عدد كبير من السكان ارتبطوا إما بخدماتها ، او باقتسام مواردها . واحيانا كان يوظف الفائض من واردات الاوقاف الخيرية في شراء عقارات باسم الوقف .

ان عملية تحويل اراضي الميري ، والاملاك الاخرى الى ملكيات وقفية ذرية (اهلية) هي كما ذكرنا وجه آخر للاستثمار الاقطاعي العثماني ووسيلة للتحايل على الدولة الاقطاعية والهروب من دفع الضرائب والالتزامات الاخرى ، لان اراضي الاوقاف كانت معفاة من الضرائب .

والوقف الاهلي لم يكن مقتصرا على منطقة معينة محصورة بل كثيرا ما امتد الى مقاطعات بعيدة منفصلة بعضها عن بعض ، مما يذكرنا باملاك الاقطاعي الاوروبي المتناثرة والمبعثرة في عدد من الاقاليم .

فالوقف الرضواني مثلا ــ وهو أشهر وقف اهلي (ذري) في غزة ، وكان قد وقفه الامير رضوان كان له مقاطعات حتى داخل مدينة حلب ، وفي ضواحيها ، كما تثبت ذلك الوثائق الشرعية ، التي حققها الدكتور عبد الكريم رافق (٤١) .

وكنموذج لهذه الاوقاف ننشر فيما يلي مقتطفات من كتاب وقف الوزير لالامصطفى باشا بتاريخ /٩٧٤ هـ/ والذي حكمت المحكمة الشرعية بدمشق بصحته ووجوب العمل بمضمونه بموجب اعلامها الشرعي المؤرخ في /٥ شعبان سنة /١٣٤٠ هـ الموافق /٢ نيسان سنة /١٩٢٢ م المصدق من محكمة التميز .. وقد قررت دائرة الاوقاف الاسلامية بدمشق طبعه في عام / ١٩٢٤ وتوزيعه على الدوائر ذات العلاقة .

« جميع القرية العامرة المعروفة ب (القنيطرة) المذكورة اعلاه المشتملة على معتمل ومعطل ، وسهل ووعر ، واقاصي واداني ، وبيادر ومروج ، ومصايف ومشاتي ، وحيرو دمنة عامرة برسم سكنى فلاحيها ومنافع وحقوق شرعية . ويحدها من ...

وجميع المزرعة المعروفة ب « المنصورة تحد اهالي القنيطرة على سبيل الفلاحة وبالغرب منها المشتملة على الصرمان ، اربنبة ، نعران ، رادية ، قنعبة ، مزيرعة ، والطاحون التابعة للمزيرعة ، العسلية ، ثم قرى من حوران ناحية الجيدور..وداريا.

وجميع الخان الجديد ارضا وبناء وعمارة وماء ، الكائن ظاهر دمشق المحروسة خارج باب الفرج بمحلة عين علي وحمام الكحال وعدد من اسواق دمشق وبساتينها وفي بعلبك والشويفات وضواحي بيروت ونواحي صفد . ومعظم الطواحين في بلاد الشام الجنوبية والكرك » .

ويفصل الكتاب شروط صرف واردات الاوقاف وتوزيع غلة الوقف في حياة الواقف وترميم الموقوفات ثم توزيع غلة الوقف بعد الواقف ، وهي كما يلي :

« ــ ثم من بعده أدام اللـه تعالى سعده شرط أن يصرف اولا وظيفة المتولي والدراهم المخصصة المشروطة في كل يوم لاولاد ، وانسال حضرة الواقف الكرام الموضحة اولا في هذا الكتاب . ثم المصارف والوظائف ، المعينة فيه بشرط حضرة

الواقف . وما فضل بعد ذلك يصرف جميع ذلك الفاضل من ريع الاوقاف المذكورة لاولاده الموجودين يومئذ ولمن عساه يحدث له من الاولاد الذكور والاناث ماداموا عازبات غير متزوجات . فاذا تزوجن سقط استحقاقهن وعادت حصتهن لاخوتهن ».

٤ ـ أراضي الدولة أو الاملاك الاميرية أو الميري :

وهي الارض التي تعود رقبتها لبيت المال والتي كان السلطان نفسه مالكها الاعلى والمتصرف بأمورها . ومع أن الاتراك ادخلوا نظام الاقطاعية العسكرية الى الاناضول والبلقان ، الا انهم لم يتمكنوا من ادخال الاقطاعية العسكرية في الاقطار العربية عدا ولاية حلب وبعض أجزاء ولاية الموصل (٤٢) .

ولكن هذا لا يعني ان السلطة العثمانية الممثلة في السلطان والولاة وكبار الموظفين والقادة العسكريين لم يمسوا الملكية الزراعية الاقطاعية او الفلاحية في بلاد الشام ، بل انهم سعوا في مختلف العهود للاستيلاء على الاراضي وتحويلها الى ملك للسلطان أو للدولة الاقطاعية . .

وان ما نريد التاكيد عليه هنا هو ان الاقطاعات العسكرية بصنفيها التيمار والزعامة والتي كانت تعهد الى الفرسان السباهية وتعفى من الضرائب مقابل الخدمة العسكرية والاشتراك في الحرب لم تعرف على نطاق واسع في البلاد العربية الا في ولايتي حلب والموصل . وكان الشائع في البلاد العربية منح الاقطاعات لحكام الولايات والألوية مقابل دفع مبلغ للسلطان وقدر محدد من الضرائب للخزينة(٤٣) وهذا المنح لم يكن يعني تملك الارض وانما تفويضهم بحق جباية الاموال ، على أن تبقى الاراضي تحت تصرف الفلاحين شريطة ان يدفعوا الضرائب المختلفة الى صاحب الاقطاع او وكيله .

ونظرا لاهمية اراضي الميري سنتوسع في تتبع تطورها في الفترة السابقة لوضع قانون الاراضي (١٨٥٨) .

اراضي الميري (٤٤) :

هي الاراضي الزراعية التي تكون ملكية رقبتها عائدة للدولة ، على الرغم من

بقائها في حيازة المتسلم لها مادام ملتزما بشروط العمل بها ، وهذا مايخول مستغليها حق استخدام الفلاحين للانتفاع بها لحسابه الشخصي بينما تكتفي الدولة بممارسة سلطتها على أراضي الميري بطريق غير مباشرة ، بواسطة متسلميها من الاقطاعيين والملتزمين والمقاطعجية ومحصلي الضرائب .

وبهذا المفهوم تصبح اراضي الميري محصورة في الاملاك السلطانية الخاصة واقطاعات الفرسان المحاربين « السباهية » المعروفة بالتيمار والزعامات اضافة الى بقية الاراضي التي يشرف عليها موظفو الدولة مقابل اجورهم ، ويتعهد الملتزمون بتحصيل ضرائبها نيابة عن الادارة المركزية للدولة ، وهذا ما يبرز اراضي الميري في شكل ملكيات عامة للدولة تتضمن المزارع والمراعي والغابات وغيرها .

أما تسمية هذه الاراضي « بالميري » ، الذي ظلت تعرف به ، فيعود الى كونها كانت في حقيقة الامر تحت تصرف الامير الحاكم ، الممثل في شخص السلطان العثماني المؤتمن شرعا على الثروة العامة التي تمول الخزينة العامة وذلك تميزا لها عن ودائع الخزينة الخاصة بالسلطان .

ونلاحظ نوعا من التداخل والتشابك بين الاراضي الميرية والاراضي الخاصة بسبب العلاقة المترابطة بين حق الدولة في ملكية الارض ، كشكل من أشكال اسلوب الانتاج الاسيوي ، وبين حق التصرف الذي تترك الارض بموجبه لاصحابها الاولين باعتبارها أرضا خراجية . وقد نتج عن هذا التشابك غموض في تحديد أراضي الميري ادى الى صراع بين مختلف الجهات الساعية للحصول على النصيب الاوفر من عائدات الارض ، وبرز ذلك بوضوح في المناطق الجبلية ، التي لم تعرف نظام الميري بشكله المطلق كما عرفته الاراضي السهلية ، التي يصعب على ساكنيها الدفاع عن انفسهم بسهولة كما هو الامر في الجبال. ولهذا نرى أن حقوق التصرف الخاص بالارض انتشر في المناطق الجبلية وكان شبه معدوم في المناطق السهلية .

وفي السهول ايضا تعرضت مساحات اراضي الميري الى المد والجزر . فعندما يكون الحكام اقوياء تتسع اراضي الميري نحو البادية من جهة وباتجاه الجبال من

ناحية اخرى . وكثيرا ما جرى ضم الملكيات العقارية التابعة لكبار الملاك او للمؤسسات الوقفية . ومثال على ذلك ان السلطان سليمان القانوني حول مساحات واسعة من نظام العقارات الخاصة الى احكام الميري على اثر ثورة جان بردي الغزالي والى الشام عام /١٥٢١/ .

وفي حال ضعف السلطة المركزية تتراجع مساحة اراضي الميري سواء من جهة الجبال غربا او البادية شرقا . ومن ناحية اخرى يسعى المنتفعون المتنفذون من حكام الدرجة الثانية والثالثة الى تحويل اراضي الميري لمنفعتهم عن طريق جعلها اوقافا ذرية يستغلونها لمنفعتهم ومنفعةذريتهم دون تقديم التزامات ماليةاو خدمات عسكرية وهذه الحيل القانونية في تحويل ملكية الميري العامة الى ملكية خاصة (وقف ذري) ادت في نهاية الامر في منتصف القرن التاسع عشر الى تحول ثلاثة ارباع الاراضي الزراعية في الدولة العثمانية الى اراضي تعود ملكيتها للاوقاف الذرية اي الى ملكية خاصة تعود للمتنفذين وذريتهم .

ذكرنا قبل قليل ان اراضي الميري امتدت عموما في المناطق السهلية الممتدة بين المناطق الساحلية الجبلية (من جبال الامانوس شمالا حتى جبال الخليل جنوبا) ومناطق البادية ذات المناخ الصحراوي ومعنى ذلك مناخيا ان امطار أراضي الميري كانت تتراوح بين /٢٠٠ الى ٣٠٠ /مم ، مما يساعد على زراعة الحبوب ، التي اشتهرت بها هذه الاراضي والتي استخدم قسم منها للاستهلاك المحلي وصدر الباقي الى الخارج . كما عرفت أراضي الميريفيالاماكن الاكثر رطوبة مزارع الزيتون الواسعة

يتضح مما سبق ان الطبيعة المناخية والجغرافية أولا ونسبة القوى الاجتماعية والسياسية المتصارعة ثانيا والارث التاريخي لاسلوب الانتاج الاسيوي من جهة ثالثة هي التي تحكمت في توسع اراضي الميري في السهول الواقعة بين الجبال الساحلية والبادية . وان مناعة المناطق الجبلية وتضاريسها الصعبة وقوة العصبية القبلية والمحلية والتجميع الطائفي هي التي منعت انتشار الميري في المناطق الجبلية فساد عوضا عنه نظام المقاطعجي ، المتمثل في ملتزم المنطقة وهو صلة الوصل بين السلطة

العثمانية الاقطاعية في مركز الولاية وبين الفلاحين دافعي الضرائب والغرامات ومادام المقاطعجي كان يدفع للجهاز الاقطاعي العثماني مايفرض عليه من أموال فان الدولة لم تكن ترى ضرورة في تطبيق نظام الزعامات التيمار في تلك المناطق الجبلية ما دامت العصبيات المحلية تقدم خدماتها مقابل حصولها على جزء من الغنيمة . وعندما كانت العصبية المحلية والزعامة المقاطعجية تمتنع او تتاخر في ارسال الاموال الى مركز الولاية في دمشق او عكا وغيرها فان العساكر العثمانية سرعان ما كانت تهاجم تلك المناطق أو تفرض عليها الحصار . وبهذا المعنى فالصراع هنا ليس بين الفلاحين والجهاز الاقطاعي العثماني بل بين مستثمري الفلاحين من المقاطعجية وجهاز الادارة العثمانية في مركز الولاية . وغالبا ماكان الفلاحون يقفون على الحياد أو يقفون الى جانب زعيم المنطقة او العشيرة . وفي جميع الاحوال كانوا يدفعون الثمن باهظا . فاذا تمكن المقاطعجي الملتزم من صد القوات العثمانية فرض الضرائب الاضافية لتغطية نفقات القتال . واذا انتصرت القوات العثمانية فهنا الطامة الكبرى ، اذ ان العساكر العثمانية تعيث فسادا وتدميرا ونهبا وسلبا وتقتيلا في الفلاحين الواقعين بين حجري الرحى ، المقاطعجي الملتزم والوالي العثماني وعساكره .

اما اسباب انكماش ملكيات الميري في البادية فتعود الى طبيعة الاقتصاد الرعوي وكثرة الاضطرابات وشيوع الفوضى وتكرر غارات العربان وتنقلات العشائر البدوية والمناخ الجاف . وسنعالج في فصل البدو العلاقة بين البادية والمعمورة . وعندما كان يضطرب حبل الامن في البادية ويلجأ الفلاحون الى المدن هربا من كثرة الضرائب يسود الخراب المناطق المعمورة سابقا . وهذا ماأشار اليه قنصل البندقية في حلب واحد الرحالة الفرنسيين ، الذي كتب أن اغلب جهات حلب بالذات تكاد تخلو من سكانها بحيث ان المسافر لا يجد في كل هذه الجهات سوى المنازل المهدمة والاحواض الغابرة والمزارع المهجورة . وبذلك لم يبق من /٣٢٠٠/ قرية التي كانت مثبتة في سجلات الدفتردار المخصصة لضرائب الميري والمتعلقة بباشليك حلب في أوائل العهد العثماني سوى /٤٠٠/ قرية ظل المحصلون يتعهدون بجمع ضرائبها في آواخر القرن الثامن عشر (٤٥) .

٥ ـ اساليب الاستغلال الاقطاعي في اراضي الميري :

قبل صدور قانون الاراضي العثماني عام /١٨٥٨/ مرت اراضي الميري في العهد العثماني بثلاث مراحل من الاستثمار الاقطاعي اختلفت في شكلها واساليب ادارتهـا مع بقاء جوهر الاستغلال الاقطاعي للفلاحين واحدا لم يتغير الا بصورة سطحية .هذه المراحل الثلاث هي :

١ ـ مرحلة الاقطاعات الحربية :

في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر . وهي المعروفة بنظام التيمار والزعامات . فقد خصصت اراضي الميري لاعالة الفرسان السباهية كما أشرنا .

ومع الزمن اخذهذا النموذج الاقطاعي المرتبطبالمهام الحربية والمعتمد على فرسان السباهية المستثمرين لأراضي الميري بالانحلال والتراجع . فاضافة الى فشل النظام الحربي القائم على نظام التيمار والزعامات . كانت عملية استغلال الفلاحين العاملين في اراضي الميري تجري من قبل فرسان السباهية وقادتهم بلا رحمة او شفقة . ممـا ادى الى قيام سلسلة من الخصومات والمنازعات بين مستثمري أراضي الميري حول كيفية تقسيم الغنيمة . فشاعت الفوضى واخذ الخراب يعم اراضي الميري . وهنـا سعت الدولة العثمانية الى تشجيع نظام الالتزام المعروف سابقا قبل العهد العثماني.

٢ ـ مرحلة نظام الالتزام :

الذي اخذت به الدولة العثمانية في القرن السابع عشر واخذ يحل بالتدريج محل النظام الاقطاعي العسكري السابق . وطريقة الالتزام معروفة وتقوم على بيـع ضرائب منطقة معينة للمتنفذين من كبار الموظفين أو أصحاب العصبية المحلية . وعلى هذا النحو تضمن الطبقة الحاكمة في العاصمة ومراكز الولايات مدخولا ثابتا معلوما وتطلق يد الملتزم في جمع اضعاف مادفعه للجهاز الاقطاعي الحاكم .

ولا بدمن الاشارة الى أن نظام الالتزام لم يلغ في أول العهد العثماني بل بقيمعترفا به خصوصا في المناطق الجبلية . ومن جهة ثانية بقي النظام الاقطاعي العسكري سائدا

في عدد من المناطق حتى القرن التاسع عشر .

ان نظام الالتزام حقق فوائد جلى للطبقة الاقطاعية الحاكمة المتمثلة في الجهاز الاداري العثماني . وقد ضمن هذا النظام موارد ثابتة للخزينة ، التي كانت في الواقع بيت مال هذه الطبقة الحاكمة ابتداء من الدفتردار واغا الانكشارية والوالي وانتهاء بالسلطان وحاشيته .

والواقع ان نظام الالتزام ادى الى تكون طبقة اجتماعية ـ او بالاصح فئة اجتماعية اغتنت من وراء جمع الضرائب وسعت لاستغلال الفلاحين واستنزاف قواهم لصالحها وحاولت الاستيلاء على أراضي الميري عن طريق الوقف الذري وغيره من الوسائل ، مستغلة ضعف السلطة الاقطاعية في المركز وتفككها وتفسخها . هذه الطبقة ـ الفئة ـ من الملتزمين أو المقاطعجية دخلت في صراع فيما بينها وفق مبدأ السمك الكبير يأكل السمك الصغير والملتزم القوي ينهش الملتزم الضعيف . وهذا ادى الى احتدام الصراع بين الذئاب المتصارعة على نهش لحوم المواشي البشرية من الفلاحين المنتجين . وكان ذلك من جملة اسباب كثيرة دفعت الدولة الى تطبيق نموذج جديد للاستثمار الاقطاعي تمثل بالمالكانة .

٣ ـ نظام المالكانة :

ساد هذا النظام في أوائل القرن الثامن عشر واستمر حتى منتصف القرن التاسع عشر وتحديدا حتى صدور قانون الاراضي عام /١٨٥٨/ . والواقع ان السلطة الاقطاعية لجأت هنا الى أسلوبين :

الاول : أسلوب جمع الضرائب مباشرة من الفلاحين . والثاني اسلوب المالكانة ، اي نظام التزام الارض مدى حياة الملتزم ، ومعنى ذلك ان الملتزم لم يعد ملتزما لمدة محددة من الزمن ، بل أمسى ملتزما مدى الحياة ، اي ان اسلوب المالكانة اقترب كثيرا من نظام الملكية الشخصية بما في ذلك حق ارث المالكانة .

ويرجع نفوذ آل العظم في بلاد الشام في أواسط القرن الثامن عشر الى حصولهم

على أراضي وسط سورية على شكل مالكانة . مما مكنهم من جمع ثروات طائلة ، ومن يملك الثروة يملك النفوذ والجاه والسلطة .

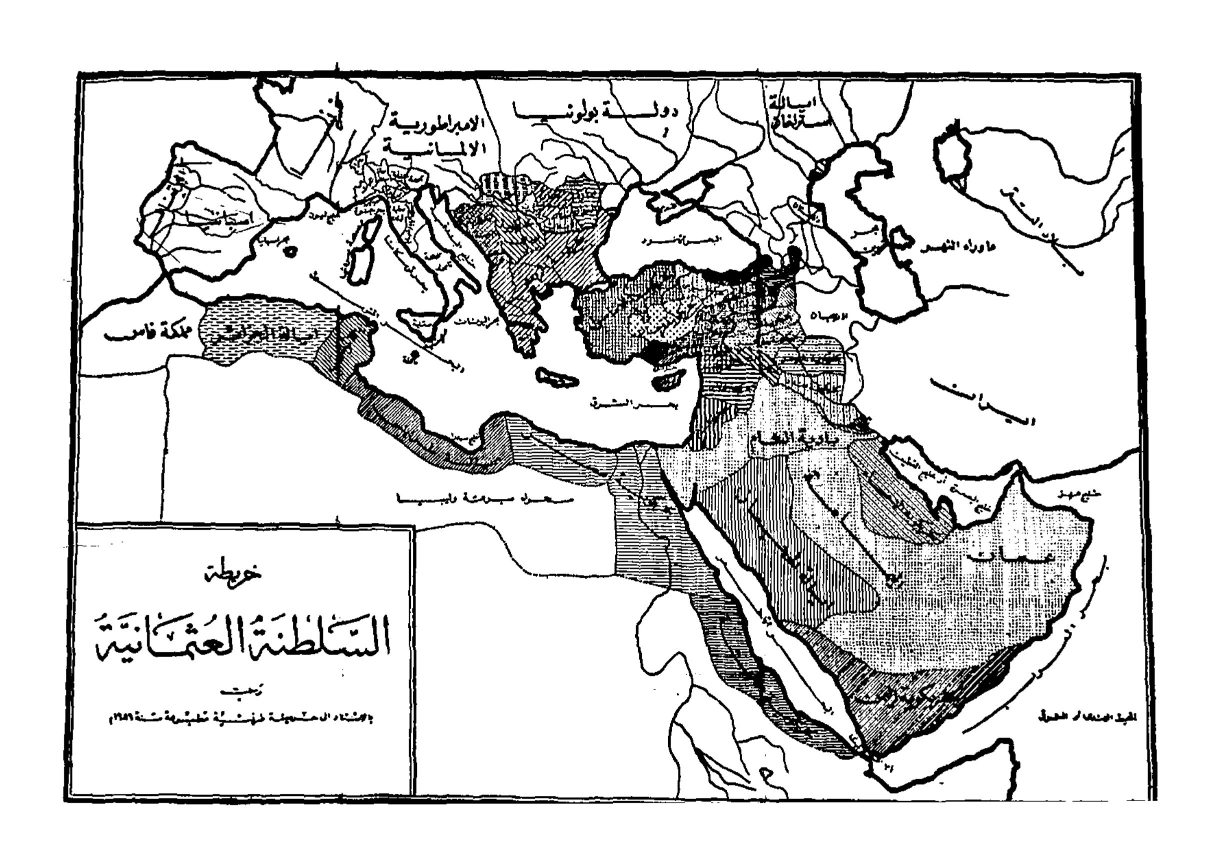
ولابد هنا من القول أن نظام المالكانة كان خطوة متقدمة الى الامام في مضمار تحول النظام الاقطاعي العثماني نحو الملكية الشخصية . كما أن هذا النموذج الاقطاعـي للاستثمار ادى نسبيا الى تخفيف أعباء الفلاحين بالقياس الى نظام الالتزام السنوي. اذ أن صاحب المالكانة لم يكن كالملتزم مضطرا الى الاسراع في ابتزاز أموال الفـلاحين قبل ان يحل متنفذ آخر محله . فقد كان مطمئنا الى أن الاموال ستصله وليس هنالك من منافس له في استثمار الفلاحين .

ومع حلول القرن التاسع عشر وبفضل عوامل داخلية وخارجية ، سنتعرض لها، اخذت اراضي الميري تتحول الى ملكية خاصة كرستها سلسلة من القوانين صدرت في خمسينات القرن التاسع عشر .



الفصل الثالث

الصراع بين القوى الاقطاعيّة الحاكمة قبل القرن التاسع عشر للسّيطرة على الأرض واستثمار فلاحيها



١ ـ التمردات داخل الجهاز الاقطاعي العثماني :

لم تكن تنظيمات السلطان سليم في دمشق شاملة وعميقة . فقد كان هدفها ايجاد المال اللازم للدولة وتوطيد دعائم الحكم العثماني في الارياف . وفرض العثمانيون على السكان ضريبتين فرض أشرفي على الشخص ، وضريبة القمح على كل حارة في دمشق. وزاد في تضجر الناس من العثمانيين هجوم كثير من عساكرهم على البيوت للسكن فيها وطلب القاضي العثماني محاسبة نظار الاوقاف على وارداتهم ، وقد امرالسلطان سليم ببناء جامع وتكية عند قبر محي الدين بن عربي في الصالحية ، ومن شأن ذلك ان يكسبه عطف كثير من رجال الدين وخاصة الصوفية في دمشق . وسمحالعثمانيون لاصحاب الاقطاعات بالبقاء على اقطاعاتهم ، ولارباب الوظائف المدنية بالبقاء فيوظائفهم واتخذ السلطان سليم اجراءات تنظيمية خارج دمشق ، فأبقى الامراء المحليين الذين ايدوه ، وازال من السلطة الذين عارضوه .

عين جان بردي الغزالي واليا على دمشق (١٥١٧ــ١٥٢٠) مكافاة له على مساعدة العثمانيين ابان الفتح .وقدحاز الغزالي على ثقة العثمانيين فقاد حملة ضد أمير البقاع البدوي ناصر الدين بن الحنش وقتله عام /١٥١٨/ وبطش ببعض الامراء المحليين في نابلس وغيرها . وشن عدة حملات ضد بدو حوران وعجلون ، الذين تعرضوالقافلة الحج الشامي (٤٧) .

وقد استغل الغزالي انتصاراته هذه لتعميق نفوذه في دمشق . وما أن علم بموت السلطان سليم في أيلول /١٥٢٠/ حتى أعلن الثورة على العثمانيين ، الذين سرعان ما هزموا الغزالي ، واستعادوا دمشق في شباط /١٥٢١/ وكان من آثار ذلك ازدياد نفوذ الانكشارية في دمشق .

وهكذا نرى أن التمرد على العثمانيين ظهر في أول الامر من داخل الجهاز الحاكم المتصارع على أقتسام الغنائم . وبعد تمرد الغزالي ظهر التمرد على العثمانيين ، أول الامر ، في صفوف العساكر في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، ثم انتشربين الامراء المحليين في القرن السابع عشر ، وبلغ القواعد الشعبية ، في الريف والمدن ،

بانحطاط السلطة العثمانية في القرن الثامن عشر . وفي حين بلغ تمرد العساكر أوجه في مناطق الاطراف (اليمن وشمال افريقيا) ومصر والعراق ، فان تمرد العساكر في بلاد الشام كان اقل عنفا واقتصر على الابتزاز الاقتصادي وتسرب العناصر المحلية الى فرق الانكشارية (٤٨) .

فلم يبلغ تمرد انكشارية دمشق حد العنف ، الذي تميزت به ثورات العساكر في القاهرة ، كما لم تظهر بينهم زعامات عسكرية تطمح الى الحكم ، على غرار ماجرى في بغداد . وقد حاول انكشارية دمشق اغناء انفسهم بابتزاز الاموال خاصة من الفلاحين (٤٩) .

في أواخر القرن السادس عشر وسع انكشارية دمشق دائرة نفوذهم الى ولاية حلب ، حيث كانت تذهب طائفة منهم كل عام للخدمة ، واحيانا لفرض خدمتها ، في تحصيل اموال الميري من قرى الولاية . واستفاد انكشارية دمشق من دعوة الدولة لهم لقتال الثائرين في شمالي حلب والمعروفين بالجلالية . وكان هؤلاء الانكشارية اشد وطأة على الفلاحين من الاخرين . وقد مارسوا كثيرا من الظلم وابتزاز الاموال حتى ضجت الناس منهم . واضطر ولاة حلب لقتالهم واخراجهم من الولاية بالقوة ، بمساعدة علي باشا جانبلاط ، الذي حكمت اسرته كلس وحلب . ومن هنا العداء بين علي باشا جانبلاط وانكشارية دمشق (٥٠) .

٢ ـ فخر الدين المعني الثاني :

استغل ضعف الدولة العثمانية ، الى جانب العساكر ، عدد من الامراء المحليين وبعض الكتل ذات النفوذ ، وبخاصة في جبل لبنان ، للثورة على العثمانيين او لتعميق نفوذهم المحلي . وكان السلطان سليم قد أقر امراء جبل لبنان (ماعدا التنوخيين الموالين للمماليك) على مناطقهم . وفي الربع الاول من القرن التاسع عشر ثار زعيمان محليان ، هما فخر الدين المعني الثاني امير الشوف في جبل لبنان ، وعلي باشا جانبلاط الزعيم الكردي في منطقة حلب ـ كلس . ولكن الدولة قضت عليهما ، فتلاشى نفوذ الاسرة الجانبلاطية في منطقة حلب وانتقلت الى جبل لبنان فيما بعد . أما فخر

الدين المعني الثاني فقد وسع نفوذه حتى شمل بيروت وطرابلس وكسروان والبقاع وبانياس وعجلون وصفد ، فطغى على آل حرفوش في البقاع وآل سيفافي طـرابلس وكسروان . ورضيت الدولة العثمانية ، أول الامر ، عن توسع فخر الدين لانه تغلب على الامراء الصغار الذين كانوا يثورون بين الحين والحين ويتاخرون في دفـع الصرة (وهي الاموال الاميرية) . ولمواجهة خطر ولاة دمشق اقام فخر الدين عيونا ، اي وكلاء له في استنبول لرعاية مصالحه . كما انه جند اضافة الى اتباعه من الدروز والقيسية (موارنة ودروز) ، جيشا من السكبان المرتزقة ، الذين كرهوا الامتيازات المتعددة التي حصل عليها الانكشارية القابي قول ، وارادوا مشاركتهم فيها فالتحقوا بالثائرين على السلطة المركزية للحصول على نصيب من الغنائم (٥١) وكانوا معروفين بجشعهم وفظاظتهم وجنوحهم الى النهب والمطالبة بزيادة اجورهم والعصيان في كل فرصـة سانحـة (٥٢) .

عقـد فخر الـدين الثاني مع آل مديتشي حكـام توسكانا الايطالية معاهدتين (١٦٠٨ ـ ١٦٠٩) تجاريتين ، وسعى لادخال مظاهر الحضارة التي شهدها فيأوروبا وحصن القلاع في منطقته وشجع زراعة الزيتون والكرمة وتجارة الحرير التي كانت مزدهرة في منطقة الشوف . ويقول المهندس سانتي سنة /١٦١٤/ عن بلاد فخـر الدين انها غنية بالحرير والزيت والقطن والعسل والشمع والقمح والحبوب والكرمة، وكل ما يشتهيه الانسان من أصناف المآكل .

ومع ان سياسة فخر الدين المعني الثاني اتسمت بالمداهنة والاعتدال . الا ان الدولة قضت في النهاية عليه ووقع أسيرا وسيق الى استنبول حيث قتل عام /١٦٣٥
لم تكن نهاية فخر الدين نهاية حكم المعنيين في جبل لبنان ، إذ بقي هؤلاء يحكمون حتى /١٦٩٧/ ولكن القضاء على فخر الدين أضعف الاسرة المعنية واضعف بالتالي امارة جبل لبنان . واهم ما يذكر عن فخر الدين اتباعه سياسة التسامح تجاهالمذاهب المختلفة . ونتيجة لسياسة التسامح هذه حدث تمازج بين السكان ، وانتقل كثير من الموارنة الى جبل لبنان الجنوبي ، وادى هذا ، بصورة غير مباشرة ، اضافة الـى عوامل اخرى ، في أواسط القرن التاسع عشر ، الى الاضطرابات المذهبية المعروفـة

في جبل لبنان التي بدات ، في الاصل ، بثورات الفلاحين ، من مختلف المذاهب ، ضد الاقطاعيين الذين كان معظمهم من الدروز في لبنان الجنوبي . ولكن وجد ، في الداخل والخارج من استغل هذه الثورات ، وصرفها عن غرضها في التحرر من الاقطاع ،وهذا ماسنعالجه فيما بعد .

٣ - العصبيات المحلية وصراعاتها الداخلية وصراعها ومع الجهاز العثماني لتقاسم الغنائم :

كانت ولاية الشام قبل /١٦٦٠/ حين تاسست ولاية صيدا ، تضم سنجق صيدا (مع بيروت) وتشرف بالتالي على امراء جبل لبنان . كما كانت تمتد جنوبا حتى العريش ، وشرقا حتى مناطق البادية ، حيث سنجق تدمر . وهكذا ضمت اقليات مختلفة ، خاصة في جبل لبنان ، وقوى بدوية في المناطق الداخلية .

اهتم ولاة دمشق بأمرين اساسيين في علاقاتهم بالامراء المحليين في ولا يتهم : أولا فرض سلطتهم عليهم ، وثانيا جمع مال الميري منهم . ورأينا في دراسة اراضي الميري ان السلطات العثمانية استعانت بزعماء العصبيات المحليةفي المناطق الجبلية في تحصيل الضرائب . وكان الملتزمون من اصحاب العصبيات الدينية او القبلية مثل المعنيين وآل حرفوش ، وآل حنش ، وآل فروخ ، وآل فريخ وآل صراباي وقانصوه الغزاوي وغيرهم (٥٤) . وكثيرا ما كان الصراع يحتدم بين والي دمشق وبين هؤلاء الملتزمين (المقاطعجية) عندما يرفض هؤلاء دفع المال المترتب عليهم ومحاولتهم الاستئثار بالغنيمة وكانت الدولة العثمانية تسعى دائما لاشعال نار القتال بين الامراء واصحاب العصبيات لضربهم ببعضهم فيسهل عليها امر جباية الاموال ووصولها الى خزينة السلطة الاقطاعية .

اما في شمالي بلاد الشام فقد حدثت في اواخر القرن السادس عشر واوائل القرن السابع عشر ، عدة اضطرابات اثارها متمردون محليون شمالي حلب . وليس حدوث هذه الاضطرابات في هذه المنطقة والفترة بالذات بالامر الغريب . فقد كانت تسكن منطقة الحدود ، بين بلاد الشام والاناضول ، اقوام واقليات مختلفة يعود اصل

بعضها الى الفترة التي كانت هذه المنطقة تعج بالثغور . وقد ساعدت جغرافية المنطقة الجبلية على حماية هذه الاقوام والاقليات وتشجيع غيرها على اللجوء اليها . وكانت اقوام هذه المنطقة تستغل فرصة ضعف السلطة العثمانية ، التي تشرف عليها ،لتثور وكثيرا ماوجد المغامرون الطامعون بالسلطة في هذه الاقوام مرتعا خصبا لاعلان عصيانهم

واشتهر بين الثائرين ، في هذه الفترة ، حسين باشا الذي ثار على الدولة في بلاد الكرمان ، وكان سابقا واليا على الحبش ، وعبد الحليم اليازجي الذي اعتمد على جيش من السكبان ، وتحصن في قلعة الرها ، واخوه حسن . وقد استخدمت عساكر حلب ودمشق في قتال هؤلاء الثائرين الذين كثيرا ما كانوا يتحالفون مع بعضهم لمقاومة الحملات العثمانية ضد هم . وكان هذا من الاسباب التي جعلت عساكر دمشق تمد نفوذها الى ولاية حلب .

وظهر في مطلع القرن السابع عشر ، في منطقة حلب ، افراد ثائرون من اسرة جانبلاط . وكانت هذه الاسرة كردية الاصل تنتسب الى جان بولاد (ومعناه النفس الفولاذية) الذي حور اسمه الى جانبلاط(٥٥) .

٤ ــ اسعد باشا العظم (١٧٤٣ ــ ١٧٥٧) نموذج الحاكم العثماني المستثمر لجهود الفلاحين وحرفيي المدينة :

خلف سليمان باشا في ولاية الشام ابن اخيه اسعد باشا بن اسماعيل العظم ، الذي استمر حكمه من ١٧٤٣ هـ الى ١٧٥٧ هـ وهي اطول مدة يتولاها وال على الشام في العهد العثماني وهو من اشهر ولاة الاسرة العظمية ، وقد ولي امور حماة مدة من الزمن وجمع ثروة طائلة فيها ، ثم عين واليا على دمشق في ظروف صعبة تميزت بمايلي:

١ ــ مصادرة العثمانيين املاك عمه سليمان باشا وتنكيلهم بنسائه واقاربه حتى يقروا بما خبأه سليمان باشا من الثروة في السقوف والدهاليز وجدران القصور . وتظاهر اسعد باشا بعدم الاكتراث لهذه المصادرة والاهانة التي لحقت بحريم عمه(٥٦) .

٢ ــ ازدياد نفوذ وتسلط الانكشارية المحلية (اليرلية) بعد انتصارهم على الفرق

العسكرية الاخرى واستيلائهم على ابواب دمشق وقلعتها . وزاد من اعتدادهم بسلطتهم انهم قالوا : « لو جاءنا عشر باشاوات ومعهم السلطان ما حسبنا لهم حساب ولشرطنا ذنبهم بالطبنجات »(٥٧) .

٣ ـ ترسخ نفوذ دفتر دار دمشق فتحي الدفتري المدعوم من الكزلار آغا في استانبول والمتحالف منذ ايام سليمان باشا مع الانكشارية اليرلية لمقاومة نفوذ آل العظم والوصول الى منصب الوالي .

وعندما عين اسعد باشا العظم كانت بطانة فتحي الدفتري قابضة على ناصية الامور في دمشق وهم : « متشاهرون بالفساد والفسوق وشرب الخمور وهتك الحرمات(٥٨) ويصف البديري الدفتردار بانه « كان ظلوما غشوما بغيضا لاهل الشام ، يريد لهم الجور والظلم ، لايراعي الكبار ولا الصغار ، الا ناس من الاشرار ، وهم من حزب الشيطان ، قد اتخذهم عدة لكل عدوان(٥٩) . وهذا الجو افسح بالطبع مجالا رحبا لازدهار التزرب (الاعتداء على الناس ونهب وسلب ما يملكون) في صفوف اليرلية الانكشارية واعاثتهم في الارض فسادا وخرابا .

وعندما قدم اسعد باشا الى دمشق اضطر الى السكوت والرضوخ للانكشارية (اليرلية) وللدفتر دار فتحي الذي نظم عملية مصادرة اموال سليمان باشا . وبسبب ضعف اسعد باشا في البدء احتقرته اليرلية المسيطرة واطلقوا عليه اسم « سعدية خانم » او « سعدية قاضيين » .

ولكن تريث اسعد باشا لم يدم طويلا . اذ استغل استياء العامة من جشع فتحي الدفتري وسلوك اليرلية المتحالفة مع فتحي واراد ان يضرب العامة بهم حتى يتمكن من ازاحتهم وتم له ماأراد .

ولاقامة التوازن بين القوى العسكرية بصورة افضل طلب اسعد باشا من السلطان اعادة وجاق (فرقة) القابي قول المطرودة من دمشق عام ١٧٤٠ الى القلعة و « دخلت بموكب عظيم ، سرت اناسا واكمدت اناسا » وقويت كما يقول البديري

« دولة القبقول في دمشق وبرموا اللفات ورجعت دولتهم احسن مما كانت »(٦٠) .

بعد أن اصبحت تحت امرة اسعد باشا قوى كافية من الدالاتية والقابي قول وبعد أن ضعفت اليرلية حلفاء الدفتردار فتحي ، توجه اسعد باشا اليه وتمكن بسهولة من استدراجه الى قصره وقتله ومصادرة امواله واموال اعوانه واضطهادهم واسترضاء العامة بقسم من الاموال المصادرة(٦١) .

ان اعتماد اسعد باشا على لعبة توازن القوى العسكرية يظهر واضحا من تقربه مرة ثانية من زعماء انكشارية الشام ، بعد أن زال خطرهم ، وأمسى الاعتماد النسبي عليهم ضروريا للوقوف في وجه تمرد الدالاتية أو القابي قول .

بعد أن استتب الامر لاسعد باشا في ولاية الشام وبعد ان رشا رجال السلطة في استنبول وضمن وصول فرمان الولاية سنويا له شرع في جمع الثروة بمختلف الوسائل من الريف والمدينة عن طريق الضرائب والقتل والسلب والمصادرة واخذ الرشوة وغير ذلك . وكان من جملة الوسائل ، التي استغلها اسعد باشا للاثراء تجارة الحبوب . كما استغل القحط بسبب الجراد وغلاء الاسعار بسبب احتكار التجار وملأ خزائنه بالمال . ومع ان العامة ومن ورائها العلماء ايدت في البدء اسعد باشا في القضاء على الفوضى والاشقياء وتسلط فتحي الدفتري واعوانه ، الا ان الباشا انقلب عليها ، شانه شان كل باشا ، وتحالف مع بائعي القمح ومع شيخ الطحانة ، واتى بالقمح الخاص به من املاكه في حماه وباعه في الشام على السعر الواقع اي المرتفع بسبب الاحتكار . وعندما قدم الى دمشق القمح الجديد من موسم ١٧٤٧ هبط سعر رطل الخبز بدمشق من ستة مصاري الى خمسة مصاري ، وبعد يومين نزل الى ثلاثة مصاري . وقالت العامة : « يا رعية قد انعم عليكم رب البرية ، رطل الخبز بثلاثة مصاري »(٦٢) . ولندع البديري يصف لنا ما تم من أمر الخبز وسياسة تجار الحبوب وتحالفهم مع السلطة . قال البديري : « وثاني يوم اشتغل البرطيل والرشوة للمتسلم موسى كيخية وغيره من اهل الظلم ، فحالا سمعوا مناديا ينادي لا احد يبيع رطل الخبز بأقل من اربعة مصاري » أي ان بائعي القمح ومحتكريه بالتعاون مع شيخ

الطحانة واسعد باشا ، الراغب في « ان يبيع قمحه » بسعر مرتفع تحالفوا لابقاء السعر مرتفعا عن طريق استخدام سلطة الدولة . ولم يتجاسر احد على بيع القمح باقل من ذلك الا خفية خوفا من العقاب . ويقول البديري : « وقد ضاق الامر على الفقراء والمساكين ، وكان كل من تحرك من العامة ربطوه بحبل طويل ، وجروه اما الى العذاب واما الى القتل وسلب المال والعرض . والامر لله العلي الكبير »(٦٣) .

ومعنى ذلك ان العامة تحركت في عام ١٧٤٧ ضد الغلاء وضد المحافظة على اسعار القمح المرتفعة لصالح الباشا وشيخ الطحانة وبائعي القمح على الرغم من توفر القمح وازدياد العرض ، المؤدي الى رخص القمح . ولكن السلطة الاقطاعية الاستبدادية في عاصمة ولاية الشام استخدمت اشنع وسائل التعذيب واحط الاساليب قذارة لتمنع العامة من التحرك والاحتجاج على غلاء خبزها .

ان مشكلة الغلاء واحتكار الحبوب والتلاعب بالرغيف كانت الشغل الشاغل للعامة المنهكة المعذبة البائسة وهي التي كانت تدفع الثمن في كل مرة ، في سنوات القحط ترتفع اسعار الحبوب ، ومع مجيء الجراد ترتفع اسعار الحبوب ، وعندما تهطل الامطار يحتكر التجار وحلفاؤهم في السلطة من الوالي الى المتسلم والدفتردار والمفتي وقادة العسكر الحبوب ويفرضون الاسعار التي يريدونها . ولذا تثور العامة ويحصل الصدام . وكانت العامة على الرغم من عيشها في هذا الجو المقيت الموبوء تستبشر بالخير كلما دخل عام جديد . ولندع الان مؤرخ دمشق البديري يحدثنا عن سنة ١١٦٢ هـ الموافق بدايتها ٢٢ كانون الاول ١٧٤٨م قال البديري(٦٤) :

« ثم دخلت سنة اثنتين وستين ومائة بعد الالف ، وكانت غرة محرمها يوم السبت والمرجو من الله تبارك وتعالى ان تكون سنة مباركة علينا وعلى جميع اخواننا المسلمين ، والان الناس في شدة وحصر زائد من كثرة الغلاء والشدائد ، ولكن استبشرت الناس بالخير بكثرة الامطار التي هطلت باول هذا العام » .

ومع استبشار الناس بالخير فان الطمانينة لم تسكن قلوبهم قط . ففي آذار ١٧٤٨ كثر الغلاء وزاد البلاء ، فالخبز رطله بست مصاري وهو « الدون » ،والوسط

بثمانية مصاري ، والمليح باثنا عشر مصرية ، واوقية السمن بسبع مصاري ، واوقية الزيت بمصريتين ، واللحم رطله بست وثلاثين مصرية وبنات الهوى دائرات بالليل والنهار ، والناس في كرب عظيم .

وهذا الغلاء يرجع سببه الى التجار والحكام المحتكرين للقمح والراغبين في رفع اسعاره وتحقيق الارباح على حساب عامة الشعب ووصل الامر في منتصف شهر ايار ١٧٤٨ « ان حامد افندي بن العمادي مفتي دمشق الشام كان قد خزن القمح مثل الاكابر والاعيان الذين لا يخافون الرحيم الرحمن ، وان الكيالة جاؤوا اليه وقالوا : نبيع الحنطة كل غرارة بخمسين قرشا ، فقال لهم مهلا فلعل الثمن يزيد » ويعلق البديري الرجل المتصوف الرقيق الحال على ذلك قائلا : « فاذا كان مفتي المسلمين ماعنده شفقة على خلق الله فلا تعتب على غيره »(٦٥) .

لقد كان المفتي على حق ، من وجهة نظر جيبه ، فان الاسعار في ارتفاع مستمر في سائر انحاء بلاد الشام . « وقد زاد الغلاء والبلاء والقهر » وكان على راس هذا البلاء اسعد باشا العظم والي دمشق الشام الذي اشترى « املاكا كثيرة من دور وبساتين وطواحين وغير ذلك » وسعى بالقوة المسلحة الى ابقاء الاسعار على حالها . وعلى الرغم من ان الشعير الجديد نزل في الثامن من جمادى الثانية فان منادي الباشا امران تبقى الاسعار مرتفعة « ولم تحصل للفقراء نتيجة ، فكل يوم بسعر جديد ، والله يفعل ما يريد »(٦٦) .

« وفي يوم الاربعاء حادي عشر جمادى الثانية » ١١٦٢ اوائل صيف ١٧٤٨ « نزل القمح الجديد ، وبيعت غرارة القمح بخمسة واربعين قرشا ، وكانت قبل نزوله باثنين وخمسين » ومعنى ذلك ان الاسعار لا تزال مرتفعة واحتكار الحبوب لا يزال قائما . وهذا مما اثار حفيظة العامة ودفعها للتظاهر وفرض الاسعار المقبولة بقوة التحرك الجماهيري ، « فصاحت العامة واستغاثت ، ونهبوا بعض الافران ، ثم صاروا ينادون في الاسواق رطل الخبز بثلاثة مصاري وباربعة مصاري »(٦٧) .

لقد انتصرت العامة ، مؤقتا ، واجبرت الافران على بيع الخبز الرخيص ، فبعد

ان كان رطل الخبز يباع من ٦ الى ١٢ مصرية بيع الان نتيجة الانتفاضة الشعبية من ٣ الى ٤ مصاري ، ولاقى هذا الامر التأييد الكامل من الاهالي وغمرت البهجة القلوب « وفرحت اهل البلد كثيرا ، فزينت البلد » ولكن المحتكرين للحبوب وفي مقدمتهم الوالي لم يرق لهم هذا الامر . « فلما بلغه هذا الخبر غضب غضبا شديدا ، وامر الحاج محمد تفكجي باشي ان ياخذ اعوانه الفساق ويدور في البلد والاسواق ، وان ينبه على الخبازين ان لا يبيعوا رطل الخبز الا بستة مصاري والاسود بأربعة ، وكل من خالف ياكل فلقة » ولكن تدفق قمح الموسم وازدياد العرض وخوف الحكام من انتفاضة العامة ادى الى هبوط سعر القمح بعد ستة ايام « فبيع رطل الخبز بثلاثة مصاري ، وبدت تزول الشدة باذن الله تعالى »(٦٨) .

يصف لنا البديري ، مؤرخ دمشق في منتصف القرن الثامن عشر ، الحالة في بلاد الشام معبرا عن شعوره الطبقي الفطري ، وهو حلاق من الطبقة المعدومة المسحوقة . قال البديري يصف الحالة في تشرين الثاني ١٧٥١ بما يلي :

« ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة والف نهار السبت ، فاستبشرت الناس بقدومها حيث ليلة الهلة هطل مطر غزير وفرحوا وزرعوا وفلحوا ، وبدات ترخص الاسعار ، غير انه ما فيه من يفتش على الخلق بالرحمة والرافة من الحكام والوجوه ، والخزانة كثيرون والاكابر ساكتون والحكام ياكلون ، فانا لله وانا اليه راجعون ، وانظر غلاء الاسعار : فقد اقبلت هذه السنة بخيراتها وبركاتها ، ورطل الخبز بأربع مصاري وعلى هذا فقس . فالاغنياء منعمون والفقراء صابرون .

في كانون الثاني ١٧٥٧/١١٧٠ عزل اسعد باشا العظم عن ولاية الشام ، وعين واليا على حلب وقد جرى هذا العزل بعد شهر واحد من ورود هدايا السلطان وفرمان التفخيم لاسعد باشا . وكان عزله عن دمشق ونقله الى حلب مقدمة لقتله ومصادرة امواله الطائلة ، مما احدث تخلخلا في سعر العملة بسبب هذا الفيض الهائل من النقود » .

٥ ـ ظاهرة ضاهر العمر :

مكن الصراع على السلطة ، في بلاد الشام الجنوبية ، بين الامراء الشهابيين وأمراء جنوب لبنان وضاهر العمر وولاة الشام وصيدا ، وايضا الصراع داخل صفوف هذه الفئات ، من وصول ضاهر العمر الى مايقرب السلطة المطلقة في فلسطين خاصة .

في سنة ١٧٠٠ عين الامير بشير الشهابي عمر الزيداني ، وهو من أسرة بدوية ، ملتزما للضرائب في منطقة صفد . وسرعان ما امسى في عام ١٧٠٢ حاكما لصفد . وبعد وفاته اشتهر ابنه ضاهر العمر كملتزم في منطقة صفد ، وبدا في أواخر العشرينات من القرن الثامن عشر يوطد نفوذه في منطقة صفد ـ طبرية(٦٩) ، وتمكن بتحالفه مع القوى المحلية ، البدوية والاقطاعية ، وباستغلاله ثروات بلاده الاقتصادية ، في وقت نشطت فيه التجارة الفرنسية في بلاد الشام الجنوبية ، من ان يبلغ درجة كبيرةمن السلطة وان يصل الى حكم عكا وولاية صيدا .

وتجدر الاشارة الى ان منطقة فلسطين ، حيث اشتهر ضاهر العمر كانت شهدت ، قبل ذلك ، ظهور عدد من الحكام المحليين الذين اختلفت قوتهم حسب علاقتهم ببعضهم وحسب قوة السلطة المركزية . وعلى هذا يمكن اعتبار وجود ضاهر العمر شيئا من تقاليد المنطقة(٧٠) .

كان الصراع بين حكام الاقاليم وسعيهم جميعا لاستغلال الفلاحين واستنزاف خيراتهم هو السمة الغالبة على تلك العصور ، وسننقل فيما يلي أقوال مخائيل الصباغ مؤرخ تاريخ الشيخ ضاهر العمر حول أحوال الحكام ونهبهم للفلاحين في أوائل القرن السابع عشر . قال الصباغ :(٧١) « وكانت جميع البلاد في ظلام شديد من الولاة والحكام فان والي صيدا لم يكن يقف عند مال الميري وعوائده بل عدا ظلمه الى نهب الفلاحين حتى كل من سمع انه مستور الحال يرسل اليه ويحبسه ويطلب منه ماهو فوق طاقته .

وكان احمد الحسين شاملا بظلمه بلاد صفد وابن ماضي شيخ مشايخ جبل نابلس

كان يوقد نار الظلم في نواحي الناصرة وقراها والمرج وحيفا والطنطوزة وسانور قلعته التي يقيم فيها . والشيخ ناصيف النصار كبير مشايخ المتاولة مثقل بالجور والظلم على بلاد بشارة (جبل عامل) وكان بيت محمد نافع المقيم في قلعة صفد بيده الامور في تلك النواحي وتحت يده قلعة البعنة ويقيم فيها ابن عمه عبد الخالق صالح .

فالميري على جميع هذه البلاد عموما معروف ، ان الحاكم يأخذ من الفلاح الربع من حاصلها غير ان هؤلاء الولاة لجورهم وعدم وجود من يمنعهم كانوا بعد ان يأخذوا من الفلاح الربع يرسلون ايضا الى البيادر وينهبون غلاتها . واذا وصل الوالي الى بلد ونزل عليها يأخذ بقر اهلها ليذبحها ويطعمها لمن معه ، فكان الناس من ذلك في ضيق لا يطاق وفي عدم امان في الطرق من عرب الصقر فكل من وجدوه في الطرق نهبوه والامرأة تخاف ان تخرج من منزلها وكثرت شكاوى الناس من عرب الصقر في قطع الطرق الى محمد باشا والي صيدا .

فارسل هذا الى الشيخ ابن ماضي شيخ مشايخ نابلس يأمره بالايقاع بعرب الصقر لانهم بجواره وهو المتدارك لتلك النواحي وكان هذا غاية مراد الشيخ فاستغفلهم واوقع بهم مرارا .

ويمضي ميخائيل الصباغ راويا حالة البلاد والعلاقة بين الحاكم والمحكوم فيما يتعلق بجمع مال الميري وقيمته ربع محصول الفلاحين . في قرية عرابه (شمالي فلسطين) اتى الى المتسلم مندوب والي صيدا لجمع الميري ، وبعد أن جمع الميري من فلاحي عرابه « طلب منهم فوق طاقتهم وبعد ان دفعوا تقدم خدم المتسلم ونهبوا البيادر . فاغتاظ من ذلك اهل عرابه فاوقعوا بالمتسلم وارادوا قتله خصوصا انه طلب منهم ايضا دفع نفقات اجرة تنقلاته من صيدا الى عرابة » (٧٢) .

هنا تدخل الزيادنة ، وعلى رأسهم الشيخ ضاهر واخوه سعد وتوسطوا بين اهل عرابة والمتسلم « فخلصوا المتسلم من يد اهل البلد ورجعوا له اجرة طريقه وردوا لاهل البلد نهبهم « واستضاف ضاهر العمر المتسلم في بيته ثم سار معه الى صيدا وقابل واليها وتعهد بجمع الميري من عرابة بعد ان « عفا الباشا عن

اهل عرابة »(٧٣) .

بعد ذلك انتقل الزيادنة الى طبرية حيث وثقوا صلاتهم مع أهلها واجروا تحالفا سريا مع عرب الصقر (قطاع الطرق) لاحتلال طبرية واخذها من متسلمها وهو شاويش تابع لوالي صيدا لم يكن تحت امرته اكثر من ثلاثين جنديا . واتفق ان رجلا ميسورا من طبرية اسمه محمد نصار ضمن (التزام) من حاكم طبرية ضيعته بجوار طبرية . وبعد ان دفع المال المقرر على الضيعة للشاويش (متسلم طبرية) طلب منه الشاويش كيسين اضافيين لان محمد نصار غني . ولما رفض نصار دفع المبلغ الاضافي رماه في السجن وامر بتعذيبه حتى يدفع الكيسين من النقود . وعندما علم والد محمد نصار بالخبر هرب من وجه الشاويش حتى لا يؤخذ بجريرة ابنه . وقد اشار عليه بعض اهل البلدة بالالتجاء الى ضاهر العمر ، الذي دبر عملية الهجوم على المتسلم واحتلال طبرية بمعونة عرب الصقر(٧٤) . وحالا ارسل الاموال الى والي صيدا حتى يعينه على طبرية . والوالي لا يهمه الا وصول الاموال بانتظام وبعدها لتخرب البلاد .

عندما استقر ضاهر في طبرية شرع يستولي على البلاد المجاورة ويطلب من والي صيدا الموافقة على تلزيمه اياها مدعيا انه يريد حمايتها من العربان (البدو) . ثم طلب من والي صيدا التزام عكا مدعيا انه يريد حمايتها من قراصنة مالطة ، فرفض الباشا طلبه فزاد له مال الميري ولكنه أصر على الرفض . وكان ضاهر مترددا في احتلال عكا .

وعندما استشار اخاه سعدا قال له « اذهب وخذها بالسيف . فقال له ضاهر اخاف عاقبة ذلك من السلطان « فاجاب سعد » ماعليك بأس من السلطان اذا اخذتها (لمدينة عكا) وقمت له بمالها المقرر عليها ، لان العثماني لا يسأل ان كان المتولي باشا من رجاله او من اهل البلاد وعنده الامر بالسواء بشرط ان مال الميري يصل له تماما(٧٥) .

في عام ١٧٤٦ حصل ضاهر على التزام عكا من والي صيدا ، الذي رضخ للامر الواقع . واصبح بذلك يتحكم باحد الموانئ الرئيسية وبأهم مركز للتجارة الفرنسية في المشرق واضطر الفرنسيون الى توقيع اتفاق تجاري مع ضاهر في عام ١٧٥٣ لتنظيم التجارة بينهما .

وازدادت سلطة ضاهر بعد ذلك ، وحصل على التزام حيفا ، التـي كانت تابعة لاشراف ولاة الشام كما حصل على التزام مناطق اخرى ، تابعة لولاة الشام ، مثل بعض القرى في مناطق نابلس وبلاد حارثة وجبل عجلون .

وبازدياد سلطة ضاهر بدات مظاهر الانشقاق تظهر داخل اسرته . ويذكر حدوث خلافات بين ضاهر وبعض أبنائه وخاصة عثمان ، منذ سنتي ١٧٥٢ و ١٧٥٣ ولكن هذه الخلافات التي كانت على نطاق ضيق في هذه الفترة والتي طغت عليها شهرة ضاهر ، ستستفحل في الستينات ، وستكون عاملا رئيسيا في تقويض قـوة ضاهـر من الداخل(٧٦) .

في البدء حرص ضاهر على تحسين علاقاته مع السلطات العثمانية ، فدفع اموال الميري بانتظام كما انه قبض على عدد من الزرب الهاربين من دمشق وقتل بعضهم ، وارسل رؤوسهم الى استنبول للتدليل على طاعته ومحافظته على القانون ، وكان يهدف الى الحصول على التزام مناطق اخرى تابعة لولاة الشام .

كانت علاقة ضاهر مع والي دمشق اسعد باشا العظم علاقـة حسنة نسبيـا . ولكن الامور ساءت مع الوالي الجديد عثمان باشا الكرجي ، الذي حكم دمشق في اواخر الستينات من القرن الثامن عشر . حيث اشتد الصراع على السلطة بين امراء ومشايخ جبل لبنان ، وفي صفوف امراء جنوب لبنان والزيدية وازداد الموقف تعقيدا بتدخـل علي بك المملوكي المصري في شؤون بلاد الشام في عام ١٧٧٠ و ١٧٧١ .

كان عثمان باشا الكرجي مملوكا كرجي الاصل (من بلاد جيورجيا) وعمل في خدمة اسعد باشا العظم الذي عينه حاكما من قبله ، على حماه . وحين قتل اسعد باشا وصودرت امواله ، بادر عثمان باشا الى اعلام السلطات العثمانية عن مخابىء اموال سيده ، ولهذا عين واليا على الشام عام ١٧٦٠ .

وكان عثمان باشا ، اثناء ولايته على الشام ، قد شدد قبضته على المناطـق الريفية ، على عكس سياسته في دمشق . فتمرد عليه سكان الرملة ويافا في سنـة

١٧٦٧ وحدثت ثورات اخرى ضده ، في السنوات التالية ، في مناطق متفرقة من فلسطين . وقد اشار علي بك في البيان الذي وزعه في بلاد الشام ، حين هجومه عليها، الى مظالم عثمان باشا هذه ، واستغلها ضده . وبطش عثمان باشا بالثائرين ولجأ بعضهم الى ضاهر العمر الذي كان يدعمهم . وكانت سياسة عثمان باشا هذه حاسمة في تحول سكان الريف ضده أثناء هجوم قوات علي بك(٧٧) .

فبعد ان وطد المملوكي علي بك سلطته في مصر وجه انظاره نحو بلاد الشام مستغلا انشغال الدولة العثمانية في حربها مع روسيا (١٨٦٨ — ١٧٧٤) وكان علي بك عالما بنقمة سكان الريف في ولاية الشام على عثمان باشا .

في تشرين الاول ١٧٧٠ تحركت قوات علي بك من مصر برا وبحرا باتجاه بلاد الشام . واحتل قائد الحملة اسماعيل بك غزة والرملة برضى اهلها الذين كانوا ناقمين على مظالم عثمان باشا . واعلن الحكام المماليك الجدد في المدينتين الغاء ضريبة مال الميري لمدة اربع سنوات . وكان الهدف من تلك الدعاية حمل قرى فلسطين على عدم مقاومة الفاتحين . وقد اعلنت عدة قرى من التي ارهقتها مطالب عثمان باشا حاكم دمشق ولاءها لعلي بك . وبعد ان وصلت قوات علي بك الى دمشق بقيادة محمد ابو الذهب انسحبت منها عام ١٧٧١ . مما ادى الى اضطراب في ميزان القوى في بلاد الشام وازدياد حدة الصراع بين عثمان باشا والي دمشق وضاهر العمر والامير يوسف الشهابي في جبل لبنان وامراء جبل عامل .

في صيف /١٧٧٥/ كان الزمن يسير في غير صالح ضاهر العمر . فبعد ان انتهت الدولة العثمانية في سنة /١٧٧٤/ من حربها مع روسيا وهي على وشك الاصطدام مع حاكم فارس ارادت التخلص من خطر ضاهر ، فارسلت قوة بحرية بقيادة القبطان حسن باشا ، الذي حاصر عكا في آب/١٧٧٥/وذكر أن مستشار ضاهر عبود الصباغ، رفض شراء انسحاب حسن باشا بالمال بسبب بخله.وخان احمد الدنكزلي قائد المغاربة الذين كانوا في خدمة ضاهر سيده . وحين حاول ضاهر الهرب قتله مغاربته في أواخر آب ١٧٧٥ وهكذا انهار حكم ضاهر ، وقتل معظم أبنائه بعد سنوات من مقتل أبيهم .

كان ضاهر العمر معروفا بالتسامح الديني وقد سعى لاستتباب حبل الامن في المناطق ، التي سيطر عليها ، وشجع التجار على المجيء الى مناطق نفوذه وسعى في البدء للتقرب من الفلاحين عن طريق عدم ارهاقهم بمال الميري المقرر عليهم ، ولهذا حاز في بداية حكمه على رضى اهل البلاد لخلاصهم على يده من تعدي العربان وظلم الحكام « الاتراك »(٧٨).

ولا شك ان ما ذكره مؤرخ الشيخ ضاهر مخائيل الصباغ ذو دلالة خاصة حول سياسة الشيخ ضاهر الضريبيةفي مطلع حكمه ، نقول في مطلع حكمه لأن الناس ضجت فيما بعد من ظلم اولاده وبخاصة ابنه علي . كتب الصباغ (٧٩) :

وكانت عادة البلاد في دفع الميري أن يعطوا الحاكم فيالسنة المخصبة ربعالحاصل من الغلة والا فالخمس . فلما دخلت سنة /١٧٤٣/ وكانت مخصبة جدا أمر جميع الولاة أن يأخذوا من الفلاحين الخمس فقط وقال لهم : متى اخصب الفلاح اخصبت أرضه واخصبت البلاد كلها معه . وقد طالما ظلم الفلاحون من قبل وكفاني غنى أن أراهم أغنياء في بلادي فاستغنى الفلاحون في تلك السنة واغتبطوا به جدا ».

هذه سياسة الشيخ ضاهر العمر في مطلع عهده عام /١٧٤٣/ ولكن هذه السياسة تبدلت الى حد بعيد فيما بعد . ويروي التاريخ ان أولاد الشيخ ضاهر ، الذين ثاروا مرارا ضد ابيهم من اجل الاستئثار بأموال الميري ، اثاروا نقمة الاهالي حتى ضجت الناس منهم وبخاصة من علي بن ضاهر . وقد جمع الشيخ ضاهر أموالا طائلة الى درجة دفعت مشاقة لكتابة مايلي : « كان الشيخ ضاهر ذا ثروة طائلة وقد بلغت ثروة الشيخ التي دخلت خزينة السلطة (بعد مقتله عام /١٧٧٥/ فقط ثلاثة وثمانمائة الف كيس)(٨٠)

٦ ـ الشهابيون بين والي عكا والعصبيات المحلية :

اعتلى الامير بشير الامارة في جبل لبنان عام /١٧٨٨/ وسعى احمد باشا الجزار والي عكا الى اضعافه باثارة ابناء الامير يوسف ، الذين قضى عليهم بشير باسلوب

بربري . وأثناء حصار نابليون لعكا عام /١٧٩٩/ وقف الامير بشـــير ينتظـــر نتيجـــة المعركة ، ولم ينقذه من الجزار سوى موت الاخير عام /١٨٠٤/ وبعدها اتيحت للامير بشير فرصة توطيد مركزه في لبنان بالتعاون مع العثمانيين . وفي عام /١٨١٠/ ارسل قواته لدعمهم في صد هجمات الوهابيين على منطقة دمشق ، ولكن تعيين عبد الله باشا الطموح على ولايـــة عكا عام /١٨١٩/ ومحاولته فرض ضرائب كثيرة على الامـــير بشير أحرج مواقف هذا الاخير في جبل لبنان ، وادى ، كما سنرى الى ثورة الفلاحين عـــام / ١٨٢٠ / فيما عرف بالعامية الاولى ، نسبة الى العوام الذين اشتركوا في الثـــورة . وقد دعم الامير بشير حملة ابراهيم باشا ومع اخراج القوات المصرية من بلاد الشـــام عزل الامير بشير عام /١٨٣٩/ .

الى جانب الطابع الاستبدادي والاستغلالي لحكم الامير بشير كما في سائر الحكام في ظل العلاقات الاقطاعية ، فان جوانب اخرى ايجابية تبدو واضحة خلال حكم الامير بشير (١٧٨٨ ــ ١٨٤٠) فقد قاوم الاقطاعيين الانفصاليين وسعى للاصلاح . وحسب امكاناته المتوفرة عمل للقضـــاء على قطـــاع الطرق وكان ذلك لمصلحة التجـــار الذين نقلوا بضائعهم بأمان . ومثلما عمل داوود باشا والي بغداد ، فان الامير بشـــير سعى لتطوير التجارة والحرف وشجع اقامة مانيفا كتورات (ورشات) الحـــرير ، التي وضعت اللبنات الاولى للتقدم الاجتماعي الاقتصادي في المدن اللبنانية (٨١) .

ولابد هنا من استعراض التطورات السياسية التي جرت في جبل لبنان وبخاصة ماله علاقة بالمسألة الزراعية وبالتحركات الفلاحية في النصف الاول من القرن التاسع عشـــر .

بانقطاع السلالة المعنية في سنة /١٦٩٧/ اجتمع مشايخ جبل لبنان وانتخبوا الامير بشير الشهابي امير راشيا خلفا لخاله الامير أحمد المعني . ووافق والي صيدا والسلطان العثماني على هذا الاختيار ، وهذه الحادثة تدل على ان مشايخ جبل لبنان هم اصحاب النفوذ ولا يمكن لامير جبل لبنان ان يستمر في الامارة دون رضى المشايخ او اكثريتهم على الاقـــل .

كان القاسم المشترك الذي جمع بين المشايخ الذين اختاروا الامير بشير عام / ١٦٩٧ / هو كونهم قيسية ، رغم انهم ضموا ممثلين عن مختلف المذاهب . ومما يؤكد قوة التعاطف القيسي انه طغى على الاختلافات المذهبية ، فاختير الشهابيون السنة خلفاء للمعنيين الدروز . وطبيعي ان صلة القربى بين الاسرتين قد ساعدت على ذلك ، ولكن التكتل القيسي كان ضروريا لهم لتوطيد سلطتهم ضد اليمنيين المتربصين من آل علم الدين . وقد اصبح الصراع بين القيسية واليمنية اكثر حدة بعد هذا التكتل ، وبلغ أوجه ، بالفعل نهايته ، في عام / ١٧١١ / حين اشتبك القيسية واليمنية في قتال دام في موقعة عين دارة . وكان يؤيد اليمنية كل من والي الشام ووالي صيدا ، في محاولة منهما لاضعاف الامير الشهابي . ولكن القيسية داهموا اليمنية ، قبل تلقيهم مساعدة هذين الواليين ، وقتلوا معظمهم ، وابادوا اكثر زعماء آل علم الدين . ومن سلم من اليمنية لجأ الى جبل حوران الذي اصبح يعرف ، تبعا لذلك ، بجبل الدروز .

وكان تعبير جبل الدروز يطلق ، في الاساس على جبل لبنان ، ويستعمل احيانا كبديل له . وهكذا ساد القيسية في جبل لبنان . ولما كان اغلب اليمنية يتألفون من الدروز ، وخاصة من آل علم الدين ، فان قتل بعضهم وهرب البعض الاخر الى جبل حوران كان يعني اضعاف العنصر الدرزي في بلاد الشوف .

وكان من نتائج موقعة عين دارة اعادة النظر في التقسيمات الاقطاعية فيجبل لبنان لاملاء الشواغر في الاقطاعات التي حدثت اثر مقتل الامراء اليمنيين ، ولمكافأة المؤيدين للأمير الشهابي . وقد رفع الامير حيدر خلف الامير بشير عام /١٧٠٦/ من شأن الاسر التي دعمته ، فمنح رؤساءها لقب شيخ (أي ملتزم ، أو مقاطعجي ، يجمع الاموال الميرية في منطقته) في المقاطعات التي كانوا يسكنونها وخاطبهم بلقب الاخ العزيز . كما انه أبقى مشايخ الاسر الاخرى التي ايدته كملتزمين . واشتهر بنتيجة ذلك آل الخازن وال حبيش وال الدحداح من الموارنة القيسيين ، وآل العماد وال جانبلاط وال نكد وال تلحوق وال عبد الملك من الدروز القيسيين . وكانت كل أسرة من هذه الاسر مسؤولة عن ادارة المقاطعة التي أعطيت لها ، وعن جمع عائدات الميري منها واعطائها للامير الشهابي الذي يقدمها بدوره الى والي صيدا المسؤول عن المنطقة . وخص الامير

الشهابي آل ابي اللمع بلقب امراء في منطقة المتن ، وتزوج منهم . ونتج عن رفع شأن هذه الاسر ومخاطبة الامير الشهابي لرؤسائهم بلقب الاخ العزيز ان توطدت سلطة هؤلاء الرؤساء ، فعارضوا الامير الشهابي في المستقبل . ونلاحظ ايضا ان زوال اليمنية كقوة سياسية في جبل لبنان ازال الخطر الذي كان يوحد بين القيسية وكان من نتائج ذلك ان انقسم القيسية ، فيما بعد ، على انفسهم ، وتجمعوا حول حزبي الجانبلاطية واليزبكية ، في أواسط القرن الثامن عشر(٨٢) .

ولم يكن لآل يزبك ثروة عقارية تقوم بمصروفاتهم واولادهم كما كان للجنبلاطيين ، ولذا مال الامير بشير الى الجنبلاطيين . . اما مشايخ آل تكد فكانوا يميلون مع من له الارجحية . ولتعاسة الشعب كانت هذه الضغائن باعثة على الشقاء وجلبت لاهالي الجبل ويلات الحروب الاهلية على التتابع . . ودوام المشايخ على ايقاد الفتنة واشهار القتال وابتزاز اموال الرعية زادت الشعب تباعدا ونفورا وسهلت للدولة وللجزار التدخل(٨٣) .

٧ ــ احمد باشا الجزار (والي عكا) نموذج آخر للحاكم الاقطاعي العثماني :

يختصر محمد كرد علي في خططه تاريخ الاستغلال الاقطاعي في بلاد الشام في الفقرة التالية : « اوغل ارباب الاقطاعات في الظلم ، فقلم الجزار من أظافرهم ليستأثر وحده بالظلم والقتل . . فلما هلك عادت الحالة الاولى الى سابق تعاستها من ظلم المستضعفين والفلاحين »(٨٤) .

كان احمد باشا الجزار المملوك البشناقي الاصل خريج مدرسة المؤامرات والاغتيالات والسلب والنهب والغدر والمكائد ، وهي المدرسة الرئيسية في العهد العثماني . وكان الجزار من التلاميذ « النجباء » لهذه المدرسة الرهيبة ، مدرسة المماليك . وبرع في استغلال المنازعات للانتقال من خدمة احد ولاة مصر الى بلاد الشام فتزلف وداهن وتآمر وقتل وغدر حتى تمكن من الجلوس عام / ١٧٧٦ /م على «عرش» ولاية صيدا . حيث جعل اقامته في عكا ومد نفوذه الى ولاية الشام .

استهل الجزار حكمه في عكا بأن ملأ السجون من جميع الناس وذلك تركيعا للرعية ثم امر أرهابا لها بقتلهم اجمعين . وطرحت القتلى كالغنم خارج عكا ، ونادى المنادي تعالوا ادفنوا موتاكم وكل امرأة ترفع صوتها تقتل حالا .

اتخذ الجزار من عكا مركزا له واستفاد من تطوير ضاهر العمر لها ومن التحسينات التي ادخلها على الزراعة والتجارة وعلى الموانىء . واستخدم الجزار جيشا من المماليك والمرتزقة . اذ لم يكن لولاية صيدا وعكا تابعة لها ، كباقي الولايات وجاقات (وحدات) من اهل البلاد من اصحاب الزعامات والتيمار والانكشارية والقابي قول وسواهم . وكان عسكر الولاية اخلاطا من الارناؤوط والاكراد والتركمان والبشتاق ومن اهل بغداد والعراق وهم من الخيالة . وكان المشاة غالبا من المغاربة من اهل تونس والجزائر وطرابلس ومصر والسودان وفيهم العبيد السود والمماليك البيض(٨٥) .

وبما ان هؤلاء من المرتزقة ، من حثالة المجتمع الذي جاؤوا منه فلم يكونوا على شيء من حسن النظام العسكري والتربية . وكان دابهم التعدي على الاهالي وسلبهم وهم يعتبرون ذلك غنيمة باردة بدون حرب .

ومن اجل تمويل هذا الجيش عمد الجزار الى الحصول على المال بأية طريقة . وقد صادر اموال التجار الاجانب ، مما اضر بالنشاط التجاري . وابتز الاموال من الفلاحين فهجر كثير منهم قراهم وكان الريف قد ازداد فقرا بفعل الاضطرابات التي حدثت فيه ، فنقصت بنتيجة ذلك الموارد الاقتصادية ولجأ الجزار الى اعمال السخرة في تحصين عكا ، وطلب الى الفلاحين تقديم خدماتهم مجانا مما اضر بالزراعة وقد نتج عن اعمال الجزار هذه انحطاط النشاط الاقتصادي في بلاد الشام الجنوبية . وبقيت دمشق احسن حالا من غيرها بسبب استفادتها من تجارة قافلة الحاج . ولم يقابل هذا الانحطاط التجاري في الجنوب انتعاش في تجارة منطقة حلب لانها قاست بدورها من الاضطرابات التي سادت على الجبهة الفارسية ومن انعدام الامن على الطرق الرئيسية(٨٦) .

كان الجزار يسعى لـ « اشعال نار الفتنة بين الدروز والنصارى وكان غرضه

واضحا لا يحتاج الى تفصيل فكان ينتظر وقوع الحرب بينهما ، وعند شبوب الحرب الاهلية يراقب الحزب الاقوى فيساله والحزب الضعيف يطمس اثاره » ويقول مشاقة بان هذه الحروب جلبت لاهالي الجبل ويلات الحروب الاهلية وسهلت على الدولة العثمانية وعلى الجزار التدخل . « وما كانت غاية الجزار الا حشد الاموال لا خلاف عنده (سواء) بطريقة قانونية كانت أو ظلما » وكانت « الجند تطلب دائما العليق والمال والزاد »(٨٧) .

ويكتب بريك عن احداث / ١٧٧٦ / حول الجزار ما يلي(٨٨) :

« ثم ان أحمد باشا الجزار حاكم صيدا ركب على بيروت فهرب سكانها المتظاهرون (أي وجوه البلد) فدخلها بعساكره وملكها ونهب وخرب كثيرا . واطلق العساكر للقتل والنهب من القرايا والدروب وارض البقاع مدة طويلة . وما نسمع الا اخبار تغم القلب وتعكر الخاطر وعطل وقلة حركة . وكل هذا وقبيقول (عسكر) الشام قائمون .. للبلص والحكام لسلب المال بغير حلال » .

ويصف مخائيل الدمشقي حال الناس التي لم تأخذ اي قسط من الراحة بسبب مظالم الجزار وهي :

١ ـ طلب القرش ظلما .

٢ ـ نهب البضائع من جهة وطرحها في الاسواق بأسعار مرتفعة .

٣ ـ حوادث كثيرة مقهرة ومغمة من انواع كثيرة .

وكانت النتيجة نزوح اعداد كبيرة من الشام هربا من الظلم . ويقول مخائيل الدمشقي ان الجزار « اذاق الناس مراير الصبر وكان يبغض جنس البشر وليس له امان » .

أما القاري صاحب كتاب « الوزراء الذين حكموا دمشق » فيصف الجزار بانه

« كان ظالما فاسقا حاكرا للقوت » وفي ايام الجزار « فاض نهر بردى وهدم اماكن كثيرة وراحت ارزاق لا تعد ولا تحصى » . اما بسبب الهدم او بسبب ما جرفته المياه او بسبب السرقة و « ما اخذه اولاد الحلال » .. وانسدت الانهر من عظم السيل لا سيما نهر يزيد ونهر تورة « فطلع اهل الصالحية ليعزلوه . وجاء الفلاحون من القرى لمساعدتهم . وكان يجتمع كل يوم نحو خمسماية رجل » . ويذكر القاري ان العمل دام مدة شهرين وانفقت على اصلاح النهر اموال كثيرة «واحمد باشا لا هم له الا جمع الاموال وقتل الناس »(٩٠) .

بعد ان تمكن الجزار ، بمساعدة الاسطول الانكليزي من صد حملة نابليون امام اسوار عكا في آذار / ١٧٩٩ / ازداد بطشه وارهابه وعندما عين واليا على دمشق للمرة الرابعة /١٨٠٣/ هرب الناس من مظالمه الى حلب وجبل لبنان . والذي بقي « انضام جدا »(٩١) اي اضطهد واستعبد واهين وبادر عسكر الجزار بسلب اموال الاهالي بدون حق ، وحملوا التجار اغلب الاثقال ، فقد كانوا يهددونهم بالضرب والتعذيب حتى يدفعوا المطلوب منهم . وعظم الامر على اهالي الشام « الى ان الله تعالى اذن بالفرج بموت الباشا في ١٢١٩ (١٨٠٤) لان الكيل وصل حده وما كانت الناس تصدق انه مات .. وسبحان الدايم الباقي »(٩٢) .

وبعد موت الجزار اسندت الولاية الى سليمان باشا ، الذي سرعان ما اصبح واليا على صيدا ودمشق وسليمان باشا هذا كان من مماليك احمد باشا الجزار ، وخريج مدرسته ، مدرسة ابتزاز الاموال والتآمر والاغتيال والغدر والخديعة . وقد عينته الدولة واليا على عكا بعد وفاة سيده، الذي كان من ابعد الولاة عن العمل بأوامر الدولة واكثرهم خروجا عليها . والان لنمعن النظر في « اخلاق » ذلك الزمن من خلال الفرمان الذي ارسله السلطان محمود الى سليمان باشا ، الذي جاء فيه : « بما انك ممن تربوا على يد الغازي احمد جزار باشا رحمة الله عليه، آمل منك ان تعمل مثله باخلاص وولاء، ساعيا وراء الحصول على رضائنا في كل امر . واحيل هذه الامور اولا الى الله تعالى وثانيا الى ذات حميتك ، بما امرناك ولا تتركنا ان نشعر بفقد المرحوم احمد جزار باشا »(٩٣) ..

ويعلق جودت باشا في تاريخه ان هذه : « اصول وعادات ذلـــك الوقـــت »(٩٤) والواقع انها اصول وعادات الطبقة الحاكمة المسيطرة المستثمرة ، وليست اخــلاق الفلاحين في الريف والحرفيين وسائر العامة في المدن . اذ ان داخل كل مجتمع توجد « اخلاق » للطبقة المسيطرة واخلاق للمضطهدين والمنتجين .

في كتابه « مشهد العيان » حلل المتنور مشاقة عصر الجزار بالجملـــة التاليـــة : « الجزار عمل بما يطابق زمانه ورجال عصره » اي هو ثمرة المجتمع ، الذي تحكمت فيه العلاقات الاقطاعية الشرقية وافرازاتهـــا « الاستبداد الشرقي » بمختلـــف صـــوره والوانـــــه .

وعندما انتشر خبر موت الجزار عام / ١٨٠٤ / تهللت وجوه الشعب « وبعثـــت الدولة راغب افندي وحجزعلى متروكاته من مال وعقار وتصرف به بموجب ارادتها» .

وهنا نلاحظ ظاهرة عامة اتصف بها الحكم الاقطاعي العثماني وهي قضيةمصادرة املاك واموال كل حاكم يفقد منصبه عن طريق العزل او القتل او الوفاة وجعلها ملكـــا « للدولة » اي للوالي الجديد واركان الدولة في العاصمة ومركز الولايات ومعنى ذلك ان الوالي يبتز الاموال منالرعية بمختلف الوسائل وتعمالنقمة ضده فتأتي « الدولة » فتمتص هذه النقمة عن طريق مصادرة ممتلكاته . ولكن هذه الممتلكات لا يعود نفعهـــا على من جمعت منهم بل تستقر في جيوب الحكام الجدد ، الذين يشرعون في الســـلب والنهب وبعد عزلهم أو موتهم تصادر املاكهم وهكذا دواليك . بمعنى أن حركـــة المـــال والممتلكات المصادرة تبقى محصورة في دائرة ضيقة من اعمدة الحكم الاقطاعي الشرقي ، وهذا احد اشكال الاستثمار في الاقطاعية الشرقية .

٨ ــ تحركات العامة في دمشق ومدى التحالف بين منتجي المدينـــة والريف ضد السلطـــة الاقطاعيـــة :

في سنة / ١٨٢٨ / اسندت ولاية الشام الى عبد الرؤوف باشا . وتم ذلـــك بعد مدة قليلة من قيام السلطان محمود الثاني في حزيران / ١٨٢٦ / بابادة فرق الانكشارية في استنبول وتأسيس جيش يتبع النظم الحديثة . وكان انشاء هذا الجيش وحروب

الدولة مع روسيا بحاجة الى اموال جديدة . فرضها السلطان على الولايات . وكان من جملة هذه الضرائب الجديدة ضريبة الصليان ، التي فرضت على « الدكاكين والمخازن والمغالق » بمقدار مصريتين على كل سكرة او مفتاح ، وهذا مما اثار اهالي دمشق ودفعهم للهياج ضد هذا الرسم ، الذي حسبوه جزية ، وهي الضريبة المفروضة على أهل الذمة . وحالا اغلقت الحوانيت احتجاجا على هذه الضريبة ، واخذ الناس يتجمهرون في باب الجابية تعبيرا عن سخطهم على فرض ضريبة (الصليان) الجديدة وضربوا المنادي بهذه الضريبة(٩٥) ، اذ كانت طريقة المناداة في الاسواق والاحياء هي وسيلة الاعلام الرئيسية في ذلك الزمن . وتعبيرا عن احتجاج الاهالي على الضريبة الجديدة قامت جماعة من مشايخ الطرق الصوفية باخراج « السيارة » والتوجه الى السرايا (مركز الوالي) للاحتجاج . وسرعان ما تطورت الامور وادت الى ثورة شعبية عارمة في ايلول / ١٨٣١ / أدت الى حصار الوالي في القلعة مدة اربعين يوما ومن ثم استسلامه وقتله وتشكيل حكومة محلية من زعماء المدينة .

شرعت الحكومة الشامية الجديدة بالاستعداد للعواقب والاحداث المقبلة . اذ لا يعقل ان تستسلم الحكومة المركزية في استنبول لارادة ثورة شعبية ادت الى مقتل الوالي وخاله وكتخداه وعدد من اعوانه وعسكره وطرد الباقين وحرق السرايا والاستيلاء على القلعة .

كانت اولى الاجراءات التي اتخذها اغاوات البلد اعمدة الحكومة الشامية الجديدة ترميم اسوار القلعة وابراجها بعد الخراب الذي حل بها ايام الحصار . وشرعوا في اصلاح بوابات الحارات وابواب المدينة وبناء بوابات جديدة حصنوها بحجارة متينة وزغاليل وقرروا الخروج الى شمالي دمشق وملاقاة القوات العثمانية ، اذا قدمت ، ومقاتلتها شمالي القصير في دير العصافير . ويبدو بعد نظر أعضاء الحكومة الشامية الجديدة من خلال دعوتهم وتنبيههم على أهل الضيع بأن الذي ما عنده بارودة يشتري والذي ماعنده سلاح يشتري وحينئذ جميع الناس صاروا يشتروا البواريد والسلاح حتى صار عند جميع الناس السلاح .

ان دعوة الفلاحين في القرى لحمل السلاح والوقوف الى جانب المدينة لصد

الهجوم العثماني المتوقع يحمل في طياته معنى اجتماعيا عميقا . دل على تكون حلف بين حرفيي المدينة وتجارها من جهة والفلاحين من جهة اخرى ضد الدولة الاقطاعية العثمانية ، التي استثمرت كلتا الفئتين : الحرفيين والفلاحين . والان جاء دور هؤلاء في المقاومة والتمرد في ظل أجواء مضطربة ووضع قلق واختلاف في موازيين القوى .

ان الموقع التاريخي لثورة أيلول ١٨٣٢ ينبع من الظروف الاقتصادية الاجتماعية التي اندلعت في أحشائها الثورة وخلافا لما كان عليه الحال في أوروبا الاقطاعية ، فان رجال السلطة الاقطاعيــة العثمانيــة تواجدوا في قلب المدينــة والى جانب سكانها يستثمرونهم مباشرة كما يستثمرون الفلاحين في الريف ونجم عن ذلك احتكاك مباشر تحول في كثير من الاحيان الى صدام بين الحرفيين (الوجه الاخر للنظام الاقطاعــي) وبين السلطة الاقطاعية المتمثلة بالوالي ونائبه (المتسلم) ودفتر داره (المسؤول عــن الماليــة وحاشيتهم والقوى العسكريــة الاقطاعية الانكشاريــة بفرقها المتصارعــة والمتخاصمة (من اليرلية المحلية وقابيقول ودالاتية وغيرهم من المرتزقة) .

ان اقامة هذه القوى في قلب المدينة واستثمارها الوحشي لسكانها عرقل عمليــة تطور الحرف الى المانيفاكتورات والراسمالية المبكرة ، وحد من استقلال المؤسسات الحرفية وضيق الخناق على التنظيمات الحرفية الطامعة في الاستقلال وحرية التحرك الاقتصادي والراغبــة في الخلاص من سيف المصادرة والضرائب المرهقة ومختلف اساليب الابتزاز والبلص والنهب المعروفة انذاك .

كانت ثورة أيلول /١٨٣٢/ اخر واعنف تحركات العامة الدمشقية خلال مئة عام. تلك التحركات التي شهدتها مدينة دمشق عاصمة الولاية ، اتصفت بما يلي :

ـ سيادة الانتاج اليدوي الصغير والبسيط وبطء تطور العلاقات القائمة علــى تبادل البضائع بالنقود اثر ، بالاضافة الى طبيعة الحكم الاقطاعي الشرقي العثماني ، في انتفاضات العامة في مركز ولاية بعيدة عن العاصمة .

ـ لم توجه انتفاضات العامة مباشرة ضد السلطة المركزية في استنبول بل وجهت نار غضبها الى ممثلي السلطة الاقطاعية في الولاية .

ـ سرعة قيام التحرك وسرعة خموده واتصاف معظم التحركات بالعفوية وعدم التنظيم والفردية . وهذه الظاهرات انعكاس لمستوى القوى المنتجه .

ـ قامت التحركات نتيجة للاسباب التالية : كثرة الضرائب او زيادتها ، ارتفاع الاسعار ، احتكار المواد الغذائية او قلتها ، تعسف رجال السلطة الاقطاعية العثمانية.

ـ اشتراك الفرق الصوفية علنا في كثير من التحركات . وهنا بدا واضحاالارتباط العميق بين فرق الصوفيــة والعامة ، وبخاصة جناحها الثوري الممثل في الحرف .

وكانت فرق الصوفية بمثابة الاحزاب السياسية للعامة ، حيث امتزج في بوتقة واحدة النضال الاجتماعي والديني والسياسي .

ـ تأرجح الفئاتالعليا من العامة واستعدادها للتحالفمع رجال السلطةالاقطاعية العثمانية ، في حين كانت الفئات الدنيا من العامة اكثر اندفاعا وراديكالية ، وكثيرا ما أجبرت الفئات العليا على الغاء الصفقات واجراء المساومات مع السلطة الاقطاعية

ـ بقاء العامــة في معظم الاحيان على الحياد في صراع قوى السلطة الاقطاعيــة المختلفة : العسكرية والمدنية ، على اقتسام الغنائم .

ـ تحالف العامة مع احدى قوى السلطة لضرب القوى الاخرى الاكثر عدوانية وشرا وتعسفا وظلما . وهذا الوضع كان يخلق جوا جديدا وتحالفات جديدة .

ـ سعي عدد من الحكام للتزلف الى العامة ، وكسب رضاها ولا سيما عندمــا يكون هؤلاء الحكام ضعفاء ، او في صراع مع خصومهم داخل الولاية أو خارجها .

ـ استخدمت العامة في كثير من الاحيان المقاومــة السلبية ، عند تعذر اندلاع المقاومة العلنية المكشوفة .

ـ ردة الفعل ضد اعوان الولاة الظالمين عند زوالهم كانت عنيفة وتتناسب مععنف الظلم وشدته .

ـ لم تكن ثمة حركات زندقة (هرطقة حسب التعبير الاوروبي) ذات شأن في تلك الفترة . ويرجع سبب ذلك الى عاملين رئيسيين :

آ ـ كان الجو الديني المتمثل في الفرق الصوفية وطقوسها مؤيدا في معظمه لتحرك العامة ضد الطبقة الحاكمة العليا . ولم يكن رجال الدين مؤيدين ، كما هو الامر في اوروبا الوسيطة ، بصورة مكشوفة للسلطة الاقطاعيـة .

ب ـ لم يكن ثمة وجود ملحوظ للقوى الاجتماعية الجديدة بسبب ركود المجتمع . فالطبقات أو الفئات الاجتماعية التي تغلف مطالبها الاجتماعية او السياسية بغلاف ديني لم تكن ظهرت بعد ، حتى منتصف القرن التاسع عشر .

ـ انفصال المدينة عن الريف في مجال التآزر والتعاضد ، في اثناء قيام الانتفاضة العامية أو الفلاحية ضد العدو المشترك ، الحكم الاقطاعي الشرقي . وكان اضطهاد الولاة أو ممثليهم للفلاحين يصل الى المدينة عن طريق الجند العائد من عملية عصر الفلاحين او قمع انتفاضاتهم . ولم يكن أمام العامة ازاء هذه الاخبار الا الدعاء بالفرج والخلاص من الكربة .

٩ ـ النظام المقاطعجي والمسالة الطائفية في لبنان :

في دراسته النظرية القيمة قدم الدكتور مسعود ضاهر (٩٧) دراسة تاريخية حول اشكاليات التطور التاريخي للمسألة الطائفية في لبنان حاول فيها تقصي جذور المسألة الطائفية في لبنان ، لا في أذهان الناس كما يعيشونها طائفيا ، بل في نمط الانتاج الذي جعلهم يفكرون ويتصرفون طائفيا . وقد حاول التركيز على المسألة الطائفية في مرحلة ما قبل الراسمالية واعتمد تعبير النظام المقاطعجي كنظام سياسي لا كنمط انتاج سائد وفيما يلي مقاطع هامة من هذه الدراسة :

المقاطعجي هـو جابي الضرائب وزعيم عائلـة تسيطر على مقاطعة أو مقاطعات تتوارث حكمها وجباية ضرائبها بتفويض مباشر من المقاطعجي الكبير ، أو الامير الحاكم وبموافقة من السلطة المركزية العثمانية فجباية الضرائب اذن ، هي في صلب العلاقات

المقاطعجية . والمقاطعجيون ، على اختلاف مراتبهم من امراء ومشايخ ومقدمين ، على علاقة وثيقة بجبايـة تلك الضرائب . فهم عادة ، معفون من دفعها . لكنهـم يسعون لجبايتها لانها جانب اساسي من مظاهر نفوذهم وسطوتهم الاجتماعية الطبقية . فـلا سيطرة اجتماعية ـ طبقية دون جباية ضرائب . اذ يحتفظ الجابي لنفسه بأضعاف ما يقدمه للامير الحاكم وبالتالي للسلطة المركزية هؤلاء المقاطعجيون جباة الضرائب ، هم قاعدة السيطرة الطبقية في الامارة الشهابية ، وهم اصحاب حق التصرف بأراضي السلطان او الاميرية لقاء دفع ضريبتها . وبين المقاطعجي صاحب التصرف والفـلاح او الراعي او الحرفي ، المحروم من كافة اشكال الملكية ، تندرج سلسلة من الاعيان في الارياف وتتوزع علىعائلات مقاطعجية صغيرة تعتبر امتداداللمقاطعجيين الكبار وحلفاء لهم . فضريبة الميري تتوزع في الاساس ، على قاعدة ثلاث قوى تدفع الضرائب .

ـ المقاطعجي صاحب التصرف والمكلف بجباية الميري .

ـ الاعيان او زعماء القرى كامتداد للمقاطعجيين وصلة الوصل بينهم وبينالفلاحين

ـ القوى المنتجة الفلاحية التي تعمل على الارض وترتبط بها مدى الحياة .

/

لكن نظام الجباية في التطبيق العملي ، حول تلك السلسلة الى اضعف حلقاتهـا ، اي القوى الفلاحية المنتجـة ، كقوى تدفع بمفردها ، لا ضرائب الدولة فقط بـل اضعاف تلك الضرائب لكل من الزعيم المحلي والمقاطعجي المسيطر على مستوى المقاطعة والامير الحاكم وصولا الى الوالي والسلطان .

فقانون الاستغلال الطبقي يجد تفسيره الكامل في اختلاف التسميات للضرائب التي يدفعها الفلاح. فقد حرمت السلطنةالعثمانية كل اشكال الضرائب خارج الميريالموحدة لكن القوى الطبقية المسيطرة اوجدت تسميات جديدة منها السخرة ، والمعايدات ، والهدايا ، وضرائب الزواج ، والعونـة ، اضافة الى البلص والقروض او التسليف بفوائد فاحشة وغيرها . ففي أسفل السلم الاجتماعي للهرم المقاطعجي يقبع الفـلاح المنتج الذي عليه أنيعول ، بوسائل بدائية جدا واراض صخرية قاحلة وغـير قابلـة للاستصلاح سلسلة من المستغلين المقاطعجيين الذين يعيشون طفيليين على حساب

القوى الفلاحية المنتجة . وهذا الواقع الاجتماعي الذي يسبب بالضرورة ازمات حادة بين قوى الانتاج الضعيفة والمفككة والمنهكة ، وقوى السيطرة المقاطعجية المحاربة والمدعومة من السيطرة المركزية وعساكرها القوية ، هذا الواقع يفسر جانبا هاما من جوانب المسألة الطائفية . اذ ان تلك النقمة والتأزم الاجتماعي الذي تعيشه القوى المنتجة يتحول للانفجار بعيداعن القوى الطبقية المسيطرةاي السبب المباشر والاساسي لذلك التأزم . والطائفية تحاول نقل الصراع عن الارض ، مجال الاستغلال والسيطرة ، الى السماء . فافناء اعداد كبيرة من القوى الفلاحية في صراع مستمر يكون المدخل الطبيعي لبعض القوى المقاطعجية الطبقية المحرومة من السيطرة ، بفعل ظروف تاريخية معينة ، كي تحسن مواقعها الطبقية باسم الطائفية . فالصراع باسم الطائفية هو صراع حقيقي وليس صراعا وهميا . لكنه صراع تشغله قوى طائفية ــ طبقية تحاول استخدام القوى الفلاحية المنتجة في سبيل تحسين مواقعها الطبقية اي سيطرتها الاجتماعية على الانتاج ، وبالتالي على الضرائب . فانتاج الارض كان السبب الاساسي للصراع على السيطرة والنفوذ في مرحلة كانت الحرف والتجارة فيها لازالت في طور شديد الضعف .

فالقضية اذن ، في جوهرها ، تجد كامل تفسيرها في النظام المقاطعجي الذي يسعى دوما الى نهب الفلاحين وتسخيرهم . وجاءت الطائفية تمد هذا النظام بدفع جديد من علاقات التأزم والتناقض الاساسي . فصراع القوى المقاطعجية مع الفلاحين والرعاة الخاضعين لاستغلالهم بدا يدخل حيز الاشكال الطائفية التي ساعد الاستعمار الغربي على بلورتها واظهارها كصراع مصيري بين قوى طائفية . فالرساميل الغربية ، الساعية الى تفكيك كافة البنى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المعيقة لتغلغلها وجدت في الطائفية والصراع الطائفي شكلاملائما تماما لتفكيك النظام المقاطعجي السابق وضرب ركائزه مع وعد للفلاحين بالتحرر من ذلك النظام .

١٠ ــ الصراع بين الحرفيين (العامة) ورموز السلطة الاقطاعية في حلب :

في الوقت الذي بقيت فيه دمشق مغلقة حتى منتصف القرن التاسع عشر عن العالم الخارجي مكتفية بمركزها الديني ، كمركز لتجمع قوافل الحجاج ، شقت حلب

بفضل موقعها الفريد طريق الاتصال مع الشرق والغرب .. ومع أن حلب فقدت احيانا بعض اهميتها في العصر العثماني ، الا انها بقيت بفضل اتصالاتها التجارية مع الهند وفارس والعراق والاناضول من جهة ، واوربا من جهة ثانية ، المدينة التجارية الاولى في بلاد الشام . ويجري الحديث ، اكاديميا ، عن الامكانات المتوفرة لحلب للانتقال الى العلاقات الراسمالية المبكرة ، لولا جملة ظروف داخلية وخارجية قضت على بذور تلك العلاقات في منتصف القرن الثامن عشر وصف طبيب الجالية التجارية الانكليزية في حلب الدكتور « رسل » حلب بانها : عاصمة سوريا ، والثالثة بعد الاستانةوالقاهرة في العظمة والشان بين مدن السلطنة العثمانية واكبر مدينة تجارية في جميع بلاد السلطان (٩٨) .

وفي منتصف القرن الثامن عشر كانت ست قوافل تخرج سنويا من حلب الىبغداد اعظمها كان يعد /١٢٠٠٠/ جمل واقلها شانا بين /٥٠٠٠/ الى /٦٠٠٠/ جمل . اي ان عدد الجمال التي كانت تخرج من حلب باتجاه بغداد بلغ نحو خمسين الف جمل عدا الجمال التي كانت تتجه الى دمشق وكردستان واسيا الصغرى (٩٩) .

وفي حلب ظهرت باكورة المطبوعات العربية عام /١٧٠٦/ بطبع الانجيل وعظات يوحنا فم الذهب(١٠٠) أن ما يميز حلب عن دمشق هو ارتفاع نسبة التجار في المدينة وقوة باسهم الاقتصادي والسياسي باحتكارهم لعدد من فروع الاقتصاد التجاري وعلاقة اغنيائهم بقناصل الافرنج ، ذوي النفوذ لدى سلطات والي حلب والسلطة المركزية في استنبول . وهذا جعلهم يكونون الشرائح الاولى للبورجوازية المبكرة . واضافة الى المصائب التي حلت بالبلاد بسبب طبيعة الدولة العثمانية الاقطاعية وعدوانية عسكرها الانكشاري ، كذلك كان للطبيعة والاوبئة نصيب فيالشقاء والبؤس في كل مكان . وكان الطاعون من اخطر تلك الاوبئة . فقد لا حظ الطبيب الانكليزي (رسل) اجتياحه حلب عشر سنوات . ومن موجات الطاعون هذه ما حدث عام /١٧٤٢/ حيث اجتاح الطاعون حلب على مدار ثلاث سنوات متتاليات ذاقت فيه البلاد الامرين . فتوقف دولاب العمل وتعطلت مشاغل الحرف وتوقفت التجارة وتمزق شمل الاسر وساد المدينة الهلع والكآبة والوجوم(١٠١) .

في عام /١٧٩١/ استفحل امر المجاعة في حلب وبر الشام بسبب انحباس الامطار مما ادى الى هجوم الغلاء وارتفاع الاسعار وعلى ذكر المجاعة والغلاء نظمت في حلب زجلية جاء فيها (١٠١) .

سنة مايتين الف دستة(١) اخذت من الحنطة ، بستة(٢)
وكان بزمان جدي وستي باعوا بزلطة(٣) ست مداد
وبطلت القرضة والدين ما عاد يعطوا قرشين
ومن يوجد عنده مدين خفاهم في هذا الميعاد

وكان للانكشارية في حلب صولة ودولة ونفوذ اكثر من دمشق ، بسبب اهتمام السلطة العثمانية بموقع حلب الاستراتيجي . فهي القوة العسكرية الوحيدة ، الى جانب قوات والي حلب خلافا لما في دمشق ، حيث تعددت القوى العسكرية . وللحد من طغيان الانكشارية وبطشها بالاهالي تزعم الاشراف ، المتحدرون من آل البيت ، حركات العامة وقادوا الصراع المرير ضد الانكشارية خلال حقب من الزمن .

ومعنى ذلك ان القوى المتواجدة في مدينة حلب تالفت من : قوة الوالي وحاشيته قوة السادة الاشراف المعبرة عموما عن مصالح العامة ، وقوة الانكشارية .

وقد بلغ الصراع بين الانكشارية والاشراف اوجه في مذبحة جامع الاطروش عام ١٧٩٧ وقبل ذلك بعدة سنوات عام ١٧٩٤ كانت الانكشارية قد جردت والي حلب من سلطاته ثم نهبت الارزاق الواردة الى حلب من خارجها ، مما دفع الاشراف للدفاع عن المدينة والقضاء على السلب والنهب . وفي عام ١٧٩٧ بلغ الصدام اوجه . وبعد قتال استمر عدة ايام تراجع الاشراف والتجاوا الى جامع الاطروش بجوار القلعة وتحصنوا فيه ، وحاصرهم الانكشارية ومنعوا عنهم الماء والقوت وشددوا عليهم الحصار وبعد ان نفدت مؤونتهم وفتك بهم العطش طلبوا الصلح فامنهم الانكشارية على انفسهم وحلفوا لهم الايمان المغلظة على ذلك . ولكن الانكشارية لم يحترموا عهودهم وفتكوا بهم قتلا وجرحا وسلبا وسبيا (١٠٢) .

١ ـ يريد سنة /١٢٠٦/ هـ الموافقة \١٧٩١\ م. والتاريخ المذكور في الزجل يعود الى ادم .
٢ ـ ست مصريات وهي عملة متداولة .
٣ ـ الزلطة عند العامة ثلاثون مصرية .

.. وطبيعي ان اضطراب حبل الامن في عاصمة الولاية وسيطرة العساكر ،التي لاترعى الذمم ولايهمها الا السلب والنهب والاثراءكانت له آثاره السلبية على ريف ولاية حلب واستمرت الحال هكذا الى ان استفحل امر الانكشارية فهددت نفوذ السلطة العثمانية ، التي دبرت لهم مذبحة عام /١٨١٣/ وشرعت في مصادرة اموالهم المخباة لدى اليهود والتجار الاجانب (١٠٣) . وادى القضاء على الانكشارية الى بروز القوة الثالثة ، اي قوة الوالي وحاشيته ، التي كانت تستفيد سابقا من التوازن بين الانكشارية والاشراف . وقد انغمست القوة الثالثة هذه ، شان الانكشارية ، في المعاصي وابتزاز الاموال والاعتداء على الحرمات . فاستغل حزب الاشراف ، وهو حزب العامة ، هذه الاوضاع والنقمة العارمة ضد الوالي وحاشيته للقيام بثورة عام /١٨٢١/ وطرد حاشية الوالي خورشيد ، الذي سرعان ما حاصر حلب وقطع عنها المياه ومنع دخول المؤن وشدد الحصار من سائر الجهات على البلد المتمرد . وهذا ما عرف في التاريخ باسم حصار خورشيد لحلب . وفي تلك الاثناء كانت الثورات تشتعل ضد السلطة العثمانية في ديار بكر وبغداد . ولكن السلطة العثمانية المركزية في استنبول اهتمت اهتماما بالغا بالقضاء على ثورة حلب . فارسلت الى حلب قوات عسكرية من جميع الجهات مدعومة بالمدفعية وعلى راسهم قوات والي ديار بكر وسالونيك . وبعد حصار اربعة اشهر تمكنت المدفعية من فتح ثغرة كبيرة هجم منها عسكر الجبل الاسود الارناؤوط واقاموا رأس جسر في أحد الحارات . وبعد قتال ضار في الشوارع احتلت القوات العثمانية مدينة حلب وشرعت في اخضاع المدينة والتنكيل باهلها .

وما ان انتهت حلب من حصار خورشيد حتى ضربها الزلزال عام /١٨٢٢/ ضربة صاعقة ادت الى هبوط عدد السكان من مئة وخمسين الفا الى خمسين الفا (١٠٤) . ولم تكد المدينة تجمع انفاسها حتى دهمتها الكوليرا عام /١٨٣٢/ وتلاها وباء الطاعون عام /١٨٣٧/ (١٠٥) وفي هذه الاثناء دخلت حلب مرحلة جديدة من تاريخها بقدوم حملة ابراهيم باشا (١٨٣٣ ــ ١٨٤٠) .

* * *

الباب الرابع

صور من الحياة
في الولايات العربية الشاملة
قبل عهد الاصلاحات
في القرن التاسع عشر

ــ الكوارث الطبيعية ــ المظالم الاقطاعية وآثارها المدمرة :

تحت عنوان (خراب الزراعة والمزارع) كتب محمد كرد علي في خططه ان (١٠٦) البلاد خربت بنزول الفاتحين والمخربين والعاهات الطبيعيــة ، ثم فساد النظام في الدولتين الجركسية والتركية في القرون الوسطى الى هذا العهد ، وقد ظلت قرونا مسرح ظلم وميدان حروب وغارات يهلك الفلاح فيها كما يهلك النمل تحت الاقــدام ، قبل أن يهلك ابن المدن الذي له من اجتماعه باخيه واعتصامه وراء حصنه واسواره بعض الوقاية . كانت القرى التي على جوانب الطرق تخرب قبل غيرها ، وعلى نسبة قرب القرية من المدينة او من طرق الغزاة والفاتحين كان الخراب اليها اسرع من الماء الى الحدور . وكان من دلائل القوة في تلك الاعصر ان تخريب القرى وتلقى النار فيهــا اذا غضب الملك او الامير او المقدم او صاحب الاقطاع على ذلك الاقليم او تلك القريــة وكان قطع الاشجار مــن ابلغ انواع النكاية في الخصم .. وكانت المظالم الارضيــة والمفاسد البشرية أشد تأثيرا على اهل الفلح والكرث والقائمين على تربيــة الماشيــة والضرع من الافات السماوية كالزلازل والاوبئة والقحط من قلة الامطار أو الفيضان أو انتشار جراد أو ديدان وجرذ وفيران .

هذه المظالم التي تكلم عنها مؤرخ الشام نجدها في الوثائق التالية : .

١ ــ رحلة أوليا جلبي /١٠٨٥ هـ ــ ١٦٧٤ / من الاناضول الى دمشق .
٢ ــ مقتطفات من تاريخ الازمنة الحديثة للدويهي .
٣ ــ مقتطفات من تاريخ الامير حيدر الشهابي .
٤ ــ من حوادث دمشق اليومية للبديري الحلاق .
٥ ــ من تاريخ حسن آغا العبد حوادث ١٨٠٣ــ١٨٠٤ .
٦ ــ النكبات .
٧ ــ من تاريخ معرة النعمان لمحمد سليم الجندي .
٨ ــ من تاريخ حماة للصابوني .
٩ ــ رحلة الطبيب الافرنسي ولبت الى بصرى الشام (حوران) عام / ١٨٥٧ / .

١ ـ رحلة اوليا جلبي / ١٠٨٥ هـ ـ ١٦٧٤ / مـن الاناضول الـى دمشـق ـ مقاطـع منهـا ـ

« ... نزلنا بعد ثماني ساعات في قرية الزنبقية على شاطـىء العاصي ، وهـذه القرية واقعـة في واد خصب له كروم وحدائق ذات بهجـة وفيها نحو ثلاثمائة بيـت وقد اشتهرت بجودة تينهـا وجمال زنبقها .. » ثم استأنفنا المسير الى جنوب الـى ان وصلنا الى جسر الشغور وهو مكان موحش على شاطىء العاصي وتحيط به مروج خضراء ، وفيـه خان صغير ، على ان الامن هنا مفقود نرجو الله ان يوفق اهل الخـير لعمران هذا المكان وتوطيد الامن فيه ليسهل مرور الحاج منه .

ثم سرنا الى الجنوب فكنا نجتاز تارة اماكـن صخرية وتارة مستنقعات وآجامـا الى ان وصلنا بعـد ست ساعات الى قلعـة المضيق . وهي قلعـة صغيرة من اعمال ايالة حلب بنيت قرب بحـيرة تسمى باسمها فوق هضبة مشرفة على السهول والآجام المحيطة بها . ثم غادرناها فوصلنا بعد سبع ساعات الى قلعـة شيزر .

ثم وصلنا الى حماة . وبعد ان ذكر الجلبي نبذة من تاريخها شرع يصف حالتها في زمـن مروره قال : وبعد ان استلم السلطان سليم حماة بالامان جعلت سنجقا تابعـا لايالة طرابلس الشام ، ويبلغ عدد جندها حين السفر مما هو في بطانـة أمير لوائهـا ومن الجبجية الذيـن يقدمهم ارباب التيمار والزعامة نحو الفين . وفيهـا مشائـخ للمذاهب الاسلامية الاربعة ونقيب اشراف ووجهاء واعيان وكتخدا وسردار انكشارية وحر حماة شديد لوقوعها في وسط الاقليم الرابع ، وتهب من بريتها ريح سموم. لذلك يكثر السمر في اهلها . ويلبس الرجال جببا وغنابيز ملونـة تكون في موسريهـم مـن الحرير وفي متوسطيهم من القطن او الصوف ، وتلبس النساء في ارجلهم احذية طويلة الساق ويلتحفن بملاآت بيضاء . ويصنع فيها شراشف ومناشف ومناديل حريرية . ولكثرة الشبان الذين يتجندون تكثر الفروسية بين اهلها ، ويصنع فيها سروج ولجـم جميلة متقنة ، اما قمحها فيماثل القمح الحوراني في الجودة ، وكذا الامر في شـعيرها وقطانيها . وتكثر في حماة الخيول الاصيلة .

وفي حماة نواعير عظيمة منصوبة على نهر العاصي ولكل ناعورة اوقاف ذات ايراد وخدم ونجارون مهيأون لخدمتها ... وفي حماة مئات من الحدائق والبساتين التي تروى من هذه النواعير ولا يخلو كل بستان من ناعورتين أو ثلاث ...

وبعد أن انتهينا من حماة أرسل الباشا (الوالي) الاطواخ (١) ثم لحقتها القافلةفي اليوم نفسه وما زلنا نسير في سهول فسيحة حتى نزلنا على جسر الرستن ، وهو جسر عظيم مبني على نهر العاصي وفي قربه هضبة مرتفعة شيدت فوقها قرية كبيرة تسمى الرستن ، قيل ان جامعها موجود فيه ضريح المولى الشهير ابي يزيد البسطامي يزوره اكثر اهل هذه البلاد من العرب والتركمان ويتبركون به . والضريح تحت قبة عالية ، وفي جوار جامعها تكية يأوي اليها نحو مئة من الدراويش والفقراء وابناء السبيل يطعمون ويكرمون . وفي الرستن جاء من دمشق الى لقاء مولانا الباشا كتخدا شواش دمشق وامين شواشها وآغة جندها الانكشاري وغيرهم من موظفي الديوان فمثلوا بين يديه وقدموا له هدايا متنوعة وانضموا الى قافلته .

ثم سرنا بعد الرستن في برار قفراء مدة ست ساعات الى ان وصلنا مدينة حمص وهي مركز لواء يتبع ايالة طرابلس الشام وفيها اميرالاي ورئيس جند ورئيس مئة ولها أرباب زعامة وتيمار يبلغ عدد جندهم مع جند الباشا في ايام الحرب نحو الفين ، وفيها شيخ اسلام ونقيب اشراف ومحتسب ونائب بلدة . ولوقوعها في وسط البرية فقد خرب الاعراب أكثر أعمالها .

---

(١) ـ ان ملوك الشرق قديما ولا سيما ملوك الترك والهند والصين ومثلهم السلاطين المماليك في مصر والشام على ما ذكره القلقشندي في صبح الاعشى كانوا يضعون على راية عظيمة خصلة من شعر ذناب الخيل ملونة ومدلاة ويسيرونها امام جيشهم يسمونها (جاليش) ثم بدل العثمانيون اسمها الى (طوخ)على ما ذكره احمد راسم في التاريخ العثماني المصور وغيروا شكلها . فجعلوه رمحا او عصا طويلة يربطون في راسها اذناب الخيل الملونة بالاحمر ويرسلونها متهدلة ويجعلون في اعلاها ضفائر مفتولة من الشعر الابيض والاسود ثم يزينون هذه الضفائر بكرة مذهبة برز من وسطها هلال . وفي زمن السلاطين العثمانيين صارت هذه الاطواخ تمنح الى ذوي المناصب العالية . وامير اللواء كان له طوخ واحد وامير الامراء اثنان والوزراء ثلاثة والصدور العظام خمسة واذا خرج السلطان الى الحرب كان يسير امامه سبعة اطواخ اهـ . قلت وكان معنى ارسال الاطواخ الى الامام هو اعلام اهل القرى المجاورة قدوم الباشا ليعدوا المكان الصالح لنزول قافلته ويهيئوا القوت والعلف الكافيين لجنده وخيله . والويل لمن كان يتاخر عن هذه السخرة .

ويأتي الماء الى حمص بساقية شقت من العاصي . وفي قلعة حمص جامع السلطان وهو جامع صغير لكنه معتبر ومقصود لاحتوائه على مصحف سيدنا عثمان المكتوب بالخط الكوفي يخرجون به ايام الاستسقاء في السنين التي تشح امطارها . وفيها مدارس وكتاتيب وتكايا وخانات وحمام واحد ويأتي الماء الى هذا الحمام من ناعورة ركبت على النهر العاصي ، وينسج في حمص من الحرير مناشف ومناديل وفوط واكياس وفيها قبور كثير من الصحابة .

ثم غادرنا حمص ووصلنا بعد مسير ست ساعات الى خان يدعى ايكي قبولي « ذو البابين » وهو خان عظيم وسط البادية يستوعب عشرة آلاف راس من الخيل، وقد دعي ذي البابين لأن الغادين والصادين يدخلونه من باب ويخرجون من آخر . وفيها حصن وسط يحتوي على عدد من الجنود يحرسون الطريق من اشقياء الاعراب، ثم سرنا ووجهتنا القبلة فوصلنا بعد سبع ساعات الى النبك . وهي قرية آهلة من أعمال دمشق ذات مياه غزيرة وكروم وبساتين واشجار وفيها جامع ، ولو بني في جواره خان لزاد عمرانها .

ثم بعد مسير ست ساعات وصلنا الى قلعة تدعى « خان القطيفة » وهو من أوقاف فاتح اليمن سنان باشا ، وقد وقف له نحو سبعين قرية ، والخان عظيم جداً لو دخلته قافلة مؤلفة من عشرة الاف رجل بخيلها وجمالها لوسعها وزاد ، ففيه كثير من الغرف والاصطبلات الخاصة بالخيل واخرى بالجمال ومقاصير للحريم ومستودعات للمؤونة وفرن وحمام وحوانيت للباعة ودائرة خاصة بالمتولي ودوائر خاصة بالباشاوات . وكل ذلك مشيد بالحجر وفي وسطه حوض ماء جسيم ويقدم فيه كل ليلة للمسافرين عشاء من حساء القمح المطبوخ باللحم،هذا غير الخبز والشمع وغير علف الدواب.وقد اولم متولي الخان واسمه مصطفى جلبي بن قاسم آغا وليمة عظيمةلمولانا مرتضى باشا، والحاصل ان خيرات هذا الخان وافرة ومشهورة .

ثم سرنا الى القبلة فوصلنا بعد مسيرة ست ساعات الى قرية « حرستا » وهي قرية عامرة فيها ثلاثمائة بيت وكثير من الحدائق والكروم وجامع ، وهنا خرج كل اعيان دمشق وكبرائها لملاقاة الباشا يحملون اليه انواع الهدايا من مأكول ومشروب

وملبوس وغيرها ، كل بحسبه ، وقد قبل الباشا كل ذلك منهم وكان من جملتها مئة وخمسون فرسا من عتاق الخيل تكرم حفظه الله ووزعها على اركان حاشيته .

٢ ــ مقتطفات من تاريخ الازمنة للدويهي :

(١٥١٩ م) وفيها زحف الجراد في بلاد الشام واكل كل الفاكية والبذور وصار الغلاء العظيم حتى ان شنبل القمح بلغ في بلاد طرابلس للماية دينار وفي بيروت للماية وخمسين ، ويقول حمزة بن احمد بن سباط الغربي في آخر تاريخه ، ان في هذه السنة غلت جميع الاسعار خصوصا الحرير والقطن والصوف والكتان واصناف الملبوس وكذلك الحيوان فوصل البغل الى خمسة آلاف وازيد والحمار الى الف وخمسماية وراس البقر الى ثلاثة آلاف وراس الغنم والمعز الى مايتي وخمسين وطير الدجاج الى ثمانية عشر درهم والزيت الى العشرين في الشامي حتى الشجر والخشب والحطب والنحاس والحديد والبولاد وجميع الاشياء زادت عن جاري عادتها حتى حجار العمارة كانت الالف حجر بماية درهم .

/١٥٢٤/ زحف الجراد في بلاد الشام واكل الزروع ثم تبعه الغلاء والنقص .

/١٥٧٢/ توزع القشلق على بلاد الشام فنهبت الدولة البلدان وسلبوا سايقتها واضاموا الخلق فوق الحد حتى كاد الناس تطلب الموت لذاتها وخلت فيها ضياع كثيرة.

/١٥٧٩/ انتشر الطاعون في الديار المصرية والشامية حتى وصل شنبل القمح في اعمال طرابلس الى ماية وخمسين والحمص الى ماية واربعين وقلة الزيت الى ثلاثماية واربعين .

/١٥٩١/ وفيها كان الغلاء العظيم في بلاد الشام وصلت الغرارة الى ماية قبرسي ومات فيها ناس من الجوع .

/١٦٠٧/ وفيها صار القشلق وتفرقت عساكر السلطان على البلدان من حلب الى بلاد الشوف نحو اربع كرات ، وكانت الناس في ضيق عظيم من الغلاء . فوصل شنبل

القمح الى اربعة قروش . فسلبت الدولة جميع ما وجدوا ودام القشلق خمسة اشهر في البلدان ، ثم بعث الوزير اخذه الى حلب .

وفي هذه السنة /١٦٢٢/ كان سبب رفع دولة ابن معن عن عجلون ونابلوس. وفيها ازداد الغلا العام وتحركت اسعار الغلال بزيادة في الثمن .

وكانت سنة /١٦٤٦/ مرخصة ولكن دخل فيها نيسان بارد وكثير المطر فانضربت شجرية الجوز والكرم والتوت وطلعت مواسمهم ممحلة حتى ان نصف رطل الزر عمل في بعض اماكن رطلين شرانق ، وكانت قبل ذلك غلال الزيتون في القسم النصف للفلاح والربع للسلطنة والربع مظلمة فداروه خراج (اي حولوه ضريبة خراج ـــ المؤلـــف) ، وكان ضمان مال طرابلوس وايالتها بثلاث كرات تورد للسلطنة فقطعوا على كـــل فدان وعلى راس الانســان اربع وعشرين قرش وعلى مابة الزيتون خمسة قروش وعلى مايـــة التوت اربعة ونصف فانضامت الرعايا وتشتتوا عـــن مواطنهم وخلت بعض ضـــياع بتمامهـــا .

١٦٧٥ م استقرت ايالة طرابلوس على حسن باشا ، وصيدا على اسمعيل باشا، ودمشق على حسين باشا فنادى باشا طرابلس بالركوب على بيت حماده بسبب كســر المال (اي عدم دفعهم للضريبة ــ المؤلف) . وفي خمسة وعشرين من أيار جرد عليهـــم الكاخية بتسعماية رجل من الدولة وبني يمن واصحاب الاغراض وطردوهم حتى عين النقير فوق افقا ، وفرق بينهم الليل .

وفي سبعة وعشرين من تموز أحضر الشيخ احمد ابن محمد عيادة ابن قانصوه وابن حسن ديب وأمر اولاد عمهم وغيرهم يضربوا فيهما وقتلوهما ، فلما شاع خبر قتلهمـــا وثبوا جماعتهما على بلاد جبيـــل نهبوا وقتلوا فعلقوا النار في حصرايل ونهبوا قـــرى البترون واخذوا سايقة حصرون في الحبة ليخربوا عليه البلدان ويكسروا المال ، فوثب ايضا المقدم قتيبة ابن الشاعر وضمانة البلدان على مشايخ القرى مسكوهم وحبسوهم في جبيل لاجل المال ، وعند هذه الاحوال صدر الامر من الباب العالي بأن باشة دمشق وباشة صيدا يكونوا نجدة باشا طرابلوس على العصاة، وفي اوايل تشرين الاول اجتمعت

النواب من الشام وطرابلوس وصيدا بنحو خمسة الاف نفر تحت قب الياس بسبب الركبة على ابن معن وبيت حمادة فكاتبوا لابن معن يسلمهم العصاة وكاتبه باشة صيدا لا يتوهم عليه،وكان حامي ظهره لكونه محصل المال ومسلك السابلة ، (٢٨٧) فاجتمعوا اولاد العرب والامراء الشهابية في دير القمر بنحو اربعة الاف نفس وردوا الجواب ان مشايخ بيت حمادة اجتازوا عليهم وما استقروا في بلادهم ، وكتبوا الى اسماعيل باشا بأن دعوة حسن باشا كانت على بيت حمادة بسبب كسر عشرين كيس من المال لاغير، وان ابن معن تكفل له بورودها بشرط انه يخرج لهم رهونتهم المحبوسين في قلعة طرابلوس ، فلما وصلت الرهونة الى صيدا اسمعيل باشا دفع العشرين كيس التي كانت عليهم وفلت العساكر .

سنة /١٦٩٦/ كانت قليلة الشتي فنشفت العيون وشحت النهورة وبطلت الطواحين وتحرك الجراد وغلت الاسعار ، حتى في بعض اماكن بيع شنبل الحنطة بأربعة قروش وقلة الزيت بسبعة ونصف وكيلة الرز بقرش ، وابن معن فرض المسعدة في بلاذ الشوف ، وارسلان باشا زاد على المال الحوالي والصرصار والبدار والصليان فتشتت ناس كثير عن مواطنها لشدة الغلاء وزود الظلم .

٣ ــ مقتطفات من « تاريخ الامير حيدر الشهابي » :

/١٦٦١/ حدث طاعون في بلاد الشام اهلك كثيرين ، وكانت الناس بوجل عظيم من الوباء والظلم الذي جرى . وفي هذه السنة قدم علي باشا الى صيدا ، وهو أول من تولاها من الباشاوات وكانت فتنة عظيمة بينه وبين مشايخ المتاولة . وهذه السنة كانت كثيرة العجائب . ففي اول الربيع قدم الجراد الطيار فاظلم الجو منه واكل الزروع والخضر . ثم فقس وغطى وجه الارض فاكل الزيتون والتوت والكروم حتى لم يبق شيء اخضر في جميع البلاد الا بساتين الشام . وعندما طار الصغير منه حجب الشمس وعندما دخل الشتاء حدث برد عظيم وشتاء زائد وتراكمت الامطار والثلوج التي لم يسمع بمثلها وزاد الثلج في السواحل حتى تكسرت منه الاشجار والزيتون ووصل الى البحر ودام ذلك مدة . فاشتد الجوع وزاد الغلاء الى ان بلغ ثمن غرارة القمح الاثني عشر غرشا . وانقطع وجود الملح الى ان بيع الفنجان بمصرية (بارة)

ثم زادت الاسعار الى آخر الشتاء فبلغ ثمن الغراره ثمانين غرشا وزاد الى ان بلغ مد الطحين خمسة غروش . ومات اناس كثيرون من الجوع . واكلت الناس لحوم الحيوانات المائتة . ثم ارسل احمد باشا ابن الوزير الى مصر واحضر قمحا الى الشام حتى بيعت بعد ذلك الغلاء غرارة القمح بثلاثين غرشا . ثم كثرت الاوجاع والامراض في الناس ومات اكثرهم . ثم دام الغلاء السنة التالية حتى ظهور الاغلال . فرخصت الاسعار الى أن بيعت غرارة القمح بعشرين قرشا .

/١٦٦٤/ في آخر تشرين الاول صارت زلزلة عظيمة قتل بها خلق لا يحصى في الموصل وفي بلاد الشوف . وهدمت بنايات واماكن كثيرة . وخربت قلعة بعلبك ، وفي هذه السنة كانت الوقعة في الفلغول عند برج بيروت بين القيسية واليمنية . فقتل من اليمنية عبد الله ابن قائد بيه ابن الصواف وانكسرت اليمنية وانهزموا الى بلاد الشام . وفي هذه السنة ظهر في السماء كوكب شبه السهم بين الجنوب والغرب واتلف التوت والزرع وجميعالاشجار وصار غلاء عظيم . وفيها حدث الطاعون واقفلت بسببه بيوت كثيرة لموت جميع سكانها . وقيل ان قاضي حلب ضبط عدد الاموات به فبلغ مائة وأربعين الفا .

/١٦٧٠/ صار وباء عظيم في الشام وما يليها حتى ان الناس تركت أشغالها لدفن الاموات وقيل انه مات في ثلاثة ايام ثلاثة آلاف . وفيها كان اول استعمال البنادق ذات الشطفة اي ذات الحجر الصوان وعليها الحربة .

١٧٤٧ وفي هذه السنة كان اسعد باشا العظم واليا على دمشق وركب بعسكره لغزو البقاع فركب الامير ملحم بعسكر بلاده الى المغيثة ونزل اليه الى بر الياس فانكسر الباشا ووصل الامير ملحم بعسكره الى سهل الجديدة . ثم رجع واحرق جميع قرى البقاع ورجع الى بلاده منصورا وهابته الدولة . وكان سعد الدين باشا يحبه لانه كان يبغض اخاه اسعد باشا . وكان سبب خروج اسعد باشا الى البقاع انالامير ملحم اخذ حكم بلاد بعلبك واقام بها اخويه الامير احمد والامير منصورا . فتأخر في دفع الاموال الاميرية التي كان تعهد بها الامير ملحم الى اسعد باشا .

وفي هذه السنة /١٨٠٠/ زاد الامير حسين البلص في البلاد وقد فرض غرامة شهرية حتى ضاقت صدور الناس ولم يعد لهم طاقة على الايراد . فشبت الثورة في المتن في شهر نيسان، وكان في المتن طائفةيقال لها بنو القنطار فكبسوا نصيف الحويس مدبر الامر منصور في المتن واحرقوا بيته وتعطلت اشغال الامير حسين في المتن فركب جرجس باز والامير قعدان وبعض اكابر البلاد الى كفر سلوان بالمغاربة الذين عند الامير حسين وابطلوا الثورة وادبوا البعض من اهالي المتن . وجمع جرجس باز المال السلطاني ضعفين . ثم جمع المال ايضا ضعفا ونصفا فتضايق الناس من ذلك اشد الضيق . وكان الامير بشير عرض هذا الى الجزار بعد رجوعه من البحر عن يد الشلق عثمان سكمان باشي . وكان له صداقة معه فوعده بصفو الخاطر عليه ولاجل ذلك زاد الطلب على الامير حسين . وارسل الامير حسين ابن عمه الامير سلمان ابن الامير علي لفرض الضرائب على المتن فطردوه وضبطوا خيله فعرض الامير حسين هذا الى الجزار فأرسل عسكر ارناؤوط نحو ثلثمائة رجل فاتحد اهالي المتن وخابروا بقية اهالي البلاد وصار الجميع يداً واحدة وتعاهدوا انهم لا يقبلون مطالب بلص . ولما بلغ الامير حسين ذلك وراى ان العسكر الذي ارسله له الجزار غير كاف طلب عسكرا ايضا من الجزار وعزم ان يهاجم المتن .

/ ١٨١٢ / في شهر ايار (مايو) الموافق لشهر جمادى الاول قدم الى هذه البلاد جراد من نواحي بلاد نابلس وغرز في السواحل البحرية من بلاد صفد الى طرابلس وكان جيشا عظيما للغاية اذا انتشر حجب الشمس . فهال الناس امره وايقنوا باتلاف الاغراس والغلال تلك السنة ففرض الامير بشير على جميع اهل بلاده ان يحضر كل رجل نصف مد من بزر ذلك الجراد المدفون في الارض . وقام على ذلك مباشرين في كل مكان يجمعون اليهم ذلكالبزر ويحرقونه بالنار فأخذت الناس تحرثالارض وتستخرج ذلك البزر . واجتمع الى هذا العمل كل من كان في البلاد من جميع اقاصي الجبال الى اطراف السواحل . فجمعوا منهماينوف عن خمسين غرارة . والباقي منه فقس قبل استيفاء جمعه وسعى في اراضي السواحل وكان كثيرا جدا . فامر ان تبادر الناساليه ويصنعوا له حفرا ويطردونه اليها . وكان يرسل الامراء بني عمه واكابر اعوانه لمراقبة ذلك فاهلكوا منهمالا يقدر . وغلب الباقي قبل استيفاء العمل فزحف الى حيث لايحفر

له حفر في ارض صلبة لذلك جمعوا له اغصانا يابسة وبلانا وخلافه مما يسهل حرقه وكسوها باغصان مورقة وصاروا يطردون الجراد اليها وحالما تمتليء منه يحرقونها فابادوا قسما اعظم . وما زالوا مواظبين على ابادته وحرقه حتى ابادوه ولم يتضرر منه احد وكان ذلك التدبير اختراعا من الامير بشير لم يسبقه اليه احد . واما بقية الاماكن التي غرز فيها ولم يجمع فانه فقس فيها وانتشر حتى لم يدع فيها خضرة . وفيها امر الامير بشير بابطال الخفارة من جميع اطراف بلاده وكانت عادة قديمة مرسومة على خان الحسين وخان المديرج في الطرق الجبلية وعلى خان الناعمة وفرضة جونية وجبيل في الطرق البحرية واذن ان تسير القوافل والتجار على جميع الطرق بالامان والسلامة بدون أن يغرموا بشيء فكانت رحمة عظيمة للناس .

/ ١٨٢٧ / احدث وزير دمشق مظلمة على سبع عشرة قرية من البقاع فأمر الامير اهل تلك القرى اللبنانيين ان يرجعوا بما لهم الى بلادهم فرجعوا فخربت البقاع فارتضى وزير دمشق حينئذ بأخذ عشرين الف غرش من تلك القرى وكتب الى الامير كتابا مضمونه انه رتب العشرين الف غرش عوضا عن المال الاميري والقسم (الثلث) وفوض الامير بذلك .

٤ ـ من حوادث دمشق اليومية للحلاق البديري (١١٠) :

ان من يقرأ كتاب حوادث دمشق ١١٥٤ ـ ١١٧٥ هـ ، ١٧٤١ ـ ١٧٦٢ م للشيخ احمد البديري الحلاق (١٥) يرى فيه صورا حية للحياة في تلك الحقبة، وللصراع بين الفئات الاجتماعية المختلفة . وبما ان البديري كان من العامة فانه اهتم بتسجيل حياتها من منظار مفاهيم ذلك العصر دون ان يدخل في التفاصيل ، لان الحوادث الاخرى شغلته ايضا .

لقد دون البديري ماجرى في دمشق وحدها : من تولي الباشوات وكبار اصحاب المناصب وعزلهم ومصادرة اموالهم كالمتسلم والدفتردار والقاضي والمفتي واغوات العسكر ، وانباء الحج في طلوعه وعودته وما جرى له في الطريق . وفتن الاجناد ، ونهوض الاسعار واضطراب الامن ، وفساد الاخلاق وانتشار الامراض وغزو الجراد

ووفاة عالم او متصوف اونقيب حرفة وحدوث ظواهر طبيعية منريح شديدة وكسوف وخسوف وزلازل ».

ان مايهم بحثنا من تاريخ البديري في منتصف القرن الثامن عشر هو الامور التالية :

١ ـ ارتفاع الاسعار
٢ ـ تحركات العامة
٣ ـ استثمار الطبقة الحاكمة للفلاحين .

١ ـ ارتفاع اثمان المواد الغذائية من خبز وكعك وعسل ولحم وسمن وجبن ومواد الوقود من فحم وحطب شغلت حيزا بارزا من كتاب البديري . وكان المؤلف يسجل اثمان الحاجيات سنويا معتبرا ان ارتفاع اثمانها او انخفاضها مقياس عدالة الحكم او فساده . فهو رد الغلاء الى جشع الحاكمين وتكالبهم على تخزين المؤن واهمال القاضي التفتيش على الاسواق وانقاص الحكومة قيمة العملة .

وسننقل فيمايلي مقتطفات مما كتبه البديري في مجال الاسعار :

«... غير ان الغلاء لم يفارق الشام ، فقد دخلت هذه السنة (١٧٥٠ م) ورطل الخبز بخمسة وبستة مصاري ، ورطل الارز بعشرة مصاري ، ورطل اللحم بثمانية وعشرين مصرية ورطل الدبس بتسع مصاري واوقية السمن بستة مصاري والعملة مغشوشة ، والفلوس غير منقوشة ، والنساء باحت والرجال ساحت، والحدود طاحت .

وبعد مجيء الحاج اسعد باشا (العظم) من الحج الشريف سنة (١٧٥٠ م) وجد داره قد تمت عمارتها . فلما دخلها زاد فرحا وابتهاجا وسرورا ، فذبح الذبايح واعطى المنائح ، واقام بها بلذة عيش .. غير ان اهل الشام في اكدار من غلاء الاسعار ، وبخل التجار وانفساد الاحرار وضعف الصغار وعدم رحمة الكبار والحكم لله الواحد القهار . فلقد صار رطل اللحم ... و ... والناس في أسوأ الاحوال .

ثـم دخلت سنة خمس وستين ومـائة والف (الموافقة لعـام ١٧٥١ م) نهار السبت فاستبشر الناس بقدومها . حيث ليلة الهلـة هطل مطر غزيـر وفرحوا وزرعوا وفلحوا ، وبدات ترخص الاسعار غير انـه ما فيـه من يفتش علـى الخلـق بالرحمة . . . ، وانظر غلاء الاسعار : فقد اقبلت هذه السنة بخيراتها وبركاتها ،ورطل الخبز . . . فالأغنياء منعمون والفقراء صابرون .

. . . والغـلاء في كل شيء (عـام ١٧٥٤ م) حتى في التراب والقصرمل والاحجار والحديد والخشب ، وغير ذلك مـن ادوات العمارة ، بالجهـد الكلي حتى يحصل الانسان على معلم اونجار ، واجر الواحد بدينار ولايوجـد ، والكلس واللبن لايوجدان وهلم جرا . فقد ضاقت الانفاس والاشياء زادت عن حد القياس ، والباشا ومن حوله يجمعون المال في الاكياس (١٨٥) .

. . . وفي هذه السنة (١٧٥٩ م) المطر غزير والطاعون المفرط والوباء الزائد الحد والفاكهة قليلة جدا، والغلاء مطنب كما اسلفنا. . . ومابقي للفقر حال. وفي اثنين وعشرين شعبان من هذه السنة جاء عثمان باشا من الدورة واحواله مسرورة . معنى ذلك انه جمع مالا كثيرا من دورته في مناطق حوران وشمال فلسطين وعجلون .

٢ ـ تحركات العامة ضد الغلاء واحتقارهم للباشا وتصديهم للاعيـان والعلماء ورجال الدين ، واتهامهم باعانة الحكام على الشعب .

وفي يوم السبت الثامن والعشرين من جمادى الاولى من هذه السنة (١٧٤٣ م) قامت العامة وهجمت على المحكمة وطردوا القاضي ، ونهبـوا الافران . وسبب ذلك كثرة الغلاء والازدحام على الافران وقلة التفتيش على صاحب القمح والطحان والخزان فتلافى حضرة الوالي سليمان باشا هذا الامر ، وارسل يشدد على الطحانة والخبازة ويهددهم ويخوفهم فحالا وجد الخبز ، وتحسن وكسـد ، بعد ما كانت غالب الناس تبات بلا خبز ، فابتهلت الناس بالدعاء لحضرته .

وفي يوم الخميس خامس جمادي الثانية من سنة / ١٧٥٦ / دخل الوالي الجديد

حسين باشا مكي الى دمشق بموكب عظيم حافل بالافندية واعيان الشام وبالانكشارية كلها خيالة ، والقبقول كلها مشاة في العدد الكاملة والاسلحة المزخرفة والزينة الشاملة، ووقف العامة والخلق تدعو له وتصيح وتستغيث من جور اعيان الشام المقصود باعيان الشام رؤساء جند الانكشارية بها والغلاء .وثاني يوم جاءت الافندية والاعيان للسرايا لاجل السلام على الباشا ، فوقفت الناس والعامة في طريقهم ، فلما مروا ليدخلوا السرايا قامت العامة بالصراخ والضجيج ، وصاحوا عليهم وقالوا : ارجعوا لابارك الله فيكم ، انتم منافقون وتعينوا الحكام على ظلم الفقراء والمساكين ، واكثروا من سبه وشتمهم ،ورجموهم بالاحجار وصارت حالة مزعجة. ففتح الباشا باب العدل والتفتيش على الرعية. حتى صار رطل الخبز بثلاث مصاري . ثم اشتغل بالظلم كأسلافه ، فرجعت الاسعار الى حالها الاول .

٣ ــ استثمار الباشا والسلطة المحلية في الولاية للفلاحين :

كان باشا دمشق يغتنم فترة التحضير للحج للقيام مع بعض جنده . بجولة تفتيشية في جهات نابلس وعجلون ، المشهورة مع بيت لحم والخليل بالخروج على الدولة والامتناع عن دفع ماسمته الطبقة الحاكمة المستثمرة اموال الدولة . هذه الجولة اطلق عليها اسم الدورة وهدفها جمع مال الدولة من فلاحي المناطق الجنوبية من ولاية دمشق وتاديب المتمردين عن دفع الضرائب المجباة باسم الاعداد لقافلة الحج. والبديري في مذكراته لايذكر لنا الا تاريخ ذهاب الباشا الى الدورة وايابه دون الدخول في تفاصيل الرحلة . ولاشك ان الباشا وجنده كانوا يستأثرون بنصيب وافر من اموال الدولة مستثمرين بذلك الفلاحين دافعي الضرائب وكانت لجند الولاية مصلحة في ابقاء هذا الاستثمار بأبشع صوره ، ولكنهم تنازعوا فيما بينهم وانحازوا الى هذا الفريق او ذاك بهدف الحصول على اكبر قدر من الغنائم .

يروي لنا صورا مقتضبة من نهب الطبقة الحاكمة للفلاحين نذكر بعضا منها :

« وفي ذلك اليوم (من عام ١٧٤١ م) جاء خبر قتل متسلم دمشق ، (وهو نائب الباشا في غيابه) قتله عرب الزبيد وقتلوا من جنده جماعة كثيرة ، وذلك لما كانت هذه العرب عاصية على الدولة خرج المتسلم المذكور ومعه جماعة من العسكر،

فساروا حتى وصلوا للعرب المذكورة ، ففاجأهم المتسلم وجنوده على حين غفلة بالقتل وغيره ، وارادوا اخذ اموالهم ومواشيهم ، فردوا عليهم رد غيور صبور فقتلوا المتسلم المذكور وجماعة من عسكره » وبعد أن يروي البديري قصة جلب جثة المتسلم من اللجاة مضرب عرب الزبيد يشرح ظلم هذا المتسلم » وكان اسمه ابراهيم ، وهو مملوك سليمان باشا بن العظم حاكم الشام ، وكان مع عدل مولاه ، له ظلم وعدوان وجراة على الخاص والعام ، وكان يأمر بالقبض على كل من رآه بعد العشاء ، ويأمر بتقييده في الحال بالحديد ، الا ان يأخذ منه مال كثير واذا اذنب احد ذنبا ، ولم يقدر على قبضه يقبض من يقدر عليه من اهله وقرابته ، ويلزمه بمال عظيم ولا زال بظلمه وعتوه الى ان اخذه الله .

« وفي آخر ربيع (من عام ١٧٤٦) ارسل حضرة اسعد باشا العظم عسكرا عظيما الى مدينة بعلبك لقتل واليها الامير حسين . فلم يجدوا له اثرا ، فدخلت الاعوان ونهبوا وسلبوا وفعلوا ما فعلوا » .

(وفي تلك الايام ارسل حضرة اسعد باشا جملة من العساكر الى العرب فجاؤوا برؤوس من العرب وجمال وأغنام وسلب وغير ذلك . وقد أرهب حضرة اسعد باشا المذكور الكبار والصغار) .

« وفي يوم الاربعاء (من عام ١٧٤٧) جاء خبر بأن عرب عنزة نهبت عرب الرشا ، وان الاكراد الذين كانوا مع عرب عنزة اخذوا جميع ما نهبوه وسلبوه من مال وجمال وغنم ونساء . وكانت الغنم كثيرة لايحصى عددها الا الله ، وان الواقعة كانت مهولة وانه قتل من الفريقين خلق كثير والمساعد للعرب حضرة اسعد باشا . فجاؤوا بالاغنام الى الشام ، وقد كان اهل الشام في غلاء اللحم وأكل الذرة والشعير لهم سنين ، فبيع رطل اللحم في هذه السنة بسبعة مصاري وثمانية الى العشرة ، مع علم الناس انه سلب حرام فمنهم من ترك اكله وهم اقل من القليل . والباقي وهم عموم الناس لم يبالوا فانا لله وانا اليه راجعون » .

يذكر البديري مغادرة اسعد باشا وجند الشام دمشق «ولما وصل الى البقاع خرب بعض قرى للدروز وحرق ونهب وقتل ، ثم نجوا بطرشهم (اي الاغنام) والعيال ،

وتركوا الخيام والمال ، وذلك بعد ما قتلوا جماعة من عسكر الباشا وجرحوا ... ثم نزل في البقاع وامر بحصد زرع الدروز ، فحصدوا (زروع) البقاع والفلاء متزايد ، والجراد في أرض الشام زايد » .

« بلغني عن أسعد باشا وهو نازل الى جبل الدروز (جبل الشوف) بلغه بأن ضيعة من ضيع البقاع الى الدروز . فأمر عسكره بنهبها وسلبها ، فلما وصلوا اليهم تلقتهم أهلها بالبشر والفرح والسكون ، وهم عما يراد بهم غافلون ، ثم انزلوهم وذبحوا لهم وضيفوهم ، فنزلوا وأكلوا واكتفوا ، ثم قاموا وجردوا عليهم السيوف ، فصاحوا عليهم لا تفعلوا انتم أصدقاؤنا ونعم الضيوف . فلم يسمعوا بل قتلوا منهم جماعة وجرحوا ، فطلبوا الهزيمة حالا وفروا من وجوههم، فنهبوا متاعهم ومصاغهم واموالهم ثم طلبوا النساء فانهزمن من بين ايديهم ودخلوا بعض البساتين هناك ، وكانوا يزيدون على ثلاثمائة امراة وبنات أبكار .

وهذا نقله لي من اطلع على حقيقة هذا الخبر . وحرقوا القرية بعد ما نهبوا جميع مافيها ، وترك اهلها بالويل والتنكيل وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

ثم يروي البديري قصة وساطة والي صيدا بين الدروز اي فلاحي جبل لبنان ، واسعد باشا العظم والي دمشق: الى ان يقول : « وقيل ان باشة صيدا ارسل يطلب من اهل الجبل الى اسعد باشا جملة من المال ، فحلفوا ان لا يعطوه ولا عقال ، ولكن اذا ارسل اولادنا المسجونين في قلعة دمشق ، ارسلنا له أربعين كيسا ، الذي هي علينا معتادة ، والا دعه يفعل ما اراد ، فوالله ان حرك ساكنا لنهد من عليه البلاد ، فنحن ما الذي فعلنا حتى يقابلنا بهذه الامور ، اما كفاه انه اهرق دماءنا وأباح مالنا ونساءنا ، وقد اعدم لنا اكثر من مائتي كيسا من الحنطة والحبوب » .

« ثم دخلت سنة احدى وستين بعد المائة والالف، وكان أولها محرم الثلاثاء (الموافق ٢ كانون الثاني ١٧٤٨) وقد خربت القرى من جور الدالاتية ، ومن اعمالهم التي هي غير مرضية » .

« وبعد عدة ايام (من عام ١٧٥٧) قطع الباشا خرج (مرتب أو علوفة) بعض

العساكر والبيارق فصاروا يغيرون على القرايا ، وينهبون الاموال والاعراض والاولاد ولا تسأل كذلك عن عسكر الباشا فانهم نهبوا البساتين وكسروا الشجر وشلحوا البشر » ...

وأرادت أهل دمشق أن تقاتلهم ، لكن لم يجدوا احد يأخذ بيدهم واكابر الشام لم تتكلم بخير ، والامر لله » .

٥ ـ من تاريخ حسن آغا العبد حوادث /١٨٠٣ـ١٨٠٤/ (١١١) :

أثناء غياب والي دمشق عبد الله باشا في الحج عام /١٨٠٣/ اصبح حاكم دمشق مدة غيابه حسن آغا قائد الانكشارية اليرلية . وعن هذه الفترة كتب حسن آغا العبد واشتغل حسن آغا بالظلم في الشام على القرايا (القرى) في الطروحة والاكراميات وفرض الذخاير وغير ذلك من المظالم » .

وبعد رجوع الوالي من الحج جهز حملة للاستيلاء على طرابلس الشام من حاكمها العثماني « وفي خروجه من الشام خرب بعض البلاد من قرايا الشام ونهب العسكر بعض قرايا الشام الى أن وصلوا الى طرابلس » ..

بعد قتال بين العساكر العثمانية انسحب قائد قلعة دمشق الكنج احمد مع الفين من السكمان والدالاتيه و « توجه » والكلام لحسن آغا العبد « نحو المزة » فنهبوا المزة والمعضمية وجديدة عرطوز وهكذا جميع البلاد هلي (التي) بطريقهم من حمير وخيل واواعي وغير ذلك دون أن يكون لهؤلاء الفلاحين اي ذنب .

وعند مجيء الوالي الجديد ابراهيم باشا الحلبي عام /١٨٠٤/ كتب حسن آغا العبد « واستقام ابراهيم باشا في الشام وعسكره قايم على النهب واخذ الدراهم ، وفي الشام على البساتين وقطع الانهر ونهر الكواكه وغير ذلك . ثم ذهب ابراهيم باشا الى الحج وبعد عودته « دشر عساكره على نهب ضيع الشام » اي اطلق ايديهم بسرقة القرى ، وعندما قدم الوالي الجديد للشام عبد الله باشا « راح ياخذ مال الميري من نابلس فعارضوه وصار بينهم وبين عسكر عبد الله باشا جنك (قتال) ، وانكسر وما اعطوه مال ميري » .

٦ ـ النكبات :

في كتابه النكبات يلخص الكاتب المعروف امين الريحاني تاريخ البلاد بالمقاطع التاليـة :

« خرجت بلاد الشام من الغزوات الصليبية واغارات المغول ومظالم المماليك .. ومن مخالب الاوبئة والمجاعات وهي على اخر رمق من الحياة لاثروة ، ولا علم ، ولا صناعة ، ولا امل يعيد اليهـا النشاط للعمل ، ظل ارباب الاقطاعات مثلما كانوا في دولة المماليك يضمنون الخراج ، ويحملون الكرباج فيدفعون للولاة بما يجمعون وهـم في مـا يجمعون لا يرحمون ولا هـم يرحمون . فاذا غضب الـوالي على احدهم لتاخره عن الدفـع مثلا يرسل عليـه جيشا من الانكشارية فيخرب قراه ، ويستصفي اموالـه ، ويأسر اهلـه ، ويسبي نساءه ، فهل يلام المسكين اذا حمل الكرباج .. « ولا تظن ان السلطان الصالح المقتدر كان يستطيع ان يصلح امرا في هذه السلطنة القائمة على حدي السيف والدينار .. « محمد الثالث قتل يوم جلوسه على العرش تسعة عشر اخا وعشر جوار حاملات من ابيه وكان مع ذلك صالحا عابدا ، ساعيا في اقامة الشعائر الدينية يتظاهر الناس بالفقر فيدفنون اموالهم في الارض لتنجو من المصادرات والسرقات » . حوالي منتصف القرن السابع عشر قام البطريرك مكاريوس الحلبي بسفرة نشرها فيما بعدقسطنطين الباشا وجاء فيما كتبه الحلبي(١١٣) « وكان في الشام جباة الخراج عتق كفرة اشرار وما يقدر احد على عزلهم لانهم كانوا يدخلوا يبرطلوا الخراجي كل سنة ويبقوا جباة بحمايته ويتحكموا بالفقراء والمساكين » .

جمع المال هو المحور الاساسي الذي قامت عليه اذن الدولة الاقطاعية العثمانيـة وفي هذا المجال عبر الريحاني عن التاريخ الاقطاعي العثماني احسن تعبير عند ما قال : « وهو ذا الطوخ جاء يبشر بقدوم الوزير . هاتوا المال والارزاق ، وتعالوا قدموا فروض الطاعة »(١) .

---

(١) ـ الطوخ ذنب حصان معلق من اسفله في راس عصا نحو ثلاثة اذرع وشعره مسدول عليه . فاذاسافر الوزير (الدالي) يرسل الطوخ الواحد قبل سفره بيوم الى محل نزوله فيستعدون لاستقبالـه ويهيئون ما يلزم له ولحاشيته ودوابه ويمشي امامه في السفر طوخان اثنان .

● ويروي الطباخ الحلبي صاحب « اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » ان لوالي حلب جبار زاده جلال الدنيا باشا (١٢٢٧ هـ / ١٨١١ م) طريقة جديدة في التغريم والارهاب . فكان يرسل من طرفه اثنين حاملين بلطة يأتيان بمن تجب مصادرته ، فيزج في السجن ، ويوضع في رقبته سلسلة بها شوك ، ثم يطالب بما قرر عليه . وكلماخنقوا واحدا اطلقوا مدفعا فكان يعلم عدد المخنوقين في الليلة من عدد المدافع .

● وحول سياسة هؤلاء الولاة كتب بريك (١١٥) عن والي دمشق عبد الله باشا الشتجي ما يلي : « دخل على الوزير (أي الوالي) في مدة سبعين يوما نحو اربعة آلاف كيس من ظلم اهالي دمشق من الموالي (١) والرعية والحرف ومن النصارى والافرنج واليهود ومن البساتنية ومن أهالي الاراضي ومن أهالي القرايا التي حوالي الشام الى ان فقد القرش من الشام بالكلية وعساكر الوزير طافت على القرى والضيع التي حوالي الشام ونهبوها نهبة خفية وضربوا البلاد والزراعات ورحلوا الفلاحين وخربوا البلاد واراد صرف عملة ذهبية مغشوشة بالقوة فحينئذ سكرت البلد واختفت الرعية الاسلام والنصارى جمعة زمان ولا احد يخرج خارج باب داره الى ان طلع الباشا للدورة

● وفي كتاب ابن جمعة(١١٦) نجد الوصف التالي : « وفي هذه الايام كان الظلم الشديد الزايد وكثرت العوانية حتى صارت ارض الشام مشغولة بالظلم في شرورها فاعلة مفعولة . وتمادى هذا الحال وقل المسعف حتى بالقال ... اما اهل البلد لم يبق لهم جلد وحارت عقول المحلات من قول هات هات ، وهم رعايا بادية بين ذياب عارية .

● وحول حال الشام في اول القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) كتب محمد كردعلي في خططه (الجزء الثاني ص ٢٨١) ما يلي :

وسكان هذا القطر كسائر الاقطار العثمانية كالارقاء لاعمل لهم الا ارضاء شهوات حكامهم من وطنيين وغرباء ... وندران يجيء من الاستانة رجل صالح في اخلاقه

---

(١) المراد بالموالي الاشراف من أهل دمشق .

معروف باستقامته وكبر عقله وسعة معرفته .. وقد مهر رجال هذا الدور في تزيين الباطل والباسه ثوب الحق وغدا قتل الانسان وسبي النساء والصبيان وخـراب العمران من الامور المألوفة في تلك الازمان .

واضاف كرد علي واصفا الحالة في كتابه دمشق مدينة السحر والشعر ما يلي : وزاد (١١٧) في هذا الدور ظلم الانكشارية وكثر اذاهم ، يعبثون باعراض الرعية ، ويستبيحون المدينة وقراها ، لا يكاد انسان يأمن شرهم وعتوهم . وزادت فظائعهم لما انشئت فرق جديدة من الجند ، وبدات المنافسة في الشوارع .. وكان الجند اذا شتوا بدمشق وهم الوف يلزمون اهل المدينة بأكلهم ومبيتهم ، فاذا عزموا على السفر يأخذون من كل دار ترحيلة اي مبلغا من المال نفقة الطريق .

● ولهذا « كما كتب ناشر تاريخ الشيخ ضاهر العمر »(١١٨) كان عسكر الدولة هو البلاء الاعظم على اصحاب القرى والمزارع الذين لم يكن لهم قوة دفع التعدي وخاصة في السهول . وكان عسكر الدولة هؤلاء مكروهين ومحتقرين وكـان يضرب المثـل بسفالتهم ومما هو دارج قولهم فلان نظير عسكر الدولة ملحه على ذيله ، اي لا ذمة له ولا عهد ولا يذكر الخبز ولا الملح عندما يتناول الطعام لدى الفلاح فسرعان مايتنكر لهـم .

● والنابلسي احسان النمر صاحب كتاب « تاريخ جبل نابلس والبلقاء ، حوادث عهد الاقطاع» يصف حالة بلاد نابلس فيالعهد العثماني بما يلي(١١٩) : اصبح حكم نابلس لحكام لا يهمهم الا الحصول على الاموال وكانوا يبدلون ويغيرون باستمرار ويستبدون بالاهالي ويعاملونهم بمنتهى القسوة بواسطة جنودهم من المماليك الانكشارية . وكانت الثورات فيها (بلاد نابلس) لاتنقطع فكثر اللصوص والاشقياء وتخربت المزارعوالقرى بالاضافة الى المجاعات والاوبئة فاقفرت نصف القرى والضياع من السكان .

● وكان والي دمشق في اواخر القرن الثامن عشر يحارب الجزار في عكا ، والامير بشير يحارب الامير حيدر في لبنان ، وقائد الاسطول العثماني ينصح بعض احياء بيروت بمهاجمة الاحياء الاخرى ، والانكشارية في حلب يذبحون الاشراف وينكلون بهـم في جامع الاطروش ، والجنود الدالاتية ينهبون قرى دمشق ويخربونها . والدولة راضية

بهذه الفوضى ، بهذه الفتن ، بهذه النكبات البعيدة عنها بشرط أن يقدم اربابها للسدة الشاهانية ما عليهم من الطاعة والمال .

● كان احد آثار الاحتلال التركي الاقطاعي لبلاد الشام ومصر والعراق تراجع الثقافة العربية ، التي بلغت أوجها في القرون الخوالي . واخذت الاساطير والخرافات والطرق غير العلمية تحتل مكان الصدارة في قلب المجتمع المنهك المستثمر المهان . واصبحت في طي الكتمان المنطلقات النظرية والطريقة النقدية لعالم الاجتماع ، والمؤرخ العربي الذائع الصيت ابن خلدون (١٣٣٢ — ١٤٠٦) وغيره من ائمة الحضارة العربية الاسلاميـــة في العصر الوسيط .

فقد كان العصر العثماني عصر جمود على القديم وتلقي الاقوال بالتسليم من دون تمحيص للصحيح من السقيم (١٢٠) .

● كانت الاوصاف التي تطلق على السلطان العثماني في القرن التاسع عشر مـن قبل أرباب العلم فطاحل الرجال واساطين العلم والحكمة وفي ذلك العصر مرآة صادقة لوضع الفئة (المتعلمة) المذهولة من انحدار اخلاقية ذلك العصر الاقطاعي المتمثلـة في السلطان الحاكم الاعظم ، واتباعه الباشا والمتسلم والقائم مقام والآغا الانكشارية الى آخر السلسلة الاجتماعية والادارية . ولم يكن هم هؤلاء جميعا سوى الاستئثار بالثروة واستخدام السكان وتسخيرهم في انماء هذه الثروة . وكانوا ينظرون الـى الطبقات المظلومة نظرة استهانة واستخفاف ، نظرة انسان شره الى بقرة حلـوب . وبسبب نظام الالتزام وتحميل الناس ولا سيما الفقراء منهم ما لا طاقة لهم به مـن ضروب الظلم اشباعا لنهمهم الى المال ، ركنت الفئات المنتجة من الشعب الى الخمول فنضبت الثروات واختل نظام الانتاج وتأخرت المهن والصناعات . وبما ان الدولـة لم تهتم بحماية الناس من قطاع الطرق والانكشارية والملتزمين وسائر اجهزة الدولـة الاقطاعية ، فلم يبق في نفوس الناس اثر من حب ارضهم فضعفت فيهم اسباب الهمة وماتت قلوبهم من الظلم فهجروا قراهم وأماكن عملهم فازداد الخراب والدمار (١٢١) .

٧ ــ من تاريخ معرة النعمان لمحمد سليم الجندي :

وفي سنة /١٢٢٨/ ه ثار اهل المعرة على رجل من بني العظم ، يقال له : يحيى بك كان متسلما «حاكما اداريا» في المعرة وسبب ذلك ان داره التي كانت مسكنه داخلا، ومقر حكمه خارجا كانت متصلة بحمام يقال له : الحمام التحتاني ، فثقب جدار الحمام ، وجعل ينظر الى النساء وهن عاريات فمن اعجبته توسل بكل ما اوتيه من حول وطول الى الاتصال بها ، فشعر اهل المعرة بذلك واتفقوا على قتله ، وانتدبوا من كل اسرة رجلا ليكونوا شركاء في دمه ، فذهب المندوبون الى داره ليلا وطرقوا الباب فخرجت جارية فسألوها عنه فادعت انه ليس في الدار ، فدخلوا الدار عنوة ، ونقبوا فيها فلم يقفوا له على اثر ، واشتدوا على الجارية لتدلهم عليه ، فلم تغير قولها ، فخرجوا يتعثرون بأذيال الخيبة .

وكان يحيى رأى هذا الجمهور على باب داره ، فعلم انهم يريدون الفتك به ، فتدلى الى بئر في داره واختفى فيها ، وامر الجارية ان تقول : انه ليس في الدار ، ولم يفطن المنتدبون لذلك فلما قفلوا راجعين استنفر اعوانه وجنوده وبطانته ، واراد هو واشياعه في داره ، فلما ضاق بهم ذرعا خرج الى سطح دار مصاقبة لداره وتدلى بحبل من السطح المتصل بسطح الحمام المذكورة ، وكان الناس اقاموا له الرقباء والارصاد ، فرآه الرقباء الذين كانوا في منارة الجامع الكبير ، وانذروا به الرقباء الذين كانوا على سطح السوق وغيرها فرماه رجل برصاصة فأرداه قتيلا .

وفي سنة /١٢٣٧/ هـ حدث زلزال عظيم في حلب ليلة الاربعاء في الثامن والعشرين من ذي القعدة الموافق شهر اب ومكث اربعين يوما ، وفي كل يوم تحدث هزة حتى هدم بسببه اماكن كثيرة في حلب وغيرها من البلدان الحلبية ، مثل كلس ، وانطاكية ، والمعرة ، وما جاورها ، حتى قيل : ان عدد القتلى الذين ماتوا تحت الهدم نحو عشرين الفا .

٨ ــ من تاريخ حماة للصابوني :

في نصف القرن التاسع امتلات حماة وقراها بالتركمان ، وكان الحاكم يأخذها

مقاطعة يدفع لجهة الدولة شيئا معينا وله ان يفعل مايشاء على حسب ادارته العقلية فكان يعين من قبله اميرا للجند ورجلا آخر يلقب (صوباشي) وظيفته تفقد شؤون البلد وتثبيت الامن والتفتيش على السارقين والاشقياء ولكل منهما اعوان وتحت يد الصوباشي رئيس العسس فكان هؤلاء يصنعون ما يحبون من سلب الاموال والظلم خذ مثالا عن ذلك : انه كان في سنة ٩٧٠ الى ٩٨٢ في حماة رجل اسمه (بريك بن سركين) كان ترجمانا للصوباشي ومعه رئيس العسس محمد بن يحيى المكى ابا حمامة وهذان الرجلان اتفقا على ضرر الناس .. من ذلك انه غرق رجل من محلة باب المغار في العاصي واخرج حيا ثم بعد ذلك توفي فقبض بريك على زوج اخته فلم ينج منه الا باثنى عشر سلطانيا . وفي ثاني يوم جاءه وطلب منه ان يدعي ان اناسا اوقعوا الرجل في النهر حتى غرق فلم يرض فضربه بالعصا حتى تورمت رجلاه واخذ منه ستة وعشرين سلطانيا .. ومن ذلك ان ابا حمامة كان يقف في الطريق فيسلب من المسافرين ما معهم بعد الضرب المبرح . ومن ذلك ان بريكا المذكور قبض على غلام يدعى ابراهيم بن سركين واباح عرضه للمسجونين ، ومن ذلك ان ابا حمامة قبض على رجل من محلة العليليات وقيده في بيت الصوباشي واتهمه انه ذبح غنما في بيته ولم يطلقه حتى اخذ منه سبع سلطانيات ومن ذلك ان بريكا قبض على رجل من محلة باب المغار يدعى ابنالمكسح واتهمه بانه تشاجر مع زوجته ولم يطلقه حتى اخذ منه خمس سلطانيات كذلك قبض ابن حمامة على امراة بدعوى انها تعاملت مع زوجها على ابيها فاخذمنها خمسعثمانياتوهكذا حتى بلغوالي حلب خبره فأرسل امرا بالتحقيق عليهما فظهرت لهما اعمال مبكية محزنة من هتك عرض وسلب ونهب الى ذلك مما يطول شرحه لو اردناه ذكره كله .

وقد تتابع الظلم من الامراء والمتسلمين فان حماة كانت تابعة لطرابلس وكان للوالي حق تعيين المتسلم كما ذكرنا ، ولم تكن للحكومة محاكم سوى المحكمة الشرعية ولا قوانين سياسية فكان بين يدي المتسلم الموت والحياة . ففي سنة ١٠٩٠ كان المتسلم بحماة داوود آغا وكان الوالي في طرابلس محمد باشا وبعد ذلك ببرهة صارت تابعة لولاية دمشق باسم مقاطعة لامير الحج فكانت اموالها تقدم لوالي دمشق بصفة مقاطعة وكان يرسل من قبله متسلما يفعل ما نشاء .. كان لمتسلمي حماة انواع من

القتل والتعذيب لا تنطبق على شرع ولا قانون مدني . كانوا اذا غضبوا على رجل يضعونه على الخازوق(١) حتى يموت بعد عذاب طويل . مما لم يسمع بمثله في أظلم حكومات العالم الماضية واذا غضبوا على امراة وضعوها في الخيشة(٢) والقوها في العاصي .. ومن البدع كانت المصادرة فربما جاءت جنود الحاكم فنهبت بيت البعض ولا يدري ما ذنبه .. وقد يجاء بالانسان فيطلب منه مال معين فاما ان يدفعه واما ان يقع تحت العذاب . لهذا كان كل انسان يكتم الغنى ويظهر الفقر ويلبس الثياب الرثة ويدفن ماله تحت الارض وبين حجارة الجدار وربما مات فجأة ولم يعلم اولاده أين وضع ماله حتى اذا اشترى احد تلك الدار وحفر في ارضها لبناء وجد المال المدفون.. كانت العساكر اذا قدمت الى حماة تنزل في البيوت رغما فكان السكان يعملون باب الدار صغيرا جدا حتى لا يستطيع الجندي ان يدخل حصانه في الدار .. كان النهب ايام الحروب كثيرا ، فكان السكان يعمل كل منهم في بيته بئرا يضع فيه مواعينه واشياءه حين النهب ويسد فم البئر بحجارة وتراب حتى لا يعرف فاذا اطمأن اخرج ما يحتاجه .

دام هذا الحال حتى هاجر اكثر الحمويين الى دمشق والبعض الى حلب أوحمص او طرابلس فتناقص عمرانها وسكانها وصارت شبه قرية ثم جاء ابراهيم باشا المصري فزاد البلاء واحتقر الناس حتى كأنهم انعام فكان يحشرهم للاعمال الشاقة كبناء الثكنة العسكرية في الحاضر ويسوقهم للحرب بغير ترتيب فيقبض على كل من يجده في البلد فكانوا يفرون منه الى رؤوس الجبال وتارة يختبئون في الابار وربما قلع الانسان عين نفسه أو قطع اصبعه ليعفى من الخدمة العسكرية فلم يبق في حماة وباديتها الا القليل ولهذا الحقت في حمص ثم تنبهت الحكومة لعمران البلدان وارتبط

---

(١) ـ الخازوق عمود طويل راسه مخروط ويغرز في الارض كاحد عمد السلك البرقي يوضع الرجل عليه محمولا ويدخل راس الخازوق في مقعده ثم يترك على هذا الحال مدة ثم يجذب بعنف حتى يدخل جوفه .

(٢) ـ الخيشة : كيس كبير توضع فيه المراة ويؤتى بالكلس فيوضع حولها ثم يربط فمه عليها ويلقى في العاصي فتموت غريقة محترقة بدعوى انها زانية مع ان الشرع جاء برجم المحصنة وجلد غير ذات الزوج اذا ثبت ذلك بالشهود الاربع على ان كثيرات من الحرائر اغرقن لعزة انفسهن ومحافظة منهن على شرفهن .

المامورون بمركز المملكة فزال ما كان من الضغط وعرف كل انسان ماله وما عليه فتزايد عمران حماة وكثر ساكنوهــا وجعلت مركز اللواء والحقت بها حمص والعمرانيــة وسلميــة .

٩ ــ رحلة الطبيب الافرنسي « دلبت » الى بصرى الشام (حوران) عام ١٨٥٧ عرض باسكوال :

بزيارة « دلبت » بصرى خمنعدد المزارعينفي هذهالقريةالصغيرة بثلاثمائة نسمة ٣٠٦ وهي تقع على السفح الجنوبي من (النقرة) التي تعد من اخصب مقاطعاتحوران واستقر عدد من العائلات في القلعة واقام عدد اخر ، مثل اسرة الشيخ مقداد ، فــي الجزء الشرقي من المدينة بعد ان افادوا من حجارة الاثار القديمة في بناء مساكنهم . فاذا تجاوزنا هذا التجمع السكني لم نجد في ذلك السهل الفسيح بناء واحدا ولاكوخا اهلا بالسكان ، داخل اقليم بصرى الذي لم يحدد لنا المؤلف مســاحته .

والارض ، التي تعود ملكيتها العظمى الى السلطان . كان الرجال يستثمرونهـا حسب نظام المشاع اي على اساس توزيع دوري للمقاسم التي تحددها الحجارة ، وتضم (اسرة) الشيخ مقداد اثنين وثلاثين فردا ، منهم عشرة ــ خدم ــ . فهم يؤلفون اذن عشر عدد السكان . واعتمدت موارد هذه العائلة الكبرى على استغــلال ارض ميرية تناثرت في مقاسم عديدة على جميع المنطقة وبلغت مساحتها سبعين هكتارا على حد تقدير المؤلف وتزرع الارض بالمحاريث القديمة ، على طريقة التناوب الزراعي الموزع على ثلاث سنوات و « الخدم » هم الذين يصنعون المحراث ويبتاعون من دمشق السكة اللازمة له ، فلم يكن في القرية حداد واحد ، ولا صانع حرفي واحد . ويجــر المحراث زوج من الثيران يدعى الفدان . وكانت بعض المقاسم كما كتب المؤلف تــروى من المياه المتجمعة في الوديان في فصل الشتاء .

ولم تعهد اراضي بصرى ، وحوران عامة ، زراعــة الاشجار المثمرة في ذلــك الزمان فكانوا ينتجون الحبوب التي تغلها الارض بمحصول جيد اذا رويت ريا مناسبا. ونعني بالحبوب : القمح الذي ينقل انتاجه مناصفة على ظهر الجمال الــى دمشــق وعكا للاتجار به . والذرة البيضاء التي تؤلف قاعدة الغذاء العائلي ، والشعير الــذي

يستخدم في علف الماشية فقط ، والعدس والفول لتامين حاجات العائلة وكذلك الحمص الذي يسميه المؤلف خطأ بالترمس وهو غير معروف لديهم . اما الزراعة الاخيرة فهي الخروع الذي يعصر وتستخرج منه النساء الزيت اللازم لانارة المسكن .

وتملك الاسرة عددا من الابقار والجياد للركوب والجمال للرحل والحمير لنقل الغلال بالاضافة الى حيوان الجر المشار اليه (الثيران)والجدير بالذكر انهم لم يعهدوا وقتئذ العجلات كوسيلة من وسائل الجر أو النقل .. كذلك تقتني العائلة كمية من الدواجن للافادة من بيضها وقطيعا هاما من الغنم والماعز عهدت بحراسته الى البدو المنتشرين في تلك البقاع لقاء اجر عيني (كالحبوب وجزء من انتاج الحليب والخراف) وتوفر هذه الماشية بعض ما يحتاجون اليه من سمن حيواني وهيوليات لا بد منها لتغذية الاسرة .واخيرا كانت النساء يتولين قطف بعض الحشائش البرية التي تؤكل نيئة او مطبوخة . فتزود الاسرة بما يستكمل غذاءها الى جانب بعض الثمار المتوفرة محليا (كالتين وربما الرمان) .

ذلكهومجموعالماكولات الاساسية المتوفرة محليا او المنتجة والتي تؤلف قاعدة الغذاء اليومي . ويرتبط هذا الغذاء بمادة الملح . وهي مادة اساسية لا بد من كتابة تاريخها في بلاد الشام . واشهر الممالح مملحة بحيرة جبول الى الشرق من حلب وجيرود بين دمشق والقريتين وممالح منطقة تدمر . وكان انتاجها الوفير يمون معظم الاسواق الشامية ، وعدد من الممالح المحلية . ولم توجد مملحة في ضواحي بصرى ، فكان الشيخ مقداد يبتاع من دمشق وعكا (الملح البحري) ما تفتقر اليه اسرته من هذه المادة ، ويستخدم بعض هذا الملح في اعداد جلود الذبائح ، ومما يجدر ذكره أيضا ان الاسرة تستورد من جبل عجلون المجاور زيت الزيتون المشهور بجودته حتى ايامنا ، استكمالا للمواد الدهنية لم تنتجها انتاجا كافيا ، كما تستورد من جبل حوران (جبل العرب) اثناء المواسم كميات كبرى من البطيخ تضاف الى الثمار القليلة التي تنبت محليا على ان هذه الكميات لا تكفي لتوفير ما يحتاج اليه الغذاء المتوازن من فيتامينات وعناصر واقية حسب اصول التغذية الحديثة .

تشير موازنة الشيخ مقداد في باب النفقات الى بعض الاصناف التي كانت تعد

في ريف حوران من الكماليات في القرن الماضي ، على انها صارت اليوم جزءا لا يتجزا من التغذية اليومية . ونعني بذلك الارز والسكر والقهوة ، ومنتوجات اخرى اكثر شيوعا مثل الفواكه والخضار اليانعة .

وقد المحنا سابقا الى ان اراضي بصرى لم تنتصب فيها شجرة واحدة مثمرة تسترعي النظر ، والاغرب من ذلك انه لم توجد فيها مبقلة واحدة لتزود القرية بالبقول المألوفة ، فكانوا يستوردون من دمشق وبكميات قليلة ، الخضار والفواكه التي لم تنتج محليا . وكانت دمشق السوق الحضرية الكبرى التي اتصلت بها حوران بأوثق الصلات ، فاذا قصدها احد افراد العائلة لبيع محصوله فيها ، عاد منها بالبصل والباذنجان وكان يعد من المأكولات اللذيذة والعنب والتفاح والمشمش والبرتقال وابتاع من دمشق ايضا التوابل التي تبعث على الشهية . ومن اصناف الحلوى الثمار المعقدة بالسكر (المربيات) واللوز والجوز والبندق . وأغلب الظن انهم كانــوا يحصلون على البــلح من القوافل في طريق عودتهــا من الحج أو من البدو الرحل .

أما الارز فهو غذاء قديم ومعروف في بلاد الشام منذ العهد الروماني . وهناك شواهد عديدة على زراعته فيها وخلال احقاب مختلفة وبخاصة في زمن الايوبيين والمماليك . على ان هذه الزراعة لم تشغل في القرن السادس عشر الا مساحات محدودة في منخفض الحولة ووادي الاردن ثم لم تلبث ان زالت عن الوجود في القرن التالي . فلم يقدر للأرز أن ينتشر انتشارا واسعا ودابت بلاد الشام على اجتلابه من الخارج . فاستوردت الارز المصري الذي حمل اليها على ظهر السفن في القرن الثامن عشر . واضيفت اليه كميات اخرى متزايدة وردت من اوربا ابان القرن التاسع عشر ، مما يدل على مزيد من الاستهلاك ، وظل الارز مع ذلك كله غذاء باهظ الثمن بالنسبة الى اهالي المدن ناهيك عن سكان الارياف . وكان على الشيخ مقداد ان يبتاع من دمشق كيلو واحد من الارز لقاء عشرة كيلوات من القمح .

ويعتبر السكر من اعظم المصادر الغذائية للطاقة ، وكان قبل القرن السادس عشر من قبيل الترف في أوروبا وظل كذلك في بلاد الشام بعد ثلاثة قرون ، وسوف

يعد فيها من الاصناف الكمالية حتى النصف الاول من القرن العشرين . على أن بلاد الشام كانت مصدر انتشار سكر القصب في اوروبا فقد عثر عليه الصليبيون في تلك البقاع ومنها نقلوه الى بلادهم الاصلية ، ثم زالت زراعة القصب السكري في وقت لاحق على نحو متدرج ولن تعود الى الظهور الا في اواخر القرن الثامن عشر . فارتبطت بلاد الشام بالنسبة لهذا الانتاج ايضا ، بما تستورده من مصر بالاضافة الى السكر الاسمر الوارد منذ القرن الثامن عشر من جزر الاطلسي عبر القارة الاوربية ، ولقد اربت حمولة السكر المستورد بوساطة فرنسة وبريطانية العظمى على السكر المصري ، ومع ذلك لم يبلغ هذا الصنف حظا واسعا من الانتشار فاستبدله سكان المدن والارياف بالدبس (المصنوع من زبيب العنب) او العسل الذي يدخل في اعداد مختلف السكاكر (وهي من اختصاصات دمشق) .

واغلب الظن ان عادة احتساء القهوة ظهرت في جنوب الجزيرة العربية منذ اواخر القرن الرابع عشر . ويمكننا متابعة انتشارها المتدرج في اتجاه مكة والقاهرة حيث حظرت على الناس في مطلع القرن السادس عشر . وفي غضون هذا القرن شاعت القهوة في بلاد الشام فتعاطاها سكان دمشق للمرة الاولى عام ١٥٣٤ ، مما اثار خلافا شديدا في اوساط العلماء الذين انقسموا على امرهم . وسرعان ما افضى الخلاف الى تحريمها عام ١٥٤٧ ، والواقع ان اجراءات التحريم العامة التي شاعت في جميع أرجاء الدولة منذ مطلع القرن السابع عشر قد ادت الى تباطؤ انتشار القهوة لفترة من الزمن ، ثم ظهرت ثانية بعد الغاء الحظر رغم انتشارها بين اهالي المدن والارياف في أوسع فئاتهم . ويدل استيراد القهوة المتزايد من جزر الاطلسي على نمو الاستهلاك لا سيما بعد تخفيض الرسوم الجمركية في ارجاء الامبراطورية . على أن استهلاكها لم يكن أمرا مألوفا يوميا في الريف السوري ابان القرن التاسع عشر . فالكمية الكبرى من القهوة التي كان يتصرف بها شيخ بصرى لم يقصد منها الاستهلاك العائلي بل كانت تقدم للضيوف فقط . ويتم اعدادها بحضورهم وبالطريقة التقليدية ، وفي المكان الخاص الذي أفرد لها داخل « المدفئة » .

ظلت القهوة اذن ، مع السكر والارز ، سلعة نادرة خلال القرن التاسع عشر في ريف حوران وفي الريف الشامي عامة بلا شك . أما الشاي فكان مجهولا عندها .

واذا كان الناس يبتاعون السلع التي تعبر اوروبة وتكون تحت رقابتها ، الا ان ارتباطهم بهذه السلع كان محدودا .

انماط المأكل والمشرب : اذا نظرنا في الماكولات النموذجية التي عرض لها المؤلف ، اتضح لنا ان الغذاء اليومي الذي تتناوله اسرة مقداد مطبوع بطابع التقتير والرتابة . مما يتناقض تناقضا شديدا مع تلك الوفرة من الغلال التي احصاها المؤلف . فالاساس الذي قامت عليه الوجبات اليومية هو الحبوب . وكانوا يطعمونها صباحا عند الافطار وظهرا عند الغداء وهي على هيئة رغيف من الحنطة التي تمزج أحيانا بالذرة البيضاء أو الذرة الفضة التي تقطف في الربيع قبل حصاد القمح . وكانت الحبوب تنقل على ظهر الجمال الى الطواحين المائية الواقعة في « ضواحي بصرى » ومن الطحين الذي لم ينخل تصنع النساء العجين من غير استعمال الخميرة ، وتخبزه كل يوم على الصاج (لأن بصرى لم تملك فرنا واحدا) بل قبل كل وقعة طعام لانهم يؤثرون مذاق الخبز ساخنا . وفي وجبة العشاء مساء ، وهي الوجبة الرئيسية ، كانوا يطعمون أيضا من الحبوب على هيئة البرغل او الفريكة ، الى جانب الحساء الحورانية التي اعدت بالعدس والحمص المجروش . وكان البرغل اعم استهلاكا من الفريكة ، وهو يصنع من القمح المجروش الذي يغلى في الماء ويجفف بأشعة الشمس ويمكن الاحتفاظ به اكثر من عام في مخزن الغلال « القوارة » وتطبخه النساء باعادة غليه في الماء وتزويده بالزبد أو السمن . اما الفريكة فتكون من القمح الاخضر المشوي الذي تجرشه النساء بطاحونة اليد (الجاروشة) وتحتفظ به لاعداده للطعام كما يعد البرغل.

وتشكل الالبان القاعدة الثانية لغذاء الاسرة . ففي فصل الربيع يحتسون الحليب اذا توفر بكميات كبرى ، أو يستهلكونه في معظم الاحيان لبنا يساعدهم على تذوق البرغل والفريكة في فصل الصيف . ويستعاض عن اللبن في فصل الشتاء بلبن الكشك عند الافطار . وهو ضرب من العجين يصنع من البرغل واللبن الرائب ويجفف بأشعة الشمس ثم يهرس . ويعالج بالزيت والزبدة ويتناولونه حساء . ولا بد ايضا من ذكر البيض الذي ياكلونه مقليا في وجبة الظهر ، والدبس والحلوى التي تصنع برب العنب والسيرج وتقدم في وجبة الافطار شتاء . والفواكه الغضة

او الجافة حسب الموسم . واخيرا كان الفلاح البصري يتناول بين وجبات الطعام بزورا يحملها معه وخاصة الحمص وحبوب القمح والارز ايضا .

ولا يرد ذكر للحوم في تلك الوقعات اليومية ، لكنهم يعوضون هذا النقص بعض الشيء في ايام الاعياد الكثيرة وفي التبادل الغذائي المتواتر في اعقاب بعض الاعمال الجماعية ، وفي الاحتفالات الدينية والعائلية على نحو خاص ، ففي عيد الاضحى وعيد الفطر تقدم الماعز والخراف المشوية كاملة مع الدواجن وتتقاسمها الاسرة مع الضيوف .

اما الموالد وحفلات الختان والزواج فهي ايضا مناسبات يحتفل بها ، وتقدم فيها اللحوم او تهدى اليهم بكثرة ، ثم ان مقدم الضيوف ، وهذه حالة اكثر تواترا من غيرها ، مدعاة لذبح راس من الماشية .

وفيما يتعلق بالمشرب : الفلاح البصري اعتاد الماء الذي تاتي به النساء من النبع الروماني ويحفظ في جرار ضخمة تدعى الواحدة منها « بالخابية » وتوضع الجرار في مواضيع مختلفة داخل الدار ويغرف منها بقصعات من الخشب . وكانوا يحتسون الحليب ايضا ، كما مر معنا و « الشنينة » وهي لبن رائب ينقع في الماء ويعتبر من المرطبات المنعشة في فصل الصيف ، اما القهوة فلا يتناولونها الا بحضور المدعوين .

يرى المؤلف اذن « ان نظام الغذاء العائلي وافر جدا بصورة عامة . وكذلك عند جميع سكان حوران ، ثم يستدرك قائلا « باستثناء مواسم القحط » والحق ان هذه البقاع تقع تحت رحمة الامطار ، وهي عرضة لغارات البدو الرحل ، فلم يكن حجم الانتاج فيها منتظما » .

وعندما قام المؤلف بتحقيقه عام ١٨٥٧ اتسم الموسم بمحصول وفير ، وحدث في فترة ملائمة ازداد فيها الطلب على القمح من قبل الاوربيين منذ بداية حرب القرم . مما ادى الى ارتفاع اسعاره فافادت منه حوران بعض الشيء .

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن : هل كان نظام الغذاء العائلي قابلا للتعميم

على جميع سكان حوران ؟ فقد اجمع الرحالة على ذكر شظف العيش عند هؤلاء الناس وقناعتهم في شؤون المآكل والمشرب ، وقالوا : « ان اغنياءهم يعيشون عيش فقرائهم » فلا يتجلى ثراؤهم الا عند استقبالهم الضيوف ، ولا ريب أن مستوى العيش بالنسبة للشيخ متميز على مستوى سائر الفلاحين ، بسبب ما يرده من خيرات ومستلزمات حياته ، بينما كان الفلاحون في مرتبة ادنى وعلى جانب من التواضع والتبعية ، والحق ان الرحالة بوركهارت كان قد وصف هؤلاء الفلاحين قبل « دلبت » بنصف قرن ، فكانوا اتعس حظا واقتصروا على وجبتين من الطعام في كل يوم ، وتناولوا خبز الشعير اكثر من خبز القمح ، ولم يكن نصيبهم من اللحوم الا مرة واحدة او مرتين في العام ..

* * *

الحــواشــي

١ ــ حول ظهور الدولة العثمانية انظر : تاريخ العالم (الموسوعة الصغرى) ديسلدورف ١٩٦٤ ــ ص ٥١٧ ــ ٥٢٠ .

٢ ــ رافق عبد الكريم ــ ص ٦٢ ــ . بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت ١٦١٥ ــ ١٧٩٨ .

٣ ــ العطار نادر : « سورية في العصور الحديثة » دمشق بلا تاريخ ص ٢٠ .

٤ ــ قسطون وديع عبد الله : « الافرنج في حلب في القرن الثامن عشر » حلب ١٩٦٨ ، ص ٢٢. ونقلها ايضا كرد علي محمد : « خطط الشام » ج ٢ دمشق ١٩٢٧ ، ص ٢٨٣ .

٥ ــ غرايبة عبد الكريم : « مقدمة تاريخ العرب الحديث ١٥٠٠ ــ ١٩١٨ » جـ ١ دمشق ١٩٦٠ ، ص ٥٦ .

٦ ــ المصدر نفسه .

٧ ــ المنجد صلاح الدين : « ولاة دمشق في العهد العثماني » دمشق ١٩٤٩ ــ ص ٤ .

٨ ــ غرايبة .... ص ١٤ .

٩ ــ الشماس قسطنطين : « المخبا من سفرة البطريرك مخاريوس » بيروت ١٩٢٢ ــ ص ١١٢ .

١٠ ــ تعتبر وثائق المحاكم الشرعية مصدراً هاما للتاريخ الاقتصادي الاجتماعي . وقد بلغ على سبيل المثال عدد مواضيع المحكمة الشرعية بدمشق من ٢٠ رمضان ١٠٣٥ والى غرة صفر ١٠٣٦ هـ ــ ٤٠٢ ــ تتعلق بالارث والزواج وبيع العقارات وبيع وشراء الحيوانات وعتق العبيد .. الخ . راجع سجلات المحكمة الشرعية في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق المجلد ــ ٢ ــ .

١١ ــ عوض عبد العزيز محمد : « الادارة العثمانية في ولاية القاهرة » ١٩٦٩ ــ ص ٤ .

١٢ ــ رافــق .. ص ٤٦ .

١٣ ــ دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد السادس ص ٣١ وما يليها .

١٤ ــ الجندي محمد سليم : « تاريخ معرة النعمان » دمشق ١٩٦٣ ــ ص ٢٨٤ .

١٥ ــ الحسني علي : « تاريخ سورية الاقتصادي » دمشق ١٣٤٢ هـ ــ ص ٤٩ .

١٦ ــ البخيت عدنان : « حيفا في العهد العثماني الاول » في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، الجزء الاول . دمشق ١٩٧٨ ــ ص ٣٠٢ .

١٧ ــ الحسني ... ص ١٧٢ .

١٨ ــ البخيت ... ص ٢١٤ .

١٩ ــ هيتروت نولف : « الادارة المالية للمناطق المتاخمة للصحراء في سورية الكبرى في اواخر القرن السادس عشر . في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام » ، الجزء الاول . دمشق ١٩٧٨ ــ ص ١٢٦ ــ ١٣٧ .

٢٠ ــ الصباغ ميخائيل : « تاريخ الشيخ ضاهر العمر » الزيداني . عني بنشره الخوري قسطنطين الباشا . لبنان بلا تاريخ ص ٢٠ .

٢١ ــ رافق ... ص ٧٠ ودائرة المعارف الاسلامية المجلد ٦ ــ ص ١٥ .

٢٢ ــ غرايبة ... ص ٨ .

٢٣ ــ المصدر نفسه ص ٨٣ .

٢٤ ــ المصدر نفسه ص ٩١ .

٢٥ ــ راجع حول القوى العسكرية بحثا مفصلا في : رافق عبد الكريم : « بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت » ١٦١٥ ــ ١٧٩٨ ــ دمشق ١٩٦٧ ــ ص ٦٩ ــ ٧٨ ، وكذلك مشاقة ــ ص ٢٢ ــ ٢٥ .

٢٦ ــ الغزي كامل : « نهر الذهب في تاريخ حلب » حلب المطبعة المارونية ج ١ ــ ص ٢٢٠ .

٢٧ ــ تاريخ حسن آغا العبد ، قطعة منه حوادث سنة ١١٨٦ الى سنة ١٢٤٠ حققه يوسف جميل نعيسه ــ دمشق ١٩٧٩ ــ ص ٥١ .

٢٨ ــ المصدر نفسه ص ٥٣ .

٢٩ ــ من بلاد الشام ص ٢٢٥ .

٣٠ ــ المصدر نفسه ص ٢٢٥ .

٣١ ــ ماركس انجلس : « السياسة البريطانية ، تركيا » المؤلفات ــ المجلد ٩ ــ ص ٥ ، نقلا عن لوتسكي « تاريخ الاقطار العربية الحديث » موسكو ١٩٧١ ــ ص ٢٧ .

٣٢ ــ نقلا عن لوتسكي ... ص ١٥ .

٣٣ ــ الدوري عبد العزيز : « مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي » بيروت ١٩٦٩ ــ ص ١٢٩ .

٣٤ ــ انظر النص الكامل لقانون الاراضي العثماني في : الدستور ــ المجلد الاول ترجمة عن اللغة التركية الى العربية : نوفل افندي نعمة نوفل ، بيروت ١٣٠١ ــ ص ١٤٠ ــ ١٦١ .

٣٥ ــ كرد علي محمد : « خطط الشام » ج ٤ دمشق ــ ص ١٥١ .

٣٦ ــ المحبي « خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر » دار صادر بيروت بلا تاريخ المجلد الاول ص ١٢٣ .

٣٧ ــ من مقابلة مع منيب اليوسفي في ٢١ ــ ١ ــ ١٩٧٥ .

٣٨ ــ المر دعيبس : « كتاب احكام الاراضي » القدس ١٩٢٣ ــ ص ١٦ .

٣٩ ــ المصدر نفسه . انظر نص القانون في الدستور ، ص ١٤٠ ــ ١٦١ .

٤٠ ــ الدوري ... ص ١٢٦ .

٤١ ــ رافق عبد الكريم « غزة دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية » ١٨٥٧ ــ ١٨٦١ ، بلا تاريخ ومكان الطبع ــ ص ٢٠ .

٤٢ ــ لوتسكي ... ص ١٢ .

٤٣ ــ عندما حكم السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ ــ ١٨٦١) اعتبر البراري الواسعة في الشام والعراق والجزيرة مواتا وعزم على احيائها لتكون ملكا له بحكم (من احيا مواتا فهي له) فعمل لاجل هذه الغاية ديوانا خاصا جعل وظيفته السعي والاهتمام باحياء هذه الاراضي وامده بشيء من ماله لينفقه في هذا السبيل ودعا هذا الديوان (جفتلك همايون اداره سي) ادارة المزارع السلطانية وفوضه أن يشتري له مشفعات واملاكا في البلاد العثمانية فباشر هذا الديوان وظيفته واشترى بصورة اسمية أو باسعار زهيدة الخانات والحمامات والبساتين .

كما بذل الديوان اهتمامه باحياء الاراضي واستعان على احيائها بالولاة والاحرار العسكريين وبعد العناء الطويل تمكن الديوان من اسكان بعض العشائر البدوية في الاراضي القريبة من البادية كقوة منتجة رخيصة .

ولما أتى السلطان عبد الحميد أسس لهذه الاراضي ديوانا خاصا اسماه (بزينة خاصة نظارة سي) نظارة الخزينة الخاصة وجعل له فرعا في كل بلد يوجد في برها اراضي موات سماه أدارة الجفتلك الهمايوني وبعد عزل السلطان عبد الحميد دخلت املاكه في حوزة الدولة وأطلق عليها الاملاك المدورة ثم الاملاك الاميرية . انظر : الغزي ، كامل : « نهر الذهب في تاريخ حلب » حلب المطبعة المارونية جزء ١ ص ٤٨٤ (٧٤ ــ ٢) الدوري ــ ص ١٢٥ .

٤٤ ــ استعنا في كتابة بحث الميري بصورة اساسية على دراسة الدكتور ناصر الدين سعيدوني « النظرة في اراضي الميري ببلاد الشام أثناء العهد العثماني » . في : « المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام » الجزء الاول ، دمشق ١٩٧٨ ، ص ٣٥٧ ــ ٤٠٣ .

٤٥ ــ رافق ... ص ٣٦٥ .

٤٦ ــ راجع تفصيلات السياسة العثمانية في رافق ... ص ١١٢ .

٤٧ ــ المصدر نفسه .

٤٨ ــ المصدر نفسه ص ١٢٤ .

٤٩ ــ المصدر نفسه ص ١٤١ .

٥٠ ــ المصدر نفسه ص ١٤٢ .

٥١ ــ المصدر نفسه ص ١٦٧ .

٥٢ ــ الخوري بولس قرالي ــ فخر الدين المعني الثاني حاكم لبنان ودولة تسكانا « رومية ١٩٣٨ »

٥٣ ـ احمد محمد الخالدي الصفدي : « تاريخ فخر الدين المعني الثاني » بيروت ١٩٣٦ ـ ص٢٥

٥٤ ـ رافق ... ص ١١٧ .

٥٥ ـ المصدر نفسه ص ١٢٠ .

٥٦ ـ البديري ص ٥٧ .

٥٧ ـ المصدر نفسه ص ١٩ .

٥٨ ـ رافق ... ص ٢٢٨ ـ نقلا عن المرادي ... ج ٣ ـ ص ٢٧٩ .

٥٩ ـ البديري ... ص ٨٥ .

٦٠ ـ المصدر نفسه ص ٧٣ .

٦١ ـ المصدر نفسه ص ٩٦ ، والقاري : « الوزراء الذين حموا دمشق » ص ٧٩ .

٦٢ ـ البديري ص ٩٨ .

٦٣ ـ المصدر نفسه .

٦٤ ـ المصدر نفسه ص ١٢٣ .

٦٥ ـ المصدر نفسه ص ١٢٧ .

٦٦ ـ المصدر نفسه ١٢٨ .

٦٧ ـ المصدر نفسه .

٦٨ ـ المصدر نفسه ص ١٢٩ .

٦٩ ـ الشدياق ج ٢ ـ ص ١٦ ـ ١٧ .

٧٠ ـ رافق ... ص ١٣٠ .

٧١ ـ الصباغ ميخائيل : « تاريخ الشيخ ضاهر العمر » الزيداني ، عني بنشره الخوري قسطنطين باشا ، لبنان ص ٢٥ .

٧٢ ـ المصدر نفسه ص ٢٧ .

٧٣ ـ المصدر نفسه .

٧٤ ـ المصدر نفسه ص ٢٦ .

٧٥ ـ المصدر نفسه ص ٤٢ .

٧٦ ـ رافق ... ص ٢٩٦ .

٧٧ ـ رافق ... ص ٢٩٧ .

٧٨ ـ الصباغ ... ص ٤٩ .

٧٩ ـ المصدر نفسه ص ٥٦ .

٨٠ ـ كتاب مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان ، جامع حوادثه ميخائيل مشاقة مصر ١٩٠٨ ـ ص ٣٦ .

٨١ ــ المصدر السابق .. ص /١٨٣/ .

٨٢ ــ نقلا عن رافق ص /٢٣٣/ وما يليها .

٨٣ ــ هذا ماكتبه مخائيل مشاقة في كتاب مشهد العيان .. ص /٤٠/ .

٨٤ ــ كرد علي محمد : خطط الشام/ج/ ٢ ص /٤٢/ .

٨٥ ــ الصباغ ... ص /١٠/ .

٨٦ ــ رافق ... ص /٣٠١/ .

٨٧ ــ مشهد العيان ... ص ٥٧ــ٥٨ .

٨٨ ــ بريك مخائيل الدمشقي : « تاريخ الشام /١٧٢٠ــ١٧٨٢/ » عني بتعليق حواشيه مع ملحق جزيل الفائدة الخوري قسطنطين الباشا المخلصي . حريصا /١٩٣٠/ نقلا عن النسخة الموجودة في برلين ــ تحت رقم /١٩٧٨٦/ ص /١٠٦/ .

٨٩ ــ المصدر نفسه ص /٣/ .

٩٠ ــ القاري ... ص /٨٦/ .

٩١ ــ بريك ... ص /١٤/ .

٩٢ ــ المصدر نفسه /١٦/ .

٩٣ ــ الحصري ساطع : « البلاد العربية والدولة العثمانية » ، بيروت /١٩٦٥/ ص ٦٥ــ٧٠/ .

٩٤ ــ المصدر نفسه ص /٧٠/ .

٩٥ ــ « مذكرات تاريخية » تتضمن ثورة دمشق والحريق الكبير فيها وقدوم ابراهيم باشا الى الشام وحروبه فيها مع الدولة العثمانية وثورات فلسطين والدروز واحوال حكومته فيها الى أن خرج منها ورجع الى مصر وعادت اليها تركيا . بقلم احد كتاب الحكومة الدمشقيين . عني بنشرها وتعليق حواشيها الخوري قسطنطين الباشا المخلصي عن نسخة مكتبة الكلية الاميركانية في بيروت . حريصا بدون تاريخ الطبع . ومعظم أحداث الثورة ماخوذة عن المذكرات ، ولن نشير اليها .

٩٦ ــ لما كانت الطرق الصوفية تسير في تعاليم شيوخها الحقيقيين كانت تقام مراسم زيارة بعض الاضرحة المعروفة لمشاهير الزهاد والاولياء في أيام معينة من السنة . وفي شكل مواكب حسب الترتيب التالي : تقوم طائفة من المريدين على شكل صفوف مؤلفة من خمسة أو أكثر يلبسون طواقي ملونة بالاخضر والاحمر وعليهم أردية مثلها غالبا ووظيفتهم اثناء السير ان يذكروا الله في سيرهم جهرا ، ثم يسير خلفهم حملة المزاهر (الدفوف) يقرعونها بلطف وترتيب صفوفا ايضا وبينهم حامل اللواء الكبير (أو السنجق) وله أطراف تنتهي بقطع من المرس (الحبال) يمسك باطرافها بعض المريدين ويتوزعون على مسافة منه وحوله ، ليساعدوا حامله عن الوقوع لجامته وعدم عبث الرياح به ، ثم ياتي بعدهم حامل الطبل الكبير ، و (الخليلية) وهي عبارة عن صفحتين من النحاس ، يتبع الايقاع عليها حسب ضربات الطبل ، أو ان الطبل يتبع ضرباتها ، وخلفهم ياتي شيخ الطريقة (ابن الوقت) الذي يجمع المريدون على رئاسته ويكون غالبا من أحفاد المشايخ الاول او المنتسبين لال بيت الرسول ، راكبا على فرس ولابسا عمامة شيوخه الاوائل المنحدرة اليه يدا عن يد حتى انتهت اليه مع المشيخة والرئاسة ، ثم يحيط بالشيخ جماعة من المريدين يحملون اعلاما صغيرة

كتب عليها بعض الايات الكريمة ، كمـا ان العلم الكبير ملون بقطع مختلفة كتب على كل منها بعض من الايات الجليلة .

ثم تأتي طبقة المريدين من الشبان يحملون نقارات صغيرة يضربون عليها وخلف هؤلاء بقية المريدين والمشتركين من بقية رجال الطرق . هذا الموكب ، الذي يسمى بالسيارة ويسير من مقر زاوية الشيخ الذي يجلس فيها للتدريس والارشاد ويتوجه لزيارة اقرب الاضرحة ، ثم يتابع سيره الى ضريح أشهر مشايـخ الطرق من اولياء الله ، وتشتد الافواه بالذكر تهليلا وتكبيرا ثم يعود الى مقره وينفض كل الى منزله بعـد الدعاء للمسلمين من قبل ذلك الشيـخ .

نقلا عن العلاف .. ص ١٢٩ — ١٣٠ انظر ايضا تفصيلا دقيقا لموكب السيارة في بلدة النبك — شمالي دمشق في يوسف موسى خنشت — طرائف الامس غرائب اليوم حريصا ١٩٣٦ ص ١٥٨ — ١٦١ .

٩٧ — ضاهر مسعود : « اشكاليات نظرية لدراسة التطور التاريخي للمسالة الطائفية في لبنان » في : المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام جـ٢ ، ص ١٨٩ — ٢٢٦ .

٩٨ — قسطون وديع عبد الله : « الافرنج في حلب في القرن الثامن عشر » حلب ١٩٦٨ ، ص٢٣ .

٩٩ — وثائق تاريخية عن حلب « جمعها الاب فردينان توتل اليسوعي » بيروت ١٨٥٨ ، ص ٣٠ .

١٠٠ — المصدر نفسه ص ١٠ .

١٠١ — نشر الزجلية في مجلة المشرق (١٨) ص ٣٢٨ عيسى اسكندر المعلوف .

١٠٢ — غزي كامل : « نهر الذهب في تاريخ حلب » جـ٣ — ص ٣٠٧ — ٣١١ .

١٠٣ — المصدر نفسه ص ٣١٩ .

١٠٤ — وثائق تاريخية ... ص ١٣٣ .

١٠٥ — الغزي جـ / ٣ ، ص ٣٦٢ .

١٠٦ — كرد علي ... ص ١٠٤ .

١٠٧ — رحلة اوليا جلبي ١٠٨٥ ترجمة احمد وصفي زكريا .

١٠٨ — البطريرك اسطفانوس الدويهي : تاريخ الازمنة ١٠٩٥ — ١٦٩٩ بيروت ١٩٥١ . نشر فردينانه توتـل اليسوعـي .

١٠٩ — تاريخ الامير حيدر الشهابي : مصر ١٩٠١ ، ٣ أجزاء .

١١٠ — حوادث دمشق اليومية : أحمد البديري الحلاق — القاهرة ١٩٥٩ .

١١١ — تاريخ حسن آغا العبد ، حوادث سنة ١١٨٦ الى سنة ١٢٤١ دمشق ١٩٧٩ .

١١٢ — الريحاني امين « النكبات » بيروت ١٩٢٨ ، ص ١٣ .

١١٣ — « سفرة البطريرك مكاريوس الحلبي » نشرها قسطنطين الباشا .

١١٤ — الطباخ محمد راغب « اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » حلب ١٩٢٣ ، جـ٣ ، ص ٢٥ .

١١٥ ـ بريك ... ص ٨٣ .

١١٦ ـ كرد علي ... جـ٢ ، ص ٨٢١ .

١١٧ ـ كرد علي محمد : « دمشق مدينة السحر والشعر » مصر ص ٣٧ .

١١٨ ـ الصباغ ... ص ٨٦ .

١١٩ ـ احسان النمر : « تاريخ جبل نابلس والبلقاء ، حوادث عهد الاقطاع » دمشق ١٩٣٨ ـ ١٦٣ .

١٢٠ ـ البيطار الشيخ عبد الرزاق : « حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر » جـ ١ دمشق ١٩٦١ ، ص ٧ .

١٢١ ـ الكيلاني ابراهيم : « عبقريات شامية » دمشق ١٩٤٦ ، ص ٧ .

١٢٢ ـ محمد سليم الجندي « تاريخ معرة النعمان » جـ١ دمشق ١٩٦٣ حققه وعلق عليه ووضع فهارسه عمر رضا كحالة .

١٢٣ ـ الصابوني أحمد : « تاريخ حماة » جـ ١ .

١٢٤ ـ جان بول باسكوال : البيئة والتغذية في حوران في القرن التاسع عشر في وثائق المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام . دمشق ١٩٧٨ ، الجزء الاول ، ص ٤١٥ ـ ٤٢٩ .

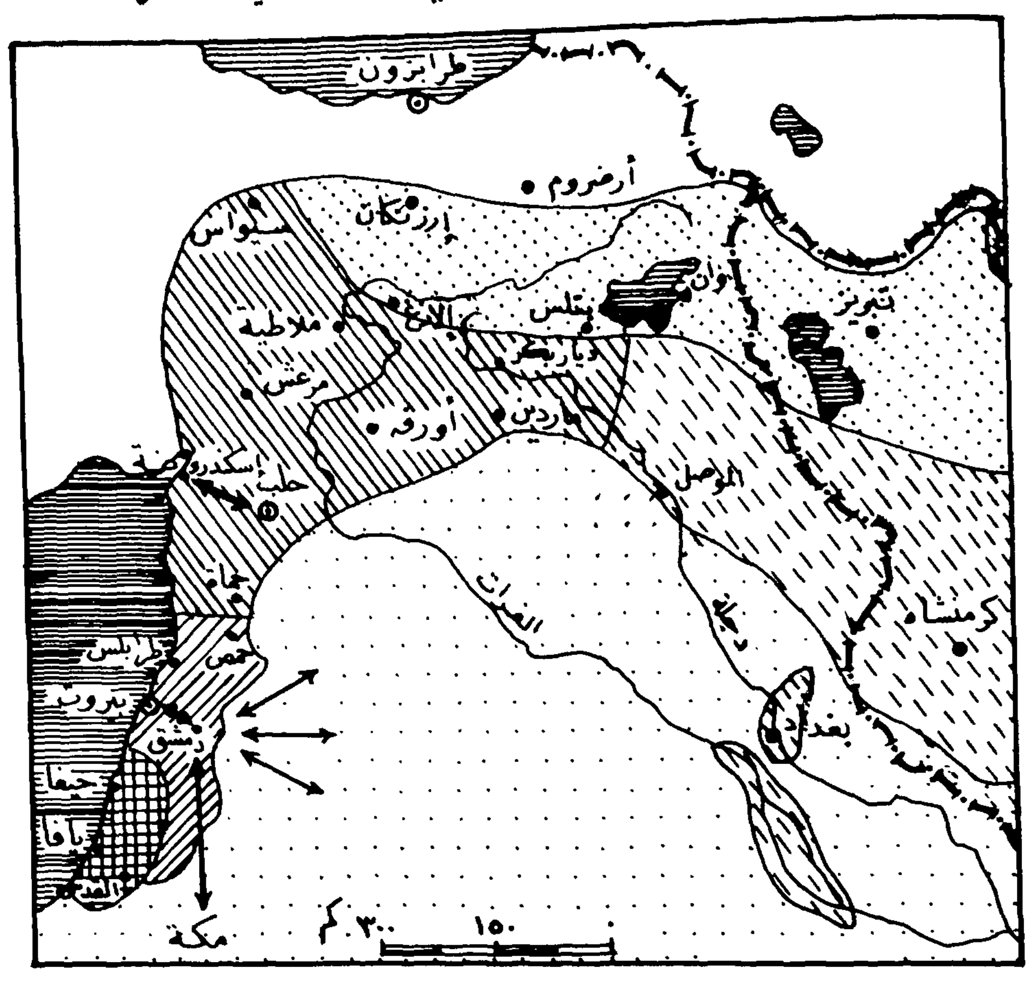


الباب الثاني

تصدع النظام الاقطاعي العثماني وبدء انتشار العلاقات الرأسمالية

- دور الحكم المصري في خلخلة النظام الاقطاعي العثماني .
- تكيف الاقطاعية العثمانية مع مرحلة انتشار العلاقات الراسمالية والانتقال الى الملكية الخاصة الاقطاعية .
- البنية الاجتماعية في الريف .
- البدو وموقعهم في المسالة الزراعية .
- الوان من الحياة الاقتصادية ـ الاجتماعية لبعض الارياف السورية .

المناطق التابعة تجاريا لدمشق وحلب في النصف الثاني من القرن ١٩



(مربعات)	ماوراء ميناءي حيفا و يافا .
(تظليل مائل)	المناطق التابعة تجارياً لدمشق و ميناء بيروت .
(تظليل مائل معاكس)	المناطق التابعة تجارياً لحلب وميناء إسكندرونة بعد ١٨٦٩ (افتتاح قناة السويس)
(خطوط متقطعة)	مناطق كانت تحت النفوذ التجاري لمدينة حلب ثم تحولت تجارتها بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ باتجاه ميناء البصرة .
(نقاط كثيفة)	مناطق كانت تحت النفوذ التجاري لحلب ثم تحولت تجارتها بعد سير السفن البخارية في البحر الأسود باتجاه أرضروم و طرابزون .
(نقاط متباعدة)	بادية .

الفصل الأول

دور الحكم المصري ١٨٣٢ـ١٨٤٠ في خلخلة النظام الاقطاعي العثماني

١ ـ اجراءات ابراهيم باشا ، الاقتصادية ـ الاجتماعية :

في عام /١٨٣٢/ احتل ابراهيم باشا بن محمد علي باشا حاكم مصر ولايات بلاد الشام ، دون مقاومة تذكر من الاهالي الذين كانوا مستعدين لاستقبال اي فاتح ، بعد ان ارهقتهم الضرائب الباهظة التي فرضتها الحكومة العثمانية على اثر الحرب الروسية ـ التركية (١٨٢٨ ـ ١٨٢٩) من اجل ملء خزائنها الفارغة . اما مقاومة عكا لابراهيم باشا فانها لم تكن من اهالي البلاد بل من جيش المرتزقة العامل تحت امرة عبد الله باشا ، والي عكا .

لقد اضعفت ثورة حلب /١٨٢١/ السلطة العثمانية في احد مراكزها الرئيسية ، وفي نقطة هامة من نقاط ارتكازها في بلاد الشام ومابين النهرين . وهذا ما مهد السبيل امام ابراهيم باشا لفتح سورية دون عناء . كما ان ثورة العامة الدمشقية في ايلول /١٨٣١/ كانت عاملا آخر في فتح ابواب بلاد الشام امام ابراهيم باشا ، الذي اسرع الى حمص ووجه ضربة قاسية للجيش العثماني المحتشد فيها . ولم تفلح محاولات القادة العثمانيين المنهزمين في حشد اهالي حلب ، الذين التزموا جانب الحياد ، مما اضطر العثمانيين الى الانسحاب شمالا مخلفين وراءهم اموالا وامتعة كثيرة . وعلى الاثر دخل ابراهيم باشا حلب دون حرب وشرع في تنظيم امورها . فقضى على بقايا الانكشارية ، ثم جمع الاسلحة ، والحّ في طلب العسكر الاجباري فهرب قسم من اهالي حلب الى القرى(١) .

في البدء رضي معظم الاهالي عن الادارة المصرية لانها انقذتهم من بطش الولاة وهمجيتهم ، رضوا بها لانها ازالت عنهم كابوس العساكر العثمانية ، التي كانت ترتكب الفظاعات وتستحل الحرمات وتتصارع فيما بينها في الاسواق والارقة مخربة مدمرة

ومعطلة دولاب العمل . لقد راى اهالي بلاد الشام في الجيش المصري جيشا منظما يدفع افراده ثمن ما يأخذون ويوصي قائده وضباطه الجنود باحترام الممتلكات والاموال والقوانين المفقودة في العهد العثماني(٢) .

اجرى ابراهيم باشا الاصلاح الاداري والاقتصادي وابطل المصادرات ونظم جباية الضرائب واصلح القضاء على النمط البورجوازي الفرنسي وكافح الرشوة ، كما ساوى بين الجميع امام القانون وسعى لرفع قيود المجتمع الاقطاعي الشرقي عن فئات من السكان .

وكما جرى في مصر ، سعى ابراهيم باشا الى اقامة المركزية في بلاد الشام وتقليص الاضطهاد الاقطاعي وبناء الاسس الاولى للعلاقات الراسمالية في حضن اسلوب الانتاج الاقطاعي(٣) .

في بدء الحكم المصري (١٨٣٢ ـ ١٨٤٠) اتخذت السلطات المصرية اجراءات تهدف الى منع انهيار الزراعة ، وكان في طليعة هذه الاجراءات تحقيق الامن وصد غزوات البدو والعمل لتوطينهم مما شجع على الاستقرار في الريف واتساع حدود المعمورة نحو الشرق . ومع ان ابراهيم باشا لم يلغ نظام الالتزام ولم يبدل الملتزمين والحكام المحليين ، ولكنه طبق عليهم بالتدريج انظمته في عدم تجاوز الضرائب المقررة ! فادى هذا الى تحرير الفلاحين من الالتزامات الاضافية وطرق البلص و فرض الاتاوات.

هذه الاجراءات ادت الى احياء /١٥٠٠٠/ فدان في حوران والسهول الواقعة بين دمشق وحلب وارتفعت بذلك مساحة الاراضي المزروعة وازداد مردودها ، وبفضل استتباب الأمن اخذت حمص تستعيد نشاطها من جديد . وكتب احمد وصفي زكريا سنة /١٩٣٤/ ان بعض معمري حمص رووا له ان قرى حمص الشرقية كالمشرفة وشمسين وشنشار والزعفرانة عمرت في تلك المدة من حكم ابراهيم باشا .

ومن جهة اخرى استخدم الجيش في تحسين الزراعة ، فعندما هدد الجراد محاصيل حوران ، في احدى السنوات ، استخدم الجنود في مكافحته . كما اتخذت سلسلة من الاجراءات لتحسين الوضع المادي للحرفيين والتجار والفلاحين(٤) .

كانت حصيلة الاجراءات الاقتصادية ـ الاجتماعية لابراهيم باشا وضع اسس مجتمع متقدم بالنسبة للمجتمع العثماني الاقطاعي . ولهذا فان معظم الزعماء المحليين الاقطاعيين رفعوا راية العصيان في وجه الاصلاحات الجديدة . كما ان الاجراءات المتخذة للتغلب على التخلف الاقطاعي لم تكن جميعها في صالح التجار والحرفيين بل كان بعضها في صالح الاوروبيين ، الذين حصلوا على اعفاءات جمركية لم ينل التجار السوريون مثلها الا في عام /١٨٣٦/(٥) .

وهذا مما ادى الى تراكم عوامل النقمة ضد الحكم المصري وبخاصة بعد ان اضطرت الادارة المصرية الى فرض ضرائب اضافية هي الفردة(٦) لسد نفقات الجيوش وصد هجمات الاتراك . مما ادى الى عدم رضا وتراكم اسباب النقمة ، التي ازدادت بعدة مصادرة المؤن وشرائها باسعار متدنية ، ومصادرة حيوانات النقل ، واستخدام اليد العاملة في اقامة التحصينات باسعار متدنية او بالمصادرة .

والذي اثار الاهالي بصورة خاصة هو فرض التجنيد الاجباري في عام/١٨٣٤/(٧) والعمل على نزع سلاح السكان . وهذان الامران لم يعتد عليهما سكان بلاد الشام فيما مضى . فالدخول في الفرق العسكرية كان قبل ١٨٣٢ اختياريا ، وجمع السلاح معناه تجريد السكان من الدفاع عن انفسهم ضد اللصوص والغزاة والمتسلطين . كما ان تجريد سكان الريف من السلاح معناه من جهة ثانية اضعاف الزعامات المحلية والسير في طريق الدولة المركزية . وقد ادى نزع السلاح في معظم المناطق الى تنظيم البلاد تنظيما حديثا وتنشيط الزراعة والسيطرة على البدو ، وبعد سنتين من بدء التجنيد قدر عدد المجندين في بلاد الشام حوالي /٣٦/ الف مجند . وهذا ما اخر من جهة اخرى الاقتصادالفلاحي ودفع كثيرا من الفلاحين للهرب من الزراعة او تشويه احد اعضائهم للتخلص من الخدمة العسكرية(٨) .

٢ ـ ردود الفعل وأسباب تمرد الفلاحين :

ان القوى الريفية ، التي اعلنت الثورة على الحكم المصري هي :

ـ سكان القرى الفقراء « الذين استاؤوا من دفع الضريبة الجديدة (الفردة) ولم يعتادوا على الدخول في الجندية وسوقهم الى خارج مناطقهم .

ـ العناصر المتنفذة في الريف ، التي استاءت من سياسة المساواة بين الجميع والسعي لتطبيق القانون بالتساوي على الجميع . فصاحب « مشهد العيان » في حوادث الشام كتب عبارة ذات مدلول عميق تشير الى تذمر الكبار من مساواتهم بالصفار في سبيل فرض سلطة الدولة المركزية .

جاء في كتاب « مشهد العيان »(٩) : « واصبح القوي الذي جمع قواه بتفريق قوى الفقير مذلولا مجردا من قوته والمستبد ارغم على التنازل عن عرشه وتساوت منزلته بمنزلة من كان يعتبره احط منه » .

ـ ملتزمو الضرائب في العهد العثماني ، الذين استاؤوا من الطرق الحديثة في جباية الضرائب وتقليص نفوذهم « وتعويد الشعب الخضوع للدولة راسا » دون واسطة « المشايخ والامراء » فالحاكم المصري في دمشق شريف باشا سعى للتضييق على الزعامات المحلية في سبيل السلطة المركزية .وحول هذا الموضوع كتب صاحب « مشهد العيان »(١٠) : « ولما شاهد الفساد ضاربا اطنابه في انحاء البلاد ، راى من الحكمة وسداد الراي ضبط أموال الخراج والفيء ورفع يد مأموريها من مشايخ وامراء عن مداومة هذه الوظيفة (اي جمع الضرائب عن طريق التزامها) فمنع هذه الفئة المستبدة من معاطاة وظيفتها وقيد افرادها بالشريعة الحقة فأخرج من يدهم سلطتهم الاستبدادية القديمة التي كانوا يتمتعون بها .. وقد عزل بعضهم لسوء تصرفهم ولجهلهم الامور المدنية الحديثة وعين خلفا لهم ممن توفرت فيهم الشروط اللائقة لاشغال مركز بالحكومة ولا فرق عنده بين الرعية » .. « وكان عمل شريف باشا هذا مع كل رؤساء العشائر في سوريا الا الامير بشير » ، لانه وبموافقة محمد علي بقي يتصرف في جبل لبنان كما كان في السابق . وكان احد اعمدة الحكم المصري في سورية، وقام باخضاع الفلاحين والقضاء على ثوراتهم .

ادى تدخل الدول الاوروبية (روسيا القيصرية ـ انكلترا ـ فرنسا ...) الى تعقد الثورات الداخلية التي شارك فيها عامة الفلاحين واعيان الريف كل من زاوية نظره . وبعد ان تمكن ابراهيم باشا من القضاء على الثائرين ، قرر الانكليز التدخل وساعد اسطولهم حركات التمرد ضد الحكم العثماني . مما اجبر المصريين على الانسحاب بعد ان وقفت ضدهم الدول الاوروبية ، عدا فرنسا .

ومعنى ذلك ان الثورات الريفية ضد حكم ابراهيم باشا كان لها دوافع مختلفة داخلية وخارجية . والثائرون كانت اهدافهم متباينة . فاعيان الريف يريدون عودة سلطانهم السابق ، الذي حجمه الحكم المصري ، والفلاحون مستاؤون من الضرائب والجندية ، ولم يكن بامكانهم ان يدركوا عمق التاثير التقدمي ، الذي يزرعه الحكم المصري في بلاد الشام ، وهو في نهاية الامر في صالح التطور لتصديع العلاقات الاقطاعية الشرقية ، التي تستنزف دماء الفلاحين . والواقع ان الفلاحين الغارقين في الامية والخاضعين ايديولوجيا الى زعمائهم من جهة والى فكرة سيادة السلطان العثماني زعيم المسلمين وحامي الحرمين الشريفين لم يكن بامكانهم ان يدركوا ابعاد السياسة المصرية في بلاد الشام . ومن جهة ثانية فان الحكم المصري ، الذي اسهم موضوعيا في دفع البلاد نحو التقدم والقضاء على بعض اسباب التخلف ، كان في جوهره حكما اسريا فرديا استبداديا . فحركة محمد علي في مصر لم تكن مدعومة من طبقة بورجوازيةذات تقاليد ثورية مناهضة للحكم الاقطاعي ، بل كانت حركة مقطوعة الجذور لاتعتمد على قاعدة شعبية ، هي في اساسها حركة تسعى لاقامة علاقات راسمالية في احضان علاقات الانتاج الاقطاعية . وكان من الطبيعي ان يتحرك الفلاحون ضد الاجراءات المصرية (التجنيد ، ضريبة الفردة على الافراد .. الخ) .

وفي لحظة معينة نسي الفلاحون مظالم الحكم العثماني السابق ، ولم يروا الا ماطالبتهم به الادارة المصرية ، التي كانت على جانب من التنظيم والدقة ، بصورة لاتفسح مجالا للهرب من الضرائب أو الاعباء المفروضة . وكان للتعقيدات ، التي رافقت الحكم المصري في بلاد الشام اثرها في دفع الفلاحين للثورة على حكم افضل بكثير من الحكم السابق .

هذه الاسباب الداخلية والخارجية لم يرها صاحب كتاب « مشهد العيان » ، بل راى الجانب التراثي التقليدي الخانع . فهو بعد ان عدد « مآثر الحكومة المصرية » في بلاد الشام خلص الى القول(١١) « ومع كل ذلك ظل الشعب يسومها العداوة ويناقش الحساب لانه اعتاد ان يكون محكوما لا حاكم نفسه ، عبدا ، لا حراً ... » .

في اوروبا تحالفت الطبقة البورجوازية الناشئة في القرن الثامن عشر والتاسع

عشر مع الفلاحين ودكت عروش النظام الاقطاعي . اما في الشرق فان تطبيق الاصلاحات الغربية البورجوازية لم يجر اعتمادا على طبقة بورجوازية واضحة المعالم ، بل تم ، كما ذكرنا ، بواسطة حكم فردي واسرة تريد الاثراء وانشاء امبراطورية مترامية الاطراف .

هذا الوضع المعقد هو الذي جعل اقساما هامة من الفلاحين ترفع راية الثورة ضد الحكم المصري وهي تدري ، اولا تدري ، بانها ستعود مرة ثانية الى نير العلاقات الاقطاعية العثمانية .

٣ ـ الثورات الريفية ضد حكم ابراهيم باشا :

كانت أولى الثورات الريفية في جنوب بلاد الشام . ففي السلط هاجم الفلاحون والبدو ، القوات المصرية ، وفي الخليل هزم الجنود المصريون ، واحتل الفلاحون القدس ، باستثناء القلعة ، كما قطعت المواصلات بين يافا والقدس .

وكان اكثر الثورات قوة « ثورة نابلس » حيث اضطر ابراهيم باشا للقدوم بنفسه لاخضاع ثوار نابلس « حيث لاقى منهم الاهوال واختبرهم بمواقع القتال ورای فيهم اشد رجال سوريا عزما واقداما فقاتلوه وضايقوه » الى ان « تغلب عليهم بالخداع وارغمهم على الاخلاد والسكينة وقد اسر زعماءهم ، وفي رجوعه امر باعدامهم »(١٢) .

والواقع ان وجود الزعامات المحلية والملتزمين الاقوياء في فلسطين كان من العوامل المنشطة للثورة . وفي جبال اللاذقية اندلعت ثورة فلاحية ضد الحكم المصري شارك فيها الفلاحون الفقراء والمشايخ ، الذين حرضوا الفلاحين على الثورة . وكانت الادارة المصرية تنهج سياسة اضعاف المشايخ لمصلحة الحكم المركزي . وهؤلاء تمكنوا بسهولة من دفع الفلاحين الى الثورة . فامتنعوا عن دفع الرسوم الى الحكومة . فارسل شريف باشا مجموعة من جبل لبنان « لاخضاع الثائرين الذين اعتصموا بجبال اللاذقية وفازوا بالغلبة على رجال الحكومة » ، و « لما علم شريف باشا بما حل برجاله جمع فرقة من الجيش المنظم وارسلها الى الثوار واكرههم على الطاعة والسكينة(١٣) » بعد ان دمر عددا كبيرا من القرى .

وفي عام /١٨٣٥/ اندلعت ثورة الفلاحين الدروز في جبل حوران ، حيث احتموا في منطقة اللجاة وصدوا عدة حملات عسكرية وابادوا معظم افرادها فاستولى الرعب على العسكر المصري واحجم عن مقاتلتهم ولاسيما في اللجاه لانها عسرة المسلك واسعة الانحاء »(١٤) . ولا شك ان شجاعة الفلاحين الدروز وفروسيتهم اضعفت معنويات الجند المصريين ومن انضم اليهم ممن لا مصلحة لهم في هذا القتال ، في حين ان الفلاحين كانوا يدافعون عن ارضهم واهلهم . ولهذا « كان اكثر الجند يفر مرعوبا منهم »(١٥) .

وفي احدى الحملات استعان ابراهيم باشا بقوات الامير بشير الشهابي من جبل لبنان . وكان لهذا الامر آثاره البعيدة . مما ادى الى اضطراب التوازن المذهبي والى احداث /١٨٦٠/ .

وكثيرا ماتظاهر فلاحو الجبل بالانسحاب والتقهقر امام القوى المهاجمة ثم يهاجمونها في المكان المناسب « فتجدد الرعب في قلوب الجنود من بطش الدروز ، وتراجعوا عن قتالهم » . وهذا مما اجبر ابراهيم باشا على مهاجمة اللجاه بقوات كان على رأسها . ولكن هجماته باءت بالفشل . ولما ادرك حالة رجاله وعلم انهم باتوا يخافون سطوة الدروز عمد الى تسميم الماء الذي كانوا يستقون منه فارسل الى ناظر صحة سوريا الدكتور كلوت بك يطلب منه استحضار محلول قاتل . ولكن كلوت باشا رفض « استعمال تلك الواسطة لما فيها من القساوة التي تشمل الحريم والاطفال معا» « اما ابراهيم باشا فكان يرى مصلحة الدولة اولا والرعية ثانيا ، ولما عجز عن اخضاع العصاة الزم علماء الكيمياء بصنع محلول سليماني القاه بالمياه واعلم الدروز بذلك» وهذا مما اجبر الثوار على الانسحاب و « ترك المكان بعد ان مات منهم عدد كبير عطشا» .

٤ ـ منجزات الحكم المصري وتمهيد الطريق للاصلاح في الدولة العثمانية :

لقد جرى الحديث طويلا حول اهداف محمد علي باشا في بلاد الشام وبخاصة محاولة اقامة امبراطورية عربية ، مع انه لم يكن يتكلم العربية . وقيل ان ابنه كان يفاخر بالامجاد العربية . والواقع ان لمحمد علي مطامح توسعية وسياسية داخلية وخارجية لامجال لبحثها هنا . وما نريد الاشارة اليه هنا هو أن محمد علي

افاد القضية العربية بطريقة غير مباشرة . فهو من جهة فتح الابواب امام التطورات الحضارية القادمة من الغرب وبرهن ان حكمه في مصر وسورية افضل من حكم السلطان ، الذي لم يعد بامكانه حماية رعاياه المسلمين امام هجمات القوى الكولونيالية (الاستعمارية) المتنامية في اوروبا .

وداخليا كان للحملة المصرية على بلاد الشام آثار واضحة نجملها فيما يلي : ـــ

ـــ أسهم الحكم المصري في الاجهاز على القوى العسكرية الاقطاعية من انكشارية وغيرها ، التي كانت تعيث في الارض فسادا وتمنع اي تطور حضاري للبلاد .

ـــ اسهم الحكم المصري في دفع مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية نحو التغيير . ان هذا التغيير على الرغم من محدوديته دفع بعض المؤرخين(١٧) الى القول ان الحكم المصري نقل بلاد الشام في مدى بضع سنوات من العصور الوسطى الى العصور الحديثة وفتح نافذة ـــ وان كانت محدودة ـــ اطل منها اهل الشام على العصور الحديثة واخذ خلالها تيار هذه العصور يتسرب تدريجيا الى داخل البلاد ليغير من الجو الفكري والاجتماعي السائد فيها .

ـــ ازدياد ارتباط الولايات السورية الشام حلب ، صيدا بالسوق الاقتصادية الراسمالية ، وبداية ظهور العلاقات الاقتصادية الجديدة والانتقال من الاقتصاد الطبيعي ومبادلة سلعة بسلعة الى المبادلة الجديدة (الراسمالية) : سلعة ـــ نقود ـــ سلعة(١٨) .

ـــ تصدع العلاقات الاقطاعية الشرقية السائدة وسعي الطبقة الرجعية المستفيدة من هذه العلاقات الى استخدام وسائل جديدة هدفها المحافظة على جوهر الاستثمار الاقطاعي ، ولكن بأوجه جديدة .

ـــ بداية تكون طبقة بورجوازية جديدة ظهرت في لبنان والساحل وامتدت بالتدريج الى الداخل . وعلى الرغم من أن هذه الطبقة ولدت مهيضة الجناح وكانت تابعا للغرب الراسمالي ، الا ان وجودها اسهم في دفع عجلة التطور بغض النظر عن نوعية العجلة وسرعتها وفاعليتها .

ـ اسهمت السياسة المصرية في بلاد الشام في تعميق الازمة الاجتماعية في الريف والى دفع التحركات الفلاحية الى سطح الاحداث وبخاصة في جبل لبنان .

ـ أدت فكرة التسامح الديني ، التي طبقها محمد علي الى ايجاد قاسم مشترك بين افراد الشعب من جهة والى ردة فعل من قبل القوى الرجعية التي سعت الى تسعير الاضطرابات الطائفية ، التي استغلها العثمانيون والدولة الاستعمارية لخدمة مصالحهم ولكن هذه الخلافات الطائفية ظاهريا وذات الابعاد الاجتماعية والصراعات الطبقية عمليا اسهمت في الدعوى الى التآخي بين الطوائف والمذاهب(١٩) ، واعتبار جميع المواطنين عربا . وهذه كانت احدى دلائل الوعي القومي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

ـ بداية ظهور عصر « التنوير » وهو ما عرف باسم « النهضة العربية » التي حمل لواءها العناصر المثقفة البورجوازية في لبنان والساحل والتي انتقلت وئيدا نحو الداخل وطرقت أبواب المدن الداخلية طرقا خفيفا متزايدا باستمرار .

ـ ضعف الحكم العثماني على اثر الضربات التي تلقاها في البلقان وبلاد الشام ، مما أسهم في استفحال حدة الازمات الداخلية ، التي نخرته . كما تصاعد تدخل الدول الاوروبية في الدولة العثمانية والصراع على نهب خيراتها واستعباد شعوبها .

ـ رافق هذا الضعف سعي السلطة المركزية الى تدعيم ركائزها عن طريق الاستفادة مما زرعه الحكم المصري في بلاد الشام ، وبخاصة جهوده في ازالة حكم الباشاوات وكسر شوكة العصبيات المحلية والمتنفذين في الريف والمدينة . والسير في طريق الحكم المركزي ، الذي بلغ اهدافه بوصول السلطان عبد الحميد الى العرش وحكمه البلاد حكما فرديا استبداديا أوتوقراطيا .

لقد اوقفت عودة السيادة العثمانية مخاض التطور الراسمالي ودعمت مجددا العناصر الاقطاعية في الزراعة . وبقيت أكثرية الارض المزروعة ارض ميري تحت تصرف جهاز الدولة الاقطاعي الاستبدادي ، وعلى الرغم من ذلك صدعت حملة ابراهيم باشا والحكم المصري لبلاد الشام (١٨٣٢ ـ ١٨٤٠) أوصال المجتمع الاقطاعي الحرفي وخلخلت جذوره واسهمت في بداية نقله من مجتمع تسوده علاقات الاقطاعية الشرقية الى مجتمع يحمل بعض بذور تطور العلاقات الراسمالية .

وجاءت الاصلاحات الفوقية الصادرة عن السلطة العثمانية والمتمثلة أولا بخط شريف كلخانة — ١٨٣٩ — والخط الهمايوني سنة — ١٨٥٦ — لتنسف الغطاءالشرعي القانوني للاستبداد الاقطاعي الشرقي ولتفسح المجال امام القوى الجديدة المستنيرة داخل الدولة العثمانية لكي تنطلق وتتحرر معتمدة على هذا الاساس الشرعي القانوني لمقاومة بعض اسباب التخلف والتأخر . ويبدو ذلك واضحا من احدى عرائض هذه القوى الجديدة المرسلة الى السلطان على اثر صدور خط كلخانة عام — ١٨٣٩ — ، جاء فيها :(٢٠) « ... اننا تشرفنا بمنشور العدالة والرحمة ورفع البدع والمظالم والتكاليف الشاقة غير المرضية وسخرة الدواب والمبايعات بدون اثمان مثلها وساير ما يؤدي الى الخسارة وضيق الحال على الرعايا وانه بعد الان ما بقا يؤخذ من احد الرعايا لا مبايعات ولا سخرة دواب ولا تكاليف ولا مظالم ولا مغارم ، بل تكون الرعية فايزين بالرفاهية حايزين مرتبة الراحة مع حفظ الناموس ساعين بتوسيع المعاشات والزراعات . » .



الفصل الثاني

محاولة تكيف لاقطاعية العثمانية مع مرحلة انتشار العلاقات الرأسمالية والانتقال إلى الملكية الخاصة الاقطاعية

١ ـــ حركة الاصلاح والقوانين ذات الطابع البورجوازي .

٢ ـــ قانون الاراضي ـــ ١٨٥٨ ـــ وتكون طبقةملاك الارض (الاقطاعيين) الجدد.

٣ ـــ عوامل مساعدة لتكون وترسخ اسر كبار الملاك .

٤ ـــ القوى المتسلطة تحوز على القسم الاكبر من الارض والفلاحون يخسرونها .

١ ـ حركة الاصلاح والقوانين ذات الطابع البورجوازي :

ادت جملة عوامل خارجية وداخلية الى دفع حركة اصلاح النظم الادارية واساليب الحكم خطوة الى الامام باعلان « خط شريف كلخانة » في اواخر عام ـ ١٨٣٩ ـ ، وبهذا بدأ ما عرف باسم « التنظيمات » التي دشنت عهد الاصلاحات البورجوازية في الدولة العثمانية . وهذه « التنظيمات » كانت ردة فعل ضد نموحركة التحرر الوطني المناهضة للاتراك . كما رمت ايضا الى تثبيت دعائم السلطة المركزية والحد من تدخل الدولة الاوروبية في الشؤون الداخلية السياسية للدولة العثمانية

ان حركة الاصلاح بمرحلتها الاولى الممتدة من ١٨٣٩ الى ١٨٥٦ تميزت باصلاح النظم الادارية والمالية والحقوقية والعسكرية والتربوية . وبعد حرب القرم ـ ١٨٥٤ ـ وبتأثير الدول الغربية اعلن السلطان في شباط ـ ١٨٥٦ ـ « الخط الهمايوني » الذي دشن المرحلة الثانية من « التنظيمات من ١٨٥٦ الى ١٨٧٠ » .

ضمنت القوانين الجديدة الصادرة بموجب « الخط الهمايوني » حريةحركة راس المال الاجنبي في الدولة العثمانية . فتأسس في عام ـ ١٨٥٦ ـ البنك الامبراطوري العثماني براسمال انكليزي . وفي سنة ـ ١٨٦٧ ـ اعترفت الدولة العثمانية بحق الاجانب في تملك الاراضي . ونال الراسمال الاجنبي عددا من امتيازات الخطوط الحديدية . كما دشنت قوانين لصالح البورجوازية الناشئة مثل قانون الملكية في عام ـ ١٨٥٨ ـ وتاسيس محاكم تجارية مختلطة ـ ١٨٦٠ ـ ، واصدار قانون الملاحة ـ ١٨٦٩ ـ وقانون الجنسية ـ ١٨٦٩ ـ . ولكن هذه التنظيمات اصطدمت بمقاومة القوى الاقطاعية الفئة العليا من رجال الدين المسلمين وكبار الموظفين وطغمة البلاط(١)

وفي هذه الفترة ظهرت جمعية تركيا الفتاة الليبرالية البورجوازية ، التي سعت الى اقامة ملكية دستورية واصلاحات بورجوازية في الحقل السياسي والاقتصادي . وفي منتصف الثاني من القرن التاسع عشر بدات بالانتعاش حركات ادبية ذات محتوى سياسي عرفت باسم « النهضـــة » .

واخيرا تمكنت جمعية تركيا الفتاة في سنة ــ ١٨٧٦ ــ مـــن اصدار الدســـتور القانون الاساسي للدولة العثمانية ، الذي عرف باسم « المشروطية » ورمـــى الـــى القضاء على الحكم المطلق والسير بالاصلاح الى الامام . ولكن السلطان الجديد عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ ــ ١٩٠٩ عطل الدستور وحل البرلمان وابعد مدحت باشا الصـــدر الاعظم ، صاحب اليد الطولى في وضع الدستور . وهكذا انتهت حركة الاصلاح ، واقام السلطان عبد الحميد حكما اوتوقراطيا مطلقا . واضطهد ــ الحركة البورجوازية ــ التحررية ، وارهب الاقليات القومية وبخاصة الارمن ، واتبع سياسة الجـــامعة الاسلامية بهدف السيطرة على العالم الاسلامي تحت ظل خلافته . وسعى للاستفادة من التناقضات القائمة بين الدول الكبرى الطامعة في الدولة العثمانية وهي روسيا ، بريطانيا فرنسا ، المانيا ، واخر بذلك انهيار الدولة العثمانية لفترة مـــن الزمن(٢) . وفي هـــذه الاثناء ، في ــ ١٩٠٨ ــ قامت جمعية الاتحاد والترقي بانقلاب على عبد الحميد واعلنت الدستور المعطل منذ ــ ١٨٧٦ ــ وحكمت حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، التي ادت الى زوال الحكم الاقطاعي التركـــي عن الاقطـــار العربية عـــام ــ ١٩١٨ ــ ومجـــيء الاستعمارين البريطاني والافرنسي باسم الانتداب .

٢ ــ قانون الاراضي ــ ١٨٥٨ ــ وتكون طبقـــة مـــلاك الارض (الاقطاعيـــين) الجـــدد :

قبل منتصف القرن التاسع عشر لم تكن تبلورت معالم الاسر الاقطاعية في المـــدن الرئيسية لبلاد الشام . وكان الشيء البارز في مدن القرن الثامن عشر واوائل التاسع عشر تحرك عوام المدن ضد الاستغلال الاقطاعي العثماني المتمثل في جمـــع الضرائـــب والمصـــادرات والتعديات المتكررة على الاهالي وجاءت التغيرات المنوه عنها في منتصـــف القرن التاسع عشر لتسبب في بداية تغيير معالم المدن وازدياد التمايز الطبقي في داخلها

وخمود تحركات العامة مع زوال الباشوات الاقطاعيين وبداية ظهور الدولة الحديثة ذات الملامح البورجوازية . ومع التطور البطيء لحركة التنوير والنهضة العربية بدات تظهر بعض عوامل سنذكرها بعد قليل — في مدن بلاد الشام معالم العائلات ، التي سيصبح لها دور في توجيه السياسة المحلية حتى منتصف القرن العشرين وتحديدا حتى سن قانون الاصلاح الزراعي في اواخر الخمسينات .

ولم يكن ظهور وانتعاش وترسخ جذورالعوائل الثرية ذاتالنفوذ والسطوة والجاه حدثا عرضيا جرى بمحض المصادفة ، بل كان وليد التطور والاصلاح المتعثر ، الذي جرى في الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر . كما ان تكون طبقة الاسر الاقطاعية تم بفعل عدة عوامل ، نوهنا الى بعضها ونؤكد عليها مرة ثانية وهي : —

١ — اندفاع العلاقات القائمة على تبادل البضائع بالنقود وبداية انحسارالاقتصاد الطبيعي (بضاعة مقابل بضاعة) .

٢ — ازدياد التبادل بين المدينة والريف ، واجزاء بلاد الشام فيما بينها ، وبين بلاد الشام والعالم الخارجي . مما رفع من قيمة المنتجات الزراعية واثمانها ودفع تلك العائلات لحيازة الارض وتسجيلها باسمها بنهم واساليب رهيبة وشريرة . وكان التكالب على تسجيل الاراضي باسماء الاسر الصاعدة في طريق جمع الثروةمن السمات الاساسية لاجواء المدن في النصف الثاني من القرن التاسععشر وأوائل القرن العشرين .

وجاء قانون الاراضي العثماني(٢) لعام — ١٨٥٨ — ليضفي الصفة الشرعية على الملكية الخاصة الفردية ، بعد انكانت ملكية الدولة للارض هيالقاعدة العامة السائدة . لقد الغىهذا القانون بصورة شرعيةنظام الاقطاعات العسكرية وتبعية الفلاحينلاصحاب « التيمار السباهية » من الفرسان السابقين في الجيش ، الذين حصلوا على اراضي التيمار لقاء الخدمة العسكرية في الجيش . ولكن قانون — ١٨٥٨ — لم يمنح الاراضي للفلاحين ، بل اكتفى باعطاء مستأجري اراضي الدولة حق شرائها والزامهم بدفع مبلغ كبير ثمنا لها . ووسع قانون الاراضي هذا اصناف الاراضي التي امست ملكا خاصا ، وساعد على تطوير الملكية الخاصة للارض وجعلها بضائع متداولة . ومع هذا احتفظ القانون بجملة من القيود المفروضة على استعمال الاراضي ، التي كان من شأنها اعاقة

المبادرة الاقتصادية(٤) . وبعد صدور قانون الاراضي بقليل صدر في سنة ـ ١٨٦١ ـ قانون تسجيل الاراضي العثماني « الطابو » لضبط حدود الاراضي وتنظيم جباية ضريبة العشر . وعندها ازداد الصراع العنيف بين القوى الاجتماعية على امتلاك الارض وكانت الغلبة طبعا لاصحاب النفوذ السياسي والديني والعسكري . ففي ظل سيطرة الدولة العثمانية الاقطاعية الشرقية . فسر قانون الاراضي وطبق في صالح « اولي الامر » من مختلف المراتب والدرجات ، ومن في يدهم مفاتيح تسجيل هذه الاراضي في دوائر الدولة العقارية ، او من يملكون الثروة مقدما ، وبامكانهم رشوة الحكام وتسجيل الارض او شرائها اسما وباسعار بخسة .

ويذكر احمد وصفي زكريا سبب انتقال ملكية قرى المرج وبعض قرى الغوطة الشرقية الى أغنياء دمشق وتجارها ومتنفذيها ، اي أرباب الوجاهة ، بسبب هجمات البدو وتشدد ملتزمي بدلات الاعشار ورجال الجباية في القرن التاسع عشر مما اجبر الفلاحين الفقراء في الغوطة الشرقية الى اللجوء لحمى أعيان دمشق ومتنفذيها يبيعونهم قريتهم كلها أو جلها بأثمان بخسة . وكنا ذكرنا في فصل اشكال الملكية ما كتبه كرد علي من اساليب استخدمتها الاسر الغنية والمتنفذة للاستيلاء على الاراضي بعد الشروع في الطابو عام ١٨٨٤ . وقد انتقلت من جراء ذلك اكثر قرى هذه الناحية الى ايدي بعض الأسر الدمشقية امثال آل اليوسف والعظم والعابد والجزائري والايبش والموره‌لي والبارودي والدالاتي والكيلاني والعجلاني والصمادي والعاني والايوبي والقوتلي والصواف والجلاد والشلاح والخياط والمملوك ونصري ومردم وقصاب باشي وغيرهم ، وكثيرا ما كانت تنتقل ملكية .. الارض بين فترة واخرى من اسرة الى اسرة ، او من فرد الى فرد تقاسما او توارثا او شراء ، وبذلك صار اهل الغوطة الشرقية اجراء ومزارعين لدى الملاكين في دمشق بعد ان كانوا سادة اراضيهم(١٢) .

لقد اثار نظام تسجيل الاراضي المبني على سندات الملكية ورسوم التسجيل والاحصاء فزع الفلاحين وتخوفهم وظنوا انه وضع لتسهيل عملية جباية الضرائب واخذ الفلاحين الى الخدمة العسكرية . فالفلاحون لم يعتادوا ان يروا في اجراءات « الدولة العلية » الا ابتزاز الاموال وفرض الضرائب ونهب الخيرات ولم يدركوا ــ وهذا امر طبيعي ــ ان الاجراءات الجديدة يمكن ان تساعدهم في الحصول على ملكية

الارض . ولكن وبسبب ضعف التيار البورجوازي الليبرالي في الدولة العثمانية وبسبب تبعثر الفلاحين وتعبهم وجهلهم ، لم يدركوا الجوانب الايجابية في قانون الاراضي الجديد وذيله قانون تسجيل الارض (الطابو) .

خلال الثورات البورجوازية في اوروبا تحالفت الراسمالية الصاعدة في المدينة مع الفلاحين لهدم بنيان النظام الاقطاعي السائد . وفي البلقان الخاضع كالمشرق العربي للسيطرة العثمانية بدا النهوض القومي في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، في حين تأخر عصر النهضة العربية الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ولاسباب كثيرة سرعان ما تطورت النهضة القومية في البلقان ــ بلغاريا مثلا ــ الى ثورة وطنية تحررية ذات محتوى اجتماعي مناهض للنظام الاقطاعي العثماني . وهذه الثورة حملت بين جنباتها آمال الثورة البورجوازية في بلد لم تنضج فيه بعد العلاقات الاقتصادية ــ الراسمالية . وقد ادى تحرر بلغاريا من النير العثماني على اثر الحرب الروسية التركية ١٨٧٧ ــ ١٨٧٨ الى قيام الفلاحين البلغار بالاستيلاء على أراضي الملاك الاتراك الاجانب وتوزيعها فيما بينهم . واخذت بلغاريا تشق طريقها عبر تغيرات اقتصادية اجتماعية ذات صيفــة بورجوازيــة .

اما في مشرق الوطن العربي الخاضع للدولة العثمانية فان الثورات الفلاحية التي حدثت في القرن التاسع عشر اقتصرت على مناطق معينة ــ خارج اراضي الميري ــ . وعلى مجموعات سكانية معينة وهذه الثورات الفلاحية كانت معزولة عن المدينة بسبب ضعف التطور البورجوازي في المدينة. وبعد بلاد الشام عن اعاصير الثورات البورجوازية كما كان الحال في البلقــان .

وفي راينا ان قومة حلب عام ــ ١٨٥٤ ــ سرعان ما تحولت الى قوة لضرب التطور البورجوازي في مدينة حلب . والظاهرة نفسها نجدها في الاحداث الطائفية التي عرفتها مدينة دمشق عام ١٨٦٠ الى درجة تدفعنا الى القول ان مثيري الاحداث الطائفيــة في الجهاز العثماني الحاكم سعوا الى تنظيم ثورة مضادة للتطــور البورجوازي الضعيف والمحصور اصلا في تجمعات سكانية معينة . ولهذا فان نسبة القوى الاجتماعية فــي القرن التاسع عشر ووضع السلطة في الدولة العثمانية لم يكن يسمــح بالانتقال مــن

العلاقات الاقطاعية الى العلاقات الراسمالية او على الاقل الى علاقات تسود فيها الملكية الصغيرة في الريف وبخاصة في اراضي الميري .

والاصلاحات العثمانية ذات الطبيعة البورجوازية الليبرالية لم تؤد الى الانتقال من نمط الانتاج الاقطاعي الشرقي الى نمط لانتاج راسمالي معين . بل ان التغير جرى على صورة الانتقال من احد نماذج العلاقات الاقطاعية العثمانية ، التي ذكرناها سابقا في الحديث عن اراضي الميري ، الى شكل جديد لتلك الاقطاعية العثمانية يتناسب مع الضغوط العالمية في عصر انتقال البشرية من الاقطاعية الى الراسمالية ويعبر داخليا عن مستوى تطور القوى المنتجة المتمثلة في ضعف التطور الراسمالي وتخلف القوى المنتجة .

وهكذا وبسبب تلك العوامل الخارجية والداخلية جرى الانتقال من احد اشكال الاقطاعية العثمانية « التيمار ، الالتزام ، المالكانة » الى شكل آخر للاقطاعية العثمانية اكثر « تطورا » واكثر تلاؤما مع الاوضاع الداخلية والخارجية المستجدة في القرن التاسع عشر . هذا الانتقال عبر عنه قانون « الاراضي » لعام /١٨٥٨/ ، الذي جعل تطور العلاقات الاقطاعية الجديدة في حضن نمو الراسمالية الهامشية والتابعة للغرب الاستعماري ممكنا بصياغة قواعد الملكية الاقطاعية الجديدة وفق مصطلحات اسلامية(٧) .

وقد ذكرنا في فصل (اشكال الملكية) انواع التملك وهي : اراضي الملك ، اراضي الميري ، اراضي الوقف . الاراضي المتروكة او الموات . وكانت نسبة القوىالاجتماعية وبالتالي السياسة هي التي تحدد عملية انتقال الارض من شكل لاخر . وعموما كان الاتجاه يسير نحو تقلص اراضي الميري لحساب اراضي الملك ، التي تجمعت في ايدي فئة قليلة من الخاصة ، والعناصر المتنفذة ، التي شكلت الطبقة الاقطاعية في اواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين .

واستطاعت القوى المتنفذة في مراكز ولايات بلاد الشام وفي مدنها الرئيسية ان تستغل جهل الفلاحين من جهة وتخوفهم من قضية التسجيل ، التي ستؤدي الى مزيد من الضرائب والى السوق الى الخدمة العسكرية ، لتقوم بتسجيل مساحات

واسعة من الاراضي باسمها . وبسبب صعوبة طرق المواصلات وعدم توفر المال اللازم لدفع رسوم التسجيل ـ لم يتحرك الفلاح للقيام بهذه العملية التي تكلفه نفقات السفر ورشوة الجهاز الاداري ودفع الرسوم الباهظة بالنسبة لمورده .

وعندما لم يستطع الفلاح تسجيل الارض التي يعمل بها ، فان مجلس القضاء (المحلي) او مجلس الولاية سرعان ماكان ينظم عملية مزاودة شكلية لبيع هذه الارض. والنتيجة ان المزاد (الشكلي) كان يرسو على احد اعضاء المجلس او على من هم على صلة مالية او رحمية بذلك المجلس . وكثيرا ماكان مجلس الولاية او مجلس القضاء يقيم مزادات بسبب مخالفة قانون الاراضي . وكان من اكثر المخالفات الشائعة تقصير الفلاح في زراعة ارضه خلال ثلاث سنوات متعاقبة ، بسبب عجزه عن شراء البذور او ادوات الفلاحة ، فتفرض عليه غرامة على شكل ضريبة اضافية على الارض او على شكل رسم تسجيل . وكان من الطبيعي ان الفلاح الفقير كان يفقد ارضه ، فتدخل في المزاد وتنتقل الى أصحاب النفوذ والسلطة والثروة(٨) .

ومع ان البنك الزراعي العثماني ، المؤسس عام /١٨٨٨/ كان له فروع في بيروت وحلب ودمشق وقام بادانة الفلاحين ، فانه لم يؤد الى تثبيت ملكية الفلاح . فقد بلغ في عام /١٩١٢/ عدد الدائنين /٧٠٦٤٧/ شخصا استدانوا مبلغ /٥٨٧٠٨٠٤٨/ ليرة . اي حوالي /١٣/ مليون فرنك يذهب معظمها لمستأجري الاراضي الصغار والمتوسطين. ومع ان فوائد البنك الزراعي كانت اقل من فوائد المرابين . فان نحو /١٥ـ٣٠/ بالمئة من الدائنين صودرت حسب تقدير الاقتصادي الالماني الذي عاش في بلاد الشام في تلك الحقبة ـ املاكهم وطرحت في المزاد العلني بسبب عدم تمكنهم من دفع ماastدانه(٩) .

ومن الامور المألوفة آنذاك انتقال ملكية هذه الارض الى من باستطاعته دفع المال او تنظيم عملية المزاد بصورة شكلية .

يتضح مما تقدم ان تسجيل الاراضي الزراعية بعد /١٨٥٨/ لم يتم في صالح الفلاحين المعدمين والفقراء والمتوسطين ، بل تم في صالح اغنياء الريف في حدود ضيقة، .

وفي صالح اثرياء المدينة وزعمائها وكبار الموظفين والضباط . ممن سماهم كرد علي « أرباب الوجاهة »(١٠) .

وهذا التملك الجديد للاراضي ، وما تدره من ارباح وثروة أحدث خللا في التوازنات الاجتماعية والسياسية والاسرية ، وخلق قوى جديدة صعدت السلم الاجتماعي من الفئات الوسطى ، مع ترسخ اقدام الاسر القديمة ذات النفوذ الديني(١١) او التي كانت من اصحاب المالكانات .

٣ ـ عوامل مساعدة لتكون وترسخ اسر كبار الملاك :

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فقد رجال الدين احتكارهم السابق للثقافة والتربية . وظهرت المدارس العلمانية المتأثرة بالثقافة البورجوازية الغربية . ومدارس ذلك العصر كانت نوعين لهما اثرهما في تخريج الكوادر للدولة وللحياة الاقتصادية ، وبالتالي في خلق مراكز قوى سياسية جديدة . هذان النوعان من المدارس هما :

آ ـ مدارس الدولة العثمانية ، التي خرجت الكوادر المدنية والعسكرية .وهذه الكوادر كانت على درجات من النفوذ والمراتب العليا منها تمكنت بواسطتها ايضا من الاثراء عن طريق سرقة اموال الدولة والرشوة وتسجيل الاراضي باسمها بمختلف السبل .

ب ـ مدارس البعثات التبشيرية ، التي كانت اكثر حداثة وعقلانية وخرجت الكوادر ، التي نشطت في الاعمال الاقتصادية والعمل مع البعثات الدبلوماسية (معظم هؤلاء من المثقفين المسيحيين) وهذه الكوادر كونت بذور التفكير البورجوازي ، واسهم بعضها في حركة النهضة العربية .. والى جانب هؤلاء وجد في المدارس التبشيرية بعض ابناء الاسر الثرية المسلمة وعدد من ابناء كبار موظفي الدولة العثمانية . وقد لمع عدد من خريجي هذه المدارس في كوادر الدولة مثل أحمد عزت باشا العابد السكرتير الخاص للسلطان عبد الحميد ، الذي تحول الى احد كبار الملاك والاثرياء المعروفين ، واشترك قسم آخر بنشاط في الحركة الوطنية العربية مثل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الزعيم المرموق للحركة الوطنية في سورية في العشرينات والثلاثينات.

كان التزاوج بين الاسر القوية طريقا لتحقيق احلاف جديدة ومراكز قوى جديدة. فالتزاوج كان يجري مبدئيا ضمن افراد الاسرة للمحافظة على ارثها وعدم تشتت املاكها . ولكن التزاوج القائم على اساس عقد التحالفات امسى ايضا ظاهرة بارزة بين الاسر الكبيرة، الدينية وغير الدينية ومع ملاحظة ان الاسر الدينية كانت تتردد في مصاهرة العائلات الاخرى القديمة الثراء او الحديثة حفاظا على سمعتها و «دينها».

ومن جهة اخرى كان التجار الاغنياء يسعون الى الارتقاء من خلال مصاهرة العائلات القديمة السياسية الغنية ذات النفوذ . وذلك ليتمكنوا عن هذا الطريق من تسيير امور تجارتهم على احسن سبيل . فالسياسة والاقتصاد صنوان لا يفترقان وان ظهرا شكلا انهما بعيدان عن بعضهما في بعض الاحيان . كما لوحظ اتجاه واضح للزواج من بنات العائلات « الاستمبولية » الرفيعة ذات النفوذ والباع الطويل في التوظيف ومنح الالقاب وكسب الجاه او المزيد منه . وباتت صالونات قصور العائلات الكبيرة هذه تستخدم اللغة التركية الى جانب العربية، واخذت الايديولوجية الاقطاعية العثمانية تترسخ اكثر فاكثر في اوساط تلك الطبقة .

ان دراسة تاريخ صعود الاسر الدمشقية الى قمة السلطة السياسية المحلية والعثمانية تبين تفاعل عملية ديالكتيكية تلقي الاضواء على ترابط الاقتصاد بالسياسة . فالوصول الى المناصب الادارية الرفيعة وسيلة لتسجيل الارض بأسماء هؤلاء الموظفين وضمان الثروة وما تقدمه من جاه ونفوذ وسطوة وارتقاء الى اعلى السلم الاجتماعي الاقطاعي الشرقي العثماني .. واحتلال المراكز الهامة في المؤسسات الدينية تمكن اصحابها من ادارة الاوقاف والوصول عن هذا الطريق الى تسجيل الاراضي والاملاك وحيازة الثروة والنفوذ القديم التقليدي للعائلات شبه العسكرية (بقايا الانكشارية المحلية) يمكنها من السيطرة على طرق التجارة ومن تسجيل الاراضي وتوسيع رقعة سيطرتها ورهبتها وتحقيق الارباح التجارية تدفع بأصحابها الى شراء الاراضي ورشوة الحكام وتسجيل الاراضي بأسعار زهيدة .

وهكذا فالجاه والثروة والمنصب والمقام الاجتماعي تجلب منفردة او مجتمعة « الخير » والارض المسجلة في دوائر الطابو ، وهذه الارض الواسعة الشاسعة تغل

عليهم واردات وثروة جديدة يستخدمونها لرفاههم أو لزيادة ثروتهم والمحافظة على مناصبهم ورشوة السلطات العثمانية وشراء المناصب لافراد الاسرة الشباب ، ودفع الرشاوى للمحافظة على المناصب الوراثية للاسرة ، وشراء عقارات جديدة ونهب اراض جديدة وثروة جديدة ، وهكذا دواليك .

تلك هي سنة ذلك النظام الطبقي الاقطاعي العثماني ، وسنة كل نظام يستثمر الانسان فيه اخاه الانسان فالثروات تصب في جيوب الاقلية والبؤس يعم ويخيم على الاكثرية . . .

وللحفاظ على نفوذ تلك العائلات الثرية ، قديما او حديثا ، كانت الاراضي تسجل باسم العائلة كوحدة متماسكة وليس باسم فرد من افرادها . ومن اجل حماية الاراضي كانت العائلة تفضل ان تضع قسما من املاكها على شكل وقف اهلي يكلف عميد الاسرة بمهمة ادارته وتوزيع ارباحه على افراد الاسرة . وكانت هذه العملية تدفع الاسرة الغنية الى التماسك والتضامن والدفاع عن بعضها مادام ثمة رابطة اقتصادية مصلحية تجمعهم ، وتزداد هذه الرابطة توثقا بالتزاوج ضمن افراد الاسرة بين ابناء وبنات العم للمحافظة على ارث الاسرة من التجزئة والتشتت(١٢) .

من جهة اخرى نجد ان عددا من الاسر خارج نطاق المدينة تمكنت من تملك اراضي الميري ، مستغلة ضعف الدولة وحاجتها الى قوى عسكرية تحمي طريق الحج وتمنع البدو من مهاجمة قوافل الحجاج كما كان يحدث دائما(١٣) . ومن هذه الاسر آل سويدان ، الذين استقروا في حسية جنوبي حمص وكان جد العائلة الآغا ابراهيم سويدان متسلما على حمص وتمكن في عام /١١٠٠/ هـ من امتلاك قرية حسية وتولى مع احفاده محافظة البادية وحماية طريق حمص تدمر وطريق حمص جبل قلمون حتى ابواب دمشق ، وامسى آل سويدان من كبار ملاك الارض في جنوبي حمص(١٤). وعلى منوال آل سويدان برز اغوات جيرود (آل حديشان الجندل) ، الذين كلفوا بحماية طريق دمشق تدمر . كما ظهر الاغوات الدنادشة (آل دندش) في تلكلخ ، الذين كلفوا بحماية طريق حمص ـ طرابلس منذ القرن الثاني عشر هجري(١٥) .

٤ ـ القوى المتسلطة تحوز على القسم الاكبر من الارض والفلاحون يخسرونها :

طمحت السلطة المركزية الاقطاعية في استنبول الى الحد من نفوذ الارستقراطية المحلية ، او على الاقل مقاسمتها الغنائم(١٥) عن طريق الاستيلاء ومصادرة « ملكيات » هذه الارستقراطية وتجريدها من الاساس الاقتصادي ، الملكيــة الشخصية للارض ، الذي تعتمد عليه في فرض وتدعيم نفوذها . وفي حالات اخرى كانت الادارة المركزيــة تتعاون مع الارستقراطية المحلية في سبيل نهب اراضي الفلاحين وتحويلهم الى عبيــد مرتبطين بالارض يعملون لصالح الاقطاعي او الدولة او كليهما معا .

وفي نهاية القرن التاسع عشر استطاع السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) رأس السلطة المركزية الاقطاعية ، عن طريق عملائه وعن طريــق مختـلف الوسائـل الدنيئة ، من قتل ونهب وسرقة ، تمكن من الاستيلاء على مساحات واسعة من اراضي الفلاحين المعدمين ، الذين ارهقتهم الضرائب الكثيرة ، ولم يكن بمقدورهم دفعهــا واصبحوا مدينين للدولة ، أي السلطان . وتذكر المصادر أن السلطان عبد الحميــد « تملك » في سورية الداخلية وحدها حوالي /١٥/ مليون دونم من الاراضي الخصبة التي شملت /١١١٤/ قرية .

والواقع ان السلطان عبد الحميد قام بعــدة اجراءات لزيــادة انتـاج الارض « الجفتلك » السلطانية الخاصة به . فهو اولا اعفى الفلاحين العاملين في ارضه مــن الخدمة العسكرية ، وثانيا حمى القرى السلطانية من تعدي الاعراب الرحل بواسطة جندرسيار خاص من راكبي البغال المسلحين ببنادق حديثة بامكانها التغلب على اسلحة البدو وملاحقتهم الى اقصى البراري . وثالثا اعفى الارض السلطانية من الضرائــب الحكومية ومن تسلط الدرك واوجد جباة تابعين لادارة خاصة بأملاكه مركزها حلب . وبفضل هذه الاجراءات الامنية اولا والمالية ثانيا عمرت القرى النائية في اقضية الباب ومنبج وجبل الاحص ومطخ قنسرين وغيرها من القرى الواقعة شرقي حمص وحمــاه. وقد ادت هذه الاجراءات الى استقرار بعض البدو مثل عشيرة الولدة وصار ابناؤها حراثين . وبعد زوال عبد الحميد تحولت املاكه الى الاراضي المدورة وامست ملكـا للحكومة العثمانية . وفي ظل ظروف الاضطراب بعد /١٩٠٨/ وبخاصة اثناء الحــرب

العالمية الاولى فقد الامن وساءت حالة الفلاحين نتيجة هجمات الاعراب عليهم فاخذوا يترحمون على السلطان عبد الحميد (١٦/١) .

ورافق الهجمة السلطانية الحميدية هذه ، حملة اخرى قامت بها العائلات الاقطاعية لتوسيع املاكها بالتعاون مع كبار موظفي الدولة الذين نالوا ايضا حصة كبيرة من المنهوبات . وادى ضعف السلطة المركزية الاقطاعية وانهماكها في الشؤون الاوروبية الى توسيع اراضي هؤلاء او سرقتهم لاراض جديدة . واعتماداً على معطيات الاقتصادي الالماني (بروك) انتقلت ملكيات كثيرة كانت فيما مضى تحت تصرف السلطان أو الدولة الى «ملكية» خاصة اقطاعية سيطرت عليها الفئات المحليةالحاكمة

وكنا قدمنا نماذج عن تكون الاسر الاقطاعية في مدينة دمشق ، التي لم تختلف في هذا الامر عن المدن السورية الاخرى .

ففي حلب قام وجهاؤها واثرياؤها ومتنفذوها بالاستيلاء على الاراضي واستغلالها . وزاد شرههم في الاستيلاء على الارض بعد ارتفاع اسعار الحبوب ورغبة تجار الحبوب الاوروبيين في الحصول على القمح القاسي الذي تنتجه ارياف حلب . واخذ هذا القمح يصدر عن طريق ميناء اسكندرون بعد تجميعه في حلب . مما دفع عبد الحميد من جهة والاسر المحلية المتنفذة من جهة اخرى الى تحضير البدو وفرض الامن وتعمير الخرائب بعد تحويل البدو الى حضر او نصف حضر . وامسى العمران يمتد نحو البادية بنسبة امتداد رواق الامن وينقلب الامر الى عكسه ويعود الخراب في حال فقدان الامن كما جرى أثناء الفوضى وانتشار السلب والنهب في الحرب العالمية الاولى(١٧/١) . ومن اجل الاستيلاء على الاراضي وامتلاكها في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين استعر أوار النضال بين القوى الرئيسية التالية :

١ ــ بين السلطة المركزية في استنبول من جهة وممثليها من العسكريين والولاة وكبار الموظفين من جهة ثانية .

٢ ــ بين كبار العائلات الاقطاعية المحلية وجهاز الدولة .

٣ ــ بين المالكين الاقطاعيين الصغار والمتوسطين من جهة وجميع القوى المتنفذة الاخرى .

٤ – بين الفلاحين الفقراء والمتوسطين من جهة ، والقوى الاقطاعية والسلطة المركزية .

ويروي الاستاذ محمد كرد علي صاحب الاطلاع الواسع على العلاقات الاقتصادية الاجتماعية في أواخر عهد الدولة العثمانية بعض صور النزاع بين الفئات الاجتماعية السابقة من أجل امتلاك الارض . والاستاذ كرد علي يروي قصة سرقة اراضي فلاحي الغوطة نقلا عن صديقه حكمت شيخ الارض على لسان شيخ معمر من اهل المرج ادرك جيش ابراهيم باشا في الشام . قال الشيخ المعمر(١٨) :

« أن خروج الاملاك من ملك الفلاحين الى الافندية سببه ان كل ماكان يقع من دين ومظلمة أو غيرها (غرامة) كان يلقى على « حجز القرية » اي على حساب الضيعة كلها فتجمعت هذه الديون على القرية حتى اضطر اهلها الى بيعها بأرخص الاثمان صفقة واحدة . ومن الفلاحين من تشردوا في القرى او من ارتضوا بان يكونوا فلاحين عند ارباب الاملاك الجدد . واوشكت دوما اكبر قرى الغوطة في القرن الماضي ان تستغرقها الديون واراد اهلها ان ينزلوا لغريمهم عن نصفها ويبقى لهم النصف الاخر ولو لم تلغ قاعدة « حجز الضيعة » لخرج بعض ارض الغوطة او اكثرها من ايدي مالكيها الاصليين . فنزع قرى زبدين وبالا والحديثة والمحمدية والافتريس من أهلها جرى بسبب قانون « حجز الضيعة » بالاضافة الى ضرائب الدولة ، التي تراكمت على الفلاحين فاضطرتهم الى بيعها بالمزاد .

وكان بعض الاعيان لا يرضون الا ان يبتاعوا القرية كلها صفقة واحدة بأسعار بخسة او اسعار اسمية كما فعل آل سرسق مع حكومة سورية ، اذ استطاعوا اخذ مرج ابن عامر صفقة واحدة واخرجوا اهالي اكثر من ستين قرية عن املاك ابائهم واجدادهم لاداء اموال الدولة العلية » .

ويروي محمد كرد علي اخبارا اخرى عن الهجمات المعاكسة التي قام بها اغنياء الفلاحين لاسترداد جزء من الارض « المباعة » بثمن بخس وتوسيع ملكيتهم مستثمرين حاجة الاقطاعي أو الملاك الكبير الى المال بسبب بذخه وانغماسه في الملذات والملاهي . يقول كرد علي(١٩) :

« نعم كان من احالة كل دين عقده اهل القرية على ما دعوه « حجز القرية » ان تجمعت ديون فاحشة اضطر اهلها الى بيعها فانتقلت الى غير الفلاحين ممن لهم مال. ولما تحسنت حال الفلاح (الغني او المتوسط) في الغوطة ومرجها بعض الشيء وعرف بعضهم طرق الاقتصاد من غلاتهم السنوية اصبح في مكنته ان يبتاع مااضطر صاحب الزراعة الى بيعه من ملكه « ... » سمعت ان بعض الفلاحين الذين كان أجدادهم يهربون من ملك الارض ويؤثرون ان يعيشوا بسلام في املاك الاغنياء بصفة فلاحين وعملة عادوا الان يؤلفون شركات منهم ويبتاعون كل ارض احب صاحبها الغني وابنه او حفيده ان يبيعها ويتقاسمونها بينهم فيضم كل واحد الى ارضه ما جاوره من القطع المباعة » .

في قرية الهنادي (اللاذقية) نشب خلاف حاد في عهد عبد الحميد (قبل ١٩٠٨) حول ملكية معظم اراضي هذه القرية بين فلاحي القرية وبعض كبار الوجهاء الذين ادعوا وقفية القرية وقفا ذريا لهم .

وكان واضحا ان القضاء في دولة اقطاعية سيقف الى جانب الوجهاء وسيجرد الفلاحين من الارض وسيحكم « بقانونية » ملكية الوجهاء ، الذين سن أجدادهم ، كما راينا ، وثيقة الوقف الذري . وفي هذه الحالة النادرة تدخل متصرف اللاذقية المتنور ــ ودون انتظار ماسيقرره القضاء ــ امر بمنع معارضة فلاحي قرية الهنادي من زراعة الاراضي واستغلالها . ان سلوك متصرف اللاذقية ضياء بك هذا ، هو حالة نادرة رمى من ورائها الى كسب ود فلاحي الجبال المشرفة على اللاذقية ، الذين كانوا يثورون ضد الدولة العثمانية كلما سنحت لهم الفرصة بذلك .

ولا بد من ذكر بعض الحيل التي اتبعها « رجال الدولة » الذين استولوا على املاك الفلاحين بوسائل « مشروعة » مثل الشراء الشكلي او بوسائل غير مشروعة « لتنجو املاكهم وضياعهم من المصادرة » . ان اطرف حيلة اتبعها كبار موظفي الدولة العثمانية الذين تحولوا الى ملاك للارض ، هي وقف املاكهم ليتخلصوا من نظام المصادرة . ثم كانت الخطوة الثانية لتملك هذه الارض شرعا قيام هؤلاء الاقطاعيين الجدد ، ويسميهم كرد علي ب « رجال اذكياء انقذوا الاوقاف بان حلوها بحيل سموها

شرعية واخترعوا لها اسماء كالتحكير والاحترام والاجارتين والمرصد ، واخرجوها عن ملك الوقف الى الملك الخاص »(٢٠) .

وتحتوي بطون كتب التاريخ مئات الامثلة عن محاولات الطغاة جعل الاراضي الخصبة وبخاصة المروية اقطاعا او ملكا لهم ، « كما فعل كيوان من عمال العثمانيين فاستولى على اكثر بساتين الربوة والمزة بغصب املاك الفلاحين ، ولاتزال المنطقة هناك تسمى كيوان باسم ذلك المغتصب »(٢١) .

وعلاوة على محاولة « رجال الدولة العلية » الاستيلاء على الاراضي واغتصابها فان « أصحاب الاموال » ومعظمهم من تجار المدينة حاولوا ايضا ، وكلما سنحت لهم الفرصة الاستيلاء على الاراضي بأثمان بخسة مستثمرين خراب الفلاحين والملاكين عامة وحاجتهم الى المال . « كما كاد صيارفة يهود دمشق في القرن الماضي (منتصف القرن التاسع عشر) ان يملكوا جزءا مهما من الغوطة بما تكاثر لهم من الربا الفاحش الذي كانوا يتقاضونه من كبار الفلاحين وصغارهم . ولكن محاولة صيارفة يهود دمشق باءت بالفشل اذ « قام رجل من رجال المحاماة الاستاذ اسعد افندي وانقذ الفلاحين من الصيارفة فاضطر اليهود الى ان يبيعوا ما ملكوا من الارض تخلصا من تضييق جيرانهم ارباب الاملاك »(٢٢) .

ولئن فشلت محاولة الصيارفة اليهود في امتلاك اراضي الغوطة فان محاولات غيرهم من الصيارفة والتجار والمرابين واصحاب رؤوس الاموال في المدن نجحت في الاستيلاء على اراضي الفلاحين والملاكين العاجزين عن دفع ديونهم بسبب الخراب الحال بهم نتيجة الازمات الزراعية وثقل وطاة الضرائب الحكومية .

كان « قانون الاراضي » الصادر في ٢١ /نيسان/١٨٥٨/ حدثا هاما في تاريخ العلاقات الزراعية في الدولة العثمانية . فقد الغى هذا القانون بصورة شرعية نظام الاقطاعيات العسكرية وتبعية الفلاحين لاصحاب التيمار من الفرسان السابقين في الجيش الذين حصلوا على اراضي التيمار لقاء الخدمة العسكرية في الجيش . ولكن قانون /١٨٥٨/ لم يمنح الاراضي للفلاحين . بل اكتفى باعطاء مستأجري اراضي الدولة حق شرائها والزامهم بدفع مبلغ كبير كثمن لها ووسع قانون الاراضي هذا

اصناف الاراضي التي اصبحت ملكا خاصا ، وساعد على تطوير الملكية الخاصة للارض وجعلها بضائع متداولة . ومع هذا احتفظ القانون بجملة من القيود المفروضة على استعمال الاراضي ، التي كان من شانها اعاقة المبادرة الاقتصادية(٢٣) .

ومع ازدياد النفوذ الكولونيالي الاستعماري في الدولة العثمانية وبدء تدفق الراسمال الاجنبي صدر في عام /١٨٦٧/ قانون منح الاجانب حق حيازة وامتلاك الارض في الامبراطورية العثمانية وكان قد صدر قبل قليل سنة /١٨٦١/ قانون تسجيل الاراضي العثماني « الطابو » لضبط حدود الاراضي وتنظيم جباية ضريبة الاعشار .

ان الصراع العنيف بين القوى الاجتماعية لامتلاك الارض أدى مع الحرب العالمية الاولى الى انتصار المالكين الكبار ، كما يبدو ذلك وضحا في ولاية الشام . ففي هذه الولاية (دمشق ـ حمص ـ حماه) ملك الاقطاعيون حوالي / ٦٠٪ / من اراضي الولاية ، في حين لم يكن في حوزة الفلاحين المتوسطين سوى / ١٥٪ / من الارض المزروعة وامتلك الفلاحون الصغار (٢٥٪) وكانت اراضي السلطان أو اراضي الدولة الاقطاعية ضئيلة جدا في جنوب سورية بالقياس الى شمالها ووسطها .

واللوحة التالية تقدم لنا صورة تقريبية لعلاقات التملك في وسط وشمال سورية الداخلية(٢٥) :

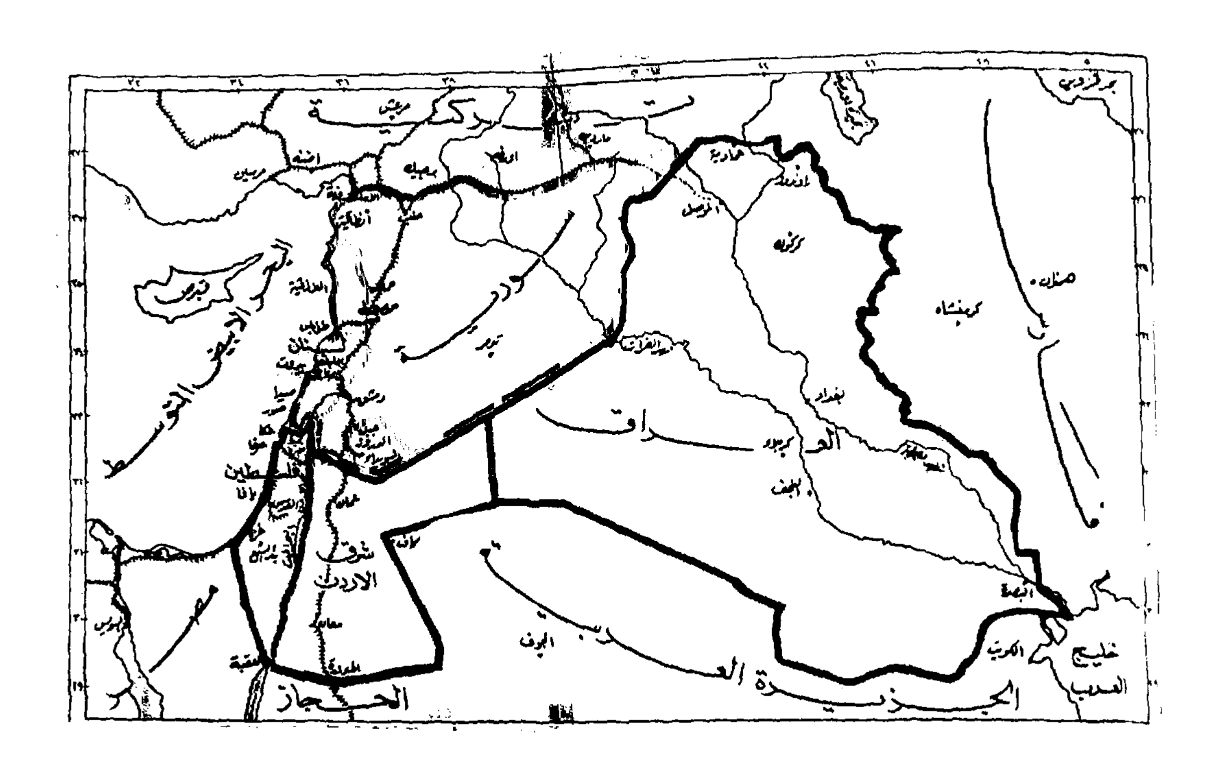
نوع الملكية	عدد القرى			
	حمص	حماه	السلمية	حلب
املاك الاقطاعيين	١١٧	١٠٠	٧٥	٢٠٠
املاك الدولة (الاقطاعية)	١٢١	١٠٦	٤٠	٥٧٥
املاك مشتركة بين الدولة والفلاحين	٢٨	٢٠	—	—
ملكية فلاحية	—	—	١٨	—

يتبين من هذه اللوحة ان كبار الاقطاعيين والدولة الاقطاعية تصرفوا بالقسم الاكبر من الأراضي الزراعية في وسط وشمال سورية الداخلية في حين سادت الملكيات الفلاحية في حوران وجبل العرب والقلمون على نطاق واسع .

ولاخذ فكرة اوضح عن الملكية الاقطاعية والفلاحية نورد فيمايلي وصف الاستاذ محمدكردعلي لوضعية التملك فيكتابه خطط الشام . كتب كرد علي(٢٦) : « في اطراف حماه مثلا / ١٢٤ / قرية منها ثمانون في المائة لارباب الوجاهة من عيال لاتتجاوز عدد الاصابع والباقي وهو عشرون في المائة يتصرف به الفلاحون ورجال الطبقة المتوسطة من الشعب . وفي اطراف حمص / ١٧٦ / قرية منها ثمانون في المائة للوجهاء دون غيرهم وعشرون في المائة مشاع بين هؤلاء الوجهاء والفلاحين . الابضع قرى لم تمتد اليها ايدي المستغلين . وهكذا قل عن كثير من مناطق الشام كقرى معرة النعمان وغيرها في حلب وليست الحالة كذلك في حوران حيث كانت / ٩٥ / في المائة من الارض موزعة بين سكانيه على نسبة عادلة، وكلهم ارباب فلاحة وكذلك في جبل حوران وعجلون والبلقاء والكرك ووادي التيم واقليم البلان .. وما من بيت من بيوت دمشق الكبيرة الا ويملك مساحات واسعة في الغوطة بل نصف الارض فيها بيد متوسطي الزراع والربع بيد صغارهم والربع الاخير يخص ارباب الوجاهة بدمشق »(٢٧) .

ويمكن ان نقول ان معظم الاراضي الزراعية كانت في مطلع القرن العشرين في يد كبار الملاك والدولة الاقطاعية ، كما ان الافراد الذين تصرفوا بالاراضي الوقفية وتمتعوا بالقسم الاكبر من خيراتها يمكن ان نضعهم في عداد الطبقة الاقطاعية الصغيرة . اما الملكية الصغيرة الفلاحية فانحصرت في بعض المناطق وتعرضت في بعض الاحيان للمد والجزر تبعا للتطورات السياسية ولتبدل نسبة القوى الاجتماعية ، كما ان السلطات المحلية كانت مجبرة احيانا الى اخذ نسبة القوى الاجتماعية بعين الاعتبار ، في وقت كانت القوى الفلاحية تدق ابواب الحركة القومية منبئة ببداية عهد جديد ، لم يؤد فيما بعد في عهد الانتداب الافرنسي الا الى ترسيخ وتدعيم الملكيات الكبيرة وتوسيعها وتبلور الطبقة الاقطاعية ، التي بدات معالمها بالتكون في اواخر القرن التاسع عشر بعد تطبيق قانون الاراضي (١٨٥٨) والطابو (١٨٦١) ، اللذين دخلا حيز التطبيق العملي في بلاد الشام عام (١٨٨٢) .

* * *



التقسيم الاستعماري لبلاد الشام وما بين النهرين بعد الحرب العالمية الاولى (١٩١٨)
ومناطـق الانتـداب البريطـاني والفرنسي

الفصل الثالث

البنية الاجتماعية في الريف والبادية

١ ـ التغيرات السكانية (الديموغرافية في ارياف بلاد الشام) :

عند نهاية الحروب الصليبية كان الشريط الساحلي لبلاد الشام شبه خال من السكان . فالمماليك الذين طردوا الصليبيين كانوا يخشون عودة الافرنج ، الذين احتفظوا بقبرص كمركز امامي . ولهذا نقلوا المدن نحو الداخل ـ كما هو حال طرابلس الشام ، اذ اسكنوا قبائل محاربة على منحدرات الجبال التي تشرف على الساحل ، بغية رد الغارات المستمرة من البحر وخاصة هجمات قراصنة فرسان مالطا(٢٨) .

وعند الفتح العثماني ، كان الشريط الساحلي لا يزال قليل الاعمار . وباستثناء طرابلس التي تقع وسط اليابسة ، كانت السهول الساحلية خالية من الناس ، وراحت السلطات العثمانية تحاول اعادة الاعمار كي يتوفر لها نقاط مساندة . وكانت صيدا وعكا وبيروت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر قرى متواضعة لم تعرف الاردهار الا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . أما اللاذقية واسكندرون فكانت شبه خالية في القرن السادس عشر(٢٩) .

وبعد ان ساد الامن نسبيا وانتهت هجمات القراصنة على الساحل السوري بدات عملية اعمار الساحل تسير باطراد اعتبارا من القرن السابع عشر ، حيث اتخذت

المبادلات مع اوروبا والولايات الاخرى اهمية جديدة بفضل ادخال المزروعات التجارية، كالقطن في ولاية صيدا والدخان حول اللاذقية . وازدهرت الموانىء بسرعة (صيدا اولا، ثم عكا، واللاذقية ـ التي عاد اليها السكان مع نهاية القرن السابع عشر واخيرا بيروت) ويمكن ملاحظة ان مركز الثقل الاقتصادي ثم السياسي اخذ ينتقل نحو الجنوب (دمشق) والغرب (الساحل الفلسطيني واللبناني)(٣٠) .

ويمكن ملاحظة نزوح سكاني من اراضي المعمورة على حافة البادية بسبب غزوات البدو وانعدام الامن الى المناطق الساحلية . كما ان سكان الجبال (اللاذقية ولبنان) تركوا معاقلهم بسبب الكثافة السكانية وقلة الاراضي المزروعة ونزلوا الى الساحل. واحيانا أرغم بعضهم على النزوح الى الساحل بسبب ضغط جماعات أخرى ، كما في جبل عامل . وهذه الهجرات سواء من مناطق الداخل أو من الجبال أدت في القرن التاسع عشر الى كثافة سكانية ملحوظة في المناطق الساحلية .

وكانت الجبال تصدر الفائض السكاني ، إما الى الساحل وهو الاعم أو الى الداخل ، ولكن بحدود تتعلق باعتبارات كثيرة . فسكان جبال اللاذقية هاجروا في كل الاتجاهات . فامتدوا شمالا نحو انطاكية وفي الشرق انتشروا حول حمص وحماه. اما في الغرب فاسهموا في اعمار الساحل مستفيدين من انفتاح الساحل على التجارة مع اوروبا والولايات العثمانية الاخرى .

وبالقرب من جبل لبنان عرف سهل البقاع تاريخا مضطربا ، كونه سهلا مفتوحا امام قبائل البدو وموضع منازعات مستمرة بين ولاة دمشق وحكام جبل لبنان ، اضافة الى النزاعات الداخلية فصارت بعلبك مركز السهل ، الى ان فقدت دورها بمنافسة مدينة جديدة هي زحلة، والى الجنوب من البقاع عرف جبل عامل توسعا سكانيا ملحوظا ، امتد حتى صور في منتصف القرن الثامن عشر .

وفي الشمال ، في ولاية حلب ، شهد القرن الثامن عشر اشتداد الهجرة من الريف الى المدينةمما ادى الى تجديد عميق في سكان مدينة حلب ، التي انهكتها الاوبئة . وكان تدفق موجات الفلاحين الجياع باتجاه عاصمة الشمال من الظواهر

البارزة خلال الحقبة الممتدة من /١٧٥٠/ الى /١٧٥٨/ واثناء مجاعة عام ١٧٥٦ ـ ١٧٥٧ توافد على حلب اكثر من /٢٠/ الفا من الغرباء ، كلهم بائسون . .

وكانت هذه الحركة للجياع قوية الى درجة ان عصابات من المشردين انطلقت من ديار بكر في آسيا الصغرى لتدخل دمشق على شكل « مجموعات من العراة والحفاة »(٣٢) .

ويميز عادة في ارياف حلب بين اهل المنطقة الغربية المستقرين على الهضاب والمستقرين منذ مئات السنين والعاملين في زراعة الاشجار المثمرة وبخاصة الزيتون ، وبين سكان المنطقة الشرقية الذين لم يتخلصوا بعد من الرواسب البدوية بسبب حداثة استقرارهم . كما ان كثيرا منهم لا يزال يحيا حياة شبة بدوية . ولهذا فان المنطقة الغربية ذات الاقتصاد الزراعي المتطور يسود فيها التضامن القروي ، في حين يغلب التضامن العشائري على المناطق الشرقية ، مناطق زراعة الحبوب في ارض الميري والرعي على أطراف المعمورة(٣٣) .

وفي مشارف حلب وحماة وحمص تتالف القرى من دور قبابها من الطين مخروطية الشكل مكتظ بعضها على بعض . وذلك بحكم انقراض الحراج وفقدان الاشجار والاحجار أو صعوبة نقلها وجلبها ونحتها . ومن مزايا هذه القرى الطينية انه اذا حدثت فتنة أو كارثة واقتضى أن يخليها اهلها ويجلوا عنها لا يؤسف على تركها كما هي .

اما في منطقة جسر الشغور فنلاحظ عددا من القبائل العربية المشتغلة بالفلاحة او الرعي في انحاء الغاب والروج مثل قبائل ابي حرادة والهنادي ونعيم ومداهيس وجيس ومجادمة وقبيعات(٣٤) .

من جهة اخرى ادت طبيعة الشروط الجغرافية لسورية الشمالية الى أن تكون ملتقى طرق وعروق وامم شتى ادت الى استقرار فئات قدمت اليها في القرون الاخيرة واستوطنت واندمجت باهلها العرب وتبنت عاداتهم وتقاليدهم . واهم هذه الفئات :

١ ـ الاكـراد(٣٥) :

الذين وصلوا الى شمال سورية في القرن السادس عشر حين ارغمهم العثمانيون على الاستقرار فيها على اثر حركات العصيان التي قامت بها قبائلهم الرعوية في الاناضول وارمينيا .

وفي منطقة عفرين مارست القبائل الكردية حياة رعوية متنقلة بين اعضاد جبال طوروس وسهل عفرين ، ولم يكونوا يسكنون سوى اكواخ حقيرة من القصب والقش والخيام . وكثيرا ما كانوا يلجاون الى قطع الطريق وفرض اتاوات معينة على القوافل المتنقلة بين حلب واسكندرون مارة بممر بيلان أو وادي عفرين .

وبسبب طبيعتهم البدوية كثيرا ما دخلوا في نزاعات دامية مع سكان القرى المجاورة من الفلاحين المستقرين . وبعد عهد الاصلاحات في القرن التاسع عشر سعت سلطات حلب العثمانية الى تثبيتهم في الجبل الذي حمل اسمهم . وهكذا تحولوا الى فلاحين مستقرين سيطر عليهم الاغوات الجشعون ، الذين استثمروا الفلاحين بصورة جشعة وابقوا الفلاحين في حالة مزرية من البؤس والشقاء .

٢ ـ التركمـان (٣٦) :

وهم احفاد قبيلة كبيرة تركية مغولية عاشت حياة البداوة في قيرغيزيا وحول بحر آرال واحتلوا جبال العراق عام /١٠٤٣/ واجتاحوا بعدئذ جبل الزاوية واتلفوا مزارعه ، وقاموا في عام /١٢٦٥/ بنهب منطقة حلب .. وحتى القرن التاسع عشر ظل التركمان يمارسون حياة رعوية ويتنقلون حسب الفصول بين جبال طوروس صيفا وسهل حلب ، الذي كان في معظم اجزائه بحال بور بسبب اضطراب الامن ايام العثمانيين . وعندما انتقل التركمان الى الحياة الزراعية فقدوا صفاتهم الحربية واضطروا في عدة مناسبات الى التخلي عن بعض قراهم للفلاحين العرب ، الذين كانوا بدورهم يعانون ، ضغطا شديدا من البدو في الجنوب . ومع الزمن فقد قسم منهم تماسكهم واندمجوا بجمهرة الفلاحين . ويذكر يوسف الحكيم في مذكراته

ان التركمان سكان ناحية أوردو في قضاء اسكندرونة وبعض قرى جسر الشغور يتزعمهم اغوات في مقدمتهم شاهين آغا المقيم في قرية زغرين ، من اعمال البسيط ومظهر افندي الحافظ ، الذي اختار الاقامة في مدينة اللاذقية ، كما اختار لقب افندي بدلا من آغا منذ انتخابه عضوا في مجلس الادارة ، واخوه عزة آغا ، الذي ظل مقيما في قرية السرايا ، مركز ناحية البابر ، وآل ملا حسن وسخطة وصالح وغيرهم .

واذا استثنينا هؤلاء الاغوات الاثرياء وجدنا الاكثرية الساحقة في ناحيتي البسيط والباير ، من التركمان والعرب يعيشون حالتي الجهل والبؤس بسبب سيطرة الاغوات واستثمارهم لأتعاب الفلاحين . والى الجنوب من هذه المنطقة ترى الملكية الصغيرة التي تسود في قريتي اهل الصليب وبرج اسلام . ولهذا فان فلاحيها يحيون نسبيا حياة معقولة بالنسبة لذلك العهد ، دون ان يكون بينهم سادة وعبيد(٢٧) .

وفي منطقة اسكندرون اقام التركمان في النجود والهضاب ومهنتهم قطع الخشب وصنع القطران . اما العرب فسكنوا في السهول الساحلية بين اسكندرون وعرسوز ، وهم فلاحون . وفي ناحية الريحانية ذات الاكثرية العربية عمل الفلاحون لدى اغوات التركمان من آل مرسل . وفي انطاكية ظهرت في اواخر العهد العثماني طبقة من الاقطاعيين التركمان مثل آل شمس الدين وآل ملك وآل جيوه لك وآل خلف وآل المسكي ، اضافة الى اسرة اقطاعية عربية من آل بركات واخرى من أصل فارسي كآل يحيى وثالثة من اصل كردي كآل القصيري ، وكان العرب فلاحين عند هؤلاء الاغوات والبكوات الترك في انطاكية . وعمل الفلاحون العرب في ريف انطاكية بالبستنة وتربية الماشية ودود الحرير ، وقل من امتلك منهم أرضا .

٣ ـ الشركس(٢٨) :

واصلهم من مسلمي القوقاز وبلغاريا ويوزنان ، الذين لجأوا الى الدولة العثمانية في سبعينات القرن التاسع عشر ، فعمدت السلطات العثمانية الى منحهم الاراضي الشاغرة على سيف البادية (خناصر ، منبج ، حمص ، الجولان ، عمان) رامية من

وراء ذلك الى عمار الاراضي الموات اولا والوقوف في وجه البدو ، الذين كانوا يهددون اطراف المعمورة ثانيا ، ومجابهة التحركات الاجتماعية والقومية العربية ثالثا . واستطاع هؤلاء ان يتلاءموا بسرعة مع حياة الحقول وان يبنوا المناطق التي سكنوا فيها، على الرغم من الاوبئة التي اصابتهم ولا سيما الملاريا ، وحصدت ارواح كثيرين منهم .

والشركس ينقسمون الى عشائر متعددة فيها الامراء والوجهاء وبقايا العبيد ، واعلى طبقاتهم الخانات . ومعروف عن الشركس عزوفهم عن التجارة وميلهم الى الوظائف الادارية وبخاصة السلك العسكري . والواقع ان فقراء الشركس وزعوا على القرى . اما الاغنياء منهم فسكنوا في المدن وعاشوا على الغنائم والاسلاب التي نهبوها من بلغاريا ، كما ورد في تقرير قنصل النمسا في ١٨٧٩/١١/١٣ من بيروت(٢٩) .

ـ الارمن الذين قدموا باعداد كبيرة على اثر مذابح الاناضول المعروفة في الحرب العالمية الاولى . والارمن كما هو معروف لا يعملون في الزراعة ويجنحون الى سكنى المدن والعمل في الحرف الصناعية . ولهذا نادرا ما نجد في سورية فلاحين ارمن الا في منطقة كسب وفي جبل موسى غربي انطاكية حيث ربوا دود الحرير وصنعوا الامشاط من خشب البقسي وقد استوطنوا هذه المنطقة قبل مذابح الاناضول ١٩١٥.

٢ ـ البنية الاجتماعية في الريف :

تالفت البنية الاجتماعية لسكان الريف في بلاد الشام في اواخر العهد العثماني من طبقة الفلاحين بفئاتها المختلفة ومن طبقة الاقطاعيين وكبار ملاك الاراضي المستغلين ، اضافة الى البدو غنيهم وفقيرهم . ويمكن تصنيف سكان الريف ضمن الفئات التالية :

١ ـ الفلاحون الخاضعون للنير الاقطاعي مباشرة :

اتى هؤلاء في اسفل (السلم الاجتماعي) حسب التعبير البرجوازي وكانوا من افقر فئات السكان قاطبة . وقد خضعوا لاستثمار واضطهاد السيد الاقطاعي ، ولنهب

تاجر المدينة والمرابي والرأسمال الاجنبي واجهزة القمع . ولم يكونوا يملكون من متاع الدنيا شيئا ، الى حد ان زواجهم خضع لموافقة الاغا او البك . وكان الفقر والجهل والمرض الاقانيم الثلاثة التي لم يعرف غيرها ذلك الفلاح المستعبد الجائع والمنهك البائس والمستسلم للاقدار . « وفي الباب التالي سنشرح بالتفصيل نفسية هذا الفلاح والعوامل المؤثرة في تكوينه » .

٢ ـ العمال الزراعيون :

وكان عددهم قبل الحرب ضئيلا جدا وتمتعوا (بحرية) التجوال للبحث عن لقمة العيش .

٣ ـ الفلاحون الفقراء :

ممن ملكوا قطعة أرض صغيرة لا تكفيهم للحصول على لقمة العيش ، فاضطروا للعمل عند الفلاحين الاغنياء ولبيع قوة عملهم في المدينة ، او للعمل في اراضي كبار ملاك الارض خلال بضعة اشهر من السنة . وهذه الفئة هي اقرب الفئات الى الفلاحين المعدمين الخاضعين للاقطاعيين .. وكانوا على اتصال نسبي بكادحي المدينة وعلى المام بسيط بالعالم الخارجي المحيط بهم .

وكانت أعداد كبيرة من هؤلاء الفلاحين لا تملك من متاع الدنيا الا القليل . وكما يروي بركهاردت سنة/١٨١٢/فان « جملا واحدا يكفي لنقل امتعة العائلة في حوران » ، وكذلك في غيرها من المناطق .

٤ ـ الفلاحون المتوسطون :

الذين ملكوا قطعة ارض تغل عليهم ما يكفيهم للعيش وسد الحاجات المتواضعة في الريف وكانوا غير مضطرين للعمل في اراضي الغير . ومعنى ذلك انهم لا يستثمرون الغير ، كما انهم لا يخضعون للنهب المباشر .

٥ ـ الفلاحون الاغنياء :

وهم الذين يعرفون في تاريخ الحركة العمالية (بالكولاك) والفلاح الغني ، او

بالاصح مالك الارض الصغير ، لا يعمل بيده بل يقوم بتشغيل الفلاحين الفقراء او العمال الزراعيين في ارضه وتحت اشرافه المباشر . وهو لا يختلف عن الاقطاعي في شيء ، الا في نمط معيشته في الريف وعدم استطاعته البذخ . وقد اتفق الاقطاعي والفلاح الغني على استثمار الفلاح المعدم ، اما الفرق بينهما فهو قلة عدد المستثمرين الذين يستخدمهم الفلاح الغني وليونة درجة الاستثمار ، بالقياس الى استثمار الاقطاعي .

والفلاح الغني مثل الاقطاعي ، انسان غير منتج ، ولكن مصاريفه محدودة ، وهو لا يعرف التبذير ، وكثيرا ما دخل الفلاحون الاغنياء في نزاع مع الفلاحين المتوسطين او الفقراء من اجل استملاك الارض ونافسوا الاقطاعيين احيانا وسرقوا اراضي املاك الدولة مثل الاقطاعيين . وقد سعت السلطات التركية للاستفادة من الفلاحين الاغنياء لفرض سيطرتها في الريف عن طريق منحهم بعض السلطات مثل حق توزيع الضريبة المفروضة على القرية والاشتراك في جبايتها بهدف حصول الدولة على اكبر كمية ممكنة من الضرائب المجباة من الفلاحين .

٦ ـ فلاحو اراضي املاك الدولة :

وقد عاشوا في قلق دائم ومع هذا فان احوالهم المعاشية كانت احسن حالا من الفلاحين العاملين عند الاقطاعيين . لقد كان من اثر الفيضانات والكوارث البيئية والمناخية ، ان تمكن فلاحو املاك الدولة من التهرب احيانا من الاعباء الاقطاعية المفروضة عليهم . حقا لقد كان للفوضى الضارة جانب ايجابي هو تخفيف النير الاقطاعي عن فلاحي الاراضي الاميرية .

٧ ـ الاقطاعيون :

وشكلوا فئات مختلفة ، فمنهم : الاقطاعيون الكبار من ابناء العائلات التركية او الكردية او العربية . وهناك الاقطاعيون الصغار الذين لا يتميزون كثيرا عن الفلاحين الاغنياء . ومع مطلع القرن العشرين اخذت تتشكل بالتدريج طبقة اقطاعية على صلات وثيقة بالتجارة والتجار . ولكن هذه الطبقة الاقطاعية البرجوازية ، او

بالاصح الاقطاعي المتبرجز او البرجوازي ذا النزعة الاقطاعية ، لم تظهر معالمها بوضوح الا بعد الحرب العالمية الاولى .

٨ ـ البـــدو :

ان المصدر الاساسي للبدو في بادية الشام هو قلب الجزيرة العربية ، حيث كانت القبائل تهاجر على هيئة موجات متتابعة . وذلك لضرورات حربية او معاشية عقب سني الجدب والحرمان في بلادهم فيأتون سواد العراق ومشارف الشام ويدخلون بين عشائر بدوية سكنتها من قبلهم . . فاذا استضعفوها عاركوها وازاحوها . فاما ان يفنوها بتاتا واما ان يجلوها ويوسعوا لانفسهم مجالا (مدى حيويا) فيما بينهم ، كما فعلت في الماضي قبيلة « شمر » لما وفدت من نجد الى براري الجزيرة ودفعت العشائر التي كانت فيها . وكما فعلت قبيلة عنزة لما وفدت من نجد ايضا الى براري الشام ودفعت عشائرها القديمة كبني صخر والسردية والموالي وبني خالد وغيرها . وهكذا يحدث من جراء هذا الدفع والتوسع حزازات وعداوات يتوارثها جيل بعد جيل ، وتؤدي الى انقسام هذه العشائر وتعددها والى معاناتها حياة مضطربة مليئة بالشقاق والعراك الدائمين .

انقسم البدو في بادية الشام الى ثلاثة اقسام :

١ ـ العشائر الجمالة او اهل الابل (البدو الرحل) وهؤلاء يتخذون بيوت الشعر لسكناهم والخيل لركوبهم والابل لمعاشهم . وبعد ان حظرت الحكومة في عهد الانتداب الغزو وظهرت السيارة اخذ هؤلاء يتحولون تدريجيا الى اعراب من القسم الثاني وتمكن رؤساؤهم من امتلاك الارض وسكنى القصور والعيش في المدن .

٢ ـ العشائر الغنامة او اهل الغنم (نصف رحل أو نصف حضر) ويطلق عليهم أحيانا اسم (عربان الديرة) . وهؤلاء اهل إبل وخيل وحل وارتحال وطعن وضرب ويقطنون بيوت الشعر . ولكن كل ذلك بنسبة أقل من بدو القسم الاول . وماشية هؤلاء اما لهم واما ان تكون لأهل المدن في حلب وحماة وحمص ودمشق ودير الزور

وغيرها يشاركونهم في تربيتها والمتاجرة بصوفها وسمنها . اي ان قسما من ميسوري المدن استثمر هؤلاء الرعاة عن هذه الطريق فهم (يؤكلون ولا يأكلون) .

٣ ــ العشائر المتحضرة المستقرة (الفلاليح) ممن تركوا الاباعر والابعار والظعون والاسفار وعمروا الخرب الدائرة وهجروا بيوت الشعر الا قليلا ، وتحضروا مع الزمن وسكنوا بيوت الطين والحجر واهتموا بالحرث والزرع في اراض اعطيت لهم أو تابعة لكبار ملاك الارض او الدولة .

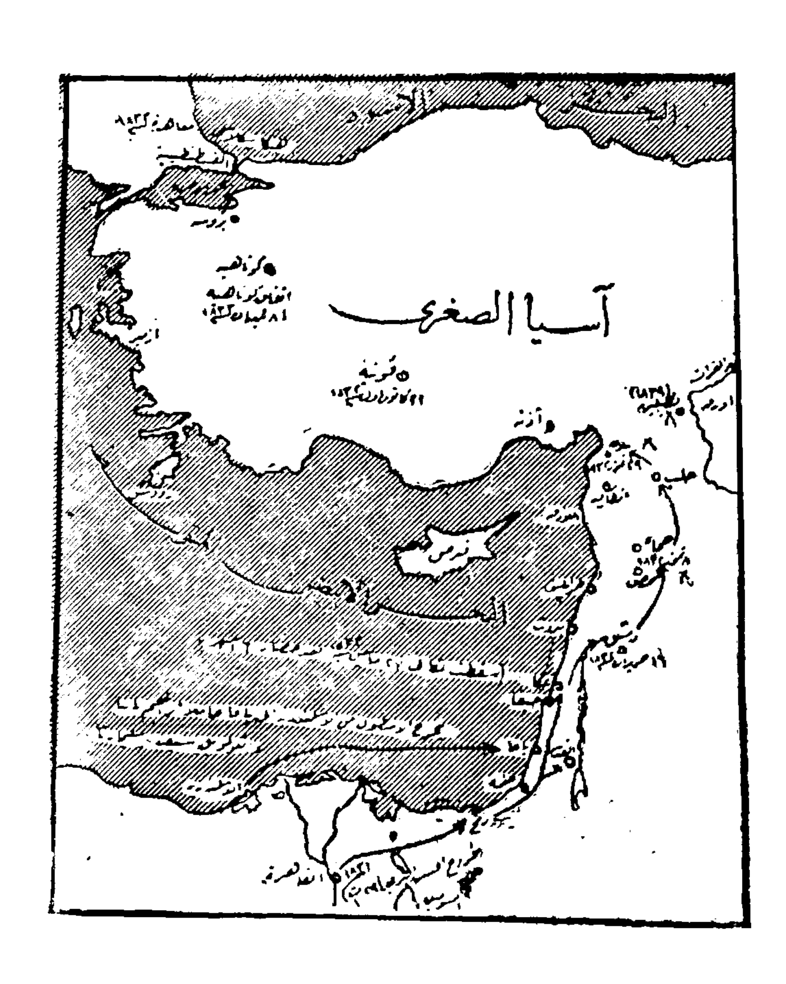
هؤلاء البدو انقسموا طبقيا الى فئتين :

أولا ــ فئة الامراء والمشايخ : الذين شكلوا الارستقراطية البدوية . ولكن ظروف معيشتهم ايام الدولة العثمانية لم تكن جيدة ، خلاف ايام الانتداب الذي حول القسم الاكبر منهم الى قاعدة في البادية والريف . واخذ هؤلاء في النزوح الى المدن والتنعم « بمباهج الحياة » على حساب البدو اولا وبفضل ماوهبتهم اياه سلطات الانتداب ثانيا .

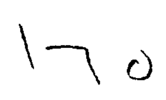
ثانيا ــ جماهير البدو : الذين تعرضوا لاستثمار ذي ثلاثة انيار : فالارستقراطية البدوية كانت تستثمرهم بما تفرضه عليهم من ضرائب باسم « حق المشيخة » والدولة الاقطاعية العثمانية نالت ايضا جزءا من جهودهم . وتجار المدن امتصوا دماءهم عن طريق بيعهم السلع المصنوعة بأسعار غالية وشراء منتوجاتهم (السمن والصوف) بأسعار رخيصة جدا ثم بيعها فيما بعد في الاسواق بأسعار مرتفعة .

وعلى الرغم من هذا الاستثمار الرهيب ، فان الوعي الطبقي لدى جماهير البدو كان معدوما لاسباب متعددة منها : ثقل وطاة التقاليد الموروثة ، التي حتمت الخضوع للامير والشيخ ، التخلف والجهل ، تبعثر البدو وظروف حياتهم القاسية والمتنقلة وهكذا فقد كانوا اشد فئات الريف استثمارا واكثرهم تخلفا .





فتح ابراهيم باشا لبلاد الشام ١٨٣٢
أسهم في تأجيج الانتفاضات الفلاحية



الفصل الرابع

البدو وموقعهم في المسألة الزراعية

١ ــ المعمورة والبادية :

لم يكن الخط الفاصل بين المعمورة (الاراضي المزروعة من الفلاحين المستقرين) والبادية في بلاد الشام ثابتا طيلة العهد العثماني . فالمناطق المتاخمة للبادية كانت دائما مصدر اغراء للغزوات البدوية . ولهذا فان حدود الاستيطان الدائم على سيف الصحراء (البادية) لم تكن ثابتة . ففي الفترات التي كان فيها الحكم قويا ومستقرا في ولاية من ولايات بلاد الشام كانت تقوم القرى وتمتد على اطراف المنطقة الصالحة للزراعة ، في حين كان العديد من هذه القرى يهجر في الفترات التي ينعدم الاطمئنان فيها ، ويتراجع الفلاحون الى داخل المعمورة ويتجمعون في الجبال ، وتترك السهوب الصالحة للزراعة مراعي للبدو الاشداء .

والواقع ان حكومات الولايات العثمانية في بلاد الشام لم تستطع ان تبسط نفوذها الكامل على السهوب المكشوفة الا نادرا وفي فترات محدودة . وقليلا ما خضعت القبائل البدوية للسيطرة السياسية وللضرائب المالية . ولذلك فان الحد الفاصل بين أراضي الفلاحين الخاضعة لسيطرة الدولة والمعروفة اصطلاحا بالمعمورة وبين أراضي البدو لم يكن خطا محددا وانما كان حزام انتقال عريض يتسم بتضاؤل نفوذ الدولة كلما توغلنا في البادية(٢٠) .

وهكذا تداخل التعريف الجغرافي مع التعريف القانوني للبدو والعشائر في سورية حيث قسمت سورية الى قسمين هما(٢١) :

آ ــ المعمورة : وهي القسم العامر بالقرى والمدن ، والآهل بالسكان المتحضرين .

ب ــ البادية : وتقع شرق المعمورة ، وهي على ضربين ، السهوب وامطارها بين ١٠٠ ــ ٢٠٠ مم سنويا ، والحماد وامطاره دون ١٠٠ مم سنويا .

٢ ـ هجرات القبائل البدوية وضغطها على المعمورة :

في أواخر القرن السابع عشر كانت الامبراطورية العثمانية آخذة في الانحدار بعد أن توقف توسعها على اثر هزيمة الجيش العثماني على ابواب فينا عام ١٦٨٣ . واخذت السلطة العثمانية في الاقاليم البعيدة والنائية بالتراجع ، في الوقت الذي تدعمت فيه سلطة القوى المحلية في الاقاليم التي لم تعد ترتبط بالعاصمة ، الا بأربطة واهية .

وفي الوقت نفسه كان نظام التيمار الاقطاعي آخذا في التراجع والتقهقر ليحل محله شكل آخر للنظام الاقطاعي الشرقي العثماني قائم على مبدأ غياب السلطة الاقطاعية عن الريف واقامتها في المدن وسعيها للحصول على اموال الميري لتأمين متطلباتها الترفيهية في عاصمة الولاية وارضاء اعمدة الحكم الاقطاعي في استنبول .

وجاءت الاوبئة والمجاعات وموت مئات الالوف من الناس لتدمر القرى وتحول السهول الخصبة على حافة البادية الى ارض جرداء . وقد اشار الرحالة الفرنسي فولني ، الذي زار المنطقة في ثمانينات القرن الثامن عشر ، الى الخراب الذي اصاب البلاد . « ولا يرى المسافر الا بيوتا خربة ، وآبارا ناضبة ، وحقولا مهجورة ، وهؤلاء الذين زرعوها قد هربوا » وتدل الاحصاءات الرسمية على مدى التدمير الذي اصاب الريف . فبعد ان كانت اكثر من ـــ ٣٢٠٠ ـــ قرية مسجلة في سجلات الحكومة فان محصل الضرائب لم يجد امامه في ثمانينات القرن الثامن عشر الا ـــ ٤٠٠ ـــ قرية(٣٢) ومع ضعف الدولة العثمانية في القرن السابع عشر ابتدات القبائل البدوية النجدية بالهجرة الى الشمال والتوسع باتجاه ارض المعمورة . وقد استمر هذا التوسع زهاء مئة وخمسين سنة دافعا امامه حدود الرعي غربا مع انحسار واضح للزراعة باتجاه سواحل البحر الابيض المتوسط .

هذا التوسع البدوي النجدي تم على مرحلتين متميزتين . المرحلة الاولى مجهولة الاسباب ويعتقد ان منطقة نجد مرت بمرحلة جفاف مع تفجر سكاني واضح اضيف اليه ضعف السلطة العثمانية فشكل مركز جذب للقبائل للاتجاه نحو الشمال . والمرحلة الثانية كانت نتيجة توسع الحركة الوهابية في نجد وما رافقها من صراع بين القبائل المؤيدة للسعوديين والمعارضة لهم(٣٣) .

ظل الموالي(٢٤) يضربون في أرجاء السلمية ويرعون انعامهم (اغنامهم) بين اطلالها الخربة بعد الاجتياح المغولي . وكانت منطقة السلمية اقطاعا ومنزلا لقبيلة الموالي يؤدون عليها الاتاوات للدولة العثمانية ، التي عدت براري السلمية لواء تابعا ـ كحمص وحماه ـ لايالة طرابلس الشام . وعندما لمع اسم فخر الدين المعني في أوائل القرن السابع عشر بسط نفوذه على منطقة السلمية وتحالف مع الموالي مدة من الزمن .

في تلك الاثناء امتد نفوذ الموالي من ابواب حمص وحماه الى ضواحي حلب والرقة وبينما هم على هذه الحال داهمتهم في أواخر القرن التاسع عشر قبائل شمر ، التي فشلت في التوغل باتجاه دمشق فاتجهت نحو الشمال تغير وتنهب . واصطدمت بالموالي . وبعد حروب دامت عشرات السنين تراجع الشمريون واتجهوا شرقا الى منطقة الفرات، وما أن استراح عرب الموالي من شمر حتى بدات في مطلع القرن الثامن عشر موجات قبائل عنزة تصل وتتغلغل في المناطق المحيطة بدمشق . وعندما فشلت في تثبيت اقدامها اتجهت نحو منطقة القريتين ـ النبك وواصلت تقدمها شمالا باتجاه حماه واصطدمت بالموالي . وبعد حروب طويلة اضطرت الموالي لمصانعة عنزة واخلاء قسم من ديار حمص لبطن من بطون عنزة وهو الحسنة . وعندما توالت غارات عنزة اضطرت قبيلة الموالي الى اخلاء سلمية والانسحاب نحو الشمال الى بقاع أكثر وعورة ومنعة في كورة العلا (شرقي منطقة معرة النعمان) .

وفي الوقت نفسه كانت تجري تحالفات بين قبائل عنزة مع الموالي ضد قبيلة شمر مما اجبر هذه الى عبور الفرات والاستقرار في الجزيرة .

لقد اتصف نزوح القبائل البدوية وتوسعها نحو السهول الساحلية (المعمورة) بالنزاعات والعداءات والحروب . مما اثر على بلاد الشام بكاملها . وفي مستهل القرن التاسع عشر كانت شمر قد استقرت في الجزيرة ، في حين سادت قبائل عنزة في بادية الشام واحتفظ الموالي بالقسم الشمالي الغربي من البادية . وحالما تخلصت قبائل عنزة من شمر ودفعتها عبر الفرات ، شرعت في الاقتتال فيما بينها بسبب الخلاف على تقسيم المراعي التي تم الاستيلاء عليها حديثا . فبالاضافة الى الحسنة التي استقرت

في بيادي حمص وحوران التي ازاحت الموالي واستقرت شرقي حماة وصلت قبائل اخرى من عنزة مثل الاسبعة وولد علي وعمرات واخيرا قبائل الرولا .

حول اثر البدو عموما وهجرات شمر وعنزة خصوصا كتب أحمد وصفي زكريا واصفا الحالة بما يلي :

« ولم يكف براري الشام ما كانت تقاسيه من عبث (اعراب الديرة) حتى ازداد الطين بلة بالمعارك التي كانت تنشب بين شمر وعنزة وبين عشائر عنزة نفسها التي انصرفت للاقتتال والاغارة بعضها على بعض أو على اعراب الديرة المذكورين ، وازداد أيضا بقدوم الوهابيين بقيادة عبد الله بن سعود وغاراتهم على حوران وافحاشهم في قراه وتهديدهم دمشق سنة — ١٢٢٥ — هـ وهكذا ظلت هذه البراري خالية من العمران وظلت القرى المتطرفة التي على سيف البادية مضطربة خائفة لاتنجو الا بدفع (الخوة) لعشيرة أو لعدة عشائر معا . وقد ادركنا قرى المناظر كتدمر والسخنة تدفع هذه الخوة الى عهد قريب جدا يتقاضاها الموالي والحسنة والاسبعة كل منهم في دوره . ويمضي زكريا واصفا صراع البدو مع المعمورة كما يلي : —

واستمر الحال على هذا الى ان جاء ابراهيم باشا المصري واحتل بلاد الشام ودام حكمه نحو تسع سنوات (١٢٤٨ — ١٢٥٦) وقد وطد هذا القائد الكبير الامن في الحواضر واكره البدو على احترام سلطة الحكومة وحمى السكان من اعتداءاتهم ، فعاد كثير الى سكنى المدن والقرى المهجورة والى حرث الاراضي المهملة في حوران وحمص وحلب . وقد اكد لي بعض المعمرين في حمص انه عمرت في تلك المدة الوجيزة بعض قراهم الشرقية كالمشرفة وشنشار والزعفرانة .

ولكن لم يكد ابراهيم باشا يخرج من بلاد الشام ويتقلص ظل سطوته حتى عادت فوضى الاحكام في الحواضر واستأنف اعراب البادية غاراتهم على المعمورة فرجع الخراب الى القرى والمزارع المأهولة حديثا . وظلت المدن منكمشة وراء أسوارها وابوابها مدة ربع قرن آخر (في عهد السلطان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز) .

فحمص مثلا كانت تغلق ابوابها بعد الغروب لا يخرج منها احد ولا يدخل .

حدثني المعمرون الذين ادركوا حدود سنة ـ ١٢٧٥ ـ هـ ان اهالي القرى القريبة كزيدل وفيروزة كانوا اذا خرجوا لحرث ارضهم وزرعها يعودون مساء الى مساكنهم في مدينة حمص ولا يجسرون على المبيت في البرية من توالي عبث الاعراب ، وان ابواب حمص ظلت تغلق بعد الغروب الى حدود سنة ـ ١٢٨٧ ـ هـ ويقف وراءها الحراس وموظفو المكس .

ويذكر معمرو دمشق ان امتداد الشجر في الغوطة كان لا يزيد عن نصف ما هو عليه الآن ـ ١٩٤٥ ـ خوفا من ابل البدو وعدوانهم . ويذكر معمرو حلب ان منتهى العمران خارج باب النيرب كان في عسان وسفيرة والباب فقط ، وان اهل هذه القرى كانوا لا يهبطون حلب ويعودون الا زرافات زرافات وهم مدججون بالسلاح . ويذكر معمرو حماه ان سلمية لم تعمر بعد خرابها الذي دام قرونا الا في حدود سنة ـ ١٢٦٠ ـ هجري او بعدها لما جاءها نفر من اسماعيلية جبال اللاذقية والتجاوا الى حصنها القديم الذي كان في وسطها وصاروا يردون عبث البدو بتماسكهم وتناصرهم كما عمل الدروز قبلهم لما نزحوا في القرن الحادي عشر بعد موقعة عين دارة في سنة ـ ١١١٢ ـ الى جبل حوران وتحصنوا في قراه الخربة المنيعة وامتدوا رويدا رويدا ووقفوا في وجه قبائل الرولة والفضل واهل الجبل . اي انه ما من قرية كانت تنجو وقتئذ من (الخوة) وامثال الخوة من السلب والنهب ورعي الزروع واتلاف الاشجار والكروم والطغيان والعدوان . الا اذا امتنعت وراء قلعة او اكمة وعرة وكان اهلها ذوي عصبية واحدة وشكيمة قوية يردون كرات البدو بسواعدهم لا بسواعد الدولة التي كانت وقتئذ مهملة ضعيفة لم تستطع مثلا ان ترد في سنة ـ ١٢٧٥ ـ المعركة التي نشبت في سفح جبل زين العابدين قرب حماة بين الموالي والحديديين ، ولم تستطع ايضا ان ترد غزوات جدعان بن مهيد عقيد الفدعان وغاراته في شرقي حلب . فاضطرت الى أن تمنحه وتملكه في سنة ـ ١٨٧٠ ـ عشرين قرية داشرة في جبل الشبيط انتقلت الى يد حفيده الامير مجحم بن مهيد ، الذي لعب دورا هاما في احداث شمالي سورية في النصف الاول من القرن العشرين .

وفي عام ـ ١٨٧٥ ـ تمكن رؤساء عشيرة الفضل من تسجيل أراضي الرعي

باسمهم . ولم يتم ذلك الا بعد صراع ومعارك مع الاكراد والدروز والشراكسة ، الذين ادعوا ملكيتهم للمنطقة(٢٥) .

٣ ــ محاولات توطين البدو ... اهدافه ونتائجــه :

تدل مجموعة قرائن على ان رؤساء العشائر بدأوا يتحولون الى ملاك للاراضي ويتمايزون أكثر فأكثر عن رجال العشيرة الاخرين ويدخلون في عداد الطبقة الاقطاعيــة الآخذة في التكون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومستهل القــرن العشرين ، بعد صدور قانون الاراضي ــ ١٨٥٦ ــ ، الذي الغى الملكية الجماعية للارض بما فيها الملكية الجماعية للقبيلة .

وهكذا صودرت اراضي مرج ابن عامر (فلسطين) ، التي كان يستثمرها البدو وبيعت بالمزاد العلني الى مصرف خاص في بيروت . وانتشرت مثل هذه الاعمال فيجميع الولايات السورية والعراقية ، وثبتت الاراضي الشاسعة للقبائــل نصف الرحــل في حوض دجلة والفرات الاوسط (العراق) وفي الجزيرة (العراق وسوريا حاليا) وعلى اطراف المعمورةفيسورية والاردن وفي فلسطين الجنوبية ، ثبتت بشكل رسمي على انها ممتلكات خاصة لعددمن زعماء القبائل واعيان المدنوالتجار وكبار الموظفين العثمانيين.

ان حركة الاصلاحات ، التي قرعت أبواب الدولة العثمانيــة احــدثت تغيرات مختلفة في البنيان الاقتصادي الاجتماعي كان من ابرز مظاهرها الســير أكثــر فأكثر باتجاه نمط الانتاج الراسمالي التابع للدول الكولدينالية (الاستعمارية) مــن جهــة وبقاء علاقات الانتاج ما قبل الراسمالية سائدة من جهة اخرى . اي انــه جرى تعايش بين انماط الانتاج القديمة وبين النمط الراسمالي الحديث والهامشي . ومعنى ذلــك ان علاقات الانتاج الاقطاعية العثمانية السابقة (قبل منتصف القرن التاسع عشر لــم تتلاش وتضمحل بل جرى عليها تغيير شكلي تاكتيكي) . فالجوهر الاساسي للاستثمار الاقطاعي بقي قائما وتغير الشكل والاسلوب ، وهذا ما سنعالجه في فصل خاص .

والمهم في الامر ان سلاطين بني عثمان اخذوا في « امتلاك الاراضي في اطراف المعمــورة » وسعوا لـ « تحضير العشائر البدوية واسكانهم » فيما عرف في ذلك الحين

بالمزارع السلطانية (الجفتلكات الهمايونية) اي ان راس السلطة الاقطاعية العثمانية سعى لاستثمار قوى منتجة واستغلالها باسم « تحضير العشائر » ولا شك ان لهـذه العملية جانبين : جانبا ايجابيا حضاريا تمثل في تحويل البدو الى فلاحين والانتقال من الرعي الى الزراعة ومن الفوضى الى الاستقرار ، وجانبا آخر سلبيا تمثل في استغلال هذه الجموع واستثمارها وتحويل جهدها وانتاجها الى خارج البلاد لينفق في العاصمة استنبول على البذخ والترف وملذات الحاشية السلطانية .

في عام ــ ١٢٦٧ ــ هـ انشأ والي حلب محمد باشا القبرصي المزارع السلطانية (الجفتلكات الهمايونية)في جبل الاحص ومطخ عفرين وقضاءي الباب ومنبج واسكن فيها مجموعات من البدو ذوي الاصل الافريقي (افاريق الاعراب) ليكونوا حاجـزا امـام غزوات البدو من جهة وليؤمنوا للخزانة الخاصة للسلطان عبد المجيد مبلغا من المال . اما والي حلب ثريا باشا ملك زاده فانه الحق عام ــ ١٢٨١ ــ لواء دير الزور بولايـة حلب واستطاع اخضاع عشائر العقيدات المتمردة .

وفي عام ــ ١٢٨٤ ــ هـ تم « اخضاع الاعراب المتمردين » على الدولة العثمانيـة بعد مقاومة شديدة وسيق الشباب منهم الى الجندية وجرت محاولة توطينهم .

وفي عام ــ ١٢٨٤ ــ هـ تمكن آصف باشا حاكم لواء دير الزور من اخضاع عشائر الجبور والعقيدات وصد بنجاح محدود هجمات (غزوات) شمر وعنزة عن المعمورة . كما جرى توطين نسبي لعشائر الولدة وبني سعيد ، والسكنى في قرى املاك الدولة في اقضية جبل سمعان والباب ومنبج . كمـا شرعت بعـض بطون الولـدة والحديديين والموالي بالاستقرار .

وعندما وصل اصلان باشا الى ولاية حلب منح عشيرة الحديديين في عام ١٨٦٨ مساحات واسعة من الاراضي في هضبة العلا شرق معرة النعمان . وعهد اليهم بتأمـين حماية القوافل الذاهبة الى دمشق او القادمة منها مقابل عوائـد معينة تدفـع لشيخ العشيرة . ويلاحظ ان الحديديين لم يسقطوا غنيمة باردة في ايدي مرابي حلب ومعرة النعمان كما سقط جيرانهم الموالي . وتمكن الحديديون مـن الاحتفاظ بالارض التـي اخـذوها(٣٧) .

وهكذا فان السلطات العثمانية سعت الى تنشيط عملية استقرار البدو وتوسيع حدود المعمورة وبالتالي توسيع حلقة دافعي الضرائب . وكانت عملية توطين البدو تتم على الغالب بصورة تعسفية . مما جعلها بطيئة ودفع البدو الى الحذر والى الجمع بين تربية المواشي من جهة والزراعة من جهة ثانية .

وحول وضع الحدود بين المعمورة والبادية كتب أوغاغن(٣٨) : « كلما ازداد الاقتراب من البادية ، كلما قلت الحدود الفاصلة بين البدو والفلاحين وضوحا . ولا يفرس هؤلاء الاخيرون الاشجار ابدا في المناطق الشرقية . والقرى هنا عارية تماما ، حيث لا توجد في قرى الحدود لا اشجار الزيتون ولا التين . والمباني هنا في غاية البساطة وكثيرا ما يعيش الفلاحون على أطراف البوادي في الخرائب والكهوف . ولهذا السبب فانهم لا يخسرون سوى القليل عندما يرتحلون . ولو انهم غرسوا الحقول وبنوا مساكن جيدة لكانوا تعرضوا الى حد معين لدفع الاتاوات المختلفة ولاداء الخدمة العسكرية الالزامية التي اعفوا منها اصلا . وقد كانت امكانية التحول الى البداوة مجددا مفتوحة امام فلاحي حدود البوادي » .

وقف البدوي في وجه السلطات العثمانية الساعية لفرض أنظمة المعمورة على البادية وجمع الضرائب والرسوم من القبائل . وقد باءت بالفشل معظم محاولات الولاة العثمانيين في شق القبائل ودفعها للاقتتال . وكثيرا ما جرى خلع المشايخ الموالين للعثمانيين أو الخاضعين لهم واستبدالهم بمشايخ يهتمون بالحفاظ على الوضع المتميز للقبائل .

لقد وقف عامة افراد القبيلة ضد سياسة السلطات العثمانية الرامية الى فرض الضرائب وتحويل الارض المشاع الى ارض مملوكة لافراد قلائل .والتقت مصلحة هؤلاء مع مصلحة مشايخ القبائل واغنيائها ، الذين رفضوا مشاركة السلطات العثمانية لهم في استغلال القبيلة والسيطرة عليها . وقبل عام ـ ١٩١٨ ـ لم تكن التناقضات الاجتماعية قد بلغت حدا عميقا داخل القبيلة . وكان استغلال المشايخ لعامة القبيلة يأخذ أشكالا تقليدية ابوية . كما أن الاعراف البدوية وقوة التقاليد أسهمت في بقاء المؤسسات العشائرية البدوية وابطأت عملية تحول المجتمع البدوي من مجتمع ماقبل

الطبقية (لا طبقي) الى مجتمع تسوده علاقات طبقية توضحت معالمها في منتصف القرن العشرين بظهور طبقتي المستغلين والمستغلين . وكان اكثر المستقرين اندفاعا الشراكسة القادمين من القوقاز والبلقان . وقد برزت القرى الشركسية بعد عام ــ ١٨٧٠ وامتدت في محاذاة البادية من الحدود الشمالية في منبج حتى عمان جنوبا مرورا ببعض قرى حمص ومرج السلطان في غوطة دمشق والجولان . وقد قام الشراكسة بالدور الذي رسمه لهم العثمانيون فشغلوا الارض وزرعوها وكونوا منطقة عازلة بين البادية والمعمورة .

هذه التدابير اسهمت الى حد ما في نشر بعض مظاهر الامن وفي عودة روح العمران الى شرقي ولاية حلب وجنوبها وبعض جهات الجزيرة والفرات . ومن اجل السير في هذا الاتجاه تأسس في ولاية حلب (قائمقامية العربان) كان لها قائمقام ومدير مال وشكل من اشكال مجلس الادارة مؤلف من شيوخ القبائل(٣٩) .

كما ان مد الخطوط الحديدية اسهم الى حد كبير في نشر الامن . فقد اصبح بامكان السلطات العثمانية ان تحرك الجيوش من دمشق وحلب بسرعة الى مناطق كان يستحيل الوصول اليها سابقا الا بجهود بشرية مضنية وبواسطة الحيوانات ، التي كانت تكلف نفقات مالية باهظة . والواقع ان النتيجة العلمية لانشاء الخطوط الحديدية وبخاصة الخط الحديدي الحجازي الذي ربط دمشق بالمدينة المنورة ان البدوالقريبين من الخط ، الذين دفعوا سابقا اتاوات تافهة ، وغير منتظمة . اصبحوا بعد انشاء الخط ــ كما كتب القنصل الالماني العام في بيروت عام ١٩٠٣ ــ مجبرين على دفع الضرائب بصورة منتظمة نسبيا . ففي عام ــ ١٨٩٥ ــ دفعت قبائل الرولا وولد علي ١٠٠٠٠ فرنكا ضريبة على الجمال . اما في عام ــ ١٩٠٣ ــ فوصل هذا الايراد الى ٢٨٠٠٠٠ فرنكا سنويا . وهذا ما يفسر احد الاسباب لهجمات البدو المتكررة على محطات الخط الحديدي الحجازي وخط حديد بغداد وغيرهما من الخطوط الحديدية(٤٠) .

وجاء السلطان عبد الحميد عام ــ ١٢٩٤ ــ هـ ــ ١٨٧٦ ــ م « وكان ولوعا بتوسيع املاكه وتكثير ثروته » فقام بالاضافة الى ما ورثه من (الجفتلكات الهمايونية)

في جنوب حلب بتوسيع هــذه الجفتلكات عــام ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٣ م الى عــدد من الخرب الدائرة في شرقي حماة وسلمية وحمص واسكن فيها فلاحين من جبال الساحل ومن العشائر نصف المتحضرة وغيرهم واعفى الجميع من الجندية والضرائب الاميرية ليجذب اعدادا كبيرة من اليد المنتجة للعمل في هذه المناطق القائمة على سيف البادية . وحتى يضمن الامن لاملاكه اسس السلطان عبد الحميد سرايا خاصة من جند البغالة لحماية الفلاحين العاملين في « أملاكه السلطانية » وبنى لهذه الغاية ثكنتين الاولى في قرية جب الجراح الواقعة في سفح جبل الشومرية والثانية في قرية الحمراء الكائنة في الشمال الشرقي من حماة . واقام جنودا في كل من قرى الفركلس وعقيربات السويد وتل الاغر والسعن وسعين . وهذه الاجراءات ردت عبث البادية ردا حازما ، وامنت العمل الآمن نسبيا لفلاحي قرى الجفتلك السلطاني وللقرى الواقعة غربيها . حيث تخلصت هذه القرى من عبث ابــل البدو بالاشجار والزروع . كمــا تنفست المــدن الصعداء واخذ العمران ينتشر في الضواحي والبراري(٤١) . ولكن هذا العمران الزراعي لم يتم بصورة رئيسية لصالح الفلاحين بل لصالح السلطان وحاشيته ، فجميع الاتاوات والرسوم وبدلات الايجار المستوفاة من الفلاحين والبدو كانت تصب مباشرة في ادارة الخزانة السلطانية الاقطاعية وتنفق في غايات غير منتجة، وبالدرجة الاولى لاعالة الاسرة السلطانية وخدم القصر وجواريه. وهذا أحد الاسباب، التي دفعت القبائل في العراق وسورية الى مقاومة مساعي السلطات العثمانية لتوطينها ، لان هذا التوطين كــان يهدف أولا وقبل كل شيء الى اخضاعها وجباية الضرائب منها . ومع ذلك امتد النفوذ العثمانــي تدريجا الى مناطق اوسع باتجاه البادية مستفيدا من التفوق في استخدام السلاح واجهزة البرق واقامة مراكز عسكريــة(٤٢) .

ولكن هذه الحالة لم تدم طويلا فعندما خلع السلطان عبد الحميد على اثر ثورة الاتحاد والترقي عام /١٩٠٨/ ودورت املاكه الى بيت المال ورفعت الحصانة عــن فلاحي الجفتلك السلطاني (الحصانة تمثلت في اعفائهم من الجندية ودفع الضرائب الاميرية) عادت الفوضى وتعديات البدو على قرى المعمورة . كما بدت هذه الظاهرة بوضوح اثناء الحرب العالمية الاولى . حيث ضعفت هيبة الدولة وبخاصة بعد قيام الثورة العربية في الحجاز /١٩١٦/ وبدء انهيار الدولة العثمانية وقد استمرت قلة

هيبة الدولة وفورة العبث عند البداة طوال العهد الفيصلي (١٩١٨ - ١٩٢٠) وفي اوائل عهد الانتداب .

٤ - اعمال البدو ومواردهم :

الرعي او تربية الماشية والصيد والغزو والتجارة هذه الاعمال اعتبرها البدو جديرة بهم . اما الاعمال اليدوية فيانفون منها كما ازدروا الزراعة واعتبروها تجرهم الى الخنوع والذل واطلقوا على الفلاحين اسم الفلاليح . ومن اقوالهم في ازدراء الزراعة (الذل بالحرث والمهانة بالبقر) ويقابلون هذه الاقوال بكلمة (العز بالابل والشجاعة بالخيل) وعندما قام بعض رؤساء العشائر في اواخر القرن التاسع عشر بامتلاك الاراضي وجدوا صعوبة في دفع البدو للعمل في الزراعة « فاعتمدوا في الغالب على سواعد الحضر من ارباب القرى » ولم يبدأ توجه البدو نحو الاعمال الزراعية الا في الثلاثينات . وبخاصة في الخمسينات وظهرت مجموعة الفئات الاجتماعية البدوية المعروفة باسم العرب نصف الرحل او الغنامة او « عربان الديرة » مثل الحديديين والموالي الذين اعتنوا بشكل رئيسي بتربية الاغنام وتنقلوا ضمن مناطق محدودة وكانوا اول من سار في طريق التحضر . ومع الزمن ظهرت الفئة الثالثة من البدو الاعراب الفلاحين الذين تركوا الحل والترحال وهجروا بيوت الشعر وعملوا في الزراعة(٤٣) . وعملية التحول والانتقال هذه سنعالجها في الفصول المقبلة .

لم تكن السرقة والتشليح عملا مخجلا بالنسبة للبدو . ولهذا فان الغزو والسلب كانا امرين طبيعيين ، ولهما مايبررهما من زاوية نظرهم . فهذه الاعمال مورد من موارد البدو قبل القضاء على هذه الاعمال في العشرينات من قبل السلطات الافرنسية والانكليزية المنتدبة آنذاك على سورية والعراق . واعتمادا على اعمال السرقة والتشليح والغزو والسلب توصل البدو - أو الاصح زعماؤهم - الى الحصول على مورد ثابت فرض على شكل اتاوات واطلق عليه اسم « الخوة » .

والخوة عند البدو ، تعني لغة الاخوة ، وهي عمليا عبارة عن مبلغ من المال - قد يكون نقدا وقد يكون عينا - يتقاضاه البدو ، الاقوى منهم من الاضعف ، ويمكننا تصنيف الخوة في اربعة انواع(٤٤) :

آ ـ ما تتقاضاه العشائر الكبيرة القوية من العشائر الصغيرة المستضعفة ، وغالبا ما كانت مواشي او غلالا وما اليها ، وذلك لقاء حماية الاولى للاخيرة من كل اعتداء يصيبها ، واسترداد اسلابها فيما اذا اجتاح ربوعها الغزاة . فقبيلة شمر في الجزيرة ، كانت تاخذ الخوة من العشائر التي تدخل الجزيرة طوعا او كرها . وكانت الخوة تقسم بين الشيوخ حسب درجة نفوذهم .

ب ـ ماتاخذه العشائر البدوية ، من سكان القرى في المناطق القريبة من مضارب البدو ، وغالبا ما يكون غلالا او نقدا وذلك لقاء امتناع العشائر البدوية المتقاضية للخوة ، من الاعتداء على القرى وسكانها ونهب غلالها .

ج ـ ماتتناوله العشائر البدوية من القوافل العابرة للبادية ويسمى « خفارة » وذلك لقاء حراسة القافلة وحمايتها والامتناع عن الاعتداء عليها .

د ـ ماتدفعه السلطات للعشائر من جعالات ، وذلك لدفع خطرهم عن الحواضر ، ودرء اذاهم عن القوافل ، ومنعا لغاراتهم المتكررة على اطراف المعمورة . فبعض بطون بني وهب من غزة كان لها « تعيينات وخرج على ولاة الشام وحلب » .

والسؤال الهام هنا : اين تذهب واردات الخوة ؟.. هل توزع بالتساوي على افراد العشيرة ؟... أم هنالك سوء في توزيعها ؟.

ان الواقع يبين ان الحصة الكبرى من الخوة كانت تذهب للمشايخ واصحاب النفوذ في العشيرة ، ولم يصل الى عامة البدو الا النزر اليسير . وهذا الامر كانت له نتائج اجتماعية ادت الى تجمع الثروة من مال وجمال واغنام وبيوت الشعر اولا ثم البيوت الحجرية فيما بعد واثاث واخيراً امتلاك الاراضي في ايدي قلة من المشايخ والرواسي . مما اسهم في ظهور الارستقراطية البدوية الاقطاعية والى بروز التمايز الاجتماعي بين اغنياء القبيلة وفقرائها واستطاع المتنفذون من المشايخ السيطرة السياسية والفكرية على عامة البدو وادخلوا في اذهانهم ان صالح الشيوخ هو صالح القبيلة عامة . واستطاعوا بذلك ان يعبئوهم للقتال الى جانبهم في حال تمنع احدى الفئات عن دفع الخوة وساد المثل المعروف « قطع الخشوم ولا قطع الرسوم » .

لقد كان افراد العشيرة الواحدة ومن ثم القبيلة الواحدة مضطرين للتحالف والتآزر ومساعدة بعضهم بعضا لان العلاقات بين العشائر والقبائل كانت تقوم على احد امرين :

ـ اما النهب عن طريق غزو القبائل الاخرى او القرى العامرة وهم بحاجة الى التكاتف للوصول الى الغنيمة ، التي كان يذهب معظمها الى شيوخ القبيلة .

ـ واما التحالف لرد غزوات القبائل المجاورة من جهة ومقاومة محاولات السلطة المركزية للهيمنة على القبائل واجبارها على دفع الضرائب .

ولهذا حرص البدو داخل القبيلة على تعزيز القرابة الدموية ، لحفظ حقوقهم والدفاع عن انفسهم والحصول على جزء من الغنائم . وفي اطار المحافظة على القرابة الدموية داخل العشيرة جرى ايضا تعزيز مكانة الاسرة والحفاظ عليها .

فالعشيرة تألفت من عدد من الاسر . والاسرة البدوية هي وحدة القبيلة والمجتمع البدوي وتألفت ـ ولا تزال ـ من الابوين والاولاد والاحفاد يعيشون معا وينامون في بيت واحد هو بيت الشعر ، وياكلون من قدر واحدة ، وعلى صوان واحد . وكبير الاسرة هو الذكر الاكبر سنا وهو مسموع الكلمة .

وللبدو ميل عظيم الى انجاب الاولاد . وعند مجيء القادم الجديد تنحر الذبائح ابتهاجا بقدوم المولود الجديد الذي يعتبر دعما للاسرة .

كانت عيشة الاسرة البدوية قاسية جدا لوجودها في بادية مترامية الاطراف قليلة الماء محرومة من الوسائل الحضارية ، وهي تتحمل شظف العيش باستمرار .

وكان دخل عامة البدو محدودا وهو مؤلف من نتاج ابله وغنمه على تفاوت هذا الدخل بين الافراد . وبالمقابل فان نفقات الاسرة البدوية يسيرة لاتذكر . فهي لاتتجاوز اثمان الملابس القليلة والرخيصة الثمن وثمن التمر الرديء والدبس وثمن القمح ، الذي كان استهلاك البدوي له قليلا لارتفاع اسعاره وتكاليف طحنه ونقله(٤٥) .

٥ ـ التمايز الاقتصادي والوضع الطبقي :

حتى منتصف القرن التاسع عشر عاش البدو في وضع مايمكن تسميته بالديموقراطية البدوية وكانت كل قبيلة منفردة لاتزال تعتبر مجتمعا لاعضاءمتساوين ينحدرون من جد واحد . كما تعتبر الاراضي ،التي يستخدمها افرادها كمراع موسمية ، ملكا عاما للقبيلة كلها . ويستطيع نظريا كل فرد من افراد القبيلة ان يستخدمها من اجل رعي ماشيته . ولكن من الناحية العملية ، وبالرغم من ذلك فقد تعمق التباين والحيازة داخل القبيلة وتميزت قمة غنية متنفذة من ذوي النسب وفئة من عامة البدو الفقراء الذين لا يملكون شيئا . وقد كتب المستشرق الالماني « زاخاو » عن حالة قبائل الجزيرة : « ان مكان ونفوذ كل فرد يتناسب مع مايملكه » .

لقد كان زعيم القبيلة ،الشيخ ، اغنى افرادها ويملك قطعانا كبيرة من الجمال والخيول والاغنام . وهو لايعمل بل يستخدم من اجل رعاية مواشيه اقرباءه الذين يعيشون في منتجعه أو العبيد وبعض افراد القبائل الاخرى الملتجئة الى قبيلته. ونتيجة للتمايز الاقتصادي ظهر التمايز الاجتماعي واضحا وبارزا بقدر ماكان زعيم العشيرة، الشيخ ، يحوز على امتيازات ويستأثر بالنصيب الاوفر من الثروة(٤٦). التي تجمع باسم القبيلة . لقد حاز الشيخ على الامتيازات التالية :

ـ منح الشيخ لنفسه حق ادارةاراضي الديرة ، وهو الذي يحدد بالاتفاق مع زعماءبطون القبيلة طرق الارتحال واماكن النجعة وكيفية استخدام موارد المياه . وكانت افضل المراعي مخصصة لقطعان شيخ القبيلة ، مع ان ديرة القبيلة كانت ملكا مشاعا وتضم في الغالب اراضي تستخدم للرعي . وان وجدت ارض مزروعة في ديرة القبيلة فهي ضئيلة المساحة وسرعان ماتتحول الى مراع .

ـ حاز الشيخ وباسم القبيلة على الحصة الاوفر من « الخوة » التي تجمع من القبائل الاضعف ومن فلاحي القرى القريبة لـ « ديرة » الشيخ ومن القوافل التجارية وغيرها .

ـ في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين شرع زعماء البدو ، الشيوخ

في استغلال الفلاحين مباشرة ـ عدا عن الخوة ـ بعد تملكهم للاراضي والاطيان وتشغيل الفلاحين فيها عن طريق الوسائل المختلفة للاستثمار الاقطاعي ».

ـ كان حجم دية الشيخ المقتول او احد افراد اسرته يزيد كثيرا عما يدفع عادة لاهل القتيل تعويضا لهم عن الخسارة التي لحقت بهم من جراء قتله . والدية عادة تجمع من افراد القبيلة لان المسؤولية جماعية . وفي معظم الحالات كان المتنفذون في القبيلة يسعون للتملص من دفع نصيبهم وجعل العبء الاكبر من الدية المجموعة يقع على عامة البدو .

ـ كان ثمة ضريبة تفرض على افراد القبيلة وتقدم للشيخ كنفقات « المشيخة » لان خيمة الشيخ هي مكان اجتماع القبيلة واستقبال الضيوف وغير ذلك ..

هذا التمايز الاقتصادي ادى الى تمايز اجتماعي كانت معالمه تتوضح اكثر فاكثر وبخاصة في القرن التاسع عشر . وهكذا ظهرت الفئات الاجتماعية التالية داخل المجتمع البدوي(٤٧) :

١ ـ الشيوخ وهم سادة القبائل ، واصحاب الراي الراجح فيها ، وبيدهم الحل والعقد وهم يسمون شيوخا ولو كانوا حديثي السن ».

٢ ـ الرواسي العارفة وهؤلاء يلون الشيوخ في المكانة والمنزلة الاجتماعية ، ويماثلونهم من حيث انهم يستانس بآرائهم في المعضلات ، ويلجأ اليهم في حل المشكلات، يرأسون فرقهم .

٣ ـ العامة : وهم سواد القبيلة ، وحاملو الاعباء فيها ، ودافعو الضرائب على اختلاف انواعها والمقاتلون في سبيل القبيلة .

٤ ـ العبيد : وهم موالي العشيرة يدينون لها بالولاء بعد ان تحرروا من ربقة الرق . وحتى مدة قريبة كان بعضهم لايزال رقيقا لبعض شيوخ القبيلة . وافراد القبيلة لا يصاهرون هؤلاء على اعتبار انهم في منزلة ادنى من منزلتهم . وسنعود لدراسة العبيد في مجلد آخر .

ولكل فرقة من فرق العشيرة رئيس ، يسمونه شيخا ، وشيوخ الفرق

« الرواسي » خاضعون لشيخ العشيرة . وشيوخ العشائر غالبا مايتبعون شيخ القبيلة التي تفرعت عنها عشائرهم ويسمونه بشيخ المشايخ او « العليم » .

وعموما كان الشيخ مرتبطا بواجب الاخذ براي مجلس القبيلة . ومع الزمن ضعفت سلطة المجلس لصالح الشيخ وتحول افراده الى هيئة تعمل لمصلحة زعامة القبيلة المجتمعة حول الشيخ تتقاسم معه السلطة والثروة ، التي جمعت من افراد القبيلة او من القبائل الاخرى عن طريق الخوة والغزو والسلب والنهب .

وقد استغل المشايخ ومن حولهم من زعماء الاسر الغنية عامة افراد القبيلة واستخدموهم كقوة مقاتلة من اجل اخضاع وخنق مقاومة ابناء القبائل الاخرى المستقرة والمتنقلة وفرض السيطرة على القبائل الضعيفة ونهب خيرات الفلاحين وفرض الاتاوات على القوافل التجارية او الإعتداء عليها .

هذه الامور ادت مع الزمن الى خلق جهاز خاص تابع للشيخ ، وبخاصة الشيوخ الكبار ، مؤلف من :

١ ــ العبيد المكلفين بحراسة الشيخ وتاديب المتمردين على الشيخ ونظمه . وكثيرا ماقاموا بجمع الخوة واجور الاراضي من الفلاحين .

٢ ــ حاشية مؤلفة من الطباخ والحطاب وراوي الماء ، الذي يجلب الماء من مناهله ، وسائس الخيل ،ورعاة الابل والغنم ، والسفري او سفراوي وهو مكلف باعداد الطعام والسفرة .

وهكذا ظهرت في المجتمع البدوي طبقة من الارستقراطية الاقطاعية اخذت تمعن في استثمار عامة افراد القبيلة تحت مظلة العادات العشائرية والاعراف البدوية وبفضل القوة المسلحة الموجودة لدى الشيخ . وبالمقابل ظهرت شرائح بدوية فقيرة لاتملك سوى عدد قليل من الجمال او الاغنام وبعضها امسى لا يملك أي مورد رزق . فاضطروا للعمل كرعاة لقطعان ماشية اغنياء البدو اولا قبل (١٩١٨) واعيان المدن

والريف فيما بعد /١٩١٨/ . ولاشك ان هذا التباين الاقتصادي والتمايز الاجتماعي ادى الى تصدع اركان القبيلة كمنظمة لاعضاء متساوين في الحقوق والى زعزعة الاعراف والتقاليد البدوية .

ولكن عملية التصدع هذه لم تؤد في العهد العثماني قبل (١٩١٨) وحتى منتصف القرن العشرين الى خراب بنية المجتمع العشائري ـ القبلي . فقد كان هناك مصالح مشتركة بين اغنياء العشيرة وفقرائها ، سنتحدث عنها في مجلد لاحق .



الفصل الخامس

صور من مظاهر الحياة الاقتصادية الاجتماعية في بعض الأرياف السورية

الحياة الاقتصادية ـ الاجتماعية لبعض الارياف السورية :

هذه الالوان أشبه بالدراسة الميدانية التقريبية لأنماط الحياة والبنية الاقتصادية والاجتماعية لبعض الارياف السورية في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين كتبها اشخاص عاشوا في تلك المناطق وصوروا بالحرف ماشاهدوه او سمعوه وقمنا بنقل مقاطع حرفية من هذه الكتابات بعد انتقاء ماله علاقة بموضوعنا أوتلخيص ماكتبوه مع المحافظة التامة على الافكار وحتى على لغة التعبير .

١ ـ وادي الفرات :

آ ـ ماشاهده احمد وصفي زكريا .

ب ـ الاسرة الفراتية في منظار عبد القادر عياش .

جـ ـ المعلومات الزراعية والاقتصادية والادارية ، التي جمعها عن سنجق دير الزور عام /١٩٢٢/ وجيه الحفار .

٢ ـ منطقة معرة النعمان .

٣ ـ منطقة القلمون .

٤ ـ منطقة عكار .

٥ ـ منطقة تلكلخ .

٦ ـ قضاء صافيتا .

٧ ـ قضاء جبلة .

٨ ـ اللاذقية .

١ ـ وادي الفرات :

٢ ـ ما شاهده احمد وصفي زكريا :

في عام /١٩١٦/ ارسلت السلطات العثمانية المهندس احمد وصفي زكريا الى دير الزور للاشراف على عملية مكافحة الجراد هناك . وفي عام /١٩٧٠/ نشر عبد القادر عياش ذكريات زكريا الذي سافر بالعربة من حلب الى الدير ونقتطف منها المقاطع التالية :

« ... شاهدت اسطولا من القوارب النهرية في الفرات ... صرنا نطرب لسماع انين البكرات التي ترفع الماء من الفرات بالدلاء الكبيرة وتسقي الزروع ، كما نطرب لغناء الفلاحين العاملين بها وهم وراء دوابهم الهزيلة الذاهبة والآيبة حين جر حبال الدلاء .. وبعد ساعتين بلغنا مفرق الرقة ولم يكن يومها جسر يوصل اليها وكان العبور من الضفة الجنوبية الى الشمالية يتم عن طريق السفينة . في السبخة سوق وحوانيت وبساتين ومناظر جميلة ومنطلق للسفن .. بعد السبخة كانت على يسار الطريق بينها وبين الفرات غابة عظيمة كانت اشجارها وقتئذ باسقة وكثيفة يضيع فيها الغريب . وكانت هذه الغابة وامثالها قديما ماوى للاسود الى ان انقرضت قبل قرنين من الزمن . وانقرضت الغابة ويا للاسف وصارت ارضها قاعا صفصفا.. حول مخفر معادن مخيم لمهاجري الارمن وكنت تلمح على وجوههم الاعياء والبؤس وكانت الامراض تفتك بهم وهم يزحفون الى مصير مجهول العاقبة ..

وصادفت قافلة تجار عراقيين قادمين من بغداد الى حلب سمعتهم يتكلمون باللهجة العراقية العميقة التي وجدتها غريبة علي ... وصادفت ايضا مركبات عديدة

تحمل عددا من ضباط الالمان الراجعين من جبهة الكوث الى بلادهم للاستجمام .. وكنا نرى في وسط الفرات سفنا محملة بالاسلحة الحربية والمعدات والذخائرالحربية المرسلة الى جبهة العراق ..

وكان هناك بدو على الفرات يستعدون للرحيل (الزمن آذار ١٩١٦) للتشريق الى البراري البعيدة . ولما اقتربنا من الظعون « ويقصدون بها الابل المحملة » رايت الظعون تمشي الهوينا وتتهادى وصرت اسمع محاورات النساء في هوادجهن ومناغاة الاطفال ، وارى حول الظعون فرسانا مدججين هم حماة المال والعيال ومشاة زاحفين لا يخلون من سلاح ، وخيلا وابلا وغنما .. منتشرة على مسافة بضع مئات من الامتار وعلى سجيتها ... فسألتهم : من اي الاعراب انتم ؟ فارادوا الكتمان وقالوا : نحن من عرب الله وقاصدون باب الله الكريم ، واشاروا باناملهم نحو الافاق الشرقية الجنوبية . فلم اشأ تعميق الحديث ودعوت لهم بالسلامة وانطلقت اتمتم (اكتم ذهابك وذهبك ومذهبك) ...

... وكنت الحظ ان الديريين واهل قرى وادي الفرات عامة ماهرون في السباحة التي يتعلمونها منذ الصغر . والرجال والنساء في القرى يعبرون الفرات سباحة ويضعون ثيابهم على رؤوسهم ويخوضون ويسايرون الماء في جريانه ، فاذا وصلوا الى المكان المقصود خرجوا رويدا رويدا ولبسوا ثيابهم وانطلقوا ... ويجيد الديريون ركوب الخيل .. امراض العيون كثيرة عندهم وكذلك مرض تناسلي اسمه (البجل) ... هذا ولم يكن في الدير سوى حمام واحد ، لان اكثر السكان يستحمون في الفرات ويكتفون به وقد رايت المقاهي كثيرة ...

... في الميادين رايت النساء يقصدون عين علي ويذبحن هناك الذبائح ويقران الادعية ويمرحن طول النهار ثم يرجعن . وكان الاهلون يسبحون في العين للتبرك ..

طفت ضفاف الخابور وشاهدت نواعيره المشابهة لنواعير حماة ... وقد داهمتنا عاصفة عجاج تعمي الابصار وتسد الانفاس ..

ب ــ الاسرة الفراتية في منظار عبد القادر عياش :

للباحث الديري عبد القادر عياش سلسلة من الدراسات والانطباعات والمشاهدات عن وادي الفرات نشرها في كتيبات ومنها الاسرة في وادي الفرات . ونقتطف فيما يلي فقرات مما كتبه عياش :

الرابطة الاجتماعية في القرية الفراتية هي رابطة الفخذ والعشيرة ورابطة الاسرة التي تذوب في العشيرة .. اذا لم يستطع العريس ان يملك بيت شعر ، حفر حفرة في الارض مستطيلة وسقفها بالعيدان والقش والطين لكي يعيش فيها مع زوجته وولدهما . وهذه الحفرة تسمى دبدابة او ادمة . واحيانا تشاركه نعجته او نعاجه هذا المأوى . واذا توفر له المال اشترى بيت شعر او ابتنى بيتا من الحجر عبارة عن غرفة واحدة . قلما يتجاوزها لفقره . ولا يتعدى اثاث البيت بساطا محليا وقدرا صغيرة ولقن نحاس وقربة ماء وطاسة نحاس .

وليس لكثير من الاسر الريفية ارض تبني عليها بيوتا من حجر ولذلك تقيم تحت بيوت الشعر .. ولا تعليم ولا وحدات صحية ولا امن .. ولكن وضع الاسرة اخذ يتحسن .. ان الاسرة الريفية تكاد تكون بلا روابط غير وجود الاولاد . فلا حب ولا تفاهم ولا احترام ...

ج ــ المعلومات الزراعية والاقتصادية والادارية التي جمعها عن سنجق دير الزور عام /١٩٢٢/ وجيه الحفار ونشرها في دير الزور عبد القادر عياش .

هذه المعلومات ، التي جمعت عام /١٩٢٢/ هي صورة لبعض نواحي الحياة الاقتصادية في حوض الفرات السوري قبل الحرب العالمية الاولى لان التبدل في انماط الحياة لم يكن قد دخل بعد . وفيما يلي مقاطع من المعلومات التي جمعها الحفار :

١ ــ ان زراعة لواء دير الزور محدودة ومنحصرة بالحنطة والشعير والذرة البيضاء والسمسم وبقليل من الماش والذرة الصفراء والقطن ، وبالجبس والبطيخ والخيار والقتة . ومن الفواكه : التوت والرمان والخوخ والتين والاجاص والتفاح واللوز والمشمش ، منحصرة ببساتين البلدة التي لاتزيد عن الف دونم . ويوجد الفستق الحلبي والبطم بصورة طبيعية في جبل عبد العزيز .

واما الاراضي الزراعية فتنحصر بسواحل الفرات والخابور ولا تتجاوز ضفتي الانهر اكثر من ٥٠٠ متر والنادر الى ١٠٠٠ متر جميعها تسقى بالوسائط العادية ومجموع الاراضي الزراعية ٥٠٠٠٠ دونم مع الاراضي التي في شمال وشرق الخابور .

لم تسبق العادة في تسميد الاراضي في اللواء الا ما يسوقون عليها الاغنام والماعز . وتكون قد تسمدت بطبيعتها . اما في اطراف البلدة بعض البساتين تستعمل السماد . والبعض منهم يستعمل التراب الذي هو قرب اراضي الزراعة المركب من الجص وقد بداوا يشعرون بفائدته للاراضي .

ان محصول الحنطة في دير الزور السنوي يبلغ من ٢٥ ـ ٢٧ مليون كيلو غرام جميعه يستهلك محليا . ومن النادر ان يرسل الى عانه وبغداد وحلب . حيث اكثر العشائر الرحل تتسوق حنطتها من نفس اللواء ... الشعير الاسود يحصد قبل الاصفر بخمسة عشر يوما . وهو غذاء عمومي للزراع يخلطونه مع الذرة البيضاء ولكن الان اصبح الشعير اغلى من الحنطة بـ ١٥٪ نظرا لوجود الحملة العسكرية في ذلك اللواء .

السمسم من النباتات الصيفية ، كانت حاصلاته ذات اهمية . وكان اللواء يخرج منه سنويا قبل الحرب ٤٠٠ الف كيلو غرام ، وحيث لا توجد معاصر لاستخراج السيرج يجري اخراجه الى الشام . ونظرا لقلة فيضان الفرات قلت زراعته بالمائة سبعون . حيث زراعة السمسم يكون اكثرها في المحلات المنحطة على شاطىء الفرات ، فبعد انسحاب الماء في اثناء الفيض يبذرون الاراضي سمسم بلا سقاية فيزهر في تموز ، وفي ايلول يجمعون حاصلاته . الان يوجد معصرة في الدير لاستخراج السيرج .

اما وسائل الري فهي الكرود والدواليب مخصوصان بنهر الفرات وشمال الخابور . واما النواعير المجاول مخصوصة بنهر الخابور وتشتغل بقوة انحدار الماء . والري بهذه الوسائل تمتد مسافته بين ٥٠ و ٤٠٠ م فقط والاراضي الواقعة وراء هي ارض بور لم تصلها المياه الا مع استخدام المضخات في الخمسينات .

٢ ـ الكرود جمع كرد ، وفي لسان بعضهم : « جرد » . الكرد اما ان يكون

ببكرة واحدة او ببكرتين او بثلاث . والكرد عبارة عن اخشاب تنصب على شاطىء الفرات ، ويركب عليها دلو يجر بواسطة الثيران والدلو يحمل الماء من النهر وبعد صعوده لسوية الارض تصب ماؤه في حوض ومن الحوض يجري الماء في ساقية مخصوصة تساق الى سقاية المزروعات . واقسام الكرد هي : النصبة والدواكير والشمعة وكرة اسطوانية والدلو والطماس والعونة والشارونة (شرحها الحفار بالتفصيل) ....

اما كمية الماء الذي يرفع بواسطة الكرد في الساعة الواحدة تختلف اذا كان السحب بواسطة الثور او الكديش ، فعند استخدام الثور يصعد الدلو خلالها ٦٠ مرة في كل مرة يرفع ١٠٠ ليتر ، المجموع ٦٠٠٠ لتر ماء . واذا كان السحب بكديش او بغل فيصعد الدلو ٧٥ مرة في كل مرة ١٠٠ ليتر ، المجموع ٧٥٠٠ ليتر ماء . والكرد المؤلف من بكرتين يعطي مثلي الماء والمؤلف من ثلاثة يعطي ثلاثة امثال .

وقليلا ما ينشئون على ضفتي الفرات آبارا لاجل الكرد ، وانما ينقبون الجرف بصورة هلال من سطح الارض الى ما تحت الماء بذراع ، ثم يأتون بالشوك ويضعونه في اسفل الثقب بموازاته ثم يصعدون عليه بالشوك وكلما وضعوا صفا يضعون عليه ترابا ويربص الى أن يصل الى سطح الارض ويقال لهذه العملية (هرز) وفي اعلى الهرز تركز النصبات ، ويكون عليها بكرات على سعة النقب . ويأتي ماء الفرات الى النقب بواسطة جدول طوله نحو خمسة امتار وعرضه نحو ٨٠ سانتيم يسمى (راط).

يتطلب هرز النقب نحو ٧٠ حمل شوك ، ويحتاج النقب كل سنة الى تعمير ولا يكلف الهرز الفلاح نفقات فهو الذي يصنعه وأولاده وحريمه يأتون بالشوك . عمق النقب او البئر ٦ امتار على الفرات وفي الخابور ٢ ــ ٤ في اثناء نزول النهر . واما في نيسان ومايس وحتى حزيران حيث فيضان النهر يقل العمق من ٢ ــ ٣ ــ ٤ امتار .

٣ ــ الدوليب او الغراريف وهي اقسام خشبية وسطول ماء تدار بواسطة الكدش والبغال لسحب الماء من النهر لسقاية الاراضي . واقسام الدولاب هي : الشلبك والجبة والبكرة والشمعة والجايز (شرحها الحفار بالتفصيل) .

والدواليب التي تشتغل على ستة بغال لا تقف . يشدون على كل دولاب بغلين في آن واحد مدة اربع ساعات بلا توقف . وكل اربع ساعات يغيرون بغلين . ويقال لهذه المدة (عدة) يعينونها بظل مسمار مدقوق على خشبة موضوع عليهااشارات . بين الاشارة والاشارة اربع ساعات . فكل ما وصل الظل الى اشارة غيروا البغال . ويستمر عمل الدولاب ٢٤ ساعة بلا انقطاع .

٤ ــ النواعير : تشتغل بقوة الماء وجميعها اقيمت على نهر الخابور . اما الفرات فلا يساعد انحداره على تدوير النواعير . ولنصب النواعير على الخابور يعمرون السكور القديمة ويرممونها ثم يركبون الناعور عليه . واذا ارادوا ان يعملوا سكر جديد فانه يكلفهم مصاريف باهظة نظرا لعرض نهر الخابور الذي هو ٣٠ ــ ٥٠ متر . فحين عمل السكر ينتخبون اضيق نقطة وهي نحو ٣٠ متر . ويكون السكر بطولها وبعمق ٤ أمتار ، ويكون عرضه في اسفل النهر ٥ امتار وفي وجه النهر ٥ر١ متر ومجموع الانشاءات نحو ٢٠٠ متر مكعب . يأتون بالحجر الكلسي من مسافة نصف ساعة . يقدمه مقاولون لقطعه ونقله والقائه في الماء بسعر مجيديين لكل متر ونقل الاحجار يتم بواسطة الحمير ويلقى بالاحجار في الماء الى ان تخرج بصورة سوية الاحجار الى وجه الماء . ومن بعدها يبدؤون بعمارته بالكلس الى ان يصعد عن سوية الماء نحو ٦٠سم ، ويركبون فيه فتحتان بحسب طوله وبقدر الفتحات يركبون على الناعور مجول وطواحين . الناعور الواحد اما ان يكون ذا مجول وطاحون او ذا مجولين وطاحونين او ثلاثة مجاول وطاحون بحجر .

المجول : عبارة عن طارتين خشب بقطر ٨ امتار متصلتين ببعضهما البعض بصورة متوازية موضوع بين الطارتين اسطال بين الواحد والاخر ٢٥ سم سعة كل سطل ٨ لترات ماء وعددها ٤٠ ــ ٤٥ والمجول الواح خشب عريضة مثبتة في الناعور . تدفعها مياه النهر فيدور المجول . وتمتلىء السطول التي على محيطه فيوصلها الى اعلى لتصب في حوض خشب مطلي بالزفت ومن هذا الحوض يذهب الماء في ساقية الى الاراضي المزروعة . سواء كان الناعور ذا مجول او مجولين او اكثر .

الكلس الذي يستعمل في انشاء السكر يعمل من نفس الاحجار يحرق في مكلسة

أو نامورة في قرية البصيرة وتوقد المكلسة بشجر الطرفة . يخرج الكلس منها في مدة شهر ويحرق بمدة اسبوع وتخرج المكلسة نحو ٢٦ الف كيلو غرام بالمرة الواحدة وتخرج سنويا نحو ٣٠٠ الف كيلو غرام كلس . كل متر من السكر يحتاج الى ١٢٨ كغ كلس ويحتاج السكر من الكلس ٣٥ ـ ٤٠ الف ك غ قيمتها ١٥٠ ليرة عثمانية . مصرف السكر بالاحجار والكلس ثلاثة مجاول وطواحين نحو /١٢٠٠/ ليرة ذهب عثماني مصرف كل مجول سنويا /٨/ ليرات ذهب للتعمير والترميم .

٥ ـ يوجد اصول سقاية رابعة وهي فتح جدول من طرف الخابور واسالتها للاراضي المنخفضة واسقاء المزروعات بلا واسطة وهذه الجداول منحصرة في اعالي الخابور وجغجغ . بعضها يستفاد منها وبعضها مندثر .

٦ ـ المراعي :

ان الامطار التي تنزل في الخريف تنبت الحشائش من الفصيلة النجيلية غالبا فتخضر الارض في الشتاء والربيع . وفي اواخر الربيع تصفر الارض وتذبل الحشائش نظرا لطبيعة الارض الرملية والجبسية . فالمواشي التي يبلغ عددها ٤٠٠ الف رأس من الغنم والماعز والجمال تتسرب الى الشمال . حيث سهول اورفه وماردين وديار بكر طلبا للعشب . ولكن العشائر التي تسكن شاطىء الفرات المرتبطة بزراعتها يبقون في أراضيهم . ترعى ماشيتهم الحشائش اليابسة . ولكل من هذه العشائر منطقة لرعي مواشيها . في الشامية عشائر السبخة والبوسراية ومرعاهم موقع الرحوم والترب والتريب وخنيفس والقاعيات والبشري ومهيرة وابو الجير ومساحة رعيهم نحو ٣٠٠٠ كم مربع . ومرعى عشائر البوخابور : المالحة ـ قريطع ـ عظمان ـ سيلة زهيري ـ حاوي البوخابور . مساحة المرعي نحو ٤٠٠٠ كم مربع . ومرعى عشائر الميادين والبوكمال : العاكولة وسهول اخرى مساحتها ٤٠٠٠ كم مربع . وفي الجزيرة تبلغ مساحة المراعي ٢٠٠٠٠ كم مربع ، مراعي العقيدات غرب مملحة البوارة ٤٠٠٠ كم مربع . مراعي عشائر الجبور جهة الهول ٤٠٠٠ كم مربع . مراعي عشائر البقارة : ابوكبره ـ الزرب ـ ام مدفع ـ جبل عبد العزيز ـ الفيضات

ـ الدرو ـ عين نعجة ـ عين بقرة ـ عين البيضة ـ دبشية ـ مرسية ـ سحل القصب مساحتها ۳۰۰۰ کم مربع .

٧ ـ الحيوانات : ان الحيوانات في دير الزور عبارة عن الحيوانات الاهلية ، وهي الفرسية والبقرية والغنمية ، ومن الحيوانات الوحشية : الذئب ـ وابن آوى ـو الغزال ـ والارنب ـ والضبع ـ والخنزير .

ان الحيوانات الفرسية الموجودة في لواء دير الزور اشهر من ان تذكر وهي أصيلة منسوبة الى عروق مشهورة . ونظرا لهذه الشهرة ياتي تجار الخيل من حلب والشام والعراق يشترون ما يلزمهم منها وتساق لمصر والهند .

اما الكدش فتستعمل في الزراعة والنقل . والبغال التي تستعمل في دير الزور تاتي من ولاية الموصل وتستعمل في الدواليب نظرا لقوتها وقلة غذائها . والحمير هي الواسطة الوحيدة لنقليات العشائر على ضفتي الفرات . فجميع سمنهم وصوفهم وحبوبهم ينقلونها على الحمير . فالاستفادة منها عظيمة . لكنهـا جميعها ضعيفة وقصيرة القامة لا تستطيع ان تحمل اكثر من مائة كيلو ولمسافة محدودة .

وللعشائر رغبة في اقتناء الجمال نظرا لتحملها العطش ونقل الباشهم (عفشهم اي ممتلكاتهم المنقولة) يوجد في لواء دير الزور حسب تعداد سنة ۱۹۱۱ (۲۱۰۷۹) جمل ولكن عدد الجمال تراجع بعد الحرب الاولى وبسببها .

ان الاغنام الموجودة في دير الزور هي من العرق السوري ذي الالية الجسيمة . ان مجموع الاغنام حسب دفاتر الاغنام عام ۱۹۱۱ كان ٢٤٨٤٤٢٢ راس غنم عـدا الخرفان المولدة في تلك السنة . واما في هذه السنة ۱۹۲۲ فبلغ ۲٥٥٠٠٠ راس وهذا النقص عائد لمؤثرات الحرب العالمية الاولى .

ويرجع جنس الماعز الى عرق آسيا المعلوم الاوصاف ومقداره سنة ۱۹۱۱ كان ٧٤٧٢٤ وعدده في هذه السنة ۱۹۲۲ بلـغ ٥٥٠٠٠ راس والنقص لنفس أسباب نقص الغنم .

والحيوانات البقرية الموجودة في لواء دير الزور من العرق الاسيوي لكنه لم ير الاهتمام اللازم من التغذية والتربية ولذلك ضعف وانتهكت قواه .

٨ ــ شكل الملكية : ان الاراضي الزراعية منحصرة على ضفاف الانهر وان اعظم ارض مستقلة لا تتجاوز ٢٠٠ ــ ٣٠٠ دونم نظرا لضعف الوسائط الاسقائية . اما وسعة الاراضي التي خلف الاراضي المزروعة فهي مئات الوف الدونمات غير مملوكة فاذا جلبت المضخات الجسيمة فان الاستفادة من هذه الاراضي تكون عظيمة جدا نظرا لما فيها من المواد الانباتية الغنية .

وفي سنة ١٢٨٣ اي ١٨٦٤ لما تشكلت حكومة لواء دير الزور قسمت الحكومة الاراضي التي على ضفتي الانهر للاهالي المقيمين بها ، واعطت لكل من راجعها من المزارعين قواجين خاقانية بحدود معلومة والمساحة كانت على نسبة الخانات والنفوس. فمنهم من اعطته بكرة ومنهم بكرتين ومنهم من اعطته ثلاث واربع بكرات ، وقد فرضت مساحة كل بكرة ١٢ دونما وهو اعتباري . حيث القطعة التي اعطيت باسم بكرة في الحقيقة هو اكثر من مئة دونم . فكان المزارع الذي يملك بكرة هان عليه رسم الويركو الذي هو على الدونم . ثم هو في كل سنة يزرع قسما حتى في كل ثلاثة او اربعة سنين يمكن الرجوع للارض التي زرعها من قبل . فهذه الواسطة لم تتعب ارضه ولم تحتاج لاستعمال الاسمدة .

وقد كانت الحكومة تأخذ على تطويب الدونم غرشا واحدا تركيا . وهذه المعاملة شملت ضفتي الفرات من مسكنة الى القائم . اما طرق الامتلاك على ضفتي الخابور فالاهالي تملكت الاراضي بلا سندات خاقانية . وفي سنة ١٣١٢ رومي قسمت الحكومة الاراضي على الاهالي من عشائر الجبور والشرابيين والمعامرة وخلافهم من القاطنين بلا بدل واعطي لهم بها سندات خاقانية (حكومية) وكان التوزيع على النواعير التي تشتغل بقوة الماء . فكل مجول فرضوه بكرتين . وخصصوا له ارض اعتبار ٢٤ دونم . والمجولين ٤٨ دونم والثلاثة مجاول ٧٢ دونم . وهذه الدونمات اعتبارية . وفي الحقيقة هي اضعاف ما جرى قيده في سندات الخاقانية .

ومن بعد القيد الذي جرى سنة ١٣١٢ كل من راجع في قيد اراضيه مستندا

على حق قرار وحقوق تصرفية يقدر بدل مثل للارض وهو من ١ ــ ٦ غروش ويأخذ بها سند تصرف . وايضا عند توسيع المساحة الموجودة في سندات الخاقانية ، يؤخذ من المراجعين بدل المذكور عن كل دونم ان كان بمراجعة الاهالي للحكومة أم بارسال مأمورين لتحرير الاراضي من قبل الحكومة . وعندما يقع شقاق بين الاهالي بخصوص الاراضي يصير بدل المثل ٢٠ غرش تركي وهذا نادر والمعاملات تكون بقرار مجلس الادارة .

اما الاراضي التي وراء الضفتين فهي بور اميرية بسبب عدم تمكن سوق المياه اليها وفقدان الوسائط الميكانيكية .

لما تصاعدت اسعار الحبوب وبات الكل يأمل فوزا باهرا من الزراعة تمايلت الافكار الى جلب موتورات ومضخات للاستفادة من هذه الاراضي الخالية . فتقدم البعض للحكومة طالبين تفويض قسما من هذه الاراضي على ان يحيوها بمدة معلومة . ففي بادىء الامر نسبت الحكومة التركية هذه الطلبات . ومنحت البعض منهم احياء اراضي واسعة في جنوب الدير وشرقه . لكن الشقاق الموجود بين الاهالي جعل الحكومة توقف تلك المعاملات وبقيت كذلك الى الحكومة المنتدبة . ويوجد اراضي ممتلكة بموجب سندات خاقانية اكثرها واقعة في فم الوديان المنحدرة من الصحراء وتسمى بأراضي السيل ، ففي السنين المطرة تغمر المياه هذه الاراضي فيزرعونها حنطة وشعير ويستفيدون منها ، استملكت بحق القرار .

ولا يوجد داخل اللواء اراضي وقفية ولا اراضي كانت ملكا لعبد الحميد . انما وجد اراضي وقف ذرية لآل النقشبندي واراضي مملوكة للحكومة ، كانت مخصصة للانموذج الزراعي ، واراضي مملوكة وضعت الحكومة يدها عليها نظرا لتعطيلها من الزراعة في المدة القانونية .

٩ ــ القروض : كان اعتبار القرض الزراعي في أيام الاتراك يستند الى معاملتين احداهما المصرف الزراعي الذي كان يقرض المزارعين احتياجاتهم . اما بالكفالة المتسلسلة وهو لكل شخص ٥٠٠ ــ ١٠٠٠ قرش تركي . واما برهن الاراضي المربوطة بقواجين مقدار نصف القيمة . وكان للمصرف شعبة بقضاء الميادين تشمل

قضاء ابو كمال . وكان راس مال المصرف للقضائين ٤٠٠ الف قرش تركي . وكانت معاملته جارية الى انسحاب الاتراك .

والاعتبار الثاني هو الاستقراض من التجار بفائض فاحش اي ٥٠ ــ ٦٠٪ والتجار يقرضونهم مبالغ لمدة سنة مستندين على حاصلاتهم الزراعية التي ياتون بها الى القصبة يبيعونها ويوفون دينهم . ويستعمل التجار حيلة شرعية يبيعون الفلاح بمطلوبه اثواب خام كان ثمن الثوب ٢٠ مجيدي فيبيعه ب ٣٥ ، والفلاح ياخذ الثوب ويبيعه لغير التاجر بعشرين مجيدي فياخذ الدراهم ويقضي بها حوائجه . وفي موسم الحاصل يوفيها ٣٥ مجيدي . وقد اطلعت على معاملة في هذه الاثناء وهي لما ضايقت الحكومة الاهالي في تسليم ما عليهم من التكاليف الاميرية استقرض اهالي الصور من تجار القصبة ٦٥٠ ليرة ذهبية على ان يوفوها بعد عشرة اشهر ١٠٠٠ ليرة ذهب .. (ويعلق وجيه الحفار على ذلك قائلا : على الحكومة ان تستيقظ تجاه هذا الغدر ، وتتخذ الوسائل لتخليص الزراع من ايدي هؤلاء الغدارين) .

١٠ ــ التجارة الزراعية : الادخالات والاخراجات تنحصر في معاملات العشائر ببيع الحبوب والسمن والصوف والغنم والماعز والخاروف والجمال . والبيع اما ان يكون نقدا ، واما بايفاء ما عليهم من الديون التي اخذوها بفائدة ٥٠ ــ ٦٠٪ . ففي هذه المعاملة اما ان يكون الفلاح مجبرا ببيع محصولاته لدائنه . فيكون قد باعه باقل من ثمنها في السوق ، فيكون فائض دينه ارتفع ٧٠٪ أو ١٠٠٪ . والاسعار تختلف تبعا للأمن وحالة الطرق ووسائط النقل .

وصدر لواء دير الزور السمن والصوف والخروف والغنم والسمسم الى حلب والشام ويستورد منهما اموال الفاتورة والسكر والرز المصري والقهوة والقطران والكاز والبانزين والزيتون والصباغات والدهون . ومن بره جيك الدبس والعسل والفاصولية ــ وقمر الدين والمشمش المنقوع ، والاخشاب المختلفة والفحم والزيت الحلو وانواع الخضر . وياتي من العراق والموصل البغال والزفت والبلوط والعفص وجلود الحيوانات والمشالح والحطائط البغدادية .

١١ ــ الصنائع الزراعية : محدودة في عمل الجبن والسمن وحياكة الصوف .

يعملون السمن من حليب البقر والغنم بالاصول القديمة . بعد ان يحلبوا الحيوانات ، يعملون الحليب لبنا ثم يخضونه بالشكوة (قربة) تستوعب ٢٠ كيلو ثمنها مجيدي . ومن اللبن المخضوض يستخرجون الزبد وبعد تذويبه يصير سمنا . تعطي النعجة في السنة ٣ كيلوات سمن ، وتعطي البقرة ١٣ كيلو . مجموع الايام التي يستفاد من حليبها وسطي ١٨٠ يوما .

ان كمية الحليب المستحصلة من هذه الحيوانات قليلة لعدم كفاية غذائها وتربيتها. اما حاصلات الاغنام فمنوطة بقلة وكثرة الامطار والتي بسببها يكثر الربيع او يكون قليلا . وفي السنين المحلة اكثر اصحاب الاغنام تهاجر الى ولاية الموصل وديار بكر وماردين واورفه حيث الربيع مبذول .

١٢ ـ اجور العمال الزراعيين : ان اجور العمال الزراعيين اكثرها سنوية فهم مشتركون بحصة معلومة مع اصحاب الدواليب والكرود . بعضهم يأكل عند صاحب الدولاب وله كساء ومداس ويأخذ ربع الحاصلات بعد اخراج العشر واجرة الارض . وكل دولاب يتوكل بشغله اربعة عمال عليهم فلاحة الارض وزراعتها وجمع ونقل المحصول ومداراة الدواب ونظارة الدولاب . اما الساقي ففي كل دولاب واحد يأخذ ١ ـ ١٢ من المحصول بعد اخراج العشر . اما العمال باليومية فالوسطى ٢٠ ـ ٣٠ غرش سوري ، وفي ايام الحصاد تبلغ الاجرة اليومية ٤٠ غرش مع أكلهم ودخانهم .

٢ ـ منطقة معرة النعمان :

المعلومات التالية عن معرة النعمان وضعها محمد سليم الجندي في كتاب باسم « تاريخ معرة النعمان » نشر في دمشق عام ١٩٦٣ بتحقيق عمر رضا كحالة .. وكنا قد اوردنا قسما من اخبار معرة النعمان قبل الحملة المصرية على سورية ١٨٣٢ اقتباسا عن الجندي وفيما يلي بعض ما كتبه عن اخبار المعرة بعد عام ١٨٣٢ :

في نحو سنة ١٢٥٥ او ١٢٥٦ هـ/١٨٤٠ م بلغ اهل المعرة ان الترك تغلبوا على ابراهيم وكسروا جيوشه ، فهب جماعة من الرعاع ونهبوا الشونة* ، واتصل به ذلك،

* الشونة : المستودع ، الذي تجمع فيه حبوب ضريبة العشر .

فبعث عليهم جندا لينتقم منهم ، ولما اقترب جنده من المعرة هرب اهلها واعتصموا بالقرى والجبال . ودخل العسكر المعرة ، وهي خاوية خالية ، واطلق يده في النهب والاحراق ، حتى تركها صعيدا كان لم تغن بالامس .

واخبرتني زوجة جدي ، وكانت من اوعى الناس للاخبار واكثرهم استقراء لها ، وكانت ممن شهد الحادثة وفرت مع الفارين : ان اهل المعرة حين انذرهم النذير بقدوم العسكر ، حملوا ما استطاعوا من اعلاقهم وعقائل اموالهم ، وخباوا غيره تحت الارض ، وان جما غفيرا من اهل المعرة خباوا اموالهم في محمية كانت في دار جدي « والمحمية في اصطلاح اهل المعرة بناء تحت الارض ، وقد يكون واسعا ، وليس له الا منفذ كالسرداب ، وليس له درج ينزل اليه منه ، وانما يدلى اليه بحبل ، والغالب انه بناء قديم يعثر عليه فيفتح له منفذ ، يدخرون فيه ما يشاؤون عند الفزع ، ويسدون منفذه فلا يهتدى اليه » . وقد خبا فريق من اهل المعرة امتعتهم فيها ، ثم سدوا منفذها ، وفرشوه بالبلاط كبقية ساحة الدار ، فلم يهتد اليها الجند . ولما رحل الجند وعاد الناس الى مواطنهم ، وجد اكثر هذه الاموال فاسدا من تاثير الماء والرطوبة في المحمية.

● وكانت الحكومة العثمانية حين خرج ابراهيم باشا الى بلاد الشام وقبل ذلك ، ترهق اهلها ضروبا من العسف والخسف وكان المتغلبون عليها من الولاة والعمال يذيقونها انواعا من العذاب واستصفاء الاموال ، وخراب العامر وابتزاز الاموال . . . . وفي سنة ١٢٦٠ هـ نزحت جماعة من الفلاحين من بلاد حماة والمعرة عن قراهم ، فأصدر علي رضا باشا والي ايالة الشام امرا الى جد والدي محمد ، وكان مفتيا بالمعرة ، والى ولده امين ، وكان قاضيا فيها ان يذهبا الى حلب ومعهما خليل آغا رئيس جردة عساكره لاسترجاع الفلاحين النازحين فمكثوا شهرا ، وقد استطاعوا ان يرجعوا فريقا من النازحين ، فجعل خليل آغا متسلما للمعرة .

● وفي سنة / ١٢٧٠ / هـ دخلت سكاير الدخان اي اللفافات وكان الناس قبلها يستعملون الدخان بالغليون الذي له قصبة وكانوا يتنافسون بالغليون كما يتنافسون في القصبات فيتخذون الغليون من فخار ، ويتخذون القصبات من ياسمين وابنوس وغيرها ويسمونها امزك ، ويجعلون في راسها قطعة من الكهرباء الجيد ، وقد تكون قدر

بيضة الدجاجة ، ويغالون في ترصيعها وتزيينها بالفضة والذهب والماس والفيرزج وغيرها وقد انكر الناس استعمال اللفائف اولا ، ثم الفوه لخفة مؤونته وحمله ،وهجروا الغليون وما يتعلق به .

● وفي سنة / ١٢٧١ / هـ جاء الى حلب بذر البندورة ، وتسمى الطماطم وزرع فأثمر ، وكان الناس يأكلونه ما دام اخضر . فاذا احمر انفوا من اكله ، ثم الفوا اكله بعد احمراره وافتنوا في اكله واتخاذ عصير منه واتخاذ دبس ايضا ، وقلما خلا طعام فيه خضرا ولحم من البندورة ، ودرج أهل المعرة على آثار الحلبيين في ذلك .

● وفي رمضان سنة / ١٣١٠ / هـ منع قاضي المعرة ابراهيم الصوفي اللاذقي الناس من الصعود الى منارة الجامع الكبير وقت اذان العصر مع المؤذنين . وكان من العادة ان يصعد اليها فريق من الشباب في ذلك الوقت في رمضان للتسلي ،فحظر عليهم ذلك مدعيا انهم يشرفون على مقر نسائه في داره القريبة من المسجد فلم يمتنعوا ، وقالوا : لنا اسوة بالمؤذنين ، وفي وسع النساء ان يمكثن في غرفهن حتى ينتهي الاذان ، فأحضر قوة من الجند ، وكان هذا الجند ضبطية ، والعامة تقول ظبطية بمعنى درك في هذا العهد ، ووقفوا على باب المنارة ليقبضوا على غير المؤذنين فجعل الناس يلقون بأنفسهم من نوافذ المنارة على سطح السوق المتصل بها من الغرب والجنوب حتى ضاقوا ذرعا بذلك واصيب بعضهم برض او كسر في رجله ، فثار عليه الناس وقت الصلاة ، وهموا بالايقاع به ، فترك الجامع وفر الى دار الحكومة ، فاحتمى بها وحمته الجنود ،وتبعه الناس اليها ولكنهم لم يتمكنوا من ضربه وقتله ، وانما ملؤوه سبا وشتما وكنت ممن شهد ذلك وتبعه الى دار الحكومة .

● وفي سنة / ١٣١٢ / هـ تفشى مرض الجدري في المعرة وذهب بعيون كثير من الناس ، وعمي كثيرون بسببه لفقد الاطباء ..

● وفي سنة / ١٣١٤ / هـ فرضت الدولة العثمانية على المملكة اعانة ، سمتها اعانة التأسيسات العسكرية ، فاصاب قضاء المعرة (١٧٣٧٥٠) درهما ، وهذه الاعانة لتستعين بها على حرب اليونان في السنة المذكورة ، وكانت الحكومة تفرض من

حين الى آخر ضرائب تسميها باسماء مختلفة منها اعانة المعابد الاسلامية واعانة مهاجري كريد .

● وفي سنة / ١٣١٧ / هـ قتل امير من امراء الموالي يقال له : عزو ، قتله الجند، وكانت وطاته قد اشتدت على الناس ، واستطار شره على القاصية والدانية ، فكان ياتي القرية ، فيامر شيخها ان يقدم اليه ما يطلب من ملبس وقهوة وحنطة وشعير وغير ذلك ، فاذا امتنع او تاخر اصلى القرية نارا حامية ، وقتل من وقع عليه بصره من انسان أو حيوان ، وقد ارسلت الحكومة قوى متعددة للقبض عليه فلم توفق ، لانه كان يدبر المكلف بالقبض عليه ويرضيه حتى يدعي انه لم يره او لم يجده . ثم تعقبته قوة في قرية الحيصة من عمق حماه ، وامنه قائدها ، فاستسلم اليه ، فقاده الى حماه حتى اذا كان بالقرب من مكان يقال له : الدفاعي ، قتله ورمى بغلا للجند برصاصة في رجله وادعى انه عصى على الجند وحاربهم ، فأصاب بغلا لهم فقتلوه ، وهذا القائد كانت الحكومة انقذته مع قوة من الجند ، ليقبض على الامير المذكور في البادية ، فامتنع عن الاستسلام ، ووقعت بينه وبين القائد المذكور معركة شديدة ، انتهت بانهزام القائد وجنده ، وتبعه الامير ورجاله الى ابواب حماة ، ولذلك احتال عليه هذه المرة ، وامنه بواسطة مختار القرية الذي نزل عنده ضيفا ، فاخبر الحكومة بذلك ، فارسلت القائد مع جند ، ولكن لباسهم غير لباس الجند ، فهجموا عليه وهو لا يشعر ، وكان قد نزع سلاحه ، فلم يسعه الا الاستسلام للقوة ، فامنه القائد ، ثم قتله كما قلنا . وقد كان قتله راحة لاقليم حماة والمعرة وحلب ، لانه كان يسلب قراها طوعا وكرها ، ويأخذ اتاوات غير محددة بمقدار أو زمن،ويستخف باشراف البلاد واصحاب القرى ورجالها.

● وفي سنة / ١٣٢٠ / هـ تفشى الهواء الاصفر في دمشق ، فانبات حكومة حلب بذلك ، فارسلت ضابطا مع قوة من الجند الدرك ، الى كل موضع من حدود ولاية دمشق ، وهي قرية خان شيخون والهبيط ، وقلعة المضيق ، والحمراء ، لتكون تحت امرة الضابط . ثم فتح في خان شيخون محجر صحي فيه اطباء وادوات للتبخير والتعقيم ،وفحص من يمرمن ولاية دمشق الى ولاية حلب وضرب على بقية القرى المذكورة النطاق الصحي ، وفي شهر شباط من السنة المذكورة ذهب هذا المرض من دمشق ، وأزيلت الحواجز والمحاجر من الاماكن المذكورة ... وفي هذه السنة عملت الحكومة

احصاء للمولودين والمتوفين في ولاية حلب فكـان عـدد المولودين في المعرة / ٣٦٦ / احصاء والمتوفين / ١٩٠ / .

● وفي سنة / ١٣٢٣ / هـ فرضت الحكومة ضريبة جديدة اسمها ويـركـو شخصي ، فطرحت على كل رجل بالغ مقدارا من المال ، بقدر يسره وعسره ، على ان لا تقل عن خمسـة عشر قرشا في السـنة الى مائتين .

● وفي سنة / ١٣٢٤ / هـ = ١٩٠٧ م مد الخط الحديدي بـين حلب وحماه ، واحتفلت الحكومة بذلك في محطة حلب في / ١٦ / شعبان من السـنة المذكورة ، وقـد ذهب هذا الخط من حماة الى حلب في البادية ولم يمر بالمعرة لاسباب كثيرة ، مـن اعظمهـا : جهل الحكومة بما هو اصلح لها وانفع لبلادها ، ومنها : ان الخط في هـذا الطريق يمر على قرية لاخي ابي الهدى الصيادي ، وقرى لبعض اعيان حمـاة والمعرة وحلب ، ولـو مر بالمعرة لابتعد عن تلك القرى ، وحـرم أصحابهـا الفائـدة التـي يتوقعونهـا من مروره ، مع أن الفرق بين الطريقين قليـل من حيث المسافة ، ولو مر بالمعرة لمر على قرى كثيرة ومزارع متعددة ، واحيا هذه المدينة وجعلها من امهات المدن الشـامية .

● وفي سنة / ١٣٢٦ / هـ = ١٩٠٨ م اعلن الدستور العثماني . وفي السـنة التالية خلع السلطان عبد الحميد الثاني ، وخلفه اخوه محمد رشاد . وابتهج النـاس وظنوا انهم خلصوا من جور عبد الحميد وعماله ولكنهم لم يلبثوا ان بكوا على عبدالحميد وايامه ، لانهم راوا في كل موظف اتحادي الف عبد الحميد . وقد أصاب المعرة نصيب وافر من عسـف الاتحاديين وافتنانهم في النهب والسلب باسم الحكومة أو بطريق آخر .

● وفي سنة / ١٣٢٩ / هـ اشتدت وطاة الثلج في المعرة وغيرها حتى وقف القطار عن السير بين حلب ودمشق ، وسدت الطرق بين البلاد ، وارتفعت اسعار الوقود من الحطب والفحم ومات كثيرون من المسـافرين في الطرق ، ودام ذلك اكثر من شهر .

● وفي / ١٠ / رمضـان سنة / ١٣٣٢ / هـ الموافق / ٢١ / تموز سنة / ١٩١٤ / ميلادية اعلنت في حلب وملحقاتها الحرب العامة ، واشتركت الحكومة العثمانية فيها ، فكان نصيب المعرة من سوق اهلها للجندية والاستيلاء على أرزاقهم وغلاتهـم باسـم

الاعاشة والاعانة المختلفة الالوان واصاب اهلها من الجوع والضغط والحميات ومـا شاكلها ما اصاب غيرها في ذلك العهد ، وقد بلغني ان كثيرا من الاسر الكريمة في المعرة لم تطل ايديهم الى خبز الشعير ، فكانوا يعيشون مما تنبته الارض من البقول والنبات في الربيع ، ويدخرون منه للشتاء ، وكثير من ذهب ضحية الفقر والجوع . وفي تلـك السنين نعم رجال الحكومة من عسكريين ومدنيين وأشياعهم واتباعهم ، ببؤس اهـل البلاد الذين ذهب شطر كبير منهم في ساحات الحرب ، وشطر آخـر ضحيـة الجوع والحميات والاوبئة والامراض الفتاكة .

وفي / ١٢ / رمضان أعلنت الادارة العرفية في حلب وملحقاتها ، وفي هذا الشهر بدات الحكومة بأخذ الاموال من التجار ، باسم التكاليف الحربية بالقيمة التي تقدرها لجنة تسمى لجنة المبايعة الفت لهذا الغرض ، فكانت تقدر قيمة البضاعة وتاخذهـا وتعطي صاحبها مضبطة بقيمتها ، على أن تدفع له بعد مدة غير معلومة ، وكانت الضباط تطوف على مخازن التجار وتكتب ما عند كل واحد من بضاعة او غلة لئلا يخفيهـا أو يبيعهـا .

وفي سنة / ١٣٣٣ / هـ وصل الورق النقدي العثماني المسمى بانق نوت ، ووضع موضع التداول بين الناس . بدلا من النقود المعدنية . فأقبل الناس على تداوله ، ثـم امتنعت ادارة حصر الدخان عن قبوله ، وكلفت الحكومة التجار ان تبدله بالذهب فادى ذلك الى هبوط قيمته . حتى بيعت الورقة في آخر الحرب بأقل من عشر قيمتها .

وفي سنة / ١٣٣٥ / قل المطر وخاف الناس من القحط والجدب ، ويئسوا من حياة الزرع فارتفعت اسعار القمح الى درجة غير متوقعة ، واعظم الاماكن التي كـان فيها المحل جهة الاحص وقضاء المعرة . وكانت أواخر هذه السنة وأوائل السنة التي تليها اشد ايام الحرب على الفقراء حتى انهم كانوا يقتاتون من الحشيش ، فيسلقونه وياكلونه كما كانوا ياكلون قشور الفواكه والبقول وكل ما تنبت الارض . وكان تجـار الحنطة والطحانون والخبازون ، يخلطون دقيق البر بدقيق الشعير والذرة البيضاء والترمس والنخالة والتراب والرماد وبزر المكانس وما امكن خلطه ، ويبيعون الخبز بأسعار باهظة وهو غير ناضج . وكان الجزارون يخلطون لحوم الحمير ونحوها بلحوم

الغنم والبقر . وكانت الازقة والمنازل تعج بالانين والبكاء من الجوع من الاطفال والكهول والشيوخ ، وكانت بعض الطرق تغص بالموتى من الجوع ، يجري هذا كله والتجار والمحتكرون يحملون قلوبا كالحجارة بل هي اشد قسوة ، فلا ترثي لشاك ، ولا ترق لباك ، ورجال الحكومة شركاء المحتكرين في القسوة وشركاؤهم ايضا في طلب السعادة من شقوة الناس ، والتماس الشبع من جوعهم ، فيتعامون عن هذه المشاهد المؤلمة ويتصامون عن سماع تلك الانات المحزنة .

● كانت المعرة في ذلك العهد التركي مركز قضاء ، فيه حاكم اداري يسمى : قائم مقام ، وقاض شرعي يشرف على اعمال المحكمة القانونية ، ثم جعل فيها حاكم مدني غير القاضي يحكم بالقانون المدني وتتألف المحكمة التي يراسها من عضوين ، وقد تغير شكل الحكام المدنيين والمحاكم المدنية اكثر من مرة. وكان الامر كله بيد الحاكم الاداري، فان كان حسن السيرة ، كان ضعيف الارادة ، واقي من المتغلبين من اهلها ضروبا من الكيد والمعاكسة ، ثم لا يزالون يشكوه امره ويفترون عليه لحكومة حلب التي لا تعدم انصارا لهم منها ينعمون بما يبذلونه اليهم من الاموال التي يبتزونها من الفقراء ، حتى يستبدلونه بغيره ، فان كان مثل الاول صار الى مثل ما صاراليه ، وان كان على غيرهذه الشاكلة وضع يده فيايديهم ووافق شن طبقة على السلب والنهب والعسف والتعذيب، لامتصاص دم الامة فيها ، وهي تستغيث بحكومة حلب وبحكومة الاستانة استنبول احيانا . فلا نجد سامعا ولا مجيبا ، ذلك لان هذا العامل من بطانة والي حلب ، او من خاصة وزير فيالاستانة ، أو خاصة موظف كبير فيحلب او الاستانة ، وكان اكثرالموظفين يحرش بين اعيان المدينة وكبرائها ، ويوقع بينهم البغضاء ، فيمالىء فريقا على آخر ، ليضعفه ويستنزف ماله ، ثم ينقلب على الاخر فلا تزال الفتن متقدة بين الاهلين ،ولكل فريق انصار في حكومة المعرة وحلب او الاستانة ، فيقدم لها بالجملة ما ينهبه من الناس بالمفرق . وكثير من هؤلاء الحكام من تولى هذا القضاء ، وهو صفر الوطاب ، فارغ الجراب ، فانقلب عنه بعد برهة ، وهو اغنى من كنز ، اخصب من روضة ، بعد أن يكون ادى ما فرض عليه لموليه ، وقدم من الهدايا والتقادم لارضائه ، ومن يخاف شرهم من أعوانهم ، ما يقيه شرهم ويضمن له رضاهم وحمايته ومناصرته .

وكذلك شأن القاضي وغيره من رجال الحكومة ، يأتي احدهم اشعث اغبر بالي

السربال ، فلا يلبث ان ينقلب على ارائك النعيم والترف من اموال الفقراء ، وينفق الاموال الجزيلة في سبيل شهواته وملاذه . وكثيرا ما قام هؤلاء العمال الاغنياء والاعيان، على اكل مال الضعيف ، واغتصاب ما يملكه من عقار او ارض . وقد رايت كثيرا من فقراء المعرة ورجال الطبقة الدنيا فيها تذرعوا بوسائل مختلفة ، حتى اصبحوا من اعوان الحكام ، فانتعشوا وارتاشوا ، واصبحوا في عداد الوجهاء والاغنياء ، ولكن الواحد منهم لا يصير غنيا حتى يفقر الوفا من اهل المدينة او الضاحية . وكان للحكام القسم الاوفى ، والقدح المعلى من هذا النهب . وعلى هذا النمط كانت تساس المعرة ، وتحت مثل هذه الاعباء كانت ترزح ، وكانت الحكومة ترهقها بالضرائب على فقراهلها.

● ولم تكن البلدة وضاحيتها متمتعة بالامن والطمانينة ، وانما كانت ايدي العتاة والبغاة والمتمردين تعبث بها ، وقلما مر اسبوع لم تقع فيه سرقات ، او قطع طريق ، أو نهب أو تعد على عقار أو شجر ، أو نحو ذلك ، وكان البدو يشن الغارة على نفسه ،وعلى أهل القرى التي تجاوره ، ويرعى زرعها ويفسد ضرعها . وكانت البداة تغير على المعرة نفسها ، فتخرج طائفة من مقاتلة أهلها ، فتصد غاراتهم عنها وتذود عن حياضها بسلاحها . وقد اخبرني والدي انه كان وهو صغير ، يرى من سطح داره اسنة الرماح تلمع في أيدي البدو المغيرين على المعرة من الجهة الشرقية ، وهذا لم أره في عهدنا ولكن البدو لم يفتروا من غزو القرى وقطع السابلة ، وقلما انقطعت الحرب بين الموالي والحديدية مدة طويلة ، وعلى هذا الاسلوب كانت تسير رجال السياسة في المعرة .

٣ ـ منطقة القلمون (شمالي دمشق)(٤٨) :

تميزت هذه المنطقة منذ القدم بانتشار الملكية الصغيرة والمشاعية في ربوعها ، وبانعدام العلاقات الاقطاعية . وقد تعاطى معظم سكان القلمون الفلاحة . اما بقية السكان فقد زاولوا المهن التالية :ـ

آ ـ فريق تعاطى (المكارة) على الجمال والبغال واحيانا الحمير . وكان (في سالف الزمن) الف وخمس مئة جمل عند اهالي النبك وحدهم فكانوا يستخدمونها للتجارة بمختلف الاصناف (ويكترون) عليها بين دمشق وحلب وحتىأورفه وديار بكر.

وهؤلاء اشبه بعمال المواصلات في الوقت الحالي . استفادوا من موقع القلمون المتوسط بين شمال سورية وجنوبها .

ب ــ فريق ثان قام بتربية المواشي (الغنم والماعز) .

جـ ــ فريق ثالث زاول عمل اليد بالطين والبناء . كان من الامور المالوفة هبوط أعداد لا باس بها الى دمشق سعيا وراء الرزق والعمل في البناء في المدينة . وقد كان عمال البناء هؤلاء يقيمون في المدينة أيام العمل ويرجعون الى بيوتهم في الريف عندما تقل الاشغال .

د ــ وفريق رابع قليل العدد احترف التجارة والحدادة او الصباغة ودباغة الجلود والندافة وامن بذلك المعطيات الضرورية للسكان .

قسم الفلاحون في القلمون الى ثلاثة شرائح : ــ

آ ــ فالفلاح من الشريحة الاولى هو الذي ملك ارضا تسقى بالماء وملك ما يكفيها من ماء البلد وارضا كثيرة في البرية لا تسقى بماء المطر . وهذه هي الاراضي البعلية وهي ملك مشاع بين عامة الاهالي .

ب ــ والفلاح من الشريحة المتوسطة هو الذي ملك مقدار نصف او ثلث ما يملك الفلاح القوي من سقي وقدر ما يملك ذلك من ارض بعل .

جـ ــ والفلاح من الشريحة الثالثة هو الذي لم يكن يملك من السقي الا القليل . وله من الكروم ما يقدر على اسقائه في الشتاء . اذ يصبح الماء مباحا للجميع .

بعد انتهاء عملية البذار في الخريف يصبح الفلاحون في الشتاء بلا شغل فيقضون اول النهار جالسين في (منازيل المشايخ) يشربون القهوة ويتحدثون عن مصالح البلد العامة والخاصة وعن المواسم والمزروعات وعن هموم دفع الاعشار والاموال الاميرية . ويصغون الى ما يقوله الشيخ ويلقيه على مسامعهم من تنبيهات وتهويلات وقصص سالفة .

تحدر المشايخ (هم غير رجال الدين) من فئة الفلاحين الاغنياء الذين دابوا على

التذمر والشكوى . فقال احد الفلاحين لاحدهم : (ياشيخ) ان الفلاح الذي يملك فدانا وواحدا من الحمير يفلح ويزرع عليه ، ويعد نفسه سلطان زمانه وسعيدا في حياته ، ويكفي بيته مؤنة وعيلته طعاما ولباسا . فانت يا شيخ تملك من / ٧٠ / الى / ٨٠ / فدانا تأخذ غلالها من (هالفلاحين) اي هؤلاء الفلاحين . فكيف لا تقوم هذه الغلال بأودك و أودعيلتك ؟ .. وعلام تتذمر ؟ ..

ولا شك أن عيشة الفلاحين الاغنياء هؤلاء لم تكن عيشة رخاء ونعيم بالمعنى المطلق للكلمة ولكنها مع ذلك عيشة حسنة بالنسبة الى عيشة الفلاحين الفقراء . والتذمر أمام الاخرين كان من باب عدم اثارة الفلاحين الفقراء وهو مرتبط بنفسية الفلاح المتحدر من هذه الفئة الاجتماعية .

لم تكن سلطة المشايخ تنبع فقط من غناهم النسبي ومقاسمتهم اتعاب الفلاحين المطيعين لهم ، بل أن هذه السلطة استمدت قوتها ايضا من تطبيق قانون التجند الاجباري في أواخر القرن التاسع عشر . بسبب ضعف أجهزة الدولة العثمانية كانت الحكومة مضطرة ايام القرعة العسكرية اي التجنيد للاعتماد على (المشايخ) اي (مخاتير) القرى والقصبات من اجل احصاء السكان نظرا لفقدان احصاء النفوس ، وهذا الامر وضع في يد المشايخ سلاحا رهيبا استخدموه لتحقيق عدة اغراض اولها الاثراء وآخرها تقوية نفوذهم المعنوي . وقد كان الحل والربط فيما يتعلق بتجنيد الرجال بيد المخاتير ، فيبعثون من يشاؤون من أولاد الفلاحين الى الجندية ويبقى من يرضون عنه عند أهله .

لقد كان للشيخ اليد الطولى في هذا الامر ، اذ كان موظفو دائرة التجنيد يأتون من دمشق فيحلون ضيوفا على المشايخ ، ويعقد رجال الحكومة اجتماعا عاما في دار الحكومة يحضره جميع مشايخ النبك والقرى التابعة لها ووجهائها ، ويقراون (الفرمان) اي الامر السلطاني العالي ، بأخذ العسكر في حفلة رسمية . ثم يقوم القاضي والمفتي بدعاء الى الله ليحفظ الدولة العلية ، ويمد عمر ذي الشوكة السلطان عبد الحمد ، ويختمونه بصراخ الحضور « بادشاهم جوق ياشا » اي فليحي سلطاننا كثيرا .

ثم يشرعون في انتخاب العسكر أو الجنود وتعيين المدعوين للتجنيد . فيرمون القرعة في دار الحكومة ، وتسحب الاوراق المصطلح عليها بحضور هيئة الحكومة ومشايخ البلاد ووجهائها فكان يأتي الشاب ويمد يده الى كيس ويسحب منه (ماسورة) ضمنها ورقة ملفوفة . فيأخذها منه احد صغار الضباط ويقرأ ما فيها ويعلن قائلا : (خالية) أو (عسكرية) فيرددها الحاجب الذي عند باب الغرفة ، فتصرخ والدة الشاب ، اما مزغردة او مولولة ، لان الجندي كان يبعث في ذلك الزمن الى بلاد بعيدة ، كبلاد اليمن او الرومالي او كريت او الجبل الاسود او بغداد او ارضروم أو غيرها من ساحات حروب الدولة العثمانية .

ولا حاجة الى القول أن ابناء الفلاحين الاغنياء ، والى حد ما المتوسطين ، كانوا يرشون المخاتير وموظفي دائرة التجنيد ويبقون طلقاء احرارا . اما ابناء الفلاحين الفقراء العاجزين عن دفع الرشوة فكانوا يذهبون الى الجيش للدفاع عن دولة اقطاعية تركية لا ناقة لهم فيها ولا جمل . وكان المثل السائد المعروف في قرية دير عطية في تلك الايام ان « العسكرية على بيت الجاحولي وبيت الشاغوري » . وهؤلاء من العوائل الفقيرة المعدمة ، التي كانت « القرعة تقع عليهم » دائما ولا يستطيعون التهرب منها بسبب فقرهم .

٤ ــ قضاء عكار (شمالي لبنان)(٤٩) :

وجد في قضاء عكار قبل الحرب العالمية الاولى حوالي اربعين ملاكا كبيرا اقطاعيا (متغلبا) تقاسموا حكم المنطقة . وكانت مراكز اقامتهم في قرى برقايل ، مجدلة، بينين ، ببري ، حوشيت عياد . واكثرهم ثراء سكن في برقايل ، وكانت ثروتهم المنقولة وغير المنقولة تقدر بمئتين وخمسين الف ليرة ، واقلهم غنى كان دخله السنوي من الفين الى ثلاثة آلاف ليرة .

كان لكبار ملاك الاراضي المتغلبين هؤلاء « رجال واعون مدججون بالسلاح الكامل » وكثيرا ما كانت المنازعات والاصطدامات تنشب بين الاقطاعيين من اجل السيطرة والنفوذ وامتلاك الاراضي . ولكن النزاع لم يجر بين الاقطاعيين فقط بل

ان اكثرهم ، بل جلهم كان يعتدي على الفلاحين وكانوا « يرتكبون انواع الظلم والجور » .

وقد كانت حالة الفلاحين الفقراء الخاضعين لسلطة الاقطاعيين سيئة للغاية. فهم يعملون طوال السنة لتذهب اتعابهم في نهاية العام الى خزائن الاقطاعيين السادرين في غيهم . وكان الاقطاعيون يتقاضون من الفلاحين الضرائب التالية :

أ ــ يأخذون ثلث المحصول لانهم « اصحاب » الاراضي المالكين لرقبتها .

ب ــ يأخذون عشر الباقي اي ضريبة العشر التي تبقى للاقطاعيين ولا تنال الدولة منها اي نصيب .

جـ ــ يتقاضون مبلغا معينا باسم « الدخانية » و « ثلث الضرائب » و « اجرة السكن » .

د ــ يقرضون المزارعين شيئا من الحب ويحسبون عليهم ثمن الشنبل بستماية غرش ، وفي أيام الموسم يتقاضون الحب فيشترونه من الفلاحين بسعر مئتي غرش للشنبل . وبهذا تبلغ ارباحهم ثلاثة اضعاف الدين .

٥ ــ قضاء تلكلخ : (حصن الاكراد) غربي حمص(٥٠) :

كانت عشيرة الدنادشة تمثل التسلط والسيطرة في فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى . وكان الاقطاعيون من الدنادشة « يغصبون اموال القرويين واملاكهم ويشددون الظلم عليهم ويضربونهم ويهينونهم ويسخرونهم باشغالهم قسرا بلا رحمة. وتميزت منازلهم بالفخامة والاثاث الثمين . وكانت نفقاتهم مثل اقطاعيي قضاء عكار كثيرة . لهذا فانهم ارهقوا الفلاحين بالاتاوات وامعنوا في استثمارهم ، وندر أن تجد فقيرا بين افراد هذه الاسرة وقد كانت مداخيلهم تتوزع على النحو الاتي :

ــ ليس بين افراد الاسرة من ينقص دخله السنوي عن مائة ليرة الا مائة شخص .

ــ /٥٠٠/ منهم لا يقل دخلهم عن /٥٠٠/ ليرة .

ــ واحد فقط مقدار دخله السنوي / ٥٠٠٠٠ / ليرة .

ـ نلاحظ من هذه الارقام ان الاسرة الاقطاعية في تلكلخ تقاسمت الثروة والاراضي فيما بينها في حدود معقولة . ولم تكن الثروة محتكرة بشدة الا في ايد قليلة ، على عكس المناطق الاخرى .

بالاضافة الى هذه الاسرة الاقطاعية وجدت اسرة اخرى هي « الزعبية وكانت مزواجة لدى اكثرهم ثلاث او اربع زوجات »ولا فرق بينهم وبين الدنادشة. فالجميع متفقون على اضطهاد القرويين وظلمهم » .

٦ ـ قضاء صافيتا (٥١) :

انقسم سكان القضاء (٣٠٠٠٠) نسمة حسب اوضاعهم الاجتماعية الى ثلاثة اقسام : ١ ـ الرؤساء ، ٢ ـ المشايخ ، ٣ ـ العوام .

١ ـ فئة الرؤساء : الذين تزعموا العشائر . وكان لكل عشيرة بيت انحصرت فيه الرئاسة وانتقلت الى الاولاد والاحفاد عن طريق الارث . وكان لهؤلاء الرؤساء سلطة عظيمة وسيطرة قوية . ومن اشهر الرئاسات : رئاسة « بني حامد » (١٠٠) نسمة على الحدادين (١٠٠٠٠) نسمة ورئاسة « بني جابر » (١٥٠) نسمة على الخياطين (١٠٠٠٠) نسمة وكانت نصف املاك القضاء في حوزة بني حامد وبني جابر . وقد تراوح دخل رؤساء الحدادين والخياطين من /١٠٠٠/ الى /١٥٠٠/ ليرة سنويا . اما دخل رؤساء العشائر الاخرى من المتاورة والنواطرة والرسالنة والشمسيين فكان لا يقل عن /٧٠٠/ الى /٨٠٠/ ليرة . وقد اطلق على رؤساء الحدادين والخياطين لقب « افندي » في حين اطلق على رؤساء العشائر الاخرى لقب « آغا » وكان المعروف عن هؤلاء الرؤساء تقربهم من مأموري الحكومة حتى يتمكنوا بواسطتهم من تثبيت سلطتهم بمؤازرة القوة العمومية اي سلطة الدولة .

٢ ـ فئة المشايخ : الذين اتوا في المرتبة الثانية وكانت لهم سلطة دينية يحاولون عن طريقها الحصول على كثير من الامتيازات وكان الرؤساء يجزلون العطاء للمشايخ من اجل كسب رضاهم وتكوين حلف معهم ضد الفئة الثالثة من العامة . وكان المشايخ يستثمرون العامة من الفلاحين عن طريق جباية الضرائب منهم والمعروفة

ب « الزكاة » .. ويظهر جليا ان حلف الرؤساء والمشايخ توجه ضد الفلاحين المستثمرين من قبل هاتين الفئتين ، اللتين عاشتا في رغد العيش على حساب الفلاحين .

٣ـ فئة العامة : التي انقسمت الى قسمين رئيسيين هما :

آ ـ الفلاحون وكونوا ثلثي العامة وانقسموا بدورهم الى فئتين :

١ ـ فلاحين مالكين لقطع صغيرة من الارض .

٢ ـ فلاحين محرومين من الارض ويعملون عند الرؤساء ويخضعون لاستثمار شنيع .

ومع الاسف نجهل حتى الان هل قام هؤلاء الفلاحون باي تمرد ضد «رؤسائهم»؟. ولكن المعتقد انهم كانوا مسحوقين ماديا ونفسيا تسيطر عليهم الاوهام والخرافات والقيم الاقطاعية والعشائرية . وكان خضوعهم الدنيوي لرئيس العشيرة وخضوعهم الديني للمشايخ عاملا اساسيا في ركودهم واستسلامهم .

ب ـ العاملون بالحرير وعددهم يقارب ثلث العامة .

يضاف الى هذين القسمين من العامة العائلات التي اشرابت باعناقها الى امريكا منبع رزقها . حيث كانت تاتيها الاعانات من الاقارب في المهجر . وكان دخل قضاء صافيتا من المهجر قبل الحرب العالمية الاولى حوالي /٢٥٠/ الف ليرة في السنة .

٧ ـ قضاء جبلة(٥٢) :

تالف قضاء جبلة من البلد والريف ، وبلغ عدد سكان بلدة جبلة قبل الحرب العالمية الاولى /٥٠٠٠/ نسمة وانقسم سكانها الى ثلاث فئات :

١ ـ الفئة الاولى تالفت من اسرتين بلغ عدد افرادهما /٢٠٠/ نسمة احتكر بعض افرادها تجارة القضاء . وقد ملكت الاسرة الاولى /٧٠٪/ من عموم اراضي القضاء الصالحة للزراعة من قرية « حماميم » الى قرية « حريصون » وقدرت ثروة بعض افرادها حوالي خمسين الف ليرة . اما الاسرة الثانية فملكت /١٠/ الى

١٥٪/ من اراضي القضاء وزادت ثروة بعض افرادها على / ١٠,٠٠٠ / ليرة .

٢ — الفئة الثانية وهم يدخلون في عداد الفلاحين الاغنياء والمتوسطين وبلغ عددهم من /٢٥٠/ الى /٣٠٠/ نسمة . وقد ملكت هذه الفئة / ١٠٪ / من الاراضي واشتغلت بزرع التبغ والتنباك والتجارة بهما .

٣ — الفئة الثالثة : كونت السواد الاعظم من سكان البلدة / ٤٥٠٠ / نسمة لا يملكون اية وسيلة انتاج . « يحصلون على عيشهم بكد يمينهم عن طريق الزراعة والحراثة ويسكنون في الحارات الوسخة الفقيرة » .

قدر مؤلفا كتاب « ولاية بيروت » الذي استقينا منه هذه المعلومات ان عدد سكان ريف جبلة بلغ / ٣٠,٠٠٠ / نسمة ، والاغلب انهم اكثر من ذلك . وانقسم الريف اجتماعيا كما في قضاء صافيتا الى ثلاث فئات :

١ — فئة المقدمين وهم كبار المسيطرين الاداريين . وللمقدم راتب تراوح بين / ١٥٠ / الى / ٢٠٠ / ليرة في السنة . وكان للمقدمين من السلطة ما يخولهم ان يضربوا افراد العشيرة ويهددوهم » .

٢ — فئة المشايخ : كان لكل عشيرة « مقدم او مقدمان وشيخ » وعلى الرغم من سلطة المقدمين فانهم يحترمون المشايخ.وان احترام المقدمين للمشايخ وتوقير المشايخ للمقدمين ومقاهرتهم لبعضهم تكون مقابلة . وما هي الا تواطؤ هؤلاء المتغلبين على العبث بحقوق الفلاحين واتفاقهم على غصبها من اربابها « وكان يخصص لكل شيخ من ضريبة الزكاة مبلغ سنوي قدره من /١٠٠/ الى /١٥٠/ ليرة . ومعنى ذلك ان وارد المقدمين السنوي اعلى بقليل من وارد المشايخ . ولكن كلا الطرفين اتفقا كما ذكر شاهد العيان على استثمار الفلاحين واخضاعهم دنيويا ودينيا لمشيئة الفئة العليا المستغلة .

٣ — الفلاحون وكانوا فقراء معدمين وقدر صاحبا كتاب « ولايةبيروت » أن عشرة

آلاف نسمة من هؤلاء الفلاحين لم يكن دخل الاسرة السنوي يزيد عن عشر ليرات ، وعشرين الف نسمة من الفلاحين لم يزد دخل الاسرة عن خمس ليرات .. ان هذا الفقر المدقع : الذي عاشه هؤلاء الفلاحون دفع ببعضهم « الى ارتكاب الشقاوة وقطع الطرق » حتى يسدوا رمقهم . كما جعلهم في الوقت نفسه فريسة سهلة في يد المقدمين ، الذين استخدموهم اداة ضغط وتهديد ضد الاخرين من منافسيهم .

٨ ــ اللاذقيــــة(٥٣) :

لم يختلف الوضع في ريف اللاذقية عنه في جبلة وصافيتا اذ ملكت بضع عائلات اقطاعيــة اراضي تراوحت قيمتها بين / ١٠٠٠ / و / ٢٠٠٠ / ليرة وبلغ دخل العائلة من / ٢٠٠ ــ ٥٠٠ / ليرة ، في حين عاشت جماهير الفلاحين في حالــة مــن البؤس والحرمان .

أما مدينة اللاذقية البالغ عدد سكانها آنذاك / ٢٥٠٠٠ / نسمــة فتالفت مـن « ثلاث طبقات » :

١ ــ الاغنياء وتعدادهم هم سبع اسر اي /٥٠٠/ الى /٦٠٠/نسمة وهم قسمان:

أ ــ التجار وخمنت اموالهم المنقولة وغير المنقولة بمقدار نصف مليون ليرة ومعنى ذلك ان الامكانية المادية لبورجوازية اللاذقية التجارية لم تكن ضعيفة بالنسبة لمقاييس ذلك العهد .

ب ــ « اصحاب الاراضي والاملاك » وتراوحت ثروة بعضهم بين عشـرة آلاف وخمسين الف ليرة . ودخلهم السنوي من / ١٠٠٠ / الى / ٤٠٠٠ / ليرة . اي ان هؤلاء الملاكين كانوا من اغنى كبار ملاك الاراضي في المنطقة . « وبما ان فلاحيهم مـن سكان الجبال ، فان سلوكهم تجاههـم كان حسنـا وعلـى غايـة مـن الانـس بعكس ماهي عليه طباع الاقطاعيين ، لان هؤلاء الاقطاعيين من اللاذقيـة ، لـم يكـن بامكانهم السيطرة الدينية على فلاحيهم من الريف الجبلـي ، ولـم يكـن بامكانهم استخدام المشايخ لاخضاع الفلاحين فكريا لمشيئتهم كما فعل الرؤساء في صافيتـا

والمقدمون في جبلة . ولهذا فان اقطاعيي اللاذقية بحثوا عن وسائل اخـرى من اجـل استثمار الفلاحين . ولا شك ان سلطات الدولة العثمانية الاقطاعية في اللاذقية كانت في طليعة وسائـل الضغط والارهـاب لابقـاء الفلاحـين مستثمريـن مضطهديـن لا يستطيعون التحرك .

٢ ـ الطبقة الوسطى : كانت مؤلفـة من /٥٠/ عائلة عـدد افرادها / ١٠٠٠ / نسمة وهذه الطبقة تالفت من الفلاحين الاغنياء او صغار الملاك ومن تجار المرتبـة الثانية وقد بلغت ثروة كل عائلة من / ٢٠٠٠ / الى / ٦٠٠٠ / ليرة ودخلها السنوي من / ٢٠٠ / الى / ٥٠٠ / ليرة .

٣ ـ العوام وتالفوا من النوتية وبائعي الخضرة وزراع البساتين والعمـال . وبلغ دخل احدهم من / ٢٠٠٠ / الى / ٣٠٠٠ / غرشا في السنة .

٩ ـ اللاذقية في ذكريات يوسف الحكيم(٥٤) :

يقسم يوسف الحكيم ـ وهو من مثقفي اللاذقيـة في الربـع الاول مـن القـرن العشرين ـ اهالي اللاذقية الى ثلاث فئات :

١ ـ الحكام ومعاونوهم القيمون على الدوائر الحكومية ورؤساء الدين والعلماء والقضاة والمحامون والاطباء وكبار الاثرياء ورجال الاقتصاد والوجهاء ، اما بأعمالهم او بانتمائهم الى اسرة عريقة عراقة جيل على الاقـل حسب تعبير الحكيم . والعراقة في راينا نابعة هنا من قدرة اجداد هؤلاء وآبائهم على سـرقة الاراضي وتسجيلهـا في اسمائهم او السطو على اموال الدولة وهي في الاصل مـن الضرائـب المجبـاة مـن الفلاحـين .

٢ ـ الطبقة الثانية من الذين لم يسعدهم حظ الانتماء الى اسرة عريقـة مـن الوجاهة والذين يتعاطون المهن اليدوية على اختلاف انواعها .

٣ ـ الطبقة الثالثة وتشمل العمال على الاطلاق والخدم ومن هم بوضعهم .

ويعلق يوسف الحكيم قائلا : والغريب في هذه الطبقة انها تقوم على عراقة الاسرة

والنفوذ والثروة قبل كل اعتبار قد يكون ارفع شانا ، الا وهو الخلق الحسن ، بما حواه من الصدق في القول والعمل والتقوى والصلاح في السيرة والسريرة . وقد توفرت هذه المزايا لدى كثيرين من متوسطي الحال والعمال والفقراء ، بينما لم تخل الطبقة الاولى من افراد اشتهروا بسوء السمعة وارتكاب المعاصي متأثرين بما ورثوه من بقايا الاقطاعيات كما يشاهد ذلك في كثير من المدن .

كانت ثروة اللاذقية في ذلك العهد (القرنين التاسع عشر ومستهل العشرين) قائمة على استثمار الاراضي واهم حاصلاتها الزيتون والتين والعنب والحبوب بمختلف انواعها وعلى زراعة التبغ في جبال اللاذقية وصناعة الزيت والصابون وحرير الشرانق . كما كانت التجارة قائمة على تصدير هذه المواد واستيراد السكر والارز والادوية وما تتطلبه حياة الحضارة من بضاعة واقمشة ومعدات المساكن .

انصرف كبار وجهاء اللاذقية من آل هارون وخزندار ومفتي وشواف وشريتح ورويحة وشاهين وصوفان وزيادة ودنورة وغيرهم الى الزراعة واستثمار اراضيهم الواسعة دون ان يفكروا في التجارة ، حين كان يتعاطاها على قدر محدود الكثيرون من اخوانهم . اما الذين جمعوا بين الزراعة والتجارة في ذلك العهد فهم : مخايل سعادة ، واخوه جبرائيل . فكانا في مقدمة رجال الاقتصاد ، وقد زادا في كروم الزيتون التي ورثاها عن والدهما الياس سعادة المعتبر بحق ، مجدد غرس الزيتون في اللاذقية ، بعد سابق عهده . وقد برز بعد ذلك ابناء جبرائيل سعادة الثلاثة ، وديع وادوار ورودلف واصبحوا في مقدمة اثرياء اللاذقية .

كما احرز الوجيهان ابراهيم واسحاق نصري المقام الاول في التجارة والثروة النقدية والعقارية . وبينما كان اولهما ابراهيم محور الحركة التجارية في اللاذقية ، انصرف اخوه اسحاق الى الاهتمام بالشؤون الوطنية والمالية ، فوفى الزعامة حقها واشغل مركزا سياسيا مرموقا في عهد الانتداب . (اي امسى من زلم الانتداب الفرنسي) .

ويلاحظ ان محمد علي بك شومان ، جمع بين السياسة والزراعة والتجارة ، وقد انتخب عضوا بمجلس الادارة وكان من كبار تجار التبغ « ابو ريحة » ويليه في

التجارة محمد حمادة . وقد اشترك كثيرون غيرهما في تجارة هذا الصنف ويعدون من الدرجة الثانية في الثروة . وكان الحاج مصطفى شريتح اكبر مزارع في ذلك العهد وكان الحاج قاسم الشواف ، من كبار الوجهاء الاثرياء ، واكبر مالك عقارات في البلدة، وهو والد محمد الشواف ، الذي انتخب في عهد الاستقلال السوري نائبا في المجلس النيابي فوزيرا للاشغال العامة .

ولم يكن في ملحقات اللاذقية من يتعاطى الاعمال الاقتصادية الكبرى ، بل كان معظم الوجهاء فيها اصحاب قرى واراض زراعية كآل علي اديب وغلايبني ونور الله في جبلة وآل عرنوق في المتن وآل تحوف والياس في بانياس .

ويلاحظ ان الاراضي السهلية في الساحل كانت ملكا لكبار الملاك في المدن في حين كان الفلاحون العاملون في الارض من سكان الجبال المشرفة على الساحل . وبما أن الفلاح مستثمر ويتوقع طرده بين آونة واخرى فانه لم يكن يعمل بجد ونشاط . اما الاراضي الجبلية فكانت عموما ملكيات صغيرة ومعظمها صخري ووعر .

وفي العهد العثماني كان اذى عمال الحكومة وملتزم ضريبة العشر يصب على العشيرة الضعيفة ، ولذلك كان الاتحاد وتضامن العشيرة واجراء التحالفات ضرورة تمليها الظروف . وقد استغل رؤساء العشائر هذه الظروف لفرض سيطرتهم وجمع الاموال . فكان للرئيس جعل معلوم عند زواج احد أفراد عشيرته . وبعض الرؤساء كانوا يأخذون مبلغا معينا على كل كيس من التبغ يبيعه الفلاح الى ادارة الحصر ، ويضاعف الجعل اذا كان التبغ الى المهربين ، ولرجال الدين أيضا عادة جمع الزكاة .

وكانت السلطات العثمانية قد منعت سكان الجبال من الوظائف الحكومية حتى الصغيرة منها . وكان الفلاح الجبلي عرضة للامتهان من رجال الحكم والزعماء من اهل المدن . وكثيرا ماباع فلاح الجبال نصف ماملكه من ارض بثمن زهيد او بلا ثمن لاهل مدن الساحل ليتمتع بحمايتهم من ظلم جار متنفذ او من قسوة جباة الضرائب ورجال الدرك . فكان فلاح الجبال محروما من العلم والحرية والكرامة . الا اذا شق عصا الطاعة وابتعد عن مطاردة رجال الحكومة ملتجئا الى اعالي الجبال .

روى يوسف الحكيم في مؤلفه « سوريا والعهد العثماني » الحادثة التالية التي وقعت في اللاذقية(٥٦) :

« حكي أن احد المتسلمين انذر من مرجعه بالعزل من منصبه اذا لم يستطع في مدة وجيزة قطع دابر الشقاوة في الجبل ، ولو بقطع راس الاشقياء ، فامر جنوده بمطاردتهم ، فعادوا اليه في اليوم التالي بعشرة رؤوس من ضحايا المعركة التي جرت بين الفريقين ، ولما عرض عليه الكتاب المنظم بشأنها لتوقيعه وارساله الى المرجع ، اشرف على تعداد الضحايا ، فوجدها تسعة . فأمر باكمال العدد على وجه السرعة ، فذهبت عصابة من الجند من لدنه ، وما لبثت أن عادت براس قروي مسكين كان آتيا الى البلدة بدجاجتين هدية لبيت المتسلم حسب العرف الذي لم يكن يجيز للقروي المجيء الى سيده خالي اليد . ولما تفرس الحاكم في الراس الجديد عرفه واسف عليه ، ثم امر باضافته الى الرؤوس التسعة .



حواشي الفصل الأول من الباب الثاني

(١) ـ الغزي ... ج / ٣ / ص / ٣٦٢ / .

(٢) ـ « حسر اللثام عن نكبات الشام » مؤلف مجهول ـ مصر / ١٨٩٥ / ص ٣٨ / .

(٣) ـ « تاريخ العرب » مجموعة من المؤرخين الالمان باشراف لوثر راتمن ـ ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ / .

(٤) ـ المصدر نفسه ص ٢٤٢ ـ رافق ... ص / ٤٠٧ / .

(٥) ـ برانت ـ ص / ٣٠٤ / .

(٦) ـ الفردة ضريبة رعي الرؤوس تتراوح بين /١٥/ قرشا و /١٠٠/ قرش حسب حال الرجل وثروته . ولما عاد العثمانيون في اعقاب المصريين وجدوا صعوبة في جباية الفردة ، التي ادت اساسا الى ثورة دمشق عام / ٨٣ /فابدلوها بضريبة اخرى . راجع « المحفوظات الملكية المصرية » بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي باشا نشر الدكتور اسد رستم المجلد الثالث / ١٨٣٥ ـ ١٨٣٩ / .

(٧) ـ يقول الغزي وقد استعفت الجندية شبان اهل حلب وملحقاتها . فلم يبق منهم سوى الكهول والعجزة ووقفت حركة الاشغال وعز القوت وتهتكت الحرائر في الحصول على ما يقيتهن . الغزي .. ج/٣/ ص / ٣٦٢ / .

(٨) ـ رافق .... ص / ٤٠٧ / .

(٩) ـ مشهد العيان ... ص / ١١١ / .

(١٠) ـ المصدر نفسه ص / ١١٣ / .

(١١) ـ المصدر نفسه ... ص / ١٢٥ / .

(١٢) ـ المصدر نفسه .. ص / ١١٢ / .

(١٣) ـ المصدر نفسه ... ص / ١١٥ / .

(١٤) ـ المصدر نفسه ... ص / ١١٨ / .

(١٥) ـ المصدر نفسه .

(١٦) ـ المصدر نفسه ص / ١١٩ / .

(١٧) ــ عاشور عبد الفتاح « المجتمع الشامي في العصر العثماني بين العصور الوسطى والحديثة » في المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام . دمشق ١٩٧٨ ، ص ٢٣٩ .

(١٨) ــ راجع راي المستشرق الالماني برانت ص / ٢٢٠ ــ ٢٣٢ / في الحملة المصرية .

(١٩) ــ في دمشق انشا المصريون ديوان مشورة اشترك في رئاسته اعضاء من مختلف الاديان راجع الامير حيدر الشهابي (الغرر الحسان في اخبار الزمان) ص / ٨٦٥ / .

(٢٠) ــ عوض عبد العزيز : « الادارة العثمانية في ولاية سورية » القاهرة / ١٩٦٩ / ص ٢٤ / نقلا عن أرشيف استنبول .

الحواشــي

(١) ــ الغزي ... جـ ٢ ص ٢٢٠ .

(٢) ــ المصدر نفسه .

(٣) ــ انظر النص الكامل لقانون الاراضي العثماني في : الدستور المجلد الاول ، ترجمــه عــن اللغة التركية الى اللغة العربية ، نوفل افندي نعمة نول . بيروت / ١٣٠١ / ص ١٤٠ ــ ١٦١ .

(٤) ــ لونسكي : « تاريخ الاقطار العربية الحديث » موسكو /١٩٧١/ ص /١٦٠/ .

(٥) ــ المر دعيبس « كتاب احكام الاراضي » القدس / ١٩٢٣ / ص ــ ٧٨ ــ .

(٦) ــ زكريا احمد وصفي :« الريف السوري ــ محافظة دمشق » دمشق /١٩٥٥/ جـ /١/ ص٢٤٥

وكلما اقتربنا من المدينة تقــل الملكيــة الكبيرة وتكثــر الملكيــة الصغيرة ، التــي تتجــاوز ثلث قــرى الغوطة . وهذا برهان على ان القرى البعيدة عن المدينة والقريبة من الباديــة كانت بحاجة الى حماية « ارباب الوجاهة » انظر : خير صفوح : « غوطة دمشق » دمشق /١٩٦٦/ ص ٢٢٩/... ولا شك ان انتشار الملكية الصغيرة حول المدينة له اسباب اخرى بالاضافة الى السبب الانف الذكر ...

(٧) ــ ز.ي هر شلاغ : « مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوســـط » بـــيروت /١٩٧٣/ ص /٤٣/ .

(٨) ــ الخوري فيليب : « طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشـــــق ١٨٦٠ ــ ١٩٠٨ » في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ص /٤٥٥/ .

(٩) ــ روبين ... ص /١٤٠/ وبرانت ... ص /٨٥/ .

(١٠) ــ كتب كرد علي : « ما من بيت من بيوت دمشق الكبيرة الا ويملك مساحات واسعة فــي الغوطة فان نصف الارض فيها بيد متوسطي الزراع والربع بيد صغارهم والربع الاخير يخص اربـــاب الوجاهة بدمشق » كرد علي : خطط الشام / جـ ٤ / . دمشق / ١٩٢٦ / ص / ٢٠٤ / .

(١١) ــ قسمت الاوقاف باعتبار الانتفاع بها الى :

= مسقفات وهي الاراضي المنشا عليها الابنية والمعدة للبناء .

= مستغلات وهي الاراضي التي يستفاد منها بالزراعة وغرس الاشجار .

وكانت « بعض الشخصيات الدينية المتنفذة ، تتوالى اراضي الاوقاف » و « كان شيئا مالوفا ان عددا كبيرا من العائلات الميسورة ورثت هذا الغنى « عن طريق توليها لاراضي الاوقاف » . الدوري عبد العزيز : « مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي » بيروت ١٩٦٩ / ص / ١٢٦ / .

(١٣) ـ احمد وصفي زكريا « عشائر الشام » دمشق / ١٩٤٥ / ص / ١١٦ / .

(١٤) ـ المصدر نفسه .

(١٥) ـ المصدر نفسه .

(١٦) ـ مجلة المشرق ببيروت العدد / ٧ / (١٩٣٢) ص / ٤٤٤ / ... عباس عبد الهادي :الاصلاح الزراعي في سورية ، دمشق / ١٩٦٢ / ص / ٤٦ / . ... مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد /٩/ (١٩٢٩) ص / ٨٥ / .

(١/١٦) ـ احمد وصفي زكريا « ذكرياتي عن وادي الفرات عام ١٩١٦ » دير الزور ١٩٦٨ ص /١٢/.

(١٧) ـ برك ف : « مشكلات الاقتصاد العالمي » دينة / ١٩١٩ / ص / ٢٢ / .

(١/١٧) ـ زكريا .. ص / ٢٥ / .

(١٨) ـ كرد علي .. ص / ١٠٦ / .

(١٩) ـ المصدر نفسه ص / ١٠٧ / .

(١/١٩) ـ الحكيم ... ص / ٨٠ / .

(٢٠) ـ كرد علي ص / ١٠٢ / .

(٢١) ـ المصدر نفسه .

(٢٢) ـ المصدر نفسه ص / ١٠٥ / .

(٢٣) ـ لوتسكي ... ص /١٦٠/ .

(٢٤) ـ روبين ... ص /٨٤/ .

(٢٥) ـ فرغت الارقام عن مجلة المجمع العلمي العربي المجلد /٢٩/ص/٨٠/ وما يليها .

(٢٦) ـ كرد علي محمد : خطط الشام /ج ٤ / دمشق /١٩٢٦/ص/٢٠٤/ .

(٢٧) ـ المصدر نفسه .

(٢٨) ـ عبد النور انطون : السكان وديمغرافية المدينة ، مدن بلاد الشام في العصر العثماني في : الفكر العربي تشرين الاول /١٩٨٢/ص/٢٦٥/ .

(٢٩) ـ المصدر نفسه /٢٧٠/ .

(٣٠) ــ المصدر نفسه /٢٨٥/ .

(٣١) ــ العودات .. ص /٢٥/ .

(٣٢) ــ عبد النور ... ص /٢٨٣/ .

(٣٣) ــ حميدة عبد الرحمن : محافظة حلب ص /١٤٠/ .

(٣٤) ــ احمد وصفي زكريا : جولة اثرية في بعض البلاد الشامية دمشق /١٩٣٤/ص/١٢٢/ .

(٣٥) ــ تلخيصا عن حميدة ... ص/١٤١/ .

(٣٦) ــ تلخيصا عن حميدة ...ص /١٤٣/ . وبولس مسعد دليل لبنان وسورية مصر /١٩١٢/ ص /١٧١/ .

(٣٧) ــ جولة اثرية ... ص /٦٤/ .

(٣٨) ــ تلخيصا عن حميدة ... ص /١٤٦/ ومسعد .

(٣٩) ــ برانب ... ص /١١٣/ .

(٣٠) ــ هيتروت فولت : الادارة المالية للمناطق المتاخمة للصحراء في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام . دمشق ١٩٧٨ . ص ١٢٥ .

(٣١) ــ مشارقة نهير . ص /٤/ .

(٣٢) ــ نقلا عن شطي .

(٣٣) ــ المصدر نفسه .

(٣٤) ــ الصفحات التاليــة مختصرة او منقولة عن احمــد وصفي زكريا عشائر الشام دمشق ــ /١٢٠٦٣/ ــ /١٩٤٥/ .

(٣٥) ــ شطي .. ص/٨/ .

(٣٦) ــ الغزي ... ص /٨٣/ .

(٣٧) ــ حميدة ... ص /١٤٩/ .

(٣٨) ــ نقلا عن كوتلوف ... ص /١٠٤/ .

(٣٩) ــ وصفي زكريا .. ص /١٢١/ .

(٤٠) ــ كوتلوف ... ص /٤٧/ .

(٤١) ــ زكريا ... ص /١٢١/ .

(٤٢) ــ ماريون فاروق سلكت وبيتر سلكت : (التحول في ملكية الارض والبنيــة الاجتماعية الريفيــة في وسط العراق وجنوبه) الجزائر /١٩٨٠/ص/٤/ .

(٤٣) ــ زكريا ... ص /١٦٥/ .

(٤٤) ـ مشارقة ... ص /٤١/ وما يليها وزكريا ...ص /٣٣٤/ ـ ٣٣٥/ .

(٤٥) ـ عياش عبد القادر : الاسرة في وادي الفرات دير الزور ص /٩/ .

(٤٦) ـ كوتلوف ... ص /٩٢/ .

(٤٧) ـ مشارقة ... ص /٦١/ وزكريا ص /٢٠٤/ .

(٤٨) ـ نقلا عن خنشت موسى امين غرائب الامس عجائب اليوم حريصا /١٩٣٦/ من صفحات متفرقة .

(٤٩) ـ نقلا عن رفيق بك محمد وبهجت بك محمد : ولاية بيروت ج /٢/ (١٣٣٦) .

(٥٠) ـ نقلا عن المصدر نفسه بتصرف زهيد ص / ٢٧٨ ـ ٢٨١ / .

(٥١) ـ نقلا عن المصدر نفسه بتصرف زهيد ص /٣٠٦ـ٣٠٨/ .

(٥٢) ـ نقلا عن المصدر نفسه بتصرف زهيد ص /٣٢٦ـ٤٠٧/ .

(٥٣) ـ نقلا عن المصدر نفسه بتصرف زهيد ص /٤١٨ـ٤٢٣/ .

(٥٤) ـ يوسف الحكيم : سورية والعهد العثماني بيروت /١٩٨٠/ .

(٥٥) ـ الفقرات الثلاث منقولة بتصرف عن : منير الشريف : العلويون من هم ؟ واين هم ؟ دمشق / ١٩٤٦ / ، ص ١٩ ـ ٦٥ ـ ٨٢ .

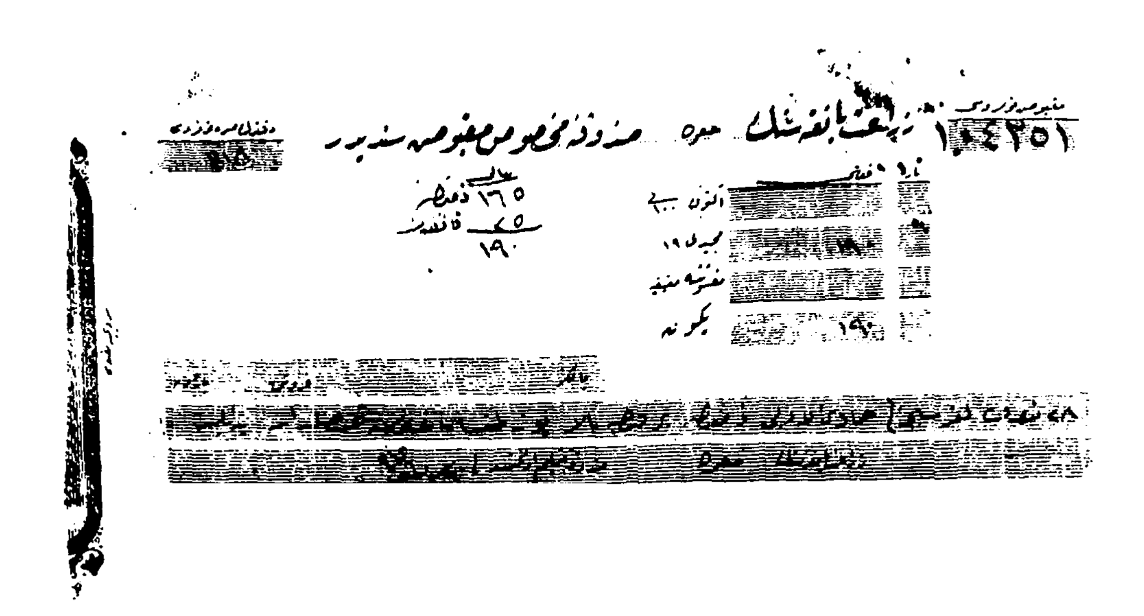
(٥٦) ـ نقلا عن العمران العدد /٢٥ـ٢٦/ خاص عن الساحل . بلا تاريخ ومكان الطبع ص /٤/ .

* * *

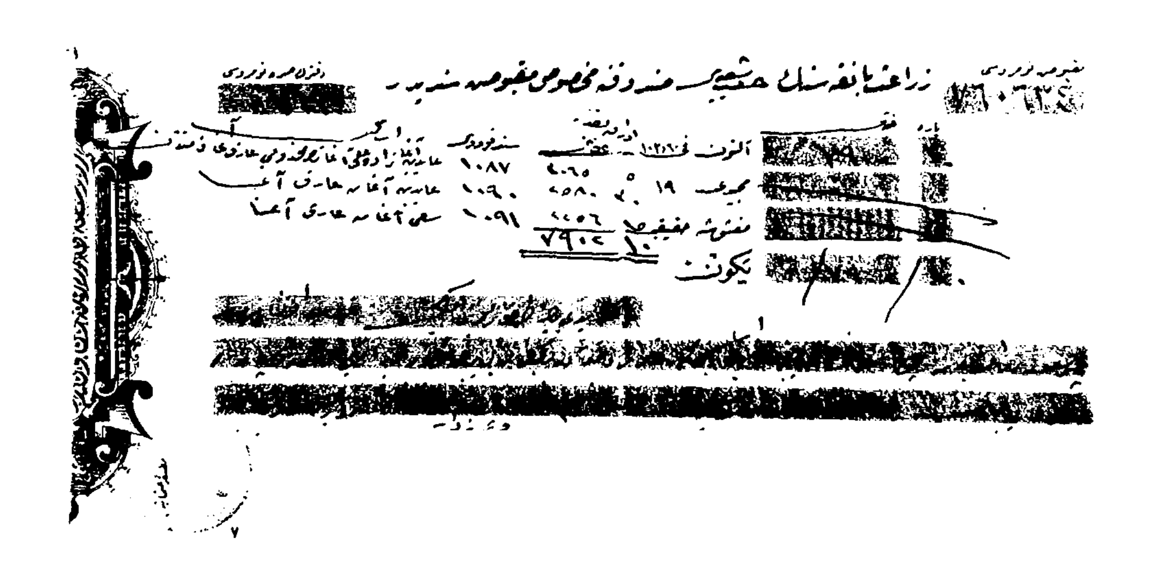
الباب الثالث

تخلخل البنية الاقتصادية الاجتماعية وقيام التحركات الاجتماعية وأثرها في الحركة القومية

- الاوضاع الاقتصادية في القرن التاسع عشر بين الرأسمالية الهامشية والعلاقات الاقطاعية .
- التحركات الاجتماعية في مدينتي حلب (١٨٥٠) ودمشق (١٨٦٠) وعلاقة المدينة بالريف
- الانتفاضات الفلاحية في القرن التاسع عشر .
- الحركة القومية والقضية الزراعية على أعتاب الحرب العالمية الاولى .
- قريتا شين وجبلايا في صراعهما ضد الاقطاعية العثمانية .



ـ سند زراعي صادر عن البنك الزراعي العثماني عام ١٩١٤



ـ سند صادر عن البنك الزراعي العثماني عام ١٨٩٧

الفصل الأول

الاوضاع الاقتصادية في القرن التاسع عشر بين الرأسمالية الهامشية والعلاقات الاقتصادية

١ ــ انتشار العلاقات السلعية النقدية وبداية ظهور السوق الراسمالية :

تقدم لنا سجلات المحاكم الشرعية في المدن السورية مصدرا هاما لسجلات البيع والايجار والخصومات والقروض والدعاوى وبعض صكوك حصر الارث . وتشير هذه الوثائق الى ان العملات العثمانية اخذت في الانتشار في القرن التاسع عشر بصورة ملحوظة . ففي الربع الثالث من القرن التاسع عشر كان ثمن العقارات يحدد بالقروش الفضية غالبا مع الغازي الذهبي وقليلا ما كانت تظهر الليرة المجيدية والبارة الفولاذية. وفي حوالي عام /١٨٧٠ بدأت تظهر الليرة العثمانية(٢١) .

اما العملات الاجنبية فبدأت بالظهور بشكل متناثر في سجلات المحاكم الشرعية منذ أوائل عام /١٨٦٠/ وكان أولها الليرة الفرنساوية (الليرة النابوليونية) . وفي عام /١٨٧٠/ كان ثلث أثمان البيوع في المحاكم الشرعية بدمشق مدونا أما بالليرة النابوليونية واما بالجنيه البريطاني وكان هذا اقل ورودا . أما في عام /١٨٨٠/فقد كان يذكر بجانب الثمن بالعملة الاجنبية ما يعادله بالقرش ودل القبول بالاساس الاوروبي للنقد في منتصف الستينات من القرن التاسع عشر على اعتراف رسمي بأهميتها. وهذا يدل على درجة تغلغل العملات الاجنبية في الحياة الاقتصادية في بلاد الشام(٢٢) .

وكما ذكرنا فالليرة النابوليونية ادرجت في بيوع الممتلكات المدينية والريفية ،وكان لهذا الامر دلالتان : الاولى اتساع عملية تبادل البضائع بالنقود في مختلف انواع القطاعات الاقتصادية والثانية ازدياد تاثير السوق الراسمالية الاوروبية على السوق الداخلية .

ونتيجة لذلك تطور في منتصف القرن التاسع عشر القطاع الزراعي في معظم مناطق بلادالشام بحكم دخولولايات الدولة العثمانيةفياطار السوقالراسماليةالعالمية. ومنذ الخمسينات أصبح الفائض الزراعي يصدر للاسواق الاوروبية والاقليمية (مصر، ما بين النهرين، الاناضول) وامست السهول الساحلية ومعظم الداخلية خاضعة للزراعة الدائمة ، حيث وجه الانتاج باتجاه حاجات الاسواق الخارجية .وكان لذلك آثاره المتعددة .

ويلاحظ ان الانتاج كان مرنا ومنوعا . وقد نجت بلاد الشام عموما من بروز زراعة احادية ، كما كان الامر بالنسبة الى القطن في مصر ، وهذا مما جنب بلاد الشام من الكوارث اذا ما اخذنا الظروف الطبيعية (وخاصة المناخية) بعين الاعتبار .

في خمسينات القرن التاسع عشر ارتفع انتاج الحبوب وازدهرت تجارته وفي ستينات ذلك القرن جرى الاهتمام بزراعة القطن . وبعد حرب القرم بدأ التصدير المنظم للبرتقال عن طريق ميناء يافا . وفي عام /١٨٧٣/ كان قد تم انشاء /٤٢٠/ بيارة برتقال في ضواحي يافا تعطي سنويا/٣ر٣٣/مليون برتقالة يستهلك سدسها فيفلسطين ويصدر الباقي الى مصر وآسيا الصغرى وفيما بعد الى اوروبا(٢٣) .

بسبب ازدهار تجارة الحبوب في الخمسينات من القرن التاسع عشر كتب في عام /١٨٥٦/ القنصل (فن) من فلسطين « لقد تدفقت القطع النقدية من الخارج للدفع . ويؤكد لي تاجر ايوني من حيفا ان مبلغا لا يقل عن نصف مليون جنيه استرليني مرت بين يديه في العام الماضي بين سفن ميناء حيفا وبدو حوران الذين لم يستوردوا من جانبهم اية بضاعة . ونفس الشيء صحيح عن فلاحي القرى ، فهم يصدرون الحبوب ويقبضون بنهم على القطعة النقدية المدفوعة ، ثم يدفنونها في الأرض . وغالبا مايموتون دون افشاء سرهم »(٢٤) .

وفي تقرير لفن في عام /١٨٥٨/ كتب مايلي(٢٥) : « انفتحت مؤخرا تجارة تصدير للحبوب من هذه البلاد الى اوروبا جمع الفلاحون منها ــ رغم الخسائر الناجمة عن ابتزاز شيوخهم لهم وابتزاز متعهدي الضرائب ــ ثروة لم يسبق لها مثيل ولكنهم يطمرون القطع النقدية في حفر ويشترون اسلحة ويزينون نساءهم . »

وخلال فترة ازدهار القطن التي لم تستمر طويلا في ستينات القرن التاسع عشر ، لاحظ القنصل (كيات) عام /١٨٦٤/ في يافا أن الفلاحين الذين انتفعوا منهـا اشتروا بضائع انكليزية وان نساءهم يتقلدن قطعا نقدية ذهبية وفضية .

والواقع ان الرخاء ، الذي تحدث عنه القناصل في فلسطين في الربع الثالث من القرن التاسع عشر لم يطرق ابواب المنتجين المباشرين ، اي الفلاحين ، الا بصورة خفيفة . والذي انتفع بالدرجة الاولى هم التجار والوسطاء وكبار ملاكي الاراضي وملتزمو الضرائب .

ولكن الربح الاكبر كان من نصيب خزانة الدولة ، وبالتالي ذهبت وتسربت الى جيوب الفئة الحاكمة في الولايات والعاصمة . ونرى ان الادارة المالية ـ بحجة الازمة المالية والنفقات العسكرية المتزايدة .. ابتدعت طرقا ووسائل جديدة لابتلاع الارباح بواسطة زيادات في الضرائب ورسوم خاصة ومناورات نقدية ومالية أخرى دون القيام بالمقابل بخدمات معادلة في مصلحة الاقتصاد عامة .

ـ ٢ ـ

برزت في سورية منذ نهاية القرن الثامن عشر وبخاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر سلسلة من العلاقات المعقدة ذات التأثير العميق في البنيان الاقتصادي الاجتماعي . وادت هـذه العلاقات الى اصطدامات داخلية في قلب المجتمع والى ازدياد حدة الصراع الطبقي . وقد خلقت هذه التغيرات الاقتصادية ـ الاجتماعية الاساس المادي لتشكل وانبعاث حركة التحرر الوطني والقومي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وقد تميزت التغيرات الاقتصادية بتطور العلاقات النقدية السلعية بالانحسار التدريجي للاقتصاد الطبيعي التقليدي ، وذلك بسبب قيام السوق الداخلية ، الذي أدى بدوره الى تقلص السوق القبلية والقروية لاسيما في المناطق الساحلية ، والى التخصص في زراعة اصناف معينة في مناطق مختلفة من البلاد من أجل تصديرها الى الخارج . وادى التخصص في زراعة أصناف معينة مطلوبة في السوق

الاوربية الى انتشار زراعة القطن في شمال سورية وجبال اللاذقية والى تربية دودة القز في جبال لبنان . وبدأ انحسار الاقتصاد الطبيعي أو العيني (بضاعة مقابل بضاعة) وانتشار الاقتصاد السلعي . القائم على تبادل البضائع بالنقود يمتد شيئا فشيئا من المناطق الساحلية والمراكز التجارية الى داخل البلاد ، وقد ساهم دخول الرأسمال الاجنبي وارتباط بلاد الشام (سورية ــ لبنان ــ فلسطين ــ شرق الاردن) بالسوق العالمية الراسمالية في الاسراع في عملية التطور هذه . واصبحت سورية في الزمن اللاحق احدى الدول المصدرة للمواد الخام للدول الراسمالية(٢٦) .

فتحت ضغط الراسمال الاجنبي أصبح انتاج المحاصيل الزراعية المعدة للسوق اكثر تخصصا . فالقطن والحبوب والصوف في سورية وفلسطين وخامات الحرير في لبنان احتلت مكانا بارزا في الانتاج الزراعي .

وكان لهذه التغيرات الاقتصادية نتائج اجتماعية عميقة خاصة في القطاع الزراعي حيث عاش من / ٦٠٪ ــ ٧٠٪ / من السكان(٢٧) ادت الى تفكك البنية الاجتماعية اكثر فأكثر ، والى تكون فئات اجتماعية جديدة ستبرز ملامحها الواضحة بعد الحرب العالمية الاولى. فالتجار والمرابون واصحاب الورشات الحرفية والمانيفاكتورات سيتحولون الى بورجوازيي ريف ومدينة . والعمال المياومون والاجراء الزراعيون وعمال المانيفاكتورات سيشكلون البروليتاريا . ولكن الانتشار الواسع للانتاج السلعي لم يكن مصحوبا بتطور الاقتصاد الراسمالي وزوال النظام الاقطاعي ، كما حدث مثلا في أوربا الغربية . فقد حافظت المؤسسات الاقطاعية على وجودها ولم تتلاش ، وكانت نتيجة ذلك ظهور سلسلة من الاصطدامات المعقدة في القطاع الزراعي واحتدام النضال بين الفئات الاجتماعية المختلفة من اجل امتلاك الارض ، وسيلة الانتاج الاساسي . وقد أدى الاستثمار الاقطاعي العثماني للفلاحين الى قيام عدة انتفاضات فلاحية عفوية وغير منظمة على الغالب . ومع ذلك فان هذه الانتفاضات اسهمت في اضعاف السيطرة العثمانية الاقطاعية على بلاد الشام العربية .

— ٣ —

لم يكن تطور العلاقات الاقتصادية الاجتماعية يجري بمعزل عن التطورات

العالميـــة واتساع نطاق السوق الراسمالية العالميـــة التي اسهمت في ادخال العلاقات السلعية النقدية. فقد هز الاقتصاد القائم على تبادل السلع بالنقود العلاقات الاقطاعية في الريف السوري . وتحول عدد من مالكي الاراضي الاقطاعيين الـــى مالـــك للارض يديرها باسلوب نصف اقطاعي . وبدانا نشاهد الى جانب اساليب الاستثمار الاقطاعي المعهودة سلسلة من الطرائق الراسمالية ونصف الراسمالية للاستثمار .

في منتصف القرن التاسع عشر اخذت تبعيـــة اقسام مختلفة من الريف ، لاسيما الساحل ، للسوق تزداد باستمرار . فبعد أن كان الفلاحون ، وفقا لاقـــوال فولنـــي عام /١٨٢٣/ يبيعون بضائعهم بأنفسهم في اسواق المدن الساحلية ، وكذلك الداخلية، اخذ الوضع في اواسط القرن التاسع عشر يتغير في عدد من المناطق ، واخـــذ يـــزداد دور الوسيط والتاجر كأداة وصل بين الفلاح والسوق . ولم يكن الامر الجديد هنـــا يتجلى في انقطاع الفلاح عن السوق بقدر ما كان يتجلى في تغير طابع الصفقات التجارية التي بدات تتشابك بقـــوة مع عمليات الربا . وكان يساعد على هـــذا حالـــة العـــوز وانعدام الحقوق التي كان يعيشها الفلاح من جراء الاستثمار الاقطاعي الفظيع . وقد كتب الروسي ل. م. بازيلي يقول : في فترة جبايـــة الضرائب من كـــل عام (اي في اصعب ظروف حياة الفلاح) كان يتوجه جيش من التجار الوسطاء الى الريف في سوريا ولبنان فيستغلون حاجة الفلاحين الى المال ويقدمون لهم قروضا مقابل رهن المحصول القادم بفائدة تتراوح بين / ٣ و ٥ / بالمئـــة في الشهر او انهم كانوا يشترون المحصول سلفا بثلثي السعر أو بنصفه .

ان تطور الاستغلال التجاري الربوي في الريف ، اضافة الى الاستغلال الاقطاعي (الحكومي العثماني والخاص) عرقل الى حد بعيـــد نمو العلاقات السلعية ـــ النقدية. وجاء سيل السلع الصناعية المتدفقة من اوروبا الراسمالية ليوجه ضربات اليمـــــة للحرفة والمانيفاكتورة ، التي تناقص عددها بشكل ملحوظ .

كما شمل الخراب قسما من كبار ملاكي الاراضي نتيجة انحلال وتزعزع العلاقات الاقطاعية في بعض المناطق . وظهرت في بعض المناطق ، كلبنان مثلا ، فئـــة جديـــدة ذات صـــفات نصـــف اقطاعية تحـــدرت من تجار المـــدن الذين استثمروا راسمالهم

في الريف ـ ولكن تحولا عميقا للملكية الاقطاعية الى ملكية راسمالية او بالاصح الى استثمار راسمالي للارض لم يتم الا بنسبة ضعيفة وعلى نطاق محدود ـ نتيجة لعوامل اقتصادية وسياسية كثيرة . وهكذا فقد بقي نظام المحاصصة احد الاشكال الرئيسية السائدة في الاقتصاد الزراعي .

وفي الحقيقة فان استثمارا راسماليا للارض مثل الذي حدث بعد عام /١٩٤٥/ لم يوجد في مطلع القرن العشرين الا على نطاق ضيق جدا في المناطق الساحلية وحول المدن التجارية وعلى امتداد الخطوط الحديدية .

وادت التغيرات الاقتصادية الاجتماعية الى تناقضات معقدة داخل الطبقة الاقطاعية ولاسيما قسم من الاقطاعيين المحليين من جهة والسلطة المركزية وجهازها الاداري في الولايات من جهة ثانية ، وادى هذا الى تشكل تجمعات سياسية داخل الطبقة الاقطاعية وبرز من ضمن هذه التجمعات السياسية قسم من القوى الاقطاعية التي وجدت نفسها مسوقة بدافع مصالحها وتناقضاتها مع الجهاز التركي الحاكم ، الى المشاركة بهذا الشكل أو ذاك وبحماس قل أو كثر ، في النضال التحرري الوطني والقومي للشعب العربي في بلاد الشام هذه الفئة هي ما يطلق عليها عادة فئة الاقطاعيين الليبراليين ، الذين وقفوا ضد الحكم التركي ودعموا الحركة الوطنية والقومية بدرجات مختلفة ، مع العلم ان القسم الاكبر من الاقطاعية وقف الى جانب الحكم التركي الاقطاعي .

كان لانتشار الاقتصاد القائم على تبادل السلع بالنقود والتنافس بين الفئات الاقطاعية المستثمرة من تركية ومحلية اثره السيء على الفلاحين . كما اخذ النظام القديم للملكية المشتركة للارض في الزوال تدريجيا . مما ادى الى تغير طابع الاستثمار والى ازدياد الوضع الاجتماعي للفلاحين سوءا .

وقد ارتبط انتشار الاقتصاد القائم على تبادل السلع بالنقود في القطاع الزراعي بازدهار الاستثمار القائم على اساس التجارة والربا . وقامت البرجوازية التجارية التي كانت تصدر الى البلدان الراسمالية المواد الخام الزراعية باستثمار الفلاحين بشكل شنيع وباسلوب لا انساني وفي كثير من الحالات لم يكن الملاك الكبير مالكا للارض

فحسب، بل كان ايضا مرابيا ووسيطا لنقل البضائع . وقام بعض الاقطاعيين بتحويل جزء من راسمالهم من الزراعة الى استثمارات البناء والتجارة . وادت هذه العملية الى تشابك الفئة التجارية في المدينة بالطبقة الاقطاعية والى تداخل مصالحهم الطبقية في استثمار ونهب الفلاحين . كما انتقل قسم من الاقطاعيين ولو على نطاق محـدود الى تاجر دون أن يفقـد صفته الاقطاعية الاساسية ، وتحول قسم من التجار الـى ملاك للارض دون أن يتركوا نشاطهم التجاري . ونشأت مع الزمن ولاسيما بعد الحرب الاولى طبقة اقطاعيـة تجاريـة كانت صلة الوصل بين البرجوازيـة والاقطاعيـة . وقد لعبت هذه الفئة دورا هاما في توجيـه سياسة الكتلة الوطنية ايام الانتـداب . اما في فترة ما قبل الحرب الاولى فان هذه الفئة الاقطاعيـة البرجوازية كانت لاتزال في دور التكون .

وهكذا فقد ادى تداخل الاستثمار الاقطاعي للفلاحين مع استثمارهـم بالطـرق الراسمالية الى ازدياد حدة استثمارهم واستعبادهم الشخصي مـن قبل الطبقات المالكة للارض والمال . وبسبب حاجة كبار الاقطاعيين الى المال من أجل سد حاجاتهم الطفيلية والكماليةلاسيما بعد غزو السوق الراسمالية للشرق بشكل عنيف، ومن أجل سـد نفقات انغماسهم في اللهو والترف أكثر فأكثر لمجـاراة « المدنيـة البرجوازيـة الغربيـة » ازداد استثمار الفلاحين حدة وازدادت في الوقت نفسه عنجهية الاقطاعي واصبحت لسعات سوطه تتناغم مع ازدياد نهمه الى المال الضروري لسـد النفقـات المتزايـدة .

ويجب في هذا المجال عدم اغفال دور الراسمالي الاجنبي الذي كان يسعى اكثـر فأكثر لربط القطاع الزراعي بالسوق العالميـة متجاهلا مصلحة الفلاحين . ممـا أدى الى خراب قسم من الفلاحين وفقدانهم للارض التي عملوا عليها . كما اسهم الراسمال الاجنبيبشكل غـير مباشر في استثمار الفلاحين وهم اكثرية الشعـب عـن طريـق توظيف رؤوس الاموال الاجنبية وجني الارباح الهائلة من عرق الشعب ودمه .

ونترك المعاصر للاحداث وابن اللاذقية يوسف الحكيم يروي لنا ما حل باللاذقيـة من جراء زراعة التبغ في مستهل القرن العشرين كتب الحكيم(٢٩) :

قبل حصر الدولة العثمانية التبغ والتنباك ، كان تجار اللاذقيــة ، حتى اواخر القرن التاسع عشر ، يصدرون التبغ الى القطر المصري ، وكان اهم هؤلاء التجار من آل فتالي وحبيشي . وبعد تأسيس ادارة الحصر واحتكارها التبغ المعروف بشك البنت، المخصص للاستهلاك الداخلي بعد مزجــه بتبــغ صمسون والرومالي ، ترك للتجار حرية تصدير التبغ المسمى ابو ريحه لاكتسابه الرائحــة الزكيــة من الدخان المتصاعد من حرق اغصان اشجار العزر الكثيرة في جبال قضاءي صهيون وجبلــه . فكان هذا الحاصل من التبغ يصدر بعد ترتيبه في طروده الى انكلترا حيث يمــزج في المصانع بتبغ الفليون بنسبة لاتتجاوز العشرة بالمئة . وكان اهم تجار هــذا النوع من التبغ هم سعادة ونصري وشومان ، ثم التحق بهم حمادة ، فظلوا يجنون من تجارتهم هذه ارباحا معتدلة تضمن نشاطهم وتمويلهم زرع هذا الصنف بأيــدي اهــل القرى الجبلية والسماسرة ، وجلهم من قضاء صهيون ، حتى فوجئوا سنة / ١٩٠٢ / بانباء وردتهم من عملائهم البريطانيين بارتفاع اسعار الكميات الموجودة في المستودعات ارتفاعا لم يسبق له مثيل . فبلغت ارباحهم في تلك السنة عشرة اضعاف المعتاد في السنين السابقــة ، مما زاد في نشاطهم ودفع بهم الى الاكثار من السلف الى كبــار المزارعين الجبليين والسماسرة لضمان وفرة الموسم المقبل .

تنبه الى هذا النشاط صغار التجار والمتمولين ، فأخذوا بدورهم يقدمون معظم مالديهم من اموال سلفا للمزارعين والسماسرة اقتداء بكبار التجار ، مما دعا هؤلاء الى جمع الكلمة وتأسيس نظام السنديكا (النقابــة) بين جميع الراغبين في تجارة التبغ ، حذرا من التفرقة التي تؤدي الى التزاحم فسقوط الاسعار في الاسواق المرسلة اليها ، اي في انكلترا دون سواها .

وبفضل كثرة عرض السلف وتكاثر عدد تجار هذا النوع من التبغ وزيادة زراعته، ظهرت بوادر الرخاء وسعة العيش بين الزعماء والزراع والسماسرة ، وكلهم من القرى الجبلية . فأخذوا يفدون الى المدينة ويرتادون فنادقها ومقاهيها وملاهيها ويبذلون المال بسخــاء ويقتنون احسن انــواع الاثاث لتجهيز منازلهم في الجبــل . ولم يكتف كبراؤهم بمصنوعات اللاذقية فأوصوا على افضل منها من موجود مصانــع بيروت ،

فدلت تصرفاتهم على استعدادهم لتقبـل الحضارة الحديثـة ودفع مستوى المعيشة عند سنوح الفرصة .

ولما حان موسم قطف التبغ وتدخينه وترتيبه ، تعاظمت الامال بنجاحه على غرار الموسم السابق وتم تصديره كالمعتاد الى انكلترا وبدأ الانتظار وطال ارتقاب النتيجة المتفاة ، وبدت الحاجة الى المال للتسليف على الموسم المقبـل ، حتى فوجىء اركان السنديكا بنبأ سقوط الاسعار في انكلترا سقوطا مريعا نظرا الى زيادة التبغ الوارد على حاجة المعامل والاستهلاك زيادة كبرى كان نصيبها الكساد في المستودعات . فدب الذعر في نفوس صغار التجار وضعف الاعتبار المالي وبرزت حاجة المزارع لتأمين معيشته ، ولم ينج من هذه الكارثة سوى قلة من التجار لم يدخلوا السنديكا واسرعوا في تصدير بضاعتهم وتصريفها بأسعار جيدة .

اما الباقون من تجار وزراع ، فدب اليأس الى قلوبهم مدهوشين من هذا الانقلاب السريع بين الارتفاع البارز في اسعار الموسم السابق والكساد المريع في موسم السنة التي عقبته فسموها السنة المجنونة .

كانت الشركة البريطانية « تروست امبريال » اكبر عميل بين عملاء تجار التبغ ، تملك اعظم معامل التبغ على اختلاف انواعه في انكلترا . فلما رات المكاسب التي يجنيها هؤلاء التجار بواسطتها ، نزلت الى ميدان مزاحمتهم ، ففتحت مكتبا لها في اللاذقية لتسليف المزارعين وشراء حاصلاتهم من التبغ .

وفي بيروت ظهر مشروع استثمار اراضي الحولـة من قبل شركـة بيهم وسلام وسرسق الذي لقي في البدء معارضة في العاصمة لاسباب اقتصادية وسياسية ... ثم ضمن والي بيروت لاصحاب الشركة المراكز الحكومية الهامة التي تساعـد على نجاح المشـروع(٣٠) .

وفي اراضي الحولـة وبيسـان شمالي فلسطـين نشطت الشركات الراسماليـة والصهيونية من اجل الاستيلاء على الارض وتهجير فلاحيها وهذا ماسنراه في فصل لاحق .

٢ ـ الضرائب الزراعية :

كان نظام الضرائب في الدولة العثمانية ـ كما هو في كل زمان ومكان ـ يتوافق مـع طابع الاقتصاد الاقطاعي ، الذي هزتـه العلاقات السلعية ـ النقدية ، ونشوء عناصر الراسمالية في الزراعة والصناعة . اتصف النظام الضريبي العثماني ، انطلاقا من اسلوب الانتاج السائد بانعـدام وحـدة النظام الضرائبي ، وبسيـادة الاشكال والاساليب التقليدية في جباية الاتاوات ، وبتغلب الرسوم المباشرة وعلى راسها ضريبة الارض المزروعة (وبتعبير ادق ضريبة الاشجار المثمرة والارض المزروعة) التي تراوحت بين ربع ونصف المحصول، وبالتعسف في تحديد حجم الضرائب . وكانت الصفة التي تميز نظام الضرائب هذا هي عدم التساوي الطبقي في دفع الرسوم (٣١) فالشيـوخ والامـراء وموظفو الدولة الكبار هم اشخاص ذوو امتيازات . معفون من الضرائب(٣٢) .

كما منح قسم من الاقطاعيين حق الحصانة الضرائبية (٣٣) . ورجال الدين كانوا ايضا معفين من الضريبة والسخرة الحكومية وعدد من الرسوم(٣٤) . وعندما كان يتعاظم نفوذ اصحاب الاملاك كانوا يسعون لتقليص الضرائب علـى مقاطعاتهم علـى حساب جباياتها من مناطق آخرى . اما في داخل المقاطعات فقد كان اصحابها يحاولون توزيع الضرائب بحيث يقع العبء الاكبر على الفلاحين والملاكين الصغار (٣٤ / ١) .

وكان من المحتم أن يقوي هذا من استياء الفلاحين ويدفعهم للتمـرد في الاماكـن التي تسمح ظروفها بالثورة ، ولاسيما في الجبال .

كانت ضريبة الاعشار (٣٥) من اشـد الضرائب التي اثقلت كاهـل الفلاحـين واستوفيت هذه الضريبة عينا او عن طريق التلزيم . وقد فكرت الحكومة العثمانية مرارا في تبديل اسس هذه الضريبة بهدف زيادة واردات الدولة . وصدرت الارادة الملكية سنة / ١٦٩٥ / بجعل الالتزام دائميا ثم الغي التلزيم واستبدل بضريبة مقطوعة بنسبة متوسط المحصول خلال الثلاث سنين أو الخمس سنين الاخيرة . وبما ان هذا الاسلوب لم يؤد الى زيادة واردات الخزينة العثمانية فقد عادت الحكومة الى اسلوب التلزيم . وكان الملتزم اشد وطأة من رجـال الحكومة في جمع مقدار التلزيم البالـغ

/ ۱۲٫٦۳٪ / من المحصول . لان هدفه تجسد في الحصول على اكبر كمية ممكنة من الربح وتعويض ماانفق للرشاوي وغيرها حتى حصل على الالتزام . وقد ادت طريقة التلزيم الى ظهور طبقة جديدة من صفوف الاقطاعيين واحيانا الفلاحين الاغنياء كانت تعيش في نعيم نظام الالتزام وما تجنيه من ارباح .

لقد كانت ضريبة الاعشار على الحاصلات اشد الضرائب وطاة على الفلاح . فكثيرا ما زاد المال المجبى من الفلاح ضعفي ما يجب عليه اداؤه او اكثر وذلك عـدا ما يضاف الى الاعشار من الزوائد للسماسرة والملتزمين وارباب النفوذ . ووقع في كثيرمن الارجاء ان قطع الفلاحون اشجارهم تخلصا من العشر لان الدولـة كانت تتقاضى (تجبي) الاعشار عن الارض سواء اثمرت ام لم تثمر (٣٦) .

ومع ذكر ضريبة الاعشار (٣٧) لابد من الاشارة الى (الخراج) الذي الغي في /٧/ آيار ١٨٥٥ و (الخراج) هو مقدار من المال او الحاصلات فرض علـى الارض التي فتحها المسلمون عنوة او صلحا وبقيت في يد اهلها . وهذه الاراضي كانت تبقى ملكا لهم يتوارثونها وليس لاحد ان يأخذها منهم . ويبقى الخراج متوجبا على هذه الارض حتى ولو اسلم اهلها (٣٨) .

ولكن التاريخ يعرف احداثا كثيرة حاول فيها الفلاحون دافعو الخراج أن يحولوا ارضهم من ارض خراجية الى ارض عشرية تدفع العشر وهو اخف وطأة من الخراج . وشهد التاريخ العربي الاسلامي صراعا حادا بين الدولة وفلاحي الخراج ،الذين اسلموا وطالبوا بدفع العشر .

وعندما قـام الباب العالي بالغاء الخراج سنة / ١٨٥٥ / وتحويـل الاراضـي الخراجية الى اراض عشرية ، تنازلا امام الدول الغربية وتوسيعا للخدمة العسكرية لكي تشمل المسيحيين ، استاء المحافظون مـن رجال الدين مـن السماح (للكفار) بالالتحاق في الجيش وبحمل السلاح على ان هؤلاء (الكفار) امتنعوا انفسهم عن الخدمة في الجيش التركي . واعفى الباب العالي في اخر المطاف المسيحيـين من الخدمـة في الجيش ، واستبدلها بضريبة خاصة عرفت بـ (البدل العسكري) الذي لم يكن في جوهره الا خراجا ولكن تحت اسم اخر (٣٩) .

كان من اثار الغاء الخراج ان الارض الزراعية اصبحت بمجموعها تدفع العشر ، الذي جبي عن طريق الالتزام ومع ان الالتزام الغي بموجب قانون / ١٨٣٩ / واستبدل بمبدأ تولي الموظفين للجباية مباشرة ، الا ان الصعوبات العملية والمالية ادت الى اعادته سنة ١٨٤٢ (٤٠) .

فضريبة الاعشار . كما نرى ، هي من اقدم الضرائب الزراعية ، وكانت تستوفى في الاصل عن الاراضي العشرية فقط بنسبة / ١٠٪ / من المحصول الزراعي و /٢٠٪/ من المحصول الطبيعي . ثم شملت الاراضي الخراجية ابتداء من الجيل التاسع عشر (١٨٥٥) م واصبحت نسبتها / ١٣ و ١٢٪ / وزعت كمايلي (٤١) .

/ ٥ر١٠٪ / الضريبة الاهلية وتعود لصندوق المالية اوللديون العمومية في بعض المناطق التي تذهب الى جيوب الراسماليين الاجانب الذين اسهموا ايضاً في استثمار الفلاح بهذا الشكل المباشر .

/ ٥ر١٪ / لصندوق المنافع يقوم المصرف الزراعي بجبايتها فيحتفظ بالواحد ويدفع النصف لوزارة المعارف . فاذا علمنا ان المصرف الزراعي لم يكن يمنح القروض الا لاصحاب الاملاك تبين لنا شكل آخر من الاستثمار الاقطاعي للفلاحين يقوم بشكل غير مباشر عن طريق الدولة .

/ ٦٣٪ / للتجهيزات العسكرية اي لاجهزة القمع أداة الاقطاعية والاستعمار .

قدم لنا يوسف موسى خنشت صورة حية عن كيفية جمع الملتزم لضريبة الاعشار في منطقة القلمون شمال دمشق ، ننقلها كما رواها (٤٢) .

بعد ان ينتهي الفلاح من اعمال التذرية التي تلي (الدراس) ويصبح الحب خاليا من النفايات ، يأ تي ملتزم العشر او احد مستخدميه وبيده (الرشيم) وهو قطعة من الخشب حفرت عليها كلمة (يا كريم) أو (يا حافظ) أو (بركة) أو اسم الملتزم .. فاذا القاها على القمح ظهرت الكلمة المذكورة مقروءة جليا في القمح والقصد من ذلك ضبط الحنطة ومنع الفلاح من سرقة شيء منها قبل ان يأخذ الملتزم حصته العشرية ، وكانت / ٥٠ر١٢٪ / (الاصح ٦٣ر١٢٪) وبعد مدة قد تطول عدة ايام يرجع الملتزم

ومعه الكيال الذي يكيل القمح . وعندما ينتهي الكيل او القسمة ياخذ الملتزم مايحق له ويلتفت الى كومة القصل ويمد يده الى قلبها ويحركها ويقبض منها شيئا وينظر اليــه فيرى مايتخلله من حبوب الحنطة فيطلب حقه منها .

وبعد أن يتفقوا على شيء فيعطونه اكثر مما يستحق تجنبا لشــره ولا سيما اذا كان الملتزم احد المشايخ او الوجهاء . وبعد ذلك يمكن للفلاح أن ينقل غلاله الى بيته .

وفي هذه الاثناء أو بعدها يأتي (ناطور) البيادر والناطور العمومي اي الذي يحرس البعل والسقي والبساتين والمزروعات ويأتي الحواط والشاوي . اي ناطور المـاء والمنادي الذي يذيع ما يتفق عليه المشايخ في شؤون البلد الخاصة والعامة مثل (ادفعوا مال ميري) أو (لا احد يروح مشرق يافلاحين) خوفا من غزوات العربان . فهـؤلاء ياخذون اجرتهم السنوية بنسبة ما للفلاح من ساعات الماء أو الفدان .

ثم يأتي اللحام والحداد والنجار والبيطار والسكاف يأخذون حقهم مـن الحنطة حسب الاتفاق المسبق . ثم الحلاق والحمامي يأخذان حقهما بحسب (الرؤوس) .

ثم يأتي بعدهم رجال من قبل الشيخ أي المختار الذي ينتمي الفلاح اليه فيأخذ من البيدر مايفرض على كل فلاح مثله ، بنسبة ماله من الأراضي وهي حصة الشيخ من (المشيخة) أي مرتبــة السنوي . وكذلك يأخذ من الشعير لعلف خيل ضيوف البلــد ..

واخيرا يتوارد فقراء البلدة والشحاذون من الاعراب والنور وغيرهم من الغربــاء فيأخــذون (نصيبهــم) .

ولنترك يوسف الحكيم قاضي التحقيق في اللاذقية (١٩١٢ـ١٩١٤) يروي كيف كان يكره الفلاحون على التزام العشر وماذا يحل بهم ، كتب الحكيم : (١/٤٢) .

كان استيفاء عشر الحاصلات الزراعية في ذلك العهد قائما على أساس وضع عشر كل قرية بالمزاودة العلنية في موعد الحصاد . فاذا لم يتقدم راغب فيه ، بسبب الجدب وغيره ، التزمــه اهل القرية بالبدل المخمن في السنــة السابقــة على وجه التكافل والتضامــن .

وذات يوم تقدم الي بعض القرويين بعريضة تتضمن أن ذويهم وعددهم ثلاثــون ، ملقون في السجن منذ ايام لا كراههم على التزام عشر القرية ببدلها السابق ، مــع أن الموسم السابق كان خصبا ، التزم عشره اصحاب الثروة والنفوذ من مــلاك القــرى الاقطاعيين ، فجنوا من التزامهم ارباحا طائلة . فلا يجوز في سنة الجدب والقحط أن يتحمل فقراء الفلاحين الغرم ، بعد أن فاز الاغنياء وحدهم بالغنم .

ولدى سؤال قيادة الدرك عن أمر هؤلاء القرويين المعتقلين ، أجابت أن احضارهم من قريتهم واحتجازهم في دار الحكومة ، تحت نظارة الضابطة ، قد جرى بمــوجب أمر شفهي اصــدره المتصرف ، بناء على طلب المحاسب (رئيس الماليــة في اللواء) فرفعت العريضة الى المتصرف استوضحه جلية الامر ، فأجابني : أن القضية تتعلق بالمحافظة على مال الدولة ، فلا يحق للنيابة العامة التدخل فيها .

فأعدت اليه السؤال مشفوعا بايضاح المسؤولية القانونية المفروضة على النائب العام ، مما يضطرني الى دخولي السجن وافتقاد حالة السجناء واطلاق سراح كــل سجين لم يصدر بحقه حكم مكتسب القطعيــة او مذكرة توقيف صادرة من مرجعهــا القانوني ، ولما بقي سؤالي بدون جواب ذهبت بنفسي الى المتصرف وكررت عليــه قولي ، على مسمع من المحاسب ، الذي حضر انئذ مجلسنا واضفت الى حديثــي : ان كان صاحب السعادة في شك من صحة قولي ، فليأمر خطيا لا شفهيا ببقاء المتظلمين قيد التوقيف ، فترتفع عن عاتقي المسؤولية القانونية في اقل تقدير .

عندئذ أسرع المحاسب الى الكلام ، وكأنه خشي انقياد المتصرف الــى الحقيقــة او اشراكه في اصدار أمر التوقيف الخطي ، فقال : اذا سارت الحكومة على راي النائب العام ، خسرت خزانة الدولة الكثير من حقوقها العشرية ، فمن اين تأتي حينئــذ بنفقات الجيش ورواتب الموظفين ، دع عنك الاصلاحات الكثيرة : فأجبته : ان القوانين النافذة ضمنت حق الحكومة وحق الافراد ، فاذا خالفتهما الحكومة ، وهي القدوة الصالحــة لاحترام القوانين ، ولــدت في نفوس الاهلين اليأس والعصيان ، فتزداد نفقاتها في سبيل حفظ الامن والنظام .

عندئذ ختم المتصرف المناقشة ، واعدا بالافراج عن الشاكين وابتسم ابتسامة لم تسلم من الشك في صدق صاحبها .

وفي اليوم التالي ، وقعت امرا خطيا الى الضابطة العدلية ومدير السجن باطلاق سراح اولئك السجناء القرويين ، فامتثلا الامر بعد ان وردت برقية من دفتر دار الولاية (رئيس ماليتها) الى المتصرف هذا نصها :

شكواكم من تدخل النائب العام في قضية ضريبة العشر ، تدل على انكم حجزتم في هذا السبيل على الاهلين حريتهم فاوضحوا واقع الحال ولا تاتوا عملا مخالفا للقانون.

وعلى هذا الوجه اتضح للشعب ولمفكريه خاصة ان دوائر المالية نفسها لم تعدم امناء على شرفها وصيانتها من العبث بالقوانين ، وان كان عدد هؤلاء الامناء قليل جدا لان الكرام قليل .

ومن الضرائب المباشرة التي ارهقت ايضا كاهل الفلاحين ضريبة (بدل الطريق) وكانت تؤدى بالعمل مدة معينة في انشاء الطرق العامة ثم اجيز استبدالها بتقديم عدد معين من الحيوانات أو بالتعهد بانشاء مسافة معينة من الطريق وفقا لاحكام قانون سنة /١٢٨٦/ هـ وبعد ذلك صدر قانون سنة /١٣٣٢/ هـ الذي فرض دفع مبلغ معين بدلا من العمل وأرغم المكلف على العمل عند الامتناع عن الدفع (٤٣) .

ومن الضرائب المباشرة ايضا ضريبة (الويركو) وهي ضريبة فرضت بموجب خط كولخانة /١٨٣٩/ م وقسم الويركو الى قسمين :

١ ـ ويركو التمتع وفرض على التجار بنسبة تراوحت بين /٣٠/ الى /٤٠/ من الالف من مجموع الربح السنوي .

٢ ـ ويركو الاملاك وبموجب نظام رجب سنة /١٨٦١/ خول ائمة ومختاري القرى توزيع ضريبة الويركو على قراهم ثم تحصيلها ولا يخفى ان عملا كهذا وضع في يد الائمة والمخاتير سلطة قوية مكنتهم من السيطرة على الفلاحين عن طريق اعفاء هذا الشخص من الضريبة وارهاق غيره حسب سياستهم المحلية التي وضعت في منتصف القرن التاسع عشر ، ويمكن ان ندخل في عداد الضرائب المباشرة ايضا ضريبة

البدل العسكري او (الاعانة الجهادية) التي وضعت في منتصف القرن التاسع عشر وطالما ان الخدمة العسكرية في الجيش العثماني كانت شاقة ومرعبة فان الفلاح كان يبيع الغالي والنفيس من اجل تسديد هذه الضريبة .

ومن اجل التغلب على ازمتها المالية المستعصية نتيجة الديون الاجنبية المتراكمة عليها بسبب الفوائد المركبة ، حاولت الحكومة المركزية العثمانية زيادة الضرائب لاسيما على المنتجات الزراعية . وقد رزح الفلاح تحت عبء الضرائب الكثيرة المتزايدة المسلطة على رقاب الشعب ولا سيما الجماهير الكادحة اذ بلغت هذه الضرائب في بعض الادوار سبعا وتسعين ضريبة ورسما اتبعت في جبايتها ابشع انواع الشدة والتعسف (٤٠/١) .

ولاخذ فكرة عن هذه الضرائب اوضح تلك الضرائب ، التي كانت تعصر الفلاح عصرا نقدم فيما يلي لوحة كاملة لميزانية ولاية سورية (دمشق ــ حمص ــ حماه ــ البقاع ــ حوران ــ شرق الاردن) حسب ابواب الايرادات والمصروفات في سنة /١٣٠٧/ مالية /١٨٩١/ م ، لكي تتوضح الصورة الكاملة لمقدار الضرائب عامة والضرائب الزراعية خاصة ، ولكي نرى ايضا اوجه صرف هذه الضرائب المجباة في معظمها من الفلاحين ، كما هو واضح في الجدول التالي لميزانية /١٨٩١/ :

نوع الايرادات	قروش
ويركو الاملاك والعقار	١٠ر٦٨٧ر٨٥٢
ويركو التمتع	٩٤٤ر٧٦٤
البدل العسكري	١ر٣٥٦ر٦٦٩
رسم الاغنام	٥ر٠٢١ر٧٧٩
رسم جمال	٥١٥ر٦٨٠
رسم حيوانات	٣٠٥
بدل اعشار (التزام)	١٠ر٥٨٧ر٩٥٧
حاصلات الاعشار (امانة)	١٠٠ر٠٣٥
رسم غابات وطوابع واخشاب	٢٢ر٧٥١

ومعنى ذلك ان الفلاحين هم الذين تحملوا العبء الاكبر من الضرائب المرهقة لكواهلهم. وهذه الضرائب هي في الواقـــع جزء من الريع الاقطاعـــي ، اي الريـــع — الضريبـــة التي جبتهـــا الدولة الاقطاعيـــة « العليـــا » بصفتها المالك الاعـــلى للارض . أمـــا الشكل الاخر للريـــع الاقطاعي ، فهو عبارة عن المبلغ الذي يجبيـــه الاقطاعـــي وملاك الارض من الفلاحين ، الذين يعملون في ارضه . وسنتكلم عن هذا الريع بعد قليل .

كما شكلت مصروفات الجيش والبحرية والدرك والعساكر الموظفة / ٦٠٪ / من مجموع المصروفات ويلي هذه مصروفات المالية والداخليـــة . ومعنى هذا ان الريـــع الضريبة المجباة من الفلاحين كانت تذهب بالدرجة الاولى الى جيوب كبار الموظفين في الدولة الاقطاعية العثمانية .

اما مصروفات الجيش الخامس فلم تتجاوز /١٢/ مليونا ويعود ذلك الى مساهمة ميزانيات بلاد الشام الاخرى كولايتي حلب وبيروت ومتصرفيتي القدس ودير الزور في مصروفات الجيش الخامس .

مـــن هـــذا الجـــدول تظهـــر بوضـــوح مأســـاة الفلاحـــين وغـــيرهم من القوى المنتجـــة في المدينة ، الذين قدموا القسم الاكبر من الضرائب ولم يحصلوا على اي مردود أو ايـــة فائدة . فباب المصروفات يشير الى انعدام الخدمات العامـــة (فيما عدا نسبة ضئيلة جداً للصحة والنافعة) التي تمولها الدولة وعلى الرغـــم مـــن ضآلة هذه الخدمات فانها تركزت في المدن لصالـــح الفئـــات العلـــيا من السكـــان . أما الاكثرية الساحقة من الجماهير المسحوقة في الريف والمدينة فلم يكن نصيبها غـــير الاهمال والحرمان وسوط جابي الضرائب .

ولم تكن مصروفات دائرة الداخلية (١٦٥ر٢٢٢ر٢) قرشا تنفق من اجـــل توطيـــد دعائم الامن المفقود . بل صرفت من اجل تامين قوة عسكرية قادرة على اجبار الاهالي على دفع الضرائب وتركهم بعد ذلك فريسة للجهل والمرض والقلق والفوضى والتشليح ونهب الجوار أو البدو . كما ان نفقات اجهـــزة الادارة كانـــت تذهـــب في معظمهـــا للموظفين والمتنفذين .

وقصارى القول فان مصروفات ولايـــة دمشق ، شانها شان سائر ولايات الدولة العثمانية نصف المستعمرة ، كانت تذهب سدى لا يجمعها اي جامع مـــع الخدمـــات

الصحيـــة والتعليمية والثقافية وغيرها الضرورية لحياة القـوى المنتجـة دافعــة الضرائب ، التي لا تحصل على شيء مقابل ما تقدمه لدولتها (العلية) .

ان ميزانية ولايـــة سورية هذه تؤكد الحقيقة المعروفة عن جوهر الدولةالعثمانية التي تقول ان السلطان المالك الوحيد للارض كان بحاجـة الى جهاز حكم ، بحاجـة الى اعوان مساندين ولذا فان السلطان كان مضطرا لتوزيع فوائض منتجات الاراضي المزروعة على بطانته وجهازه العسكري . ومعنى ذلك ان (الدولة العلية) (العثمانية) بصفتها مالكة لوسائل الانتاج ــ الارض ــ تمثلت بثلاث فئات هي :

١ ــ السلطان وحاشيته .

٢ ــ العسكريون التيماريون وغيرهم . وبعد الغاء التيمار تكونت هذه الفئة مـن المدنيين والعسكريين ، الذين شكلوا قمة السلطة في الولايات من الباشوات والاغوات.

٣ ــ رجال الدين والعلماء . بما فيهم رجال الدين المسيحي . فقد ملـك مثـلا رجال الدين من الطائفة المارونية على اعتاب الحرب العالميـة الاولى اكثر مـن ربـع الاراضي في لبنـــان وكان لهم اكثر من مئتي دير .

وقد تقاسمت هذه الفئات السلطوية ، الريع العقاري وفائض الانتاج فيما بينها . اما الفلاح الذي الف اكثرية رعايا المجتمع العثماني فلم يكن مالكا للارض التي يزرعهـا الا في النادر بل هو حائز لها .

والواقع اننا ازاء طبقتين رئيسيتين في المجتمع العثماني :

١ ــ الطبقة المسيطرة المستثمرة (السلطان وحاشيته ــ العسكريون ــ رجـال الديـــن) .

٢ ــ الطبقةالمسيطر عليها المستثمرة (الفلاحون) وكذلك الحرفيون والصنـاع وسائر الفئات المنتجة في المدينة .

واتخذ الاستثمار طابعا جماعيا ، اي استثمار طبقـــة لطبقـــة ، . ولكـن ذلـك لا يعني انعدام استثمار فرد من الطبقة العليا لفرد من الطبقة الدنيا ، بـل ان هـذا الاستثمار وجد سبيله دائما الى الحياة .

ومادامت الطبقة المسيطرة كانت تقيم في المدن بعيدا عن الارياف (بعكس اوروبــا الغربيـــة) فان فائض الانتاج كان يتمركز في المراكز الادارية والعسكرية ، ممــا عرقل التطور اللاحق للارياف تبعا لعدم تحول فائض الانتاج الى سلع في مكان منشئه .

وكانت المدنــ عمليا ــ في الاقتصاد العثماني ، هي التي تفيد من قسمة العمــل على حساب الارياف . وهذا واقع اساسي كان سببا ، من جملة اسباب اخرى للركود الاقتصادي للارياف العثمانيـــة .

٣ ــ اشكال المزارعـــة (الاستغلال) :

عجل الاستثمار الوحشي للفلاحين في عملية افقارهم وشقائهم . وبعد ان تتالت سرقة أراضي الفلاحين على نطاق واسع ، وجرى طردهم من الارض التي عاشوا عليها اجيالا وجبلوها بعرق جبينهم ، واصبحوا مضطرين بسبب ذلك للعمل بالمحاصصــة عند سارق الارض خوفا من الموت جوعا . لقد كانت عمليـــة سرقـــة ادوات انتــاج الفلاحين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين واجبارهــم على العمل في المحاصصة في ظل ظروف استثمارية صعبة ، من المآسي التـــي حلــت بالجماهير الكادحة في المجتمعات الطبقية القائمة على الاستثمار ولا سيما في المجتمــع الاقطـــاعي .

تنوعت اشكال المزارعة او طرق الاستغلال من منطقة لاخرى (٤٨) . وكانت اراضي الاقطاعي تؤجر للفلاح عن طريق وكيله الذي كان يجمع المحصول ايضا . وكانت طريقة المرابعة من اشهر اشكال المزارعة وفيها يقدم الاقطاعي للفلاح الارض والسكن والماشية والبذار ويدفع الضريبة . والفلاح لا يطالب بأكثر من عمله وعمل عائلته . وعند توزيع المحصول ينال الملاك ثلاثة أرباع المحصول ويبقى الربع للفلاح . وكانت هذه الطريقةهي الشائعة لاسيما في المساحات الواسعة .

وهناك طريقة الشركة الحموية وفيها يقدم المالك السكن والارض في حين يقدم الفلاح العمل اما النفقات الاخرى من بذار وماشية وغيرها فكانت تدفع مناصفة وبعد دفع الضرائب وغيرها من النفقات يقسم المحصول مناصفة . ولم يكن المالك يقدم اي

جهد من اجل تجديد قوة انبات الارض في حين ان الفلاح اضطر للانفاق على تجديد قوة عمله وعمل عائلته .

اما طريقة الشركة الحلبية فيقدم فيها الملاك البذار والسكن ويدفع الضريبة ، في حين يقدم الفلاح الماشية والعمل . وكانت النفقات الاخرى تدفع مناصفة بين الطرفين . وفي نهاية السنة وبعد دفع الضريبة يقسم المحصول مناصفة .

كما وجدت طريقة الخمس التي يقدم فيها الملاك الارض والسكن ويدفع الضريبة بينما يقدم الفلاح العمل والماشية والبذار والنفقات الاخرى . وبعد نهاية السنة يسترجع الملاك الضريبة العشرية (١٢٫٥٪) اولا ثم خمس ماتبقى ويسلم الباقي للفلاح . ومعنى ذلك ان الملاك ينال / ٣٠٪ / من المحصول لقاء الارض فقط . في حين لاينال الفلاح الذي يقدم العمل والماشية والبذار والنفقات الاخرى الا / ٧٠٪ / .

ويروي الرحالة الانجليزي بركهاردت في سنة / ١٨١٢ / ان الملاكين في حوران يستغلون ارضهم بواسطة عمال من الاهالي يستأجرونهم ، والفلاح الذي لديه فدان او زوج من الثيران يستلم عادة في وقت البذار غرارة من الحب ، وبعد الحصاد يأخذ ثلث محصول الحقل . اما في جبل العرب فحصة الفلاح الربع بينما يدفع صاحب الارض الى الدولة الضريبة المعروفة بالميري والفلاح عشرة قروش سنويا(٤٩) .

اما المستشرق الالماني هارتمن الذي زار سورية في سنة /١٩١٢/ فذكر بأن كبار ملاك الاراضي قدموا للفلاح ما يحتاج اليه من البذار والحيوانات والسكن . وبعد دفع الضرائب الحكومية يترك للفلاح ربع الباقي من المحصول . اما في الاراضي التي يملكها صغار الفلاحين والتي لا تتجاوز عدة دونمات فيتلقى الفلاحون من الاسياد الكبار القروض لكي يزرعوا الارض ومن ثم يقدمون خمس المحصول للدائن كثمن للبذار(٥٠) .

ولم تكن طريقة دفع اجور مقطوعة سنوية او شهرية او يومية للفلاحين منتشرة الا في بعض الاراضي المروية المجاورة للمدن « حيث يستغل كما يذكر كرد علي » بعض ارباب الزراعة ارضهم مباشرة(٥١) ويرجع سبب ذلك الى فقدان السيولة النقدية قبل الحرب العالمية الاولى . فالعمال الزراعيون لم يؤلفوا قبل الحرب الاولى الا نسبة ضئيلة جدا من سكان الريف .

كما ان الدولة كانت تقوم باستثمار الفلاحين عن طريق تاجيرهم اراضي امـــلاك الدولة . حيث وجب على الفلاح دفع /٢٠٪/ من المحصـــول ، وفي بعض الاماكـــن ارتفعت النسبة الى /٢٢٫٥٠٪/(٥٢) والفلاحون في اراضي املاك الدولة يتوارثونها عن آبائهم وكانت حالتهم المادية احسـن بكثير مـــن حالة الفلاحـــين العاملـــين في اراضـــي الاقطاعيـــين(٥٣) .

ادت طرائق الاستثمار الاقطاعي هذه ، الى فقر الفلاح وبالتالي الى جهله ومرضه والى خوفه من الموت جوعا ، فكان باستطاعة الاقطاعي طرده في كل لحظة مـــن البيت والارض . وعند رداءة الموسم كان الفلاح مضطرا ، من اجل تجديد قوة عمله وعمـــل عائلته ، للاستدانة بفائدة باهظة من التجار والمرابين أو من الاقطاعـــي . ولـــم يكـــن باستطاعته في معظم الاحيان وفاء ديونه اثناء الموسم ، ويصبح مضطرا للبقاء علىالارض والعمل فيها الى ما شاء الله ، حتى يستطيع وفاء ديونـــه .

كما ان الضرائب الزراعية وعلى راسها ضريبة الاعشار ارهقـــت كاهل صـــغار الفلاحين وفقرائهم فقد كتب الرحالة الالماني فتشتاين الـــذي زار دمشـــق في العقـــد السادس من القرن التاسع عشر عن فلاحي احدى القرى القريبة من دمشق ما يلي(٥٤):

« انهم مرهقون بالضرائب والفوائد التي تبلغ مئة نوع ولذلك فهم يتوقون الـــى اعطاء مواشيهم لمن يشاء والهرب حفاة عراة حتى يتخلصوا مـــن حياة الشقاء التـــي يعيشونها ، ولكن لا يوجد احد يرغب ان يحل محلهم ويرث شقاءهم » .

وبما ان اتعاب الفلاحين وغلال الارض كانت تذهب الى الافراد الغرباء عن الارض، فان كثيرا من الفلاحين كانوا يتهربون من العمل الذي يذهب مردوده لسواهم . وقد اجاب فلاحو حوران وجبل العرب الرحالة الانكليزي بركهاردت على سؤاله حول عدم زرعهم للارض بقولهم « هل نزرع للغرباء ! » (٥٥) .

ولم تكن الحال في بقية المناطق خيرا من دمشق . ففي لبنان مثلا كانت الصعوبات الاقتصادية في منتصف القرن التاسع عشر تشد بخناقها علـــى الجماهير اللبنانيـــة ولاسيما الفلاحية منها خاصة . فكان على الفلاح « اما ان يهاجر من بلده ، خصوصا بعد ازمة الحرير سنة /١٨٥٧/ أو ان يستدين من الشيخ المقاطعجي على حساب غلال

السنة المقبلة ، وان يبقى هكذا مأجورا كمرابع ومديونا له ، اذ بعد أن يؤدي كل الضرائب للدولة والاتاوات المختلفة لسيده المقاطمجي » لا يبقى له من غلته سوى حصة ضئيلة ، لا تصل غالبا الى /١٠٪/ بينما اعباؤه العائلية كانت تزداد من يوم الى آخر . وبالفعل فقد بدأ مئات من الفلاحين بهجر ديارهم مع عائلاتهم نحو المدن مثل بيروت وصيدا ، وصور ، وطرابلس ، ودمشق ، وانطاكية وغيرها(٥٦) .

ويبدو ان هرب الفلاحين من الارض التي يعملون عليها ولا يملكونها كثر في القرن التاسع عشر الى درجة ان (بعض الميسورين في الغوطة اخذوا يبتاعون العبيد لتسخيرهم في استثمار اراضيهم) نتيجة قلة اليد العاملة(٥٧) . ولم يكن امتلاك العبيد مقتصرا على الغوطة وامراء البادية بل تعداه الى المناطق الاخرى . فالرحالة البريطاني بركهاردت يروي في سنة /١٨١٢/ ان لدى الشيوخ في جبل العرب عبيدا سودا(٥٨) .

ويذكر شيفاليه الضرائب والالتزامات غير المحدودة ، التي اثقلت الفلاح في جبل لبنان وجعلته ينوء تحت عبء الديون . وهذا مادفعه الى الاقتراض ، وكانت هذه فرصة للسماسرة والمرابين في المدينة (بيروت وغيرها) لعقد صفقات مربحة . أولئك السماسرة الذين جرت العادة منذ القرن السابع عشر ان يطوفوا في بحر السنة يمنحون الفلاحين المرابين قروضا مرتفعة الفائدة على حساب المحاصيل المنتظرة . وكانت هذه الفوائد تتراوح بين / ٢٠ و ٥٠٪ / وعن هذا الطريق تمكن التجار البيروتيون ، الذين كانوا سماسرة ومرابين في الوقت نفسه ، ان يقيموا حاجزا بين سكان الريف وبين التجارة الواسعة ، وذلك بفرضهم الاسعار التي يريدونها ، وكان الفلاحون الغارقون في الديون ، يبعدون عن المكاسب المادية التي تنشأ عن ارتفاع الاسعار(٥٩) .

وقد ادى الاستثمار الوحشي للفلاحين الى ازدياد نقمتهم والى قيام الانتفاضات الفلاحية بين حين وآخر ، هذه الانتفاضات التي غلبت عليها صفة العفوية والافتقار الى التنظيم . ولكنها اسهمت مع ذلك في اضعاف السيطرة العثمانية على سورية وفي تصدع النظام الاقطاعي ، وبالتالي الى دفع الحركة الوطنية العربية خطوات سريعة الى الامام .

كان هذا النظام الزراعي السبب الرئيسي لعدم تطور وتقدم الزراعة السورية .

« فنظام الاستثمار الشرقي» شكل كما ذكر الباحث السوفياتي بيتروسنسكي «الاساس لركود وتأخر الاقتصاد الفلاحي » (٦٠) فلم تكن الاموال التي حصل عليها الاسياد الاقطاعيون من عرق وتعب الفلاحين توظف من اجل تجديد الارض واصلاحها او من اجل تحسين ظروف معيشة العاملين على الارض من الفلاحين بل كانت تصرف من اجل ملذات الاقطاعيين وترفهم ومجونهم ، وقل ان وظفت في التجارة أو الربا وكان الحال كذلك بالنسبة للاموال المجباة التي ذهبت الى جيوب الموظفين الاتراك وخاصة كبارهم والى صناديق رجال الحكومة المركزية في استنبول او الى شركائهم أصحاب رؤوس الاموال في فرنسا وانكلترا . ولم يكن للفلاحين مصلحة حقيقية في تحسين الارض وزيادة المحصول ، اذ لم يبق لهم في مختلف الاحوال الا النزر اليسير ، ولا بد من الاشارة الى ان العوامل الطبيعية مثل الجفاف والصقيع والجراد واستخدام الآلات الزراعية البدائية والجهل في مكافحة الامراض النباتية ، قامت بدور هام في تأخر الانتاج الزراعي . ولكن اشكال الملكية الاقطاعية السائدة آنذاك وعلاقات الاستئجار تبقى على كل حال السبب الاول الرئيسي في ركود الزراعة السورية وكذلك فان السياسة الزراعية للدولة العثمانية لعبت أيضا دورا هاما في تأخر الزراعة لانها لم تساعد بل على العكس اخذت تطور القوى المنتجة (الفلاحين) التي بقيت ضعيفة ومتخلفة رغم التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي حدثت في القرن التاسع عشر في بلاد الشام .

واضافة الى ما تقدم من آفات طبيعية واجتماعية ، كانت تحل بالفلاح العربي (العثماني) ، فالآفات السياسية المتمثلة في جند السلطان كانت أشد وبالا على الفلاحين من الآفات الاخرى .

ومع اننا تطرقنا قبل قليل الى الضرائب الزراعية وثقل وطأتها على الفلاحين ، فاننا نورد هنا أيضا الامثلة عن استثمار (الدولة) بجنودها وموظفيها للفلاحين ، وما كان لذلك من آثار ضارة على تأخر الزراعة وبقاء العلاقات الزراعية متخلفة جامدة .

وكان اكثر ما يضر بأهل القرى ، كما يذكر محمد كرد علي(٦١) ، جند الدولة العثمانية فانها كانت ترسل منهم اعدادا يقيمون في القرى والمدن وطعامهم من الاهلين، لان الدولة لا تعطيهم ما يكفيهم ويقوم باودهم واود عيالهم ، وكانوا اذا قضوا بضعة

اشهر في هذه الضيافة الجبرية يطلبون « الترحيلة » عند عودتهم . والترحيلة مال يسلبونه من الاهلين ليستعينوا به على الرحيل . وكثيرا ما كان الجنود ينهبون القرى دون مبرر او سبب ، ففي سنة / ١٠٤١ / هـ نهب جند الدولة العثمانية قرى دمشق طول الشتاء . ونهب جند الدالاتية جميع القرى واكلوا غلالها واحرقوا بيوتها وقتلوا دوابها وسلبوا عروضها .

روى بركهاردت ، الذي زار حوران سنة / ١٨١٢ / ان الضرائب التي دفعتها طبقات الفلاحين في حوران يمكن أن تصنف الى اربعة اصناف وهي(٦٢) : —

١ — الميري وتفرض على الفدان ، وتدفع عينا او نقدا .

٢ — الاتاوة التي تدفع للبدو (الخوة) .

٣ — تكاليف اطعام الجنود في تنقلاتهم الذين كثيرا ما يسرقون عند رحيلهم بعض الادوات التي تخص البيت .

٤ — الاعانات فوق العادة ، اذ يكفي صدور امر من حاكم حوران الى شيخ القرية لكي يجمع ثلاث او اربعمائة قرش من فلاحي بلده . وفي مثل هذه الحالات تضطر النساء الى بيع اقراطهن واساورهن والرجال مواشيهم لتلبية الطلب ولا يبقى لهم اي امل الا بتغطية هذه الخسارة بفضل غلة جيدة في سنة قادمة .

ويصف محمد كرد علي حالة الفلاحين السيئة وما لاقوه من عنت واضطهاد على يد جنود الدولة العلية قائلا(٦٣) : « وحدثنا الشيوخ بما كان اهل الفوطة يلقونه من العنت والارهاق إذا دقت الطبلة وجاءت سرية من الجند لتحصيل المال المطلوب منهم وربما اقام الخمسون جندا مع خيولهم في القرية بضعة ايام حتى يتيسر جمع مال الدولة وبذلك كره الناس امتلاك الارض فنزل ثمن الفدان الى بضع مئات من القروش، وربما كان الحقل يباع احيانا بلوح من الصابون او اوقية من التنباك ليقال ان الارض بيعت وقبض البائع ثمنها . اما اثمان الحاصلات فكانت من التدني على مايضحك ويبكي ويروي السائح الانكليزي بركهاردت الذي زار حوران وجبل العرب سنة / ١٨١٢ / ان كثيرا من فقراء الفلاحين كانوا يلوذون بالاماكن المقفرة يزرعونها هربا من الضرائب الفادحة وتخلصا من مال الميري(٦٤) .

حواشي الفصل الأول من الباب الثالث

٢١ ـ شيري فاتر ـ «الوثائق البيع المثبتة في المحاكم الشرعيةبدمشق في القرن التاسع عشر» في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ـ دمشق ١٩٧٨ ـ ص ٢١٥ .

٢٢ ـ المصـدر نفسـه .

٢٣ ـ شولتس الكسندر : « النمو الاقتصادي في فلسطين » في المؤتمر ... ص ٢١٦ .

٢٤ ـ المصـدر نفسـه .

٢٥ ـ المصـدر نفسـه .

٢٦ ـ بلغت قيمة صادرات الحرير الخام سنة ـ ١٩١٠ ـ حوالي ـ ١٨ ـ مليون فرنك ، والبرتقال والليمون حوالي ـ ٥ر٥ ـ مليون فرنك ، والنبيذ حوالي ـ ٠٠٠ر٩٠٠ ـ فرنك . انظر روبين ارثور : « سورية كمنطقة اقتصادية » برلين فينا ١٩٢٠ ، ص ٢٢٢ .

٢٨ ـ سميليا نسكايا : « الحركات الفلاحية في لبنان » (النصف الاول من القرن التاسع عشـ تعريب عدنان جاموس . بيروت ـ دمشق ١٩٧٢ ، ص ٢٢ .

٢٧ ـ المصـدر نفسـه ، ص ١٧٢ .

٢٩ ـ الحكيم يوسف : « بيروت ولبنان في عهد آل عثمان » ـ بيروت ١٩٨٠ ، ص ٩٦ .

٣٠ ـ المصـدر نفسـه ـ ص ١١٥ .

٣١ ـ فيما يتعلق بنظام الضرائب راجع : سعيد حمادة : « التنظيم الاقتصـادي لسوريـة » بيروت ١٩٣٦ . وسمارا يوسف : « العلاقات الزراعية في سورية » اطروحة اقتصادية مونيخ ١٨٣٨ .

٣٢ ـ سميليا نسكايا .. ص ١١٤ نقلا عن بلزيلي قنصل روسيا في بيروت «سوريةوفلسطين» اوديسا ١٨٦٢ ـ جـ ٢ ـ ص ١٤١ .

٣٣ ـ المصدر نفسه نقلا عن طنوس الشدياق : كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان .

٣٤ ـ المصـدر نفسـه ، ص ٤٠ .

٣٤/١ ـ وحتى الملاكين الصغار هؤلاء المستثمرين من « الاعلى » كانوا يستثمرون من هو أدنى منهم . وفي هذا المجال يروي أحد السائحين الالمان الذي ام فلسطين وسوريا سنة ـ ١٨٠٥ ـ ان : شيخ قريـة

ازرع في حوران جنوب دمشق ، وهو على جانب عظيم من الغنى ، دفع عن الاهالي الضرائب المفروضة عليهم رجاء ان يستوفيها في المستقبل مضاعفة . ويصف السائح الالماني وطاة الضرائب قائلا « لا يستطيع المسافر في ارجاء حوران الخصبة ، الا ان ينقم على حكومة ترهق الاهلين بعسفها وضرائبها الباهظة ، ولاتترك لهم الا نزرا يسيرا من محصولات بلادهم » .

ومن جملة ما تعرض له السائح الالماني سنة ـ ١٨٠٥ ـ في قرية ازرع البراغيث الكثيرة في هذه القرية التي تؤرق النائم وتحرمه لذة الرقاد . كما وصف اوضاع القرية بما يلي : « كثيرا ماكنت أرى في أزقة القرية صبيانا في التاسعة والعاشرة من السن وهم حفاة عراة .. ونساؤها يغزلن الصوف بالمغزل الوطني ذي الصنارة والرجال يحوكونه اعبية وعدولا . وقد يبيعون الصوف بلا نسج لاهل الشام ولكن اكثر مما يبيعونه منسوجا » ... نقلا عن ابو النصر ... ص ٩ .

٣٥ ـ راجع تقرير لجنة المالية في المجلس النيابي ، في جلسة ـ ٩ ـ كانون الثاني ـ ١٩٢٨ ـ في مذكرات المجلس النيابي السوري ـ ١٩٢٨ ـ ص ـ ١٠٩ ـ .

٣٦ ـ كرد علي : غوطة دمشق ... ص ـ ١١٧ ـ .

٣٧ ـ ان الارض العشرية التي يدفع اصحابها عشر ثمارها ومحصولاتها ترجع في اصولها التاريخية الى ثلاثة مصادر .

١ ـ الارض التي ملكها المسلمون عنوة واستانفوا احياءها .

٢ ـ الارض التي أسلم اهلها وهم عليها بدون حرب .

٣ ـ الارض التي كانت تؤخذ من المشركين عنوة وقهرا ثم تقسم بين الفاتحين .

د ـ الرافعي مصطفى : « الاسلام نظام انساني » بيروت ـ ١٩٥٨ ـ ص ـ ١٢٥ ـ .

٣٨ ـ المصدر نفسه ـ ص ١١٤ .

٣٨ ـ لوتسكي ..... ص ١٦٠ .

٤٠ ـ الدوري .. ص ١٢٧ .

٤١ ـ تقرير لجنة المالية في المجلس النيابي .. ص ١١٠ .

٤٢ ـ خنشت يوسف موسى : طرائف الامس غرائب اليوم او صورة من حياة النبك وجبل القلمون في اواسط القرن التاسع عشر ـ حريصا ١٩٣٦ ، ص ٤٨ .

٤٢/١ ـ الحكيم ... ص ١٠٠ .

٤٣ ـ تقرير لجنة المالية في المجلس النيابي ـ ص ١٠٧ .

٤٤ ـ عوض ، عبد العزيز محمد : « الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٨١٤ ـ القاهرة ١٩٦٩ ص ـ ١٧٩ ـ .

أن فرض ضريبة الويركو لم يمر بسلام في بعض المناطق . وقد لاقى مقاومة عنيفةحسب ما رواه صاحب تاريخ حلب الذي قال : ـ

وفي سنة ـ ١٣٢٣ ـ ورد الامر بفرض ضريبة جديدة على الناس اسمها ويركو شخصي وذلك بان

يطرح على كل ذكر بالغ صحيح الجسم مقدار من المال يدفعه عن كل سنة الى جهة الحكومة بحيث يكون ملحوظا في مقدار المال حالة الشخص من جهة الفقر والفنى وقد استاء الناس من هذا الامر ولاسيما الفقراء منهم وانتدب كثير من ذوي الجد والنشاط يرفعون شكاياتهم الى السلطان ويسترحمون منه مسامحتهم عن هذه الضريبة الجديدة فلم يلتفت الى استرحامهم وكانت الحكومة باشرت جمع هذه الضريبة في جهات الاناضول فهاج اهل ارزروم وماجوا وامتنعوا عن دفع الضريبة وهجموا على الوالي واهانوه وكادوا يوقعون به وصدر الامر بابطال هذا المكس الجديد . الغزي ـ ج ٣ ـ ص ـ ٤٦٤ ـ .

١/٤٤ ــ كرد علي : غوطة دمشق ــ ص ١٩ .

٤٥ ـ عوض .. ص ـ ١٨٦ ـ .

اما الضرائب والرسوم المجباة في ولاية حلب عام ـ ١٣٠٥ ـ هـ فكانت كما يلي : ـ

١٥٥ر٤٢٥ر٧	جمع رسوم الاملاك والعقارات .
٥٨٩ر٤٣٨ر٤	جمع رسم التمتع .
٨٤٣ر١٤٣ر١٩	جمع الاعشار المقطوعة عن طريق الالتزام .
١٨٠ر٥٠٤ر٠	جمع الاعشار التي جبيت امانة .
٦٣٠ر٩٩١ر١	جمع الجزيـة .
٦٩٠ر٤٦٣ر١٩	جمع رسم الاغنـام .
٧٣٠ر٨٣٢ر٠	جمع رسم الجمال عن سنة ـ ١٣٠٤ ـ .
٩٠٨ر٥٥٩ر٤	جمع الرسوم المتنوعة الاخرى .
٣٤٩ر٣٢٠ر٥٨	المجمـوع .

نقلا عن : الغزي ... ـ ج ١ ـ ص ـ ٣٤٢ ـ .

٤٦ ـ انظر في هذا المجال : ديفيتسيوغلو سنجر : النموذج الاقتصادي للمجتمع العثماني في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، في الطريق العدد الثامن ايلول ـ ١٩٦٩ ـ ص ـ ٧٩ ـ .

٤٧ ـ المصـدر نفسـه .

٤٨ ـ نقلا عن السباعي بدر الدين : اضواء على الراسمال الاجنبي في سورية ـ دمشق ، ص ٢٣١ ـ ٢٣٣ .

السمان احمد : محاضرات في اقتصاديات سورية ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٨٣ .

كرد علي محمد : خطط الشام ، ج ٤ ، ص ٢١٤ ـ ٢١٧ .

٤٩ ـ بركهاردت جون لويس : جبل حوران في القرن التاسع عشر ـ مقتطفات من كتاب رحـلات في سورية ١٨١٠ ـ ١٨١٢ تعريب سلامة عبيد بلا مكان وتاريخ الطبع ، ص ٥٢ اصل الكتاب بالانكليزيـة .

٥٠ ـ هارتمان ريتشارد : « القضية العربية والدولة التركية » في : « مقالات لمعرفة الشرق » المجلد ـ ١٥ ـ هالة ١٩١٨ .

٥١ ـ محمد كرد علي : الخطط ـ ج ٤ ـ ، ص ـ ٢١٦ ـ .

٥٢ ـ المصدر نفسه ـ ص ٢١٥ .

٥٣ ـ هارتمــان ...

٥٤ ـ فتشستايـن ... ص ٤٣ .

٥٥ ـ بركهـاردت ... ص ٥٦ .

٥٦ ـ قازان فؤاد : الثورة الفلاحية الشعبية في : الطريق عدد اذار ـ ١٩٧٠ ـ ص ـ ٨١ ـ وقد نقل الاستاذ قازان هذه المعلومات عـــن :

٥٧ ـ كرد علي ... غوطة دمشق ـ ص ١١٩ ـ .

٥٨ ـ بركهـاردت ... ـ ص ٥٢ ـ .

٥٩ ـ شيفاليه دومنيك : الاسباب العميقة للاضطرابات الفلاحية في لبنان عام ـ ١٨٥٨ ـ في الطريـق العدد التاسع تشرين الاول ـ ١٩٦٩ ـ ص ـ ٦٩ ـ

٦٠ ـ انهذا الركود هو ماأشار اليه ابن خلدون في مقدمته : «فصل في الجباية وسبب قلتها وكثرتها» جاء فيـه : « ... فاذا استمرت الدولة واتصلت ، وتعاقب ملوكها واحدا بعد واحد وتكثرت عوائدهـم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف ، فيكثرون الوظائف الوزائع حينئذ على الرعايا والاكرة والفلاحين وسائر أهل المغارم . ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقدارا عظيما لتكثر لهم الجبايـة ويضعون المكدس على المبايعات وفي الابواب كما نذكر بعد ثم تدرج الزيادات فيها بمقدار بعد مقدار لتـدرج عوائـد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والانفاق بسببه ، حتى تثقل المغارم على الرعايا وتهضم وتصير عـادة مفروضة ، لان تلك الزيادة تدرجت قليلا قليلا ولم يشعر أحد بمن زادها على التعيين ... فتنقبض كثير من الايدي عن الاعتمار جملة ، فتنقص جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائع منها » ابن خلدون ـ مقدمـة ابن خلدون ـ الجزء الثاني ـ القاهرة ١٩٥٨ ـ ص ٦٦٧ .

٦١ ـ كرد علـي ... ـ ١٩٧ ـ .

٦٢ ـ بركهاردت ... ص ـ ٥٦ ـ كما ان سائحا المانيا زار سورية سنة ـ ١٨٥٥ ـ اشـــار الى ان الفلاح في حوران كان يدفع كل سنة ما يقدر بالفي غرش . الف منها لخزينة الدولة ومئتان للبدو والباقـي للعربان اتقاء شرهم . ولو لم يكن هو نفسه يملك سوى رأس واحد من الخيل وحمل بعض المواشي.ومتى دفع كل ما عليه لا يبقى شيء لديه من غلال حنطته ـ ابو النصر .. ص ـ ١٠ ـ .

٦٣ ـ كـرد علـي ... ص ـ ١٢٠ ـ .

٦٤ ـ بركهاردت ص ـ ١٧ ـ اما السائح الالماني فذكر سنة ـ ١٨٠٥ ـ ان القرى والضياع في السهل الخصيب قرب حماه خربت لتواتر المظالم على سكانها من حاكم حماة . عن : ابو النصر .. ص ـ ١٢ ـ .

٦٥ ـ زكريـا .. ص ٢٩٣ ـ ٣٠٢ .

٦٦ ـ نقلا عن خنشت ... من صفحات متفرقـة .

٦٧ ـ نقلا عن رفيق بك محمد ، بهجت بك محمد : ولاية بيروت ج ٢ ، ١٣٣٦ .

الفصل الثاني

التحركات الاجتماعية في مدينتي حلب ١٨٥٠ ودمشق ١٨٦٠ وعلاقة المدينة بالريف

١ ـ قومة حلب /١٨٥٠/ :

في عام /١٨٥٠/ اندلعت ثورة العامة في حلب المعروفة باسم (قومة حلب) وقد اختلطت الاسباب العميقة لثورة العامة الحلبية مع الاسباب الظاهرية وتشابكت معها ، الى درجة ان عين المؤرخ العادي لم يعد بامكانها استيعاب هذا التحرك الجماهيري وسبر اعماقه الاجتماعية الطبقية . ويعود احد اسباب ذلك الى مواقف الفئات الحاكمة، التي سعت لتغطية اهدافها ومراميها عن طريق افتعال اسباب جانبية للاحداث وتوجيه هذه الاحداث بما يخدم مصالحها ويحافظ على مواقعها . وهذا ماجرى في حلب عام /١٨٥٠/ .

في تلك الايام تنافس على استثمار اهالي ولاية حلب القوى التالية :

ـ الوالي وحاشيته .

ـ بقايا زعماء الانكشارية وعلى راسهم متسلم حلب (نائب الوالي) عبد الله البابنسي ، الذي كان كما يقول الغزي « نهأبا وهابا » أي ينهب من الاهالي ويهب نفسه وخاصته ومساعديه . وبقي متسلما مدة عشر سنوات (١٨٤٠ ـ ١٨٥٠) .

ـ الاشراف وزعيمهم يوسف شريف زادة ، الذي التزم جمع الاموال الاميرية دون ان يدفع ، شأن البابنسي ، كل ما جمعه لخزانة الدولة[1] .

وبعد الغاء نظام التزام الضرائب عام /١٨٤٠/ ، عهد بجمع الضرائب الى جباة خاضعين مباشرة لمصلحة المالية المركزية . وكان زعماء الانكشارية والاشراف في حلب يتنافسون قبل الحكم المصري على التزام الضرائب وابتزاز الاموال . وعندما قطع « باب رزقهم » قاوموا الاجراء الجديد وسعوا لاستغلال نقمة العامة واثارتها بهدف

ابقاء نظام الالتزام . بتعبير آخر لقد تحالف الخصمان السابقان (بقايا الانكشارية والاشراف) ضد السلطة المركزية الراغبة في نزع السلاح وفرض الضرائب الدائمة والخدمة العسكرية الالتزامية وسرقة الاراضي .

وعلى الرغم من تنافس هذه القوى على استثمار الاهالي وجمع الاموال وكسب الانصار ، الا انها اتفقت ، في عهد غير مكتوب ، على عدم دفع اموال الدولة واكلها .

وهم من هذه الزاوية ذوو مصلحة في قيام حالة من الفوضى حتى يختلط الحابل بالنابل وتضيع « اموال الدولة » ولا يتمكن احد من مطالبتهم بها . ولكن اشعال النار في هشيم الجو الاجتماعي المشبع بالثورة في اواسط القرن التاسع عشر لم يكن بالامكان اطفاؤه . وكثيرا ما تجري رياح الثورة بعكس ما تشتهي سفن المستثمرين الظالمين المتزلفين للعامة والساعين ظاهريا لكسب رضائها وعمليا لامتصاص دمائها .

ترجع روايات ذلك العهد اسباب الفتنة الى خلاف حول فرس اغتصبها متسلم حلب عبد الله بك البابنسي (الانكشاري اصلا) من يوسف زادة (من زعماء الاشراف) كما تعيدها روايات اخرى الى تمرد احدى العشائر في بادية الجبول . ولا حاجة الى القول ان هذين السببين لايمكن ان يؤديا الى ثورة او حتى اشعالها .

ان اسباب « قومة حلب » عام /١٨٥٠/ تعود الى جملة التغيرات ، التي حدثت في الربع الثاني من القرن التاسع عشر وهي :

١ ــ الحملة المصرية على سورية ومارافقها من اصلاحات اقتصادية واجتماعية وادارية ، ادت الى تخلخل النظام الاقطاعي الشرقي العثماني وتصدعه ، والى زرع بذور العلاقات الراسمالية .

٢ ــ ادت عملية تركز التطور الراسمالي الجنيني في يد اقلية مسيحية الى تحجيم امكانية هذا التطور داخليا وجعل الهوة واسعة بين اقلية دينية حاملة لواء التطور البورجوازي وبين العامة المسلمة المفروض ان تسير وراء القوى البورجوازية في صراعها ضد العلاقات الاقطاعية وممثليها . ولم تتمكن البورجوازية الناشئة ،بسبب وضع المدن الشرقية وانعزالها عن العامة في حارات معينة من عقد اواصر الحلف

الذي جرى في أوروبا بين نواة التطور البورجوازي والعامة الحرفيةفيالمدينة والفلاحين في الريف ضد العلاقات الاقطاعية .

وفي حلب عام /١٨٥٠/ كما في دمشق عام /١٨٦٠/ لم يستطع حملة بذور العلاقات الراسمالية المبكرة ـ وهم في غالبيتهم من المسيحيين ـ من قيادة العامة في المدينة والفلاحين في الريف ضد العلاقات الاقطاعية . ولهذا تمكنت قوى الثورة المضادة للتطور البورجوازي من تحويل مسار الثورة الاجتماعية الى احتراب ديني .

٣ ـ ردود فعل خط شريف كلخانة عام/١٨٣٩/ الذي كان من الناحية الاجتماعية محاولة للتوفيق بين السلطة الاقطاعية ذات اللون الديني وبين البورجوازيةالتجارية النامية والملاكين الاحرار الليبراليين من جهة اخرى . وفي حلب وقفت القوى الاجتماعية المختلفة من الاصلاحات مواقف معبرة عن مصالحها اولا ومدى تاثرها بالتيارات الفكرية الهابطة او الصاعدة ثانيا . والسلطان عبد المجيد الذي وقع مكرها على منشور كلخانة ؛ أبدى مقاومة واضحة للاصلاح مؤيدا من كبار الموظفين وقسم من رجال الدين الساعين الى قبر حركة الاصلاح في مهدها . اما العامة البائسة المسحوقة فكانت تتلمس الفرج معبرة عن استيائها اما بالنكات والامثال والهروب من واقعها باقامة الشعائر الصوفية من جهة او بتطلعها الى الحرية وطموحها الى التمرد والثورة كلما سنحت الفرص .

٤ ـ في منتصف القرن التاسع عشر وجدت في الدولة العثمانية قوى اجتماعية متوترة الاعصاب ثائرة او مهادنة ، حائرة في رسم طريق المستقبل بين المحافظة على العلاقات الاقطاعية الشرقية دون تغيير ، او اجراء بعض الاصلاحات عليها لتتلاءم مع التطورات الجديدة في العالم وبخاصة اصداء الثورة البورجوازية وما رافقها من تحركات للعامة اولا وللعمال ثانيا .

كان فرض الجندية الاجبارية لاول مرة في حلب وريفها السبب المباشر لقومة حلب .

ـ ١ في /٥/ تشرين الاول /١٨٥٠/ ارسل الباشا (والي حلب) اوراقا للحارات

وللضيع وللبلاد الواقعة في منطقة حلب(٢) وقال ان السلطان عبد المجيد بده من/١٠/ واحد وسنهم من /٢٠ ـ الى ٢٥/ شباب نظام » .

هذا ماجاء في يومية المعلم الحلبي نعوم البخاش الذي كتب عن ردة الفعل الاولى ضد التجنيد الاجباري (٣) : « وقام اهل قسطل الحرامي وهاجموا القره قول (المخفر) فأكلوا ثاني يوم عصي بالصرايا (دار الحكومة) فتوغرت صدورهم » .

في البدء تكونت جموع الثائرين من العامة في المدينة وسرعان ماانضم اليها البدو والقرويون . وكان لانضمام البدو والقرويين المحيطين بحلب اثاره السلبية والايجابية على قومة /١٨٥٠/ . ايجابيا اشتد عضد الثائرين وقويت شوكتهم ، وسلبيا رجحت كفة الميول الراغبة في السلب والنهب من ذوي الثراء غير المسلحين . ومعنى ذلك ان كفة العامة الرثة غير المنظمة امست راجحة على كفة العامة الواعية اجتماعيا لمصالحها وغيرالراغبة في السلب والنهب عشوائيا اومن احياء معينة معروفة بثرائها وتحمل بذور التطور البورجوازي .

هذه الجموع الثائرة من الحرفيين والبدو والقرويين اخذت تجوب شوارع حلب طوال الهزيع الاخير من مساء /١١/ ذي الحجة /١٢٦٦/ هـ /١٨٥٠/م ، وقد علت ضوضاؤها وهي تهزج الاناشيد الزجلية على انغام الطبول مرددة « عسكر مانعطي فردي مانعطي »(٤) . اي انهم يرفضون الذهاب الى الجندية لخدمة دولة لاناقة لهم فيها ولا جمل ، ويرفضون ايضا دفع الضريبة الجديدة الفردي وهي ضريبة الاملاك (الترابية) التي ستذهب كسابقتها من الضرائب الى جيوب الطبقة الاقطاعية الحاكمة ومن يطبل لها ويزمر من الاتباع .

هذه الجموع الثائرة وصلت الى محلة الاماجي والماوردي ، وهنا اخذت العناصر المتخلفة منها والدخيلة في اطلاق الرصاص وتكسير الابواب والسلب والنهب حتى طلوع شمس يوم الثاني عشر من ذي الحجة .

في صباح /١٢/ ذي الحجة امسى واضحا ان روح السلب والنهب والتخريب سيطرت على مزاجية الجماهير الثائرة ، وبخاصة العناصر المتخلفة منها (العامة الرثة) وتعود اسباب ذلك الى تخلف اقسام كبيرة من العامة وانضمام البدو المعتادين على

الغزو والسلب وسعي عناصر الثورة المضادة في توجيه الثورة بعيداً عن هدفها الجوهري . كما أن ضعف البورجوازية الناشئة ، والتي لم يكن بمقدورها ، بسبب كونها اقلية دينية مسيحية ، من تزعم حركة العامة ، بل جرى الامر بالعكس تماماً اذ سرعان ما تحولت اهداف الثورة وتوجهت الاقسام المتخلفة من الثائرين لضرب تلك النواة البورجوازية . ولهذا سارت الجموع الثائرة باتجاه حي الصليبة وهو حي مسيحي ، وشرعت في تحطيم الابواب والنهب . وكان اكثر اغنياء الحي المذكور قد غادروا بيوتهم وتحصنوا في الخانات ، ومنهم من دعا الى بيته بعض اصحابه من المسلمين او ممن يتلقون اجرا فحموهم من النهب . كما ان عددا من المسلمين المجاورين للمسيحيين في حارتي المحبي والشرعوس حموا جيرانهم من النهب والاعتداء .

وعلى الرغم من محاولة توجيه مسار قومة حلب في اتجاه مخالف لاهدافها ، فان الاتفاق الذي جرى بين ممثلي السلطة والثائرين حقق بعض مطالب العامة ، ونص على ان تستثنى حلب من « القرعة العسكرية » اي ان تعفى من التجنيد الالزامي ، وكذلك من عدة ضرائب اميرية .

يلاحظ بوضوح الفرق بين ثورتي العامة في حلب في عامي ١٨٢١ و ١٨٥٠ .

في عام /١٨٢١/ اخذت العامة زمام المبادرة بسرعة وهاجمت دون تأخير مراكز السلطة التركية واستولت عليها وملكت حلب من بابها الى محرابها بما فيها القلعة . اما في عام /١٨٥٠/ فلم تكن القيادة العسكرية السياسية للثورة على مستوى ضخامة وعمق الجذور الشعبية للتحرك . ولم تضع قيادة قومة /١٨٥٠/ نصب اعينها الاستقلال عن الدولة العثمانية كما جرى عام /١٨٢١/ بل اقتصرت مطالبها على امور محددة (الغاء الخدمة العسكرية الاجبارية ، والغاء الضريبة الشخصية عن الافراد واستبدالها بضريبة عن الاملاك)(٥) وشغلت نفسها بالسلب والنهب ولم تبادر الى الاستيلاء على الثكنة ، والقلعة قبل وصول الامدادات اليهما . كما انها لم تفكر في فرض الحصار على القلعة والثكنة ، مما افسح المجال امام الوالي للتحرك بحرية نسبية .

وبعد وصول الامدادات العسكرية تمكن الوالي من اخذ زمام المبادرة والبدء بمهاجمة حلب وجرت معارك في الشوارع زاد من حدتها وصول النجدات الى اهالي

حلب من رجال العشائر المحيطين بحلب . ولم تكن نجدات العربان البدو هذه في صالح الثورة لانها بعثت الفوضى والاضطراب في صفوف الثوار المنضبطين نسبيا . وعندما تمكن جنود الوالي من فتح ثغرة في صفوف الثوار دب الرعب في صفوف العربان ، الذين ولوا الادبار هاربين الى مضاربهم في البادية تاركين الثوار يقاتلون بمفردهم . مما الحق بهم الهزيمة في مساء /٦/ محرم (١٢٦٧) هـ .

وعلى الاثر شرع جند الوالي في تعقب الثائرين في احياء بانقوسا وباب النيرب وقارلق وشرعوا في نهب الاسواق وقتل من لاقوهم من الاحياء . وبعد ان تمت عملية النهب قام جنود الوالي بحرق اسواق تلك الاحياء وملاحقة الثائرين الفارين الى القرى . وقامت السلطات التركية مستغلة انتصارها بالحد من نفوذ الاشراف وقادة الانكشارية القدامى . ولكن هؤلاء سرعان مااستعادوا مواقعهم القديمة في المدينة(٦) .

٢ ـ الثورة المضادة للتطور الاجتماعي في احداث دمشق /١٨٦٠/ :

شمل الصراع بين النواة البورجوازية الناشئة والاقطاعية معظم انحاء الدولة العثمانية بما فيها العاصمة استنبول . وقد راينا كيف اصدر السلطان ـ نتيجة عوامل خارجية ـ في شباط /١٨٥٦/ « الخط الهمايوني » الذي ضمن حرية حركة الراسمال الاجنبي في الدولة العثمانية ، وسن بعض القوانين لصالح البورجوازية الناشئة .

وقد لاقى « الخط الهمايوني » معارضة قوية من القوى الرجعية في العاصمة والولايات ، التي سعت لقبره في مهده او عرقلة تنفيذه . هذه الرجعية المحافظة كانت ذات رؤيا محددة وافق ضيق وثقافة ضحلة . ولذلك فانها لم تفهم طبيعة الجهود الرامية الى فرض المركزية واشاعة جو من الحياة الليبرالية البورجوازية اخذت تدفع في مساره داخليا القوى الاجتماعية الناشئة في المجتمعات العثمانية ، وخارجيا الدول الاوروبية ، ولم تقدر القوى المحافظة مدى الضغط الخارجي الاوروبي ، كما بالغت في مدى قوتها كزعيمة وحيدة للمدن العثمانية . ولم تر هذه القوى ان ثمة قوى جديدة اخذت تنشأ في المدينة وسيكون لها شأن فيما بعد .

ومن هذا المنظار يمكن القول : ان احداث /١٨٦٠/ المعروفة في دمشق كانت حصيلة الصراع بين القوى الرجعية المتمثلة في اجهزة الدولة القديمة وما يلحق بها من تقاليد وعادات بالية تقوم على ارضية العلاقات الاقطاعية المتصدعة وبين القوى التقدمية الناشئة الممثلة للتطلع البورجوازي ، التي اجهضت تطورها الهجمات المتلاحقة للرجعية دون ان تقضي عليها .

وبعبارة اخرى كانت احداث /١٨٦٠/ في دمشق(٧) اشبه بثورة مضادة للقوى الاقطاعية ضد التطور البورجوازي المتمحور في الحي الشرقي من المدينة .

وقد شارك في الفتنة ، التي هيأ لها الوالي العثماني وجهازه الاداري الاقطاعي القوى التالية :

ـ الزعماء المحليون العسكريون (الاغوات) الذين فقدوا سيطرتهم العسكرية السابقة واحتفظوا بجزء من سلطتهم عن طريق السيطرة على تجارة الحبوب والماشية ... وهم يطمحون باستعادة سيطرتهم .

ـ فئات الحرفيين والتجار المرتبطين بالانتاج الحرفي ، الذين استاؤوا من غزو البضائع الاجنبية الاوروبية ، التي نافست الانتاج الحرفي المحلي وادت الى نوع من الركود في الانتاج والتبادل في البضائع الحرفية المحلية . واخذت نقمتهم تتجه باتجاه الوسطاء القاطنين في الحي الشرقي من المدينة . وبسبب عوامل التحريض المنظمة من القوى الرجعية والمتخلفة شمل التحريض سكان الحي الشرقي بأجمعه . ولم يكن لدى المهاجمين الوعي للتفريق بين الوسطاء المستوردين للبضائع الاجنبية وبين عامة اهل الحي المستثمرين ايضا .

ـ سكان الارياف المهاجرين الى ضواحي دمشق بسبب الجفاف والقحط . وكان هؤلاء يعيشون في فقر مدقع وهم بسبب ضعف وعيهم الاجتماعي كانوا مستعدين للمشاركة في اي تحرك بأمل الحصول على لقمة العيش عن اي طريق كان .

ـ اعداد لابأس بها من العامة الرثة ، التي لا تمتهن مهنة منتجة ومستعدة للمشاركة في اي عمل يؤدي لحصولها على الغنيمة .

لقد كان صيف /١٨٦٠/ عقدة لقاء سلسلةمن التناقضات الاقتصاديةوالاجتماعية والسياسية والفكرية انفجرت على شكل صراع ديني امكن عن طريقه جر جماهير واسعة لا مصلحة لها في الصراع ودفعها في ظل ظروف نفسية مدبرة الى الهجوم على الحي الشرقي من المدينة .

والتاريخ العالمي يعرف امثلة كثيرة من هذا النوع تمكنت فيها القوى الرجعية من تحويل الصراع الاجتماعي ، بين من يملكون الثروة ولا ينتجون ومن ينتجون ولا يحوزون الا على النزر اليسير من انتاجهم ، الى صراع ديني او طائفي او مذهبي .

في صيف /١٨٥٩/ اسندت ولاية الشام الى احمد عزت باشا ، الذي انتمى الى الرجعية العسكرية والمدنية الناقمة على حركة الاصلاح والخط الهمايوني(١٨٥٦) والساعية لقبر هذه الاصلاحات في مهدها .

وصل احمد باشا الى دمشق والتحرك الفلاحي في جبل لبنان يهز اركان العلاقات الاقطاعية فيه ، منذرا بولادة العلاقات البورجوازية المبكرة . ولكن الصراع الاقطاعي في جبل لبنان سرعان ماتحول ، بجهود الرجعية المحلية والعثمانية وتدخل الدول الاجنبية ، الى صراع طائفي بين الموارنة والدروز . واخذت اخبار هذا الصراع تصل تباعا الى دمشق . ورات الرجعية المحلية في احداث لبنان مادة مناسبة لتهيج الخواطر ضد نواة التطور البورجوازي ؛ التي ضمن لها الخط الهمايوني لعام /١٨٥٦/ حق الحياة . وكانت الثروات المتوفرة لدى التجار واغنياء الحرفيين في الحي الشرقي تستثير ايضا لعاب الرجعية المحلية والفئات المتخلفة اجتماعيا من العامة والخاضعة فكريا لسيطرة الرجعية المحلية المدنية .

ولم يكن بامكان القوى النيرة التقية والورعة المهتدية بانوار صفاء العقيدة وتسامحها ، او التي تحمل بين جوانحها بذور التطور البورجوازي المقبل الوقوف امام العاصفة المدمرة .

في تلك الاثناء سعت قوى الظلام الاقطاعية نقل الفتنة الى ريف دمشق وجرت محاولات تحريض معروفة آنذاك . ولكن الاخاء الفلاحي في قرى ريف دمشق كان اقوى من نيران الفتنة ، وعاش ريف دمشق في سلام ووئام وكذلك الامر في حمص

وحماة . وهذا يدل ان للفتنة اسبابا اخرى غير دينية وهي نتيجة دوافع اجتماعية سياسية وثقافية واقتصادية اشرنا الى بعضها».

بعد انتهاء الاحداث سعت الدولة العثمانية للاستفادة منها واخضاع مدينةكبيرة كدمشق عن طريق الاعدامات وفرض الغرامات . وكان موظفو الدولة العثمانية ــ ومعهم صيارفة اليهود في ولاية الشام ــ هم اول من استفاد من فرض الغراماتوسعى للحصول على النصيب الاوفر منها .

ان اعدام عدد ضخم من اهالي دمشق ونفي عدد اخر وسوق الاخرين الى الجندية كان ضربة قاصمة موجهة الى دمشق والحركات الشعبية فيها . وقد انهكت المجازر وما تبعها من عقوبات عامة الناس ، واخرت قيام الحركة الوطنية العربية المناهضة للعثمانيين عشرات السنين .

« وربحت الدولة من كل هذا تذليل الرعيةواخضاع الزعماء وارباب المقاطعات(٨)» كما وجهت هذه الاحداث ضربة قاصمة للتطور البورجوازي في دمشق . وقدخسرت دمشق الوفا من البيوت التي هاجرت الى بيروت وقبرص ومصر واستوطنت هناك استيطانا دائما(٩) . وادى ذلك الى خسارة النواة البورجوازية الدمشقية وبقاءدمشق خاضعة لفترة اخرى من الزمن للعلاقات الاقطاعية الشرقية بشكلها الجديد .

ان احداث /١٨٦٠/ كلفت دمشق والحركة الشعبية فيها ثمنا غاليا . وكانت نصرا واضحا للقوى الرجعية في استنبول خاصة وهزيمة للحركة المناهضة للاقطاع ولقوى التقدم الاجتماعي المتمثلة آنذاك بالفئات الوسطى ذات الملامح البورجوازية المبكرة . ولقد خنق التعصب الديني تأخر ظهور حركة النهضة العربية في دمشق حتى مستهل القرن العشرين . ولم تتمكن الحركة الوطنية العربية في دمشق من الوقوف على رجليها الا بعد انهيار الدولة العثمانية عام / ١٩١٨ / ووقع عبء النهوض بالنهضة العربية الحديثة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على كاهل القوى المستنيرة في جبل لبنان وبيروت ،التي وضعت اسس حركة البعث القومي في بلاد الشام . ومنذ مستهل القرن العشرين اخذ مركز النشاط القومي ينتقل تدريجيا الى دمشق ، ثم استقر فيها بعد الحرب العالمية الاولى (١٩١٨) .

٣ ـ ميثاق الاخاء بين الطوائف في الناصرة وقراها :

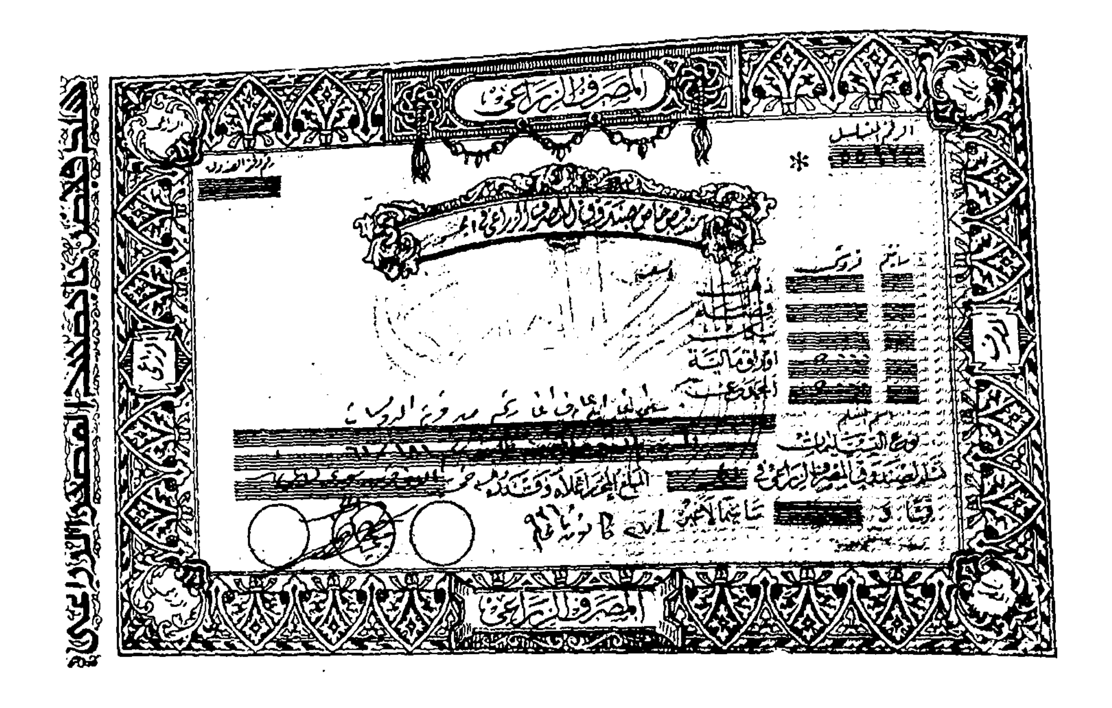
ان الاحداث الجارية في حلب (١٨٥٠) ودمشق (١٨٦٠) وفي جبل لبنان (١٨٥٩ ـ ١٨٦٠) كما سنرى ـ اتخذت شكلا طائفيا او دينيا في حين كانت في جوهرها صراعا اجتماعيا بين القوى الاقطاعية الرجعية وقوى التقدم المتمثلة في منتصف القرن التاسع عشر بالبورجوازية المبكرة والفلاحين وانصار الفكر الليبرالي المتحرر . وسنرى من جهة اخرى أن عامية /١٨٢١/ في لبنان ضمت فلاحين من مختلف الطوائف ضد ممثلي الاقطاعية .

اما في الناصرة فان الاخاء بين الطوائف بلغ حدا كافيا من الوضوح في وقت كانت الصراعات الطائفية شكلا والاجتماعية مضمونا تأخذ ابعادا خطرة .

في عام ١٨٥٤ عقد في مدينة الناصرة الفلسطينية ميثاق بين وكلاء (ممثلي) الطوائف التالية : المسلمين السنة ـ الروم الارثوذكس ـ الروم الكاثوليك ، اللاتين والبروتستانت . هذه الطوائف توصلت في تلك السنة عندما تدهور الامن وعصفت رياح التعصب الاعمى وتعرضوا للخطر ، الى توقيع ماعرف باسم « ميثاق العمومية » الذي كتبه قاضي الناصرة محمد امين الفاهوم واودع في دير الفرانسيسكان في الناصرة .

ومع الاسف فان مكان النص العربي للوثيقة مجهول حاليا ، وهناك ترجمة للنص الى الانكليزية قام بالاشارة اليها الدكتور فريتز شتيبات في دراسته حول « تغلغل المفاهيم السياسية الاجتماعية الزمنية في القرن التاسع عشر » المنشورة في وثائق « المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام » المنعقد عام ١٩٧٨ .

* * *



ـ صورة لسند دين للمصرف الزراعي عام ١٩٢٦

الجمهورية السورية — وصول مخصوص للضرائب التي تقبض من قبل مأموري الجباية — وزارة المالية

رقم الوصول ٨٤٠٢٦٦

رقم التذكرة

المقدار المقبوض	أنواع الضرائب	السنة				
	المسقفات مع ضمائمها					
	الأراضي					
	التمتع					
	طوابع					
١١٠٢٦	المجموع					

ساعي الدائرة — الجابي — الخاتم الرسمي

ـ ضريبة العشر التي كانت تفرض على الفلاحين ـ عام ١٩٣٩ ـ

الفصل الثالث

الانتفاضات الفلاحية في القرن التاسع عشر

١ ــ العاميات الشعبية الفلاحية في جبل لبنان :

في القرن التاسع عشر تمركزت الحركات الفلاحية واشدها باسا في جبل لبنان نظرا لضعف سلطة الحكومة المركزية ونتيجة عملية التغيير الاقتصادية الاجتماعية، التي ادت الى تفاقم التناقضات داخل المجتمع . فالتطور الحر للعلاقات السلعية ــ النقدية والبورجوازية تطلب الحرية في انتقال السكان والمبادرة في المجال الاقتصادي وضمان الملكية والحقوق الشخصية والمساواة الاجتماعية وتشريعات جديدة ونظاما قضائيا جديدا ثم في النهاية اشكالا ديموقراطية جديدة للحياة الاجتماعية . ولم يكن لكل هذه الامور وجود فعلي في لبنان . فقد كانت الفئات الاقطاعية هي المسيطرة سياسيا واقتصاديا في البلاد ، اما بقية الفئات من السكان فقد كانت منقوصة الحقوق طبقيا، وكان قسم من الفلاحين في تبعية للاقطاعي ، إما شخصية او بسبب الارض . وكان اعيان الريف والتجار والحرفيون واصحاب المانيفاكتورات في زحلة ودير القمر في تبعية للاقطاعيين الذين يعيشون في اراضيهم من الناحية الادارية والقضائية والضرائبية(١٠).

لقد تبلور التفاعل الاجتماعي في جبل لبنان على اتم وجه في نضال بين طبقتين اساسيتين، طبقة الفلاحين وطبقة الاقطاعيين من الامراء والمشايخ المرتبطين والخاضعين لولاة وباشوات الدولة العثمانية في دمشق وطرابلس او في صيدا وعكا . وكان ولاة الدولة العثمانية ومن ورائهم سلطانهم الاكبر القابع بين حريمه في استنبول ،

يلحون على الامراء في دفــع « المال السلطاني » والاموال الاخرى . وهذا مما دفــع الفلاحين للقيام بسلسلة من التمردات المعروفة بـ « العاميـات الشعبية » التي شملت فئات واسعة من الفلاحين ورفعت النضال الطبقي الـى ارفـع المستويات ، واسهمت في بلورة الحركة الوطنية والقومية العربية ودفعها الى الامام .

كانت عامية المتن او عامية حمانا سنة /١٨٠٥/(١١) اولى الانتفاضات الفلاحية الواضحة . فقد رفض اهالي المتن ما طلب منهم لكي يتمكن الامير بشير من استرجاع السندات التي كانت مسجلة عليه وعلى من زاحمه من الشهابيين قبله في اضبارات والي عكا العثماني احمد باشا الجزار . وقد التف اقطاعيو لبنان وعـلى راسهـم آل اللمع حول الامير بشير ، الذي نكل بالاهلين وارغمهم على دفع مائتي كيس ...

ما كادت تمر خمس عشرة سنة على عامية حمانا /١٨٠٥/ حتى اندلعت عامية انطلياس سنة /١٨٢٠/ بصورة اشد حدة(١٢) ففي السنة الاولى من ولايـة والي عكا عبد الله باشا الجازندار ، عجز الامير بشير عن تلبية طلب الوالي ، بسبب المقاومة الشعبية ضد سياسة جمع الضرائب كل صباح ومساء فقد عقد مؤتمـر شعبـي في انطلياس سنة /١٨٢٠/ حضره ستة آلاف متني وكسروانـي قـرروا فيـه تنظيـم المقاومة وانتخاب وكلاء عن كـل قريـة . وكان هذا المؤتمر اكبر برهان امام الامـير بشير ، دل على ان الوقوف امام المقاومـة الشعبية أمر غير محمود العواقب ، فـي الوقت الذي يتربص خصومه ومزاحموه به الدوائر . وهذا ما دفـع الامير بشير ومعه الشخ بشير جنبلاط وحاشيتهما الى هجر البلاد والاتجاه الى حوران .

لقد انتصر الفلاحون في عاميـة انطلياس واضطر الاقطاعيون للتراجع وتأجيـل « المـيري » وازالـة بعض العادات والحقوق الاقطاعية مثل السخـرة والضـرب وتقديم الهدايـا .

ولكن الاقطاعيين ما لبثوا ان نكثوا بوعدهم فانفجرت العامية الثالثة ، عامية

لحفد عام /١٨٢١/ التي أثارها ايضا فرض اموال اضافية على الاهالي ليتمكن الامير من تامين كرسي الامارة واشباع جشع والي عكا عبد الله باشا(١٣) وتتميز عامية لحفد بشمولها واتساعها . فقد عمت بلاد جبيل والبترون وكسروان وانضم اليها ايضا فلاحو شمال لبنان . وكان عدد مقاتلي عامية لحفد خمسة آلاف شخص . وجرت مواقعها في عدة قرى وبخاصة في لحفد . ولأول مرة في تاريخ الانتفاضات الفلاحية الثورية في لبنان تشترك النساء بصورة مكشوفة وواسعة . ولكن تحالف القوى الاقطاعية واغراق العامية بالدم واستخدام العنف المباشر قضى على هذه العامية .

بعد رحيل المصريين عن سورية في أوائل عام ١٨٤١ اخذ الاقطاعيون العائدون من المنفى في جبل حوران ، يسعون للحصول على حقوقهم السابقة واراضيهم المتوارثة. وكان الامير بشير الشهابي قد وزع مقاطعاتهم في فترة غيابهم،وانتقل قسم من الاراضي الى ايدي التجار والاديرة والفلاحين الاغنياء . ولهذا رفض صفار الفلاحين الطلبات الاقطاعية .

في خريف عام /١٨٤١/ انتشرت الحركة المناهضة للاقطاعية في مناطق لبنان المتوسط والجنوبي فقط ، حيث سعى الاقطاعيون لاستعادة مواقعهم السابقة قبل مجيء ابراهيم باشا . أما لبنان الشمالي فكان لايزال ينعم بالهدوء .

ولكن هذه الصدامات التي جرت بين الفئات المتصارعة افادت في النهاية السلطة التركية التي سعت الى تثبيت اقدامها في جبل لبنان ، كما ادت كذلك الى استفحال امر الرجعية الاقطاعية .

كانت « العاميات الثلاث » بالاضافة الى حركتي عام ١٧٨٢ وعام ١٧٨٤ لاتزال في طور التمردات الفلاحية التقليدية المقتصرة على مقاومة الضرائب بقيادة الاقطاعيين المستائين من الوضع لعدم تمشيه مع مصالحهم الخاصة .

ولكن لبنان شهد ــ كما راينا ــ خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر ، فترة تفسخ النظام الاقطاعي تحت تاثير العلاقات البورجوازية الناشئة . وكانت العلاقات البورجوازية والسلعية النقدية الآخذة في التطور تتناقض مع البنية الاجتماعية في البلاد حيث ينعدم التساوي بين مختلف فئات السكان ، وحيث يسود حرمان الفلاحين وسكان المدن (بيروت ــ زحلة ــ دير القمر) من حقوقهم ، وعدم صيانة املاكهم وارواحهم من تعسف الاقطاعيين ، ومن استعمال الاوساط الاقطاعية لامتيازاتها من اجل الاستيلاء على اراضي الفلاحين وفرض الرسوم والاتاوات التعسفية .

وقد ادى التطور الاجتماعي ــ الاقتصادي في لبنان الى تغير كبير في التركيب الطبقي للسكان . وتالفت القوى الطبقية في منتصف القرن التاسع عشر على النحو التالي(١٥) .

١ ــ البورجوازية الجديدة الناشئة المؤلفة من التجار والمرابين واصحاب الورشات الحرفية والمانيفاكتورات . وهذه البورجوازية تكونت اساسا من العناصر في كل من بيروت ودير القمر وزحلة وغيرها من التجمعات السكانية ، اي القرى المهنية الكبيرة . وكانت هذه الاوساط البورجوازية الناشئة تربة خصبة لنمو الافكار البورجوازية القادمة من اوروبا مع الرحالة ورجال السياسة والصحفيين والتجار وبحارة السفن .

٢ ــ الارستقراطية الاقطاعية التي فرضت سيطرتها على مناطق كسروان في الشمال ، وفي الشوف ، والجنوب .

٣ ــ الفلاحون باقسامهم الثلاثة المعروفة : الفلاحون الفقراء والمتوسطون والاغنياء .

وبسبب التناقضات في التوزع السكاني ، استغلت الارستقراطية الاقطاعية ،

توجيه التفجرات الفلاحية التي قام بها فقراء الفلاحين ، في غير مجراها الصدامي الطبقي ضد النظام الاقطاعي ، وتحويلها الى صدام طائفي ، يضمن مصالح المستفيدين منها ، مثل :

رجال الدين الموارنة ـ السلطات التركيـة ـ القنصليات الاجنبية في بيروت ، اضافة الى الارستقراطية الاقطاعية المحلية المارونية والدرزيـة .

في عام /١٨٤٥/ اخذت سحب الصدام بين الدروز والموارنة تبـدو واضحـة في سماء لبنان ، فالجماهير الشعبية المارونية بقيادة اعيان مدينة دير القمر سعت للقضاء على الرجعية الاقطاعية التي كسبت الجولة في عام ١٨٤١ .

والتجار الاغنياء في دير القمر واصحاب ورشات نسج الحرير الذين طمحـوا بالتحرر من اضطهاد واشراف الاقطاعيين الدروز ، اخذوا يتدخلون اكثر فاكثر فـي علاقات الاقطاعيين الدروز بفلاحيهم المسيحيين بحجة الدفاع عنهم (٦١) .

ومع ان جوهر حوادث عام /١٨٤٥/ هو معاداة الاقطاعيـة ، الا ان النضال ضد الاقطاعية اتخـذ طابع الصدام بين الدروز والموارنة . لماذا ؟... ثمة اسباب عديـدة حولت مجرى الصدام بين الدوزر والموارنـة فالصدام الديني مثل قوة العداء الطائفي بعد حوادث عام ١٨٤١ والصلـة الوثيقة بين الفلاحين الدروز ومشايخهم الـخ ... وكانت هناك عوامل اخرى كميل بعض الاوساط لتأريث العداوة واسباغ الطـابـع الديني على المعركة عمدا . وقد كانت هذه الرغبـة ملازمة لرجال الديـن الموارنـة الذين حاولوا عن هذا السبيل أن يؤمنوا لانفسهم الغلبة السياسية في البلاد .

وسرعان ما تتالت الاجتماعات وعقدت صفقات شراء الاسلحة الـى أن اندلعت نيران القتال بين الدروز والموارنة في الايام الاخيرة من نيسان واستمرت حـتى ايلول

من عام /١٨٤٥/ لقد انهكت الصدامات الدرزية المارونية في عام /١٨٤٥/ قوى الجماهير الشعبية في لبنان الاوسط والجنوبي . كما أن تنازلات شكيب افندي وزير خارجية الباب العالي ، الذي قدم الى بيروت لاعادة تنظيم الحكم في لبنان أضعفت حدة التناقضات القائمة في البلاد واخمدت حركة الفلاحين مؤقتا(١٧) .

ولكن موجة الحركة الفلاحية ابتدأت بالارتفاع مجددا منذ النصف الثاني من الخمسينات بعد ان شهدت البلاد تطورا سريعا في المجالين الاجتماعي والاقتصادي .

منذ ربيع عام /١٨٥٨/ بدأ الهياج بين الفلاحين في كسروان ، في الوقت ، الذي كانت الفئات الاقطاعية الكسروانية من آل الخازن تتصارع حول منصب القائمقامية. وقد اشار معاصر الاحداث انطوان ضاهر العقيقي الى أن الفلاحين بدأوا يعبرون عن استيائهم « باللهج فيما بينهم عن انهم صاروا كالعبيد بيد المقاطعجية وما عاد لهم قول ولا مشورة في شيء » .

والواقع ان العاميات الثلاث التي شملت فئات واسعة من الفلاحين في جبل‌لبنان، ونهضت بهم للنضال ضد تعسف الضرائب كونت ، فيما بعد ، خميرة جيدة واعطت زخما قويا لاكبر انتفاضة فلاحية عرفها جبل لبنان ، تلك الانتفاضة التي قادها في سنة ١٨٥٨ البيطار طنوس شاهين . فقد حاول زعيم الحركة ان ينشيء مجتمعا اشتراكيا زراعيا « كما أقام في مركز الانتفاضة » (جمعية الاخاء) تحت شعار « العداء لملاكي الاراضي »(١٩) .

ورأى يوسف ابراهيم يزبك في الحركة الفلاحية التي قادها طانيوس شاهين معلن الجمهورية اللبنانية سنة /١٨٥٨/ اول ثورة شعبية في بلاد العرب في العصر الحديث . وهي ثمرة تمرد الفلاح اللبناني على حكامه الاقطاعيين ، وحصيلة نضال العامة في سبيل الرغيف والحرية . ولكن هذه الحركة لم تسلم من دسائس قناصل الدول الاجنبية الطامعين في السيطرة على بلاد العرب(٢٠) .

اما فؤاد قازان فتطرق الى العناصر ، التي تمازجت وتفاعلت وادت الى « الثورة الفلاحية الشعبية في القرن التاسع عشر في لبنان بقيادة طانيوس شاهين »(٢١) . فالثورة

لم تكن بنت يومها ، بل هي ثمرة الصدوع العميقة التي اصابت بنية النظام الاقطاعي. فما ان ازف العقد السادس من القرن الماضي على نهايتـه حتـى تبلـورت مطالـب الفلاحين في منطقة كسروان في دفتر المطالب التي رفعوها الى مشايخهم وطالبوا فـي خريف /١٨٥٨/ بتحقيق مايلي :

١ ــ توزيع الاموال الاميرية ومال الاعناق بموجب ماسمي آنذاك بترتيبات شكيب افندي وأن يدفع المشايخ ما يصيبهم منها دون زيادة بارة عليها » .

٢ ــ رفع التعديات والمظالم والزوايد من تساخير وخدم وحوالات تؤخـذ مـن الاهالي بواسطة المشايخ وهي تتناقض مع الترتيبات الخيرية (اي الخطوط الهمايونية) ومحاكمة المخالفين وارغامهم على ارجاع ما قبضوه .

٣ ــ المعايدات ورسومات النكاح التي كانت جارية من جناب المشايـخ في بعض محلات او معايدات المشايخ المترتبـة عند مبيعهم ارزاقهم للاهالي فهذه تلزم بطالتها وازالتها بالكليـة .

٤ ــ قضية المامورية التي هي من اعظم المهام لاجل سياسة الاهالي ورفع المظالم والمغايرات . فالمامور لاجل السياسة بمقتضى العدالة والقوانين ... وأن يقام بكـل قريـة وكيل او وكيلان على قدر كبر القرية وصغرها تحصيـلا للراحـة وتسهيـلا لنفوذ اوامر المامور .

٥ ــ بموجب الخطوط الهمايونية لا يكون تمييزات او احتقارات بالمخاطبات وأن تتغير كافة الاصول القديمة بما يخص الكتابات وصارت رسومات جديدة للجميع .

٦ ــ ان يكون امرالمامور نافذا علىالجميع من دون استثناء لا يكون معروفا ومميزا من العموم .. ومابقي من جناب المشايخ اذا وقع منهم تعديات على الاهـالي عليهـم التاديبـات .

مع تقديم هذه المطالب ، التي لم تكن متطرفة ، دخلت الثورة المرحلة الاخيرة من مراحل التفاوض السلمي بين الفلاحين والمشايخ . فالقوى الاقطاعية لم تذعن في هذه المرحلة لمطالب الفلاحين وبدا واضحا انها لا تفهم الا لغة السلاح . وهذا دفع القوى الفلاحية لتغيير اسلوبها والانتقال الى الشكل المسلح للثورة .

في بدء النهوض الثوري الفلاحي كان على راس التجمعات شخص معتدل اسمه صالح جرجس صفير ولكن انعطاف الامور باتجاه العنف والكفاح المسلح دفعه بسبب تردده للاستقالة من الوكالة العامة (القيادة) وانتخب الفلاحون بالاجماع البيطري الحداد طانيوس شاهين (١٨١٥ ــ ١٨٩٥) وكيلا عاما لقيادة الثورة وذلك في الاشهر الاخيرة من عام /١٨٥٨/ .

بعد ان رفض المشايخ المطالب المعتدلة السابقة تقدم الفلاحون بمطالب جديدة الى الاقطاعيين من آل الخازن ، اتخذت محتوى سياسيا وتضمنت بالاضافة الى المطالب السابقة ، الغاء النظام الاقطاعي السياسي والقضاء على الامتيازات الطبقية وان يختفي المشايخ من حياة البلاد السياسية لانهم غير اهل ليحكموا بالعدل والانصاف .

تضمنت المطالب الجديدة « البنود المطلوبة لنا من بني خازن » ما يلي : « بند اول : الدعاوى العمومية تجري محاسبتها عنيد (عن يد) شخصين منتخبين اولهما منتخب من قبلنا والثاني من قبل المشايخ .. بند ثاني : تكون منزلة المشايخ بمنزلتنا في كل شيء بدون استثناء البتة .. بند ثالث : يدفعوا المشايخ اكلافنا التي تكلفناها بسببهم من مصاريف التحولات ومصاريف الوكلاء .. بند رابع : ان المشايخ لا يكون منهم احد ما مأمورا علينا ... بند خامس : رسومات المعايدات التي مسنينها علينا بسندات عند بيعهم لنا محلات من ارزاقهم فهذه حيث كانت تتصل جبرا فتكون باطلة ماضيا وحاضرا ومستقبلا » .

عندما رفض الاقطاعيون من آل الخازن مطالب الفلاحين اندلعت الثورة في سائر انحاء كسروان فلم تخل قرية ولا دسكرة ولا مزرعة الا وتاسست فيها فرق الانصار

الفلاحية . وبعد طرد المشايخ من البلاد اعلنت الجمهورية واصبحت مصادرة ممتلكات المشايخ تتم « بقوة الجمهور وبقوة الحكومة الجمهورية » ووضعت لوائح سجلت عليها كل ما كان يأخذه المشايخ بالقوة والبلص من الفلاحين واعيدت الى اصحابها .وصودر الحرير والحنطة والمواد الغذائية لاطعام الجياع والمشردين(٢٢) .

وتشاء المصادفة ان تتوافق هذه الاحداث «الثورة» في لبنان مع احـداث مشابهة جرت في عينتاب ومنطقتها (شمالي سورية) حيث هاجم الجياع والفقـراء الافران وبيوت الاعيان ووزعوا على بعضهم الخبز والدقيق والمواد الغذائية . وكانت الحركة قويـة لدرجة ان المفتي الذي نهبت داره اضطر للتعاطف مع الجماهير الجائعة ففتح جامعا جلب اليـه الدقيق الذي سلم للافران ليوزع خبزا على الفقراء . وقـد سقط بعض القتلى والجرحى من جيش الجياع قبل ان تقمع الانتفاضة .

وفي الوقت نفسه رفض الفلاحون في ناحية صافيتا بين عامي /١٨٥٨ ـ ١٨٥٩/ دفع الضرائب للسلطات التركية ، في الوقت الذي كان الهياج يعم معظم جبل لبنان (٢٣) .

كان انتخاب طانيوس شاهين (٢٤) احدى نتائج الخلاف الذي دب في صفـوف المشتركين بالحركة المعادية للاقطاعيـة وهي ما تزال في منتصف الطريق . فانتخاب طانيوس شاهين كان معناه تغلب الجناح الثوري على الجناح الاصلاحي داخل الحركة الفلاحية وقد ضم الجناح الثوري الفلاحين الذين لا يملكون ارضا واصحاب الاراضي الصغيرة والحرفيين الريفيين الفقراء وممثلي الاوساط الغنية الاكثر يساريـة مـن زملائهم الاخرين .

ولكن استيلاء الجناح اليساري من الحركة المعادية للاقطاعية في كسروان علـى اراضي المشايخ (الاقطاعيين) اثار الهلع في قلوب اعيان الريف الذين كانوا يخشـون ان تؤدي الحركة المتنامية الى الاستيلاء على اراضيهم المؤجرة للشركاء مـن الفلاحين الفقراء ومع ان مفعول الاستيلاء على اراضي المشايخ لم يطبق على اراضي اعيـان الريف والكنائس والاديرة ، الا ان هذا الاجراء ادى الى نشوب صراع داخل صفوف

المتمردين ، والى قبول اعيان الريف بالحلول الوسطية في حين وقف الفقراء الفلاحون ضد أراء موسري الريف .

لم تسلم الثورة الفلاحية في كسروان من الاستغلال الداخلي والخارجي . فالأكليروس حاول في البدء استغلال الثورة لزحزحة الاقطاعية المشيخية والحلول محلها في الحكم . والسلطات العثمانية ارادت مد نفوذها الفعلي الى الجبل . وفرنسا المؤيدة للاكليروس اصيبت بخيبة امل عندما تعمقت جذور الثورة وانقلبت على الاكليروس . اما الانكليز فحاولوا توجيه الثورةفيغير اتجاهها وكسب قائدها طانيوس شاهين للحلول محل فرنسا .

كان مقدرا للثورة الفلاحية المعادية للاقطاعية في كسروان ان تعم سائر أرجاء لبنان وربما تمتد الى ماوراء حدوده فالحلف اللامقدس المعادي (٣٥) للثورة المؤلف من الاقطاعيين الموارنة والدروز والاكليروس والسلطة العثمانية والكولونيالية الافرنسية والبريطانية ادركوا خطر الثورة المهددة لمصالحهم ، لانها تحمل بين طياتها اخطار الامتداد الى المناطق العربية الاخرى ... وكان السلاح البغيض لمقاومة الثورة هو زرع الاحقاد الطائفية او تأجيجها لمعارضة الفلاحين بعضهم لبعض .

لقد راى دعاة هذا الحلف ان النفخ في نار الطائفية أمضى سلاح للقضاء على الوثبة الاجتماعية. فانطلق دعاة السوء ورسل الشر يثيرون المسيحيين علىالدروز والدروزعلى المسيحيين ، وتغلبت المشاعر المذهبية في نفوس الفريقين على حاجة الانعتاق والتحرر وجاءت فتنة ايار /١٨٦٥/ التي ذهب ضحيتها عدد كبير من الابرياء في انحاء الجبل وكان امتداد لهيب الفتنة الجامحة الى دمشق دليلا على مدى اتساع المخطط الرجعي البربري الدموي ، الذي استغلته ونفذته السلطات التركية الاقطاعية وباركته القوى الكولونيالية (الاستعمارية) .

ان النظر الى ثورة فلاحي كسروان لا يجب ان يتم بمنظار طبقي فقط ، بل يجب النظر اليها من وجهة التطور العام في شرق الوطن العربي الخاضع للحكم الاقطاعي العثماني ، والذي اخذ يدخل تدريجيا في دائرة نفوذ الراسمالية الحرة ما قبل

الراسمالية . ولو قدر للثورة الفلاحية في كسروان النجاح وتمكنت من القضاء على النظام الاقطاعي، لكانت خلقت في قلب الشرق العربي جمهورية فلاحية ستكون مصدر اشعاع لسائر القوى المتقدمة في المجتمع العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

ولن ندخل هنا في نقاش حول توفر امكانات قيام جمهورية فلاحية في منتصف القرن الماضي ، في الوقت الذي كانت فيه القوى المنتجة متخلفة وليس بامكانها التطور والمحافظة على الثورة ومكتسباتها . وحسبنا ان نقول ان الثورة المضادة التي اتخذت شكل فتنة طائفية،رمت ليس الى اجهاض الثورة الفلاحيةفي كسروان فحسب بل رمت الى اكثر من ذلك وهو تصديع الحركة القومية العربية ، التي كانت تعيش مراحلها الجنينية وهي لم تشاهد النور بعد . وعلى الرغم من فشل الحركة الفلاحية المناوئة للاقطاعية ، فقد ساعدت على تطور الافكار الاجتماعية وعلى نمو حركة النهضة العربية .

بعد أن تمكنت الرجعية من قمع الحركة الفلاحية في جبل لبنان عام /١٨٦٥/ساد الهدوء النسبيفيالريف وتمكنتالقوى الاقطاعيةوالسلطة العثمانيةمن احكامالسيطرة وتشديد استثمار الفلاحين . وقد بقي هذا الهدوء النسبي ، الذي تخللته ولا شك تمردات فلاحية هنا وهناك سائدا مدة ربع قرن . بعد هذا الهدوء انتقل مركز الحركة الفلاحية في اواخر القرن الماضي من جبل لبنان الى جبل العرب .

٥ ـ انتفاضات فلاحية متفرقة ، بحاجة الى بحث :

لاشكان عددامن الانتفاضات الفلاحيةاندلعتفي الريفالعربيزمن الاستبدادالعثمانيمن شماله الى جنوبه ، وبخاصة في مناطقه الجبلية الوعرة . ولكن اخبار معظم تلك الانتفاضات لا تزال طي الكتمان . ويحتاج البحث عنها وكشف احداثها الى جهد الدولة والعمل المنظم والالتزام باهداف الجماهير العربية الكادحة ضد مستثمريها . ومع ان بعضا من هذه الانتفاضات وصلت اصداؤها الينا ، الا ان هذه الاصداء لا تزال غامضة مشوشة قاتمة ، نتيجة اهمال المؤرخين غير الاشتراكيين لهذه الاحداث أو

تحريفهم لهـا ، واحيانا تجري الاشارة الى الانتفاضات الفلاحية دون الدخـول في التفاصيـل .

وتشير بطون الكتب التاريخية الى انتفاضات متعددة ومتلاحقة للفلاحين في جبال الساحل ضد العثمانيين وضرائبهم . ومن هذه الانتفاضات انتفاضة اعوام / ١٨٠٦ ، ١٨١١ ، ١٨١٥ / (٢٦) .

وقد مر معنـا ان الفلاحين في جبـال اللاذقية وجبـل العـرب ثاروا ضد مظالم حكم ابراهيم باشا (١٨٣٢ ــ ١٨٤٠) .

وفي عام /١٨٤٤/ وبعد رحيل المصريين رفض الفلاحون في جبال اللاذقية دفـع الضرائب الحكومية الكثيرة المتراكمة عليهم . وعندما قامت السلطات التركية باعتقال اثنين من الفلاحين هاجم اكثر من /٥٠٠/ فلاح سراي الحكومة في اللاذقية وحـرروا المساجين . وقد لاقت الحملة الحكومية التاديبية المرسلة لاخضاع الفلاحين الفشل الذريـع (٢٧) .

ادت حملة ابراهيم باشا (١٨٣٢ـ١٨٤٢) الى زعزعة الحكم التركي ، ولهذا فان الصدامات بين السلطات التركية في دمشق وفلاحي حوران كانت لاتنقطع . وبلغت ذروتها في انتفاضة اوائل عام /١٨٥٢/ التي كان سببها تطبيق احكام قانون الخدمة العسكرية الالزامية. وقد شملت الثورة ، الى جانب حوران والجبال المتصلة بها مناطق اللجاه والجولان ، حيث هزمت عدة حملات تاديبية تركية ارسلت الى تلك المنطقة . وفي ايلول /١٨٥٢/ وجه والي دمشق التركي حملة قمع تاديبية قوية ضـد الثـوار شارك فيها /٨/ الاف جندي من الجيش النظامي و /٤/ الاف من المرتزقة من مختلف مناطق سورية . ولكن هذه الحملة لم تنجح ايضا . وطالب الثوار الذين شجعتهـم انتصاراتهم بتخفيض الضرائب . وفي النهاية ، اضطرت السلطات التركية الى الغـاء تطبيق الخدمة العسكرية في مناطق جبل حوران (جبل العرب) والقبائل البدوية المجاورة كما اعترف الاتراك بالحقوق الخاصة بزعماء الجبل (٢٨) .

وقد ساهمت هذه الحركات مع جملة اسباب اخرى في اضعاف الحكم التركي في الريف ولا سيما في المناطق البعيدة عن المدن (٢٩) .

وفي سنة /١٨٥٧/ جرى تمرد في زحلة ضد القائم مقام ، وقام المتمردون بمصادرة املاك الامراء اللمعيين وغيرهم . وعلى غرار زحلة تمردت غزير وانتخب سكانها ، كما جرى في زحلة ، وكيلا او شيخ شباب لادارة البلد (٣٠) .

ويروي منير الشريف في كتابه نقلا عن غازي اسماعيل من رؤساء عشيرة النواصرة في قضاء جبلة في صيف /١٩٣٤/ قال : (٣١) « هاجمنا الاتراك قبل الحرب العامة بمداتهم فتهيب سكان الجبل هذه القوة . وبعد ان هيانا قوة لا تزيد عن /٤٠٠/ شخص باغتناهم بين جبلين من جبال الكلبية وحصرناهم في الوادي وقضينا على اكثرهم وغنمنا معداتهم الحربية واسلاب قتلاهم » .

وخلال الاربعينات والخمسينات من القرن التاسع عشر حصلت انتفاضات مستمرة في منطقة نابلس الجبلية . وقد اعتمدت هنا اسرتا طوقان وعبد الهادي الاقطاعيتان المتعاديتان في صراعهما على السلطة (كان يجري تعيين الحاكم المحلي منهما في تلك السنوات) على الحركة الجماهيرية الفلاحية المناوئة للخدمة العسكرية الالزامية ولغرض الضرائب ، ولم تستتب السيطرة التركية الفعالة نسبيا في المنطقة الا في نهاية /١٨٥٩/ (٣٢) .

ووقعت احداث مماثلة في مناطق القدس وطبريا وكذلك في منطقة بعلبك ، حيث استمرت مقاومة الاهالي ، الذين تزعمتهم العائلات الاقطاعية ولم تخمد المقاومة الا في نهاية الخمسينات .

وفي عام /١٨٥٤/ كانت انتفاضة الفلاحين في جبال الساحل ، مستغلة ارسال القسم الاكبر من الجيش التركي الى الجبهة الروسية التركية ، وامتنعت عن دفع الضرائب وعن تقديم الجنود والاعتراف بالسلطات التركية . وهاجم الثوار مقر الحاكم التركي في اللاذقية . وقد امتنع الحاكم خيري بك الذي عينه الاتراك

حاكما لجبال الساحل ، عن الخضوع للوالي التركي وعن دفع الضرائب . ولم تسترجع السلطات التركية نفوذها المضطرب على هذه المناطق الا في عام /١٨٥٨/ بعد اغتيال خيري بك (٣٣) .

وحصلت اعمال مسلحة باستمرار ضد الادارة التركية من قبل القبائل البدوية في البادية وفي جنوب شرقي الاردن .

ففي عام /١٩٠٥/ ثار سكان بلدة الشوبك الاردنية واجبروا الحامية التركية على الفرار . وارسل حاكم الكرك ضد الثائرين حملة تاديبية مؤلفة من /٦٠٠/ جندي من المشاة ومئة خيال ومدفعي . وبعد حصار الشوبك هزمت الوحدة التركية سكان البلدة والبدو الذين انضموا اليهم واحتلت البلدة . وقاوم بدو قبيلة الحويضات (منطقة معان) مقاومة شديدة جميع محاولات السلطات التركية لفرض نظام الضرائب الدائمة . والواقع ان السلطات العثمانية قامت بتوطين الشراكسة عام /١٨٧٨/ حول عمان ومناطق الماء رغبة منها في تحقيق الغايات التالية : الحفاظ على طريق الحج وقمع الانتفاضات المحلية وحماية جباة الضرائب وموظفي التجنيد (٣٤) .

لقد كانت حركات الفلاحين في القرن التاسع عشر احد العوامل الرئيسية التي اضعفت النظام الاقطاعي التركي ، وشجعت المثقفين الوطنيين المتحدرين على الغالب من اوساط البورجوازية الجنينية على الكتابة والانتقاد وشحذ الهمم وبعث التراث العربي .

٦ ـ عامية جبل العرب الفلاحية عام /١٨٨٥/ :

احتلت الحركة الفلاحية في جبل العرب (٣٥) المركز الثاني بعد حركات الفلاحين في جبل لبنان ايام الحكم العثماني في القرن التاسع عشر . وليس من قبيل المصادفة اطلاق اسم (العامية) على الحركات الفلاحية في جبل لبنان وعلى الحركة الفلاحية في جبل العرب سنة (١٨٨٥ـ١٨٩٠) ويبدو ان الفلاحين الدروز هاجروا من جبل لبنان او كانوا على اتصال وثيق مع منطقة الشوف في جنوب لبنان اقتبسوا هذا

الاسم ـ العامية ـ من اخوانهم فلاحي كسروان . ومع أن جبل العرب تميز بعدم وجود اقطاعيات كبيرة فيه ، فان الصراع احتدم هناك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في اطار التناقضين التاليين :

ـ التناقض بين كبار الملاكين (المشايخ من آل حمدان والاطرش وعامر وغيرهم) وسعي كل فريق لازاحة الاخرين والانفراد بالزعامة .

ـ التناقض بين الفلاحين المعدمين الذين لا يملكون ارضا والفلاحين المالكين لقطع صغيرة من الارض من جهة وكبار الملاكين (المشايخ) من جهة ثانية .

وفي اطار هذين التناقضين جرت الحركات الاجتماعية والسياسية المختلفة .

فمن جهة حاول الفلاحون الاستفادة من تناقضات كبار الملاك لاضعاف نظام المشايخ والحصول على الارض أو الدفاع عن الارض التي ملكوها ، ومن جهة اخرى سعى بعض الملاكين لتوجيه حربة الحركة الفلاحية ضد منافسيهم من الملاكين الاخرين وتدعيم مراكزهم وازاحة الملاكين الاخرين . ومن جهة ثالثة سعى كل فريق للاستفادة من العصبيات العائلية لكسب اكبر عدد من الانصار . وكثيرا ما انضم الى المشايخ فلاحون ينتمون الى عائلات معادية لتلك التي انضمت الى الحركة العامية . وثمة امر رابع دخل كعنصر خارجي وهو سعي السلطات العثمانية في ولاية الشام الى مد نفوذها الى الجبل والاستفادة من التناقضات المختلفة وتاجيجها احيانا من أجل فرض سيطرتها المنهارة هناك وجباية الاموال الاميرية ، وهي الهدف الرئيسي للسلطة العثمانية الاقطاعية .

في العقد الثالث من القرن التاسع عشر تركزت المطالب الفلاحية بما يلي (٢٦) :

١ ـ عدم ترحيل الفلاحين من قراهم ..

٢ ـ جعل الارض التي يستعملها الفلاحون ملكا لهم ..

٣ ـ السماح لاهالي السويداء بتحويل الاراضي المشاع الى أراض زراعية تغرس بالاشجار .

٤ ـ ان تدفع الضريبة المتاخرة «للدولة» من أموال «القلاط» أي الاموال التي تؤخذ من البدو مقابل السماح لهم برعاية مواشيهم في اراضي السويداء ..

٥ ـ الا تؤخذ الضرائب من الفلاحين بصورة تعسفية .

ولكن كبار الملاك من آل حمدان استمروا في اتباع ما اطلق عليه نظام الاقطاع الذي سيطر على معظم القرى ولم يسمحوا الا لمن شاؤوا باستملاك المنازل والاراضي وينتزعونها من المعارضين والمطالبين بالمساواة . فادى هذا الى ازدياد النقمة الشعبية الفلاحية ، التي حاول اسماعيل الاطرش زعيم قرية القريا استثمارها في أواخر العقد السابع من القرن الماضي من اجل ازاحة الحكام من آل حمدان والحلول محلهم في الجبل . وبعد وفاته في سنة /١٨٧١/ تمكن ابنه ابراهيم من حشد الفلاحين الناقمين على الملاك من آل حمدان وطردهم من الجبل ثم توزيعهم في عدة قرى خاضعة لنفوذ آل عامر في الشمال .

لم يؤد رحيل آل حمدان الى زوال نظامهم الاقطاعي وحصول الفلاحين على الارض بل حل « نظام الطرشان الاقطاعي » في الجنوب والوسط ، في حين استأثرت الاسر القوية بزعامة القرى الشمالية والغربية .

تجسدت سلطة آل الاطرش وغيرهم من كبار الملاك بامتيازات اجتماعية كثيرة منها : (٢٧) .

ـ لا يجوز لاي فرد من افراد الشعب ان يتقدم عليهم في شرب القهوة او في الدخول الى اي مكان او التوقيع على عريضة أو كتاب .

ـ عدم الاعتراف بملكية الارض التي يعمل فيها الفلاحون .

ـ اهانة من يقبضون عليه وتسخيره لخدمتهم وزراعة ارضهم وحصادها . وقد عرفت هذه السخرة باسم « القرعة » اي مساعدة الشيخ وخدمته .

- ترحيل الفلاحين من قراهم عندما يحلو لهم ذلك .

- عدم جواز ارتداء بعض الملابس المخصصة للشيوخ مثل الحذاء الاحمر (الصرماية الحلبية) وقد قتل احد الشيوخ فلاحا في اجتماع عام ، لانه انتعل « صرماية حلبية ».

- كل مولود ذكر من الغنم والماعز (خروف - جدي) يعود الى الشيخ لانه وحده له حق استقبال الضيوف وتقديم الذبائح لهم ، حتى ولائم العرس كانت تقدم في مضافة الشيخ من قبل اهل العريس .

- لايحق لاي فلاح فتح مضافة او استقبال ضيوف او دق قهوة وهذا كله محصور بالشيوخ .

ومن خلال شعر شبلي الاطرش يمكن استنتاج الازدراء والفوقية اللذين اتصف بهما الشيوخ كقول شبلي : « عمت بني عمموم كالناس كلها » .

وقد اثارت تصرفات الملاك من آل الاطرش وغيرهم استياء العامة من الفلاحين الذين اوصلوهم الى السلطة بعد طرد آل حمدان . وقد اصبحت عملية طرد الاقطاعيين وانتزاع ملكيتهم عملية سهلة لاتحيط بها هالة من القدسية المدعومة باجتهادات رجال الدين حول عدم شرعية المساس بالملكية الاقطاعية كما كان الامر في بقية الولايات العثمانية .

وفي سنة / ١٨٨٥ - ١٣٠٧ / هـ عقدت عدة اجتماعات سرية في نجران وعرمان ولاهثة ومتان وعاهرة والسويداء لبحث امر خلاص الفلاحين وتحررهم من الشيوخ الذين تصرفوا بالاموال تصرفا مطلقا .(٣٨)

وفي تلك الاثناء حصل تصدع في صفوف آل الاطرش بسبب التنافس على الزعامة بين ابراهيم الاطرش شيخ السويداء وشقيقه الشاعر شبلي الاطرش شيخ عرى وتروي بعض المصادر ان شبلي تعهد بدعم الحركة العامية مقابل اعتراف رجالها بزعامته وان يبقى له ربع اراضي قرية عرى .

ولكن شبلي الاطرش الذي اراد ركوب الحركة العامية لتثبيت نفوذه لم ير المحتوى الاجتماعي الطبقي العميق لهذه الحركة كما انه لم يتوقع ان تسير في اتجاه العنف والسعي للقضاء على استثمار الملاك للفلاحين .

وهذا ما حمله على وصف العامية بالتخريب والفوضى ويلعن مؤسسيها . (٣٩)

من خلال شعر شبلي الاطرش تبين ان رجال العامية من فلاحي جبل العرب طرحوا في سنة / ١٨٨٥ / المطالب التالية :

١ ــ وضع حد لتحكم الشيوخ وسوء تصرفهم مع الفلاحين .

٢ ــ الاعتراف بملكية الفلاح للارض التي يستخدمها . .

٣ ــ عدم ترحيل الفلاحين من قراهم ومن الارض التي يزرعونها .

٤ ــ تطويب الارض لضمان امتلاكها . .

٥ ــ ان يكتفي الشيخ بملكية اراضي قريته . وهذا ما يسمى ب « نصف الربع » .

٦ ــ أن يكون للفلاحين الحق في تعيين مخاتير يمثلونهم ويهتمون بمصالحهم .

وفي تلك الاثناء دعا فلاحو قريتي عرمان وملح الى اجتماع عام في مجدل عرمان الذي سمي مذ ذاك اليوم مجدل الشور « اي الشورى » وفي ذلك الاجتماع جرى بحث وضع الجبل وأسباب الاجتماع والاجراءات الفلاحية الكفيلة بتغيير ذلك الوضع ، وصاغوا مطالبهم في وثيقة (مضبطة) وركزت على الامور التالية (٤٠) :

١ ــ اضطهاد الفلاحين .

٢ ــ السخرة والترحيل .

٣ ــ زرع المشايخ للفتنة بين الفلاحين .

٤ ــ المشقات والاعباء التي يرضخ لها الفلاحون ودورهم في بناء الريف .

٥ ــ خضوع الفلاحين لاوامر المشايخ .

٦ ـ اداء الضرائب للدولة العثمانية .

٧ ـ دور الفلاحين في تحسين النظام والدفاع عن الجبل ضد العدو الخارجي وبامرة المشايخ .

٨ ـ الظلم الواقع عليهم وعدم انصافهم رغم سلوك هذا السبيل .

وفي تناولهم للاجراءات الكفيلة بتمزيق هذا الوضع يطرح البيان (٤١) :

١ ـ كف التعديات عن الفلاحين ومنحهم حقوقهم وتشمل هذه الحقوق : الغاء امتيازات المشايخ ، كل ارض تصبح لمن يعمل بها ، كل مسكن يصبح ملكا لم يقطن فيه، الغاء السخرة والترحيل والمصادرة،اعادة قسمة الاراضي لتشمل جميع افراد الشعب.

٢ ـ المواجهة الفلاحية الجماعية لاي اجراء يقوم به المشايخ والتزام الفلاحين جميعا ببذل ارواحهم يدا واحدة وعصبة واحدة على تحقيق مصلحتهم المشتركة المدونة في المضبطة .

٣ ـ صب اللعنة والذل الاجتماعي والاخلاقي والعرفي (السائد حينها) على من يغير او ينحرف عن طريق الجماعة .

كان الوضع الثوري قد بلغ درجة النضج بعد الاجتماعات السرية او نصف العلنية التي اسفرت عن الاتفاق بين زعماء العامية في مختلف القرى على اشعال الثورة في يوم معين ضد كل شيخ لايقر ملكية الفلاحين للارض ولايكتفي بنصف ربع (ثمن) اراضي القرية .

في تلك الايام من سنة / ١٨٨٥ / (بعض المصادر تقول : ان الثورة نشبت في سنة / ١٨٨٢ / او / ١٨٨٧ / واحيانا ١٨٨٨) وقع اول صدام مسلح في قرية ملح الى الجنوب الشرقي من الجبل بين العامة من الفلاحين وبين الشيوخ بقيادة حسين الاطرش ، وفي تلك المعركة سقط شهيدا احد قادة العامة صالح غزالة . وفي اليوم

نفسه وقع صدام آخر في قرية عرمان الى الغرب من ملح وعندما ذهب الملاك من آل الاطرش في قرية امتان لنجدة المشايخ انضم القسم الاكبر من الفلاحين الذاهبين معهم الى صفوف رجال العامية ، مما اضطر المشايخ الى الانسحاب الى الشمال ، حيث جرت بعد عدة ايام وقعة السويداء بين العامة والمشايخ واسفرت عن مقتل /٧٠/ شخصا (عودات يضع رقم / ٤٢ / قتيلا) معظمهم من العامة السيئي التسليح . وعلى الاثر امتدت نار الثورة الى شمال الجبل ، اي ان الثورة العامية لم تقتصر على العداء لكبار الملاك من الطرشان بل تعدتهم الى الهجوم على سائر كبار الملاكين من آل ناصيف في عراجة وآل عامر في شهبا والهيت والبشينة وآل عز الدين في لاهثة (٤٢).

ادت هذه المعارك واشتداد ضغط الحركة الفلاحية العامية الى هرب مشايخ الطرشان نحو الغرب . حيث لجأ قسم منهم الى قلعة المزرعة العثمانية والقسم الاخر الى دمشق مع ابراهيم الأطرش . في حين لجأ شبلي الاطرش الى خبب . ومعنى ذلك ان الحركة العامية قد احرزت النصر واخذت اللجان الفلاحيــة تحسم الخلافات بين الاهالي حول توزيع الاراضي وتدبير شؤونهم الاخرى ، وقد تصدت قوات العامية الفلاحية لمناوشات جيرانهم من البدو وسهل حوران الذين حرضهم العثمانيون (٤٣).

ولكن السلطات العثمانية في دمشق التي كانت تتحين الفرص للسيطرة على جبل العرب وجباية الضرائب من قراه رات الفرصة سانحة للتدخل . كما ان رجال الدولة العثمانية المدافعين عن النظام الاقطاعي لم ينظروا بعين الرضا الى حركة الفلاحين التي داست بالاقدام على الملكية الاقطاعية لان انتصار هذه الحركة في جبل العرب يحمل في طياته مخاطر انتقال عدوى التمرد على العلاقات الاقطاعية الى انحاء اخرى من ولاية الشام العثمانية . ولهذا فان تدخل السلطات العثمانية الاقطاعية في دمشق كان سريعا، وبناء على طلب ابراهيم الاطرش ، كما هو واضح من شعر شبلي الاطرش الذي يقول في قصيدته المشهورة بـ (العامية) انهم (اي الشيوخ) لجأوا الى الدولة العليــة لانهم يفضلون الموت بيد السبع المجنزر (الدولة العلية العثمانية) على الموت بـ (سم الحية) اي عامة الشعب (٤٤).

وتدل تقارير قنصل النمســا في بيروت في ٢٤ / ٦ / ١٨٩٠ و ١ / ٧ / ١٨٩٠

و ٤/ ٧/ ١٨٩٠ و ٢٣ / ٧ / ١٨٩٠/ على ضخامة القوة التي ارسلتها الدولة العثمانية لاخضاع تمرد الفلاحين في جبل العرب (٤٥) .

وقبل نشوب المعركة كلف قائد الحملة ممدوح باشا باجراء التفاوض مع قادة العامية على الاسس التالية :

١ ـ يقبل الفلاحون بدخول القوة التركية مع المشايخ .

٢ ـ تلتزم القوة العثمانية بتنفيذ مقررات مجدل الشور .

رفض الثوار الموافقة على اقتراح قائد الحملة خوفا من ان ينكس بهم العثمانيون بعد دخولهم السويداء . فكان ان شن العثمانيون هجومهم على الفلاحين في خريف /١٨٩٠/ .

قاوم الثوار مقاومة مستميتة في حرب كانت نسبة المقاتلين فيهـا / ٢٠ / من العثمانيين مقابل واحد من الفلاحين مع تجهيز الجنود العثمانيين بالاسلحة المتقدمة في حين كان الفلاحون موزعين بين البنادق القديمة والسلاح الابيض (٤٦)

خاض العثمانيون المعركة بكل همجية ووحشية القرون الوسطى فبشعوا بالثوار ايما تبشيع وقتلوا الاسير والجريح منهم وحرقوا وهدموا بيوت الفلاحين في القرى التي مروا بها ونهبوا وقتلوا المواشي .. وقد وصف شبلي المعركة بقوله :

وصارت معركة صدق مهولة	عجيبة مثـل يـوم القادسية
بقى حس البنادق والمدافع	رعود وقاصفة تسمع دويـه

دخل الغزاة العثمانيون والمشايخ السويداء في مجزرة الدم هذه وجرت اعتقالات واسعة في صفوف الثوار وقادتهم ونالوا اشد أنواع العَذاب في اعتقالهم في القلاع العثمانية ، وطلب العثمانيون من المشايخ تأشير بيوت الثوار حتى يحرقوهـا ويقتلوا اهلها ، فما كان من قسم منهم الا ان وضع الشارات على جميع البيوت بمافيها بيوت المشايخ لايقاف هذا السيل الحاقد الاعمى (٤٧) .

كان من نتائج هذه المعركة : احتلال الجيش العثماني للسويداء وملاحقة الثائرين في سائر الانحاء ، اعادة آل الاطرش الى زعامتهم ، تمكن الدولة من بناء قلعة السويداء التي تم تشييدها سنة / ١٨٩١ / كنقطة استناد للاحتلال التركي وتعيين حاكم على جبل العرب (٤٨).

وعلى الرغم من هزيمة العامية عسكريا (بفضل التدخل الخارجي) الا انها لم تهزم في الميادين الاخرى بل حققت بعض الانتصارات ، التي لم تستطع الحملة العثمانية ولا نفوذ الملاكين المنهار العائدين في ركاب الحملة من القضاء عليها .

فبعد انتصار الحملة العثمانية وانهزام العامية ، جرى في مطلع /١٨٩١/ اجتماع السويداء الكبير الذي اسفر عن النتائج التالية (٤٩):

١ ـ عودة آل الاطرش الى قراهم ودفع دية جميع القتلى من مالهم سواء كانوا من العامية او من انصار المشايخ . وهذه حادثة فريدة في عين العشائر ان يتحمل فريق ديات القتلى من انصاره وخصومه معا وهذا يدل على ان العامية فرضت ، في هذا الميدان شروطها كمنتصرة .

٢ ـ توزيع نصف اراضيهم على الفلاحين ، وبذلك اصبح لهم نصف ربع الاراضي اي الثمن .

٣ ـ تغيرت حالة الفلاح . حيث اصبح مالكا ثابتا في بيته بعد ان كان كالريشة في مهب الريح. فقد كان الفلاحون كما راينا قبل العامية يرحلون من قراهم ومساكنهم تبعا لارادة المشايخ ومتى شاء الزعيم بدون وازع ضمير .

٤ ـ تصدع النظام الاقطاعي في الجبل وتفتت الملكية وانتشار الملكية الصغيرة الفلاحية .

٥ ـ بقاء بقايا الاقطاعية ، التي تحول اصحابها الى ملاك او فلاحين اغنياء لم يبق

لهم من اراضي القرية الا ثمنها . وكان الفلاحون الذين لا يملكون ارضا مضطرين قبل بدء الهجرة الى المدن الى العمل في اراضي المشايخ كمرابعين مستثمرين .

لم تمهل قوى الثورة المضادة عامية الفلاحين في جبل العرب في اواخر ثمانينات القرن التاسع عشر من تنظيم نفسها ومعرفة ماسيعمله رجالها من الوجهة السياسية ، اذ ان الحملة العثمانية التي احتلت الجبل قطعت مجرى التطور اللاحـق للعاميـة وحرمت المؤرخين من معرفة اسس بنيانها السياسي . ولكن العامية التي هزمت عسكريا بفضل القوى الخارجية ، لم تهزم في الميادين الاخرى . كما ان اصداءها وازيزرصاصها واهازيج رجالها بقيت عالقة في اذهان الاجيال التي عاشتها . وهذا مما اعطى للمقاومة المعادية للاحتلال التركي في الجبل زخما وقوة معنوية .

فعلى الرغم من تمكن الاحتلال التركي من بناء قلعة في السويداء (انتهت سنة ١٨٩١) فان الحركة المقاومة للاحتلال لم تنقطع منذ سنـة / ١٨٩٣ / وحتى نهايـة الاحتلال العمثاني سنة ١٩١٨ (٥٠).

وفي سنة / ١٨٩٣ / ارسلت السلطات العثمانية حملة قوية احتلت السويداء ونفت عددا من الزعماء . وفي سنوات /١٨٩٤ ــ ١٨٩٥ ــ ١٨٩٦/ قامت انتفاضة في الجبل ردا على محاولة الاتراك تطبيق التجنيد الاجباري . وعندما شرع الاتراك فيبناء ثكنات عسكرية في السويداء اندلعت المقاومة مرة اخرى . وكانت هذه المرة قويةوعنيفة ادت الى مقتل عدد كبير من الجنود العثمانيين .

وفي سنة /١٨٩٧/ حاصر الفلاحون قلعة السويداء ــ ٢٨ ــ يوما مستخدمين بواريد (الباليك الموزر) التي غنموها . ولم تستطع القوات التركية من الوصول الى السويداء الا بشق الانفس . وما ان انتهى الاتراك من قمع هذه الانتفاضات ، حتى نشبت القلاقل مرة اخرى سنة /١٩٠٣/١٩٠٦/١٩١٠/ دالة على مدى ضعـف الحكم العثماني في جبل العرب . وقد رضخ العثمانيون لمطالب الجبل فارجعوا المنفيين ورفعوا الضريبـة والتجنيد الاجباري عنهم واعترفوا في مطلع / ١٩٠٠ / بالاعـراف المتبعة في الجبل .

ترجع مقاومة الفلاحين من سكان جبل العرب للدولة العثمانية الاقطاعية واحتدام المعارك المتواصلة بين الفريقين ، بالدرجة الاولى الى اسباب اقتصادية اذ ان (الدولة العلية) ارادت ان تدخلهم في الطاعة . وتجري عليهم الاحكام من اجل اخذ رسوم الاغنام ، وتسجيل الاملاك ، واحصاء النفوس واخذ الاعشار ».

والهدف من تسجيل الاملاك هو تحديد ضريبة العشر ليس الا ، كما أن احصاء النفوس لم يكن يرمي الى معرفة عدد السكان من اجل تامين الخدمات الصحية والتعليمية للسكان بل رمى الى معرفة عدد القادرين على الخدمة في الجيش العثماني .

ادى القضاء على الثورة الفلاحية في كسروان الى تراجع الحركة الفلاحية في كسروان ردحا من الزمن تمكنت فيه القوى الرجعية من فرض هيمنتها الكاملة . ولكن بذور المعارضة اخذت في النمو بعد عامية الفلاحين وتعاظم شان المقاومة في جبل العرب ولاسيما مع التحول التدريجي للدولة العثمانية الى بلد نصف مستعمر ، ومع ازدياد القمع الوحشي بعد وصول السلطان عبد الحميد الثاني الى العرش / ١٨٧٦ / عمت موجة الاستياء البورجوازية الوطنية الناشئة ومثقفيها والحرفيين والقوى العاملة والفلاحين . وما ان اشرف القرن التاسع عشر على نهايته حتى اندلعت الحركات العفوية للجماهير الشعبية من جديد ، تعبيرا عن الاحتجاج على الظلم العثماني المتمثل في النظام الضريبي (٥١)

ومع ان الريف تحمل في هذه الفترة العبء الاكبر من المقاومة فان المدن لم تسلم ايضا من القلاقل والاضطرابات ، كتلك التي وقعت في حلب عام /١٨٩٥/ وفي بيروت / ١٩٠٣ / (٥٢) .

ولا يفوتنا ان هذه الحركات الشعبية العفوية المفككة الاوصال لم تكن من القوة الى درجة تشكل خطرا يهدد الحكم التركي ، الذي استطاع قمعها بسهولة . ومع هذا فان هذه الحركات احدثت صدوعا في بنيان النظام الاقطاعي ودفعت بالحركة القومية العربية نحو استكمال اسباب نهوضها .

وثيقة البيان الصادر عن اجتماع (مجدل الشور) نيسان / ١٨٨٨ /

الحمد لله وحده

سبب تسطيره الافتراءات والطمع والتعديات الجارية علينا من جهة مشايخنا ، وبما انهم تعمدوا تنكيلنا ونفينا من محلاتنا ومن كامل المقرن بدون تعديات منا ومرادهم محاربتنا بعضا لبعض . وبما اننا عمرنا القرايا وسكنا بها وتخسرنا خساير جسيمة عليها ولنا منذ ثلاثين سنة وباعظم المشقات وخاضعين لاوامر مشايخنا والتلبية لكل شيء في مرضاتهم وندفع لصندوق الخزينة العامرة الاموال الاميرية ، ونحافظ على تحسين النظام وعلى الشرف والناموس وفي ساير الاحوال . ثم نقدم انفسنا ونرخص ارواحنا ونسفك دمانا ونرخصها في سبيل الحمية والشرف امام شيوخنا . ومعسلوك هذا السبيل وجدنا بضايعنا كاسدة ومـا ازددنا الاقلة الانصاف منهم . فلذلك قد قررارنا واجتمعت آراؤنا نحن الواضعين اسماءنا واختامنا في ادناه على اننا نكون متعاهدين متناصرين على كف التعديات عنا ، محافظين على صوالحنا وعلى تمشى الحقوق وتعديل النظام في غاية النهي .

واننا اذا صار علينا تعدى مثل رحيل او تغيير احوال تحل بعمارنا وتمس صوالحنا الخيرية او في ناموسنا نقوم يدا واحدة وعصبة واحدة بدون لايتاخر احد منا . وعلى هذا القول الله وشعيب نبي الله . والذي يهمل معاضدة ربعه من الاربع قرايا المقرن بكتب هذه المضبطة يكون بري من الله ومن انبياه ولايجد شفاعة يوم قيام الساعة بل عليه لعنة نما من الارض الى السما ثم يكون راسه خال من الناموس والشرف والحمية ولاله بين الغانمين مقعد ولا في السماء مصعد بل تكون حرمته اجل منه في ساير الاحوال والذي يغير او ينحرف عن طريق ربعه يكون مستوجب بعدل واستحقاق من الله ومن العبيد بجميع هذه الشروط المذلة المشحونة بالانسغال .

الوثيقة محفوظة عند الشيخ سلمان ابو سعيد في قرية الهويا - السويداء وقد اثبتها هيثم العودات في كتابه .

وبما اننا قرينا على انفسنا جميعا وقبلنا كقبول القابلين الحجج على انفسهم طوعا غير كره ولااجبار . وتعهدنا وتكفلنا بالقيام بمضمون هذه الوثقية برضا وقبول الزمنا القيام بموجبها لزوما شرعيا وللبيان حرر في ١٥/ شعبان سنة ١٣٠٦/ .

حسين صيموعة ـ قاسم غزالة ـ خليل كيوان ـ اسماعيل العطواني ـ بوحسين كيوان ـ حمد الزغير ـ نجم العطواني ـ حسين طربية ـ يوسف الصفدي ـ أسعد عزمي ـ حمد كيوان ـ قاسم الحمود نعيم ـ زين الدين رشيد ـ حمد النجم جربوع اسماعيل الدبس ـ ابراهيم الجرمقاني ـ اسماعيل الشريطي ـ محمد العطواني ـ قاسم الحلبي ـ يوسف الحلبي ـ منصور الدعبل ـ صياح ابو حامد ـ محمد ابودهن حسين عزمي ـ علي رزق ـ رستم مسعود ـ سلمان القنطار ـ محمد جابر ـ حسين بدوي ـ حمد صيموعة ـ يوسف الجفامي ـ ابو حمد القاضي ـ محمود منذر ـ هزيمة نعيم ـ احمد منذر ـ حمد السليم ـ حسين الشمندي ـ عثمان أبو راس ـ محمد ملاعب ـ حمود كيوان ـ مراد عماد ـ محمد العيسمي ـ حسين نجد ـ جبر الجمال ـ قاسم ابو سعيد ـ خطار الاحمد ـ بشير كيوان ـ محمد نعمان ـ علي رافع ـ علي رشيد ـ محمد الشعار ـ فارس الدبيسي ـ يوسف العيسمي ـ فارس ابو قنصوة ـ امين العيسمي ـ سلمان العيسمي ـ محمود جابر ـ فهد الحلبي ـ سليمان أبو هرموش ـ فارس الشاعر ـ علي سعيد ـ فهد ابو عاصي ـ يوسف جودية ـ اسماعيل الكريدي ـ حمد زين الدين ـ محمد ابو غاوي ـ حسين الشاعر يوسف أبو مغضب ـ أمين أبو مغضب ـ حسن دعيبس ـ محمود أبو مغضب ـ عجاج ابو مغضب ـ علي أبو مغضب ـ محمد أبو مغضب ـ أبو يوسف الخطيب ـ قاسم عزيز ـ عامر الصفدي ـ حمد قطرب .

موافق نيسان ١٨٨٨ .

من الوثائق المتبقية للعامية نص حكم بين اثنين من عائلة الاطرش احدهما يملك الارض والثاني يعمل فيها ، قررت لجنة من قادة العامية اعطاء الارض لمن يعمل بها . وقد حفظ الوثيقة ورثة فارس الاطرش (ذيبين) وهي الان في ارشيف السجل العقاري في السويداء نقلا عن العودات ص ٥٨ .

حواشي الفصل الثاني والثالث من الباب الرابع

١ ــ غزي ... ج ٢ ، ص ٣٦٤ .
٢ ــ الغزي يسرد مختلف الروايات في كتابه الانف الذكر .
٣ ــ وثائق تاريخية عن حلب ٢ .. ص ٧٢ .
٤ ــ معظم المعلومات اخذناها عن الغزي ..
٥ ــ كوتلوف : « تكون حركة التحرر الوطني في المشرق العربي في منتصف القرن التاسع عشر ١٩٠٨ » ترجمة سعيد احمد ــ دمشق ١٩٨١ ــ ص ٢٧٦ .
٦ ــ حول تفاصيل وافية عن قومة حلب راجع مخطوطنا « تحركات العامة الحلبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر » الذي ينتظر الطبع .
٧ ــ حول احداث دمشق عام ١٨٦٠ وتفاصيلها ــ راجع مخطوطنا « تحركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر » الذي ينتظر الطبع .
٨ ــ كرد علي : دمشق مدينة السحر والشعر ــ مصر بلا تاريخ ص ٤٢ ــ ٤٣ .
٩ ــ المصدر نفسه .
١٠ ــ سميليا نسكايا .. ص ٦٠ .
١١ ــ قازان : ص ٧٧ .
١٢ ــ المصدر نفسه ، ويوسف خطار الحلو : « العاميات الشعبية في لبنان » بيروت ١٩٧٩ ــ ص ٣١ وما يليها .
١٣ ــ المصدر نفسه ، وقازان .. ص ٧٧ .
١٤ ــ سميليا نسكايا .. ص ١١٩ .
١٥ ــ اعتمدنا تقسيم البنية الطبقية على سميليا نسكايا .
١٦ ــ المصدر نفسه ص ١٦٩ .
١٧ ــ المصدر نفسه ص ١٧٣ .
١٨ ــ العقيقي ، انطوان ضاهر : « ثورة وفتنة في لبنان » صفحة مجهولة من تاريخ الجبل من ١٨٤١ الى ١٨٧٣ نشرها وشرحها وعلق حواشيها يوسف ابراهيم يزبك ١٩٣٦ ، ص ٧٢ .
٢٠ ــ مجلة ــ الطليعة ــ الدمشقية ، آذار ١٩٢٧ ، ص ١٣ .
٢١ ــ اعتمدنا في كتابة هذه الصفحات بالدرجة الاولى على مقال فؤاد قازان « الثورة الفلاحية الشعبية في القرن التاسع عشر في لبنان » المنشور في مجلة « الطريق » العدد ــ ٢ ــ اذار ١٩٧٠ ، ص ٧٥ ــ ١٢٧ ، وقد اعتمد فؤاد قازان على مخطوط العقيقي . انظر الهامش ١٥٨ .
٢٢ ــ جاء في مخطوط العقيقي ص ٦٧ ما يلي :
وصار الاهالي يعطلوا املاك المشايخ من قطع احراش وتكسير ابواب حارات الشيخ واخد حاصلاتهم من حرير وحنطة وزيت وكروم ، وكلما يمكنهم اخذه ... حتى ان طانيوس شاهين جمع جانب من املاك المشايخ في الساحل والجرد ان كان من الحرير او من الحنطة ووضعها في بيته وكان ياخذ ذلك بقوة الجمهور وفتح خروجه في بيته الى الشارد والوارد وعمل منازل وفق جباخانات وعمل مثلما تعمل الدور الواسعة . حتى ان اسمه شاع في كل الجهات وكل قرية لا تسمع لمقالموكان يرسل اليها جمهوراً من باقي القرايا لاجل تطييعها وصار يقطع اوامر بتحصيل الحقوق والقصاص المذنبين كيفما شاء من دون معارض ويقول بقوة الحكومة الجمهورية .

٢٣ ـ سميليا نسكايا .. ص ٢٢٤ .

٢٤ ـ ولد انطون شاهين في قرية ريفون ـ كسروان ـ عام ١٨١٥ وتوفي مغمورا في ٣ شباط ١٨٩٥ . عمل مكاريا وبيطارا واستطاع ان يوفر بعض المال . وكان يتصف بارادة قوية وذهن متقد وموهبة في التنظيم . ولهذا فقد كان يتمتع بنفوذ كبير بين الاهالي . وكانت خططه السياسية تتصف بصفة اثارت الكثير من الجدل والحيرة بين معاصريه . وقد ساعدته مهنته كمكاري وبيطار على الاتصال بالفلاحين عن كثب ومعرفة احوالهم كما جعله في الوقت نفسه معروفا في الاوساط الفلاحية ، كممثل للاراء الاكثر جراة وراديكالية .

٢٥ ـ في شهر تشرين الثاني ١٨٥٧ اشار الزعيم الدرزي سعيد بك جنبلاط على آل الخازن ان يضعوا حدا لخلافهم مع القائمقام المسيحي وعرض وساطته من اجل الصلح . وليس هناك ماهو اعمق مغزى من هذه الاتصالات فيما بين « المقاطعجية » الدروز والمسيحيين عشية « الانفجارات » ١٨٥٩ ـ ١٨٦٠ .

انظر شيفاليه ، ص ٧٧ وهذه الوثيقة التي نقلها شيفاليه عائدة الى محفوظات الآثار اللبنانية .

٢٦ ـ لوتسكي .. ص ٤٠ ، قازان .. ص ١٠٧ .

٢٧ ـ كرد علي « الخطط » جـ ٣ ، ص ٧٧ .

٢٨ ـ المصدر نفسه ص ٧٩ ، وكذلك كوتلوف .. ص ١٢٣ .

٢٩ ـ انظر حول مدى سيادة السيطرة التركية الهزيلة في الارياف السورية في اخر القرن التاسع عشر : ساشو ادوارد : رحلة في سوريا وميسوبوتاميا ، لايبزغ ١٨٨٣ ، ص ٣٢ .

٣٠ ـ قازان .. ص ١٠٧ .

٣١ ـ الرواية رويت في صيف ١٩٢٤ في قرية كرامة انظر : منير الشريف : ـ العلويون من هم واين هم ـ دمشق ١٩٤٦ ، ص ١٢٩ .

٣٢ ـ توتلوف ... ص ١١٢ او النمر ... ص ٤٠ .

٣٣ ـ كوتلوف ... ص ٢٨٠ .

٣٤ ـ المصدر نفسه ص ٢٩٤ وموفق محادين : ـ تطور علاقات الانتاج والحركات الفلاحية في الريف الاردني ـ بيروت ١٩٨١ ، ص ٢٦ .

٣٥ ـ حين قيام الحركة العامية كان الجبل يدعى باسمه الجغرافي ـ جبل حوران ـ وهذا الاسم يستعمله اهله واهل لبنان وجميع المؤرخين . عام ١٩٢١ اطلق الفرنسيون عليه اسم الدروز ابرازا[1] للجهة الطائفية وخدمة لاغراض الاستعمار التجزيئية . عام ١٩٢٧ حين عاد الثوار من الصحراء اطلق عليه اسم ـ جبل العرب ـ ابرازا للصفة التي يؤمن بها السكان وردا على الصفة التي ركز عليها الاستعمار .

٣٦ ـ الميسمي شبلي ـ نمر داوود ـ الشوفي حمود : محافظة السويداء ـ دمشق ١٩٦٢ ، ص ٥٩

٣٧ ـ المصدر نفسه ص ٦٥ انظر ايضا الى : راشد حنا : جبل الدروز ـ مصر ١٩٢٩ ، ص ٤٦ وكذلك الزغبي تركي ، جبل الدروز في العهد العثماني ، رسالة جامعية ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ ، ص ٦٣

الى ان الخلق عافت لحامهـا وصارت تطلب الدولة العليـه

وقالوا : اليقتلوا السبع المجنزد خير من اليموت بسم حيـه

نقلا عن سعيد ابو الحسن في معرض تعليقه على الخطوط في قراءته في اذار ١٩٧٢ .

٤٥ – نقلا عن برانت ... ص ١١٢ .

٤٦ – كرد علي ... الخطط ، ج ٣ ، ص ١٠ .

والواقع ان ارستقراطية السلطة الدمشقية – عبد الرحمن باشا اليوسف أمين الحج الشامي – حرك والي دمشق للقضاء على العامية ومساعده ابراهيم الاطرش . كما ان مشايخ سهل حوران استنجدوا بالجيش العثماني المتواجد في المنطقة لقمع ثورة عوام الفلاحين في جبل حوران – العرب – على المشايخ وخوفا من امتداد نيران الثورة الى السهل . وقد وصف شبلي الجيوش التي توجهت الى الجبل بقوله :

شوام مع كراد وسركس وغيرها وعربان من كل الملا جردونها

من معان لا غزة ويافا وحيفا لا حلب الشهبا الجميع احضرونها

وقد اقامت الجيوش العثمانية الغازية في ريمه حازم ولغا مع ابراهيم الاطرش وكانت بقيادة احمد قره ببور باشا بينما حصن الثوار مواقعهم في السويداء وعتيل .

٤٧ – نقلا عن هيثم العودات ، الذي اجرى في تشرين وكانون الاول ١٩٧٥ وكانون الثاني ١٩٧٦ حوارا مسجلا مع المحامي ماجد الاطرش والمحامي سلمان معروف والاستاذ صلاح مزهر .

٤٨ – ابي راشد ... ص ٥٧ .

٤٩ – الصغير ، سعيد : بنو معروف – الدروز – في التاريخ . بيروت ١٩٧٤ ، ص ١٤٢ ، الزغبي... ص – ٧٠ – .

٥٠ – الصغير ... ص ١٤٢ – ١٤٦ ، كرد علي ... خطط الشام ج ١ ، ص ١١٢ روى الحصني بعض اخبار انتفاضة ١٨٩٣ كما يلي :

« وفي سنة – ١٣١١ – عين عثمان نوري باشا واليا على دمشق للمرة الثانية ، وفي أيامه انتقلت حركات الدروز العدوانية بين قبائلهم وزعمائهم ضد ماموري الحكومة باسباب سوء تصرفهم وادارتهم في تلك الاصقاع وامتدت تلك الحركات وتعاظمت فلجات الحكومة الى سوق الجيوش لتاديبهم وارجاعهم الى الخضوع والطاعة ، وعينته قائدا لتلك الجيوش . وكان لهذا الوالي طرق غريبة في الرشا واستخراج أموال الناس واحتيال عجيب على الاغنياء . فجمع بتلك الوسائط أموالا طائلة . لذلك لم يكن يهمه من أحوال البلد شيء الا اصطياد الدراهم والدنانير » الحصني ... ص ٢٧٥ .

والواقع ان « اصطياد الدراهم والدنانير » كانت سجيه وخصله لا ينفرد بها الوالي نوري باشا وحده بل هي – خلق – الطبقة الحاكمة بمجموعها في العهد العثماني .

٥١ – العودات ... ص – ٥٠ – .

٥٢ – لوتسكي ... ص – ٢٩١ – .



ان الاهتمام بالحركات الاجتماعية التي وقعت ايام الدولة العثمانية في بلاد الشام والقاء الاضواء على تأثيرها الفعال في نمو الحركة الوطنية وتطورها ، يقربنا من الحقيقة التاريخية التي لم يـر منها المؤرخون البرجوازيون سوى بعض مظاهرها وجوانبها .

كما ان هؤلاء المؤرخين الذين لم يكن بامكانهم رؤية الاسباب الاقتصادية والاجتماعية وهي المحرك الرئيسي للتاريخ ، ظلوا في تحليلاتهم ونظراتهم اسرى التحليلات المثالية والميتافيزيقية ، وهذا مما قادهم الى قلب الحقائق معتبرين النتائج اسبابا ، متغافلين عن التأثيرات المتبادلة بين القاعدة (البناء الاقتصادي الاجتماعي) والبناء الفوقي . كما انهم لم يدركوا ان البنية الفوقية المتأثرة بالقاعدة تسهم فيما بعد في التأثير في القاعدة الاقتصادية الاجتماعية .

رافق مجيء الحملة المصرية الى سورية (١٨٣٢ ــ ١٨٤٠) دخول سورية ــ في البدء الساحل ومن ثم الداخل ــ أكثر فاكثر في اطار السوق العالمية الراسمالية مما ادى الى تفكيك التقوقع الاقطاعي وتصدع العلاقات الاقتصادية والثقافية . لقد بدات عملية التصدع هذه وعملية ظهور الاشكال الجنينية للعلاقات الراسمالية تظهر في مدينة بيروت التجارية ، ثم انتقلت بالتدرج الى المدن الاخرى . لقد كان لنمو العلاقات القائمة على تبادل البضائع بالنقود وتنامي العلاقات التجارية مع أوروبا الراسمالية اثر جوهري في خلق الشروط المناسبة لانتشار الافكار البرجوازية وزيادة تأثيرها في المجتمع ، وفي قيام الجمعيات الادبية السياسية التي شكلت تيار النهضة العربية الحديثة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين .

ان الحركات الفلاحية هذه ، التي قاومت التحصيل التعسفي للضرائب واضطهاد العائلات الفلاحية وسرقة أراضي الفلاحين لقيت مقاومة شديدة من الامراء الاقطاعيين المدعومين من الحكومة المركزية ورجال الدين .

ولابد من الاشارة الى ان ضعف هذه الحركات وفقدان الرؤيا امامها وقيامها بشكل عفوي دون تهيئة مسبقة ، بالاضافة الى عدم وجود سند لها في المدن ، أدى الى ضعفها وتمكن الحكم الاقطاعي من القضاء عليها .

ولم تكن الحركات الفلاحية في بلاد الشام في القرن التاسع عشر موحدة القيادة بل ان اعمالها في كثير من الاحيان كانت ذاتية اضافة الى عفويتها . وساهم الجهل المطبق آنذاك وصعوبة المواصلات والاقتصاد الفلاحي المبعثر البعيد عن التركيز في الحد من انتشار هذه الحركات وبلوغها بعض اهدافها . كما ان التمردات الفلاحية لم تكن دائما تصيب النظام الاقطاعي في الصميم ، بل كانت موجهة ضد اشخاص معينين من الاقطاعيين ورجال الحكومة . ولاقت هذه الحركات بعض النجاح في الاماكن الجبلية الوعرة وهدفت الى مقاومة النظام الاقطاعي الرسمي عن طريق رفضها دفع الضرائب، الغذاء الرئيسي لهذا النظام .

وقد ساهمت الحركات والانتفاضات الفلاحية في دفع وتشجيع المثقفين من اعلام النهضة العربية المنتمين الى الفكر البرجوازي الى نقد النظام القائم وحمل لواء المقاومة العربية ضد التتريك وتعرية بعض جوانب المجتمع الاقطاعي المتخلف .

حمل احمد فارس الشدياق (١٨٠٥ ــ ١٨٨٧) لواء الطريقة التجديدية في الادب وشق الطريق امام الادباء المتاخرين . ولم يقم الشدياق بتحرير اللغة العربية من القوالب الجامدة فحسب ، بل انتقد ايضا اعمال الاكليروس ولاسيما الفئة العليا منهم الممثلة والمدافعة عن الاقطاعية ، وعكس ذلك شعور الفلاحين الدفين المستائين من اوضاعهم . انتقد الشدياق بصراحة في كتابه (الساق على الساق) النظام الاستثماري بشكل عام ودعا الى انصاف من يكدحون ولا يملكون من الدنيا شروى نقير . والفقرة التالية من كتابه الآنف الذكر ابلغ دليل على موقفه من هذه القضية الاجتماعية .

« ... اذا دخلت قصور الملوك وطفت في اسواق المدن وعاينت مافيها من الصنائع البديعة والتحف العجيبة ، والآلات الطريفة والفرش النفيس والثياب الفاخرة والاواني المحكمة ولاسيما الطريفة ، لندن ، علمت ان صناعها هم القائمون بالدنيا وهم منها محرومون واذا كان الناس عباد الله في أرضه على اختلاف احوالهم ومراتبهم هم كالجسم الواحد باختلاف مافيه من الاعضاء الجليلة والحقيرة ، فلم لايجري العدل بينهم كما يجري بين الاعضاء » .

ومن رجال النهضة العربية ذوي النزعة البورجوازية المعلم بطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) الذي دعا الى حب الوطن ووحدة سورية واصدر جريدة « نفير سوريا » بعد الاحداث الطائفية الدامية سنة ١٨٦٠ ، وندد بالتعصب والنزاعات والخصومات الدينية والخرافات والانفصالية الاقطاعية وفساد السلطات التركية كما دعا الى التسامح الديني وهاجم استعباد المراة .

وهناك أيضا نعمان القساطلي الحلبي (١٨٥٤ ـ ١٩٢٠) الذي تحمل رواياته بين طياتها محتوى الافكار الجديدة في شكل انتقاد اجتماعي للمجتمع السوري الاقطاعي .

كما ان الحركة الاصلاحية في دمشق ولاسيما جناحها الراديكالي المعبر عن تطلعات البرجوازية التجارية وقف ضد النظام الاستبدادي والاقطاعي وتجاوبت هذه الحركة الدمشقية البرجوازية النزعة مع حركة جمال الدين الافغاني ومحمد عبده من اجل اصلاح التعليم وانقاذ الاسلام من تأثير المجموعات الدينية الرجعية التي كانت تخدم في الواقع الاستبداد السياسي والنظام الاقطاعي . ومن المعروف ان الشيخ طاهر الجزائري كان ابا روحيا لهذه الحركة التي أعطت ثمارها قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها .

ان المتتبع للحركة الفلاحية في بلاد الشام قبل الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ ، يلاحظ وجود الحلف غير المكتوب بين الحركة الفلاحية والحركة البرجوازية الجنينية الناشئة في المدن . ويبدو ذلك واضحا في موقف المثقف البرجوازي والشخصية البارزة في حركة النهضة العربية عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ ـ ١٩٠٣) الصحفي والمحامي رئيس غرفة تجارة حلب . فقد دافع الكواكبي بقوة عن الفلاحين وناضل معهم من اجل تحررهم من النير الاقطاعي وبصفته محاميا اقام عدة دعاوى ضد والي حلب كامل باشا التركي الذي نهب اراضي الفلاحين في عدة قرى مجاورة لحلب . وقد وقف الفلاحون ضد هذا النهب الاقطاعي وايدتهم في موقفهم هذا الفئات البرجوازية الشابة المعادية للاقطاعية . واستطاع الكواكبي بفضل نضال الفلاحين وتأييد البرجوازية الناهضة من ربح الدعاوى وارجاع الارض للفلاحين . ولذلك فقد اطلق عليه في حلب لقب (ابو الضعفاء) مما اثار السلطات التركية الاقطاعية عليه

فاعتقلته وصادرت املاكه ، ولكنه استطاع الفرار من السجن والالتجاء الى مصر عام ١٨٩٨ . ومن المعروف ان الكواكبي الانساني المتنور عدو الاقطاعية والكولونيالية واحد كبار رواد النهضة العربية الحديثة وقف في مؤلفاته ضد الحكم الاستبدادي الاقطاعي ، وكان من اوائل دعاة القومية العربية .

وبعد ان يصف الكواكبي حالة (العوام) ـ والفلاحون هم اكثرية العوام ، يتساءل : (من هم العوام ؟ هم اولئك الذين اذا جهلوا خافوا واذا خافوا استسلموا ، وهم الذين متى علموا قالوا ومتى قالوا فعلوا ... العوام يذبحون انفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشيء عن الجهل فاذا ارتفع الجهل زال الخوف وانقلب الوضع اي انقلب المستبد) . (١ر٣)

كون الشدياق والبستاني والقساطلي والكواكبي وغيرهم داخل حركة النهضة العربية تيارا رئيسيا بورجوازيا ثوريا معاديا للاقطاعية . ولكن حركة النهضة العربية حضنت منذ الماضي البعيد في أواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين بذور تيار آخر عبر عن آلام الطبقات الدنيا وتطلعاتها يمكن ان تطلق عليه اسم : التيـــار الديمقراطي الثوري .

فعلى الرغم من ان مفاهيم العدل الاجتماعية كانت ماتزال قلقة في اذهان المثقفين العرب التقدميين ، فان تيارات ومذاهب فكرية طالبت بالعدل الاجتماعي ، بشكل اكتنفه الغموض احيانا والتناقضات احيانا اخرى . ومع هذا فان علامات التيار الديمقراطي الثوري ، الذي كان اضعف التيارات داخل الحركة الوطنية العربية على اعقاب الحرب العالمية الاولى برزت في كتابات بعض المفكرين العرب ، وفي مقدمتهم الدكتور شبلي شميل وفرح انطون .

لقد عبر التيار الديمقراطي الثوري داخل الحركة الوطنية العربية ، رغم صغره قبل الحرب الاولى ، عن تطلعات الفئات الاجتماعية المستغلة المسحوقة ، التي اخذ دورها يتنامى رويدا رويدا بعد الحرب العالمية الاولى ، ثم احتل مكان الصدارة في الحركة الوطنية العربية بعد الحرب العالمية الثانية .

كان الدكتور الطبيب اللبناني المقيم في مصر شبلي شميل (١٨٦٠ ــ ١٩١٧) ، الذي حكمت عليه محاكم جمال باشا بالاعدام اثناء الحرب العالمية الاولى نظرا لمساهمته النشيطة في الحركة القومية الوطنية ، من ابرز من شرح الاشتراكية ودافع عنها ولا قى الاضطهاد الفكري في سبيلها . وقد شكل قبل الحرب العالمية الاولى واثناءها الجناح اليساري داخل الحركة القومية آنذاك ، وكان مؤمنا ايمانا منقطع النظير بالاشتراكية . فهو يقول عام ١٩٠٨ : (وما الاشتراكية كما يرميها خصومها بأضغاث احلام ولا اصحابها ظلام طغام ، بل هي تريد ان تمهد للانسان سبل السعادة على هذه الارض وسترد له الفردوس الضائع ..(٤ر١) .

وفي مقالة (لطمة على خد العالم) يقول شميل : (.. هكذا بوضوح وصراحة ثورة العمال ضد اصحاب المال .. فالاشتراكية نتيجة لازمة لمقدمات ثابتة لابد من الوصول اليها بعد تذبذب طويل ... والاشتراكية كالاجتماع نفسه ذات نواميس طبيعية تدعو اليها(٥ر١) .. فالاشتراكية كما شرحها شميل في مستهل هذا القرن هدف ، وهي طريق حتمي ، ومرحلة من مراحل تطور المجتمعات يسير المجتمع بالضرورة نحوها .

بعد شميل ، او معه يأتي فرح انطون (١٨٧٣ ــ ١٩٢٢) اللبناني المولد والمقيم في مصر من ابرز رجال النهضة العربية الحديثة وعلم من اعلام التيار الديمقراطي الثوري الذين دافعوا عن الطبقات المستثمرة . فمنذ عام ١٩٠٤ كتب فرح انطون في روايته (اوروشليم الجديدة) الطبقات العالية لا هم لها الا ملاذها ، فهي تفرحوتطرب لان الامبراطور يترك لها حرية التمتع بها ، فكان الدنيا كلها عندها اكل وشرب ولذة . والطبقات الواطئة ترضى بأقل شيء ولذلك يلهونها بأصغر الامور ، ويعملون على ظهرها كل الاعمال ، فهل تفتح عيونها ياترى يوما من الايام(١/٦) .

كان فرح انطون من اوائل المفكرين العرب المحدثين ، الذين ادركوا الوضع الطبقي للمجتمع ، اذ راى المجتمع ينقسم الى قسمين : الاسياد والعبيد ، الكبار والصغار ، الاغنياء والفقراء . الاقوياء والضعفاء . ويقول فرح انطون : (بينما يملك الاغنياء كل شيء ، لايجد الضعفاء قطعة خبز يأكلونها عندما يحل المساء) وقد دعا

فرح انطون في روايته (الدين والعلم والمال) الى التاميم والى الملكية الجماعيةلوسائل الانتاج . فقد كتب بكل صراحة :

(ان معامل الامة ومصانعها ومتاجرها واراضيها هي من مرافقها ومنافعها كالانهر والابحر والهواء . ولذلك لايجوز ان تكون ملكا لفرد ، ايا كان ، بل هي ملك لجميع الامة ، فعلى الامة اذن ان تتولى ادارتها بنفسها وتوزع ارباحها بين ابنائها . اي أن الحكومة تجعل نفسها التاجر الوحيدالذيتنحصر فيبده تلك المتاجر والمصانعوالمزارع).

وتبدو قناعة فرح انطون بمستقبل المضطهدين في روايته المذكورة (الدين والعلم والمال) التي صدرها بالعبارة التالية : (فليحذر العالم من يوم يصير فيه الضعفاء اقوياء والاقوياء ضعفاء) .

ان الدور التاريخي الهام ، الذي قام به التيار الديمقراطي الثوري ، متمثلا بشميل وفرح انطون ، تجسد في استطاعته تلقيح الحركة الوطنية والقومية بمفاهيم جديدة ذات طابع ديمقراطي عام ، اخذت سماته تظهر تدريجيا وبشكل واضح مع تقدم الزمن ، في الوقت الذي كانت فيه عملية التمايز بين مختلف التياراتالبورجوازية الصغيرة والعمالية تاخذ ابعادها المنطقية داخل حركة التحرر الوطني العربية(٨/١) وقد اسهم في هذا التمايز النمو المطرد لكل من قوى البورجوازية والعمال ، اضافة الى ازدياد دور الفلاحين في الكفاح الوطني وممارستهم تاثيرا مباشرا او غير مباشر على مسار الحركة الوطنية ومفاهيمها وسياستها .

٢ ـ حركة الاتراك (البورجوازية) ضد السلطان عبد الحميد :

قامت في سنة ١٩٠٨ حركة (الاتراك الاتحاديين) ضد السلطان عبد الحميد ، الذي حكم الدولة العثمانية مدة تقارب الثلاثين عاما بالحديد والنار والتجسس والارهاب وخنق انفاس الناس ، اضافة الى الترغيب والترهيب وبذل الاموال الطائلة من اجل كسب الدعاة والمطبلين والمزمرين لدكتاتورية عبد الحميد و (دولته العلية) الاقطاعية ونصف المستعمرة للدول الامبريالية الاوروبية .

لم تكن الحركة (الاتحادية التركية المعادية للحكم الحميدي شانها شان جميع الحركات الثورية ــ وليدة المصادفة او بنت النزوات الفردية والرغبات الشخصية ، بل كانت نتيجة منطقية لجملة عوامل داخلية وخارجية هزت كيان المجتمع الاقطاعي في الدولة العثمانية هزا عنيفا .

لقد كانت التململات والتحركات والاعمال المناهضة للاقطاعية في طليعة العوامل المؤدية الى تكوين وضع ثوري معين ، كما اسهم النضال التحرري القومي للشعوب غير التركية في تأزيم العلاقات الداخلية ودفع التناقضات الاجتماعية نحو النضج (٩/١) علاوة على ذلك فان اصداء الثورة الروسية عام ١٩٠٥ والانتفاضة الشعبية الايرانية في العام نفسه مارست تاثيرا قويا في العلاقات الداخلية في تركيا وزعزعت اوصال العرش العثماني . وهنا يجب الا نغفل عاملا هاما يعد في طليعة العوامل المؤدية الى الثورة وهو : بداية نمو البورجوازية التركية وتأثرها بأفكار الثورة الفرنسية البرجوازية . وبما ان العناصر ــ البرجوازية لم يكن بامكانها احداث التغيير اللازم لصلحة البرجوازية بسبب الارهاب الحميدي لاستحالة استثارة الجماهير المضللة بشعارات السلطان عبد الحميد والرازحة تحت نير عبودية الايديولوجية الاقطاعية ايديولوجية (الجامعة العثمانية) والمخدرة بمفاهيم الخنوع والخضوع التي كان ينشرها دعاة السلطان في كل مكان ، لذلك فان العناصر البرجوازية لجات الى الطريق السهل (الوحيد) في نظرها ، طريق كسب العناصر القيادية في الجيش من اجل احداث التغيير من فوق .

بدات حركة (الاتحاديين الاتراك) التي ظهرت معالمها بشكل واضح منذ تأسيس (جمعية الاتحاد والترقي) السرية في استنبول في عام ١٨٨٩ ، في التقرب من الشعوب غير التركية من اجل توسيع الجبهة المعادية للاستبداد الحميدي الاقطاعي ، وهكذا فقد اجتمع في سنة ١٩٠٧ ممثلون عن الاتراك والارمن والعرب والبلغار والالبان وقرروا تحقيق المطالب التالية(٢) .

١ ــ ازاحة السلطان عبد الحميد . ٢ ــ عدم تقسيم الدولة العثمانية . ٣ ــ المساواة بين جميع الشعوب والاديان . ٤ ــ اقامة حكم ديمقراطي برلماني .

في ٢١ تموز ١٩٠٨ اعلن الضابطان انور وحلمي وهما من اعضـاء جمعيـة (الاتحاد والترقي) العصيان على السلطان عبد الحميد في مدينة سالونيك . وقد اصيب السلطان عبد الحميد بالذعر وخاف من الوقوف امام الحركة الجديدة فاضطر لاعلان دستور ١٨٧٦ الذي الغاه بعد اعتلائه العرش في تلك السنة . وبموجب الدستور جرى انتخاب مجلس المبعوثان (البرلمان) . الذي افتتح ابوابه في ١٧ كانون الاول سنة ١٩٠٨ .

لم يكن اعلان عبد الحميد للدستور وقبوله بمطالب الثائرين الا محاولة منـه لكسب الوقت واستجماع القوى والقيام بالثورة المضادة . ففي نيسان/١٩٠٩/ قامت كتائب حامية القسطنطينية بتحريض من عملاء السلطان باقتحام مبنى مجلس المبعوثان وقتل وزير العدل وعدد من « الضباط المكتبلية » اي « الضباط المتخرجين مـن المدارس الحديثة ـ لكي لا يبقى على راس الجيش سوى الضباط « الالايلية » ـ اي الضباط الذين نشأوا وتقدموا من بين الجنود بناء على خدماتهم وخبراتهم العملية ، دون ان يدرسوا في مدرسة عسكرية . وقامت على الاثر مظاهرات طلبة المدارس الدينية منادية بحياة السلطان خليفة المسلمين وهاتفـة مـع الجنـود ، للسلطان خليفة المسلمين(٤) .

وصف الاستاذ ساطع الحصري الثورة المضادة في نيسان /١٩٠٩/ بما يلي(٥) :

« ان ابرز زعماء هذه الثورة كان يسمى « درويش وحدتي » الذي عمل تحت ستار « الغيرة على الدين » واستطاع ان يغري الجنود السذج ، بواسطة مريديه واعوانه من الدراويش والائمة وسائر رجال الدين وجعلهم يعتقدون ان المشروطية مخالفة للشريعة الاسلامية ، وان خليفة المسلمين مخالف للعهد الجديد كل المخالفة ، اما اعلانه المشروطية فكان قد تم تحت الضغط والاكراه . فالواجـب يقضي بالغـاء « القانون الاساسي » وبعد ان ذكر الحصري كيفية تاليف السلطان للحكومة الجديدة حكومة الثورة المضادة استطرد في وصف مظاهر الابتهاج التي عمـت الرجعيـة بهذا الانتصار .

ولكن جمعية الاتحاد والترقي قررت العمل بسرعة ومهاجمة القسطنطينية . فتقدم محمود شوكت باشا من سالونيك بجيش موال للاتحاديين باتجاه استنبول واستطاع بعد قتال عادي اعادة نفوذ جمعية « الاتحاد والترقي » وبعد ثلاثة ايام قرر مجلسا الاعيان والنواب خلع السلطان عبد الحميد في ٢٦ نيسان ١٩٠٩ وتنصيب اخيه الامير رشاد سلطانا(٦) . كان السلطان الجديد ، الذي تسمى محمدا الخامس ، في الرابعة والستين من عمره ، امضى حياته سجينا في احد القصور ، وقد اتصف بالسمنة والغباء وكان مصابا بعدة امراض نفسية ، وهذا ما جعله اداة طيعة في يد « الاتراك الاتحاديين » الذين اصبحوا في الحقيقة الحاكم الحقيقي والآمر الناهي .

اكد الدستور /١٨٧٦/ المعلن للمرة الثانية /١٩٠٨/(٧) على عدم تقسيم الدولة العثمانية وكان ذا طابع ليبرالي نسبيا اقتبس الكثير من مواده ، من دساتير الثورة البرجوازية الفرنسية . صان الدستور (على الورق) الحرية الشخصيةوحرية الصحافة ودعا الى الملكية الدستورية . كما وسع صلاحيات الادارات المحلية واوجب ايجاد مجلس عربي في كل ولاية من اجل تنظيم التجارة والصناعة والزراعة وكذلك طرق المواصلات والقضايا التربوية . ومع ذلك فان الدستور اتصف بتركيز السلطات في يد الحكومة المركزية التي اصبحت الان في يد حزب « الاتحاد والترقي » المعروف بـ « الاتراك الاتحاديين » أو جماعة « تركيا الفتاة » .

والان ماجوهر حركة انقلاب /١٩٠٨/ التي قررتها جماعة « تركيا الفتاة » اي حزب « الاتحاد والترقي » ؟

وهنا لابد من الاجابة عن السؤال التالي : بماذا اتصف نظام الحكم في العهد السابق للثورة ، اي عهد السلطان عبد الحميد ؟

لقد تميز نظام ماقبل الانقلاب بسيادة العلاقات الاقطاعية وسيطرة الطبقة الاقطاعية التركية وغير التركية . كما تميزبالاستسلام المطلقلتغلغل الراسمال الاجنبي وسيطرته على معظم مرافق البلاد الاقتصادية وغير الاقتصادية . فقد تحولت تركيا

« الدولة العثمانية » منذ العقد التاسع من القرن التاسع عشر الى بلد نصف مستعمر للامبرياليين الاوروبيين شانها شان ايران والصين .

ونتيجة لدخول الراسمال الاجنبي نشات فئة الكومبرادور البرجوازية المرتبطة مصالحها وحياتها بهذا الراسمال . وبسبب توفر المال في ايدي هذه الفئة ، فقد كان بامكانها رشوة جهاز الدولة وشراء قمته وجعله اداة طيعة عمياء في يد الامبرياليين الافرنسيين والانجليز والالمان المتصارعين على اقتسام مناطق النفوذ في الدولة العثمانيــة .

الى جانب هاتين الطبقتين المتحالفتين : الاقطاعية والكومبرداور كانت تنشا طبقة جديدة هي البرجوازية الصناعية التي وان كانت على الغالب غير تركية الجنسية ، الا انها طمحت الى انشاء صناعة وطنية . وقد كونت هذه الطبقة العمود الفقري للفئات المتوسطة . علاوة على ذلك وجدت الطبقة العاملة الناشئة التي شكلت واحات غضة في خضم ذلك المجتمع المتخلف . واخيرا فان الفلاحين كونوا اكثرية سكان الدولة لعثمانية . ولا حاجة الى القول بأن الفلاح ايام الحكم العثماني كان مستعبدا الى ابعد الحدود ، سيطرت عليه الامية والجهل والفقر والمرض والخرافات وخضع لنير الاقطاعي والرأسمال الاجنبي وجهاز الدولة القمعي .

هذا العرض السريع للاوضاع الاجتماعية قبل انقلاب /١٩٠٨/ يلقي الاضواء على الحركة نفسها تلك التي تعتبر « حركة برجوازية » ولكنها بدون جماهير . فهي حركة برجوازيــة ولكنها ليست ديمقراطيــة ، بعكس الثورة الفرنسيــة « البرجوازيــة الديمقراطيــة » .

لماذا لا يمكن وصف حركة /١٩٠٨/ التركية « بالديمقراطية » و « الشعبيــة » بعكس الثورة الفرنسيــة ؟

لقد كانت الثورة الفرنسية ثورة برجوازية شاركت في اشعالها الجماهير الشعبية الفقيرة في المدينة والريف . وهذه الجماهير كونت القوى الدافعة الرئيسية للثــورة

على الرغم مـن انها تتزعمها وبسبب الاشتراك الفعلي والفعـال للجماهير في الثورة الفرنسية البرجوازية يطلق عليها لقب « الديمقراطية » . فهي « ثورة شعبية » قولا وفعلا. اما حركة /١٩٠٨/ البرجوازية فتميزت ببقاء الجماهير الشعبية على «الحياد» معزولـة دون حراك (٨) . ولذلك فلا يمكن وصف هـذه الثورة بـ (الشعبيـة) أو (الديمقراطية) لفقدان العنصر الشعبي الدافع لها ولكونها لم تحقق ، كما سنرى أمال الجماهير وتطلعاتها الى حياة حرة كريمة .

فحركة /١٩٠٨/ البرجوازية جرت من فوق ، وهي لم تستطع بسبب ذلك تحقيق المهمات الموكلة اليها ، اي انها لم تستطع القضاء على النظام الاقطاعي المتخلف، ودفع الجماهير في طريق التقدم الاجتماعي (٩). لقد اشارت الوقائع التاريخية اللاحقة ان ثورة /١٩٠٨/ لم تحقق مايرتجى منها. فالقوي الاقطاعية والكومبرادورية مارست تأثيرا قويا على قيادة الثورة « الاتراك الاتحاديين » اي « حزب الاتحاد والترقـي » الذي رغم تأثره في الفكر البورجوازي ظل خاضعا عن وعي او لا وعي للايديولوجيـة الاقطاعية ومفاهيم الفكر الكومبرادوري والماسونية .

وقف حزب « الاتحاد والترقي » في ولاية (عابدين) ضد الانتفاضة الفلاحيـة وقمعها بعنف ووحشية بناء على نصيحة السفير الانكليزي الذي خاف على مصالح الشركة الانكليزية مالكة الخط الحديدي في تلك الولاية ، (١٠) وفي الواقع فان حيـاة الفلاح المستعبد المهان المضطهـد بقيت على حالها دون تغيير ، وبقي الفلاح مرهقـا بالاتاوات الاقطاعية ، بقي يدفع العشر ويتلقى ضرب الكرباج وهو يقدم فروض الطاعة « للسيد » الاقطاعي ولاجهزة الدولة القمعية ، التي تلاحقه اطراف الليل وآناء النهار لدفع ضريبة الدولة وحصة الاقطاعي وفائدة البنوك الاجنبية حصة المرابي والتاجر .

وفي الوقت نفسه قاوم « الاتراك الاتحاديون » النقابات المؤسسة الناشئة ، وقضوا بوحشية في سنة ١٩١٠ على « الحزب الاشتراكـي العثماني » الوليـد في العام نفسه .

وهكذا لم يعتمد « الاتـراك الاتحاديـون » على الجماهير بل علـى الفئـات

العليا المستثمرة .. ولم يعتمدوا على الشعوب المظلومة ، بل على المستعمرين وتناقضاتهم من اجل اضطهاد الشعوب الخاضعة للحكم « العثماني » .

كما ان طبيعة النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي لم تتغير بعد ثورة /١٩٠٨/ بل بقي النظام اقطاعيا أو نصف اقطاعي ونصف مستعمر ، مع خضوع مطلق للمستعمرين الالمان والانكليز والافرنسيين المتصارعين على اقتسام تركة « الرجل المريض » .

فثورة /١٩٠٨/ لم تسع ولم يكن بامكانها شفاء « الرجل المريض » وهو اللقب الذي اطلق على الدولة العثمانية المتخلفة .

ومع هذا ، وعلى الرغم من كل ماذكر فان ثورة / ١٩٠٨/ كانت خطوة الى الامام حررت ـ بغض النظر عن راي قيادتها ـ او بالاصح فتحت الطريق لتحرر الشعوب المضطهدة الخاضعة لنير الحكم العثماني ، تلك الشعوب التي اخذت تطالب بحريتها واستقلالها . كما استنهضت همم الفئات الاجتماعية المهضومة لكي تنفض الغبار عن عيونها وتتهيأ للمعارك الاجتماعية المقبلة .

على الرغم من ان الاتحاديين لم يتسنموا في السنوات الاولى لثورة ـ ١٩٠٨ ـ منصب « الصدر الاعظم » الا انهم تقاسموا المناصب الوزارية الهامة ووجهوا بذلك سياسة الدولة وفق خططهم واهدافهم . ففي البدء استلم طلعت وزارةالداخليةوجاويد وزارة المالية ومحمود شوكت وزارة الحربية ، بينما اكتفى الراس الرابع انور باشا برئاسة بعثة عسكرية الى برلين . وهكذا استطاع قادة ـ الاتراك الاتحاديون ـ من وراء استيلائهم على هذه الوزارات وتأييد قيادة الجيش لهم من السيطرة على مقاليد الامور ومن حل كل مجلس نيابي لا يقف الى جانبهم . وقد استخدموا الحروب الخارجية من أجل الضغط على مناهضيهم وتركيز جميع السلطات في ايديهم .

تكونت المعارضة المناوئة ـ للاتراك الاتحاديين ـ من جبهة اطلق عليها اسم ـ حزب الحرية والائتلاف ـ الذي نادى بتعايش جميع العناصر المكونة للامبراطورية العثمانية ، كما دعا للحكم اللامركزي . يكون القسم الاعظم من ـ حزب الحرية

والائتلاف ــ من الشعوب غير التركية مثل العرب والالبان والاكـراد والشركس ، وانضمت الى هذه القوى العناصر التركية المعادية للاتراك الاتحاديين والمطالبة بالحكم اللامركزي(١٣) . لكن هذا الحزب لم يختلف بتركيبه الطبقي عن جمعيـة ــ الاتحـاد والترقي ــ أي انه تكون من عناصر برجوازية وبرجوازية صغيرة . اضافة الى العناصر الاقطاعية . ولم يستطع هذا الحزب الوقوف على رجليه لمدة طويلة . فقد وجـه اليه الاتحاديون الضربات المتتالية المميتة . فاغتيل الاعضاء البارزون في حزب ــ الحريـة والائتلاف ــ وضيق على الاعضاء الاخرين واجبروا على التسليم امام ضغط السلطة المتمركزة بيد الاتحاديين(١٤) .

لم يكن الاتراك الاتحاديون مخلصين بوعودهم السابقة للشعوب غير التركية بتحقيق المساواة بين الشعوب . فهم على العكس اضطهدوا الشعوب الاخرى مستخدمين الحكم الدكتاتوري العسكري وناشرين الشعارات الطورانية الداعية الى اقامة دولة تركية كبيرة تمتد من تركستان الروسية الى بحر ايجه مرورا بهضاب الاناضول . لقد كانت المشاريع التوسعية الطورانية للاتراك الاتحاديين عقبة كأداء أمام تحـرر الشعوب الخاضعـة لسادة استنبول . الذين اثاروا المشاعر الشوفينية لدى الجماهير التركية مـن اجل اضطهاد واخضاع الشعوب الاخرى الموجودة داخل الامبراطورية العثمانية(١٥) .

لقد ايد الاتحاديون دون تحفظ وبجميع الوسائل المنظمـة الطورانية الشوفينية ــ ترك توردى ــ اي ــ العائلة التركية ــ المؤسسة سنة ــ ١٩٠٩ ــ وقد دلت المادة ــ ١٣ ــ من دستور جمعية ــ الاتحاد والترقي ــ على سعي الاتحاديين لتطبيق الحكم المركزي الشديد والاستهتار بمصالح الشعوب الخاضعة لسادة استنبول وحرمان الولايات من كل استقلال ذاتي سياسي واداري في الولايات(١٦) .

ان الاتراك الاتحاديين القابضين على زمام السلطة بعد ثورة ــ ١٩٠٨ ــ خيبـوا آمال الجماهير الشعبية التركية وبشكل خاص الشعوب غير التركية وقمع حركاتهـا التحررية . فالاتحاديون لم يسعوا ، كما قال لينين ، لاستنهاض همم جماهير الشعب الفقيرة ولم يوقظوا استقلال الجماهير ويسمحوا لها بالانطلاق لممارسة نشاطها الذاتي.

فالاتحاديون لم يستطيعوا حل اي من المشكلات الاقتصادية الاجتماعية او المشـكلات القوميــة .

٣ ــ موقف حركة التحرر الوطني العربية من الثورة التركية الاتحادية :

استقبلت القوى الوطنية في سورية بحرارة انباء ثورة ــ ١٩٠٨ ــ ضد السلطان عبد الحميد ، فالوطنيون السوريون العرب حيوا بحماسة انتصار ثورة الاتراك الاتحاديين واعلان الدستور واعلنوا عن استعدادهم للعمل معهم جنبا الى جنب . وقد اعتقد الوطنيون بعد الثورة في تموز ــ ١٩٠٨ ــ بأن الاتحاديين سيدافعون عن الدستور وسيقيمون الحياة البرلمانية البرجوازية الديمقراطية . كما انهم انتظروا مــن النظام الجديد تحسين احوالهم وتحقيق الحكم الذاتي للولايات العربية .

في ايلول ــ ١٩٠٨ ــ اعلن نجيب عزوري صاحب كتاب « يقظة الامة العربيــة » واحد الوطنيين العرب المقيمين في باريز بأن لجنة « رابطــة الوطن العربي » مســتعدة للعمل في وضع الدستور المزمع اعلانه وانها ــ اي اللجنــة ــ تبحــث في الوسائــل الدستورية من اجل اقامة الاستقلال الذاتي الاداري لسورية(١٨) . وقد وصفت جريدة ــ استقلال العرب ــ الصادرة في باريز ــ الاتحاديين بـ ــ اصدقائنا ــ كمــا وعدت بالقاء السلاح والعمل معا مع الاتحاديين من اجل تجديد شباب الدولة العثمانية(١٩) .

رددت الالوف بل مئات الالوف من الشعوب العائشة في الدولة العثمانية شعارات الدستور ، الحرية ، المساواة ، الاخــاء ، الثورة . بعد أن عاشت محرومة في عهــد السلطان عبد الحميد ، حيث كان يلقى بمن يتلفظ بأمثال هذه الشعارات في غياهب السجون ويساق الى حتفه دون محاكمة ولا من يحزنون(٢٠) .

لاقت ايضا الافكار المنادية بالمساواة الاجتماعية حماسة تشبــه الى حــد بعيد الحماسة الداعية الى المساواة السياسية ، وقد لاقت افكار العدالة الاجتماعية رواجا خاصا في لبنان ، الذي تمتع منذ توقيع بروتوكول ــ ١٨٦٤ ــ بحرية نسبية داخــل الامبراطورية العثمانية . ونجد صدى الحوار حــول العدالــة الاجتماعية في مجلــة

ـ المشرق ـ(٢١) الصادرة في ذلك الحين ، ان الحوار الدائر على صفحات هذه المجلة في اعقاب ثورة ـ ١٩٠٨ ـ يدل على ما يدور في خلد الناس ويجري على السنتهم من احاديث . ويبدو واضحا من بعض مقالات مجلة ـ المشرق ـ ان السكان القوا مسؤولية البؤس والشقاء الحالين بالجماهير على السلطان العثماني ورجال الدين الموالين له . ومما لا ريب فيه ان الحريات السياسية النسبية التي تمتع بها السكان في اعقاب ثورة ـ ١٩٠٨ ـ بعد عهد من الاضطهاد والظلم افسحت المجال لظهور المطالب الاجتماعية الموجودة في قاع المجتمع الى السطح .

لقد اسهمت ثورة ـ الاتراك الاتحاديين ـ من دون ان تدري في دفع الجماهير نحو المطالبة بحقوقها والتنفيس عن كربها بعد ربع قرن من الحكم الاستبدادي الفردي وبعد عهود طويلة من الضغط والارهاب والحرمان والبؤس بمختلف اشكاله والوانه .

ولكن ، هل حققت ثورة ـ الاتراك الاتحاديين ـ امال الجماهير المعذبة والشعوب المضطهدة ؟. لقد املت الجماهير العربية الفقيرة في بلاد الشام ان تخفف ثورة ـ ١٩٠٨ ـ من آلامها وانتظرت أن تحل الثورة مشكلاتها الاقتصادية ـ الاجتماعية . كما حلم الفلاحون في التصرف وفي امتلاك الاراضي السلطانية ، أراضي السلطان عبد الحميد التي تجاوزت في سورية وحدها ـ ١٠١٤ ـ قرية(٢٢) . ولكن توزيع أراضي السلطان على الفلاحين الذين يعملون عليها ويسقونها بعرق جبينهم بقي حلما يراود أذهان الفلاحين واملا دغدغ افئدتهم . فقد قامت الحكومة التركية ، حكومة جمعية الاتحاد والترقي بالاستيلاء على اراضي السلطان السابق ولم تقم بتوزيعها على الفلاحين . كما كان مؤملا ، بل قامت هي ـ أي الدولة الاقطاعية البرجوازية ـ باستثمار الفلاحين واضطهادهم كما كان يفعل انصار السلطان عبد الحميد .

وهكذا لم يتغير شيء في حياة الفلاح العربي العامل في الاراضي السلطانية والذي انتقل من نير الدولة الحميدية الاقطاعية الى نير الدولة الاتحادية التركية البرجوازية الاقطاعية . علاوة على ذلك فان الفلاح الرازح تحت نير الاستثمار الاقطاعي لملاك الارض من البشوات والاغوات وكبار موظفي الدولة المتعاونين مع قمة السلطة والمكونين جزءا

منها ، لم يشعر باي تبدل او تغير ، واستمر سيف الارهاب مسلطا على رقبته وهـو مجبر على دفع انتاجه للاقطاعي ودولته العليـة .

اما الفئات المتوسطة التي كانت ترنو بابصارها الى تحقيق الاصلاحات او بعضها، والى الحكم الاداري الذاتي في الولايات العربية ، فقد وجدت بعد مدة يسيرة من قيام ثورة الاتراك الاتحاديين ان سياسة الاتحاديين من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي لم تتبدل، وما هي الا استمرار للسياسة السابقة القائمة على السيطرة الاقطاعية على الرغم من الواجهة البرجوازية للحكم الجديد . وهكذا لم تقم السلطة الجديدة بعد ثورة ـ ١٩٠٨ ـ باي عمل اصلاحي جذري ، وبقي جهاز الدولة متخلفا دون تغيير تسيطر عليه كما في السابق العناصر الرجعية المحافظة ذات النزعات الاقطاعية . ولم تكن موجودة بسبب ذلك اية امكانات لقيام الاصلاحات الضرورية . فالحكومة التركية الاتحادية التي نادت بشعارات الحرية والمساواة والاخاء والدستور البرجوازي وطبلت كثيرا للمبادىء البرجوازية ، التي كانت في ذلك الوقت تقدمية وثورية في ظل ظروف مجتمع اقطاعي متخلف ومحافظ لم تقم بأعمال حاسمة في طريق التطور البرجوازي التقدمي آنـذاك ومعنى هذا ان واجهة الحكم كانت برجوازية . اما جوهره فكان اقطاعيا متخلفا راكدا لا حراك فيه ، على الرغم من الضجة المثارة حوله .

مع ظهور معالم السياسة الطورانية الشوفينية لجمعية الاتحاد والترقي ومـع بداية الاضطهاد الموجه ضد القوميات غير التركية اخذت شعبية الاتراك الاتحاديين في التلاشي ، وخفت في الوقت نفسه موجة الحماسة للثورة ـ وشعاراتها ـ الحرية ، التقـدم ، الوطـن ـ .

لقد بدات النقمة في صفوف الوطنيين العرب ضد الاتراك الاتحاديين تزداد اكثر فأكثر عندما قام هؤلاء بتسريح الاف الموظفين العرب . لقد اغتنم (الاتراك الاتحاديون) فرصة موجة الحقد ضد الحكم الحميدي لضرب العناصر العربية في جهاز الدولـة ، على اساس ان بعضها تعاون مع السلطان عبد الحميد ، وتقوية العناصر التركية ـ بغض النظر عن موقفها السابق المؤيد او المعارض للحكم الحميدي (٢٣) . وهذا العمل

اثار غضب العرب الوطنيين منهم على سياسة جمعية « الاتحاد والترقي » المعادية لكل شيء غير تركي . ولم يكن هذا السبب هو السبب الاساسي لمقاومة الوطنيين العرب لجمعية الاتحاد والترقي . فسياسة التتريك العامة هي التي دفعت القوميين العرب للوقوف في وجه « الاتحاديين الاتراك » بعد ان كانوا الى جانبهم .

ولنقرأ ما كتبه الوطني العربي والسياسي الجريء شكري العسلي عام /١٩١٣/ ولنر اسباب هذا التطور والتبدل في سياسة القوميين العرب ازاء قمة السلطة التركية وسياستها العنصرية . قال شكري العسلي وهو من الشهداء الذين اعدمهم جمال باشا بعد سنتين ، شارحا سياسة المثقفين العرب ما يلي :

... ولاننا نحن معشر العرب المتعلمين كنا آخينا الاتحاديين على اثر الانقلاب يوم نودي بالدستور واعلنت الادارة الدستورية ، واصبحت الحكومة نيابية وغدت جمعية الاتحاد والترقي حامية الدستور . وعندما راينا اعمال بعض الذين استولوا على منصة الحكم مغايرة لاحكام الدستور والحرية الشخصية ورايناهم ساعين الى تتريك العناصر وهضم حقوق العرب انشققنا عنهم وهجرناهم .

استقبل الوطنيون القوميون العرب في بلاد الشام ثورة /١٩٠٨/ بحماسة وصفقوا لها وايدوها . ومع عام /١٩١٠/ بداوا ينتقلون الى صف المعارضة ويقاومون السياسة الطورانية الشوفينية المتعصبة للاتراك الاتحاديين . وهكذا اخذ الوطنيون العرب ينسحبون تباعا من حزب « الاتحاد والترقي » وينضمون الى حزب المعارضة ، حزب « الحرية والائتلاف » المطالب بتحقيق سياسة ادارية لا مركزية في سائر انحاء الولايات العثمانية المختلفة القوميات .

بعد سنة /١٩١٠/ بدا واضحا ان اكثرية السكان في الولايات العربية اخذت تعارض سياسة « الاتحاديين » وتتذمر منهم ، ولم يشذ عن ذلك الا الكتل الرجعية المحافظة ، التي كانت في السابق من انصار ودعاة الاستبداد الحميدي وقاومت في البدء ثورة /١٩٠٨/ البرجوازية . ثم اخذت هذه العناصر في التارجح والتذبذب ، وما عتمت ان ايدت الاتحاديين بعد ان اتضحت معالم سياستهم (٢٥) الرجعية ، وبعد ان تبين ان الشعارات البرجوازية التقدمية في ذلك الحين ، التي رفعها قادة جمعية

الاتحاد والترقي لم تكن الا برقعا شفافا تختفي خلفه سياسة رجعية عنصرية . واكبر شاهد على قولنا هذا موقف كبار ملاك الاراضي من الاغوات والبكوات وكبار الموظفين الذين انقلبوا بسرعة الصاروخ من مؤيد لحكم عبد الحميد السابق ومعاد للثورة الى مؤيد للاتراك الاتحاديين وداع لهم بطول العمر والبقاء في حفظ الدولة العليا ، دولة الاقطاعيين مضطهدة الفلاحين ومعرقلة كل تطور ممكن . وعلى الرغم من الصبغة البرجوازية للاتراك الاتحاديين فانهم ايدوا ملاك الاراضي وقدموا لهم كل عون من اجل الاستمرار في نهب واستثمار الفلاحين .

ومع ان الاتحاديين حاولوا في كثير من الاحيان ولاسباب تكتيكية ، كسب عطف الوطنيين العرب السوريين والاتصال بهم لتفادي معارضتهم ، الا ان النقمة على سياسة الاتحاديين العنصرية افشلت كل مسعى في هذا السبيل ، وحطمت بالتدريج جسور الاتصال القائمة بين القوميين العرب المطالبين بالاستقلال الذاتي وبين الاتراك الاتحاديين الساعين الى اضطهاد الشعوب غير التركية الخاضعة للدولة العثمانية .

منذ سنة /١٩١٠/ اخذت موجة النقمة المعادية للاتراك الاتحاديين في التصاعد للاسباب المباشرة التالية(٢٦) :

١ ـ تسريح عدد كبير من الموظفين العرب وبشكل خاص من وزارتي الداخلية والخارجية .

٢ ـ محاولة عدم اشراك العرب في الاجتماعات السياسية التي تقرر فيها سياسة البلاد .

٣ ـ تحول حزب « الحرية والائتلاف » من حزب عثماني الى جمعية تركية بعد ان قاومه « الاتراك الاتحاديون » .

٤ ـ عدم معرفة الموظفين الاتراك العاملين في الولايات العربية للغة العربية .

٥ ـ مقاومة كل تقدم ثقافي في سورية .

٦ ـ مقاومة اللغة العربية والحط من شأنها .

لم تحجم الجرائد العربية الوطنية (٢٧) عن توجيه نقدها العلني اللاذع لسياسة « الاتحاديين » هذه ، ولكن الحملة الصحفية لم تجد لها صدى واسعا بين اوساط الجماهير ، لا نها حصرت مطالبها في اجراء بعض الاصلاحات العامة والتعليمية ، ولم تقم بالدفاع عن مصالح الجماهير الحيوية . ومع هذا فان الفترة الممتدة من /١٩٠٨ ـ ١٩١٠ ـ ١٩١١/ تميزت بالصعود المتنامي لحركة الكفاح ضد الاتراك الاتحاديين وسياستهم في تتريك العرب (وغير العرب) .

كما تميزت هذه الفترة بتجميع القوى استعدادا للدخول في المعارك المقبلة ، والانتقال من مرحلة المطالب الجزئية الى المرحلة التالية (١٩١١ـ١٩١٤) مرحلة المطالبة بالادارة اللامركزية والاستقلال الذاتي .

٤ ـ الاحزاب السياسية وبرامجها الاجتماعية :

انتعشت حركة التحرر الوطني والقومي في بلاد الشام بعد ثورة الاتحاديين سنة /١٩٠٨/ ضد السلطان عبد الحميد . وكان الطابع البارز للتجمعات الوطنية ، التي ظهرت بين قيام الثورة الاتحادية (١٩٠٨) والحرب العالمية الاولى (١٩١٤) مثل : العهد ، والمنتدى الادبي ، حزب اللامركزية الادارية العثمانية ، وجمعية العربية الفتاة ، والحركات الاصلاحية في بيروت ودمشق وغيرها ، هو فقدان وحدة الرأي حول الموقف من الحكومة التركية المركزية والتغلغل الاستعماري ، وقد كان اختلاف الراي هذا سائدا ليس بين منظمة واخرى فحسب ، بل في قلب كل منظمة . حيث اختلفت اراء اعضائها ووجهات نظرهم . ويرجع السبب الجوهري لاختلاف الراي بين الوطنيين في ذلك العصر ، الى العوامل التالية :

١ ـ وجود فئات اجتماعية مختلفةلهامصالح اقتصادية اجتماعية متضاربة داخل هذه المنظمات .

٢ ـ طفولة الحركة الوطنية والقومية التي كانت قبل الحرب العالمية الاولى لا تزال تمر في مرحلة التكون ولم تكن الافكار الوطنية والقومية قد بلغت مرحلةالنضج

٣ ـ استغلال الحكم التركي والاستعمار للطائفية والعشائرية والنزعات المحلية ومحاولة شق الحركة من هذا الطريق .

كانت الحركة الوطنية والقومية قبل الحرب الاولى حركة برجوازية النزعة ، بالرغم من مشاركة قسم من الاقطاعية الليبرالية المتحررة. فهي ، اي الحركةالوطنية، حركة برجوازية متشابكة مع بعض التيارات الاقطاعية . واكبر دليل على ذلك هو ارتفاع نسبة عدد الاعضاء البرجوازيين . والمطالب التي طرحتها الحركة . وكون المثقفين البرجوازيين والتجار القوة الدافعة والمحركة للعمل الوطني والقومي . ولم يؤلف العمال انذاك قوة حاسمة في النضال رغم بدء تحرك تجمعاتها الجنينية ، فيحين دعم الحرفيون بقوة الحركة الوطنية دون ان يساهموا في قيادتها او في نشاطها اليومي، وقد ادرك الجناح الراديكالي البرجوازي داخل الحركة الوطنية والقومية ، اهمية العمال والحرفيين الذين الفوا حوالي /١٠٪/ من السكان ، (٢٨) ووقف الى جانبهم ضد الشركات الاجنبية كما حاول هذا الجناح ان يتخذ موقف المصالحة بين العمال والمالكين لادوات الانتاج الصناعية والحرفية من اجل مجابهة العدو الاساسي ،الحكم الاقطاعي التركي(٢٩) . انظر كتابنا « الحركة العمالية في سورية ولبنان ١٩٠٠ — ١٩٤٥ » .

في ظروف انتعاش الحركة الوطنية العربية بعد ثورة الاتراك الاتحاديين والقضاء على الاستبداد الحميدي ، ظهرت الاحزاب والتجمعات السياسية كثمرة اساسية من ثمار حركة النهضة العربية التي بدات في منتصف القرن التاسع عشر ، من جهة ، وكصدى من اصداء التيارات العمالية التي غزت الدولة العثمانية وولاياتها من جهة اخرى . وكانت اهم الاحزاب والتجمعات السياسية التي ظهرت على مسرح السياسة في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٠٨ و ١٩١٤ هي التالية :

جمعية الاخاء العربي العثماني :

كانت جمعية الاخاء العربي العثماني (٣٠) أول منظمة سياسية عربية بعد اعلان الدستور ، اسست في استنبول /١٩٠٨/ من كبار الموظفين السوريين وبعض كبار الملاك . حددت المادة الاولى من قانون هذه الجمعية اهدافها ب ... السعي لاعلاء شان الامة العربية واتخاذ جميع الوسائط والتدابير والارشادات اللازمة لتاسيس معامل وشركات زراعية وصناعية وتجارية .. ويبدو واضحا من هذه المادة اهتمام

القائمين على هذه الجمعية بتاسيس المعامل والشركات ووضع البذور الاولى للتطور الراسمالي .

استطاع قادة هذه الجمعية أن يكسبوا في البدء الطلاب العرب في استانبول الى جانبهم ولكن الطلاب ، الذين رفعوا شعارات وطنية راديكالية انفصلوا عن هذه الجمعية لان قادتها لم يسعوا — كما ذكر امين السعيد — الا الى تحقيق مصالحهم الشخصية وعلى راسها اعتلاء المناصب الرفيعة في دوائر الدولة .

أما الاتراك الاتحاديون ، الذين اعلنوا في البدء تأييدهم لجمعية الاخاء وحضروا حفل افتتاحها بأمل الاستفادة منها لتدعيم قوتهم ، فقد اغتنموا فرصة انعزال هذه الجمعية عن الطلبة العرب المقيمين في استنبول وقاموا عام /١٩١٠/ بحلها . ودل هذا على أن الاتحاديين كانوا يضيقون ذرعا بكل نشاط غير تركي مهما كان معتدلا ، كما حاولوا القضاء على كل صوت ارتفع منادياً ببعض الاصلاحات مهما كانت هذه المطالب معتدلة كما هو الحال في جمعية الاخاء .

المنتدى الادبي :

اضطرت الظروف الداخلية والخارجية الحكومة المركزية ، حكومة حزب الاتحاد والترقي ، للسماح عام /١٩٠٩/ بتاسيس المنتدى الادبي . ومع أن عددا من النواب العرب في مجلس المبعوثان وبعض الكتاب والادباء العرب دخلوا في المنتدى الادبي ، الا أن القوة الرئيسية في المنتدى تكونت من الطلاب العرب الذين يدرسون في استنبول(٣١) . وكان هؤلاء الطلاب الممتلئون حماسا واندفاعا والمتأثرون بالافكار القومية البرجوازية الاوروبية ، العناصر القائدة في المنتدى الادبي(٣٢) . لقد كانت شخصيات ابطال الوحدة الايطالية مثل كافور وغاريبالدي النجم الهادي والنموذج المحتذى لاعضاء المنتدى الادبي الذين طمحوا الى تحقيق وحدة عربية وفق النموذج الايطالي أو الالماني(٣٣) .

لقد زاول المنتدى الادبي نشاطه السياسي تحت شعار الدعوة لاستقلال آسيا العربية من وراء اقنعة النشاط الادبي والفني . وعلى الرغم من انتشار فروع المنتدى

الادبي في كثير من المدن السورية والعراقية ، فان نشاطه السياسي والفعال تمركز في استنبول . وفي الوقت نفسه قام قادة المنتدى بعقد الصلات الوثيقة مع كثير من المنظمات السياسية والشخصيات السورية المعروفة في سورية ومصر .

تصدرت اقوال امين الريحاني وعبد الحميد الزهراوي وافلاطون وسنكاونيتشه والامام الشافعي والامام علي صفحات مجلة المنتدى الادبي (٣٤) . ولا حاجة الى القول : ان ايراد اقوال هؤلاء المفكرين دليل على اتجاه مجلة المنتدى الادبي وتبنيها افكار هؤلاء او بعضا منها .

اما البرنامج السياسي للمنتدى الادبي فقد لخصه رئيسه عبد الكريم الخليل في افتتاحية مجلة المنتدى الادبي بما يلي : (٣٥) .

اولا ـ احياء الجامعة العربية وبث روح التعارف واحياء عاطفة الاخاء والتعاضد بين افرادها وجماعاتها بلا تفريق في الدين والمذهب بحيث يكون الوطن العربي للعرب جميعا .

ثانيا ـ حث الناشئة على ان يكون كل منهم متمسكا بصحيح دينه غير منكر على غيره ذلك ممن خالفه في الدين والمذهب .

ثالثا ـ السعي في تعيين اصح واقوى واقوم قواعد التربية والتعليم القائمة على اساس العلم الصحيح .

رابعا ـ ارشاد الزراع وحثهم على استعمال الآلات الزراعية الحديثة والاستفادة من المكتشفات العلمية والتجارب الفنية وتأسيس النقابات الزراعية .

خامسا ـ ترغيب المواطنين في استعمال المصنوعات الوطنية وحماية الصناعة المحلية وتاليف النقابات الصناعية .

سادسا ـ الاخذ بيد العمال وتنوير اذهانهم وارشادهم الى مافيه صحتهم وحثهم على تاليف نقابات من انفسهم .

يبدو واضحا من هذا البرنامج ان قادة المنتدى الادبي لم يفكروا بتوزيع الاراضي

على الفلاحين حتى انهم تجنبوا كلمة « فلاحين » واستخدموا كلمة « الزراع » المطاطة التي تشمل الفلاحين والمالكين في آن واحد . والمادة الرابعة من هذا البرنامج تدل بوضوح على تطلع قادة الحركة الوطنية انذاك في ادخال الراسمالية الى الزراعة . وهذا الاتجاه سيبقى محور تفكير عدد كبير من الوطنيين في سنوات ما بعد الحرب العالمية الاولى .

ان الحالة النفسية السائدة بين الشعراء العرب القوميين قبل الحرب العالمية الاولى والوضع الذي عاشه العرب مضطهدين من الغير تبدو واضحة على صفحات مجلة « المنتدى الادبي » فالتذكير بالماضي التليد والحنين الى استعادة الامجاد السالفة واثارة المشاعر القومية نجدها واضحة جلية في الانتاج الادبي لمجلة المنتدى الادبي الصادرة قبل الحرب العالمية الاولى (٣٦) .

ولكن « المنتدى الادبي » لم يستطع المحافظة على وحدته . ففي عام /١٩١٢/ حدث خلاف في قلب المنتدى الادبي بسبب الموقف من الاتراك الاتحاديين القابضين على زمام السلطة ، والذين استطاعوا ان يستميلوا بعض اعضاء المنتدى بمختلف الوسائل والحيل والمغريات . ومما يسترعي الانتباه ان اعضاء المنتدى الادبي الذين تحدروا من اصل برجوازي (تجاري) كانوا على الغالب ضد سياسة المساومة مع الاتراك الاتحاديين ، بينما مال الاعضاء من ذوي المنشأ الاقطاعي الى سياسة التفاهم والمصالحة . ان الدافع الرئيسي لموقفهم هذا يعود في الاصل الى موقف الطبقة الاقطاعية العربية في سورية ، ذلك الموقف المؤيد للحكم التركي والسائر في ركابه . علاوة على ذلك فان الاعضاء الذين مالوا للمصالحة والعمل مع الحكومة المركزية الاتحادية حلموا ـ كما يذكر امين السعيد ـ بتقلد المناصب الرفيعة في الدولة العثمانية (٣٧) .

اما الاتراك الاتحاديون فانهم ايدوا ، بل سعوا لخلق هذا التيار المسالم للحكم التركي من اجل ان يستطيعوا شق القوى الوطنية العربية وضربها من الداخل او الخارج . وعلى الرغم من تصدع المنتدى الادبي فقد بقي على قيد الحياة حتى اذار /١٩١٥/ عندما اغلق الاتراك الاتحاديون المنتدى الادبي وقلبوا للعرب ظهر المجن

واتخذوا في ربيع /١٩١٥/ موقف العداء السافر للحركة العربية بجميع أجنحتهـا المعتدلة والمتطرفـة .

الجمعية القحطانية وجمعية العهد :

في نهاية عام / ١٩٠٩ / اسست الجمعية القحطانية السرية من بعض الضباط العرب في الجيش العثماني ومن بعض افراد العائلات الاقطاعية المعروفة ذات الطابع الاقطاعي . هدفت هذه الجمعية الى تحويل الدولة العثمانية الى مملكة ذات تاجين ، تؤلف الولايات العربية فيها مملكة واحدة لها برلمان وحكومتها المحلية وتكون اللغة العربية لغتها الرسمية. وان تكون هذه المملكة جزءا من امبراطورية تركية ــ عربية على غرار مملكة النمسا والمجر (٣٨) . وبعد عدة سنوات اضطرت الجمعية القحطانية الى تغيير اسمها امعانا في السرية واطلقت على نفسها في سنة / ١٩١٣ / اسم جمعية العهد التي اقتصرت عضويتها على العسكريين دون المدنيين . وهؤلاء العسكريون كانوا على الغالب من القطر العراقي بسبب كثرة العراقيين في الجيش العثماني(٣٩) .

احتوى برنامج العهد على اربع نقاط رئيسية :

١ ــ قيام اتحاد تركي ــ عربي يشبـه الاتحاد القائم في دولـة النمسا والمجر ، وتحقيق الاستقلال الداخلي للولايات العربية ضمن هذا الاتحاد .

٢ ــ الموافقة على بقاء الخلافة في العائلة العثمانية .

٣ ــ الموافقة على بقاء استنبول راس الشرق .

٤ ــ لقد اقام الاتراك خلال ستمئة سنة خط الدفاع الاول عن الشرق ضد الغرب ، وعلى العرب ان يكونوا قوة احتياطية مستعدة دائما لمساعدة خط الدفاع هذا.

عكس البند الرابع من هذا البرنامج المحتوى المعادي للاستعمار لـدى جمعيـة العهد ، ودل على طموح العهد في رفع العرب الى المقام الاول في الدولة العثمانية . كما حلم رجال العهد ــ تحت ستار قيام خط الدفاع الثاني ضد الغرب الى انشاء دولـة عربية ذات استقلال داخلي . وعلى العموم فان رجال العهـد اهتمـوا في « القضايا القومية » واهملوا القضايا الاجتماعية .

جمعية العربية الفتاة :

لم تأخذ المطالب المنشورة والمعلنة للوطنيين العرب السوريين المقيمين في الدولة العثمانية اي طابع صريح معاد للاتراك بشكل واضح المعالم . ولكن الحركة الوطنية والقومية العربية لم تعدم من يفصح عن استراتيجيتها الحقة في الدعوة للانفصال عن الدولة العثمانية واقامة دولة مستقلة . وتجلى ذلك بوضوح في تاسيس جمعية العربية الفتاة عام/١٩١١/في مدينة باريس من عدد من الطلاب السوريين المتحدرين من عائلات معروفة ذات وجاهة ومكانة في المدينة والريف . ويمكن القول ان الطابع القومي العربي لمؤسسي الفتاة كان واضحا وجليا ومتاثرا بالبيئة الاجتماعية التي نبت فيها المؤسسون وبالثقافة القومية البورجوازية في النصف الاول من القرن التاسع عشر اي قبل ان تستغل الاحتكارات الراسمالية الامبريالية مشاعر الناس القومية من اجل السيطرة والاستعمار بعد أن تحولت الراسمالية الى امبريالية تستولي على البلدان الاخرى الضعيفة وتستثمرها باسم الامة جمعاء . نقول ان تأثر مؤسسي الفتاة بالافكار القومية جرى قبل مرحلة تحول الراسمالية الى امبريالية وفق مفاهيم ذلك العصر . وبرز في هذا الميدان احد مؤسسي الفتاة خريج كلية الحقوق في باريس عبد الغني العريسي، الذي اصدر عدة صحف في بيروت سرعان ما كانت تمنع من قبل السلطات التركية التي شعرت بخطر الافكار التي نادى بها العريسي عضو جمعية الفتاة .

قاومت السلطات التركية في بيروت ودمشق نشاط العريسي الصحفي المعبر عن راي جمعية الفتاة السرية . وعلى الرغم من تأكيد العريسي على شعار « اننا عرب عثمانيون » (٤٥) فان الحكم التركي في سورية لم يكن مرتاح البال لهذا النشاط الجديد في شكله ومحتواه . ولايخفى ان رفع العريسي وبالتالي جمعية الفتاة لشعار : « اننا عرب عثمانيون » يتضمن هدفين احدهما : استراتيجي والاخر تاكتيكي .. فالقسم الاول من الشعار : « اننا عرب » تضمن هدفا استراتيجيا والقسم الثاني « اننا عثمانيون » تضمن هدفا تاكتيكيا رمى الى تحاشي بطش السلطة المركزية في استنبول

ودفع تهمة الانفصال عن جسم الدولة العثمانية وتجنب عداء المخدوعين بشعارات خلافة آل عثمان .

تميزت « العربية الفتاة » عن غيرها من الجمعيات السياسية العربية بوضوح اتجاهها القومي العربي ودفاعها عنه والدعوة له بحمية وحماسة . فتحت عنوان «باسم العرب نحيا وباسم العرب نموت » كتب عبد الغني العريسي سنة /١٩١٣/ افتتاحية في جريدته « لسان العرب » جاء فيها (٤٦) : « ان العواطف القومية مجار حيوية في الشعوب لا تستنزف الا باستئصال الشعوب . فنحن عرب عثمانيون مهما حاول الغلاة الاتحاديون نقض هذه الجنسية لاننا خلقنا عربا بالرغم من انفسنا » . ويبدو راي العريسي ازاء القضية القومية واضحا ايضا من رسالته التي كتبها بعد هربه من جحيم ارهاب جمال باشا الى الصحراء ، وذلك قبل اعتقاله في السنة الثانية للحرب العالمية الاولى . جاء في الرسالة (٤٧) : « يابني يعرب وياسلالة قحطان ... الذين دوخوا العالم » وهنا يبدو جليا اعتزاز العريسي بقوميته واستعداده للتضحية في سبيلها بكل غال ونفيس اذ يقول : « ولست بالفدائي الاول الذي يموت اليوم في سبيل القومية العربية » .

انطلاقا من العمل لاستقلال الولايات العربية العثمانية ايد رجال الفتاة تكتيكيا ـ مثل غيرهم من رجال الحركة الوطنية العرب ـ حزب « الحرية والائتلاف » المنادي بمبدا اللامركزية وحاولوا عن هذا الطريق الترويج لمبدا « احترام السمات الوطنية للشعوب الاخرى غير التركية » . وكما ذكرنا قبل قليل فقد كان اعضاء « العربية الفتاة » اكثر المتحمسين لمبادىء القومية العربية واكثر تحسسا بالمشاعر القومية من غيرهم من الوطنيين العرب الذين تشابكت عندهم مفاهيم « الاسلامية » و « العثمانية » و « القومية » .

قبل الحرب العالمية الاولى كتب العريسي مبرهنا على وجود امة عربية واحدة كما يلي :

يرى الاتجاه الالماني في وحدة اللغة والعرق الشرط الاساسي الضروري لتكون الامة . اما المدرسة الايطالية فتضع وحدة التاريخ والتقاليد في المكان الاول لتكون

الامة ، بينما ترى المدرسة الافرنسية في وحدة المطامح السياسية احدى السمات الهامة لبناء الامة . ويقول العريسي ان جميع هذه الصفات والشروط ، التي وضعتها هذه المدارس متوافرة بلا استثناء في العرب (٥٠) .

طرا على تركيب « العربية الفتاة » ذات الآديولوجية البرجوازية تغيير جزئي لصالح القوى الاقطاعية الليبرالية ، التي دخلت في الفتاة وحاولت توجيه هذه الجمعية وفق مصالحها واهوائها . وان المتتبع لتطور الفتاة ، التي لعبت ، فترة طويلة من الزمن بعد الحرب العالمية الاولى ، دورا اساسيا في الحياة السياسية في سورية وغيرها من الاقطار العربية الاسيوية ، يلاحظ الصراع المحتدم بين التيارين البرجوازي والاقطاعي داخل صفوف « الفتاة » ومع ان هذا الصراع لم يكن واضح المعالم في بعض الاحيان كما صعبت رؤيته بالعين المجردة احيانا اخرى ، الا ان وجوده يبدو واضحا للمؤرخ النافذ البصيرة الذي يدرس ما يكمن تحت السطح دون ان تغشه او تشغله الاحداث الجانبية او السطحية التي تحدث ضجيجا يظنه المرء من جوهر الاحداث التاريخية بينما هو في الواقع مظهر للصراع الرئيسي وثمرة لتطور الحياة الاجتماعية وتداخلها وتشابكها .

بعد اندلاع الحرب العالمية الاستعمارية الاولى اقامت جمعية العربية الفتاة علاقات حسنة مع امير مكة الشريف حسين بهدف التهيئة للثورة العربية المعادية للحكم التركي . وعندما توجه الامير فيصل بن الشريف حسين الى دمشق في بداية الحرب سرعان ما انضم الى جمعية العربية الفتاة واصبح من اعضائها البارزين(٥١) . كان دخول الامير فيصل الممثل لارستقراطية الحجاز في العربية الفتاة وكذلك تبني عائلة البكري الدمشقية الاقطاعية ذات الميول الليبرالية لجمعية الفتاة نقطة تحول في تركيب بنية الفتاة . ومع ان دخول هذه العناصر الاقطاعية الليبرالية في الفتاة اكسبها منعة وقوة ومهد الطريق لقيام الثورة العربية في الحجاز سنة /١٩١٦/ المعادية للحكم التركي ، الا ان دخول هذه العناصر الاقطاعية في جسم « جمعية العربية الفتاة » كان عنصر ضعف ، اذ افسح المجال رحبا للمساومات واضعف من تاثير العنصر البرجوازي ، الذي تميز في ذلك الحين بتقدميته وثوريته واندفاعه

وتمثيله للقوى الاجتماعية الاكثر تقدمية من اجل تطوير المجتمع والقضاء على النظام الاقطاعي ، نظام العصور الوسطى . كما ان دخول العناصر الاقطاعية اسهم في تشعب الاراء داخل الجمعية في وقت كانت احوج ما تكون فيه الى وضوح الهدف والرؤيا ايام المعارك الحاسمة على اعتاب ميسلون (٥٢) .

حزب اللامركزية الادارية العثماني :

كانت مصر المركز الثالث ــ بعد استنبول وباريس ــ للحركة الوطنية القومية العربية قبل الحرب العالمية الاولى . لقد ام ارض الكنانة عدد كبير من السياسيين والمفكرين الفارين من الارهاب والجمود الفكري المحافظ ، كما عاش فيها عدد كبير من السوريين واللبنانيين العاملين في التجارة والصحافة وغيرها من الاعمال الاقتصادية والفكرية . ومع ان القطر المصري وقع منذ سنة /١٨٨٢/ في قبضة الاستعمار الانكليزي ، الا ان الوطنيين العرب من بلاد الشام استطاعوا ممارسة نشاطهم المعادي للحكم التركي في بلاد الشام دون ازعاج او مضايقة تذكر من قبل السلطات البريطانية صاحبة الامر والنهي في مصر آنذاك .

فما سبب افساح السلطات البريطانية مجال العمل امام الوطنيين السوريين في مصر ؟ يكمن سبب ذلك في رغبة السلطات البريطانية في مصر في كسب ود الحركة الوطنيةالعربية وتوثيق الصلات معها لكي يسهل عايها تحقيق اغراضها ومطامعها في البلدان العربية ، ولكي تتمكن فوق ذلك من مجابهة حكومة الاتحاديين الاتراك الموالية لالمانيا القيصرية المنافس الاستعماري الرئيسي لبريطانيا قبل الحرب العالمية الاولى. وهذا ما يفسر موقف الوطنيين المصريين العدائي ازاء الحركة الوطنية السورية ،ونظرة الوطنيين المصريين الى اشقائهم السوريين نظرة مملوءة بالريب والحذر .

ومما لا شك فيه ان ظروف نضال كل من الحركتين العربيتين المصرية والسورية كانت مختلفة قبل الحرب العالمية الاولى .

فالحركة الوطنية المصرية ناضلت ضد المحتلين البريطانيين وسعت لطردهم من مصر بمختلف الوسائل والسبل . وقد راى قادة الحركة الوطنية المصرية من امثال

مصطفى كامل ومحمد فريد أن خير وسيلة لمقاومة الاحتلال الاجنبي البريطاني وحشد طاقات الشعب للنضال ضده ، هو في الدعوة الى الخلافة العثمانية والمطالبة بوضع مصر مرة ثانية ضمن دائرة الدولة العثمانية. ولم تكن هذه السياسة هدفا استراتيجيا للحركة الوطنية المصرية بل كانت تكتيكا بارعا للنضال ضد الاحتلال الانكليزي .

اما وضع الحركة الوطنية السورية فكان مختلفا تماما . فقد خضعت بلاد الشام لنير الحكم الاقطاعي العثماني المباشر ، ولم يكن هنالك احتلال اوروبي استعماري لسورية ، كما هو الحال في مصر . وهذا مما اضطر الوطنيين السوريين الى مهادنة الحكم الانكليزي في مصر والسودان والحكم الافرنسي في المغرب العربي . لكي يتمكنوا من صب كل طاقاتهم ضد الاحتلال الاقطاعي التركي المباشر .

وهذا يعني أن علينا الا نطلق الاحكام العامة المجردة البعيدة عن واقع الحياة ونصل الى الاستنتاج القائل : ان الحركة الوطنية العربية السورية سارت وفق اهواء ومصالح الاستعمارين الافرنسي والانكليزي . فالحركة الوطنية العربية كانت مضطرة للبحث عن حلفائها للنضال ضد الاحتلال التركي وحليفه الاستعمار الالماني . وهكذا فان ظروف نضال الحركة العربية في بلاد الشام واستراتيجيتها وتاكتيكها وتعدد اجنحتها جعلت عملية التحرر العربي معقدة جدا ولا يمكن فهمها الا بمعرفة نسبة القوى الاجتماعية الداخلية في البلاد العربية ، وكذلك اتجاهات ضربات القوى الامبريالية المتصارعة ، التي اشعلت نيران الحرب العالمية الاولى من أجل اعادة تقسيم مناطق النفوذ بين الدول الاستعمارية من جديد .

بعد ثورة ١٩٠٨ ازداد بأس الاتجاهات الداعية الى اللامركزية داخل الدولة العثمانية المتعددة القوميات . ومع ان الدعوة الى اللامركزية في الولايات العربية (العثمانية) كانت ثمرة منطقية للتطور الداخلي في الدولة العثمانية ، الا ان العوامل الخارجية مثل الحرب الطرابلسية سنة ١٩١١ واعتداء ايطاليا على طرابلس وحرب البلقان سنة ١٩٢١ وما ادت اليه من انفصال مقاطعات متعددة عن جسم الدولة العثمانية اسهمت في تصاعد موجة المطالبة بالادارة اللامركزية .

كان حزب اللامركزية الادارية العثماني المؤسس في القاهرة سنة ١٩١٢ ، والذي

فتح فروعا مختلفة له في عدد من المدن والاقنية في سورية والعراق ، ثمرة التفاعلات الداخلية والعوامل الخارجية . فقد تالف (حزب اللامركزية) من التجار السوريين بشكل قوي من ملاك الاراضي الليبراليين (٥٣) .

لقد عكس برنامج حزب اللامركزية (٥٤) طموح التجار السوريين والاقطاعيين الليبراليين في الحصول على الاستقلال الذاتي الاقتصادي والسياسي . فالمادة الاولى من البرنامج طالبت بان تكون (الدولة العلية العثمانية دولة دستورية نيابية . وكل ولاية من ولاياتها تعد جزءا من السلطنة لا ينفك عنها بحال من الاحوال ، وانما تبنى ادارة هذه الولايات على اساس اللامركزية الادارية والسلطان الاعظم هو الذي يعين الوالي وقاضي القضاة) .

وتبدو رغبة جماعة (اللامركزية) في الحكم الذاتي من خلال دعوتهم في المادة الرابعة الى مراقبة سلطة الوالي عن طريق عدد من المجالس المحلية مثل : المجلس العمومي ، مجلس الادارة ، مجلس المعارف ومجلس الاوقاف ، التي تشكل عن طريق الانتخابات عدا مجلس الادارة ، فان نصف اعضائه ينتخبهم الشعب والنصف الآخرمن رؤساء المصالح (كما حددت المادة الخامسة من برنامج حزب اللامركزية حقوق المجلس العمومي للولاية في مراقبة الحكومة و (النظر في جميع شؤون الادارة المحلية من تقرير ميزانية الولاية وامور الامن العام والمعارف والنافعة والاوقاف والبلدية وتقرير ما يراه فيها وسن النظامات لها . وما كان من امور النافعة يتعلق من بعض الوجوه بالامور العسكرية او السياسية الخارجية كسكك الحديد فيرفعه بعد ابداء رأيه فيه الى العاصمة . ثم دعا البرنامج في مادته الرابعة عشرة الى الاعتراف باللغة المحلية كلغة رسمية الى جانب اللغة التركية . وطالب ان يؤدي اهل كل ولاية الخدمة العسكرية في مركز ولايتهم .

لقد حدد هذا البرنامج الموقف الرسمي لقسم هام من الحركة الوطنية العربية ازاء الحكومة المركزية التركية في استنبول ونال موافقة معظم الجمعيات السياسية العربية الناشطة على اعتاب الحرب العالمية الاولى .

وثمة امر يسترعي الانتباه في برنامج حزب اللامركزية وهو عدم اهتمامه بالمشكلات

الاقتصادية الاجتماعية . الا في مادة واحدة يتيمة اشارت الى ان الحزب (ينظر في قانون تعديل الاراضي على الوجه الذي ينمي الثروة العامة وفي تحضير القبائل البدوية لاجل تنمية الثروة وترقية الامة) .

تتصف هذه المادة الوحيدة التي تتعرض للمشكلات الاقتصادية ـ الاجتماعية في برنامج حزب اللامركزية بالشمول والعمومية وعدم الوضوح . فهي لم تبين مثلا في اي اتجاه سيجري ـ (النظر في تعديل قانون الاراضي) ؟ .. هل سيجري في صالح (الكبار) من (الزوات) و (الاغوات) و (البكوات) ؟ ام انه سيجري في صالح الاكثرية الساحقة من سكان بلاد الشام الخاضعين لنير الاستثمار الاقطاعي بشتى انواعه واشكاله .

وهنا لا حاجة بنا الى كبير عناء للاجابة على هذا السؤال ومعرفة من المستفيد من تعديل قانون الاراضي .. فاستنادا الى البنية الاجتماعية لحزب اللامركزية المؤلف من التجار والاقطاعيين الليبراليين والمثقفين المرتبطين بهم ، واعتمادا على سياسة هذا الحزب ، وانطلاقا من ظروف ذلك العصر يمكن القول بأن تعديل قانون الاراضي المقترح كا ن سيجري فيما لو تم في ضوء مصلحة (الزوات) من ملاك الاراضي الاقطاعيين ومصلحة (الافندية) من التجار الطامحين في الاستيلاء على اراضي املاك الدولة وغيرها من الاراضي .

فبرنامج حزب اللامركزية لم يكن يشبه من هذه الناحية منهاج الاحزاب البرجوازية في اوربا ، التي اسهم معظمها في ضرب الاقطاعية وتوزيع الاراضي على الفلاحين . ولم يكن يخطر ببال (الفئة العليا) من حزب اللامركزية اجراء اي اصلاح زراعي في الريف السوري يهز مواقع الاقطاعية في ذلك الحين .

اما دعوة برنامج حزب اللامركزية الى (تحضير القبائل البدوية لاجل تنمية الثروة وترقية الامة) ، فهي فكرة ايجابية تسعى الى نقل قسم من الشعب من حياة بائسة متخلفة الى حياة متطورة تتضاءل فيها هوة البؤس والشقاء . ولكن يجب الا يغرب عن بالنا ان الطبقة العليا من المجتمع الشامي قبل الحرب العالمية الاولى لم تكن تطالب بتحضير البدو حبا بهم او لتحقيق هدف انساني ، بل ان غاية هذه الفئة العليا من

لتحضير البدو – بالرغم مما في ذلك من ترقية للامة تركزت في (تنمية الثروة) لـثروة التجار والاقطاعيين الطامعين الى السيطرة على ثروة البلاد والحلـول مكان الطبقـة التركية الاقطاعية او مشاركتها في استثمار الفلاحين العرب والقبائل البدوية. ولكن مع ذلك وبغض النظر عن هذا الهدف الاستثماري ، فان ترقية البدو تعد عملية تقدميـة وخطوة الى الامام لا ينتقص من امرها شيء مهما كانت الدوافع والاهواء .

هذه الامور قل ان تطرق لها المؤرخون البرجوازيون ، الذين صرفوا جل اهتمامهم الى بحث المواقف السياسية لدى حزب اللامركزية ، الذي قام بدور اساسي فيالحياة السياسية في سورية على اعتاب الحرب العالمية الاولى . وهذا الحزب هو الذي تزعم المؤتمر العربي الاول في سنة ١٩١٣ في باريز ، وسار في طريق المساومة مع حكومـة الاتراك الاتحاديين وكان على استعداد للتنازل عن كثير من مبادئه ، فيمـا اذا افسح المجال امام قيادته للمشاركة في الحكم ونهب الشعب مع الطبقة الحاكمة التركية .

ان المتتبع للامور والمستقصي اوضاع الحركة العربية في بلاد الشام لا يحتاج الى جهد كبير حتى يكتشف بأن قادة حزب اللامركزية شكلوا الجناح اليميني داخل حركة التحرر العربيـة قبل الحرب العالمية الاولى . وعندما احتـل المستعمرون الانكليـز والافرنسيون بلاد الشام والعراق سار القسم الاكبر من قادة حزب اللامركزيةفيركاب المستعمرين وانتقلوا بعد سنة ١٩١٨ من صفوف الحركة الوطنية الى مواقع وموائـد المستعمرين .

وعلى الرغم من الطابع اليميني لحزب اللامركزية فانه لم يعدم بين صفوفه بعض العناصر اليسارية مثل الوطني الديمقراطي الدكتور شبلي شميل ، الذي نادى منـذ سنة ١٩٠٨ بتطبيق المبادىء الاشتراكية والقى الاضواء على الصراعات الطبقية داخل المجتمع . ولكن هذه العناصر كانت ضعيفة ولم تكن ذات تأثير حاسم في وضع سياسة حزب اللامركزيـة .

الجمعية الاصلاحية البيروتية والجمعية الاصلاحية الدمشقية :

لم تكن الجمعيات السياسية المذكورة سابقا المؤسسة في استنبـول وباريـس والقاهرة منظمات جماهيرية على اتصال واسع مع اكثرية السكان السوريين ، بل كانت

منظمات معزولة عن الجماهير الشعبية الواسعة الى حد كبير . فقد تالف اعضاؤهـا من القسم الليبرالي للاقطاعيين العرب ومن المثقفين والطلاب ابناء التجار والموظفين الكبار والضباط والاقطاعيين الليبراليين . ولكن على الرغم من عزلة هذه المنظمات السياسية القائمة بعيدا عن تربة الوطن فانها مهدت الطريق وهيات الافكار لقيام الحركات الاصلاحية ذات الاتصال الواسع نسبيا ببعض فئات السكان لا سيما في دمشق وبيروت .

بعد مرور اربع سنوات على ثورة ١٩٠٨ ضد الحكم الاستبدادي الحميدي تحسنت اوضاع الحركة القومية العربية في بلاد الشام وسارت الامور في طريق النضج من اجل المطالبة بالاصلاح بشكل علني وواضح وعن طريق وسائل جماهيرية واسعة نسبيا . جرى ذلك في الوقت الذي تطورت فيه البرجوازيتان البيروتية والدمشقية وسعتا لتوسيع سوقهما الاقتصادية وتقرير مصيرهما . كما تم نشوء الحركات الاصلاحية بعد تعاظم شان الحركات المنادية بالاستقلال بين القوميات الخاضعة للدولة العثمانية . وبعد ازدياد حدة الصراع بين الدول الامبريالية من اجل اقتسام تركة (الرجل المريض) ، اللقب الذي اطلق على الدولة العثمانية المتخلفة .

في خريف سنة ١٩١٢ تاسست اللجنة الاصلاحية في بيروت من التجار واصحاب البنوك وبعض ملاك الاراضي والاطباء والمحامين والصحفيين(٥٥) . وقد اضطرت السلطات التركية في بيروت نظرا لقوة التيار الاصلاحي واندفاع العناصر المؤيدة له ، وبسبب تقلبات الحكومة المركزية وازدياد قوة حزب الائتلاف في العاصمة المنادي باللامركزية ، الى الاعتراف بشرعية اللجنة الاصلاحية في ٣١ كانون الثاني عام ١٩١٣ ، التي تعدمت ببرنامج واسع مطالبة بتحقيقه(٥٦) .

اعترفت المادة الاولى من برنامج الجبهة الاصلاحية البيروتية(٥٧) بحق الحكومة المركزية في ادارة الشؤون الخارجية والعسكرية وما له صلة بهذه الامور كالبريد والبرق والجمارك والسكك الحديدية واما ما تبقى من الامور فهو من اختصاصات المجلس العمومي المنتخب من الولاية .

ان طموح البرجوازية البيروتية الى الاستقلال الاقتصادي وتقرير امورها بنفسها

م ٢٢ — ج ٣

دون الرجوع الى حكومة استنبول عبرت عنه بوضوح المادة الثالثة من البرنامج ، التي اعطت للمجلس العمومي في الولاية الحق في ادارة كل الامور الداخلية (وعقد القروض التي لا تتجاوز قيمتها نصف الواردات المختصة بالولاية . اما القروض التي تتجاوز قيمتها هذا المبلغ فيلزم لها مصادقة الحكومة المركزية). كما ان المادة الرابعة من برنامج الجمعية الاصلاحية البيروتية اعطت ايضا المجلس العمومي الحق في (اعطاء رخص لتأليف شركات مساهمة ـ انونيم) عثمانية للمشاريع العمومية كالنافعة والتجارة والصناعة والزراعة وسائر الشؤون العمرانية داخل الولاية على شرط الا تتضمن امتيازا . اما المشاريع التي تتضمن امتيازا فيجب مصادقة الحكومة المركزية عليها). كما ان البرنامج الاصلاحي لم يسمح للحكومة المركزية الا بتعيين الموظفين الكبار على شرط معرفتهم باللغة العربية ، اما بقية الموظفين فيجب ان يكونوا من الاهلين . علاوة على ذلك فان المنهاج طالب بجعل اللغة العربية لغة رسمية وبتأدية الخدمة العسكرية لاهل الولاية في مركز ولايتهم ، اذ ان معظم المجندين العرب ايام الدولة العثمانية كانوا يساقون الى الاناضول والمناطق النائية الاخرى لتأدية الخدمة الاجبارية .

انتعشت الحركة المطالبة بالاصلاح في كل من بيروت ودمشق على اثر ازدياد قوة « الحرية والائتلاف » المؤيد للحركات الاصلاحية ولتطبيق اللامركزية ـ ولكن الانقلاب الذي دبره الاتراك الاتحاديون في نيسان ١٩١٣ ضد وزارة كامل باشا وبالتالي ضد حزب (الحرية والائتلاف) كان ضربة للحركات المطالبة باصلاح في الولايات العربية (العثمانية) . وبعد ان قبضت جمعية الاتحاد والترقي في ١٠ نيسان سنة ١٩١٣ على زمام السلطة للمرة الثانية حلت حالا الجمعية الاصلاحية البيروتية(٥٨) وبدا واضحا أن الاتراك الاتحاديين عازمون على القضاء على كل حركة منادية بالاصلاح أو اللامركزية . كما بدا واضحا ان الحكومة المركزية حكومة الاتراك الاتحاديين ، تسعى أكثر فاكثر من اجل تركيز جميع السلطات في يدها وقمع حركات الشعوب المطالبة بحريتها واستقلالها أو بجزء منهما داخل حدود الدولة العثمانية المترامية الاطراف .

بعد حل الجمعية الاصلاحية البيروتية في نيسان من سنة ١٩١٣ ارتفعت في بيروت وفي معظم المدن السورية اصوات الاحتجاج ضد سياسة الحكومة (التركية الاتحادية) وكان الاضراب الشامل الذي قام به تجار بيروت ، الذين اغلقوا متاجرهم

لمدة ثلاثة ايام(٥٩) نقطة الاوج في حركة الاحتجاج ضد سياسة التتريك والمركزية ، كما كان هذا الاضراب وحركة الاحتجاج بشكل عام اكبر دليل على ان الجمعية الاصلاحية البيروتية تمتعت بثقة الفئات التجارية ليس في بيروت وحدها بل في سائر المدن السورية .

دلت حركة الاحتجاج الواسعة ضد سياسة التتريك واضراب تجار بيروت ، الذين دعموا من مختلف فئات السكان على ان حركة التحرر الوطني العربية بدات تدخل مرحلة جديدة من مراحل تطورها ، مرحلة الانتقال من حركة افراد او مجموعات ضيقة مغلقة على ذاتها الى حركة جماهيرية نسبيا بامكانها ان تحرك فئات شعبية جماهيرية واسعة . وهذه المرة الاولى ، التي استخدمت فيها الحركة العربية في بلاد الشام ، الاضراب العام من اجل تحقيق اهداف قومية ومطالب وطنية .

وجدت الحركة (الاصلاحية) التي انبثقت من بيروت ، المركز التجاري الشهير صدى واسعا لها في دمشق . ولكن هذا لا يعني ان الحركة المطالبة بالاصلاح في دمشق لم تكن الا صدى لحركة بيروت . فالحركة في دمشق كانت ايضا وليدة التطور الاجتماعي الاقتصادي داخل المدينة وفي ريفها وثمرة نمو الوعي الوطني والقومي في صفوف المتنورين .

في اواسط كانون الثاني عام ١٩١٣ جرى في مركز حزب الحرية والائتلاف بدمشق اجتماع ضم (طليعة رجال الاصلاح)(٦٠) الذين ناقشوا اللائحة الاصلاحية المقترحة والتي لم تختلف في جوهرها عن برنامج الجمعية الاصلاحية البيروتية . ويتبين من استعراض اسماء المشتركين في الاجتماع ان الجمعية الاصلاحية الدمشقية تألف من تجار ورجال دين ليبراليين ومن مثقفين(٦١) ولكن الجمعية الاصلاحية الدمشقية لم تبلغ درجة من القوة تفوق قوة زميلتها الجمعية البيروتية الاصلاحية لاسباب سنتعرض لها في فصول اخرى .

بعد تخمر طويل داخل المجتمع العربي في الدولة العثمانية انتشرت في سنة ١٩١٣ الافكار المنادية بالاصلاح بين الفئات البرجوازية بمختلف انواعها في كل من بيروت ودمشق . وشمال فلسطين وأواسط سورية(٦٢) . في هذا الجو الحيوي المتلىء

نشاطا سياسيا وقوميا طرحت على بساط البحث فكرة ايجاد (جمعيــة اقتصاديــة وطنيــة)(٦٣) تستطيع جمع شمل القوى المعادية للحكم التركي في سورية . وقد رددت الصحافة العربية الوطنية في أوائل كانون الثاني عام ١٩١٣ اصداء الدعوة من اجل عقد مؤتمر عربي لتوحيد الكلمة والمطالبة بالاصلاح(٦٤) .

عقد هذا المؤتمر فعلا في باريز من ١٨ الى ٢٣ حزيران ١٩١٣ باسم (المؤتمرالعربي الاول) وتمثلت فيه (لجنة الاصلاح) البيروتية و (حــزب اللامركزية) و (المنتــدى الادبي) و (جمعية العربية الفتاة) ووفود من العراق والمهاجرين العرب في الولايــات المتحدة والمكسيك . وجاءت القرارات مطابقة لما طالب به حزب اللامركزية ولجنــة الاصلاح البيروتية . وقد دعت قرارات مؤتمر باريز(٦٥) الى ضرورة اجراء الاصلاح ، واحترام حقوق العرب لا سيما في المسائل السياسية ، واقامة ادارة لا مركزية في كل ولاية عربية والسماح بعمل الخبراء الاجانب في بعض فروع الادارةوتوسيع سلطة المجالس العموميــة .

فكانت قرارات مؤتمر باريز وسياسته اللاحقةانعكاسا واضحا للتياراتالمتواجدة داخل الحركة الوطنية العربية . ولهذا سرعان ما دب الخلاف بــين تيارات المؤتمر(٦٦) في امرين رئيســين ، الموقف من الحكومة المركزية التركية اولا والموقف من الدول « الغربيــة » الاستعمارية (انكلترا ، فرنسا ، المانيا) الطامحة في السيطرة الكلية على الولايات العربية العثمانية . اما القضايا الاجتماعية فلم تكن ظاهريا أو آنيــا موضــع خلاف بين قادة الحركة الوطنية العربية آنذاك ، هذا في الظاهر ، اما في الواقع فان الموقف من الاتراك والدول الاستعمارية امتد بجذوره الى الارضية الطبقية لهذا التيار او ذلك ، ولا سيما ان المشكلات الاجتماعية بين المستثمرين والمستثمرين وبخاصة بين الفلاحين والسلطة الاقطاعية العثمانية كانت تزداد تفاقما وحدة في السنوات الاولى من العقــد الثانــي .

لقد كان من المقدر ان تاخذ الحركة الوطنية العربية في بلاد الشام ابعادها القومية مع الخلفيات الاجتماعية لو لم تنشب الحرب العالمية الاولى في صيف ١٩١٤ ، عاشــت الحركة الوطنية في ظل ظروف جديدة سنتكلم عنها فيما بعد .

٥ ـــ موقف الاحزاب والشخصيات السياسية من القضية الزراعية :

قبل الحديث عن الحركة الفلاحية في سنوات ماقبل الحرب العالمية الاولى وموقف البرجوازية منها ، لابد من ايضاح موقف الحركة الوطنية والقومية من الاقسام المتخلفة في الريف ، من البدو من رؤساء ومرؤوسين .

بعد فشل مؤتمر باريز (١٩١٣) وفي السنوات الاولى للحرب العالمية الاولى تراجعت الحركةالوطنية واصيبت بالجزر ، مماضعف الثقة بالجماهير المتحضرة ودفع بعض قادة الحركة الوطنية للاعتقاد ان الخلاص من الحكم التركي سيأتي على يد سكان البادية . ولهذا انتعشت الاراء القائلة : ان انقاذ عرب الشام وتحررهم يمكن (ان يأتي من البادية) التي لم تخضع للحكم التركي الا نادرا .

كان عبد الغني العريسي ، صاحب جريدة المفيد وعضو جمعية العربية الفتاة ، والهارب الى البادية من الظلم العثماني سنة /١٩١٥/ من المنادين بان « على الاعراب الاسود المعول الاكبر في انقاذ البلاد ودك عرش الظلم »(٦٧) كما ابدى عبد الحميد الزهراوي رئيس مؤتمر باريز في رسالته الى الشيخ رشيد رضا موافقته على اقامة احسن العلاقات مع البدو وامراء البادية ، مع المحافظة على مبدا عدم فصم عرى الاتصال مع السكان الحضر(٦٨) .

واهتمت برامج الجمعيات السياسية مثل « جمعية الاخاء العربي العثماني » وحزب ـــ اللامركزية الادارية العثمانية ـــ بالبدو وقضاياهم ووصلت الى النتيجة السابقة نفسها(٦٩) . كما حاولت الحركة الاصلاحية البرجوازية الدمشقية اثارة البدو ضد الحكم التركي ووقفت الى جانب البدو ضد الحكومة التركية التي كانت تحصل من البدو ضريبة تعرف بـ « الودى »(٧٠) .

وفي الوقت نفسه عقدت الامال العراض على امراء شبه الجزيرة العربية المعادين للاتراك . وهذا ما دفع الشيخ رشيد رضا مؤسس « جمعية الجامعة العربية » سنة ١٩١٠ الى اجراء اتصالات مع كل من شيخ الكويت وابن سعود والادريسي في عسير والامام يحيى في اليمن(٧١) . ومع ان الطابع الارستقراطي الاقطاعي كان مسيطرا على

هذه الجمعية المتنافرة الاهداف والشخصيات ، فان مجرد التفكير بانشاء حلف من الامراءالعرب ضد الاتراك الاتحاديين كان له دلالته القومية ومغزاه البعيد بغض النظر عن الاهداف الاستعمارية البريطانية الكامنة وراء هذه الدعوة .

ان الامال التي عقدها بعض قادة الحركة الوطنية قبل الحرب الاولى وفي فترة الصراع ضد الاحتلال التركي ، على البدو والامراء العرب ، تعبر عن الطابع العام للحركة الوطنية في ذلك الحين ، لقد كانت الفئات القومية انذاك ذات النزعات البرجوازية والاقطاعية الليبرالية ذات نفس وطني قصير لا يتحمل ظروف النضال الصعبة .

وكانت رغبة هذه العناصر الجامحة في « المشاركة في الحكم بسرعة » وبدون تضحيات خير دليل على طبيعتها ونفسيتها التي تخاف من مواجهة الصعاب وترى في سلوك طريق المغامرة احيانا والسلبية احيانا اخرى ، اهون السبل للوصول الى غاياتها(٧٢) . ويجب الا يغرب عن بالنا ان البدو الواقعين بين اضراس الفقر والجهل والخاضعين كلية لرؤسائهم ومشايخهم وامرائهم نتيجة ظروف تاريخية معينة ، لايمكن ان يشكلوا احد اعمدة الحركة الوطنية ، بل هم في احسن الحالات احتياطي للحركة لا يمكن ان يؤمن جانبه نظرا لامكانية استمالة رؤسائهم الى طرف العدو بسبب طبيعتهم الخاصة وتخلفهم الشديد وظروف حياتهم وتكون مفاهيم معينة لديهم . يبدو مما تقدم ان الاعتماد على البدو سلاح ذو حدين ، وتتوقف امكانية استخدام هذا السلاح ، لصالح قوى التقدم ، على الظروف المحيطة بالمعارك الوطنية وعلى مقدار قوة القوى الوطنية وتمكنها من المناورة وافشال خطط العدو في كسب هذه القوى .

ولكن البدو لم يؤلفوا طبعا القوة الضاربة الرئيسية في الريف ، بل ان هذه القوة تكونت من جماهير الفلاحين .

ولهذا احتاج الوطنيون اثناء نضالهم ضدالحكومة المركزية حكومة الاتحادوالترقي من اجل انتزاع الاصلاحات منها والحصول على الحكم اللامركزي ، الى القوة الاجتماعية الاساسية التي تشكل اكثرية المجتمع ونعني بذلك الفلاحين ، ولكن وضع الفلاحين الاجتماعي لم يكن يسمح لهم انذاك في المشاركة النشيطة الفعالة في الحركة

الوطنية ، او قيادتها . ولذلك فقد نظرت قوى الحركة الوطنية والقومية انذاك الى الفلاحين كحلفاء او كمساعدين يمكن عن طريقهم او بواسطتهم تحقيق بعض الانتصارات ولكن موقف الوطنيين واحزابهم من الفلاحين ، وبخاصة من المسالة الزراعية لم يكن موقفا موحدا .

نصت المادة اليتيمة والغامضة نسبيا ، الواردة في برنامج حزب اللامركزية حول المسالة الزراعية ، على ان « ينظر الحزب في قانون تعديل الاراضي على الوجه الذي ينمي الثروة العامة وفي تحضير القبائل البدوية لاجل تنمية الثروة وترقية الامة »(٧٣) .

طمح الاقطاعيون الليبراليون المسيطرون في حزب اللامركزية في توسيع املاكهم والحد من نفوذ الاقطاعيين الاتراك . ولذلك فانهم وضعوا هذه المادة الغامضة ودعوا الى تنمية الثروة وترقية الامة دون الاشارة الى وضع الفلاحين او رفاههم . واملوا عن طريق ذلك في تأييد العناصر الريفية المتنفذة الى جانبهم في حال احتدام الصراع الساخن مع الحكم التركي . كما ان تحضير القبائل البدوية هدف الى الشيء نفسه ، اضافة الى القضاء على احد مظاهر التخلف المعرقلة للنضال الوطني .

كما طالبت المادة الثانية عشرة من برنامج جمعية الاصلاح البيروتية ذات النزعة الكومبرادورية بـ « توزيع الاراضي الخالية على العشائر لتحصل منها فائدة الرقي والاسكان ليسهل تحرير النفوس(٧٤) .

ونصت المادة العاشرة من برنامج جمعية الاصلاح البيروتية على ضرورة « تسليم الاملاك الاميرية والاراضي المحولة الى المجلس العمومي وهي ملك حر للولاية » كما اكدت ايضا المادة الثانية عشرة على « لزوم تسليم الاراضي المحلولة والاملاك الاميرية داخل الولاية الى المجلس العمومي (للولاية) يباع منها ماكان بيعه اصلح ويعمر مايجب تعميره .. »(٧٥) .

فرجال الاصلاح في بيروت لم يكن يهمهم طبعا توزيع الاراضي الاميرية او المحلولة على الفلاحين الفقراء والمعدمين الذين لايملكون ارضا ، بل دعوا الى بيع هذه الارض الى من يملك امكانية الشراء . ومن المعلوم أن الفلاحين لايمكنهم شراء الارض مهما كان الثمن زهيدا ، في حين تتوفر امكانية شراء الارض ــ باسعار بخسة او رمزية طبعا ــ لتجار

بيروت واغنيائها الطامعين في المشاركة في الحكم وتوجيه سياسة الولاية بما يتفق ومصالح البورجوازية التجارية البيروتية .

والوقائع التاريخية تبين ان رجال الاصلاح في بيروت ومن ورائهم التجار طمحوا في السيطرة على المجلس العمومي للولاية واستطاع بعضهم بما له من نفوذ سياسي واقتصادي ان يحصل على حصة من الاملاك الموضوعة تحت تصرف مجلس الولاية ، كما استطاع بعضهم الآخر طرد الفلاحين من الاراضي والاستيلاء عليها .

خلافا لموقف حزب اللامركزية ، الذي سيطر عليه الاقطاعيون وعلى النقيض من سياسة الجمعية الاصلاحية البيروتية ذات النزعة الكومبرادورية اتخذت الجمعية الاصلاحية الدمشقية الممثلة للبرجوازية التجارية الوطنية الناشئة موقفا مؤيدا للفلاحين ضد الحكومة المركزية والشركات الاجنبية ، كما وقفت الى حد ما ضد ملاك الارض المحليين .

فقد هاجم عبد الوهاب الانكليزي ، احد رجال الاصلاح الدمشقيين الذين اعدمهم جمال باشا سنة /١٩١٦/ في سلسلة المحاضرات التي القاها في نادي حزب الحرية والائتلاف بدمشق في اواخر سنة /١٩١٢/ بعنوان « نظرات في المستعمرات »(٧٦) هاجم الاستعمار وتساءل : « كيف السبيل لصد هذا التيار الاستعماري الذي يريد اجتياح بلاد الشرق » ؟! وجوابا على هذا التساؤل وضع المعبر عن تطلعات البورجوازية الوطنية الدمشقية عبد الوهاب الانكليزي ثلاثة حلول لذلك :

« أولا تقوية الجيش »

« ثانيا توزيع الاراضي الخالية مجانا على كل من يرغب في زراعتها من العثمانيين مع اعفائهم مدة من الضرائب والاعشار وتخفيف عامة الضرائب وبذلك تنمو ثروة الامة ويزداد عدد الاغنياء ، واموال الدولة فرع من اموال الامة » .

ثالثا « العمل مع البدو لقوتهم »

وهنا نلاحظ الفرق الجلي بين مطلب اصلاحيي بيروت الطامحين الى اعطاء الفئات العليا القسم الاكبر من الاراضي وبين دعوة اصلاحيي دمشق الى توزيع الارض

الخالية مجانا على الفلاحين الراغبين في زراعتها مع تخفيف اعباء الضرائب عنهم .

ان موقف برجوازية دمشق هذا يعبر عن تقدمية هذه الطبقة في فترة ماقبل الحرب العالمية الاولى في معظم مواقفها الاجتماعية والقومية».

فالبورجوازية الوطنية الدمشقية كانت قبل الحرب العالمية الاولى القوة الاجتماعية الاكثر تقدمية من غيرها داخل الحركة القومية العربية ، في الوقت ، الذي لم يكن للعمال والفلاحين دور يذكر بسبب ظروفهم .

هدفت خطة بورجوازية دمشق قبل الحرب الاولى الى اجتذاب الفلاحين الى جانب الحركة الاصلاحية (الوطنية) وتحقيق التحالف بين المدينة والريف الفلاحي الفقير والمتوسط ضد النظام العثماني الاقطاعي . وقد بذل اصلاحيو دمشق جهودا واضحة للبرهنة على ان النظام المركزي التركي موجه ضد الفلاحين كما هو موجه ضد غيرهم . فتحت عنوان : « فلاحهم وفلاحنا » كتبت جريدة المقتبس الاصلاحية الدمشقية في ١٨ آب /١٩١٣/ مايلي(٧٧) : تطوف القوى فلا تجد فيها من يقرأ .. وبعد تأخر الفلاح يلام رجال الاصلاح ان شرحوا الحالة وطالبوا بالمدارس الابتدائية في القرى . وهكذا فقد طالب رجال الاصلاح البرجوازيون في دمشق بفتح المدارس في القرى ومكافحة الامية والجهل المخيمين على الريف . كما لم ينس رجال الاصلاح الاشارة الى ان النظام المركزي التركي هو سبب انتشار الجهل ونقص المدارس او فقدانها .

يتبين مما سبق ان الاحزاب السياسية البورجوازية او نصف البرجوازية في بلاد الشام لم يخطر في بالها اطلاقا ، قبل الحرب العالمية الاولى ، الدعوة الى توزيع اراضي الاقطاعيين على الفلاحين وتوجيه ضربة للعلاقات الاقطاعية ، حتى تتمكن العلاقات الراسمالية من النمو والتطور . ويرجع السبب الاساسي لعدم دعوة البرجوازية السورية قبل الحرب الاولى الى الاصلاح الزراعي ، الى تخلف هذه البورجوازية والى ارتباطها بشكل او بآخر بالقوى الاقطاعية او الى خوفها من هذه الاقطاعية التي ملكت قوى مادية ومعنوية ، وهي على راس السلطة في الدولة العثمانية.

اما بورجوازية بيروت الكومبرادورية فلم يكن يهمها من امر الفلاحين شيء .وغاية

ماحلمت به وسعت اليه هو الاستيلاء على الاراضي الاميرية وسرقة الاراضي المملوكة من الفلاحين او التي في حوزتهم واستثمار هذه الاراضي لصالحها ولصالح الراسمال الاجنبي المرتبطة به . فقضية الاصلاح الزراعي اذن ، لم تكن في نظر ، البورجوازية الكومبرادورية ، الا عملية تحويل الملكية من حوزة سيد متخلف الى حوزة سيد آخر أكثر تطورا ورقيا من السيد الاقطاعي القديم ».

اما بورجوازية دمشق الوطنية ذات المصلحة الحقيقية في تطوير الاقتصادالوطني وتحريره من التخلف والتبعية نصف الكولونيالية ، ودفعه الى الامام ، فلم تتجاسر على المطالبة بالاصلاح الزراعي . وبالاحرى لم تسمح لها امكاناتها الفكرية والمادية المطالبة باكثر مما طالبت ، اي بالدعوى الى توزيع الاراضي الخالية مجانا على من يرغب ولكن الاراضي الخالية كانت على العموم اراضي قاحلة جدباء أو بعيدة عن المعمورة في تلك الايام . ولا حاجة الى القول ان البورجوازية الوطنية الدمشقية لم تفكر بمس حق « الملكية المقدس » بسوء . وكما ذكرنا سابقا ، فان العلاقات التي ربطت هذه البورجوازية بالاقطاعية مضافا اليها رغبتها في امتلاكالارض وايديولوجيتها النابعة من ارضية التطور الحرفي والتجاري ، وليس من ارضية التطور الصناعي ، منعها من التفكير في التجاوز على حق الملكية الاقطاعية .

ولكن على الرغم من كل ماسبق ، فان دعوة بورجوازية دمشق لاعفاء الفلاحين من الضرائب والاعشار وتخفيف الضرائب عنهم مدة من الزمن هو في حد ذاته دعوة جريئة ، بالنسبة لذلك العهد ذات مغزى هام ، رمت الى توثيق الصلة بينبورجوازية المدينة والفلاحين ، ورفع مستوى هؤلاء اقتصاديا وثقافيا وسياسيا وجعلهم حلفاء لبورجوازية دمشق في نضالها ضد السيطرة الاقطاعية العثمانية .

ان هذا الدور التقدمي لبورجوازية دمشق في العهد العثماني نراه بوضوح اثناء احتدام المعارك في سنة /١٩١٣/ بين فلاحي الاراضي المدورة (الاميرية) اي املاك السلطان عبد الحميد سابقا من جهة ، والراغبين في ابتلاع هذه الاراضي من اقطاعيين

وبورجوازية الكومبرادور والصهيونية من جهة اخرى . لقد وقفت بورجوازية دمشق الى جانب الفلاحين ودافعت عنهم وطالبت باعطاء الاراضي المدورة لمن يعمل بها ببدل مقسط زهيد .

ولكن يجب الا يغيب عن انظارنا ان البورجوازية الوطنية السورية قبل الحرب العالمية الاولى التي كانت في دور التكون بقيت متخلفة كثيرا بالقياس الى بورجوازيات الغرب ، التي دخلت في صراع مكشوف منذ القرن السادس عشر ضد الاقطاعية ، وبسبب تخلف التطور الاقتصادي في بلاد الشام قبل /١٩١٤/ فان البورجوازية الشامية لم يكن بامكانها نظريا او علميا الاضطلاع بالدور نفسه ، الذي اضطلعت به بورجوازيات الغرب المتطورة ، في رفع علم النضال السافر ضد الاقطاعية . ولاسيما ان ظروف الاقطاعية الشرقية العثمانية وطرق استغلالها تختلف عن الاقطاعية في الغرب ، كما تكلمنا عنه سابقا .

٦ ــ بعض اوجه نضال الحركة الفلاحية من اجل الارض وضد الضرائب الباهظة وموقف البورجوازية على اعتاب الحرب العالمية الاولى :

ان القضاء على الحكم الاستبدادي الحميدي وقيام ثورة الاتراك الاتحاديين عام /١٩٠٨/ جعل الناس تشعر بزوال الكابوس السابق الرهيب . وبعد اعلان الدستور اخذت فئات الشعب تتنفس نسبيا عبير الحرية ، على الرغم من محاولات الاتراك الاتحاديين تقنين هذه الحرية وكتم انفاس من يريد المزيد من الحرية ، ومقاومة من يسعى لتحقيق مطالب الفئات الشعبية المختلفة . ولكن موجة المقاومة للحكم التركي بوجهه الاقطاعي اخذت في التصاعد ليس في صفوف الفئة البورجوازية والمثقفة في المدن فحسب ، بل امتدت ايضا الى الريف واتخذت احيانا شكل النضال المسلح ومجابهة السلطات التركية . ولكن هذه التمردات الفلاحية الريفية تميزت بعفويتها وانعزالها وضعف تنظيمها وعدم وجود القيادة القوية الواعية لتوجيهها . كما ان البورجوازية المدينية وبخاصة الدمشقية لم يكن لديها الامكانات المادية والمعنوية الكافية لدعم هذه الحركات بقوة ، فضلا عن جبنها وترددها وعدم نضوج فكرة حمل السلاح ضد الحكم التركي الاقطاعي لديها . ولو ان الحرب العالمية تأخرت عدة سنوات

عن موعدها لكان من المحتمل ان تكون التمردات الفلاحية اكثر شعبية بين فئات وسكان المدن ، واكثر شمولا واشد تنظيما من الانتفاضات التي وقعت في سنوات ماقبل الحرب العالمية الاولى ، التي تمكنت السلطات العسكرية التركية من قمعها بعد تجريد الحملات العسكرية عليها .

كان تمرد فلاحي جبل العرب ، المركز الثوري الاول المعادي للحكم التركي ، اكبر برهان على ذلك . فقد تمرد اهالي الجبل احتجاجا على سوقهم للخدمة العسكرية واشراكهم في حروب لاناقة لهم فيها ولا جمل ، حروب لاتخدم الا الطبقة المسيطرة المستغلة في استنبول . وكان التمرد قويا الى درجة اجبرت سلطات دمشق العثمانية في سنة /١٣٣٨/هـ على توجيه « حملة بقيادة سامي باشا الفاروقي لاخضاع اهل جبل حوران للخدمة العسكرية »(٧٨) .

وبعد ذلك بقليل « تمرد العربان في لواء الكرك احتجاجا على التجنيد واحصاء السكان »(٧٩) وسرعان ما انتقلت الحركة في لواء الكرك من البادية الى القرى ، « وقام اهالي الكرك حاضرهم وباديهم بالهجوم على موظفي الدولة (جامعي الضرائب) واحرقوا الاماكن الاميرية « اي دوائر الحكومة » ونهبوا الخزينة ونقود ادارة حصر الدخان (وهي شركة اجنبية كانت تستثمر الفلاحين) وقطعوا الاسلاك البرقية(٨٠) . وقد استمرت انتفاضة اهالي الكرك مدة طويلة قبل ان تتمكن السلطات التركية من تجريد حملة على الكرك وانقاذ الحامية المحاصرة في قلعتها .

ان الحركة الفلاحية المعادية للحكم التركي والمطالبة بالارض وبتخفيف عبء الضرائب كانت في تصاعد مستمر . ومن الامثلة على ذلك ماجرى في سنة/١٩١٣/عندما اسس الدكتور نجيب بك اصفر شركة زراعية براسمال افرنسي ظاهرا ، صهيوني فعلا لاستثمار الاراضي المدورة(٨١) . وسرعان ماوافقت الحكومة الاتحادية على هذا المشروع ، وكادت تقر عملية بيع الارض المدورة الواقعة تحت تصرفها لشركة اصفر ، لولا مقاومة الفلاحين العنيفة لهذا المشروع الاستعماري الصهيوني ، ونهوضهم للنضال ضد بيع الاراضي ، التي يعملون عليها ، وهي وسيلة انتاجهم الاساسية ومورد رزقهم . ولم تكن حركة الفلاحين هذه الرامية الى مقاومة بيع الاراضي الى الاقطاعيين او برجوازية

الكومبرادور المتحالفة مع الصهيونية والراسمال الاجنبي ، بمعزل عن التايد والدعم من اصلاحيي دمشق وحيفا .

في خضم هذه المعركة قامت جريدتا المقتبس الدمشقية(٨٢) والكرمل الحيفاوية(٨٣) بنشر المقالات المطولة عن الارض المدورة وكيفية استيلاء السلطان عبد الحميد عليها . اذ ان وكلاء ــ عملاء ــ السلطان عبد الحميد اقرضوا الفلاحين الاموال بدون فائدة وعفوهم من الخدمة العسكرية وحموا مزروعاتهم من التعدي، واستطاعوا بهذه الوسائل الاستيلاء على أراضي الفلاحين الذين تملكهم الخوف من الطرد من الاراضي واضطروا لبيع املاكهم باثمان بخسة للسلطان ، واحيانا سجلت باسم السلطان بدون ثمن .

انتقدت جريدة المقتبس الدمشقية الاصلاحية(٨٤) في ايلول /١٩١٣/ طريقة جمع العشر من الفلاحين الذين لايستطيعون حصاد موسمهم قبل مجيء موظف الاعشار وتقدير الموسم . وطالبت المقتبس بالغاء ضريبة العشر التي تضر الانتاج بسبب سوء الادارة وجشع الملتزم ، الذي يأخذ من الفلاحين اكثر مما يستحق وتسمح به القوانين . وهذا ما يسبب هجرة الفلاح هربا من الظلم والضرائب الباهظة . وتستطرد المقتبس قائلة بان « الفلاح فقير » و « الطحن غالي » « ونفقات المعيشة مرتفعة لاقبل لــه بتحملها » ودعت الجريدة في الختام « وجهاء البلاد لتاليف جمعيات لتسليف الفلاحين » .

في حزيران سنة /١٩١٣/ رفض الفلاحون في ريف حماه دفع العشر فهاجمهم الدرك وقتلوا بعضهم وسجنوا بعضهم الاخر(٨٥) .

وقد نشرت المقتبس « حوادث اعتداء الدرك على الفلاحين في ريف حماة » في عدة اعداد . واشارت في عدد ١١ آب /١٩١٣/ بأن « الحكومة المحلية في حماه من الاقطاعيين من آل البرازي هي ضد الفلاحين » وهذا اكبر دليل على طبيعة الدولة العثمانية الاقطاعية واحسن برهان على التعاون القائم بين الحكم التركي والاقطاعية المحلية .

استغلت جريدة اصلاحيي دمشق اعتداء الدرك على الفلاحين في حماه للدفاع عنهم والمطالبة باقامة الحكم اللامركزي ، الوسيلة الوحيدة لتحسين اوضاع الفلاحين .

ونلاحظ من المثال السابق ان هجوم اصلاحيي دمشق ، من مثقفين وبرجوازية

تجارية ، لم يكن موجها ضد الحكومة المركزية فحسب ، بل ضد حلفائها من كبار ملاك الاراضي ايضا . وقد نوهت المقتبس بان الاقطاعيين في حماه كانوا اثناء اعتداء « رجال الحكومة » على الفلاحين في حماة الى جانب الحكومة . وقد دانت الجريدة هذا التحالف . والواقع ان بعض رجال الاصلاح وقفوا ايضا خلال نشاطهم العملي اليومي ضد تصرفات الاقطاعيين . فقد ذكر محمد كرد علي في مذكراته(٨٦) بأن عبد الوهاب الانكليزي قائمقام الباب منع الاعيان من اكل اعشار الدولة « ومن المعروف ان الانكليزي كان من كبار رجال الاصلاح وصاحب المحاضرات المشهورة حول«نظرات في المستعمرات » ومن الوطنيين الذين اعدمهم جمال باشا اثناء الحرب العالميةالاولى.

بعد انقلاب /١٩٠٨/ انتقلت « املاك » السلطان المخلوع عبد الحميد ، التي بلغت في سورية /١١٧٥/ قرية الى يد الدولة ، اي انها اصبحت تحت تصرف حكومة الاتحاديين ذوي الميول البرجوازية الشوفينية في استنبول . وفي هذه الاثناء اخذ قسم من الاقطاعيين المتبرجزين وبعض التجار يطمحون في الاستيلاء على الاراضي واستثمارها على النمط الراسمالي . كما ان الصهيونية ، ربيبة الراسمالية العالمية الطامحة في ابتلاع فلسطين وضعت ايضا خططها الجهنمية لسرقة الاراضي العربية مباشرة او عن طريق عملائها من الطبقة العليا في الدولة العثمانية . اضافة الى ذلك فان لعاب الراسمال الاجنبي وبخاصة الافرنسي مال من اجل استثمار الاراضي لسد حاجات الصناعة الراسمالية من المواد الخام . وكانت املاك السلطان عبد الحميد المعروفة « بالارض المدورة » او الارض الاميرية الغنية التي ارادت هذه العناصر الاستيلاء عليها وابتلاعها . ولكن الفلاحين المدعومين من برجوازية دمشق الوطنية قاوموا محاولات الصهيونيين ، والاقطاعيين المتبرجزين والكومبرادور ، المتحالف مع الراسمال الاجنبي في السيطرة على الاراضي التي يعملون عليها او بجوارها . وقد ذكرنا سابقا الوسائل التي استخدمها السلطان وعملاؤه من اجل الاستيلاء على اراضي الفلاحين وتسجيلها باسم السلطان دون علم الفلاحين .

وتقول الكرمل ان « اكثرهم لم يعلموا ان اراضيهم تطوبت على السلطان الا بعد مضي سنتين او ثلاث » لقد ارادت جريدة الكرمل وكذلك المقتبس من نشر تفاصيل نهب اراضي الفلاحين من قبل السلطان عبد الحميد وعملائه واعطاء حركة مقاومة

بيع الاراضي ، السند النظري والشرعي ودفع هذه الحركة الى الامام ، واستخدامها لتحقيق نوع من التحالف بين الريف الفلاحي والمدينة البرجوازية ضد سياسة الحكومة المركزية التركية .

وقد احتدمت المعركة في سنة /١٩١٣/ واستعراوارها بشكل عنيف بين القوى الوطنية ، المؤلفة من سكان المدن والفلاحين . ومن جهة ، والقوى الرجعية ـ الاقطاعية والكومبرادور ـ والصهيونية والامبريالية من جهة ثانية ، من اجل امتلاك الاراضي المدورة . وذكرت جريدة صباح التركية « ان البرنس ابراهيم باشا طالب ابتياع اراض اميرية داخل ولاية سورية بثلاثماية ليرة . وقد زار رفعت بك ناظر الماليةوتداكر معه في هذه المسالة » فعلقت المقتبس على هذا الخبر مؤكدة بان « خير طريقة لبيعها ان لاتباع للغير بل تعطى للمزارعين فيها ببدل مقسط لايئنون تحته(٨٨) . ان هذا المثال يؤكد الصفة التقدمية للحركة الوطنية ذات الاهواء البرجوازية قبل الحرب الاولى . وهذا يدل ان الحركة الوطنية طمحت في اجراء اصلاح زراعي جزئي لمقاومة الغزو الاقطاعي والصهيوني الامبريالي . ولكن المطالبة بهذا الاصلاح الجزئي بقيت محصورة في نطاق ضيق ومقتصر على المطالبة بتوزيع بعض اراضي املاك الدولة ، دون أن يكون لهذه المطالبة صفة الشمول .

قاوم الفلاحون بالقوة ، كما ذكرت جريدة الكرمل في ١١ شباط /١٩١٣/(٨٩) السلطة في الاستيلاء على الارض المدورة في منطقة جنين وغوربيسان. واضافتالجريدة بأن « السلطة تريد اخراج الفلاحين وبيع الاراضي » . كما ان حركة احتجاج ضد محاولة بيع اراضي الغور من وجهاء بيسان ونابلس بلغت درجة قوية . وفي الوقت نفسه احتج عرب اللجاه ـ كما ذكرت المقتبس ـ على بيع الاراضي الاميرية في المسمية(٩٠) .

واثناء انعقاد المؤتمر العربي الاول في باريس وجه الفلاحون في غور بيسان رسالة الى المؤتمر مؤرخة في ٢١ ايار /١٩١٣/ يطالبون فيها بعدم بيع الاراضي المدورة او ايجارها او منحها لاي شركة كانت ، ويتمنون على المؤتمر ان يبذل الجهد لابقاء هذه الارض في يد فلاحيها .

لم يشمل هوس بيع الاراضي المدورة او الاميرية مناطق حلب وحماة وعكا والشام وحوران فحسب بل تعداه الى بلاد الرافدين . وتعليقا على ذلك كتبت المقتبس في ١٤ آب /١٩١٣/ ان « الاراضي الاميرية في العراق ارادت الحكومة بيعها الى شركة صهيونية » وهي اصفر المار ذكرها . وعلى الاثر اجتمع اعيان العراق من تجار وارباب املاك ورجال دين ومحامين وبعض رجال القبائل في النادي العلمي الوطني وقرروا ان يقوموا بمظاهرة ضد بيع الاراضي يشترك فيها اعراب بغداد القريبون منها(٩١) .

أما في حلب فقد كتب مراسل المقتبس مايلي : « بدلا من اعطاء الاراضي للعربان لكي يتحضروا تريد الحكومة اعطاء الاراضي المدورة الى اصفر وفي ذلك ضرب للرعي والقضاء على تجارة السمن والصوف حوالي حلب لان الشركة ستزرع الاراضي ... ان في الاراضي المدورة بحلب زهاء /٢٠٠/ الف نسمة من فقراء الزراع التي كانت اغتصبت حقوقها من ايديها جبرا في عهد السلطان السابق على ان تدفع سنويا/١٥٪/ من المحصولات لقاء العشر واجرة الارض ، وعلى ان يعفوا من الويركو والعسكرية واضاف المراسل بان « للشركة سلطة اجلاء هؤلاء المساكين » . ثم تساءل « ماهو السبب بحصر هذا الاجراء والبيع بالاراضي العربية » .

سعى رجال الاصلاح لتبيان عدم وجود فرق جوهري بين حكم السلطان عبد الحميد وحكم الاتحاديين الذين قلبوا عبد الحميد عام /١٩٠٨/ اذ كان كلاهما يريد الاستيلاء على ارض الفلاحين وطردهم « مع اختلاف الوسائل والطرق » . ورمى اصلاحيو دمشق من وراء نشر الاخبار السابقة الى جر برجوازية حلب للنضال ضد الحكم التركي لكي تحافظ على مصالحها . وان المتتبع للاحداث في تلك الفترة يلاحظ دون عناء رغبة بورجوازية دمشق في اقامة جبهة موحدة معادية للاتراك مع بورجوازية حلب وكذلك مع بورجوازية بيروت .

كما نظر اصلاحيو دمشق الى الفلاحين كحليف قوي لايقدر بثمن في نضالهم ضد الحكم التركي ولذلك ايدوهم ، ودفعوهم للنضال ضد بيع الاراضي الاميرية الى شركة اصفر الصهيونية ، وطالبوا بتوزيع الاراضي الاميرية على الفلاحين . علاوة على ذلك فان للبورجوازية مصلحة في تحسين احوال الفلاحين المادية من اجل ان ينشط السوق التجاري الداخلي .

قام نضال الفلاحين ضد بيع اراضيهم او طردهم من الارض ومن اجل توزيع الاراضي الاميرية على الفلاحين ، جنبا الى جنب مع النهوض النسبي الذي شمل الفئات الاجتماعية الكادحة الاخرى ، وحدث في وقت بلغت فيه الحركة الوطنية والقومية في بلاد الشام ، درجة من الباس والقوة لم تشهدها من قبل . وكان ثمة تلاحم عضوي بين الحركة الوطنية العربية المعادية للاتراك والمطالبة باللامركزية والاصلاح وكذلك الاستقلال ، وبين الحركات والتململات الفلاحية المعادية للاقطاعية. ولكن تخلف القسم الاكبر من الفلاحين وجهلهم وسيطرة الرجعية الداخلية عليهم وانتشار كثير من المفاهيم المحافظة الضبابية بين صفوفهم ، تلك المفاهيم التي زرعتها الرجعية الفكرية وغذتها، حد من اندفاع الفلاحين،ومن سيرهم الصاعد الى الامام وعرقل مشاركتهم الجادة في النضال الوطني والقومي ، وكان ذلك احد الاسباب التي ادت الى ضعف الحركة الوطنية والقومية في خريف ١٩١٣ ، تلك الحركة التي لم تكن قد دخلت بعد في أعماق الجماهير الشعبية وكانت واقعة ـ حتى نهاية الحرب الاولى وانهيار الدولة العثمانية ـ في شبه عزلة نتيجة للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية المتخلفة والحالة الفكرية المتاخرة ، وسيطرة فكرة الخضوع للخليفة المتربع على عرشه في استنبول بين حريمه وجواريه . ولم يكن يدور في خلد الفلاحين وسائر الجماهير الكادحة الوضع الحقيقي للخليفة الحاكم باسم الدين ، والدين منه براء .

ان احد الاسباب التي ادت الى فشل « المؤتمر العربي الاول » المنعقد في باريس في صيف ١٩١٣ من ممثلي مختلف التيارات القومية والوطنية ، والهادف الى توحيد القوى الوطنية من اجل المطالبة باجراء الاصلاحات داخل الولايات العربية ، يرجع الى عدم اهتمام المؤتمر بالقضايا الاقتصادية الاجتماعية التي تهم الجماهير الشعبية ، وعلى راسها الجماهير الفلاحية كما يرجع الى حصر نشاط المؤتمر في القضايا السياسية التي لا يمكن ، على الرغم من اهميتها ان تحقق اهدافها الا اذا ارتبطت بالامور المعاشية للشعب . وكان من الطبيعي ان تعارض القوى اليمينية المتمثلة في الاقطاعية الليبرالية وبورجوازية الكومبرادور ، داخل الحركة الوطنية والقومية حل مشكلات الجماهير ، لان همها الاساسي اقتصر على المشاركة في الحكم ، اي المشاركة في استثمار الجماهير الشعبية . اما القوى الوطنية الراديكالية فلم تكن آنذاك في

وضع اجتماعي وفكري يمكنها من طرح القضايا الاقتصادية الاجتماعية بشكل علمي ومدروس .

وقد ادى ذلك الى انعزال رجال مؤتمر باريس عن الجماهير وبشكل خاص عن الجماهير الريفية . ولم تكن الجماهير الكادحة ، على ما يبدو ، تنظر بعين الرضى الى نشاط القسم اليميني من الحركة الوطنية المتمركزة في حزب اللامركزية (الاقطاعي الليبرالي) وجمعية بيروت الاصلاحية (الممثلة لبورجوازية الكومبرادور المرتبطة بالراسمال الاجنبي والمعادية آنذاك للحكم التركي) .

كما أن احتواء الحركة الوطنية والقومية لعناصر اجتماعية متباينة المصالح والاهداف ، لم يكن عنصر قوة للحركة القومية بقدر ما كان عنصر ضعف ، ادى الى انعدام الوحدة الفكرية والتنظيمية داخل الحركة الوطنية والقومية ، والى فقدان القيادة الموحدة ، والافتقار الى استراتيجية وتاكتيك واضحين .

في ظروف هذا الجو المشبع بالانقسامات داخل الحركة الوطنية والمتصف بالانحسار والجزر الوطني والقومي ، اندلعت في صيف ١٩١٤ الحرب العالمية الامبريالية الاولى ، التي وضعت مع نتائجها الحركة الوطنية ومن ضمنها الحركة الفلاحية أمام ظروف ومهمات جديدة تختلف كلية عن الظروف السابقة ، ومما لاشك فيه أن زوال السلطة العثمانية كان احد العوامل الهامة التي حررت الفلاحين من فكرة الخضوع للخليفة التركي ، وافسحت المجال رحبا أمام تطور القوى المنتجة ، على الرغم من حلول السيطرة الاستعمارية الفرنسية مكان السيطرة الاقطاعية التركية .

الفصل الخامس

قريتا شين وجبلايا في صراعهما ضد الاقطاعية العثمانية

١ ـ يوسف الحكيم ومصادرنا عن الحركة الفلاحية :

يوسف الحكيم اللاذقاني المولد والليبرالي الثقافة ، كان قاضيا للتحقيق في طرابلس قبل الحرب العالمية الاولى . وشارك في اعقاب الحرب ، في الحكومة العربية الاولى (الفيصلية) (١٩١٨ـ١٩٢٠) وفي عام ١٩٨٠ نشر ليوسف الحكيم كتاب «سورية والعهد العثماني » تطرق فيه الى الصدام ، الذي جرى قبل الحرب العالمية الاولى بين فلاحي شين واقطاعيي تلكلخ . حول اسباب الخلاف ، كتب يوسف الحكيم :

« ولما ضاق اهل القرية ذرعا من جور سادتهم ومن جباة ضرائب الحكومة ، الذين يفدون الى القرية مستصحبين نفرا من الدرك ، خرجوا عن صبرهم وكثرة الضغط تولد الانفجار واصطدموا في يوم من أيام الشتاء القاسية (١٩١٢) مع الدركيين والزعماء ، فسقط في المعركة عدة قتلى وجرحى من الفريقين » .

وقبل ان ندخل في تفاصيل الصراع بين الاقطاعية والفلاحين ، ننقل ما كتبه الحكيم ، فهو يلقي بعض الصور على الاجواء السائدة آنذاك .

كتب الحكيم :

« سافر في اليوم التالي لوقوع الصدام في شين ، والي بيروت حازم بك، بالقطار الحديدي الى رياق ومنها بالقطار العريض الى حمص فمحطة « قزلاخر » القريبة من قرية شين . وبلغني برقيا ان اسرع اليه للتحقيق في هذه القضية الهامة واعلمني انه ابرق الى وزارة العدل لموافقتها على تدبيره . فاسرعت اليه بالقطار المسافر من طرابلس ، فنشطني على العمل واولاني كامل ثقته ، ثم عاد كما اتى الى مقره في بيروت . وذهبت بدوري الى قرية شين ، يرافقني المساعد النشيط محمود افندي نشابه وضابط دركي لا علاقة له بالجرم ، وشاهدنا آثار التخريب الذي حل بالقرية، وعلمنا أن سكانها قد هجروها على اثره ، وسيق معظم شبانها الى السجن في تلكلخ ، مركز القضاء .

عدنا بعد ضبط مشاهداتنا الى تلكلخ ، لاكمال التحقيق مع الاظناء الذين أودعوا السجن ولما صعدنا الى دار الحكومة ، وجدنا انفسنا امام شبه بحيرة ملات ساحة الدار ، من كثرة هطول الامطار الليلية الفائتة بكاملها ، وشاهدنا غرف الدوائر يستولي عليها الدلف من سقوفها ، بينما كان الموظفون ينتظرون انفراج الجو لتساعد أشعة الشمس العمال القائمين بدحالة السطوح . وكان مأمور النفوس (ضابط الاحوال المدنية) ينشر سجلاته ، فسألته : « أين تذهب هذه المياه التي ملات ساحة الدار ؟ » .

فاجابني كغيره قائلا : « انها تذهب دلفا الى السجن الكائن تحتها في الطابق الارضي » .
ولما نزلنا ودخلنا الطابق الاسفل المتخذ سجنا ، شعرت بأن شعر راسي قد وقف من هول ما نظرت : سجناء، محكوم على بعضهم بعقوبة السجن البسيط وبعضهم موقوف بانتظار نتيجة التحقيق والبعض الاخر قيد نظارة الضابطة ، ريثما ينظر في امر توقيفهم او اطلاق سراحهم ، وجدت جميع هؤلاء في ارض السجن ، العارية من كل اثاث سوى المياه المتراكمة من استمرار الدلف عليهم وهم يرتجفون من شدة البرد .

اسرعت على الاثر الى قائم المقام وسألته عن هذه المعاملة القاسية التي يرزح السجناء تحت نيرها ، وقد فاقت بفظاعتها همجية القرون الاولى ، فاجابني بهدوء خال من كل حرارة واهتمام قائلا : « ان الحكومة تقوم ببناء دار جديدة تنتهي بعد

ستة اشهر وسيهيا تحتها سجن جديد تتوفر فيه التدابير الصحية » . ولم تكن هذه التدابير في نظره الثاقب سوى التخلص من الدلف .

بعد هذه المشاهدات المريعة ، لم اشعر براحة ضمير الا حين امرت قائد الدرك بنقل جميع السجناء الى سجن طرابلس ريثما ينتهي التحقيق معهم، وشاهدت بعيني تنفيذ هذا الامر ، بعد ان اطلقت سراح الكثيرين الذين لم يدنهم التحقيق ، ورفعت تقريرا بواقع الحال لدولة والي الولاية الحازم . فاصدر امره بان يقبل في سجن طرابلس كل موقوف ومحكوم من قضاء تلكلخ ، الى ان ينتهي فصل الشتاء او يتم بناء سجن جديد في مركز القضاء .

أما التحقيق في اساس جريمة القتال في قرية شين ، فقد اخذ مجراه القانوني .

لفهم ما رواه يوسف الحكيم حول احداث شين عام /١٩١٢/ لا بد من الرجوع الى تاريخ الصراع على ملكية الارض مصدر الثروة الرئيسي في ذلك الحين . وربط ذلك الصراع بالاوضاع السياسية القائمة في الدولة العثمانية في الفترة الواقعة بين سقوط السلطان عبد الحميد عام /١٩٠٩/ واندلاع الحرب العالمية الاولى /١٩١٤/ وقد امتزج الصراع على ملكية الارض بين فلاحي شين الاحرار من الاقطاعية والمعادين للاحتلال العثماني واقطاعيي تلكلخ الدنادشة السائرين مع السلطة العثمانية والساعين لابتلاع اراضي شين ، كما ابتلعوا عشرات القرى بين سهل عكار ووعرة حمص . تشابك هذا الصراع مع الكفاح القومي للتحرر من نير الحكم العثماني الاقطاعي .حيث وقفت وجها لوجه جبهتان متصارعتان هما :

ـ جبهة القوى الظلامية المؤلفة من السلطات العثمانية والاغوات العثملية ، اي القوى الاقطاعية الظالمة الموالية للعثمانيين .

ـ جبهة القوى القومية العربية المؤلفة من متنوري المدن ووطنييها وحاملي لواء التطور البورجوازي فيها ، ومن الفلاحين ذوي الباع الطويل في مقاومة السلطات العثمانية وبخاصة فلاحي الجبال ، الذين دخلوا ، كما ذكرنا ، في معارك متتالية ضد الاحتلال العثماني .

ومن اجل القاء الضوء على هذه الاطروحة ، التي يعتبرها دهاقنة التاريخ الاستبدادي الثيوقراطي ضربا من ضروب الخيال ، قمنا في ١٦/١٠/١٩٨٤ بزيارة قرية شين حيث ساعدنا عضو المكتب التنفيذي لاتحاد الفلاحين في حمص « محي الدين عيسى » للوصول الى الاشخاص التالية اسماؤهم والاستماع الى ما سمعوه من آبائهم واجدادهم حول تاريخ الصراع الانف الذكر .

الاشخاص ، الذين استقينا المعلومات منهم هم :

ـ عبد الكريم سعد الدين من مواليد /١٩١٢/ ومن قرية جبلايا القريبة من شين والتي لعبت دورا هاما في الوقوف امام الزحف الاقطاعي « العثملي » واشتهر آل سعد الدين فيها بانهم « قطاع طرق » ... وهذا ما سنعالجه بعد قليل .

ـ هاشم بن محمد سعد الدين من جبلايا مواليد /١٩٣٩/ .

ـ عيسى بن سليمان بن غانم ابراهيم قاسم من مواليد /١٩٢٩/ في شين . ويحتفظ في خزانته بعدد هام من الوثائق والمستندات التي تعود الى العهدين العثماني والفرنسي ، المتعلقة بملكية الارض والعلاقة الاقتصادية بين جبل الحلو وطرابلس . وقد افادتنا هذه المستندات في توثيق المعلومات المتناقلة عن طريق الذاكرة . يضاف الى ذلك ان ابا محمد (عيسى بن سليمان بن غانم) يكتنز في ذاكرته معلومات قيمة ولديه قدرة على التحليل والشرح وسرد الاحداث بصورة منطقية . وكان بالنسبة لدراستنا مصدرا هاما وموثوقا .

ـ محمود الشمالي من مواليد /١٩٣٤/ وهو مدرس مادة التاريخ في ثانوية شين ومن المولعين بتسقط اخبار القدامى ...

٢ ـ فلاحو جبلايا و « قطاع الطرق » :

مع صدور قانون الاراضي عام /١٨٥٨/ وظله قانون الطابو /١٨٦١/ شرع أغوات الدنادشة في تلكلخ في الاستيلاء على الاراضي وتسجيلها باسمائهم ، شانهم شان جميع المتنفذين « وارباب الوجاهة » ، الذين تمكنوا بمساعدة الحكم العثماني وبمالهم من عصبية من تسجيل اكثر من خمسين قرية باسمائهم امتدت من شرقي سهل عكار حتى سهل حمص ، مرورا بقرى الوعر .

ظهر اغوات الدنادشة في منطقة تلكلخ في اواخر القرن الثامن عشر عندما استعانت بهم الدولة العثمانية لحماية طريق طرابلس - حمص مثلما استعانت باغوات آل سويدان لحماية طريق حمص دمشق .

جاء في الجزء الاول من كتاب « ولاية بيروت » الصادر / ١٣٣٦/ هـ حوالي /١٩١٦/ الصفحة /٢٧٨/ أن اغوات الدنادشة كانوا « يغصبون اموال القرويين واملاكهم ويشددون الظلم عليهم ويضربونهم ويهينونهم ويسخرونهم باشغالهم قسرا وبلا رحمة . وتميزت منازلهم بالفخامة والاثاث الثمين . وكانت نفقاتهم مثل اقطاعيي قضاء عكار كثيرة . لهذا فانهم ارهقوا الفلاحين بالاتاوات وامعنوا في استثمارهم ..

هذا ماجاء في كتاب « ولاية بيروت » لمؤلفيه رفيق بك محمد وبهجت بك محمد ، اللذين زارا مناطق الساحل السوري في عام /١٩١٢/ وكتبا مشاهداتهما ، التي لم تكن تطبل وتزمر للاقطاعيين شان غيرهم من المتسكعين على موائد « الاثرياء » .

ماجاء في كتاب « ولاية بيروت » حول استثمار اقطاعيي تلكلخ لفلاحي القرى هو مفتاح فهم الصراع الناشب بين فلاحي شين المالكين لاراضيهم والمكافحين للدفاع عنها والبقاء بعيدا عن جحيم الاستبداد الاقطاعي العثملي ، واقطاعيي تلكلخ الراغبين في توسيع ملكيتهم باتجاه الشمال والاستيلاء على شين كراس جسر للوصول الى قرى جبل الحلو . ومن الطبيعي ان تقف السلطات العثمانية في مركز القضاء تلكلخ الى جانب الاقطاعيين وتجرد الحملات ضدهم باسم « الامن » وحفظ الملكية المقدسة « ومقاومة قطاع الطرق » ، الذين تمركزوا بالقرب من شين في القرية الجبلية المنيعة جبلايا . وقبل الحديث عن شين لا بد من الكلام عن جبلايا راس الحربة الموجهة ضد الاقطاع العثملي .

تقع جبلايا على تلة مرتفعة في الجبهة الجنوبية لجبل الحلو يحيط بها واديان عميقان يمكنان اهل القرية من الدفاع عن انفسهم ضد الغزوات الخارجية واسلحة ذلك العصر المعروفة .

كان فلاحو جبلايا - شانهم شان سائر فلاحي جبل الحلو - يزرعون الحنطة والشعير والذرة البيضاء والصفراء والعدس والكرسنة والجلبانة ، وبين الحقول

كانت تنتشر بكثافة اشجار الزيتون والرمان والتين والعنب .

وحسب رواية عبد الكريم سعد الدين لم تكن قديما تنشأ خلافات بين الناس في جبل الحلو ولم يكن احد يتحدث عن اراقة الدماء، وليس هناك اعتداء على الاعراض. والوفاء كان موجودا ومن يأكل او يشرب من بيت لا يعتدي عليه ، بل على العكس يدافع عنه ولو بعد زمن طويل .

ويقول عبد الكريم : في ايام جدي سعد الدين (اي اواخر القرن التاسع عشر) اخذت الدولة ترغم الفلاحين على بيع املاكهم او التنازل عنها للاغوات . وبعض الفلاحين خافوا واستسلموا وبعضهم لم يسلم ارضه ومنهم جدي سعد الدين ومخول ظلاقي في وادي تكلخ ... اهالي شين رفضوا التنازل عن ملكيتهم . كثير من اهالي قرى الوادي رفضت التنازل عن ملكيتها .. قرية الصويري رفضت ايضا . وهذه القرى عصيت على الدولة ، وزعماء القرى ، وخاصة في جبلايا وشين حملوا السلاح ضد اغاوات الدنادشة . اما في الوعر فاستسلموا لان قوة الدنادشة تسلطت عليهم اكثر من غيرهم .

في جبلايا تمكن الدنادشة من الاستيلاء على نصف اراضي القرية في أواخر القرن التاسع عشر . وعندما حاولوا استدراج الفلاح سعد الدين للتنازل لهم عن بقية الارض ، سألهم « انا وين بروح » ؟ ... فاجابوه « نضعك شوباصي » اي وكيلا عنا، فرفض .. والواقع ان فلاحي جبلايا لم يستسلموا للاغوات وكثيرا ماطردوا الفلاحين المرسلين من الاغوات ، ولم يعترفوا بملكية الاغوات على نصف القرية . وهذا ما دفع اغوات تلكلخ لتحريض السلطة ودفعها لاخضاع القرية المتمردة « على انظمة الملكية الاقطاعية » . وقام الدنادشة باتهام فلاحي جبلايا بتخريب طاحونة العريضة الشرقية ولهذا فان قوة من الدرك اتت الى جبلايا وطلبت من المختار تسليم عدد من الشباب المتهمين بتخريب الطاحون لوضعهم في السجن . وعندما رفض الفلاحون الشباب الاستسلام جرت معركة بالرصاص ادت الى تجريد الدرك من سلاحهم واخذ خيولهم. هذه الحادثة جرت ، كما قدرنا من سياق الاحاديث بين عامي /١٩٠٨/ و /١٩١٠/. بعد وصول انباء هزيمة الدرك ارسلت السلطات التركية سرية عسكرية طوقت

القرية ، ولكن الفلاحين الذين انسحبوا من القرية هاجموا الحملة من خلفها . مما اجبرها على الانسحاب .

وبعد شهر اتت حملة عسكرية اكبر وحاصرت القرية وسدت جميع منافذها . ثم طلب قائد الحملة من الفلاحين الاستسلام . ولكن الفلاحين رفضوا الاستسلام لعلمهم الاكيد بأن الاستسلام يعني تسليم القرية للدنادشة والخضوع للنير الاقطاعي . ومع بزوغ فجر احد ايام /١٩١٠/ هاجمت الحملة العسكرية العثمانية قرية جبلايا الحصينة واستمرت المعركة ، التي شاركت فيها الفلاحات بشجاعة حتى عصر ذلك اليوم . ولكن قوة الاسلحة العثمانية اجبرت الفلاحين على الانسحاب والافلات من الطوق المضروب حول القرية .. وعندها دخل العساكر الى القرية وقاموا بتخريبها. هذا النصر العسكري لم يؤد الى نتيجة لصالح القوى الاقطاعية اذ ان الفلاحين سرعان ما عادوا الى القرية بعد مغادرة الحملة لها .

ان محاولات الاغوات المتكررة للاستيلاء على قرية جبلايا وتأييد السلطة العثمانية للاغوات في تملكهم للارض واعتدائهم على الفلاحين، دفعت بعضا من فلاحي جبلايا، الذين احتفظوا بأرضهم للتمرد على الواقع الاقطاعي العثماني بالاساليب المتوفرة في ذلك الزمن ، وفي مقدمتها « التشليح » اي تحول الانسان المضطهد ، الذي لا يجد بابا للخلاص الى « قاطع طريق » .. فمن المسؤول عن سلوكه هذا ؟ ...

القوانين والاعراف الاقطاعية وحتى البورجوازية تعتبر « قاطع الطريق » هو المسؤول عن سلوكه . ونحن لا نبرىء « قاطع الطريق » .. ولكننا نسأل : من الذي دفع الفلاح العادي مثلا الى امتهان « التشليح » ؟ ... اليس النظام الاقطاعي الذي جرد الفلاح من ارضه ودفعه الى حافة الهاوية ، هو المسؤول عن جريمة «التشليح».

وفي حالتنا هذه ، لو ان الاقطاعية لم تقم في تلكلخ وبقي الفلاحون أسياد اراضيهم ومصيرهم ، فهل كانت أعمال « الشقاوة » ستظهر ؟ ... في راينا لا . لن تظهر اعمال « الشقاوة » التي هي بصورة عامة احدى ثمار النظام الاقطاعي واستغلال الانسان للانسان . واعمال « الشقاوة » هذه المتمثلة بقطاع الطرق او « المشلحين » حسب تعبير ذلك الزمن ، هي شكل من اشكال الاحتجاج على النظام الاجتماعي القائم

على عدم المساواة وعلى تكديس الثروة في جانب وحرمان الاكثرية من ثمرة اتعابها .

ونحن طبعا لا نؤيد اعمال « قطاع الطرق » او « المشلحين » ولكننا نرى انالقضاء على هـذه الاعمال ، لا يتم عن طريق السجن فحسب ، بل نرى ان مـن الضروري اجتثاث جذور الظلم من اساسها . اي القضاء على اسلوب استغلال الانسان للانسان اي القضاء على النظام الاقطاعي ، وكل نظام مستغل .

ونحن نسأل هنا مـن هـو اللص وقاطع الطريق في اواخر القرن التاسـع عشر ومستهل القرن العشرين !! .

هل فلاحو جبلايا وبخاصة آل سعد الدين منهم ، الذين سرقت اراضيهم ، اوهم مهددون بفقدان أراضيهم هم اللصوص ، قطاع الطرق ؟ . .

ام ان اللصوص وقطاع الطـرق هـم الاغوات ومـن على شاكلتهم من البكوات والافندية ، الذين سرقوا اراضي الفلاحين وسجلوها باسمائهم ثم شرعوا في استغلال الفلاحين واستعبادهم !! .

فمن الملوم والمسؤول عن اعمال « قطاع الطرق » في العهد الاقطاعي العثمانـي ؟ ونعتقد ان الامر لم يعد بحاجة الى توضيح .

الاكثر من ذلك ان المقربين من « قطاع الطرق » آل سعد الدين يروون ان «قطاع الطرق » هؤلاء لم يكونوا يعتدون على الفلاح ، بل ان هجماتهم تركزت على الاقطاعيين والاثرياء ويقال انهم كانوا يوزعون أحيانا بعض المنهوبات على الفقراء،على ذمة الرواة . ولكن الثابت أن آل سعد الدين في جبلايا استقطبوا عددا من المتمردين علىالدولة والملاحقين . وكانت جبلايا مركزا لهؤلاء « العصاة » الذين شكلوا في الوقت نفسه قوة في يد جبلايا .

٣ ـ وطنيو حمص والقوى الثورية في جبل الحلو .

الامر الهام ، الذي فاجأنا عند سماع حديث عبد الكريم سعد الدين ، نقلا عـن رواية عميه حسن ومحمد ان أصحاب العقول الثورية في جبل الحلو انضموا الىعبد الحميد الزهراوي ضد تركيا وان « احد اقرباء الزهراوي واسمه حسن زهراوي

ومعه عمر الاتاسي اتصلوا بالفلاحين وكان معهم محمد الملحم شيخ عشائر الحسنة »
وأردف قائلا « ان فلاحي جبلايا انضموا الى ثورة فيصل وكانت هناك اتصالات سرية
مع وطنيي حمص .. من اجل القضاء على رأس حربة الحركة القومية العربية . في
السنة الاخيرة من الحرب العالمية الاولى تقدمت في صيف /١٩١٨/ حملة
عسكرية تركية بقيادة طيفور آغا للقضاء على تحركات جبل الحلو . وكانت خطة القائد
التركي استدراج الثوار على الحكم العثماني الى سهل حمص وابادتهم هناك . ولكن
الثوار ، الذين ادركوا الحيلة قاموا هم بمحاولة استدراج الجنود العثمانيين الى
الجبال ، وذلك عن طريق « الطعم » أي قيام عدد من الخيالة المشهود لهم بالفروسية
بمهاجمة الحملة العثمانية ثم الانسحاب فجاة وبسرعة امامها باتجاه الجبال . وفيهذه
المعركة استشهد سليم سعد الدين اثناء التراجع السريع . ولم تسفر المعركة عن
نتيجة حاسمة .

ان قيام الاتصالات في السنوات الاخيرة بين وطنيي حمص المناهضين للحكم
العثماني وفلاحي جبل الحلو المناهضين للاقطاعية العثملية وسعي وطنيي حمص
للاتصال بالعشائر البدوية (محمد الملحم شيخ الحسنة) لخلق عمق استراتيجي لهم
هي امتداد لسياسة الحركة العربية في دمشق . ففي دمشق بدات العناصر الواعية
في داخل الحركة الوطنية بالاتصال بفلاحي جبل العرب في سنوات ما قبل الحرب
العالمية الاولى . ومعروف ان جبل العرب قام في اواخر القرن التاسع عشر ومستهل
القرن العشرين بسلسلة من الانتفاضات ضد الحكم العثماني . ولهذا فان الحركة
القومية العربية الناشئة في دمشق كانت تتطلع بشوق الى حلف يجمع القوى الثورية
في المدينة وفلاحي جبل العرب والعشائر البدوية الناقمة على الحكم العثماني . وهذا
الحلف ظهرت معالمه فيما بعد في الثورة السورية (١٩٢٥-١٩٢٧) .

بقي ان نعرف بدء زمن الاتصال بين ثوار جبل الحلو ووطنيي حمص . هل هذا
الاتصال الذيرواه عبد الكريم سعد الدين من جبلايا تم في سنوات نهوض الحركة
القومية العربية (١٩١٠-١٩١٤) في وقت قيام الحملات التركية على شين وجبلايا ،
ام انه بدأ في السنوات الاخيرة من الحرب العالمية الاولى وادى الى معركة صيف
/١٩١٨/ ؟ .

نحن نرجح قيا مالاتصالات في فترة مبكرة ، اي في حدود عام / ١٩١٢ و ١٩١٣ / في فترة نهوض الحركة القومية العربية وسعيها لايجاد حلفاء لها في الريف . وما رواه يوسف الحكيم حول اهتمام والي بيروت الشديد باحداث شين عام /١٩١٢/ ومجيء الوالي الى منطقة تلكلخ بمساعدة القوات العثملية تدفعنا الى ترجيح قيام الاتصالات في فترة احداث شين ، التي ذكرنا اخبارها نقلا عن المحقق يوسف الحكيم .

٤ ـ كفاح قرية شين للبقاء خارج طوق الاقطاعية العثملية :

احداث شين هي امتداد لاحداث جبلايا والصراع بين الفلاحين المالكين للارض والاغوات العثملية في تلكلخ الراغبين في السيطرة على اراضي شين والتقدم في جبل الحلو وادخاله في دائرة ممتلكاتهم .

كتب يوسف الحكيم ، الذي كان محققا آنذاك ، في مذكراته حول احداث شين ما يلي : ـ « ولما ضاق اهل القرية ذرعا من جور سادتهم من جباة ضرائب الحكومة ، الذين يفدون الى القرية مستصحبين معهم نفرا من الدرك ، خرجوا عن صبرهم وكثرة الضغط تولد الانفجار واصطدموا في يوم من ايام الشتاء القاسية (١٩١٢) مع الدركيين والزعماء ، فسقط في المعركة عدة قتلى وجرحى من الفريقين » .

« السادة » و « الزعماء » الذين لم يذكرهم يوسف الحكيم المحقق في احداث شين عام / ١٩١٢ / هم اغوات تلكلخ الاقطاعيون . ولاسباب تتعلق بموقف يوسف الحكيم الطبقي وموقعه من السلطة ، على الرغم من ليبراليته ، دفعته لعدم الخوض في تفاصيل اسباب الصدام الذي جرى في شين عام / ١٩١٢ / بين الفلاحين من جهة والاغوات الاقطاعيين ومعهم الدرك من جهة اخرى .

ولنبدأ من جذور المشكلة اعتمادا على ما سمعناه في شين وما رأيناه من وثائق لها علاقة بالصراع الفلاحي (شين ومن أيدها من القرى) الاقطاعي (اغوات تلكلخ وحلفاؤهم في السلطة العثمانية) .

تقع قرية شين على السفوح الجنوبية الشرقية لجبل الحلو بالقرب من حدود وعرة حمص البركانية والى الشمال من تلكلخ . وشين كلمة سريانية تعني اله القمر . وكانت الملكية فيها في منتصف القرن التاسع عشر على المشاع مقسمة الى /١٠٤/

صمد (سهم أو فدان) . وكانت اراضي القرية الزراعية مقسمة الى قسمين : بساتين كروم العنب التي تحيط بالقرية من معظم جهاتها وهي ارض مفروزة ، وارض سليخ لزراعة الحبوب وهي على المشاع . وكان من يملك بيتا فقط او بيتا وكرم عنب يسمى باطوليا ، اما الذي يملك ارضا في السليخ فيسمى فلاحا .

وكانت علاقات شين الاقتصادية ، مثل سائر قرى جبل الجلو ومنطقة صافيتا وثيقة الصلة بطرابلس اكثر من حمص . فكانت الحبوب تنقل على الجمال الى الخان في طرابلس حيث يستلمها تجار الحبوب وتعود الجمال محملة بما تحتاجه القرى من بضائع .

بعد أن استولى الدنادشة اغوات تلكلخ على معظم القرى المحيطة بشين وحولوها الى قرى خاضعة للنير الاقطاعي ، ولم يبق للفلاح « لا ارض ولا عرض » — كما قال محمود الشمالي — امسى الاغوات متعطشين لتملك اراضي شين وتحويل فلاحيها الاحرار الى ارقاء ، مثل بقية الفلاحين الخاضعين لحكم الاغوات . وكنا راينا أن جبلايا قاومت الاغوات ولكنها لم تستطع الصمود التام ، وتمكن الاغوات من تملك نصف اراضيها . أما شين فان الاغوات لم يتمكنوا من تملك اي صمد (فدان) من اراضيها . لاسباب كثيرة ، اهمها :

١ — وقوع شين في منطقة جبلية تمكنها من الدفاع عن نفسها .

٢ — تعاطف فلاحي شين مع بعضهم وعدم وجود خلافات عائلية يستطيع الاقطاعي التغلغل من خلالها الى القرية . كما جرى في القرى الاخرى . وربما كان لتوزع الملكية العادل بين العائلات اثره في ذلك .

٣ — نزوح عدد من الفلاحين المهجرين او الهاربين من القرى ، التي استولى عليها الاغوات الى شين . مما قوى من ساعد اهل شين وامسوا قوة بشرية قادرة على المقاومة .

٤ — رؤية فلاحي شين ، لمعاناة الفلاحين في القرى المجاورة واضطهاد الاغوات لجيرانهم بصورة لا تحتمل .

٥ ـ صمود عدد من القرى في وجه الاقطاع وتمكنها من المحافظة على ملكيتها او جزء منها . فجبلايا لم تخضع ولم يتمكن الاغوات من الاستيلاء الا على نصف القرية ، وكذلك الامر في قرية صويري ، التي كانت نموذجا نضاليا مع جبلايا لفلاحي شين .

ويلاحظ ان فلاحي (ملاكي) شين رفضوا باصرار بيع اي قطعة ارض للدنادشة ولكنهم باعوا عددا من الصمود الى افندية حمص لايفاء ما ترتب عليهم من دبون بسبب وطاة الضرائب الحكومية . فقد شاهدنا لدى عيسى بن سليمان بن غانم بن ابراهيم ابن قاسم وثيقة بيع قطعة ارض (كرم عنب) بتاريخ / ٧ / ذي القعدة / ١٢٩٧ / هـ ـ / ١٨٨٠ / م ، البائع ابراهيم بن قاسم ياسين من شين والشاري خالد بن رضوان الطيارة من حمص والثمن (الف قرش مقبوضة بالقول الصريح بمجلس عقد البائع).

ويبدو ان عددا من فلاحي (ملاكي) شين باعوا او رهنوا ارضهم لمدة من الزمن الى افندية حمص لسببين : الاول ان افندية حمص تمولهم في حال حاجتهم الى المال على عكس اغوات تلكلخ ، الذين لا يدفعون مالا ، واذا دفعوا فسرعان ما يستردونه بقوة السلاح . والسبب الثاني ان فلاحي شين كانوا يعلمون بأن « افندية حمص » ضعفاء لا يملكون القوة المتوفرة لدى اغوات تلكلخ ، والتمرد عليهم امر سهل ، كما سنر ىفي الحادثة التالية : ـ

ذات مرة احتاجت قرية شين الى المال لدفع الضرائب فاستدانت من بديع الاتاسي من حمص وباعته عشرة صمود سليخ على الشيوع من اصل / ١٠٤ / صمود مجموع القرية . ولكن الفلاحين « ضيعوا الاتاسي » الذي لم يستطع ان يعرف اين تقع ارضه بسبب الشيوع وعدم حصر الارض . وانتقاما من اهل شين قام بديع الاتاسي ببيع « صموده العشرة في شين » الى احمد الحسين الدندشي المقيم في تلكلخ والمشهور بقوته وقسوته على الفلاحين في قراه . ولكن فلاحي شين تعاملوا مع الدندشي مثلما تعاملوا مع الاتاسي ، أي انهم قالوا ان الارض على الشيوع ونحن لا نعرف اين تقع هذه الصمود العشرة . ولكي يجبر الدندشي ، فلاحي شين على الرضوخ وتسليم الصمود العشرة التي اشتراها من الاتاسي ، جهز قوة من زلمه (من اقربانه ومن الشوابصة والاجراء) ونهب بقرتين كوسيلة للضغط على شين حتى تفرز له الصمود

العشرة . ولكن فلاحي شين الاشداء قرروا بعد اجتماععقدوه طلب النجدة من القرى المجاورة غير التابعة للاقطاع للانتقام ونهب طرش الاقطاعيين ورد الصاع صاعين .

في عدد من القرى القريبة من شين والتابعة للاغوات ، لم يكن الفلاح يملك اي شيء . فالبقر والغنم وكل شيء ملك للاغا . ولهذا قام فلاحو شين ومن انضم اليهم من الفلاحين المناهضين للاغوات بنهب بقر وغنمالدنادشة ووزعوهعلى القرى الخارجة عن سلطة الاغوات .

متى جرت هذه الاحداث ؟.. نرجح من خلال تسلسل الوقائع والوثائق الموجودة لدى عيسى بن سليمان في شين ان هذه الاحداث جرت نحو سنة / ١٩١١ / ...

عندما شعر احمد الحسين الدندشي بقوة التحالف الفلاحي ، الذي التف حول شين طلب النجدة من السلطات العثمانية في تلكلخ . فسارت قوة من الدرك باتجاه شين لاخضاعها ، ترافقها مجموعة كبيرة من زلم الاقطاعي للمساندة . وعندما علم فلاحو شين بتقدم الحملة (من الدرك وزلم الاقطاع) استنجدوا بالقرى المعادية للاغوات ، وكان فلاحو جبلايا ومن في حماهم من «الخارجين عن القانون» اول من أتى لمساعدة فلاحي شين ، بعد معركة بالرصاص انهزم الدرك وزلم الاقطاع ووقع احد الدرك الجرحى (من جبل لبنان) اسيرا في يد الفلاحين ، وسقط عدد من القتلى من الطرفين . عندها قامت السلطات بارسال قوات كبيرة احتلت شين بعد استسلام اهلها ، وقامت بارسال عدد كبير من الرجال الى سجن تلكلخ ، ومن هناك ارسلوا الى سجن طرابلس كما ذكر يوسف الحكيم المحقق القضائي في ذكرياته . اخيراً بقي في السجن ستة فلاحين من وجهاء القرية مدة سنة ونصف . وفي اثناء فترة السجن جرت مفاوضات بين فلاحي شين واحمد حسين الدندشي اسفرت عن شراء الفلاحين للصمود العشرة التي اشتراها الدندشي من الاتاسي ..

من اجل ان يتمكن الفلاحون من دفع نفقات الدعوى ومصاريف السجن وثمن الارض التي اشتروها ، اي عشرة صمود قاموا باستقراض مبلغ من المال في طرابلس من مصطفى علم الدين واستمر فلاحو شين يدفعون عشر المحصول الى مصطفى علم الدين ، ومن ثم الى ورثته حتى عام / ١٩٣٨ / ....

في البدء ضمن فلاحو شين خمس محصول قريتهم الى « عجم » وهو من تجـار طرابلس لكي يدفع عنهم الديون . ثم استدانوا من مصطفى علم الدين في / ١ / محرم / ١٣٣٥ / هـ / ١٩١٦ / م مبلغا من المال وكتبوا على انفسهم المستندات التالية :

سند بقيمة / ٣٠٤٠٦ / غرش ذهب سعر العثمانية مئة غرش ، وثلاثة سندات عادية بالغروش التركية قيمتها على التوالي / ١٠٨٩ ـ ١٣١٠ ـ ١٠٨٠ / وهـذه السندا تتعهد بدفعها غانم الابراهيم ، كما استدان من علم الدين ايضا ، اضافة الى غانم الابراهيم ، محمود المحمد وحسن الحسين .

وهنا نلاحظ ان فلاحي شين تخلصوا من حكم اقطاعية الاغوات ليقعوا تحت نير الاقطاعية التجارية . اذ ان علم الدين امسى يضمن العشر الى آخرين ، ويضع وقافة وشوابصة لحراسة المحاصيل . ولكن فلاحي شين كانوا اكثر وعيا واوفر حظا مـن فلاحي القرى الاخرى التي وقعت تحت اقدام الاقطاعية التجارية ، ولم تستطع ان تفي ديونها ، فتحولت ملكية القرية الى التجار والمرابين . وهنا نجد ان شين مـن الحالات الفريدة ، التي تمكن فيها الفلاحون من سـداد الديون في مـدة لم تتجاوز / ٢٢ / سنة (١٩١٦ ـ ١٩٣٨) وتمكنوا من النجاة والخلاص من جحيم الاقطاعية .

حواشي الفصل الرابع من الباب الثالث

(١) — نقلا عن مجلة الثقافة الوطنية ، العدد / ١٢ / السنة / ١٤ / كانون الثاني / ١٩٥٥ / ص/١/.

(١/١) — مصطفى ، شاكر : « القصة في سورية » دمشق / ١٩٥٧ / ص / ٩٦ / .

(٢/١) — انظر حول الجزائري مجلة المجتمع العلمي العربي ، دمشـق — المجلد / ١١ / ١٩٤٦ / ص / ٤٨١ — ٤٨٢ / .

(٣/١) — الكواكبي ، عبد الرحمن : « طبائع الاستبداد » ، القاهرة / ١٩٣١ / ص / ١٦ / .

(٤/١) — نقلا عن مجلة « الطليعة » الدمشقية ، العدد / ٨ / تشرين الاول / ١٩٣٦ / ص / ٦٨٨ / انظر بحثا مفصلا عن شميل في : السعيد رفعت : « تاريخ الفكر الاشتراكي في مصر » القاهرة /١٩٦٩/ .

وقد أورد السعيد في كتابه الجديد « ثلاثة لبنانيين في القاهرة » بيروت / ١٩٧٣ / ص / ٥٢ / نصا لشبلي شميل عن رأيه في الجمهورية التي يريدها وهي : « الجمهورية الحقيقية التي تم فيها توزيع الاعمال على قدر المنافع العمومية بحيث تتوفر معها لكل ذي حق الاجتماع بدون ادنى تمييز مطلقا ، والتي تتوفر معها قوى الاجتماع بحيث يقل التبذير والتفريط بهذه القوى ما امكن » .

(٥/١) — نقلا عن مجلة « الطليعة » القاهرية . يوليو / ١٩٦٩ / ص / ١٤٧ / من اللقطات الرائعة التي يشهر فيها شميل بالمستثمرين ويشن عليهم حربا شعواء قوله :

« رايت الفاعل يشتغل في الحر والعرق يتصبب من بدنه كالمطر ليطعم سواه مما جناه ولا يناله من ذلك الا نزر يسير لا يفي بحاجة زوجته العارية وأولاده الجياع » .

« رايت الفتى الشبعان يبلع الجمل ويتستر ، والفقير الجائع يتلصص لسرقة رغيف من الخبز الاسمر ، والقانون يكافيء ذلك برفع القبعات ويعاقب هذا بالسجن سنوات » .. نقلا عن « ثلاثة لبنانيين في القاهـرة » .

(٦/١) — انطون فرح : « أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس » الاسكندرية /١٩٠٤/ ص/ ٥/ ١٣ نوفمبر /١٨٩٩/ حدث كسوف في الشمس أثار الكثير من هواجس الناس حـول نهاية العالم ... ويكتب فرح انطوان مقالا بعنوان « متى ينتهي هذا العالم » .. ويطالب فرح في المقال بنهاية عالم وقيام عالم جديد .. « يسالون متى ينتهي هذا العالم » فنحن نقول لهم متى ينتهي ؟ ينتهي حين يعدل الحكام ، ينتهي حين يعامل ولاة الامور شعوبهم كما يعامل الاباء ابناءهم ، ينتهي حتى تنفق الحكومات ما تدفعه الشعوب اليها من الضرائب والرسوم على الامور الضرورية من تعليم الشعوب وانقاذها من آفة الجهل الهائلة لا على البذخ والامور الكمالية . يومئذ ينتهي عالم الجهل والشقاء والفقر والرذائل والاوهام ويقوم عالم ثان تنيره شمس الفضيلة الباهرة والادب والعلم الصحيح » نقلا عن : « ثلاثة لبنانيين في القاهرة » ص ١١٩ .

(٧) ــ انطون فرح : « الدين والعلم والمال » (المدن الثلاث) الاسكندرية / ١٩٠٢ / ص /٢٨/.

لقد كان فرح انطون مثلا رائعا للحرية الفكرية والشجاعة الادبية وبعد النظر والايمان بالعلم والثقة بمستقبل احسن للانسانية فهي سنة / ١٨٩٩ / كتب في مجلة الجامعة :

« نحن نريد ملكا لحسن من هذا العالم ... حين تنفق الحكومات ما تدفعه الشعوب اليها من الضرائب والرسوم على الامور الضرورية من تعليم الشعوب وانقاذها من آلهة الجهل الهائلة لا على البذخ والامور الكمالية ، ومنذ ينتهي هذا العالم عالم الجهل والشقاء والفقر والاوهام ويقوم عالم ثان تنيره شمس الفضيلة والادب والعلم » نقلا عن « الطريق » في / ٣١ / آذار / ١٩٤٦ / ص / ١٠ / .

(١/٨) ــ انظر حنا ، عبد الله : « الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان / ١٩٢٠ / ــ / ١٩٤٥ / دمشق / ١٩٧٣ / « الفصل الرابع .

(١/٩) ــ شيل ، هلموت : « التاريخ العثماني من / ١٧٧٤ / الى / ١٩١٨ / » في : « كتاب الجيب الاستشراقي » ليدن / ١٩٥٩ / ص / ٤٧ / .

(٢) ــ واحن ، لوثر : « التوسع الشرقي اوسطي للامبريالية الالمانية من حروب القرن التاسع عشر في نهاية الحرب العالمية الاولى » ليبزغ / ١٩٦١ / ص / ٢٥٦ / .

(٣) ــ بروكلمان ، كارل : « تاريخ الشعوب والدول الاسلامية ، مونيخ ــ برلين ١٩٣٩ (بالالمانية) ص / ٢٤٦ / « .

(٤) ــ الحصري ، ساطع : (البلاد العربية والدولة العثمانية) بيروت / ١٩٦٥ / ص / ١١٢ / .

(٥) ــ المصدر نفسه ص / ١١٠ ــ ١١١ / .

(٦) ــ كان السلطان الجديد ، محمد رشاد ، في الرابعة والستين من عمره ، وقد امضى حياته سجينا في احد قصور العاصمة . اتصف بالسمنة والغباء وكان مصابا بعدة امراض نفسية وهذا مما جعله اداة طيعة في يد « الاتحاديين » الذين وجدوا في ضعف شخصيته ومرضها ضالتهم من اجل السيطرة على الدولة دون منازع .

(٧) ــ انظر النص الكامل للدستور في : مجلة « المشرق » البيروتية / ١٩٠٨ / العدد / ١١ / ص / ٦٤٤ / والحصري .

(٨) ــ « تاريخ العالم » المجلد / ٧ / برلين / ١٩٦٢ / ص / ٢٨٢ / .

٩ ــ تعرض لينين في تشرين الاول / ١٩٠٨ / في مقاله : « الاحداث في البلقان وفي ايران » الى ثورة / ١٩٠٨ / التركية بما يلي : « ان التنافس بين الدول الراسمالية الراغبة في الحصول على لقمة » في توسيع ممتلكاته ومستعمراتها ، ومن ثم الخوف من حركة ديمقراطية مستقلة بين الشعوب التابعة او التي « تحت وصايتها » هما المحركان لكامل السياسة الاوربية . يكيلون المديح لاعضاء تركيا الفتاة لاعتدالهم وتعقلهم ، اي انهم يكيلون المديح للثورة التركية لضعفها ، يكيلون لها المديح لكونها لاتستنهض جماهير الشعب الحقيرة ، لا توقظ استقلال الجماهير فعلا ، لكونها تقف موقفا عدائيا من النضال البروليتاري المبتدئ في امبراطورية العثمانيين ، ويواصلون في الوقت نفسه نهب تركيا كالسابق . ويكيلون المديح بسبب بقاء امكانية نهب الممتلكات التركية كالسابق . يثنون على اعضاء تركيا الفتاة ويستمرون في السير على سياسة هي بالوضوح شكل سياسة اقتسام تركيا » لينين : الاعمال الكاملة ، المجلد / ١٥ / برلين / ١٩٦٢ / ص / ٢١٨ / .. وهذا المقال مترجم الى العربية في « حركة شعوب الشرق الوطنية التحريرية » لينين

اصدار دار الطبع والنشر باللغات الاجنبية موسكو بلا تاريخ ص / ٥٢ / .

١٠ ــ تاريخ العالم ... ص / ٢٨٢ / .

١١ ــ المصـــدر نفســـه .

١٢ ــ السعيد ، امين : « الثورة العربية الكبرى المجلد / ١ / ، مصر / ١٩٣٣ / ، ص / ٦١ / كون ، هانس : « تاريخ الحركة القومية في الشرق » برلين كرايسفالد ١٩٢٨ / ص / ١٨٥ / .

(١٣) ــ المصدر نفسه .

(١٤) ــ المصدر نفسه ص / ١٨٦ / .

(١٥) ــ المصد نفسه .

(١٦) ــ المصدر نفسه .

(١٧) لينين .. ص / ٥٢ / .

(١٨) ــ دلف ، هرمان : « سياسية الدولة تجاه لنهيار الدولة العثمانية » كيل ١٩٥٤ ، ص ١٦٥ .

(١٩) ــ كون ... ص / ٢١٨ / .

(٢٠) ــ فيريشر هـ . « ماذا اخفت الحكومــة القيصريــة عن الرعايا الالمان ، فيمــا يتعلق بحوادث ارمينيا ١٩١٥ » هامبورغ ــ بركيدورف ١٩٣٠ ص / ١١ / .

(٢١) ــ مجلة « المشرق » البيروتية شباط / ١٩٠٩ / ص / ٨١ ــ ٩٦ / .

(٢٢) ــ مجلة المجتمع العلمي العربي ــ المجلد / ٩ / ص / ٨٠ / .

(٢٣) ــ السعيد .. المجلد / ١ / ص / ٤ / .

(٢٤) ــ القبس في ١٩ / ١١ / ١٩١٢ / .

(٢٥) ــ كرد علي ، محمد : « المذكرات » دمشق ، المجلد واحد / ١ / ص / ٤٨ / .

(٢٦) « ثورة العرب » ... ص / ٥٢ / .

(٢٧) ــ مثل جريدة القبس في دمشق والكرمل في حيفا والمفيد والاتحاد العثماني في بيروت وغيرها .

(٢٨) ــ روبين ... ص / ١٨ / .

(٢٩) ــ حنا ، عبد الله « الحركة العمالية في سوريــة ولبنان ١٩٠٠ ــ ١٩٤٥ » دمشق ١٩٧٣ / الفصل الثالث .

(٣٠) ــ السعيد ... الجزء الاول ص / ٧ / .

(٣١) ــ راجع اسماء اعضاء المنتدى الادبي في : ص هارتمن ، ريشارد : وانطونيــوس ، جــورج « يقظة العرب » بيروت ١٩٦٢ / ص / ١٨٤ / .

(٣٢) ــ اشادت جريدة « الكرمل » الحيفاوية في ٢٤ / ١ / ١٩١٣ بوطنيــة شباب المنتدى الادبي وكتبت المقتبس الدمشقية في ١٠ / ٥ / ١٩١٣ / بان « روح النهضة انتشرت بين الطلاب » .

(٣٣) ـ الصلح ، سامي : « مذكرات سامي الصلح » بيروت ١٩٦٠. / ص / ١٢ / ولا حاجة الى القول ان المناداة في فترة ماقبل الحرب العالمية الاولى باقامة وحده عربية وفق النموذج الايطالي او الالماني ، اي اقامة وحدة عربية على اساس راسمالي ودون القضاء النهائي على الاقطاعيه ، كان خطوه تقدمية هامة بالنسبة لذلك العهد ، حيث كانت البرجوازية لاتزال في طور التكون ، وكانت جوانبها الايجابية هي الغالبة والمسيطرة على جوانبها السلبية بعكس الوضع الحالي .

اما في عصرنا الحالي عصر انهيار النظام الامبريالي وعصر انتقال البشرية من الراسمالية الى الاشتراكية فان شعارات الوحدة العربية الراسمالية دخلت في ذكريات التاريخ وحلت محلها شعارات الوحدة العربية الاشتراكية .

(٣٤) ـ « مجلة المنتدى الادبي » بادارة احمد عزت الاعظمي وعاصم بسيسو ـ الجزء الاول ـ المجلد الثاني ـ استنبول / ١٣٣٢ / .

(٣٥) ـ المصدر نفسه .

(٣٦) ـ ومثال ذلك رواية « شمم العرب رواية عربية تاريخية وطنية » بقلم « الكاتب الوطني الحر نجيب افندي نصار صاحب الكرمل » او قصيد « قف بافتى قحطان » لفؤاد الخطيب ، او قصيدة الياس طعمة بعنوان « سلام على العرب الخالدين » التي جاء فيها :

وهل من رجوع الى عزنا	فبين عظام العظام عظم
لقد فقد العرب اخلاقهم	فسادت عليهم جموع العجم
سأبرز مع اخوتي للجهاد	فتاخذ بالثأر ممن ظلم
اذا انكسر السيف في راحتي	فقد بقيت في الضلوع الهمم

اما الشاعر انيس الخوري فقد عبر ايضا بلغة شعرية مناسبة عن حالة المثقفين العرب النفسية مثيرا فيهم الهمم للنهوض والتحرر :

لغة العرب اذكرينا	واندبي ما فات
كيف نساك وفينا	نسمة الحياة
بابني الشام ومصر	وبني العراق
هل نسيتم ذكر عصر	طبق الافاق
كنتم فيما تمضى	بهجة الازمان
فلماذا اليوم نرضى	حالة الهوان

المصدر السابق .

٣٧ ـ السعيد ... الجزء الاول ، ص /١٩/ و « ثورة العرب » ... ص /١٣٤/ .

٣٨ ـ انطونيوس .... ص / ١٨٦ / .

٣٩ ـ ذكر السعيد ان عدد الضباط العراقيين في استنبول بلغ / ٣١٥ / ضابطا . السعيد .. ص٢٦

٤٠ ـ صعب ، حسن : الامبراطورية العثمانية . جمهالون ـ امستردام ١٩٥٨ /ص/٢٣٦/ .

٤١ ـ اسماء مؤسسي الفتاة ذكرهم انطونيوس ... ص / ١٨٧ / .

٤٢ ـ المصدر السابق ص /١٨٨/ .

٤٣ ـ المصـــدر نفســـه .

٤٤ ـ المصـــدر نفســـه .

٤٥ ـ جريدة « لسان العرب » بيروت في ١٩١٣/٩/٢٣ .

٤٦ ـ لسان العرب في ١٩١٣/٩/٢٣ كان عدد لسان العرب في ١٩١٣/٩/٢٣ العدد اليتيم ، اذ سرعان ما اغلقت السلطات التركية في بيروت الجريدة بسبب مقال العريسي الافتتاحي .

٤٧ ـ نقلا عن ـ ثورة العرب ـ ...

٤٨ ـ كان معظم اعضاء حزب الائتلاف من الشعوب غير التركية . وفي سورية كان ـ حزب الائتلاف ـ عبارة عن جبهة معادية لسياسة الاتراك ، تمركزت في داخله عناصر المعارضة .

٤٩ ـ لسان العرب في ١٩١٣/٩/٢٣ .

٥٠ ـ مارلون ، جون ـ القومية العربية والامبريالية البريطانية ـ لندن ١٩٦١ ـ ص١٦ .

٥١ ـ السعيد .. المجلد الثاني ص / ٣٦ / .

٥٢ ـ في ٥ شباط ١٩١٩ اعلنت الهيئة المركزية ـ للفتاة ـ التي كانت لاتزال تنشط بشكل سري ، عن نشاطها العلني واقامت حزب ـ الاستقلال العربي ـ كواجهة علنية للجمعية السرية ـ الفتاة ـ التي بقيت تنشط من وراء الكواليس . واتخذ حزب الاستقلال العربي شعارا له : العمل ـ لاستقلال البـــلاد العربية وتحررها من كل نفوذ اجنبي ـ المصدر نفسه .

٥٣ ـ راجع السعيد ... الجزء الاول ، ص١١ ـ ٤٩ .. وهارتمن، ريتشارد : ـ القضية العربية والدولة العثمانية ـ مقالات للتعرف على الشرق . المجلد ١٥ ، هالي ١٩١٨ ص ١٩ ـ ٢٠ . حداد ، جورج ـ خمس سنوات من سورية الحديثة ولبنان ـ بيروت ١٩٥٠ ، ص ٤٣ .

٥٤ ـ راجع النص الحرفي للبرنامج في جريدة ـ الكرمل ـ حيفا في ١٩١٣/٢/٢٨ وجريدة ـ المقتبس ـ دمشق في ١٩١٣/٢/٢٢ .

٥٥ ـ « المقتبس » دمشق في ١٩١٣/٤/١٧ .

٥٦ ـ السـعيد ... ص / ١٨ / .

٥٧ ـ انظر البرنامج في : هارتمن ... ص / ٤٠ / وما يليها ، والسعيد ... ص / ١٨ / وما يليهـا وانطونيوس ... ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

٥٨ ـ هارتمن ، مارتين : ـ تقارير سفرية من سورية ـ برلين /١٩١٣/ ص /٩١/ .

٥٩ ـ المصدر نفسه ، والمقتبس دمشق في ١٩١٣/٤/١٧ .

٦٠ ـ هذا تعبير جريدة المقتبس في ١٩١٣/١/٢٣ انتخب المجتمعون الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، خريج الجامعة الامريكية في بيروت والشخصية الوطنية البارزة فيما بعد ، رئيسا للجلسة ، راجع المقتبس في ١٩١٣/١/١٢ .

٦١ ـ ذكرت القبس في ١٩١٣/١٠/١٢ اسماء المشتركين في الاجتماع ومنهم : عبد القادر سكر ، ياسين دياب ، الشيخ سليم البخاري ، وجمال الدين القاسمي ، المحامي عبد الوهاب الانكليزي ، المحامي فايـز الغصين ، الشاعر خير الدين الزركلي ، الصحفي محمد كرد علي ، الصحفي احمد كرد علي ، عضو جمعية

الفتاة جميل مردم ، كما ضم الاجتماع شبابا من عائلات العجلاني والحسيبي والبارودي ..." آلخ وقد اطلق الرحالة الالماني مارتن هارتمن على رجال الاصلاح في دمشق اسم : ـ الحزب الوطني ـ انظرهارتمن ص / ١٥ / .

٦٢ ـ كانت الحركة الاصلاحية في حلب ضعيفة . وقد اشارت الى ذلك جريدة المقتبس في ١٩١٢/٤/٨ و ١٩١٢/٥/١٧ معللة ذلك بوجود عناصر تزعم ان الاصلاح معاد للدين ، والواقع ان الفئات التجارية في حلب كانت مرتبطة بتجارة الاناضول وكانت مصالحها الطبقية تتطلب بقاء الدولة العثمانية بعكس بورجوازي دمشق وبيروت .

٦٣ ـ « الكرمل » حيفا في ١٩١٢/١/٧ و ١٩١٢/٢/٧ .

٦٤ ـ اقترح شكري العسلي في دمشق عقد هذا المؤتمر في بيروت او دمشق على شرط ان يضم ممثلين عن آسيا العربية . راجع ـ الكرمل ـ في ١٩١٢/٢/٧ .

٦٥ ـ « ثورة العرب » ... ص ٧٢ .. و ـ المقتبس ـ في ١٩١٣/٧/١٧ .

٦٦ ـ وجد داخل المؤتمر العربي الاول ثلاث تيارات رئيسية :

المندوبون المسيحيون من ـ لجنة الاصلاح ـ البيروتية ، الذين مثلوا مصالح البورجوازية الكومبرادورية وسعوا لاحلال السيطرة الامبريالية الافرنسية محل السيطرة الاقطاعية التركية .

٢ ـ المندوبون المسلمون من ـ لجنة الاصلاح ـ البيروتية وقسم من حزب اللامركزية ، تارجحوا بين ـ الولاء ـ للجامعة العثمانية وبين احتضان الامبريالية الافرنسية . وكانوا على استعداد للعمل مع الحكومة المركزية التركية اذا ضمنت مصالحهم .

٣ ـ اتجاه ـ جمعية العربية الفتاة ـ التي دعت الى اقامة دولة عربية مستقلة ومثلت مستقبل الحركة العربية في الفترة اللاحقة . اما ـ لجنة لاصلاح ـ الدمشقية فلم تمثل في المؤتمر لاسباب لا مجال لذكرها هنا .

٦٧ ـ ثورة العرب ، المؤلف مجهول ، مصر ١٩١٦ ، ص ٢٤١ .

٦٨ ـ المصدر نفسه ، ص / ١٣٥ / .

٦٩ ـ السعيد امين : الثورة العربية الكبرى ، الجزء الاول ، مصر ١٩٣٢ ، ص / ٢٤١ / . المقتبس في ١٩١٣/٢/١٢ .

٧٠ ـ المقتبس ١٩١٣/٩/١٥ .

٧١ ـ السعيد ... ص ٤٩ ، وايضا : هارتمن : (القضية العربية والدوله التركية) في (اسهامات لمعرفة الشرق ص) . بالالمانية .

٧٢ ـ لقد رسخت فكرة الاعتماد على البدو ، كاحدى القوى الاساسية في اذهان بعض القيادات الوطنية بعد الحرب العالمية الاولى في فترة النضال ضد الاستعمار الافرنسي ، مع ان الاصح اعتبارها قوة احتياطية لفترة زمنية محدودة . وهذا ما اوضحه الدكتور عبد الرحمن الشهبندر احد القادة الوطنيين في الثورة السورية ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ بما يلي : « ان الاعتماد على البدو كان في غير محله ، الا اذا كان الغرض من الاستعانة بهم قدح الزناد ، لان تجارب هذه الثورة دلتنا بصورة عملية على ان البدو لا يصلحون للحروب

الثابتة التي تتطلب صبرا ، بل هم اصلح ما يكون للهبات المؤقتة والايهامات . لذلك قيل في الامثال العامة (مثل العرب بالصياح) » الشهبندر ، عبد الرحمن : « ثورة سورية الكبرى ، واسرارها وعواملها ونتائجها » دمشق / عمان بدون تاريخ ، ص / ٣٨ / .

٧٣ ـ المقتبس ١٩١٣/٢/٢٢ .

٧٤ ـ هارتمن ، مارتين .. ص / ٤٠ / .

٧٥ ـ المصدر نفسه .

٧٦ ـ المقتبس ١٩١٣/١١/٢٨ .

٧٧ ـ المقتبس ١٩١٣/٨/١٨

٧٨ ـ الحصني ... ص /٢٨١ / روى كرد علي في مذكراته عن بربرية قائد الحملة على الجبل وعن كيفية ابتزازه للاموال . فبعد ان سجن امير الجبل يحيى بك الاطرش في درعا كان يوهمه انه سيقتله فيبادر هذا الى ارضائه وتقديم ما يريد له من اموال وهدايا . وقيل ان قائد الحملة سامي باشا الفاروقي كان قد ادخر من الاموال ، التي نهبها من الجبل وكذلك من لواء الكرك ، عند احد التجار العراقيين بدمشق . وبعد وفاته بالحمى انكر التاجر المبالغ التي وصلته ورفض ان يدفع لعائلته اي قرش . ويقول كرد علي ان هذا التاجر كان مشهورا بامانته ... (فتامل امانة هؤلاء) كرد علي ، محمد : ـ المذكرات ـ دمشق ١٩٤٨ ، ص / ٨٢ / .

٧٩ ـ الحصني ... ص / ٢٨٢ / .

٨٠ ـ المصدر نفسه . أنظر ايضا : الريس ، منير : « التاريخ الذهبي للثورات السورية » بيروت ص ٢٦ يذكر الريس ، الذي عاش في الكرك بعد الانتفاضة ان آثار الدمار في المدينة كانت بادية للعيان بعد عدة سنوات . ويروي ان الثائرين هاجموا دكاكين التجار التابعة اما الى الدماشقة من اهل الميدان او الفلسطينيين من أهل الخليل . كما ان النقمة كانت منصبة على جباة الضرائب والموظفين . خدم الدولة الاقطاعية .

٨١ ـ مجلة ـ المشرق ـ بيروت العدد ـ ٢ ـ عام ١٩١١ ، ص / ١٣٩ / .

٨٢ ـ راجع المقتبس في عام ١٩١٣ .

٨٣ ـ راجع الكرمل في عام ١٩١٣ .

٨٤ ـ القبس في ١٩١٣/١١/١٧ ، ١٩١٣/٨/١٨ ، ١٩١٣/٨/١٣ .

٨٥ ـ المقتبس ١٩١٣/٦/٤ .

٨٦ ـ كرد علي ، محمد : ـ المذكرات ـ جـ ١ ، دمشق ١٩٤٨ ، ص / ٢٥٢ / .

١/٨٦ ـ الحكيم ... ص / ٢١٦ / .

٨٧ ـ الكرمل ١٩١٣/١/١٢ .

٨٨ ـ القبس ١٩١٣/٥/٨ .

٨٩ ـ الكرمل ١٩١٣/٢/١١ .

٩٠ ـ القبس ١٩١٣/٥/٨ .

٩١ ـ في وثائق المؤتمر العربي الاول ـ١٩١٢ـ الصادر عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر طبع القاهرة ـ١٩١٢ـ م ـ ١٣٣١ ـ هـ التي اعاد نشرها وجيه الكوثراني في كتابه الصادر في بيروت ـ ١٩٨٠ ـ بعنوان ـ كتاب المؤتمر والمراسلات الدبلوماسية الفرنسية المتعلقة به الوثيقة التالية ـ في الصفحة ٣٥ .

غوربيسان : في ٢١ أيار سنة ١٩١٣ .

لجانب المؤتمر العربي في باريس .

نحن الموقعين على هذا بصفتنا وكيلين مفوضين عن كل مزارعي الاراضي المدورة في ناحية بيسان من قضاء جنين التابع للواء نابلس من ملحقات ولاية بيروت نعرض اننا معشر يبلغ عدد نفوسنا سبعين الف نسمة وكلنا نفوض لمؤتمركم العربي الكريم ـ بصفتنا فرعا من العنصر العربي ـ أمر النظر في احوالنا خصوصـا مسالة الشفالك التي نحن نسكنها فاننا لا نرضى ببيعها ولا بايجارها ولا بمنحها لاي شركة كانت ولا اعطاء اي امتياز بها بدون ان يكون لزعمائنا راي في ذلك . ونصرح هنا بان هذه الاراضي هي ملك ابائنا واجدادنا وقد اغتصبت منا في عهد الحكم المطلق . واننا نستجير بامتنا العربية التي تمثلونها طالبينمنكمومنهامعاونتنا على طلب حقنا فيها اسوة بغيرنا من ابناء المملكة العثمانية . واعلموا ان من اكبر الحوادث التي تضر بالامة العربية بيع هذه الاراضي او ايجارها لاحدى الشركات . فباسم العرب والعثمانية نستحلفكم انتبذلواكل ما في طاقتكم لدفع هذا الخطر عنا وعن الوطن والله يوفق مساعيكم . من مشايخ غور بيسان ـ شيخ جبول ـ الشيخ مصطفى الخطيب ـ الشيخ صالح القاسم .

٩٠٢ ـ المقتبس ١٩١٣/٨/١٤ .

٩٢ ـ المقتبس ١٩١٣/٨/١٤ .



الباب الرابع

دور مختلف القوى الطبقية في الحركة القومية العربية

بعد انهيار الدولة العثمانية

١ ـ الوضع المعاشي للجماهير في سنوات الحرب الاولى .
٢ ـ الثورة العربية في الحجاز ابعادها القومية الاجتماعية .
٣ ـ وضع بلاد الشام بعد انهيار الدولة العثمانية .
٤ ـ الدولة الوطنية العربية (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) .
قواها الاجتماعية ، مؤسساتها ، احداثها وعوامل انهيارها :
آ ـ نسبة القوى الطبقية ايام الدولة العربية .
ب ـ اهم الاحداث التي عاشتها الدولة العربية السورية .
جـ ـ انذار غورو ومواقف مختلف القوى .
د ـ معركة ميسلون .
هـ ـ عوامل انهيار الدولة العربية .



الفصل الأول

الوضع المعاشي للجماهير في سنوات الحرب الأولى

بعد اشتراك الدولة العثمانية في الحرب العالمية الاولى الى جانب المانيا قامت بإجراءين كانت لهما آثار اقتصادية واجتماعية مدمرة جرت على بلاد الشام الدمار والخراب .

الاجراء الاول : سوق الشباب الى الجندية دون تخطيط أو مراعاة لحاجة الارض للقوى العاملة ، التي تناقصت الى درجة ان النساء والشيوخ كونوا اثناء الحرب قوة العمل الاساسية في الريف .

والاجراء الثاني : هو الاستيلاء على ارزاق الاهالي وغلالهم باسم الاعاشة والاعانة، كما كثرت المصادرات والغرامات(١) .

وثمة اجراء ثابت صدر بموجب قانون ٢٤ تموز /١٩١٦/ الذي « خول الحكومة التركية سلطة مصادرة الرعايا العثمانيين وغير العثمانيين في السلطنة الذين لم يؤدوا الخدمة العسكرية رجالا كانوا أم نساء ، وذلك للقيام بالاعمال الزراعية في مدة زمنية تحددها وزارة الزراعة العثمانية (١/١) » .

وهذا في الواقع شكل من اشكال السخرة الاقطاعية ، التي كانت منتشرة سابقا ومقتصرة على عمل الفلاحين في اراضي البكوات والباشوات والاغوات .

وفي سنة /١٩١٦/ شح المطر ، وخاف الناس من القحط والجدب فارتفعت اسعار القمح وبدات المجاعة ، التي دفعت الفقراء الى سلق (طبخ) الحشيش واكله مع قشور الفواكه والبقول وكل ماتنبت الارض .

وفي الوقت نفسه استغل تجار الحنطة واصحاب المطاحن مصائب الحرب ابشع استغلال ، فكانوا يخلطون الطحين بدقيق الشعير والذرة البيضاء والصفراء والترمس والنخالة وبذر المكانس ، وما امكن خلطه ويبيعون الطحين بأسعار باهظة(١/٢) .

وقد بلغ عدد المحتكرين للحبوب عشرين محتكرا ، وكانت الاقوات تشحن وتباع كما يشتهي هؤلاء . وكان امام الفلاح احد امرين : اما ان تصادر السلطة الحبوب او يشتريها هؤلاء المحتكرون باسعار بخسة .

في أوائل عام /١٩١٥/ امر جمال باشا بمنع شحن الحبوب الى لبنان وفلسطين، بحجة ان مالديها من الحبوب يكفيها لاعاشة سكانها . ولقد اراد جمال باشا الاقلال من ارسال الحبوب الى لبنان ليزيد من ازمة الجوع هناك .

وفي نهاية عام /١٩١٥/ كان ارتفاع اسعار القمح في سورية الداخلية طفيفا بالنسبة لارتفاعها في سنتي /١٩١٦ و ١٩١٧/ وجاء الجراد ليسهم في تعميق النكبة ويقضي على المواسم الزراعية . وبلغ الامر درجة ان مد القمح (وزنه ٢٠ كغ) بلغ ثمنه ليرتين ذهبيتين . وادت المجاعة الى موت ثلاثين بالمائة من سكان لبنان بسبب الجوع(١/٣) .

لقد ذاق لبنان الأمرين من المجاعة التي نزلت به قبل ان تنقضي السنة الاولى من اعلان الحرب العالمية . ففي مطلع نيسان عام /١٩١٥/ بدت طلائع الجراد في سماء بيروت ولبنان واخذت اسرابها تتوارد من الجنوب بكثرة هائلة حجبت وجه السماء عن العيون ، مغيرة على كل أخضر من غراس ونبات وعلى حدائق البيوت . فدب الذعر في قلوب الناس ونهض اهل القرى بارشاد الحكومة المحلية ، لمكافحة هذا العدو الوبيل بدون نتيجة تذكر . ولم يغادر لبنان وسورية طيارا وزحافا حتى جاء الصيف وكانه الخريف تعرت فيه الاشجار عن اوراقها ولم يبق اثر لفرع اخضر(١/٤) .

ان مجرد ظهور الجراد ابان الحرب كان نذيرا للبنانيين بخطر المجاعة ، فهب

لمواجهتها التجار وشمر عن ساعد الجد كل محتكر لاتقف اطماعه في الربح عند حد . فكانت في بيروت وطرابلس وصيدا ومعلقة زحلة اهم المستودعات للحبوب الواردة من سهول عكا والبقاع وسورية الداخلية ، تباع في بيروت ولبنان بأثمان باهظة زاد في نارها اشتعالا منع قيادة الجيش الرابع شحن الحبوب على اختلاف انواعها الى جبل لبنان ، مما ادى الى تزايد عدد الفقراء في الطرقات وفي اسواق بيروت يمدون ايديهم طلبا للرزق والعيش .

وبعد مذاكرات اشترك فيها جمال باشا واركانه وتحسين بك والي سوريةوعزمي بك والي بيروت وعلي منيف بك متصرف جبل لبنان ، اسست مكاتب القمح والاعاشة في معظم المدن السورية وفي القرى القريبة من الخط الحديدي الممتد بين دمشق — رياق — حلب ، مستهدفة تموين الجيش اولا والسماح لبعض التجار المستوردين بشراء القمح ونقله الى بيروت وبعض المحطات اللبنانية ، واهمها محطة حدث الساحل بين بعبدا وبيروت ، حيث يباع حرا وبأسعار ارتفعت تدريجيا الى ان تعذر على الفقير تداركها .

وعلى اثر ذلك نشط بعض الوجهاء في بيروت للعمل بغايتين مختلفتين ، احداهما جوهري وهو الاثراء الشخصي وثانيتهما تخفيف المجاعة عن لبنان ، فاسسوا فيمابينهم شركة تستورد الحبوب تحت اشراف ضباط عسكريين من داخل سورية وتستلمها في محطات سكة الحديد لتوزيعها على الاهلين واقترحوا تعيين احدهم الدكتور نجيب الاصفر مديرا للشركة وقد اثبت مقدرته على تنفيذ المهمة .

وكان من المقرر بيع القمح بسعر الكيلو ستة قروش نقدا ورقيا واضافة قرش واحد باسم عمولة تكتفي بها الشركة لقاء نفقات الادارة ، فحاز اقتراح الوجهاء مؤسسي الشركة ، قبول القائد الاعلى في سورية جمال باشا واركانه المختصين بشؤون اعاشة الجيش وتموينه وعلى رأسهم الاميرالاي كاظم بك .

وفي ٨ حزيران سنة /١٩١٦/ اسس في بعبدا مركز رئيسي للاعاشة والتموين العام عهد بادارته الى الدكتور نجيب الاصفر السالف الذكر تحت اشراف السلطة العسكرية العليا . فكان القمح يرد من سورية الى هذا المركز بمعدل كاف لضمان

حاجة موظفي الحكومة اولا وتخصيص الباقي للاهلين . ومع ذلك فقد استحكم الغلاء في بيروت وجبل لبنان بسبب فساد الادارة وعلاقة القائمين عليها بمحتكري القمح وبيعه في الاسواق الحرة باسعار فاحشة ، فشملت المصيبة الفقير وغير الفقير . وما بزغت شمس عام /١٩١٧/ حتى كانت المكاتب الفرعية لمركز بعبدا الرئيسي قد اسست في الاقضية اللبنانية ، ليوزع منها القمح على الموظفين بمعدل مئتين وخمسين غراما يوميا لكل فرد من افراد العائلة بسعر الكيلو سبعة قروش نقدا ورقيا بينما تجاوز السعر في السوق الحرة عشرة اضعاف .

كانت هذه التدابير لاباس بها بالنسبة الى موظفي الحكومة ، اما كيف يعيش الشعب ، وكيف يتدارك الفقير قوته اليومي ؟ فهذا لم يخطر ببال قادة الامور ، وربما فكروا به ولكنهم اعتقدوا ان الشعب يستطيع شراء مايحتاجه من السوق الحرة التي يمونها تجار الحبوب ، وجلهم او كلهم متفق مع ذوي الشان كما سبقت الاشارة اليه .

لذلك كانت اساءة القائمين على العمل من مديرين ومتعهدين ومشرفين ، لواجباتهم من جهة وجشع المتاجرين بقوت الشعب من جهة اخرى في مقدمة الاسباب التي حالت دون وصول الفقراء الى حقهم من الخبز الضروري للحياة . فانتشرت المجاعة في لبنان ولجأ عدد من الفقراء الى بيروت . حيث افترشوا الارض في الطرقات والتحفوا السماء .

وقد ظهر ان ضعف الاجسام بتاثير الجوع قد ادى الى ضعف الهمة والتفكير بين الفقراء ، فلم يقدموا على النهب والسرقات بل رضخوا للقضاء والقدر . فكنت ترى الجياع الذين اموا بيروت من لبنان طلبا للقوت منطرحين ارضا بانتظار الموت والمخازن حولهم زاخرة بالمواد الغذائية وبيوت السراة الاثرياء مزدانة بموائد الترف والبذخ دون ان يجسر اولئك الفقراء على مهاجمتها واخذ بعض مافيها لسد الرمق على الاقل .

ان تدخل القادة العسكريين في لبنان في امر نقل القمح من المدخرات الرئيسية في سورية الى المستودعات الفرعية في لبنان ، قد ادى الى غش القمح بالزوان والكرسنة والتراب ، واوجد الخلل في الادارة والارتياب في نزاهة القائمين عليها .

ولم يسلم القائد الاعلى جمال باشا واصدقاؤه ومعتمدوه جميعا من الانتقاد اللاذع دون الجهر باسمائهم خوفا من الادارة العرفية السائدة في ذلك الزمن .

واذا علمنا ان مقدار القمح الوارد اثناء الحرب الى بيروت وجبل لبنان عن يد الشركة المذكورة قد تجاوز الوف الاطنان ، ادركنا عظم ارباح الشركة فوق ماجنته من التصرف بقسم كبير من مختلف الاغذية وبيعه في السوق السوداء باسعار فاحشة تزيد عشرة اضعاف واحيانا عشرين ضعفا عن قيمته الاصلية ، فهذه الارباح لايمكن للشركة ان تحصل عليها الا بعد بذل كبير للقادة العسكريين المشرفين على ادارة الشركة ومستودعاتها .

اثناء المجاعة مر جمال باشا في ربيع /١٩١٦/ في جياع فاستقبله الشيوخ وقدموا له عريضة يشكون فيها الغلاء والمجاعة ، فسالهم : هل اكلت الوالدة ولدها عندكم ؟ فأجابوه بالنفي ، فقال لهم : اذن لايوجد عندكم مجاعة بالمعنى الصحيح(١/٥) .

الى جانب المجاعة انتشر السلب والنهب وقطع الطرق وبخاصة في السنوات الاخيرة من الحرب (١٩١٧ ـ ١٩١٨) عندما كثر الفارون من الجيش التركي .وهؤلاء لم يعودوا علنا الى قراهم واضطروا الى الاختباء والالتجاء الى السلب والنهبلتأمين قوتهم وقوت عيالهم . وفي جبل عامل كان على قطاع الطرق هؤلاء ان يؤمنوا شيئا من المال لبعض الاقطاعيين مقابل حماية هؤلاء لهم . وقد كثرت التعديات على القرى الغنية ، التي تأتيها الاموال من المهجر(١/١) .

* * *

وحول الوضع في الشمال الشرقي من بلاد الشام تقدم لنا مذكرات سعيد اسحق(١/٧) صورة واضحة ، المولود سنة /١٩٠٢/ في قرية (قلعة الامراء) الى الشرق من مدينة ماردين والقريبة من دير الزعفران ، مقر الكرسي البطريركي الانطاكي للسريان الارثوذكس . وسكان « قلعة الامراء » من عشيرة تغلب حسب رواية سعيد اسحق ، الذي تعلم العربية والسريانية والتركية والكردية .

ايام الحرب هاجم الفوضويون قرية (قلعة الامراء) فاضطر اهلها الى الالتجاء

الى دير الزعفران الحصين . وهناك سيق والد سعيد اسحق مع رفاقه الى ولاية ديار بكر للالتحاق بالجيش . « فاصبحنا لانملك شروى نقير ، لان اموالنا نهبت في قلعة الامراء وكذلك في عامودة » حيث عمل والده في التجارة .

في تلك الاثناء كان الالمان يعملون في مد سكة الحديد من حلب الى الموصل لنقل الجيش فقاموا بشراء اكثر الحبوب والمواد الغذائية وخزنوها ففقدت في الاسواق .

« انتشرت المجاعة في كافة المناطق فعمل الناس كعمال في سكة الحديد مقابل تامين طعامهم فقط . لذلك لم يبق امامي الا العمل في هذه الشركة التي تقوم بانشاء سكة الحديد المذكورة ، فذهبت الى بلدة نصيبين ، حيث المركز الرئيسي لمديريةالعمل، وقصدت المحطة ــ مقر الالمان ــ ورحت ابحث عن مدير مصلحة العمال حتى اهتديت اليه وقابلته ، وهو يوناني من اهل اسطنبول ، اسمه نقولا افندي ، فاستأذنتهبالدخول ولما دخلت مكتبه اخبرته بانني وافراد عائلتي واقربائي نزيد على ثلاثين عاملا نطلب العمل ، فسالني عن موطني واصلي ، وكنا نتخاطب باللغة التركية فأعلمته انني من عامودة ، ومحلنا بعيد فاذن لي بالجلوس ثم اخذ يقلب اوراق محلات العمل فأخبرني اخيرا بانهم سيفتحون ورشة عمل في قرية (تل زيوان) القريبة من نصيبين ، وانه سيخصص خيمة كبيرة للعمال ، وخيمة صغيرة لمراقب العمل ، اما الاجرة فهي عبارة عن رغيف من الخبز لكل عامل مع شيء من المعلبات والحبوب والارز والبطاطا ، فقبلت الشروط ونقلنا الخيمتين بواسطة عربة خيل الى القرية المذكورة ، ولما ركزناهاسافرت الى عامودة واحضرت والدتي واخوتي وعمي يعقوب واسرته وابنه عبد الاحد .

ثم ذهبت الى نصيبين ، واتيت باقربائي وآخرين من قريتنا الى الخيمة في تل زيوان وباشرنا العمل ولحق بنا عدد آخر من جبل الطور ، ولم ننفك حتى امنا المعيشة وسلمنا من المجاعة التي اودت بحياة الكثيرين .

باشرنا العمل في ورشة عبارة عن ترابية طولها خمسة كيلو مترات دام العمل فيها اربعة اشهر وبعد انتهاء الورشة قررنا ترك العمل والعودة الى عامودة ، وبعد وصولنا حضر الى عامودة مدير جباية العشر من المحصولات الزراعية فؤاد كرجية من اهالي ماردين ، فزرته في مضافة فرحان آغا وكانت الغاية من حضوره السؤال

من شباب يحسنون القراءة والكتابة ، وغير مكلفين بالجندية لصغر سنهم ، وطلبت منه أن يعينني ، وبعد ان خاطبني باللغة التركية ، وسالني ماذا كنت اعرف اللغة الكردية ، اجبته بالايجاب ، فقال بما ان جميع الشروط المطلوبة متوافرة فيك ساعينك حارسا قضائيا على مزروعات قرية (البلقية) وفيها محصول جيد ، فتم التعيين وفي هذه الفترة توفي اخي عزيز بالتيفوئيد . ولم يبق لي سوى اخ واحد اسمه ملك .

أرسل مدير جباية العشر معي دورية من الجنود وذهبت الى القرية المذكورة ، واستلمت العمل الذي دام اكثر من شهرين ، حتى تمت تصفية المحصولات بالطرق العادية القديمة ، وبعد الانتهاء حضر المدير المذكور واستلم العشر المخزون في دار خصوصية ، وتقاضيت اجرتي التي بلغت خمسة وعشرين كيسا من الحنطة وعشرة اكياس من الشعير ، شحنت منها عشرة اكياس الى عامودة للمونة وبعت الباقي الى تجار الحبوب في الشركة الالمانية . (انتهت مذكرات سعيد اسحق) .

* * *

في كتابه « الثورة السورية الكبرى الصادر في بيروت /١٩٦٩/ يروي منير الريس بعضا مما عاشه من احداث في شبابه في السنوات الاخيرة من الحرب العالمية الاولى . وفيما يلي الوصف الشيق الذي قدمه منير الريس للجهاز الاقطاعي العثماني الحاكم وحالة الفلاحين في جحيم السنوات الاخيرة للحكم الاقطاعي العثماني واساليب سلب المحاصيل الزراعية والاستيلاء على حبوب الفلاحين لصالح الفئات المذكورة في النصوص .

« ... فالنقد التركي تدنت قيمته حتى بلغت الربع ، فالخمس بالنسبة للذهب ، والغلاء اشتد ولقمة العيش اصبحت قيمتها تزداد كل يوم بالذهب ، اذ بلغ ثمن طن القمح اكثر من مئة وعشرين ليرة عثمانية ذهبا ، لان الدولة فرضت في هذا العام نظام الامانة على المحاصيل ، اي نظام الاشراف المباشر على انتاج الحبوب ، وذلك بتعيين موظف لكل قرية أو مزرعة يسمى « مأمور الاعشار » مهمته مع المختار وهيئته في القرية ايجاد مستودع لتسلم حصة الدولة من الانتاج . وحصة الدولة لاتقتصر على عشر الانتاج الذي اصبح واحدا من ثمانية ، فهناك اثنان من ثمانية يجب أن يسلمهما المزارع والفلاح الى الدولة باسم المبايعة ، عينا مع واحد من ثمانية هو العشر المعروف

كضريبة على الحبوب . ان الدولة تطلب هذا العام ثلاثة اثمان الانتاج من الحبوب تستلمها حبوبا ، وتدفع ثمن الثمنين بالعملة الورقية ، وبالسعر الذي تحدده هي ، وهو ثمن بخس ، لا يختلف عن النهب والسلب بالنسبة لاسعار الحبوب الغالية في الحبوب ، واستيفاء ثلاثة اثمان منها للدولة ، بل شهدت بنفسي كيف يقضي الموظف وتسجل عمليات تسلم الحبوب ، ورشمها على البيادر ، ورشمها في المستودعات ثم نقلها الى المستودع العام ، والرشم اداة مستطيلة من خشب حفرت عليها الكتابة حفرا ، اذا ضغطت على كومة من الحبوب ظهر اثر الكتابة بجانب بعضها ، فاذا مست الكومة من قبل انسان او حيوان ظهر اثر المس ، وفرضت الغرامة الكبرى على الفلاحين المتسببين ، ونكبت القرية ، وعوقب المتسبب بسوقه الى المحكمة العسكرية. لقد كتبت لي (اي لكاتب هذه السطور منير الريس) في هذا الصيف مرافقة والدي الى القرى في اللجنة التي عينتها الدولة للمراقبة غربي مدينة حماه ، وشهدت بنفسي كيف كانت الرشوة تلعب دورها لينقذ اصحاب القرى المالكون حبوبهم من براثن الدولة ، وكيف كانت الوف الدنانير الذهبية تدخل جيب رئيس لجنة المراقبة لو انه غض الطرف عن رشوات ماموري الاعشار الذين وكلت دوائر المالية اليهم أمر حفظ الحبوب ، واستيفاء ثلاثة اثمان منها للدولة ، بل شهدت بنفسي كيف يقصى الموظف النزيه النظيف اليد عن القرية ذات الانتاج الضخم ليعين مكانه الموظف المرتشي الذي يعرف كيف يتقاسم مع رؤسائه الرشوة بالذهب الرنان ، واتيح لي في الصيف نفسه ان اعين بالمسابقة كاتبا لاحدى لجان تخمين المحاصيل الصيفية في قرى الجنوب الشرقي من حماه ، براسها السيد احمد الحافظ من موظفي المالية . ولم تكد اللجنة تنتهي من اعمالها في خريف ذلك العام ، حتى وصلت الى مسامع الناس انباء الجبهة التركية في فلسطين ، وانسحاب الجيش التركي مشتتا الى بلاده في آسيا الصغرى .

— ٢ —

واذكر اننا ، كموظفين في ادارة الاعشار ، سارعنا لقبض رواتبنا . وقد بلغ راتبي عن المدة التي قضيتها في لجنة التخمين عشرات الليرات التركية الورقية التي لا تغني ولا تسمن من جوع ، فاستطعنا في آخر لحظة قبل جلاء الموظفين الاتراك عن

حماه ، ان نحصل على امر باعطائنا ما يعادل رواتبنا قمحا بالسعر الرسمي ، وعلمنا ان المحاسب التركي يحزم امتعته في بيته استعدادا للجلاء ، فذهبنا الى بيته بمظاهرة ، وكنت في عداد الوفد الذي دخل البيت لمقابلته ، فحملناه على توقيع اوامر صرف رواتبنا حبوبا بالسعر الرسمي ، وتسلمناها من المستودع العسكري ، فبلغ راتبي اكثر من نصف طن قمحا ، بعته مع تدني اسعار الحبوب ، بسبب شعور الناس بقرب انتهاء الحرب ، بحفنة من الذهب اذكر انها تجاوزت الخمسين ليرة ذهبية ، وانا طالب ثانوية لم اتجاوز السابعة عشرة من عمري الا باربعة اشهر . وافاد والدي ايضا من صرف راتبه بنفس الشكل ، فانفرجت في تلك السنة ازمتنا الخانقة ، وكان لوالدتي ، جزء صغير من راتب أخي ناظم ، الضابط بالجيش التركي ، تستوفي لقاءه مواد اعاشة من مستودعات الجيش بالسعر الرسمي ، ويسمى الراتب المرصود لأسرة الضابط (سبارش) بالتركية وكانت هذه المواد من سمن ولحم وبقول وزيت تساوي في السوق السوداء عشرات امثال ثمنها الرسمي . وفي آخر شهر من حياة الدولة العثمانية في بلادنا ، وخلال انسحاب قواتها من الشام ، ذهبت بنفسي لأوقع شهادة معاملة في شهر ايلول عام ١٩١٨ من الرائد (قولا غاسي) رئيس شعبة التجنيد بصفته المسؤول عن مستودعات الجيش في حماة ، فلم اجده في مكتبه ، وقيل لي انه في منزله ، فقصدت المنزل ، وخدع الحارس التركي بلباس المدرسة الرسمي ، فلم يعترض سبيلي على الباب ، ولما دخلت الغرفة التي كان يجلس فيها الضابط التركي ، وجدته مع اثنين من تجار السمن الحمويين ، الى جانبهما خرجان مليئان بالليرات الذهبية ، والخرج يوضع عادة على الدابة له جانبان لاستيعاب الاشياء ، وبينهما وبين الضابط التركي منصة من الرخام ذات اربع قوائم مغطاة بصفوف من اكداس الليرات الذهبية .

وسالني الضابط بالتركية : « ماذا تريد يا بني ؟ » فقدمت اليه أوراق المعاملة ، وقعها ، وخرجت مذهولا من رؤية عشرات بل مئات الوف الليرات الذهبية تبرق فوق المنصة ، وفي الخرجين ، وفي ايدي التاجرين يعدان المئات منها ، ويرصفانها على المنصة بجانب بعضها بعضا . وقد عرفت في اليوم نفسه بان الاوامر صدرت من قيادة الجيش الى هذا الضابط المشرف على المستودعات باتلاف ما في مستودعاته

من مواد التموين والاعاشة حتى لا تقع بيد جيش العدو الزاحف الى الشمال ، والذي تجاوز دمشق ، بعد ان احتلها ، واصبح في طريقه الى حمص ، وآثر الضابط ان يبيع السمن من مستودعه ، بدلا من ان يتلفه ، ويستأثر بثمنه ، بسبب فوضى انهيار الجبهة والانسحاب من البلاد العربية ، فدعا اثنين من تجار السمن ، ولعلهما من المقاولين الذين كانوا يوردون السمن لمستودعات الجيش وفاوضهما على ثمن فيه الربح الكثير لهما وباعهما مستودع السمن ، ونقلا ما فيه فورا الى مستودع يخصهما . وقد خرج رئيس التجنيد هذا من حماة بقناطير من الذهب ، لا اعلم كيف استطاع نقلها وتهريبها .

وكم نقل غيره من الضباط والموظفين الاتراك الذين كانت بأيديهم خزائن الجيش ومستودعاته وخزائن الدولة من صناديق الذهب والفضة ، ومنهم من نجا بالغنيمة ، ومنهم من فقدها اثناء هجمات القرويين على القطر التي كانت تقل المنسحبين من الجيش التركي ، وخاصة في موقع دمر ، وسرغايا ، وبعلبك ، على الخط الحديدي بعد دمشق ، حيث تألفت عصابات تسلحت بأسلحة الجيش التركي المهزوم ، واخذت تهاجم القطر ، وتسلب ما فيها ، وتستأثر بالاسلحة والاموال . وقد خاضت هذه العصابات معارك مع شراذم الجيش التركي المنسحبة افنوا فيها العديد منهـا ، وغنموا الكثير من الذهب والفضة والحلي والمجوهرات ، لان الذهب التركي كان اكثره تدفق في الحرب الى البلاد العربية لشراء السمن واللحوم ومواد التموين الاخرى ، فقد كان الاعراب والفلاحون لا يقيمون وزنا للعملة الورقية ، اذ لم يألفوا التداول بها ، واضربوا عن التداول بها ، عندما اخذت تتدهور قيمتها ، لذلك كانت الدولة العثمانية مضطرة لشراء مواد التموين والاعاشة بالذهب والفضة فارسلت المخزون والجديد الذي سكته كله الى البلاد العربية .

— ٣ —

لقد نوعت الدولة التركية ، خلال سنوات الحرب ، الاساليب في الاستيلاء على انتاج الحبوب من الفلاحين والمزارعين اصحاب الارض ، اذ انها كانت قبل الحرب تعتمد في ديار الشام على طرح الضريبة العشرية ، او ضريبة الاعشار على الحبوب ،

في المزايدة . تطرح اعشار كل قرية على حده فيتقدم الملتزمون او المتعهدون القادرون على اداء سلفة او كفالة مالية للمزايدة على ضريبة القرية ، وبيادرها وانتاجها اشهرا باسم استيفاء ثمن الانتاج ، اي استيفاء واحد من ثمانية اجزاء من الانتاج ، وعلى المتعهد لقاء ذلك ان يسدد المبلغ الذي رسا عليه في المزايدة نقدا الى خزينة الدولة .
وكان هؤلاء الملتزمون يرتكبون اعمالا مخزية ، ويسومون الفلاحين سوء العذاب حتى يستوفوا نصيبهم واكثر من نصيبهم باسم ضريبة العشر . وكثيرون منهم لا يؤدون ما عليهم للخزينة ، واذا لاحقت الدولة كفلاءهم قبل ان تحصل على حقها منهم ، فهم يتلاعبون بالكفالات ، ويغشون ، او ان تكون العقارات المرهونة للكفالة ملكا لاقطاعي في المنطقة لا يجرؤ احد على شرائها ، فيما اذا حجزتها الدولة ، وطرحتها في السوق للبيع . لذلك لجات الدولة في موسمي السنة الاولى والثانية من الحرب الكونية الاولى الى تجربة جديدة هي الاتفاق مع متعهد او ملتزم واحد في كل لواء ، او مع بضعة ملتزمين يؤلفون شركة تتعهد بان تقدم حصة الدولة ، اي ضريبة الدولة ، حبوبا بدلا من المال ، وهي تطلق يدهم في استيفاء الضريبة من المزارعين والفلاحين .
واذكر في صيف السنة الثانية من الحرب ان المتعهدين من آل الاحدب التجار فرضوا حصارا على مدينة حماة كي لا تتهرب الحبوب الى اسواق المدينة وسكانها ، وان والدي كلفني بان اذهب الى قرية الخالدية التي تبعد خمسة او ستة كيلو مترات جنوب غربي المدينة ، واطلب من احمد السلوم مختارها الذي يمت الينا بصلة نسب ان يرسل الينا كيسا من القمح الذي زرعه لحسابنا في ذلك العام في قطعة ارض صغيرة ، كي نرسله الى الطاحون ، فقد نفد الدقيق في بيتنا . ولما وصلت الى القرية قبيل الغروب ، رايت في العودة ان ارافق بنفسي الفلاح الذي سيوفده المختار مع الدابة وكيس القمح ، حتى نجتاز في الظلمة اماكن المراقبة التي اقامها المتعهدون من آل الاحدب ، في مداخل المدينة ، وشغلهم مصادرة كل ما يرد من الحبوب الى المدينة من الريف . ولما انطلقت مع الفلاح مئات الامتار عن القرية ، شاهدنا بعض الفرسان يتجهون نحو الجنوب الغربي من القرية ، وتركض خيولهم خببا في اراضي القرية وكانت الشمس احتجبت وراء الافق الغربي ، واخذ الليل يسدل ستوره على الارض ، فخاف الفلاح ، وتنبا بان الفرسان من البدو او قطاع الطرق المسلحين ، وطلب مني

ان نرجع بحملنا الى القرية ، ولما ابيت ، واصررت على المضي ، تركني وحدي وعاد ركضا الى القرية . وكنت يافعا في الرابعة عشرة من عمري ، لم اعتد في حياتي السير ليلا بمفردي على الدروب في الريف ، ولكنني استشعرت بالخزي أن لا أقوم بالمهمة التي انتدبني ابي اليها ، ورايت الفرسان القلائل يبتعدون ويسيرون في اتجاه غير اتجاهي ، فتقدمت لوحدي اسو قالاتان مستعجلا سيرها نحو حماة ، وكنت أخشى أن ينقلب الحمل الثقيل الى ظهر الدابة ، ويبلغ وزنه مئة وخمسين كيلو . ولفني الليل بظلمته الحالكة ، حتى اصبحت لا استبين من حولي وامامي غير معالم الطريق غير المعبدة ، والتي يحتاج اجتيازها الى ساعة ونصف الساعة على أقل تقدير . وكنت سمعت في صغري الكثير من حكايات الضباع والذئاب الكاسرة تتعرض لابناء السبيل في الليل ، وليس معي غير عود اسوق به الدابة . ثم ساورني الخوف حول منتصف الطريق ، لما طرق مسامعي وقع حوافر جواد يسير خببا ورائي ، ويدنو مني ، ولكنني ثبت جناني ، وتوكلت على الله في امري ، واستسلمت لقضائه ، وتابعت سيري غير ملتفت الى الوراء ، حتى حاذاني الفارس الملثم بلباسه العربي وبندقيته في يديه فحياني بلهجة المدينة ورددت التحية بمثلها ، وتبينني يافعا أسير في ظلمة الليل لوحدي ، في طريق موحشة ليس يطرقها غيري : وسألني : « الى اين ياولد ؟ » قلت دون ان اتوقف عن السير : « الى حماة يا عم » ، قال : « كيف تجرات على السير في هذه الطريق وحدك ، وفي هذه الليلة المظلمة ؟ » قلت : « كان معي في بدء الطريق من الخالدية رفيق فلاح ، خاف خيلكم ، فعاد الى القرية ، وخلفني وحدي ، وابت نفسي أن اتخاذل ، واهلي ينتظرون عودتي هذا المساء ... » قال : « اسرع في سوق دابتك ، ورافقني الى المدينة ، حتى لا يتعرض اليك احد في الطريق » ، فشكرته واخذ يتمهل في سير جواده حتى بانت مصابيح المدينة ، وادرك اننا اشرفنا عليها ، عندئذ حياني ، وانطلق بجواده نحو المدينة ، وغاب عني في حلكة الظلام .

دخلت المدينة ، بعد ان سلكت طريق العربات والمركبات ، اي الطريق الرئيسة بين حمص وحماه ، وكان فرحي عظيما عندما تجاوزت بحملي نقطة الحراسة التي اقامها المتعهدون في مدخل خان الى يسار الطريق من مدخل المدينة . وكنت لمحت اناسا يتراكضون نحو الخان وسمعت اصواتا وضوضاء تصدر عن الخان ، فاسرعت في حث

الدابة على السير ، حتى بلغت المنزل وكم كانت دهشة ابي عظيمة ساعة رآنـي وحدي مع حمل القمح على باب المنزل ، وقصصت على الاسرة قصتي . وفي اليوم الثاني عرف والدي ان الذي نجاني من خفراء المتعهدين بئر في الخان غبت على عامل كـان يحـاول اصلاح مضختها ، تراكم في قعرها غاز الفحم ، فتراكض الخفراء والناس لانتشاله من البئر قبل موته ، وشغلوا بأمره عني ، اذ صادفت انئذ لحظة مروري ، فقلت في نفسي ــ مصائب قوم عند قوم فوائد ــ .

ـ ٤ ـ

ومن طرائف ما وقع صيف عام ١٩١٨ ، اخر اعوام الحرب ، عند تنفيذ قانـون ادارة الاعشار بطريق الامانة ، اي باستيفاء ثلاثة اجزاء من ثمانية اجزاء الانتاج ، عينا وحبوبا ، ومن البيدر مباشرة ، ان شاكر السباعي من اهالي حمص ، كان يافعا في مثل عمري ، يسكن مع أهله بلدة سلمية ، وهي مركز قضاء تابع الى لواء حماة ، كان والده فيها امينا لصندوق المالية ، اي خازنا ، ثم توفي رجلا لم يتقدم به العمر ، عن اسرة عدد افرادها كبير ، واخوه اكبرهم شاكر ، فاستدعاه مدير المال الى مكتبه ، وقال لـه ان المرحوم والده توفاه الله قبل ان تكتمل سنوات احالته الى المعاش ، اي التقاعد وترك للاسرة راتبا ضئيلا ، وانه كرفيق وزميل لوالده راى ان يعينه مامور اعشار في قرية لثريا بك العظم من وجهاء جماه ، تابعة لسلمية ، واوصاه بان ينتبه للتعليمات ، وان يحافظ على حقوق الخزينة وقرأ له الاوامر باحالة المقصرين مـن مامـوري الاعشـار والمتلاعبين الى المحاكم العسكريـة ، وزوده بالتعليمـات والسجلات والاوراق واداة ــ الرشم ــ لصون البيادر ، واكد عليه ان يهيء اول وصوله الى القريـة ، المستودع الذي ستخزن فيه الحبوب حصة الدولة ، وان يكون له قفلان ، كل منهما بمفتاحين ، يحتفظ هو بمفتاح ومختار القرية بمفتاح ، فلا يفتح المستودع الا بحضورهما معا . وتوجه شاكر السباعي على قدميه الى القرية يحمل اوراقه والرشم ، وسأل عندوصوله عن بيت المختار ليحل فيه ، وليشارك المختار مسؤولية العمـل . ويظهـر ان قـرى الاقطاعيين في لواء حماة ، او متصرفيتها ، قل ان تكون فيها هيئات اختيارية صحيحة

فقد كانوا يكتفون باسماء نكرات من الفلاحين ، او باختام لاسماء في قريتهم لا تمارس عملا ، يستخدمها الاقطاعي في تذييل الاوراق والمذكرات الرسمية التي ترد الى القرية واستقبل الحواط ، اي خادم المضافة ، مأمور الاعشار ، وادخله غرفة الضيافة التي اعدها مالك القرية ، والتي يطرقها عادة رجال الدرك ورجال الدولة ، واخذ يهيء لـــه القهوة تكريما ، ويساله ماذا يعد له الطعام ، ولكن شاكر السباعي كان يريد المختـــار ليبلغه التعليمات ، وليهيىء معه المستودع لخزن الحبوب ، ويقوم بمهمته خير قيام حتى لا يعد من المقصرين في اداء الواجب . ولم يمهل الحواط — بتشديد الواو — كي يطبخ القهوة ، واضطره الى ان يذهب الى قصر ثريا بك مالك القرية يستنجد به ، ويسألـــه حلا لمشكلة المختار الذي يعرف الحواط ان لا وجود له في القرية ، الا ان اسمه محفور في الخاتم لدى المالك ، مع اسماء الامام والعضوين في الهيئة واختامهم . وعاد الحواط يبلغ مأمور الاعشار ترحيب ثريا العظم بمقدمه ، ويرجوه ان يرتاح من عناء السفر ،وان يقيم ضيفا معززا مكرما ، فكل شيء سيكون حسب مشيئته واوامره.ولم يجد السباعي الشاب الحريص على تنفيذ اوامر الدولة في هذا الكلام مادة ، فـأعاد الحواط مثنـــى وثلاث ورباع . . . واشتد بالطلب ، وعلا صوته في تقريع الحواط ، مما أزعج البيـــك مالك القرية ، وكان بطبيعته شاذا ، يدمن الخمرة ، كثيرا ما يـــراه الفلاحون يمتطي ، بملابس النوم حافي القدمين ، جوادا دون سرج ، وينطلق بسرعة الريح في اراضي القرية حتى اعتادوا سماع هجر القول واقذع الشتائم منه . ولم ينل الحواط في ذلك اليوم غير الشتائم من سيده ، فقد افسد عليه بذهابه وايابه قيلولته . واخيرا افاق ثريا بك في الاصيل ، وجلس كعادته الى مائدة الخمر في الشرفة التي تطل على اجمل مشهد في القرية ، بمباذله ، وبقميص النوم الابيض ، يجرع الكؤوس فلما انتشى امـــر الحواط الواقف على الباب أن يستدعي اليه مأمور الاعشار من دار الضيافة ، فاسرع شاكر السباعي اليه وجلس محييا بين يديه ، وسرد على مسامعه التعليمات والاوامر المشددة الصادرة من وزارة المالية في استانبول ، وانه يطلب اول ما يطلب المختار وهيئة الاختيار ليبدأ بتنفيذ اوامر الدولة . . واصغى اليه ثريا بك حتى انتهى ، ثم فاجاه بأن كشـــف قميصه عن عورته زاعما انها الهيئة الاختيارية التي يطلب ، فاذا لم تعجبه عليه ان يبلغ ذلك من عينه لهذه الوظيفة . . وبهت السباعي ، وحار في هذه القحة ، ثـــم غادر المكان

مسرعا ، وحمل امتعته من دار الضيافة ، وغادر القرية لا يلوي على شيء حتى بلـغ سلمية ، وقابل في اليوم الثاني مدير المال ، وحدثه بما جرى ، فضحك وقال له : انها غلطتي ... اذ ارسلتك الى قرية من قرى الاقطاع ، فاستعد غدا للسفر الى قرية غيرها يملكها اصحابها الفلاحون ... انك ليس يواجد بينهم مثل ما وجدت في قرية ثريا بك وستجد المختار والهيئة ، وسينصاعون لاوامرك . وطبعا عين بعدها مدير المال مامور اعشار من ذوي الخبرة الى قرية ثريا بك ، يعرف كيف يتفاهم معه .. وقـد اشترك شاكر السباعي بعدها في الثورة السورية ، وقص علينا فيها قصة ثريا العظم معه ..

* * *

الفصل الثاني

الثورة العربية في الحجاز.. أبعادها القومية والاجتماعية

لم تؤد ــ محاولة المؤتمر العربي الاول ــ المنعقد في باريس عام ١٩١٣ الى الغاية المرجوة وهي توحيد القوى الوطنية ، بل جرى العكس اذ اتسعت شقة الخلاف في الرأي حول الموقف من الحكم التركي والاستعمار الاوربي ومستقبل البلاد . وفي هذا الجو المشبع بالانقسامات داخل الحركة العربية والمتميز بالجزر والانحسار الوطني اندلعت الحرب العالمية الامبريالية الاولى هذه الحرب التي وضعت الحركة الوطنية والقومية في بلاد الشام امام ظروف ومهمات جديدة .

كانت الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ ــ ١٩١٨ نتيجة الصراع الدائر بين القوى الامبريالية من اجل اعادة تقسيم مناطق النفوذ في العالم . وقد اتسم النضال بين الكتلتين العسكريتين الامبرياليتين من اجل السيطرة على شرق الوطن العربي باهمية استراتيجية خاصة(١/٨) . وبعد نجاح الديبلوماسية الالمانية في كسب تركيا الى جانبها(٢) . وقع الحلفاء (بريطانيا ــ فرنسا ــ روسيا القيصرية) اتفاقية سايكس بيكو الاستعمارية السرية ، التي قسمت بموجبها البلاد العربية الخاضعة للدولة العثمانية بين الاستعماريين الافرنسي والانكليزي . وفي الوقت نفسه كانت المفاوضات تجري بين الشريف حسين الهاشمي في مكة وسلطات الاحتلال البريطاني في مصر (٣) .

وعلى اثر هذه المفاوضات اعلن الشريف حسين في حزيران ١٩١٦ الثورة على الاتراك وكان لابد لوطنيي بلاد الشام الرازحين تحت نير الاستعباد العثماني ، العدو الاول للحركة الوطنية العربية من تاييد الثورة العربية في الحجاز والاسهام العملي في عملياتها قدر المستطاع .

كانت الثورة العربية في الحجاز — ثورة — الارستقراطية الحجازية ضد التسلط التركي . وهذه الارستقراطية طمحت الى استبدال النير الاقطاعي التركي بالنير الارستقراطي الهاشمي — الحجازي — .

وحتى يكسب الشريف حسين فقراء الحجاز الى جانبه اضطر الى اصدار تشريع يحدد العلاقة بين الدائنين والمدينين . ومن جهة أخرى سعت الارستقراطية الهاشمية الطامحة الى بسط نفوذها على آسيا العربية ، الى التقرب من الحركة العربية المتطورة في بلاد الشام ذات التطلعات البورجوازية . وهذا اللقاء بين الحركة الوطنية المعادية للحكم التركي في بلاد الشام وبين الارستقراطية الحجازية ذات المشارب الاوتوقراطية اسبغ على الثورة العربية صبغة جديدة ، واكسبها طابعا مزدوجا : طابعا تقدميابسبب عداء الثورة للحكم الاقطاعي التركي وتحالفها مع الحركة الوطنية العربية في بلاد الشام وطابعا رجعيا بسبب سيطرة الاوتوقراطية الحجازية المتخلفة على الثورة وعلاقتها بالامبريالية الانكليزية . هذا الطابع المزدوج للثورة العربية في الحجاز اوقع عددا من المؤرخين في تناقض لم يكن بامكانهم حله . فبعضهم لم ير في الثورة الا جانبها الايجابي واطلق عليها اسم — الثورة العربية الكبرى — والاخرون اسدلوا الستار على هذا الجانب وضخموا علاقة الثورة بالاستعمار الانكليزي متجاهلين الظروف ، التي قامت فيها الثورة ووضع الحجاز البشري والمادي والسياسي .

لقد تجاذبت الثورة العربية في الحجاز ثلاثة محاور هي : —

أولا — العقلية الامبريالية البريطانية الساعية لتوجيه رياح الثورة بما يخدم مخططاتها ومصالحها .

ثانيا — العقلية الاوتوقراطية الهاشمية الحالمة في السيطرة على مشرق الوطن العربي واقامة مملكة عربية .

ثالثا — العقلية المتفتحة المتنورة نسبيا للوطنيين السوريين والعراقيين الطامحين الى بناء دولة عربية مستقلة متطورة تسودها العلاقات نصف الاقطاعية البورجوازية . وبما أن الارستقراطية الهاشمية كانت ضعيفة ماديا وعسكريا وسياسيا ومتخلفة فكريا ، فانها لجأت بالدرجة الاولى للاستعانة بالمستعمرين البريطانيين لتحقيق مآربها .

ومع هذا ، فان الثــورة العربية في الحجاز حملت بين طياتها محتوى تاريخيا هاما ، اذ اسهمت في الحــاق الهزيمة العسكرية بالجيوش التركية ـ الالمانية واججت الكره والحقد ضد الاستبداد التركي في صفوف المجندين العرب من الفلاحين وفقراء المدن وشجعتهم على الفرار الجماعي من الجيش العثماني وبث الفوضى في صفوفه (٤).

لقد كان لقيام الثورة العربية في الحجاز ونجاحها النسبي اثر في بعث الثقة في نفوس الوطنيين العرب المثخنين من جراح الارهاب ، واسهم في انتفاضات الفلاحين المستعبدين من الحكم التركي ، وضرائبه غير المحدودة . والواقع ان تمردات الفلاحين بدات قبل قيام الثورة بقليل . ففي صيف /١٩١٦/ تمرد الفلاحون في حوران ضد جمع محاصيل الحبوب منهم وسرقة لقمة عيشهم (٥) .

ومع تقدم الجيوش البريطانية في فلسطين وجيش الثورة العربية في شرق الاردن اتسع نطاق تمرد فلاحي حوران وهجماتهم على مؤخرة الجيوش التركية الالمانية (٦). وفي آذار عام /١٩١٧/ نهض للنضال ضد الاتراك قسم من فلاحي جبال الساحل بقيادة صالح العلي (٧) . وفي ٢٥ ايلول /١٩١٨/ هاجم ٣٠٠ فارس بقيادة سلطان باشا الاطرش المعسكر التركي في بصرى (٨) . وبدا واضحا ان الحكم التركي في بلاد الشام لفظ انفاسه الاخيرة .

* * *

الفصل الثالث

وضع بلاد الشام بعد انهيار الدولة العثمانية

لقد انتهى الى غير رجعة في خريف عام /١٩١٨/ كابوس الحكم العثماني الاقطاعي البغيض واحتلت الجيوش الانكليزية بالتعاون مع قوات الامير فيصل ، وهي سورية الداخلية . بينما قامت القوات الفرنسية بالرغم من احتجاجات الامير فيصل في احتلال المنطقة الساحلية من راس الناقورة حتى الاسكندرية وبدا للعيان ان وضع اتفاقية سايكس — بيكو الاستعمارية السرية التي نشرت نصوصها في اواخر سنة ١٩١٧ الثورة الاشتراكية المظفرة في روسيا ، دخل حيز التطبيق ، حيث قسمت بلاد الشام إلى ثلاث مناطق (٩) .

لقد ايدت الاكثرية الساحقة من جماهير الامة العربية . ولا سيما في المراحل الاخيرة من الحرب النضال المعادي للتسلط الاستبدادي العثماني بأمل التحرر والحصول على الاستقلال . ولكن القضاء على الدولة العثمانية وانتصار الحلفاء لم يؤد الا الى استبدال النير الاقطاعي التركي بالنيرين الاستعماريين البريطاني والفرنسي . ومع هذا فان انهيار الدولة العثمانية وزوال الحكم الاقطاعي التركي كان حدثا تاريخيا هاما وخطوة اجتماعية الى الامام . حررت قوى وطنية جبارة من الفلاحين وجماهير المدن الفقيرة المضللة بشعارات الطبقة الحاكمة التركية ، لقد نشط انهيار الدولة العثمانية الحركة الجماهيرية واكسب حركة الاستقلال العربي صفاء وقوة لم تعهدهما من قبل ، كما قلب تدريجيا ميزان القوى داخل حركة التحرر العربي لصالح الجماهير الكادحة ، اي ان حركة التحرر العربي اخذت نتيجة اشتراك الجماهير النشيط فيها ، تتجه رويدا نحو اليسار ، في حين اخذ يمين الحركة يساوم الاستعمار او يعقد

الصفقات معه وفي كثير من الاحيان يرتمي في احضانه مستسلما هانئا بدفء التربع على كراسي الحكم المزيفة المحروسة بحراب جنود الاحتلال .

ولكن حركة التحرر الوطني العربية في بلاد الشام والعراق لم تصل الى هذه النتيجة بفضل انهيار الدولة العثمانية فحسب ، بل ان هنالك عوامل عديدة اثرت في مجرى تطور حركة التحرر العربي،وكان لهذه العوامل متضافرة الاثرالفعال فيالنمو المطرد لحركة التحرر العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى سنة /١٩١٨/ .

من مميزات الوضع في بلاد الشام في اعقاب الحرب العالمية الاولى :

١ ـ عودة الغزو الاستعماري الافرنسي ، الثقافي والاقتصادي بعد ان توقف طوال ايام الحرب مدعما هذه المرة بجيوش الاحتلال .

٢ ـ نشاط الصهيونية العالمية وازدياد محاولاتها الرامية الى السيطرة على فلسطين العربية وتقديم خدماتها للاستعمار البريطاني بعد ان كانت حتى وقت قريب تقوم بخدمة الاستعمار الالماني المنهار .

٣ ـ زوال نفوذ الاستعمار الالماني في الشرق وانهيار مشاريع خط حديد برلين ـ بغداد .

٤ ـ ازدياد ترسخ مواقع الاستعمار البريطانيالاقتصادية والسياسية والثقافية، وسيطرة جيوش الاحتلال البريطاني على اجزاء شاسعة من الوطن العربي امتدت من مصر حتى العراق .

٥ ـ بدء تضارب المصالح الاستعمارية الانكليزية والافرنسية بعد زوال خطر الاستعمار الالماني ودخول الدولتين الاستعماريتين في صراع حاد احيانا من اجلتقسيم مناطق النفوذ ولجوؤهما الى المصالحة عندما تهدد حركة التحرر في الشرق مصالحهما احيانا اخرى .

٦ ـ تزايد احلام الدبلوماسية الامريكيةفيالسيطرة على الشرق، ولكن الاحتكارات الامريكية لم تكن بعد الحرب العالمية الاولى من القوة الى درجة تمكنها من ازاحة نفوذ الاستعمارين الفرنسي والبريطاني في الشرق او ، على الاقل ، تهدد مصالحهما .

ولذلك فان الدبلوماسية الاميركية سعت الى كسب ود البرجوازية العربية وعقدت الامال عليها ووثقت احسن الصلات بها . ودل ذلك على قوة بصيرة الدبلوماسية الاميركية التي اكتشفت ان مستقبل ما بعد الحرب هو للبرجوازية وليس للاقطاعية حليفة الاستعمار الانكليزي (١٠) .

٧ ــ محاولة الاحتكارات الدبلوماسية الايطالية ، مثل الاميركية استغلال النضال الوطني لمصلحتها ، والحصول على بعض المواقع في بلاد الشام ، ولكن الاحتكارات الايطالية كانت بعد الحرب الاولى ضعيفة الى درجة لا تمكنها من منافسة الاستعمارين الافرنسي والانكليزي .

٨ ــ اثر ثورة اكتوبر الاشتراكية على سير التاريخ العالمي وحركة التحرر الوطني والقومي . وبدء انهيار النظام الامبريالي العالمي . بالرغم من انتصار الاستعماريين الانكليزي والفرنسي في الحرب . ومع ان الاتحاد السوفياتي كان في الفترة الاولى التي اعقبت الحرب منهمكا في مشكلاته الداخلية وفي دحر الثورة المضادة ورد غزوات المعتدين الامبرياليين الهادفين للقضاء على اول دولة اشتراكية اقامها العمال والفلاحون ، فان تأثير الاتحاد السوفياتي في بلادنا ظهر في ذلك الوقت بشكل جلي عن طريق نشره للاتفاقية السرية الاستعمارية وعلى راسها اتفاقية سايكس ــ بيكو (١١) . لكن الاتحاد السوفياتي لم يكن بامكانه في ذلك الوقت تقديم المعونة المادية الى حركة التحرر العربية او ارسال السلاح الى فصائلها المقاتلة .

هذه هي اهم الظروف الدولية التي اثرت في مجرى تطور الحركة العربية في اعقاب الحرب العالمية الاولى . ولكن ثمة ظروفا داخلية كان لها في الواقع التاثير الحاسم في بعث وانطلاق الحركة الوطنية والقومية وبلورة مطالبها واهدافها المختلفة.

فقد عاشت الحركة الوطنية العربية بعد نهاية الحرب العالمية الاولى في ظروف جديدة كل الجدة وبدات تعيش في مرحلة جديدة ايضا . فقد كان الهدف الاول

والشاغل الرئيسي للحركة الوطنية قبل عام /١٩١٨/ النضال ضد الحكم العثماني والظفر بالحكم اللامركزي او الحصول على الاستقلال التام بينما اصبح هدف الحركة الوطنية العربية بعد الحرب طرد المستعمرين الغزاة وتأسيس دولة وطنية مستقلة .

كما كانت الدعوة الى توحيد بعض اجزاء الوطن العربي (الذي ازداد تجزؤه بعد الحرب) في مقدمة مطالب الحركة الوطنية في سنوات ما بعد الحرب العالمية الاولى .

* * *

الفصل الرابع

الدولة الوطنية العربية ١٩١٨ـ ١٩٢٠

قواها الاجتماعية ، مؤسساتها ، احداثها وعوامل انهيارها

كانت احدى نتائج الثورة العربية في الحجاز تمكن الحركة الوطنية العربية من اقامة اول دولة وطنية عربية في العصر الحديث في سوريا الداخلية تحت قيادة الملك فيصل ، قائد جيش الشمال للثورة العربية الزاحف من الحجاز عن طريق العقبة وشرق الاردن الى دمشق .. هل كان بالامكان بقاء هذه الدولة واستمرارها ؟ .. هذا مانعالجه في هذا الفصل واضعين نصب اعيننا نسبة القوى الطبقية داخل المجتمع ومستوى تطور القوى المنتجة والاوضاع السياسية في الاقطار العربية المجاورة والغزو الامبريالي والوضع الدولي عامة ، مبتدئين بسياسة الحكومة العربية الزراعية .

١ ـ السياسة الزراعية للحكومة العربية (١٩١٨ـ١٩٢٠) :

الفقرات التالية ماخوذة مع بعض التصرف من كتاب « الحكومة العربية في دمشق ١٩١٨ـ ١٩٢٠ » لخيرية قاسمية ، طبع القاهرة ١٩٧١ .

والفقرات التالية تقدم لنا صورة عامة عن سياسة الحكومة العربية في فترة قصيرة لا يمكن الحكم من خلالها على سياسة الدولة ازاء المسألة الزراعية ، وان كانت تقدم المعطيات ، التي حددتها نسبة القوى الطبقية آنذاك ..

من اجل سد نفقات الجيش والدرك اضطرت الحكومة الفيصلية الى زيادة بعض الاضافات المؤقتة على بعض الضرائب التي الغيت عام /١٩١٩/ . فاضيف ٥٠٪ الى رسوم الانعام والابل ، كما تضاعفت اثمان الطوابع الحجازية .

وصدر في ابريل (نيسان) ١٩٢٠ قانون رسوم بلدية العاصمة عن الاموال المنقولة وغير المنقولة وفي اوائل مايو (ايار) عام /١٩٢٠/ وضعت ضريبة الاستهلاك الداخلي على الكبريت والتبغ واضيفت زيادات على الرسوم البريدية والبرقية والتليفونية .

كما صدر في اوائل يونيو (حزيران رسم الاصدار على جميع الحاصلات الارضية والحيوانات والصوف والسمن) التي تنقل الى خارج المنطقة الشرقية . يضاف الى ذلك ما اقتضاه تطبيق قانون النقد السوري من زيادة في الضرائب : اذ ان الضريبة التي كانت تجبى ورقا مصريا اصبحت تجبى على اساس الذهب باعتبار كل /١٠٠/ قرش مصري ما يعادل ١٢٨ قرشا سوريا .

وبسبب التذمر الذي نجم عن هذه الزيادات اصدرت الحكومة بيانا لتبرير سياستها انتهى الى القول بأننا لو قارنا مجموع الضرائب بالنسبة الى عدد السكان لوجدنا انها لم تبلغ ما بلغته في الدول الكبرى .. ولولا الازمة الاقتصادية الحاضرة المسببة الى العراقيل التجارية التي ولدتها الظروف والاحوال السياسية ، لكانت تكاليف المواطنين ضعيفة جدا بالنسبة الى درجة تحملها . ولكن هذا الضيق الاقتصادي وكساد التجارة ووقوف الاعمال يجعلنا نرقب كل وسيلة لانقاص النفقات واجتناب الضرائب الجديدة ولقد لجأت الحكومة ، لتلافي العجز المالي ، الى اصدار قانون القرض السوري بمبلغ ١/٢ مليون دينار وبفائدة /٦٪ لمدة ٢٤ عاما ، مع رهن مليون دونم من اراضي الدولة العامرة على راسمال هذا القرض ، بحيث يرهن مقابل الدينار الواحد ٤ دونمات من الارض . ويعطى الدائنون اسنادا مؤقتة حتى اذا انتهت مدة الاكتتاب (اول يونيو « حزيران » ــ اخر اغسطس «اب») تبدل بالاسناد الاصلية الموقعة من وزارة المالية . واذا لم تقم الحكومة بتعهداتها يحق لحامل السند ان يطلب بيع ما يقابل قيمة سنده من اراضي الدولة لاستيفاء دينه .

وقد نشرت منذ اول يوليو (حزيران) اسماء القرى والمزارع المرهونة اراضيها تامينا للقرض الوطني مع ذكر مساحة كل منها وبيان دخلها السنوي . ولكن الظروف السياسية حالت دون تنفيذ القانون .

لم تحل الازمة المالية دون التفكير في العمل على تحسين اوضاع الحياة الاقتصادية وزيادة الانتاج والثروة العامة وتخفيف وطأة الغلاء .

وقد وضعت خطة لتنمية الزراعة وخاصة ان سورية هي بلد زراعي قبل كل شيء و ٦٢٪ من سكانها يعتمدون في معيشتهم على الزراعة. فقرر مجلس الشورى في ٢٠/ فبراير (شباط) ١٩١٩ ان تؤلف في العاصمة « لجنة زراعية » من رئيس وستة اعضاء من اصحاب الاراضي الذين لهم معرفة باصول الزراعة الحديثة واحتياجات الزراع (ويرجح المتخرجون من المدارس الزراعية) على ان ترتبط اللجنة بالحاكم العسكري . ومهمتها دراسة احوال البلاد الطبيعية وتقسيم اراضيها الى درجات وتنظيم جداول مفصلة بذلك حتى يكون ذلك اساسا لوضع الضرائب عليها في المستقبل ، ووضع خرائط مفصلة لكل قرية مع بيان الحدود . ومعرفة ما يناسب كل اقليم من المزروعات والاشجار ، واستجلاب الفراس ، والالات الزراعية من اوربا وبيعها للزراع بأثمان معقولة . وفتح شعب لتصليح الالات وايجاد موظفين لتعليم الزراع طريقة استعمالها . وما يناسب تربيتهم من مزروعات واسمدة ، ومقاومة الحيوانات الضارة وارشادهم لطرق اتلافها ، وتعليمهم اصول تربية المواشي على الطرق الحديثة وطريقة تحضير الزيت والحليب بالالات الحديثة ، وتعليمهم ما يلزم من الطب البيطري . والسعي بواسطة مهندسين اخصائيين لدرس احوال البلاد الجيولوجية . واستخراج ينابيع جديدة وفتح ابار ارتوازية وتسهيل اسباب الري . والحث على الاكثار من غرس الغابات وتطعيم الاشجار والتنشيط على انشاء الشركات الزراعية ومساعدتها بالمال . واحداث نقابات للزراع في كل قرية أو قرى مجتمعة لشراء المحصولات وبيعها واعداد ما يلزم من البذور والحاجيات التجارية وتقديمها بأسعار معتدلة . على ان تؤسس على طريقة الشركات المساهمة وتكون أرباحها عائدة للزراع انفسهم على نسبة اسهامهم ولا يعطى للمؤسسين اكثر من ٢٠٪ من الارباح ،وايجاد حقول نموذجية لتعليم الزراع العلم الزراعي التطبيقي وطريقة استعمال الالات .

وتستعين بلجنة من مديرية المعارف، ومن المهندسين الاختصاصيين .. ولما كان لايوجد في ميزانية الزراعة مايساعد على تطبيق جميع المواد المذكورة. فقد استنسب المجلس توديعها الى مديرية الزراعة لعمل ما يمكن عمله وتاجيل ما لايمكن الى أن تسمح الظروف بتطبيقه .

وقد بدات تظهر بعض النتائج الايجابية فتاسست شركة الزراعة الحلبية ومركزها في حلب ولها شعب في الاقضية براسمال ....ر١٠٠ جنيه مصري لاجراء بعض المشروعات الزراعية على اصول الفن الحديث ومشترى قرى واراض وبساتين وكروم أو استئجارها باسم الشركة . وجلب ادوات زراعية واسمدة وبيعها على الفلاحين .. مع تاسيس شعبة استشارات زراعية لافادة المزارعين والفلاحين بامور الزراعة وانشاء مجلة زراعية في حلب .. وقد منح الامتياز للشركة في /٢٤/ مارس (اذار) ١٩١٩ على ان تجلب الالات الزراعية التي يحتاج اليها الزراع بفائدة /١٠٪/ مستثناة من الجمارك .

هذه الاجراءات ، التي لم تكتب لها الحياة بسبب قصر عمر الدولة الوطنية العربية ، دلت على ان بذور التفكير الراسمالي كانت منتشرة وبخاصة في مدينة حلب العاصمة الاقتصادية لشمال بلاد الشام وجنوب الاناضول ايام الدولة العثمانية . وهذه الاجراءات تشير الى أن الدوائر التجارية في حلب كانت تسعى منذ وقت بعيد لنشر العلاقات الراسمالية في الزراعة ولم تستطع ان تحقق نسبيا مسعاها الا بعد الحرب العالمية الثانية في عهد الاستقلال وحكم البورجوازية الوطنية .

وفي تلك الفترة (١٩١٨ــ١٩٢٠) عزمت غرفة التجارة في حلب كذلك على القيام باصلاحات زراعية مستعينة باصحاب الاموال من التجار والزراع لغرس النباتات والاشجار المفيدة ، وخاصة التوت ، وتربية دودة القز ، واصلاح الحيوانات الاهلية وتكثيرها وعمل المحفوظات الغذائية .. واستعمال السماد الصناعي وتعميم استعمال الالات الحديثة .

وقد سعت الحكومة الى فتح مدارس زراعية لتعليم الفنون الزراعية . فتقرر في

يناير (كانون الثاني) ١٩١٠ اتخاذ الثكنة الموجودة في درعا مدرسة للزراعة وصرف مبلغ /٥٠٠/ جنيه لتعميرها .

كما تقرر في سبتمبر (ايلول) افتتاح مدرسة السلمية الزراعية على ان تكون بدرجة اعدادية ومدة الدراسة فيها ٤ سنوات ويقبل فيها التلاميذ داخليين وخارجيين، على أن يقبل منهم /٥٠/ تلميذا مجانا يرجحون من ابناء الزراع الفقراء وقد خصص للمدرسة مبلغ ١٥٠٠ جنيه والحقت بميزانية الزراعة والحراج ، وقد تم افتتاح المدرسة في ١٥ اكتوبر (تشرين اول) وكانت تحوي /١٠٠٠/ دونم من الاراضي الجيدة خصص نصفها لنباتات الدورة الزراعية كالحبوب ونصفها للبساتين والكروم وحقول التجارب ثم ابنية الطلبة والاساتذة وغرف الادوات الفنية والمستودعات .

ومن اجل تشجيع الفلاحين على الزراعة تقرر في نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩١٨ اعادة افتتاح المصرف الزراعي في دمشق وبفروعه المختلفة في المراكز ، وربطه برياسة المالية ، وبدأ الفلاحون بالاستقراض من صناديق المصرف الزراعي لقاء رهن اموالهم غير المنقولة .

وصدرت في /١٠/ يونيو (حزيران) ١٩٢٠ ارادة ملكية بتاسيس غرف زراعية في العاصمة وفي كل مراكز الولايات والاقضية مكلفة بكل ما من شانه رقي الزراعة واصلاح جميع انواع الحبوب والنباتات والاثمار والحيوانات الاهلية ، واعلام الوزارة عما يناسب الزراعة والمواد التي ينبغي اعتمادها محليا ، وحث الاهالي على تأسيس شركات ومعارض ومدارس زراعية وجلب الادوات الزراعية الحديثة والاستفادة من المصارف الزراعية وترقية المصانع الزراعية ونشر المحلات الزراعية ، وتأسيس شركات للتعاون الزراعي وابداء الاراء حول تجفيف المستنقعات وارواء الاراضي .. وقد تقرر ان يجتمع اعضاء الغرف مرة كل اسبوع على أن تعقد الغرف اجتماعات متوالية في شهر يناير (كانون الثاني) من كل سنة لوضع جدول سنوي بما قامت به من اعمال ومساع زراعية ، على ان ترفع تقريرها الى وزارة الزراعة .. ولكن هذه الاجراءات لم تنفذ ، بسبب الاحتلال الفرنسي لسورية الداخلية في تموز ١٩٢٠.

٢ ـ نسبة القوى الطبقية ايام الدولة العربية :

اتى في طليعة الظروف الداخلية ، التي رافقت تأسيس الدولة العربية الوطنية

(١٩١٨ــ١٩٢٠) وضع وتنظيم القوى الطبقية في سورية واستقصاء ظواهر النضال المحتوم من أجل السلطة بين القوى الاقطاعية والبرجوازية الشابة .

وقف في البدء قسم كبير من الاقطاعيين ضد الاحتلال الفرنسي ، وقاد بعض الاقطاعيين النضال ضد الاحتلال الاستعماري (١٢) . ويرجع السبب في ذلك الى خوف الاقطاعية السورية من قيام ــ جنود الثورة الفرنسية ــ بتوزيع الاراضي على الفلاحين كما جرى في فرنسا . ولكن السلطات الاستعمارية الافرنسية (١٣) سرعان ما قدمت الضمانات للاقطاعية وبرهنت لها ان ــ جيوش الشرق ــ لم تعد الوارث للتقاليد المجيدة لجنود الثورة البرجوازية الديمقراطية الفرنسية بل هم جنود الاستعمار والامبريالية ، جنود كل حركة رجعية ومتخلفة . وهكذا اخذت القوى الاقطاعية التي وقفت في البدء ضد الاحتلال الافرنسي تنتقل تدريجيا الى شريك للاستعمار في استثمار الجماهير الشعبية ولا سيما الفلاحين . وتحولت الى خادم مطيع ينفذ ما يؤمر به ويعيش على فتات مائدة النهب الاستعماري . وقد ساعد تخلف الجماهير الفلاحية وفقرها الشديد وجهلها الفظيع ، الاقطاعيين في حرية المناورة والمساومة وفي مقاومة كل حركة جماهيرية فلاحية تنادي بشعارات اجتماعية أو وطنية .

هكذا كان موقف الاقطاعية اما البورجوازية التجارية ، التي تمركزت في دمشق ، وحلب فقد شاركت في قيادة الحركة الوطنية .. وعلى الرغم من ضعفها الاقتصادي الشديد فان أمالها ومطامحها لم يكن لها حدود وعلى هذا الاساس دخلت معترك النضال من أجل استقلال سورية ومن أجل توحيد القوى الوطنية المختلفة . وسعت للحد من نفوذ القوى الاقطاعية ، المستعدة للمساومة مع الاستعمار داخل الحركة الوطنية والى اضعاف سيطرتها على أجهزة الدولة الناشئة . وكان للبرجوازية التجارية مصلحة في توحيد اجزاء سورية الشمالية (سورية ولبنان) وسورية الجنوبية (فلسطين) وشرقي الاردن وخلق سوق وطنية موحدة . تستطيع الوقوف أمام النهب الاستعماري الانكليزي والافرنسي .

كان المثقفون من طلاب ومعلمين واطباء ومحامين وهم ينحدرون بغالبيتهم من الطبقة البرجوازية ، من انشط القوى الوطنية وأكثرها حركة واقلها ميلا للمساومة

والتراجع امام المستعمرين . كما قام الضباط العرب الذين خدموا في الجيش التركي سابقا بدور ملحوظ .

ومع ان قيادة الحركة الوطنية تمركزت في ايدي البرجوازية الناشئة وبعض أقسام الاقطاعية فان القوى الاساسية للحركة تالفت من جماهير المدن والفلاحين . ولا يخفى ان النضال المسلح الذي قاده الاقطاعيون الكبار والصغار تالف بسداه ولحمته من الجماهير الفلاحية الحاقدة على احتلال الغزاة والحالمة بتحسين اوضاعها المعاشية

اما في لبنان فقد ساندت الفئات العليا فيه من كبار الملاك وبرجوازية الكومبرادور المتمركزة في بيروت الغزو الاستعماري الفرنسي وسعت لتوطيد اركانه من طريق استغلال المشاعر الدينية وتأجيج النعرات الطائفية لصرف الجماهير الشعبية عن النضال الوطني .

وبالرغم من قوة العناصر الموالية للاستعمار الافرنسي او المخدوعة به ، فقد وجدت في أعقاب الحرب ثلاث قوى معادية للاستعمار الافرنسي وهي :

١ ـ المثقفون المتاثرون بافكار النهضة العربية في القرن التاسع عشر (١٤) .
٢ ـ موظفو العهد العثماني الذين خافوا ان يجردهم الحكم الجديد امتيازاتهم . ولكنهم كانوا على استعداد للمساومة ، وهذا ماحدث فيما بعد، والسير معالاستعمار الفرنسي فيما اذا ضمنت مصالحهم (١٥) .

٣ ـ قسم ضئيل من البرجوازية البيروتية اللبنانية المرتبط بالاقتصاد المحلي ، وله مصلحة في توثيق العلاقات مع سورية الداخلية وتوسيع أعماله التجارية (١٦) .

هذه القوى هي التي ارسلت باسم « مجلس ادارة لبنان » في حزيران سنة ١٩٢٠ مذكرة الى عصبة الامم المتحدة طالبت فيها باستقلال لبنان وانضمامه الى سورية (١٧)

ومع ان القوى الاجتماعية المعادية للاستعمار في اعقاب الحرب العالمية الاولى لم تكن ضعيفة الا ان انقسامها وتفككها وعدم استطاعة اية قوة اجتماعية قيادة الحركة الوطنية ، والتبعثر المكاني لهذه القوى واختلاف اهدافها وتطلعاتها والتناقضات داخل الحركة الوطنية ، وموقف فيصل الخائف المتأرجح والفاقد الامل بالشعب

كل هذه العوامل ادت الى ضعف الحركة الوطنية والقومية وسهلت على المستعمرين انزال الضربات المتتابعة بالحركة الوطنية والقضاء على مواقعها الواحد تلو الآخر .

٣ ـ اهم الاحداث التي عاشتها الدولة العربية السورية :

كان الهدف الستراتيجي الرئيسي للمستعمرين القضاء على مركز الحركةالوطنية في دمشق وتصفية الدولة العربية الفتية قبل ان يصلب عودها وتنمو اغصانها وتقطف ثمارها .

عاشت الدولة العربية السورية ، التي ضمت المدن الداخلية الكبرى دمشق ـ حمص ـ حماه ـ حلب من تشرين الاول /١٩١٨/ الى تموز /١٩٢٠/ ومرت في عدة مراحل متداخلة . فبعد دخول فيصل الى دمشق واعلن في /٥/ تشرين الاول/١٩١٨/ تاسيس الحكومة العربية المستقلة الدستورية باسم « سيدنا السلطان امير المؤمنين الشريف حسين » (١٨)، وفيما بعد اعلن فيصل قيام الادارة العربية المستقلة في دمشق في ١٩١٩/١٠/٥ وتحت ظل هذه الادارة اخذت تتكون وتظهر مؤسسات الدولة العربية السورية(١٩) .

في /٧/ حزيران سنة /١٩١٩/ التام عقد المؤتمر السوري المنتخب وفق قانون مجلس المبعوثان العثماني ، ليكون بمثابة هيئة برلمانية تمثيلية ومجلس تاسيسي(٢٠) . وقد كان لانعقاد المؤتمر السوري اثر هام في تطور الحياة الديمقراطية البرلمانية في القطر العربي السوري .

ان دعوة المؤتمر السوري للانعقاد كانت نتيجة للتقاليد العريقة في تاريخنا العربي التي تدعو الى الشورى ، ومظهرا من مظاهر التاثر بالحركة الديمقراطية البرجوازية الاوروبية ، واثرا من اثار الرواد العرب الاوائل في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الذين رسخوا مفاهيم الحرية والديمقراطية .

تالف التركيب الطبقي للمؤتمر السوري(٢١) من اكثرية اقطاعية تمثل كبار وصغار ملاك الاراضي ، الذين كانوا في غالبيتهم معادين للاحتلال الفرنسي لاسيما في سنة

/١٩١٩/ كما وجد بعض ممثلي البرجوازية التجارية وعدد من المثقفين الوطنيين البرجوازيين الذين قاموا رغم قلتهم بدور هام في توجيه المؤتمر وتحويله الى هيئة معادية للاستعمار رافضة للمساومة أو للحلول الاستسلامية معتمدين في ذلك على جماهير المدن ولاسيما جماهير دمشق .

وبعد انعقاد المؤتمر السوري في صيف /١٩١٩/ دخلت الدولة الوطنية العربية السورية مرحلة تمتين وضعها الداخلي الجماهيري واتخاذ بعض المواقع الهجومية ضد المستعمرين .

فمع المد الجماهيري الوطني في خريف /١٩١٩/ انتظمت الجماهير الشعبية في « لجنة الدفاع الوطني »(٢٢) بقيادة البرجوازية التجارية الدمشقية ، التي وقفت في تلك الايام ضد الاستعمار وادانت سياسة المصالحة المتبعة من قبل الملك فيصل .

وكانت البرجوازية الدمشقية الطامحة في بناء دولتها المستقلة ذات السوق الواحدة الممتدة من طوروس حتى العقبة مرورا باللاذقية وبيروت وحيفا ، غير راضية عن ازدياد نفوذ الاقطاعيين ورؤساء العشائر والارستقراطية الحجازية في جهاز الدولة . ولم تكن « لجنة الدفاع الوطني » الا الاداة الفعالة المنظمة لجماهير دمشق بقيادة برجوازيتها ضد الاحتلال الاستعماري وفي سبيل السيطرة على المراكز الحساسة في الدولة الناشئة . والحد ما أمكن من نفوذ الاقطاعية ، وقد انعكس هذا الصراع على « مجلس المدراء العامين » الذي كان بمثابة مجلس الوزراء تقريبا .

اتسمت الاشهر الاخيرة من عام /١٩١٩/ واوائل عام /١٩٢٠/ بالنهوض الشعبي وبازدياد الوعي الوطني وانتشار روح المقاومة والكفاحين المسلح والسلمي ، بينما تميزت الفترة السابقة لهذه الفترة والممتدة من تشرين الثاني /١٩١٨/ الى صيف /١٩١٩/ بالهدوء النسبي والانتظار . وبالرغم من نقمة الجماهير العربية على اتفاقية سايكس بيكو ، وعلى وعد بلفور واحتلال بلاد الشام وتقسيمها بين المستعمرين الانكليز والافرنسيين ، فان الاهداف والمطامع الاستعمارية العدوانية كانت لا تزال محجوبة عن انظار القسم الاكبر من الشعب العربي . فالسياسة الاستعمارية الافرنسية والانكليزية المخادعة والبيانات البراقة والوعود المعسولة اسهمت في تخدير الشعب

وجعله يعيش في دوامة الوعود وعلى امل الزيارات التي يقوم بها فيصل الى اوروبا .

ومع نهاية عام /١٩١٩/ واطلالة عام /١٩٢٠/ انهارت الاقنعة الاستعمارية تباعا وتبين للشعب ان مؤتمر الصلح ومبادىء الرئيس الاميركي ولسن ولجنة كينغ كراين الاميركية لن تجلب للبلاد الاستقلال والاستقرار المنشود . وقد ادت الحادثات الامبريالية الافرنسية ـ الانكليزية في ١٥ ايلول ١٩١٩ الى كشف الاهداف الحقيقية للاستعمار بشكل ملحوظ في خريف ١٩١٩ كما ازدادت شعبية الافكار الداعية الى الكفاح المسلح والى اشعال نار الثورات في كل مكان تطاه قدم المستعمر الدخيل.

وهكذا شهدت المنطقة الغربية ، منطقة الاحتلال الفرنسي وكذلك منطقة دير الزور ، المحتلة من الجيش الانكليزي سلسلة من الانتفاضات والثورات سداها ولحمتها الجماهير الفلاحية ، المدعومة من برجوازية المدن ومن انصار الكفاح المسلح داخل جهاز الدولة العربية . لقد حمل الفلاحون في الفترة الاولى من الاحتلال الاستعماري الفرنسي العبء الاكبر من النضال الوطني . وكانت حركات الفلاحين المسلحة المعادية للاستعمار في جبال العلويين (١٩١٩ ـ ١٩٢١) دليلا على الطاقات الكفاحية المخزونة لدى جماهير الريف . ثم اندلعت انتفاضات فلاحية اخرى معادية للاستعمار الافرنسي في تلكلخ (كانون الاول ١٩١٩) وجبل عامل (كانون الاول ١٩١٩) والحولة والبقاع (٢٣) . وتميزت انتفاضة دير الزور بأنها كانت معادية للانكليز المسيطرين على المنطقة آنذاك(٢٤) .

أما فيصل فقد وقف ضد معظم هذه الحركات واحيانا اتخذ منها موقفا «حياديا» بالرغم من انه حاول الاستفادة منها للضغط على المستعمرين واخافتهم والحصول على بعض المكاسب .

وقد ادى موقف فيصل المعادي او غير المؤيد للنضال المسلح ضد المستعمرين الى بداية الخلاف بينه وبين بعض اقسام الحركة الوطنية البرجوازية التجارية ومثقفيها . ولهذا فان القوة الشعبية للملك فيصل اخذت في الهبوط التدريجي اعتبارا من خريف /١٩١٩/ .

لقد كان بامكان فيصل أن يلعب دورا وطنيا هاما ، لو انه تراس الحركات

الجماهيريـــة المعاديـــة للاستعمار في الريف والمدينة . وكان بامكانـــه ان يقوم بنفس الدور الذي قام به مصطفى كمال في تركيـــا . ولكن البيئة الطبقيـــة الارستقراطيـــة التي نشأ فيصل فيها وظروف تربيته لم تكونا تسمحان له بالسير اكثر مما سار في مقارعـــة الاستعمار وتأييد الحركة الشعبية .

ومـــن المعروف عن فيصل خوفه الشديد من تنـامي قوة الحركة الشعبية واحتقاره لهذه الحركـــة ولذلك فانه اختار طريق التفاهم مع المستعمرين وطلب التاج منهم قبل أن يطلبـــه من الشعـــب .

ان العارفين ببواطـــن الامور يعلمون ان فيصل لم يقبـــل باعلان استقلال سورية وتتويجه ملكا في /٨/ آذار /١٩٢٠/ الا مكرها ، اذ انـــه كان يرى ضرورة اخذ موافقة المستعمرين ولاسيما الانكليز قبل هذا الاعلان . وكان انتصار التيار المعادي للاستعمار والمقاوم لكل مساومة ، في اعلان الاستقلال بدايـــة لهجوم واسع شامل ضـــد كـــل محاولات الدول الاستعمارية الراميـــة الى القضاء على استقلال سورية .

لقد عكست وثيقـــة الاستقلال ، التي اقرها المؤتمر السوري(٢٥) مـــدى ازديـــاد قـــوة وباس الحركة الوطنية في ربيع سنة ١٩٢٠ ودلت على انتقال هذه الحركة من مرحلة تجميـــع « نهايـــة ١٩١٨ ـــ نهاية ١٩١٩ » الى مرحلة تلاحم القوى والبدء بالهجوم وقد كتبت هذه الوثيقة بتأثير العناصر الوطنية « المتطرفة » التي ازداد موقفها قوة بعد انفضاح الاهداف الاستعمارية .

اشارت وثيقة اعلان الاستقلال المطالبة بحل الادارة العسكرية الفرنسية والانكليزية وبجـــلاء الجيوش الانكليزيـــة والفرنسية وتاسيس حكومة دستورية الى بلوغ الحركة الوطنية العربية في سوريـــة مرحلة نوعية جديدة بدات تباشيرهـــا منـــذ اندلاع الانتفاضات الفلاحية المعادية للاستعمار في نهاية سنة /١٩١٩/ .

ضمت الوزارة الاولى(٢٦) المشكلة بعـــد اعلان الاستقلال في آذار /١٩٢٠/ ثـــلاث مجموعات هي : مجموعة رضا باشا الركابي الموالـــي للانكليز ومجموعة عـــلاء الديـــن الدروبي الموالي للفرنسيين والمجموعة الوطنية ممثلة بساطع الحصري . وقد عكـــس

تركيب الوزارة بهذا الشكل نسبة القوى السياسية ودل على رغبة الملك فيصل في الجمع والتوفيق بين الاتجاهات المختلفة وعلى الاستعادة من التناقضات الداخلية والخارجية لصالح العرش الهاشمي .

وبعد ان فشل الملك فيصل والوزارة الركابية في الحصول على اعتراف الدول باستقلال سورية . ازداد ضعف العناصر المسالمة او الموالية للاستعمار . وقويت بالمقابل شكيمة العناصر المعادية للاستعمار لاسيما بعد اعلان مقررات مؤتمر سان ريمو في ٢٦ نيسان ١٩٢٠ التي فرضت الانتداب على البلاد ولم تتمكن الوزارة الركابية من الصمود تحت ضربات العناصر المعادية للاستعمار فاضطرت لتقديم استقالتها . وتشكلت وزارة هاشم الاتاسي في /٣/ ايار /١٩٢٠/(٢٧) ، في خضم الكفاح العنيد وفي لهيب الصراع المحتدم بين جيوش الاحتلال الفرنسي وفرق المقاومة الممتدة على طول الساحل المحتل .

ضمت هذه الوزارة التي نعتت بالراديكالية عناصر معتدلة وعلى راسها الاتاسي ، وعناصر وطنية « متطرفة » مثل الحصري والدكتور الشهبندر ، وعناصر عميلة مثل خادم الاستعمار الفرنسي المطيع علاء الدين الدروبي . جرى تشكيل الوزارة بموافقة الملك فيصل ، الذي اضطر للسير منذ أوائل ايار سنة /١٩٢٠/ مع الاتجاه الوطني المتطرف بعد ان راى بأم عينه فشل سياسة التفاهم مع الانكليز والفرنسيين في اعقاب مقررات مؤتمر سان ريمو .

ومكن ، موقف فيصل هذا ، الوطنيين من العمل بحرية اكثر مما مضى في مساعدة الحركات المسلحة واتخذت الوزارة ، على هذا الاساس ، وبالرغم من وجود وزيرين مواليين لفرنسا عدة اجراءات دفاعية معادية للاستعمار .

ولكن رياح السياسة الدولية التي كان الاستعمار يسيرها آنذاك ، لم تكن تسير في صالح القوى الوطنية . فبعد ان دعمت الدبلوماسية الفرنسية مواقعها في اوروبا واتفقت ، الى حين ، مع انكلترا على تقاسم مناطق النفوذ .. وبدات في تقديم التنازلات امام الحركة التركية ، استطاعت ان تقضي على المقاومتين المسلحة

والسلمية في الساحـل وتحوله الى منطقـة حشد عسكري استراتيجي للانقضاض على الدولة العربيـة في الداخل وتوجيـه الضربـة الى معقـل الحركـة الوطنيـة القوميـة ، التي لم تكن في غفلـة عما يجري وكانت فصائلها التقدمية تستعد للمعركة المقبلة ضمن الامكانات المتوافرة لديهـا .

٤ ـــ انذار غورو ومواقف مختلف القوى :

بعد الاتفاق الاستعماري الانكليزي الفرنسي على تقسيم مناطق النفـوذ في الشرق الاوسط قام الجنرال غورو قائـد جيوش الشـرق والمندوب السامـي للجمهوريـة الفرنسية الاستعمارية بتقديـم انـذاره الشهير في /١٤/ تموز سنة /١٩٢٠/ الـى حكومة دمشق . طلب غورو في هذا الانذار(٢٨) .

١ ـــ تسليم سكة حديد رياق ـــ حلب للسلطة الفرنسية العسكرية .

٢ ـــ قبول الانتـداب الفرنسي .

٤ ـــ قبول الاوراق النقديـة التي اصدرها البنك السوري ـــ الفرنسي .

٥ ـــ معاقبـة أعداء فرنسا .   ٦ ـــ مدة تنفيذ الانذار اربعة ايام فقط .

مع تقديم هذا الانذار سقطت آخر اقنعة الامبريالية الفرنسية وانفضحت مهمتها « التمدنيـة » و « الثقافيـة » في الشرق ، وتعرت السياسة الامبريالية البربريـة الزاعمـة بأن مهمتها نشر الحضارة والمدنيـة .

لم تكن مطالب انذار /١٤/ تموز الهدف الرئيسي والنهائي للجنرال غورو ، بل كانت خطوة تمهيدية لابد منها لتصفيـة مركز الحركـة الوطنية العربيـة والدولـة العربيـة ، اللتين لم تزعجا الاستعمار الفرنسي فحسب . بل الاستعمـار الانكليزي ايضا الخائف من امتـداد لهيب النضال الوطني القومي في دمشق الـى فلسطـين وبغداد . ومع ان غورو حشد قوات عسكريـة كبيرة للقضاء على الدولـة العربيـة في دمشق ، الا انـه خاف من صمـود المقاومـة الوطنيـة (المؤلفة من جماهير المدن والفلاحين) وافشالها لهدفـه الرئيسي .

ولذلك فقد سعى غورو لضرب الحركة الوطنية من الداخل عن طريق زرع الانقسام بين صفوفها واضعافها حتى يتسنى له تنفيذ مخططاته الاستعمارية الكولونيالية بالقضاء النهائي على دولة دمشق العربية .

وبالرغم من ان غورو لم يكن يثق مطلقا بفيصل ، لوقوع الملك فيصل في المدة الاخيرة تحت تأثير الراديكاليين و « لصداقته » المعروفة لبريطانيا المنافس الرئيسي لفرنسا ، الا انه سعى جاهدا لكسب فيصل الى جانبه ، عن طريق الخداع من اجل استخدامه في شق الحركة الوطنية من الداخل وخلق البلبلة في صفوفها واضعاف حدة المقاومة الوطنية . وهكذا فان غورو كان يوحي لفيصل بانه لن يسعى لازاحته عن عرش سورية اذا ما نفذ مخططه ورضخ لمطاليبه . وقد نجحت خطة غورو في خداع فيصل الخائف من الاستعمار الفرنسي من جهة ومن الحركة الشعبية المناهضة للامبريالية من جهة اخرى(٢٩) .

وتسهيلا لمهمة فيصل في تنفيذ المخطط الاستعماري عن غير وعي .. وخوفا من الاصطدام مع الجيش السوري المحتشد في مواقع مجدل عنجر المنيعة ، وافق غورو على تمديد الانذار حتى /٢١/ تموز ، من اجل أن يتمكن فيصل من ازاحة الموظفين المعارضين للانذار وليستطيع حل الجيش . وقد عكست سياسة فيصل المتخاذلة هذه موقف الجناح اليميني داخل الحركة العربية الاستقلالية . للحفاظ على قيادة الحركة ووضعها في خدمة مصالحه(٣٠) .

اما أسباب قبول الوزراء الراديكاليين للانذار فيعود الى عدم ثقتهم التامة بطاقة الشعب ، والى عدم امتلاكهم النفس النضالي الطويل ، عدا عن انهم مستعدون بسبب تربيتهم البرجوازية الى التراجع أمام المحن والرضوخ عندما تحتدم الازمات الحادة .. وبذلك فان هذا القسم من البرجوازية يمكن أن يلتقي احيانا وفي اللحظات الحرجة مع الجناح اليميني ، أو انه لا يقف على الاقل في وجه استسلامه ومساوماته ، وهذا هو التفسير المعقول لقبول الوزراء الراديكاليين في تلك اللحظات الحرجة للانذار(٣١) .

اما موقف المؤتمر السوري ذي الاكثرية الاقطاعية الموافقة سرا على بنود الانذار

فانـه يستدعي الانتباه . لقد وقف المؤتمر ضد قبـول شروط الانذار واعتبـر ايـة حكومة تقبله غيـر شرعيـة(٢٩) . هذا الموقف المعادي للاستعمار ، والمساومة تحقـق بفضل تأثير الاقليـة المؤلفة من برجوازية دمشق والمثقفين من انصار القومية العربية وتحت ضغط المظاهرات الشعبية الضخمة التي ملات شوارع دمشق هاتفة للاستقلال ومنذرة من يساوم عليـه باقسى العقوبات (٣٣) .

ويبرهن هذا المثال على ان اقليـة برلمانيـة مدعومـة من الشارع تستطيع ضمن ظروف معينـة اتخـاذ قرارات ايجابية داخـل البرلمان لصالح العمـل الوطنـي . ودل ذلك على مرونـة الحركة الوطنيـة التي اخذت في استخدام الاسلوبين السلمي والمسلح جنبا الى جنب من اجل تحقيق اغراضها .

بعد أن سرحت الحكومة الجيش بموافقة الملك فيصل في ٧/١٩ و ٧/٢٠ اخذت طلائع الجيش المسرح تصل تباعا الى دمشق ، وفي الوقـت علقـت جلسـات المؤتمر السوري المعارض لشروط الانذار مدة شهرين . وردا على ذلك اندفعت المظاهرات الشعبية الجبارة تطوف شوارع دمشق هاتفـة بسقوط الحكومة والملـك فيصـل ومطالبة بالسلاح للدفاع عن حياض الوطن . وفعلا فقد قامـت الجماهير الثائرة غير المنظمة بالهجوم بشكل عفوي على قلعـة دمشق للحصول على السلاح . مما ادى الى وقوع اكثر من مئتي قتيـل(٣٤) .

واثناء هذه الايام الحاسمة والمعارك الضارية كون العمال والحرفيون « الصناع والمعلمون » والتجـار الصغار والمثقفون القـوة الضاربـة الرئيسية في النضال ضد قبو ل الانذار وتنفيذ المخططات الاستعمارية . وهذه القوى سارت تحت لواء برجوازية دمشق التي اذهلتها صلابة الجماهير واندفاعها الوطني الثوري فلم تستسلم وصممت على المقاومـة محاولة ما امكن جر السلطة الى الدفاع والوقوف امام الجيش الفرنسي الزاحـف باتجـاه دمشـق .

واقتصر النشاط السياسي خلال فترة ازمة الانذار على مدينـة دمشق وحدها، وهذا ما اضعف المقاومـة الوطنيـة وجردها من عنصر الشمول . فبرجوازية حلب التجارية التي لم تقف قبـل الحرب الاولى الى جانب الحركـة القومية نظرا لارتباط

مصالحها التجارية مع الاناضول وبالتالي كان لهـا مصلحة في بقاء الدولـة العثمانية ، اتخذت بعد الحرب موقفا حياديا في الصراع الدائر بين الحركة العربيـة المتمركـزة في دمشق وبين قوى الاحتلال والغزو الاستعماري . فقد نظرت هذه البرجوازية بحـذر الى ازديـاد نفوذ الارستقراطية الحجازية لبرجوازيـة حلب . وهي من جهة اخرى كانت ضد الاحتلال الفرنسي لكيليكيا ، وتطمع في جعـل كليكيا منطقـة حرة تجاريـا يسهل عن طريقها الاتصال الاقتصادي بتركيـا . وهذه الاسباب مجتمعـة هي التي دفعـت بورجوازية حلب لتأييد المقاومة الفلاحية المسلحة المناهضة للامبريالية بعـد معركة ميسلون ، واقامة الصلات الحسنة مع الكماليين .

وثمة عامل آخر اضعف المقاومـة المسلحة ضد الغزو الاستعماري الفرنسي وهو عدم مشاركة الفلاحين في النضـال ايام الانذار . ان مدة الانذار القصيرة لم تمكن البرجوازيـة الدمشقية والمثقفين الوطنيين من الاتصال بالفلاحين في مختلف المناطـق وحشد سائر القوى للوقوف امام الطغيان الاستعماري .

قبل الحرب العالمية الاولى كانت البرجوازية الدمشقية على صلات حسنة وتفاهم لا بأس به مع الفلاحين ولاسيما الاغنياء منهم .. وكانت البرجوازيـة تعقـد الامـال الكبيرة على هذا اللقـاء بين المدينة البرجوازية والريف الفلاحي للنضال ضد الحكـم التركي . اما في العهـد الفيصلي فقد سعت قمـة السلطة لعزل البرجوازيـة عـن الفلاحين لكي تتمكن من اجراء التحالفات مع الاقطاعية السـورية . ولذلك فان الفلاحين في مناطق القلمون والزبداني ووادي العجم وحوران الذين كان من الممكن استنفارهـم للحرب كانـوا غير مهيئين نفسيا وبدون تعبئـة ماديـة ، الى درجة ان جنود الجيش المسرح ومعظمهم من الفلاحين رفضوا العوده الى الجيش واتجهوا دون اكتراث الـى قراهم ، بعد ان اعلـن الملك فيصل الحرب على اثر تفاقم المظاهرات وعلى اثر اقتناعه بعدم جدوى المساومة مع الجيش الغازي .

وهكذا دخلت جماهير دمشق « وحيدة » الى ساحة النضال في تموز ــ ولم يكن بامكانها خلال أيام معدودات وفي جو تسـوده الفوضى والاضطراب ونشـاط عمـلاء الاستعمار أن تصد الزحف الاستعماري الفرنسي .

ومع ان الحركة الشعبية التي سيطرت على شوارع دمشق في الربـــع الثالث من تموز سنة /١٩٢٠/ كانت حركة معادية للاستعمار وللحكم الملكي الهاشمي . الا انهـــا لم تفقد الرؤيا وظلت تعتبر ان عدوها الاول هو الجيش الاستعماري الزاحف باتجـــاه دمشـــق .

فعندما أعلن الملك فيصل قانون الدفاع في /٢١/ تموز توقف كل عمـــل عـــدائي ضد الملك ، واخذت فـــرق المتطوعـــة الدمشقـــية تســـير باتجاه الغـــرب لمجابهـــة الجيـــش الاستعماري الفرنـــسي .

وبلغ عدد المتطوعين الذين وصلوا الى هضاب ميسلون مايقارب ثلاثة آلاف متطوع معظمهم سيء التسليح تسودهم الفوضى وليسوا على اطلاع على فنـــون الحـــرب ، ويفتقرون الى الخبرة القتاليـــة(٢٨) .

وكانت الدوافـــع الوطنية والقوميـــة والدينية هي التي دفعـــت بهذا العدد الى ساح المعركة . ومع ان هذه الدوافع الثلاثة يمكن ان تصنع البطولات في ساح الوغى ، الا ان الخبرة العسكرية او بالاصح انعدامها وسوء التنظيم والتسليح جعلت من هـــذه العوامل الثلاثة مجرد مشاعر لم يكن بامكانها ان تصمد امام جيش مسلح ومدرب يفوقها عددا وعدة. وتحت وطأة هذه الظروف، فان روح الهزيمة لاتلبث ان تسري بسرعة فوق سرعة سريان النار في الهشيم ، وينقلب الحماس العفـــوي والاندفـــاع الجامـــح والشجاعة الفائقة الى جمود وتخاذل وخوف . فتـــسيطر عليها فكرة استحـــالة الصمود والثبـــات .

هذه حال المتطوعة اما حال الجيش المسرح فان قائده وزير الدفاع لم يستطع ان يجمع منه الا النزر اليسير . اضافة الى كتيبة المدفعية التى اتخذت مواقعها في اعالي الجبال مضافا اليهم مئتا جندي من البدو من حرس الملك فيصل . الذين ابدوا أثناء المعركة شجاعة منقطعة النظير .

● ـ معركة ميسلون :

في صبيحة يوم / ٢٤ / تموز / ١٩٢٠ / بدا الجنرال غوبيه هجومه الشامل على مواقع المدفعية العربية بجيش يناهز / ٩٠٠٠ / مقاتل من الجنود المدربين المدعومين بـ / ١٢ / بطارية مدفعية وعدد من الدبابات والطائرات (٣٥) . لم تستطع القوة العربية النظامية الصمود طويلا بعد ان فقدت ذخيرتها واستشهد قائدها البطل يوسف العظمة الذي لم يكن من الوجهة العسكرية مضطرا لتعريض نفسه للخطر ، وقدم بذلك مثالا رائعا في التضحية والفداء ، ضاربا المثل الاعلى للفروسية وللبطولة العربية .

عندما تناهى الى سمع المتطوعة خبر استشهاد يوسف العظمة وتبعثر بقايا الجيش النظامي ، بدات معنوياتها في الانهيار ، لاسيما عندما اكتشف ان قسما كبيرا من اسلحتها وذخيرتها غير صالح للاستعمال نتيجة سوء التوزيع . وهكذا دبت الفوضى في صفوف المتطوعة التي لم تعرف النظام اصلا وبدات في التراجع نحو دمشق ، في جو يسوده الخوف والياس والقنوط . ولكن هذا الخوف كان بالامكان ان يتحول بعد ساعات الى جراة وشجاعة ، اذا توفرت لهذه الجموع المتراجعة او قل البائسة ، القوى الواعية التي تشحذ عزيمتها وتبث فيها روح الصمود والدفاع عن المدينة الخالدة . وهذا ماكان يخشاه قادة الجيش الافرنسي الزاحف الخائف من حرب الشوارع والمتاريس ولهذا السبب فان وزير الداخلية وعميل الاستعمار الفرنسي علاء الدين الدروبي امر الجندرمة بتجريد المتطوعة من سلاحها قبل دخولها الى دمشق(٣٦). لكي يتسنى للجيش الفرنسي المحتل دخول دمشق دون عناء .

وهنا يطرح السؤال التالي . ماموقف فيصل من هذا الاجراء ؟ . . . تدل القرائن ان فيصل لم يكن يعارض في اتخاذ اجراء كهذا نظرا لخوفه الشديد من النقمة الشعبية التي حملته مسؤولية الهزيمة واصبحت مشاعرها معادية للملكية ونظامها . والدليل على خوف فيصل هذا مغادرته دمشق الى الكسوة تحسبا للطوارىء وخوفا من الجماهير الغاضبة اكثر من خوفه من الجيش المحتل .

دخل الجيش الفرنسي دمشق بعد ظهر يوم / ٢٥ / تموز سنة / ١٩٢٠ / دون ان يطلق رصاصة واحدة . وهنا حاول فيصل ان يتقرب من الافرنسيين للمحافظة على

عرشه . فكلف عميل الاستعمار الافرنسي عـلاء الدين الدروبي بتشكيل الوزارة في ٢٦ / ٧ / ١٩٢٠ / . ورجع في اليوم نفسه الى دمشق بعد ان تاكد من عدم قيام اية ردة شعبية . ولكن آمال فيصل واحلامه في المحافظة على العرش باي ثمن ذهبت ادراج الرياح . وبعد ان فقد فيصل سلطته وشعبيته هاجمه الافرنسيون شخصيا لاول مرة في بيان اذاعوه وحملوه تبعة جميع ماحدث (٢٧) . بينما كانوا في السابق يلقون الملائمة على الوطنيين المتطرفين ويوحون لفيصل بانهم ليسوا ضده شخصيا .

ادى احتلال الفرنسيين لدمشق الى اشتعال غضب فلاحي حوران الذين استقبلوا فيصل في درعا معلنين عن استعدادهم للنضال . في الوقت الذي كانت مجموعات المثقفين الهاربين من دمشق تحث الخطى في السير الى فلسطين طالبة النجاة وغير مكترثة بحركة اهالي حوران (٢٨) . ولكن فيصل الذي لم يكن يؤمن اصلا باسلوب النضال الشعبي . اذعن لطلب الافرنسيين وغادر منطقة الانتداب الفرنسي متوجها الى فلسطين ومنها الى اوروبا .

في اواخر تموز / ١٩٢٠ /اعلن الغزاة الاستعماريون نهاية الدولة العربية وشرعوا في اضطهاد وتشريد الوطنيين واصبحت احكام الاعدام والمصادرات وفرض الغرامات من الامور اليومية المألوفة . واجبر الشعب على دفع غرامة تقدر / ١٠ /ملايين (٢٩) فرنك ادت الى افقار الشعب وتكديس الاموال في جيوب المستعمرين الفرنسيين . وبعد احتلال بقية المدن السورية كشر الراسمال الافرنسي عن انيابه استعدادا لافتراس الذبيحة على طاولة الانتداب .

ولكن مطامع الامبريالية الافرنسية في استثمار ثروات سورية ونهب خيراتها واستعباد شعبها العربي اصطدمت بمقاومة عنيفة بداها الفلاحون في اشعالهم لعشرات الانتفاضات المسلحة ، التي بلغت ذروتها في الثورة السورية (١٩٢٥ ـ ١٩٢٧) . وهذا ما سنعالجه في المجلد اللاحق .

٦ ـ عوامل انهيار الدولة العربية :

اسهمت عوامل داخلية وخارجية كثيرة في انهيار الدولة العربية الوطنية الفتية في سورية وكان من اهم هذه العوامل :

١ ـ كانت الدول الاستعمارية على الرغم من تضعضع مواقع النظام الامبريالي العالمي ، قوية الى درجة تمكنها من القضاء على اية حركة وطنيـة او قوميـة . وكان المستعمرون الانكليز والفرنسيون مضطرين ، بالرغم من تناقضاتهم ، للاتفاق والوقوف معا أمام تيار الحركة الوطنية المهدد لمصالحهم الاستعمارية .

٢ ـ لم تستطع روسيا السوفياتية في صيف /١٩٢٠/ ـ بسبب ظروفهـا الداخلية والخارجية ـ ان تمارس اي تأثير في الحوادث في الشرق الاوسط ، او ان تمديد العون المادي لحركات التحرر .

كما ان الراي العام الديمقراطي العالمي المحب للحرية لم يكن باستطاعته بسبب تفككه عرقلة السياسة اللصوصية الاستعمارية .

٣ ـ انعزال حركات التحرر العربية بعضها عن بعض في كل من مصـر والعراق وسورية ، واهتمام كل حركة بمشكلاتها الاقليمية الخاصـة دون ان تستطيع مد يد العون القومي الى اشقائها .

ووصل الامر بالسلطة الحاكمة في دمشق الى التقوقـع ضمن حدود سوريـة الشمالية بعد ان كانوا ينادون بوحدة آسيا العربية ثم ضيقوا دائرة الوحدة التي شملت سورية الطبيعية ولم تلبث ان اقتصرت على المناداة بوحدة سورية الشمالية .

وذلك بسبب ضغط الاستعمار الانكليزي وخوف العناصر المحليـة من سيطرة الارستقراطية الحجازية ولم تكن اخبار نضالات اي قطر عربي تصل الى القطر الاخر الا بعد مدة وبشكل محرف يتفق ورغبات الاستعمار الانكليزي .

٤ ـ فقدان القيادة الموحدة والثورية للحركة الوطنية والقومية ،ومع ان الفلاحين والجماهير الكادحة شكلت العمود الفقري للحركة الوطنيـة ، فان تقرير مصير هذه الحركة وقع في يد العناصر الاقطاعية المتخاذلة والبرجوازية الحائرة المترددة والخائفة.

٥ ـ فالحركة الوطنية كانت اذن تحت قيادة الاقطاعيين الليبراليين والبرجوازية التجارية والمثقفين وكانت هذه الفئات تتصارع فيما بينها وتتنافس للوصول الى مركز

القيادة . كما لعب الجهل المطبق والارتباطات العشائرية والاقليمية والطائفية دورا في نمو الحركة الوطنية والقومية .

٦ ـ ان مشاركة قسم من الاقطاعيين في النضال الوطني ادت من جهة الى تقوية هذا النضال واضعفته من جهة ثانية لان هؤلاء الاقطاعيين كانوا على استعداد ـ وهذا ماحدث فعلا للتعاون مع المستعمرين في اللحظة التي تضمن مصالحهم الطبقية الاقتصادية والسياسية وغيرها .

٧ ـ انعزال الحركة الوطنية في دمشق على اعتاب موقعة ميسلون عن بقية المدن والارياف . فبرجوازية حلب وقفت على الحياد ، والفلاحون لم يتمكنوا من المشاركة في المقاومة المسلحة بسبب سياسة الملك فيصل ومن وراءه الاقطاعية ؛ الرامية الى ابعاد الفلاحين عن معترك الحياة السياسية حتى يبقوا لقمة سائغة سهلة البلع في بطون كبار ملاك الاراضي من الزوات والاغوات والبشوات والبكوات .

٨ ـ اتبع فيصل سياسة غامضة متارجحة بين القوى المتصارعة في الداخل والخارج ترمي الى المحافظة على العرش بأي ثمن . وكان خوفه من ازدياد قوة الحركة الشعبية سببا في تقوية روح المساومة لديه . وادى هذا كله الى عرقلة نمو الكفاح الشعبي واخماد نيران الحماس الوطني والثوري .

لقدكان فيصل فردا يمثل الاتجاه الاقل رجعية والاكثر وطنية داخلالاستقراطية الحجازية وتميزت سياسته بالتعاون مع الاقطاعية السورية وتقربه من البورجوازية السورية والاستفادة من التناقضات الاستعمارية الانكليزية الافرنسية ، والخوف من الجماهير الشعبية وكبح جماحها والحصول على التاج من فوق .



حواشي الباب الرابع

١ ـ العمران تموز اب ١٩٧٢ ، ص ٣٧ .

١/١ ـ حسن محمد سعد : ـ جبل عامل بين الاتراك والفرنسيين ١٩١٤ ـ ١٩٢٠ ـ بيروت ١٩٨٠ ، ص ـ ٤٦ ـ .

٢/١ ـ العمران ـ ١٩٧٢ ـ ، ص ـ ٣٧ ـ .

٣/١ ـ العمران دمشق نيسان ـ ايار ١٩٧٠ ، ص ـ ٢٥ ـ .

٤/١ ـ الفقرات التالية من ذكريات يوسف الحكيم :

ـ بيروت ولبنان في عهد آل عثمان ـ بيروت ١٩٨٠/٢/١ ، ص ٢٥٢ ـ وما يليها .

٥/١ ـ محمد سعد ... ص ـ ٤٨ ـ .

٦/١ ـ المصدر نفسه ص ـ ٨ ـ .

٧/١ ـ سعيد اسحق : ـ صور من النضال الوطني في سورية ـ دمشق بلا تاريخ ، ص ـ ١٥ ـ .

٨/١ ـ للوقوف على تفاصيل وافية عن الصراع الامبريالي لاقتسام شرق الوطن العربي والسيطرة عليه . انظر : ـ تاريخ الدبلوماسية ـ ، اصدار بوتجكين الترجمة الالمانية . برلين ١٩٤٨ ، الجزء ـ ٢ ـ ص ـ ٢٤١ ـ وما يليها . راتمن ، لوثر : ـ العرب ينهضون ـ برلين ـ ١٩٦٠ ـ ، ص ـ ٢٢ ـ وما يليها بالالمانية . السياسة العظمى للدول . اصدار اداموف . درسدن ـ ١٩٣٢ ـ الجزء الثالث ، ص ـ ٥٦ ـ وما يليها .

٢ ـ حول الصراع الخفي من اجل كسب تركيا الى جانب المانيا أو بريطانيا . انظر : بوميانوفسكي جوزيف : ـ انهيار الدولة العثمانية . ذكريات عن تركيا ايام الحرب العالمية ـ زوريخ لايبزغ فينا ١٩٢٨ ، ص ـ ١٧٣ ـ ... تاريخ الدبلوماسية ص ـ ٣٢٠ ـ العمري ، طاهر ـ تاريخ مقدرات العراق السياسية ـ الجزء ـ ٢ ـ ، بغداد ـ ١٩٢٤ ـ ، ص ـ ٦٦ ـ وما يليها .

٣ ـ انظر اخبار هذه المفاوضات في : السعيد ... جـ ـ ١ ـ .

٤ ـ اشار الى هذه الناحية رئيس البعثة العسكرية الالمانية في تركيا ايمان فون ساندر في كتابه : ـ تركيا في خمس سنوات ـ برلين ١٩٢٢ .. كما اشار الى الموقف العدائي للاتراك الدكتور جورج حنا الطبيب في الجيش العثماني في كتابه ـ قبل المغيب ـ بيروت ١٩٦٢ .

٥ ـ بوميانوفسكي ... ص ـ ٢٢٩ ـ .

٦ ـ ابو راشد ، حنا ـ حوران الدامية ـ القاهرة ١٩٢٦ ، ص ـ ٥٩ ـ .

٧ ـ المصدر السابق .. وكذلك كرد علي محمد ـ خطط الشام ـ الجزء الرابع ، ص ـ ١٥٦ ـ .

٨ ـ اليونس ، عبد اللطيف : ـ ثورة الشيخ صالح العلي ـ دمشق بدون تاريخ ، ص ـ ٢٨ ـ . كرودت أدسب بوليسي : ـ تاريخ النفوذ الافرنسي في سورية ـ كيسيلين ١٩٤١ بالمانية ، ص ـ ١١٩ ـ .

٩ ـ السعيد ، أمين ... الجزء الاول ، ص ـ ٢٢٧ ـ ... كون ، هانس : ـ تاريخ الحركة القومية في الشرق ـ برلين ، كراسفالد ١٩٢٨ بالالمانية ، ص ـ ٤١٢ ـ .. أما الامير شكيب ارسلان المؤيد للاحتلال التركي الالماني آنذاك فقد صب جام غضبه على حركة سلطان الاطرش . انظر مقالته في اللغة الالمانية في ـ الشرق الجديد ـ الالمانية الجزء الثاني ، القسم الاول ١٩١٨ ، ص ـ ٩ ـ .

١٠ ـ وهي ١ ـ المنطقة الغربية تحت ادارة قوات الاحتلال الفرنسي ٢ ـ المنطقة الجنوبية فلسطين تحت ادارة قوات الاحتلال البريطاني ٣ ـ المنطقة الشرقية تحت ادارة القوات العربية مع تواجد القوات الانكليزية في هذه المنطقة ، التي شملت بالاضافة الى سورية الداخلية شرق الاردن وحاصبيا وراشيا والبقاع .

١١ ـ لابد هنا من الاشارة الى المديح ، الذي ، لايزال يقدمه معظم مؤرخي البورجوازية عندنا للاستعمار الامريكي عن عمد طبيعة الرأسمالية الامريكية وتحولها تدريجيا منذ أيام الحرب الاولى التي رأسمالية امبريالية برزت معالمها بوضوح في السيطرة على الشعوب واستثمارها في اعقاب الحرب العالمية الاولى .. وعن هذا الطريق يمهد هؤلاء بوعي أو لا وعي لتغلغل النفوذ الامبريالي الامريكي .

١٢ ـ نقلا عن راتمن ، لوثر : ـ اتجاه هجوم الشرق الاوسط ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ـ برلين ١٩٦٣ ، ص ـ ١٤١ ـ .

١٣ ـ مثل صبحي بركات في ريف انطاكية وغيره من كبار ملاك الارض في الزاوية وتلكلخ وجبل عامل .

١٤ ـ ينتسب الى هذا الفريق سليمان حنان البستاني واسكندر عمون وغيرهم .

١٥ ـ من أمثال رئيس الشرطة اللبنانية سعيد بك البستاني . انظر في هذا المجال تقرير لجنة كينغ كراين الامريكية في : السعيد .. ص ـ ٦٥ ـ .

١٦ ـ صرح أحد أعضاء ـ مجلس ادارة لبنان ـ بما يلي : تقوم بين سورية ولبنان علاقات تجارية وصلات قوية ، تتطلب لقاء الاخوة . نقلا عن الريحاني ، أمين : ـ ملوك العرب ـ بيروت ١٩٢٥ ، المجلد ٢ ص ـ ٢٠٥ ـ .. كما ان تقرير لجنة كينغ كراين يشير الى هذه الناحية .

١٧ ـ انظر في : اريش توبف : ـ بناء الدولة في الاقسام العربية من تركيا بعد الحرب العالمية ـ

هامبورغ ١٩٢٧ ، ص - ٤١ - .. - الكتاب السنوي للحقوق العامة في الوقت الحاضر - المجلد - ٧١ - ١٩٢٩ ، ص - ٢٨٩ - أبو راشد .. ص - ٧٠ - .

١٨ - نقلا عن الحصري ، ساطع : - يوم ميسلون - بيروت ١٩٤٨ ، ص - ٩٤ - .

١٩ - من الاجراءات المتخذة لبناء مؤسسات الدولة محاولة اقامة نظام تربوي يختلف كليا عن النظام التربوي العثماني الاقطاعي ، مستمداً أصوله التربوية من الانظمة البرجوازية الغربية مضافا اليها بعض النزعات الاقطاعية . وقد كان لهذه الحركة بالاضافة الى حركة التعريب اثر فعال في اذكاء نار الشعورين الوطني والقومي فيما بعد ... راجع حول هذا الموضوع الحصري ص - ٢٣٦ - ... مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد - ٥ - عام - ١٩٢٥ ، ص - ٣ - .

٢٠ - العجلاني ، منير : - مبادىء الدستور والحقوق السياسية - دمشق ١٩٥٥ - ص - ٦٩ - .

٢١ - راجع اسماء اعضاء المؤتمر في الحصري .

٢٢ - نشرت جريدة - المفيد - الدمشقية في أوائل ١٩٢٤ تفصيلات شيقة حول - لجنة الدفاع الوطني - وقد نشرت المجلة الالمانية : - انباء ندوة اللغات الشرقية في جامعة فردريشن فلهالم في برلين - برلين ١٩٢٦ .

ما كتبته مجلة المفيد في سلسلة قيمة من اعدادها حول الحوادث التي سبقت معركة ميسلون .

٢٣ - السعيد .. ص - ١٠٩ - اليونس ، ص - ٦٣ - .. مجلة - الزمن الحديث - الالمانية ، حزيران - ١٩٢٠ ، المجلد - ٧ - ص - ١٠٧ - .. خطط الشام المجلد - ٣ - ص - ٧١٤ - .. دروزة ، عزة - حول الحركة العربية - صيدا - ١٩٥١ - ، المجلد - ٢ - ، ص - ٢٢ - .

٢٤ - مجلة - المشرق - البيروتية عام - ١٩٢١ - ، العدد - ٨ - ، ص - ٦٥٩ - .. مجلة - الشرق الجديد - الالمانية اذار - ١٩٢٠ - ، المجلد - ٥ - ، ص - ٢١٦ - .

٢٥ - انظر النص الكامل لوثيقة الاستقلال في : الحصري .. ص - ٢٦١ ، ٢٦٥ - .. السعيد ص - ١٣٠ ، ١٢٢ - .

٢٦ - انظر اسماء الوزارة في - الشرق الجديد الالمانية - المجلد - ٧ ، ٧١ - أيار - ١٩٢٠ - ص - ٥٨ - .

٢٧ - الحصري .. ص - ٢٤٣ - .

٢٨ - الحصري .. ص - ٢٩٠ - . السعيد ، المجلد - ٢ - ، ص - ١٧٢ - .

١٩ - انظر البرقيات والرسائل المتبادلة بين الملك فيصل والجنرال غورو في الحصري والسعيد . اما جريدة - المفيد - الدمشقية الصادرة في أوائل - ١٩٢٤ - فتسرد الحوادث التفصيلية لهذه الفترةالحرجة من منظار شاهد عيان وطني معاد للهاشميين .. ولعل من المفيد مراجعة ما كتبه خير الدين الزركلي في كتابه - ما رايت وما سمعت - مصر - ١٩٢٣ ، ص - ٦ - الذي يذكر بصراحة خوف فيصل من الحركة الشعبية اكثر من خوفه من جيش الاحتلال الافرنسي .

٢٠ - تدل شواهد التاريخ العربي والعالمي المتعددة ان الجناح اليميني على استعداد للعمل مع العدو

لا بل مع الشيطان ، ولا يتورع من خيانة الوطن وتسليم البلاد الى العدو اذا ما شاهد في الافق آنوار المد اليساري الكافح في سبيل الاستقلال الحقيقي .

٢٩ ـ راجع تبريرات وزير المعارف ساطع الحصري في كتابه يوم ميسلون ـ ص ١١٤ ـ وكذلك حجج وزير الخارجية الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في : ـ ابو راشد ـ حنا : ـ جبل الدروز ـ مصر ١٩٢٥ ص ـ ٣٨ ـ وقارنها مع تحليل الزركلي الرافض للانذار في كتابه ـ ما رأيت وما سمعت ـ .

٢١ ـ انظر قرار المؤتمر السوري في ١٥ تموز ١٩٢٠ في جريدة ـ المفيد ـ الدمشقية اوائل عام ١٩٢٤

٢٢ ـ كانت المظاهرات الجارية في ـ ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ـ تموز ـ ١٩٢٠ ـ تحت قيادة ـ لجنة الدفاع الوطني ـ والعناصر الراديكالية عموما الحصري ص ـ ١١٢ ـ . السعيد .. ص ـ ١٨٧ .

٢٧ ـ لدلوور ، فارس : ـ معارك الحرية في سورية ـ دمشق ـ ١٩٦١ ـ ، ص ـ ١٤٨ ـ . الزركلي ص ـ ٣ ـ . الريحاني ص ـ ٣٢٧ ـ . اما الوضع في حلب فقد وصفه الغزي كما يلي : ـ

ـ بعد انذار غورو ورد الامر من قيادة دمشق الى القيادة العسكرية في حلب بالاستعداد الى مقاومة الجيوش الفرنسية فاستعدت القيادة للمقاومة على زعمها باعداد جيش من الجند الوطني لا يزيد عدده على بضع مئات ونشرت الدعوة للمقاومة بين العامة واستدعيت بعض القبائل الاعراب من ضواحي حلب . وخرجت العامة الى الثكنة العسكرية وطلبوا من القيادة السلاح فلم تعطهم . وطلب الجند منها عددا من المدافع فاجابتهم بان ما هو موجود منها في الثكنة مختل لا يصلح للاستعمال . ثم ورد الامر من القيادة في دمشق بالسلم وعدم المقاومة . ثم ورد بالمقاومة في ان الحكومة الحلبية حينما رأت هذا التذبذب في الامر وضعف الامة عن المقاومة عقدت مجلسا من اعيان حلب ووجهائها للاستشارة في هذه المسألة فاختلفت الكلمة في ذلك واخيرا رأى كامل باشا القدسي ان المقاومة تضر بالبلدة فضلا عن كونها لا تؤدي الى الغرض المطلوب ـ ويقول الغزي ان الافرنسيين كلفوا كامل باشا القدسي بتعيينه واليا على حلب .. الغزي ... جـ ـ ٢ ـ ، ص ـ ٦٢٦ ـ .

٣١ ـ الريحاني ... ص ـ ٣٢٨ ـ .

٣٥ ـ الشرق الجديد الالمانية ، العدد ـ ٥ ، ٦ ـ في ايلول ـ ١٩٢٠ ـ ، ص ـ ١٩٠ ـ .

٣٦ ـ لدلوور ... ص ـ ١٦٧ ـ .

٣٧ ـ الشرق الجديد ... ص ـ ١٩١ ـ .

٣٨ ـ ابو راشد ، حنا : ـ حوران الدامية ـ ... ص ـ ١٠٠٩ ـ .. الزركلي ص ـ ٦ ـ .

٣٩ ـ الشرق الجديد .. ص ـ ١٩١ ـ .

* * *

الجزء الثاني

القضية الزراعية
والحركات الفلاحية في سورية
١٩٣٠ - ١٩٤٣

مرحلة النضال المناهض للاحتلال الاستعماري

الباب الأول

البُنية الاقتصادِيّة الاجْتماعِيّة في الرّيف

- الامبريالية الفرنسية تشدد قبضتها لاستعباد سورية ولبنان في عهد الانتداب .
- اشغال الملكية الزراعية والضرائب .
- الطبقات والفئات الاجتماعية في الريف .
- من ذكريات الماضي (معالم مندثرة) .

الفصل الأول

الامبريالية الفرنسية تشدد قبضتها لاستعباد سورية ولبنان في عهد الانتداب

١ ـ الانتداب الفرنسي واجهزته السياسية :

بعد انهيار الدولة العثمانية في خريف /١٩١٨/ قامت في سورية الداخلية حكومة وطنية عربية (اقطاعية ذات نزعات بورجوازية) بقيادة الشريف فيصل بن الحسين قائد جيش الشمال للثورة العربية في الحجاز . وقد دخلت قوات فيصل دمشق ثم تقدمت نحو الشمال وحررت حلب . في حين احتل المستعمرون الافرنسيون الساحل السوري ، بينما احتل المستعمرون الانكليز فلسطين . وكان لهم وجود عسكري في دمشق وحلب .

ولكن الدولة الوطنية العربية لم تتمكن ، لظروف كثيرة ، من الحياة اكثر من سنتين(١) ، اذ عاجلتها جيوش الغزو الافرنسي ، التي قضت على المقاومة الوطنية في ميسلون في ٢٤ تموز /١٩٢٥/ واحتلت دمشق وسائر المدن السورية .

بعد احتلال المستعمرين الفرنسيين لسورية ولبنان ، كان لابد لهم ، بالاتفاق مع الاستعمار الانكليزي من ايجاد « حجة » شرعية لحكم الاقطار العربية (فلسطين ـ شرق الاردن ـ العراق ـ سورية ـ لبنان) .

وهكذا اقر مجلس عصبة الامم باجتماعه في لندن في ٢٤ تموز سنة /١٩٢٢/ صك الانتداب الذي وضعته الحكومة الفرنسية لسورية ولبنان . وقد هدف هذا الصك المغلف « بنصح الاهالي ومعاونتهم وارشادهم في ادارتهم » الى تثبيت السيطرة الاقتصادية والسياسية والثقافية للاستعمار الافرنسي وانشاء مواقع استعمارية جديدة تخدم المصالح الامبريالية للاحتكارات الافرنسية والاجنبية الاخرى .

فالحكومة الافرنسية المنتدبة يمكنها بموجب صك الانتداب ان تبقي جنودها في البلاد « للدفاع » عنها ، ولها حق تنظيم البوليس المحلي والاشراف عليه ، ويحق للدولة المنتدبة في كل حين ان تستعمل الموانيء والخطوط الحديدية وسائر وسائط النقل الاخرى لاغراضها العسكرية . ولها ان تسيطر على جميع علاقات سورية الخارجية . ويمكنها ان تفرض الضرائب والرسوم الجمركية التي تراها ضرورية او ان توعز الى الحكومات المحلية ان تفرضها . واللغة الفرنسية ، اضافة الى اللغة العربية ، لغة رسمية(٢) .

كانت اولى تدابير الانتداب الافرنسي لاضعاف سورية ، مركز الحركة الوطنية ، توسيع متصرفية لبنان على حساب سورية . ففي ٣١ آب عام /١٩٢١/ اصدر الجنرال غورو قرارا نص على ايجاد دولة لبنان الكبير . وقد ادخل في حدودها ، اضافة الى متصرفية لبنان القديم ، المقاطعات الواقعة في شماله وشرقه وجنوبه ، فالحقت به طرابلس وصيدا وصور وبعلبك والبقاع .

كما اقام المستعمرون في سورية عدة دويلات هي :

١ ـ حكومة العلويين ، وعاصمتها اللاذقية .

٢ ـ دولة جبل الدروز ، وعاصمتها السويداء .

وكانت قد قسمت في فترة ما الى دولتين : دولة حلب ودولة دمشق .

٤ ـ سنجق الاسكندرون الذي تمتع بادارة خاصة ، بالرغم من ارتباطه الاساسي بسورية .

قامت ، على راس السلطات الاستعمارية الفرنسية ، المفوضية العليا ومركزها مدينة بيروت . وكان المفوض السامي للجمهورية الفرنسية اعلى سلطة في المفوضية ، وفي البلاد ، والحاكم المطلق الصلاحية . فهو ، الذي يسن القوانين والانظمةالمسيطرة على الجمارك والاحوال الشخصية . وهو اشبه بحاكم مستعمرة يتبعه عدد من الموظفين يرأسهم السكرتير العام الذي ارتبطت به دوائر عديدة .

وقد مثل المفوض السامي مندوب لدى حكومة لبنان يقيم في بيروت ، ومندوب لدى حكومة سورية يقيم في دمشق . وكان لمندوب دمشق معاون في كل من حلب واللاذقية . ويمكن القول ان سورية ولبنان كانا موضوعين تحت نظام قرارات المفوض السامي ، التي تمتعت بقوة القانون(٣) ».

قسمت المفوضية العليا الى دوائر مهمتها التعاون ، اوبالاصح الاشراف والمراقبة على دوائر دولتي سورية ولبنان ، او القيام مقام دوائر لم توجد في تينك الدولتين . وهذه الدوائر هي : المالية ـ العدلية ـ الاشغال العامة ـ المعارف ـ الآثار ـ الزراعة ـ الجمارك ـ البريد والبرق ـ العقارية ـ الاوقاف ـ والصحة والاسعاف العام(٤) .

وارتبط بتلك الدوائر مفتشيات الملاحة التجارية ، ومكتب الملكية الادبية والفنية والصناعة ، ومراقبة الشركات ذوات الامتياز ودوائر البيطرة .

كما وجدت دوائر هامة مرتبطة راسا بالمفوض السامي مثل دائرة الاستخبارات ومكتب المطبوعات والدعاية والامن العام .

اما الشرطة والدرك ، فعلى الرغم من انهما كانا تابعين للحكومات المحلية ، الا انهما خضعا للجيش الافرنسي عند حدوث اية اضطرابات في البلاد . وقام على راس الدرك بعثة افرنسية لها القيادة العليا ، وفي يدها زمام الامور . اطلق على ضباط الاستخبارات اسم « ضباط المصالح الخاصة » وبلغ عددهم ستين ضابطا يرتبطون برئيسهم في بيروت ،ولكل ضابط

مكتب وترجمان وعدد من الجنود « الحرس السيار » ممن « تطوع » مـــن السوريين واللبنانيين(٥) . وقد تدخل ضباط الاستخبارات في كل كبيرة وصغيرة ، وكانوا من الد أعداء الحركة الوطنية ، وعرفوا بالبطش والارهاب ، وشكلوا الاداة المباشرة للسيطرة الاستعمارية الفرنسية لا سيما في الريف ، حيث عقدوا احسن الصلات مع العناصـر الاقطاعية والمتنفذة من اجل ارهاب الفلاحين واستثمارهـم واستعبادهـم لمصلحـة الراسمال الفرنسي .

قسمت السلطات الانتدابية الاستعمارية دوائر الدولة الى قسمين : قسم وضعوا يدهم عليه وتصرفوا في شؤونه تصرفا تحت اشراف ومراقبة مندوب المفوض السامي والمستشارين المثبتين في جميع الوزارات(٦) ، وقسم مؤلفـ مـن دوائر الحكومـة السوريـــة .

وكانت ايرادات الدوائر « المصالح المشتركة » التي جعلت تابعة للمفوضية العليا تجبى راسا من ادارتها الفرنسية ، وتجعل لها ميزانية خاصة ينفق منها على المفوضية وملحقاتها ، وعلى الجيوش المحلية وموظفي هذه المصالح . وكانت ميزانياتها تتجـاوز احيانا ميزانية الحكومة السوريـة .

فقد انفقت واردات دائرة المصالح المشتركة لسنة /١٩٢٧/ كما يلي(٧) :

١٩٢ر١٩٨	نفقـات الانتداب المدنيـة
٩٥٠ر٠٠٠	نفقـات جيـش الاحتـلال
٢٠ر٠٠٠	نفقـات استثنائيـة
١ر٠٧٢ر٢٣٢	نفقات وفاء الديون العثمانية التي يذهب معظمها لجيوب الراسمالية الافرنسيين ، وتعويضات شركات السكك الحديدية الاجنبية وغيرها من الشركات الافرنسية .
٢ر١٦١ر١٥٢	المجمـــوع

وهكذا صبت واردات الجمارك الضخمة وغيرها من الواردات في خزانة «المصالح المشتركة » التي انفقت على دوائر المفوضية المختلفة والجيش ، وقـد اشارت جريدة

الشعب في /١٦/ تشرين الثاني سنة /١٩٣٠/ الى هذا الوضع الشاذ الذي تدفع فيه البلاد نفقات جيش دون ان يكون لاكبر موظف وطني اقل صلاحية ونفوذ على ابسط فرد في الجيش . وعلقت الجريدة على ذلك قائلة : « نحن ندفع الفلوس ـ وهم ياخـذون العـروس »(٨) .

وفي حين كانت دوائر المفوضية العليا بهذا الاتساع والنفوذ والتنوع ، لم تتألـف دوائر الحكومة السورية الا من الاقسام التالية :

الداخلية والمالية ، المعارف ، العدل ، الاشغال العامـة ، الاقتصاد الوطنـي ، الاوقاف التي تبعت في الفترة الاولى للمفوضية العليا ـ الصحة والاسعاف العـام ، البيطرة ، الشرطة والدرك ، البريد والبرق ، المصالح العقارية ، املاك الدولة ، القضاء الشرعي ، المصرف الزراعي(٩) .

ويبدو واضحا كم كانت الدولة السورية او اللبنانية هزيلة في ذلك الحين . وهذه الوزارات الهزيلة كانت قد سلبتها « المصالح » المرتبطـة بالمفوضية معظـم اقسامها وصلاحياتهـا(١٠) .

فالوزارة ايام الانتداب كانت وزارة ادارة . وكان ، كما قال محمد كـرد علي : « بعض رؤساء الوزارات والوزراء من الاخذين بمبادىء الماسونية يستعينون بقـوة هذه الجمعية السرية للوصول الى المناصب . وقل ان ترى موظفا كبيرا لم يدخـل في الماسونيـة »(١١) .

تألفت اجهزة القمع في عهد الانتداب الافرنسي من الجيش الافرنسي الذي تناول قسم منه رواتبه من واردات الجمارك السورية . لقد بلغت نفقات الانتداب في احدى السنين /٨٤٣ر٤/ مليون فرنك منها /٥٤٣/ الفا للجهاز المدني والباقي ، أي ٣٠٠ر٤ مليونا للنفقـات الحربيـة(١٢) .

وكانت مهمة جيش الاحتلال الفرنسي البالغ عدده اربعين الفا تقوم على تثبيـت مواقع الراسمالية الفرنسية الاقتصادية في سورية ولبنان وضمان اربـاح صافيـة لجيوب الاحتكاريين الفرنسيين ، وتامين مصالح الامبريالية الافرنسية في شرق البحر

المتوسط ، ومنها حماية القواعد التي يستند عليها الاسطول البحري وحماية خطوط المواصلات الجوية وانابيب البترول . وكما ذكرت جريدة « لا سيري » فان « فرنسا ترضى عن كل نظام يضمن لها هذه المصالح »(١٢) .

لم يكتف المستعمرون الفرنسيون بالجيش الفرنسي المجند من فرنسا والمستعمرات بل جندوا عددا من السوريين واللبنانيين بطريقة التطوع ، وكانوا على قسمين : قسم سمي الجوقة السورية والقناصة اللبنانية والاخر الحرس السيار المرتبط بضباط الاستخبارات ، وسند المستعمرين في الريف . وبالرغم من حرص الفرنسيين على ادخال عناصر محلية موثوق بها الى الجيش ، من افراد العصابات الثائرة المستسلمة ومن البدو والفلاحين الفقراء ، ومن الاقليات ، فان النضال الوطني والشعبي المتعاظم اثر في قسم كبير من هؤلاء الجنود المحليين والضباط المتخرجين من الكلية العسكرية في حمص ودفعهم لتايد الحركات الوطنية على المستور أو المكشوف . وقدازدادت ظاهرة التأييد بروزا في اواخر الحرب العالمية الثانية بعدضعف الاستعمار الافرنسي ، وازدياد شكيمة الحركة الوطنية ومراسها .

٢ ــ المواقع الاقتصادية للانتداب الفرنسي في سورية ولبنان :

اكتسب تصدير الرساميل ، احدى سمات الامبريالية ، حدة متزايدة في فترة ما بين الحربين . وقد دفعت هذه الحدة كثيرا من الدول ، بما فيها فرنسا ، الى تشديد استثمارها للمستعمرات والبلاد التابعة ، بما فيها سورية ولبنان . والواقع ان تصدير الرساميل بدأ مع ظهور الامبريالية في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر عندماكانت بلاد الشام خاضعة للدولة العثمانية ، وازدادت حدته في سورية بعد الاحتلال الافرنسي . وهذا ما يفسر استخدام الاحتكارات الاجنبية جهاز الادارة الانتدابي الافرنسي ليكون الاداة الفعالة في فرض امتيازاتها وشروطها التعسفية على الشعب .

كانت اهم الفروع التي توجه اليها الراسمال الفرنسي هي :

١ ــ البنــــوك :

كان « بنك سورية ولبنان الكبير » وريث البنك العثماني الامبراطوري في سورية ،

اقوى واضخم شركة مصرفية نشطت في سورية ايام الانتداب . وقد اعتبر هذا البنك كما قال المفوض السامي الافرنسي دي جوفيل « سورية ملكا له » وبلغت ارباحه في سورية ارقاما خيالية(١٥) .

وقد اتهمت جريدة – القبس – الدمشقية الوطنية سنة /١٩٣٤/ « بنك سورية ولبنان الكبير » بخراب سورية الاقتصادي وتساءلت الجريدة « ماذا فعل هذا البنك ورجاله القائمون على ادارته في باريز وبيروت ودمشق ؟ سوى انه اقرض الحكومة وقبض الفائدة وادان البلديات وانتفع من ربح ديونه واي مشروع اقتصادي او تجاري او صناعي او زراعي اوجده ابناء البلاد الى المساهمة فيه فربح هو وربحوا هم معه او اية شركة مساهمة ادانها ! » وانتهت الجريدة الى القول : « ان بنك سورية ولبنان لا يريد أن يكون اكثر من صراف كبير ومراب غني ، له الغنم وعلى هذه الامة الغرم»(١٦)

لم يكن « بنك سورية ولبنان الكبير » بنكا تجاريا فحسب ، بل كان ايضا بنكا للاصدار ، ربط العملة السورية اللبنانية بالنقد الفرنسي مما ادى الى خسائر مادية رهيبة . فالبنك لم يكن يصدر اوراقه النقدية بنسبة حاجة البلاد الاقتصادية ، بل بنسبة حاجة السلطات المنتدبة ونفقات الجيوش(١٧) . ولم يكن ينظر مطلقا الى مصلحة الاقتصاد السوري . وادت تقلبات الفرنك الفرنسي في سنوات ١٩٢٤ – ١٩٢٨ – ١٩٣٦ – ١٩٣٧ – ١٩٣٨ وتدهوره الى خسائر قدرت فيما بين عامي /٩١٩–٩٢٦/ بعشرة ملايين ليرة ذهبية عثمانية(١٨) . وكان تخفيض الفرنك يقلل من قيمة الصادرات ويرفع على العكس من قيمة الواردات ، وبذلك يعمل على زيادة العجز في الميزان الحسابي ، ويؤدي الى ارتفاع مستوى الاسعار الداخلي . وقد كان لذلك نتائج اجتماعية خطيرة اثرت على معظم الفئات الاجتماعية . فقد زاد ارتفاع الاسعار الناجم عن هبوط قيمة الفرنك في احكام طوق السيد الاقطاعي او الربوي في رقبة الفلاح . وجعل العلاقة بينهما علاقة الرقيق بسيده. ومن هنا كان لهذا الارتفاع طابعه الاجتماعي الطبقي . لقد تضاءل دخل الفلاح واشتد استثماره ، وساءت بالتالي صحته . اما اغنياء الفلاحين والاقطاعيون فقد ادى بهم غلاء المنتجات الزراعية ، نتيجة هبوط قيمة النقد ، وتحمل صغار الفلاحين اكبر عبء من نفقات الاستثمار ، الى توطيد مراكزهم في الريف . فهم غير مجبرين على بيع المحصول حين جنيه ، والبنك يقرضهم بالفائدة

العادية ، وهم يقرضون الفلاحين بالفائدة الربوية . ولكن طراز معيشتهم وترفهم وتبذيرهم ساعد ، اضافة الى خضوعهم لنهب كبار الكومبرادور الى تزعزع مراكزهم المادية وفي تقرب كثير منهم اكثر فاكثر من المستعمرين(١٩) .

اما شغيلة المدن الذين لم ترتفع اجورهم مع ارتفاع الاسعار ، فقد كانت وطاة ارتفاع الاسعار وتقلبات اسعار الفرنك وبالتالي الليرة السورية شديدة عليهم مثل شدتها على المستخدمين والموظفين . اما فئة الدائنين والتجار فسنتكلم عنها بالتفصيل عند بحثنا عن أزمة /١٩٣٧/ ولكن يمكن القول ان الدائنين عانوا خسارة هامة . كما ان الحكومة نفسها لم تسلم من هذا الاضطراب الذي انعكس في موازنتها المنظمة بالنقد السوري .

واضافة الى بنك سورية ولبنان الكبير ، قامت في سورية مؤسسات مصرفية فرنسية هامة يرجع بعضها الى العهد العثماني ، عملت على ربط البلاد بمصالح الراسمال الفرنسي وتامين مواقع ممتازة لفرنسا واهم هذه المؤسسات المصرفية(٢٠) :

* البنك الفرنسي السوري ، تاسس في كانون الاول عام /١٩١٨/ من قبل الشركة العامة الفرنسية المؤسسة عام /١٨٦٤/ وعدة بنوك اخرى وانحصرت اعماله في الصرافة التجارية العامة .

* البنك العقاري الجزائري ، بدأ اعماله في سورية في عام /١٩٢١/ وفتح فروعا له في حلب (١٩٣٠) ودمشق (١٩٣١) وطرابلس (١٩٣١) .

* البنك العقاري السوري ، اسسته ايضا الشركة العامة عام /١٩١٩/ لعقد القروض وفتح الاعتمادات مقابل رهون وغيرها من الضمانات .

* الشركة الجزائرية المؤسسة (١٨٧٧) وقد بدات اعمالها في سورية عام /١٩٣١/ بفتح فرع لها في بيروت وآخر في طرابلس .

* بنك دي روما وهو بنك ايطالي بدأ العمل في سورية عام /١٩١٩/ ولكن نشاطه بقي محدودا عاكسا طموح الاستعمار الايطالي في مد سيطرته الى سورية دون جدوى .

٢ ـ الكهرباء :

قامت في اهم المدن السورية شركات كهربائية متعددة ، ذات راسمال اجنبي ، بعضها للتنوير فقط كما في حمص وحماه والاسكندرون وغيرها ، وبعضها للجر والتنوير كما في دمشق وبعضها للجر والتنوير والمياه كما في حلب(٢١) .

٣ ـ المرافىء والمستودعات :

٤ ـ الخطوط الحديدية :

كان الراسمال الفرنسي يملك معظم الخطوط الحديدية في سورية قبل الحرب العالمية الاولى مثل خطوط د.ش.ب.. اي شركة الخطوط الحديدية دمشق ـ حماة وتفرعاتها ، وهي خط دمشق ـ مزيريب ـ خط دشق ـ بيروت ـ خط رياق حماه ـ حلب خط حمص ـ طرابلس ، كما استلمت شركة د. ش. ب. ادارة الخط الحجازي عام /١٩٢٤/ . وهذا الخط الذي افتتح قبل عام /١٩٠٨/ باموال المسلمين قامت الشركة الراسمالية الافرنسية باستثماره وحققت من وراء ذلك ربحا قدره مليونا فرنك عام /١٩٢٥/ واربعة ملايين فرنك عام /١٩٢٦/(٢٢) .

٥ ـ استثمارات مختلفة :

راديو اوريان ـ فنادق الشرق الكبرى ـ شركة اللاذقية للاسفلت والبترول ـ شركةالكريديالزراعية والصناعية في لبنان ـ شركة الدراسات والتحقيقات الصناعية والزراعية والتجارية .

٦ ـ الريجي ، او احتكار التبغ :

ان افلاس الدولة العثمانية سنة /١٨٧٥/ وصدور فرمان ١٨٨١/١٢/٢٥ الذي قضى بانشاء « صندوق الدين العام » دل على ان « الدولة العلية » انتقلت عمليا في اواخر القرن التاسع عشر الى ايدي ممثلي الراسمال الاجنبي . وكان من أحد مظاهر خضوع الدولة العثمانية للاحتكارات اعطاء الراسمال الفرنسي احتكار التبغ عام /١٨٨٣/(٢٣) .

انتهى امتياز الريجي « شركة انحصار الدخان » سنة /١٩١٣/ بعد ان دام ثلاثين عاما قاست البلاد اثناءها الامرين من ظلم الريجي وقتلت هذه الشركة عددا من الاهالي باسم القانون . ورغم ان السلطات العثمانية لم توقـع الاتفاق الجديد مـع الشركة بسبب اندلاع الحرب ، فان المفوض السامي الفرنسي اعتبر هذا التجديد امرا واقعا وسمح للشركة بمزاولة عملها بعد الحرب لمدة /١٥/ عاما اعتبارا من /١٩١٤/(٢٤).

وقد اضطرت الحملة الشعبية الواسعة ضد الشركة ، المفوض السامي الى عدم تجديد امتياز الشركة سنة /١٩٢٩/ واستبدل نظام « المونوبول » اي الحصر والاحتكار ، بنظام « البندرول » اي نظام التمغة والرسم وفقا للقرار المتخذ في ١٩٣٠/٥/٣٠ وبموجب هذا القرار الحق « النيدرول بوزارة المالية »(٢٥)

ويعري الدكتور بدر الدين السباعي هذا التكتيك البارع الذي اتخذته السلطات الاستعمارية لصالح الاحتكار الاستعماري السابق . اذ لم يكن الهدف من النظام الجديد تقوية دعائم فرع هام من الاقتصاد السوري ، ولا تنمية موارد الحكومات الوطنية ، ولا انقاذ جماهير الزراع والمستهلكين من استثمار الشركة ، بل كان الهدف التغلب على النقمة السابقة واعطاء البرهان « العملي » على ان الرجوع الى الانحصار خير للجميع(٢٦) .

وتصف جريدة الاحوال البيروتية الوضع المتأزم بعد انتهاء مهمة شركة انحصار الدخان في /٣١/ ايار عام /١٩٣٠/ وكيف ان التجار والباعة رفعوا اسعار الدخان والتنباك الى حد فاحش حتى ضج الناس من معاملتهم وصاروا يترحمون على الريجي . اما الحكومة فلم تبد حراكا(٢٧) .

وفي البدء ابتهج الناس كثيرا ـ كما ذكر الكيالي ـ بالغاء نظام المونوبول وابداله بنظام البندرول وارباحه زراعة التبغ وعمله وانشاء المعامل لصنعه التي بلغت في عام /١٩٣١/ (٢٠) معملا(٢٨) .

وفي هذه الاثناء (١٩٣٠ ـ ١٩٣٤) نشب صراع حاد بين المعامل الوطنية والشركات الاجنبية وبالرغم من عدم حماية السلطة للصناعة الوطنية ، فقد كتب لها الفوز واستطاعت أن تتغلب على الشركات الاجنبية في مجال المنافسة الحرة .

وقد ايدت القوى الوطنية في سورية نظام البندرول ودعمت المعامل الوطنية في صراعها مع (شركة انحصار الدخان) اي الريجي وعندما سرت في خريف /١٩٣٢/ شائعات تسليم ادارة الحصر مرة اخرى لشركة اجنبية ، اعتبرت جريدة القبس الدمشقية الكتلوية ذلك « افظع جريمة وطنية » وكتبت بان « السوريين احق من الاجانب باستثمار اموالهم » كما دعت جريدة الكتلة الوطنية اصحاب المعامل الوطنية للاتفاق على تاليف شركة واحدة سورية(٢٩) .

والواقع ان الشائعات ، التي سرت في خريف عام /١٩٣٢/ حول تسليم ادارة الحصر مرة اخرى الى الريجي لم تكن عارية من الصحة . فشركة الريجي التي سمت نفسها اثناء مدة البندرول (١٩٣٠ ـ ١٩٣٤) باسم « شركة حصر الدخان » كانت ذات نفوذ واسع وعلى اتصال وثيق بكتل وشركات فرنسية عديدة ، ككتلة « بنك باريس والبلاد المنخفضة » و « البنك العقاري السوري » و « بنك الهند الصينية » و « شركة الميساجيري ماريتيم » وغيرها من الكتل الراسمالية الاحتكارية. ولهذا استطاعت بفضل نفوذها اصدار قرار عن طريق المفوض السامي بونسو في ١٩٣٤/١١/٢٧ بالغاء نظام البندرول ، واخضاع زراعة التبغ وبيعه وصنع السكاير وبيعها الى نظام الحصر(٣٠) اي الى عودةالريجي مرة ثانية لاستثمار الفلاحين والشعب بمجموعه .

اثار قرار الغاء نظام البندرول واستبداله بنظام الحصر موجة استياء عارمة في صفوف الشعب(٣١) . فالشركات الوطنية طالبت بمنع اعطاء نظام الحصر لشركة اجنبية . واحتج على القرار ايضا مزارعو قضاء جسر الشغور وحارم وسلقين وادلب ومحافظة دير الزور . كما اصدرت الكتلة الوطنية بيانا استنكرت القرار الذي يخالف مصالح البلاد الاقتصادية . كما جرت مظاهرة في دمشق اجتمعت في الجامع الاموي . وارسل النائب فخري البارودي برقية باسم المتظاهرين احتجاجا « على ارجاع نظام حصر الدخان الذي اضر بالبلاد ضررا بليغا ، بالنفوس ، وبالاموال » .

وبلغت النقمة اشدها في لبنان حيث قابلت في كانون الاول عام /١٩٣٤/ لجنة منتخبة من نواب المجلس النيابي اللبناني المفوض السامي وقدمت له المطالب التالية:

١ ــ الدفاع عن اليد العاملة .

٢ ــ حماية الزراعة .

٣ ــ الدفاع عن حقوق اصحاب المعامل .

٤ ــ الدفاع عن حقوق الراسمال اللبناني في استثماراحتكار التبغ،ايا كان شكله.

٥ ــ المحافظة على حقوق الدولة في التصرف بالاموال التي تنتج لها من هذا الاستثمار تصرفا حرا .

والملاحظ ان اصحاب معامل الدخان السورية واللبنانية لم يكونوا من حيث المبدأ ضد اعطاء الاحتكار لشركة اجنبية ، اي للريجي . وبمعنى آخر انهم كانوا مع الاحتكار اذا كان في صالحهم .

لقد شملت الحملة الشعبية ضد نظام الحصر فئات واسعة من السكان كانت فيما مضى ضحية هذا النظام . فالفلاح لم يكن حرا في انتاج التبغ في ظل نظام الحصر ، الذي كبله بقيود الحد الادنى والاعلى لمساحة الارض المزروعة . واثرت هذه السياسة على فئات كبيرة من المنتجين في الريف وقادتهم الى الخراب والفقر ، مما ادى الى هجرتهم الى المدينة أو خارج البلاد . كما تاثر المستهلكون ، الذين اضطروا لشراء التبغ والسكاير بالاسعار التي تفرضها الشركة المحتكرة . واخيرا فان اصحاب المعامل الوطنية والعاملون معهم سينهارون في حال رجوع الاحتكار السابق ، وستحل البطالة باعداد ضخمة من الحرفيين . وهذا ما يفسر اتساع وعمق المقاومة الشعبية لنظام الاحتكار ، التي اتخذت طابعا اقتصاديا ووطنيا في آن واحد.

ولكن سلطات الانتداب العليا الخاضعة والمنفذة لمشيئة الاحتكارات المالية ومن ضمنها شركة الريجي ، لم تعر احتجاج البلاد اهمية ، ولم تنظر الى مصلحة الفئات الشعبية المختلفة ، بل كان همها اولا وآخرا تحقيق مصالح الطغمة المالية الفرنسية وتامين اقصى ما يمكن من الارباح لها عن طريق اصدار القوانين التي تخدم مصالح هذه الشركات .

في /٢٥/ كانون الثاني /١٩٣٥/ اصدرت المفوضية في بيروت بيانا اعلنت فيه نبا شروط اخذ المونوبول كما يلي(٣٢) :

١ ـ تستثمر هذا الحصر ادارة ريجي ذات انتفاع مشترك حتى غاية /٣١/ كانون الاول سنة /١٩٦٠/ ويحق للسلطة التي تمنح الامتياز ان تشتريه بعد خمس عشرة سنة .

٢ ـ يتحدد راس مال الشركة بـ / ١٫٣٥٠٫٠٠٠ / ليرة لبنانية سورية ويكتتب به حسب الشروط التالية : / ٦٠٪ / تخصص لاصحاب المصالح الموجودة الان في البلاد ، ويجوز لهؤلاء أن يخصصوا لاكتتابهم القيمة التي تحصل عن بيع المكنات والالات والمصنوعات التي لديهم او قسما منها و / ٣٠٪ / تخصص لصاحب الامتياز و / ١٠٪ / تطرح للاكتتاب وتخصص لاهالي الدولة المشمولة بالانتداب الفرنسي .

وفي هذه الاثناء حاول بعض الراسماليين اللبنانيين الحصول على الامتياز فلم يفلحوا ، كما تالفت شركة حلبية سافر اعضاؤها في شباط الى بيروت لنيل الامتياز فلم تحظ بالموافقة . وبدا واضحا ان سلطات الانتداب الاستعمارية الفرنسية لم تكن تبغي من وراء نشر دفتر الشروط اعطاء الامتياز الى شركات وطنية ، بل كان همها ارجاع الاحتكار السابق الذي استثمر الشعب منذ /١٨٨٣/ الى يوم اضطرار سلطات الانتداب لالغاء الاحتكار في عام /١٩٣٠/ مستغلة نقائص نظام البندرول بين اعوام /١٩٣٠ ـ ١٩٣٤ / وهذا العمل دليل واضح على مقاومة الاستعمار للشركات الوطنية ولقيام الصناعة الوطنية وهو يكشف القناع عن الغاية النبيلة و «الحضارية» للانتداب .

في ١٩ شباط /١٩٣٥/ صدر قرار المفوض السامي باعطاء امتياز « حصر التبغ » الى الشركة المؤلفة من اصحاب المعامل الاتية اسماؤهم : الحاج عثمان الشرباتي « دمشق » الحاج رشدي السكري « دمشق » السيد قاصوف « لبنان » السيد صوايا « لبنان » وشركة حصر الدخان « الريجي » وعلى القارىء الا يغتر بكثرة الاسماء « الوطنية »التي حصلت على الامتياز مع الريجي ، فعدد اسهم كل منهم يدل على ان حصة الاسد كانت بيد شركة الريجي(٣٢) .

ان سياسة اعطاء بعض المؤسسات الاقتصادية ، وحتى السياسية صبغة وطنية او عربيــة تختفي وراءها الاوجه الاستعمارية الكالحة ، ليست جديدة في التــاريخ العربي الحديث .

فالمستعمرون حاولوا ويحاولون في الحالات التي لا يستطيعون دخول البلاد من الباب المحروس ، القفز من النافذة بمعونــة بعض الفئات العليا من السكان المحليين. فمجلس ادارة الشركة الجديدة تالف من /١٧/ عضوا : /٧/ من الفرنسيين ، و /٣/ من الانكليز ، و /٤/ من السوريين ، و /٤/ من اللبنانيين يمثلون مصالح الرأسمال الوطني(٢٤) .

ادى قرار اعطاء الامتياز الى هذه الشركة ، التي تشرف عليها الريجــي ، الــى قيام المظاهرات في حماه وحلب ودمشق ، ثم اتسعت الحملة فشملت بطريرك الموازنة وبعض مطارنة الطوائف الاخرى . كما احتجت غرف التجارة والزراعة في معظـــم المدن السورية(٢٥) .

وتشكلت في بعض المدن لجان لمقاومــة التدخين ومن اجل مقاطعــة المصنوعات الاجنبية ولكن رد السلطات الفرنسية لم يكن الا الضغط والارهاب والسجون لكل من يقف في وجه شركة الريجي سواء مــن المستهلكــين او المنتجــين الزراعيــين او الصناعيين .

وكمثال على ذلك قيام شركة الريجي بدمشق بتسريح العمال : عبد الحميد قطيط وعز الدين عابدين ورفاقهم من عمال معمل الدخان ، وقد طالب هؤلاء مــن المجلس النيابي في جلسة /٣٠/ تشرين الاول /١٩٣٧/ وضع حد لتصرفات الشركة « وحفظ حقوق جميع عمال معامل الدخان وحين الاستغناء عنهم التعويض على جميــع مــن يتقرر اخراجه »(٣٦) .

ولما لم يكن بامكان المجلس النيابي ولا الحكومة الوطنية في ذلك الوقت الوقــوف امام شركة الريجي الاستعمارية ، فان رئيس المجلس احال العريضة الى لجنة العرائض(٣٧) . والمعروف ان لجنة العرائض في المجلس النيابي كانت عبارة عن مقبرة لدفن وامتصاص النقمة الشعبية في حــال عدم تمكــن البرجوازيــة مــن تحقيــق

المطالب الشعبية ، أو في حال معارضة هذه المطالب لمصالح البرجوازيـة الطبقيـة بالـذات .

وسنرى فيما بعد اصداء مقاومة الفلاحين والشعب للريجي في جريدة « صـوت الشعب » البيروتيـة .

٧ ـ الرساميل الاجنبية غير الفرنسية :

كانت الرساميل الاجنبية غير الفرنسية محدودة النشاط في سورية ولبنان ،على الرغم من محاولات التغلغل المتكررة . فالراسمال الايطالي نشط قليلا في سورية عن طريق « بنك دي روما » . والراسمال البلجيكي شارك الراسمال الفرنسـي في شركات الكهرباء وشركة اسفلت اللاذقية . كما ان «بنك مصر» اسس في عام/١٩٢٩/ بمساعدة متمولين سوريين ومصريين « بنك مصر وسورية ولبنان » ولكـن اعمالـه اقتصرت على الامور التجارية .

اما الراسمال الانكليزي فلم يبدأ بالتغلغل الجدي في سورية ، الا بعد دخـول شركة اي . بي . سي . البلاد عام /١٩٣١/ . وبعد ان انتهى مد الخط البترولي الى ميناء طرابلس في تشرين الثاني /١٩٣٢/ اصبحت شركة آي. بي. سي. احدى ركائز الاستعمار الانكليزي في سورية ولبنان(٢٨) . وكان التوظيف في الشركة لا يجري حسب كفاءة الموظف ومقدرته ، بل حسب حاجة الشركة الى كسب ولاء الشخصيات السياسية والزعماء المحليين ، حتى يكونوا حصان طروادة داخل الحركة الوطنيـة ، يمثلون مصالح الاستعمار بشكل عام والاستعمار الانكليزي بشكل خاص والدعاية له والتسبيح بحمد الاستعمار والراسمالية ورواتب الشركة الضخمة .

كما قاومت الشركة كل نضال عمالي ووطني وشجعت الاتجاهـات الرجعيـة وقدمت المعونات لها حتى تقف في وجه النضال الوطني الحقيقي وتعرقل كـل تقدم تحرزه البلاد . وقد تعالت الاحتجاجات في مختلف المناطق على سياسـة الشركـة الاستعماريـة .

وطلب الميكانيكيون وسائقو السيارات بدمشق من المجلس النيابي في نيسـان

/١٩٣٧/ بعدم استخدام الاجانب في شركة البترول وتشغيل العمال الوطنيين(٣٩) . كما طالبت عريضة من مندوبي العمال في دير الزور بترجيح استخدام العامل الفراتي بأعمال شركة النفط العراقية على غيره(٤٠) .

٣ ـ اثر سياسة الانتداب الافرنسي على الزراعة وانتاجها

كانت مساحة الارض القابلة للزراعة في سورية ولبنان بعد الحرب العالمية الاولى تبلغ نحو / اربعة / ملايين هكتار(٤١) . ولكن هذه المساحة لم تكن تستثمر بمجملها . فلم تتجاوز مساحة الاراضي المزروعة فعلا سنة /١٩٢٢/ اكثر من /١/ مليون هكتار ارتفعت الى /١٫٦/ مليون هكتار عام /١٩٢٨/ ثم انخفضت الى /١٫٣/ مليون هكتار سنة /١٩٣١/ واستمر التناقص حتى عام /١٩٣٣/ فبلغت مساحة الارض المزروعة مليون هكتار فقط . وفي عام /٩٣٥/ بدات هذه المساحة بالارتفاع فبلغت /١٫٧٥/ مليون هكتار ، واستمرت في الزيادة فاصبحت في سنة /١٩٣٨/ (٢٫٣) مليون هكتار ، ولم تتجاوز في نهاية الاحتلال الافرنسي عام /١٩٤٦/ اكثر من / ٢٫٢٤٩٠٫٠٠٠ / هكتار(٤٢) .

ومعنى ذلك ان عهد الانتداب الافرنسي بسنواته الخمس والعشرين لم يؤد الى زراعة جميع الاراضي القابلة للزراعة . ومع انتهاء فترة الانتداب كانت لا تزال نصف الاراضي الصالحة للزراعة بدون استثمار . ولم تحاول سلطات الانتداب الافرنسي طوال فترة حكمها (١٩٢٠ ـ ١٩٤٣) العمل بجدية لاستصلاح الاراضي القابلة للاستصلاح او زيادة مساحة الاراضي المزروعة ، باستثناء اصلاح سد بحيرة قطينة وزيادة مساحة الاراضي المروية بمقدار ضئيل . كما لم تقم سلطات الانتداب الافرنسي بأي مشروع جدي يؤدي الى زيادة مساحة الاراضي المزروعة مثل : تجفيف المستنقعات في سهل العمق والروج والغاب في وادي العاصي ومستنقع العتيبة قرب دمشق . كما بقيت مساحات واسعة من الاراضي مهملة بسبب نقص وسائل الري. فما كان يمكن سقيه من الاراضي في عام /١٩٣٧/ بلغ / ٦٤٠٫٠٠٠ / الف هكتار لم يسق منها الا ربعها(٤٣) . كما ان عدم شيوع استعمال الطرق الحديثة ، مضافا اليها الغزوات التي قامت بها القبائل البدوية على اطراف (المعمورة) في اوائل عهد

الانتداب واضطراب الامن ، كل ذلك حد من تطور الزراعة ومن زيادة الانتاج ، وجعل قسما من المنتجين يعيشون في خوف على حياتهم ومنتجاتهم .

اما انخفاض مساحة الارض المزروعة في اعوام / ١٩٣٠ ـ ١٩٣٣ / فلا يرجع الى سياسة الاستعمار الافرنسي ، بل الى عوامل خارجية مثل : القحط الذي اصاب البلاد في هذه السنوات ، وتأثير الازمة الاقتصادية العامة للنظام الراسمالي في الزراعة وانخفاض التصدير ، الذي تألف بمعظمه من المحاصيل الزراعية .

والواقع أن تغيرات معينة حدثت في الريف بعضها من آثار الانتداب والآخر نتيجة التطور العام . ولنأخذ مثلا على ذلك ما كتبه في /٢٥/ ايار /١٩٢١ / متري حبيب متري في جريدة « الف باء » تحت عنوان « آلاف القلمون » .. « كان الفلاح ينتفع من محصول «الفوة» ولكن الصبغة قضت على « الفوة » .. وكان الاهلون يعتنون بتربية الجمال حتى ان النبك وحدها كان لديها مالا يقل عن /٨٠٠/ جمل يتجر بها في جميع الجهات ، ولكن السكة الحديدية ثم السيارات قضت عليها .. وكان هناك محصول « القلي » وسرعان ما اصبح القلي نسيا منسيا واستعيض عنه بـ « النطرونة » التي تستورد من الخارج .. وهذا مما زاد في اسباب الهجرة الى امريكا .. ولعبت الايدي « تقطيعا » في احراج القلمون فشحت المياه . وكانت الكروم مملوءة باشجار الكمثرى (الاجاص) ولكن تسلطت عليه منذ بضع سنوات حشرة يدعونها هنا « جيزا » . كما تسلطت على اشجار المشمش حشرة « الحلوش »(٤٤) ..

مقابل هذه العوامل حبت الطبيعة سورية مناخا صالحا لنمو عدد من الاشجار المثمرة ، التي تولاها الفلاح بالعناية ، وصمد بعناد في وجه الامراض التي اصابت هذه الاشجار دون ان يستطيع مقاومتها ، ووقف مكتوف اليدين امام الافات الطبيعية التي اصابت المحاصيل ، وعلى الرغم من ذلك فان انتاج الاشجار المثمرة ، بالاضافة الى الحبوب ، كانت من المحاصيل التي قدمت للفلاح الفقير غذاءه الرئيسي .

كانت شجرة الزيتون من تلك الاشجار ، التي ساعدت على تقديم الغذاء للفلاح،

وتميزت بانتشارها في كثير من مناطق البلاد ، اذ بلغت مساحـة الارض المزروعـة زيتونا (٧٥٫٠٠٠) هكتار احتوت على عشرة ملايين شجرة زيتون .

وامكن بواسطة انتاج الزيت والزيتون سد حاجة الفلاحين من المواد الغذائية الرخيصة التي لم يكن بامكانهم الحصول عليها عن طريق اللحوم .

واضافة الى الزيتون قامت شجرة المشمش بدور لا باس به في الانتاج الزراعي . فقد بلغ انتاج المشمش عام / ١٩٣٢ / (٢٠٫٨) مليون كغ ، اي ما يعادل / ٥٪ / من الانتاج العالمي ، وانتجت الكرمة التي انتشرت في أوائل الثلاثينات على مساحة تعادل ٥٠٫٠٠٠ هكتار ، حوالي /٧٢/ مليون كغ (٤٥) دونم يستثمر منها في صناعة الخمور المربحة الا جزء يسير في حين تحول الباقي الى انتاج رخيص غير اقتصادي ، هو الزبيب والدبس . والى جانب الكرمة كانت زراعة البطيخ والخوخ والتين وغيرها منتشرة على نطاق واسع وسدت فراغا ملحوظا في غذاء الفلاحين . وعلينا الا ننسى أيضا زراعة البرتقال والليمون والموز المنتشرة على الشريط الساحلي .

لم تكن الزراعات السابقة تحظى بعناية سلطات الانتداب ، التي اهتمت بالانتاج الزراعي الملائم للصناعة الراسمالية فقط . فشجرة التوت مثلا حظيت باهتمام سلطات الاحتلال الافرنسي وتشجيعها لها . فمنذ بدء الاحتلال الافرنسي للساحل السوري في اواخر / ١٩١٨ / بديء بغرس شجرة التوت في العام التالي مباشرة أي فـي عـام ٪ ١٩١٩ / . وقد بلغ مجموع ما غرس في سنوات مابعد الحرب / ٧ / ملايين غرسة توت(٤٦) . وقد كانت زراعة شجرة التوت وتربية بيوض الحرير وشرانقه والعنـايـة بانتاجه تجري برعاية الفنيين الفرنسيين . وهذه الزراعة كانت من المحاصيل الرئيسية التي اهتم بها الافرنسيون لسد حاجة معامل ليون الى الحرير الخام . وقـد جرى في عام / ١٩٣٠ / وحده تصدير حوالي / ٣٩٠٫٠٠٠ / كلغ شرانق و ٪ ٢٣٠٠٠٠ / كلغ حرير شاب . وبلغ انتاج سورية ولبنان / ١٫٦٪ / من الانتاج العالمي للحرير الطبيعي، صدر كله الى فرنسا .

سعى الراسماليون الفرنسيون جهدهم لتشجيع المزروعات الملائمة لصناعتهم ، وقد اهتمت سلطات الانتداب اضافة الى شجرة التوت ، بزراعة التبغ التي احتكرتها

الشركات الاحتكارية الاستعمارية (الريجي) وذهب جزء من ارباح هذه الزراعة لسد نفقات سلطات الانتداب .

ففي أواسط الثلاثينات بلغت مساحة الاراضي المزروعة تبغا نحو / ٥٠٠٠ / هكتار أعطت بين / ٢ / و ٢ ١/٢ / مليون كغ من التنباك الذي صدر ثلثه الى الولايات المتحدة وانكلترا وذهبت أرباحه لاحتكار الريجي ولخزينة « دولـة الانتداب »ولـم يحصل الفلاحون الا على النزر اليسير .

عرفت سورية زراعة القطن واشتهرت به منذ اكثرمن/ ٧٠٠/عام وقد توجهت انظار راسماليي صناعة النسيج الاجانب الى مصر وسورية لسد الحاجة الى هذه المـادة الخام في صناعة النسيج ، ولهذا تاسس عام / ١٩٢٢ / في باريس «الاتحادالاقتصادي السـوري » وهدف الى دراسة قضايا سورية الزراعية والتجارية والصناعية والدفاع عنها وتطويرها في اطار المصالح الفرنسية(٤٧) .

ومن اجل تحقيق هذه الغاية قدمت البعثات الى سورية واجريت التجارب على زراعة القطن وجرى التفكير ببناء سد على الفرات لري الاراضي المزروعة قطنا . كما فكر احد الراسماليين اليهود بتجفيف سهل الغاب للغاية ذاتها . ومع أن هذه المشـاريع بقيت في دفاتر المخططين دون تنفيذ ، الا انها دلت على مدى طمع الراسماليين فـي استثمار ثروات البلاد لصالح جيوبهم وخزائنهـم ، وليس من اجـل مصلحة ورفـاه الشـعب .

في أوائل عام / ١٩٢٧ / انشات نقابة الصناعة الالزامية مركزا لزراعة القطن في جبلة. كما وضع في العام نفسه برنامج لاجل زراعة القطن في سائر أنحاء سورية اشتركت في وضع مصلحة الدولة وشركة نقابة الصناعة الالزامية وغرفة التجـارة في ملهـوز والشركة الالزاسية للانشاءات الميكانيكية(٤٨) .

ومنذ عام / ١٩٢٥ / اخذت زراعة القطن بالتطور فزرعت بذور القطن التكساسي كما ازدادت مساحة الاراضي المزروعة . حيث بلغت في عام / ١٩٣٣ / نحو / ٥٧٣٩ / هكتارا في مناطق عكار ووادي العاصي وسهل العمق والبقاع وشمال سورية ، وبعد

عام ارتفعت مساحة الاراضي المزروعة سنة / ١٩٣٤ / الى / ٦٣١٦ / هكتارا(٤٩) . مما يدل على انتشار زراعة القطن بالنسبة لذلك العهد .

ومن الثروة الحيوانية نلاحظ أن حظها لم يكن احسن من حظ الحاصلات الزراعية ، فعدد الاغنام مثلا لم يزدد خلال فترة الانتداب بسبب الضريبة الفاحشة التي فرضتها السلطات على الماشية ونتيجة لافتقار البلاد الى المراعي الاصطناعية وقلة الاهتمام بالطبابة البيطرية .

أما عدد الابقار والماعز فازداد نسبيا بسبب انعدام الضرائب عليها . وكذلك الامر بالنسبة لحيوانات الركوب والجر ، في الوقت الذي لم تكن السيارة قد انتشرت بعد على نطاق واسع وكانت حيوانات الركوب هذه ذات ضرورة اقتصادية هامة(٥٠) .

لم تقف « المعارضة الوطنية » مكتوفة الايدي أمام السياسة الاستعمارية ازاء المسالة الزراعية ، بل أن هذه المعارضة المتمثلة بشكل رئيسي في الكتلة الوطنية طالبت في أواخر / ١٩٣٤ / بتنشيط الزراعة عن طريق « تخفيف الضرائب » وانقاذ المزارع من ظلم المرابين والدرك والمليس★ وتهيئة الوسائل العلمية والفنية لزيادة محصولاته وارشاد ذويه وتعليم أبنائه وحماية أسرته(٥١) .

وبالرغم من صحة ماذكرته هذه المعارضة ذات الميول البرجوازية والاقطاعية والليبرالية ، الا انها تجاهلت عاملا هاما وأساسا أخر تقدم الانتاج الزراعي وزيادة محصول الارض ، وادى الى تأخر الفلاح وبؤسه وشقائه ، وهذا العامل هو أسلوب الاستثمار الاقطاعي ، السائد في معظم المناطق ، الذي عرقل نمو القوى المنتجة في الريف وتطورها . وهذا يقودنا بالضرورة الى محاولة فهم أشكال الملكية السائدة في عهد الانتداب ، التي عرقلت التقدم وحدت من تطور القوى المنتجة .

* * *

★ ـ « المليس » قوة عسكرية انشاها الفرنسيون ، في الاقضية .

هوامش الفصل الأول

(١) ـ انظر حول أسباب انهيار الدولة العربية في دمشق : حنا عبد الله « الحركة القومية العربية في بلاد الشام (١٨٥٠ ـ ١٩٢٠) لايبزغ / ١٩٦٥ / (بالالمانية) » .

(١) ـ انظر الصك الحرفي لصك الانتداب في : العياشي غالب : « الايضاحات السياسية واسرار الانتداب الافرنسي في سورية » بيروت ١٩٥٥ ، ص ١٧٠ ـ ١٧٥ / .

(٣) ـ الشهابي مصطفى : « محاضرات في الاستعمار » معهد الدراسات العربية العليا القاهرة / ١٩٥٧ / ص / ٦٠ / .

(٤) ـ المصدر نفسه ص / ٦٥ / .

(٥) ـ المصدر نفسه ص / ٧٠ / .

(٦) ـ دروزة عزة : « حول الحركة العربية الحديثة » جـ / ٢ / صيدا / ١٩٥٠ / ص / ١٦٣ /.

(٧) ـ بيهم محمد جميل : « الانتدابان في العراق وسورية ، انكلترا ـ فرنسا » صيدا ١٩٣١ ص / ١٠٨ / .

(٨) ـ جريدة » الشعب « في ١٦ / ١١ / ١٩٣٠ / .

(٩) ـ الشهابي ..... ص / ٧٥ / .

(١٠) ـ ان الاسماء الطنانة للوزارات والمناصب ايام الانتداب كانت اشبه بالطبول الفارغة الجوفاء .

(١١) ـ كرد محمد علي : « المذكرات » جـ / ٢ / ، دمشق / ١٩٤٩ / ص / ٣٥٢ / .

(١٢) ـ حوراني البرت : « الفكر العربي في عصر النهضة » / ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩ / بيروت بلا تاريخ ص / ١٥٥ / .

(١٣) ـ نقلا عن : « الايام » الدمشقية في ١٣ / ١٢ / ١٩٣٢ / .

(١٤) ـ الشهابي .... ص / ١٥٣ / .

(١٥) ـ انظر ارباح البنك في : حمادة سعيد : « النظام النقدي والمصرفي في سورية ـ بيروت » ص / ١١٥ / .

(١٦) ــ « القبس » الدمشقية في ٧ / ١١ / ١٩٣٤ / .

(١٧) ــ مشي وعرسي .. ص / ١٦ / .

(١٨) ــ المصدر نفسه ص / ٢٠ / .

(١٩) ــ السباعي بدر الدين « اضواء على الراسمال الاجنبي في سورية » / ١٨٥٠ ــ ١٩٥٨ / دمشق بلا تاريخ ص / ١٠٦ / .

(٢٠) ــ عرسي .... ص / ١٢٨ / .

(٢١) ــ يسرد السباعي تفصيلات وافية عن سرقة هذه الشركات الاجنبية لاموال الشعب .. ص / ١٦١ ــ ١٧١ / .

(٢٢) ــ المصدر نفسه ص / ١٤٨ / .

(٢٣) ــ السباعي .. ص / ٤٢ ــ ٤٦ / .

(٢٤) ــ الكيالي عبد الرحمن : « المراحل في الانتداب الفرنسي وفي نضالنا الوطني » حلب /١٩٥٨/ ج / ٣ / ص / ١ / .

(٢٥) ــ مجلة « الشرق الاوسط » الالمانية / ١٩٣١ / ص / ٣٧٤ / .

(٢٦) ــ السباعي .... ص / ٧٢ / .

(٢٧) ــ « الاحوال » البيروتية في ٦ / ٦ / ١٩٣٠ .

(٢٨) ــ الكيالي ... ص / ١٠ / .

(٢٩) ــ « القبس » في ٢٢ / ١١ / ١٩٣٢ / .

(٣٠) ــ السباعي .... ص / ٦٧٩ / .

(٣١) ــ راجع اختيار اخبار مقاومة الشعب لاحتكار الدخان في : الكيالي ... ج / ٣ / ص / ١١ ــ ٣٠ / .

(٣٢) ــ الكيالي ... ج / ٣ / ص /٣٧ / .

(٣٣) ــ السباعي ... ١٧٨ ومجلة « الشرق الادنى » الالمانية / ١٩٢٥ / ص / ١٧٩ / .

(٣٤) ــ السباعي ... ص / ١٧٨ / .

(٣٥) ــ الكيالي .. ج / ٣ / ص / ٤٦ ــ ٧٢ ــ ٧٣ / .

(٣٦) ــ « الجريدة الرسمية » العدد / ٤٢ / (١٩٣٧) ص / ٦٧ / .

(٣٧) ــ المصدر نفسه .

(٣٨) ــ انظر حول النزاع الفرنسي البريطاني مقال « ازفستيا » السوفياتية ، الذي نشرته جريدة « الف باء » الدمشقية حرفيا في / ١٧ / تموز / ١٩٣١ / .

(٣٩) ـ مذكرات المجلس النيابي / ١٩٣٧ / جلسة / ١٧ / نيسان / ١٩٣٧ / ص / ٧ / .

(٤٠) ـ مذكرات المجلس النيابي / ١٩٣٧ / جلسة / ٥ / ايار / ١٩٣٧ / ١٣٥٦/ .

(٤١) ـ مجلة ايل دينست الالمانية عام / ١٩٣٥ / شوالين استيفس كريستوف : النضال التحرري في سورية لايبزغ / ١٩٣٩ / ص / ١٢٤ / .

(٤٢) ـ السمان ... ص / ٩ / .

(٤٣) ـ النشرة الاقتصادية للغرفة التجارية بدمشق عام / ١٩٣٧ / عدد كانون الاول ص / ٣٦ / .

(٤٤) ـ «الف باء» في / ٢٥ / ايلول / ١٩٣١ / .

(٤٥) ـ مجلة دينست الالمانية عام / ١٩٣٥ / .

(٤٦) ـ المصدر نفسه .

(٤٧) ـ السباعي بدر الدين : اضواء على الراسمال الاجنبي في سورية دمشق بلا تاريخ ص / ١٢٩ /.

(٤٨) ـ جريدة الاحوال البيروتية ، / ٦ / حزيران / ١٩٢٧ / .

(٤٩) ـ السباعي ... ص / ١٩٣ / .

(٥٠) ـ الجدول التالي (انظر الصفحة ٧٩) يبين التطور البطيء لعدد حيوانات الركوب والماشية خلال عهد الانتداب .

(٥١) ـ الكيالي ، الراحل ... جـ / ٢ / ص / ٢٨٣ / .

* * *

الفصل الثاني

أشكال الملكية الزراعية والضرائب

١ ـ اشكال الملكية الزراعية وطرق استثمارها :

لم تغير اشكال الملكية الزراعية في عهد الانتداب تغيرا جوهريا عما كانت عليه في العهد العثماني . وبقيت الارض المملوكة ملكية فردية قليلة نسبيا . في حين اتسعت مساحة الاراضي الاقطاعية على حساب اراضي أملاك الدولة والاملاك الفردية . ويرجع احد الاسباب الرئيسية لاتساع أراضي الاقطاعيين على حساب أراضي « السلطان » أو « الدولة » مجيء حاكم اجنبي غير مسلم ليس له حق تملك الارض شرعا ، كما كان الامر سابقا . ففي العهد العثماني كانت ملكية الارض تخضع على الغالب لتلك النظرية التي تعتبر الحاكم هو المالك الحقيقي لاراضي البلاد بأسرها ، وهو الذي يقطعها لمن يشاء من الاتباع ، وهؤلاء بدورهم يقطعونها لاتباعهم . واذا تخلف هؤلاء عن دفع ما فرضه السلطان عليهم فان الالتزام يسحب منهم ويعطى لغيرهم من أمراء الاقطاع ، الذين تكون قسم كبير منهم ارستقراطية أجنبية لا تعرف في الغالب كلمة واحدة من لغة الشعب .

لقد تغيرت الاحوال بعد انهيار الدولة العثمانية الممثلة للخلافة في نظر الناس ومجيء دولة اجنبية لا حق لها من الوجهة الشرعية في ملكية الارض ، كما كان الامر بالنسبة للدولة « العلية » ولهذا فان سلطات الانتداب كانت مضطرة للتلاؤم مع هذا الواقع الجديد ، وخلق طبقة اقطاعية مستقرة مطمئنة على « أملاكها » من المصادرة . وكانت هذه الطبقة الاقطاعية مؤلفة من الاقطاعيين القدامى ، الذين أخذوا في التكون

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعد صدور قانون الاراضي لعام / ١٨٥٨ / .
وكنا قد تكلمنا عنهم بالتفصيل في الكتاب السابق ، ومعظم هؤلاء زحفوا على بطونهم امام المستعمر الجديد ، والى جانب هؤلاء ظهرت فئة من الاقطاعيين الجدد في صفوف مشايخ العشائر وأمراء القبائل ومن بعض كبار الموظفين ومتنفذي الريف والمدينة ، وأصحاب الحول والطول في كسب الأنصار لسلطات الانتداب .

هذا هو التغيير الجوهري ، الذي جرى في اشكال الملكية ، وهو تغير لم يؤد الى خراب الطبقة الاقطاعية ، بل أسهم في بلورتها وصياغة معالمها ورسم حدودها ، لكي تكون سندا قويا للمحتل الجديد .

فانواع الملكية السائدة في عهد الانتداب كانت شبيهة في خطوطها العامة بالملكية في العهد العثماني ، مع اختلاف نسبي في نسبة كل نوع من انواع الملكية . كما أن هذه النسبة اختلفت من منطقة الى أخرى . ففي لبنان مثلا طرات تبدلات أعمق مما جرى في المناطق السورية الاخرى بسبب حرب / ١٩١٤ ــ ١٩١٨ / والمجاعات والهجرة ، التي اثرت تاثيرا كبيرا على وضع الملكيات الصغيرة والمتوسطة بمعنى ان تملكا قدحصل هنا ، بفعل ضغط تلك الظروف ان اتسعت ملكية الاقوياء والمتمولين والاديرة على حساب : « مجاعة وضعف وعجز المدينين وعلى حساب العديد ممن ترك أرضه وهاجر طلبا للرزق والعمل »(١) .

وهكذا ، نزعت يد وحلت محلها يد اخرى ، فصار من الضروري أن توضع القوانين في عهد الانتداب لتكرس هذا الواقع وتثبت تلك اليد « بصيغة حقوقية تعبيرا عن الشروط الاقتصادية لحياة المجتمع » .

وقبل صدور قانون الاراضي الجديد عام / ١٩٣٠ / صدر منذ عام / ١٩٢٢ / عن المفوضية العليا للانتداب الفرنسي عدد من القرارات لتعديل بعض احكام القوانين العثمانية .

استهدف « قانون الاراضي الجديد » ذي الرقم / ٣٣٣٩ / الصادر عن المفوض السامي للجمهورية الفرنساوية بتاريخ / ١٣ / تشرين الثاني سنة / ١٩٣٠ / والمؤلف من /٢٧١/ مادة(٢) ، ايجاد اسس تجعل الملكية التي حصل عليها اصحابها ، نادرا بصورة شرعية ، وغالبا بصورة غير شرعية ، قانونية ثابتة ، مستقرة الحدود ، تمكن اصحابها من البيع ، وتؤمن الشاري من المنازعات القضائية . وهذا القانون أوجد نظاما جديدا لتسجيل الاراضي وتسليف الاموال عليها ولتحسين حراثتها وزرعها . واضافة الى ذلك جاء محتويا على اضافات واجبة لا سيما ما تعلق منها بالرهون والديون .

كانت الاراضي بمقتضى القانون العثماني مقسمة الى خمسة اقسام :

١ ــ الاراضي المملوكة .

٢ ــ الاراضي الاميرية .

٣ ــ الاراضي الموقوفة من قبيل التخصيصات .

٤ ــ الاراضي المتروكة .

٥ ــ الاراضي الموات .

اما قانون / ١٩٣٠ / الفرنسي فقد عدل هذا التقسيم بأن اطلق على الاراضي اسم : عقارات ، (باعتبار أن الارض وما عليها من ابنية وغراس بحكم العقار الواحد) واغفل ذكر الاراضي الموقوفة كقسم مستقل من العقارات ، فاعتبر هذا النوع من الاراضي داخلا في قسم الاراضي الاميرية وعد حقوق الوقف عليها من الحقوق العينية الجارية على رقبة الارض التي هي اميرية . واعتبر الاراضي المتروكة على قسمين : سمي أحدهما « عقارات متروكة مرفقة » وسمي الاخر « عقارات متروكة محمية » وبذلك جعل العقارات على خمسة انواع :

١ ــ العقارات الملك .

٢ ــ العقارات الاميرية .

٣ ـ العقارات المتروكة المرفقة كبيادر الدراسة والغابات والمراعي وما اشبه .

٤ ـ العقارات المتروكة المحمية ، وهي اراض تملكها الدولة وتخصصها للمنفعة العامة ، فلا يحق لقرية معينة او مجموعة قرى أن تملكها كالطرق العامة والمقابر العامة والانهر وما شاكل .

٥ ـ العقارات الخالية المباحة (الموات) .

اولا ـ الملكية الخاصة والملكية الاقطاعية :

عرفت المادة / ٥ / من قانون / ١٩٣٠ / العقارات الملك بقولها : « العقارات الملك هي العقارات الكائنة داخل مناطق الاماكن المبينة كما هي ـ اي المناطق ـ محددة تحديدا اداريا والقابلة للملكية المطلقة » .

واشترط قانون / ١٩٣٠ / لاعتبار العقار ملكا واهلا شرطين :

١ ـ أن يكون قابلا للملكية المطلقة .

٢ ـ أن يكون العقار داخل مناطق الاماكن المأهولة المبينة والمحددة تحديدا اداريا.
ومعنى ذلك أن القانون أخرج في الشرط الثاني جميع العقارات الكائنة خارج مناطق العمران . وهذه العقارات المملوكة والمسجلة على مالكيها خارج المعمورة ، اي في البادية لم تكن في ذلك الحين ذات شان ، لان الاراضي المملوكة وقعت داخل المدن والقرى .

اما الاراضي الاميرية داخل مناطق المعمورة فبقيت بمقتضى تعريف القانون ، اي نظريا ، على حالها لعدم توفر الشرط الاول فيها ، اي لعدم قابليتها للملكية المطلقة . هذا نظريا اما في الواقع فان سلطات الانتداب غضت الطرف عن تسلط المتنفذين على هذه الاراضي وغالبا ماساعدتهم على الاستيلاء عليها وتملكها(٢) .

عندما تتحدث معظم المصادر والكتب البورجوازية عن « العقارات الملك » تؤكد كما جاء في قانون / ١٩٣٠ / على حق المالك بالتمتع بكل حقوق الملكية والتصرف بالاراضي ، ولا يحق لاحد أن يعترضه في التصرف بها الا اذا كان تصرفه هذا يلحق

ضررا او خسارة بالاخرين . ولكن تلك المراجع(٤) نادرا ما تعرضت لاشكال الملكية الخاصة وكيفية حيازتها ، اي أنها لم تفرق بين الملكيات الصغيرة والملكيات الكبيرة مرورا بالملكيات المتوسطة ، ولهذا تاثير هام على مجمل التطور الاقتصادي والتراتب الاجتماعي وتشكل الطبقات .

ونحن هنا نهتم اهتماما خاصا بقضية توزيع الملكية الزراعية والقاء الاضواء على الملكية الكبيرة (الاقطاعية) احد عوامل التخلف وسبب اساسي من اسباب « الفقر والجهل والمرض » التي يتغنى بها ممثلو الطبقات المستغلة والحاكمة فيما مضى ويعتبرونها سبب كل علة . اي انهم يتجاهلون السبب الحقيقي والجوهري الكامن في الحيازات الكبيرة للملكية وسوء توزيع الثروة ويركزون ، ضبابيا ، على النتيجة وهي « الفقر والجهل والمرض » ويعتبرونها سببا . والهدف هو صرف الانظار عن السبب الاساسي للتخلف القائم على التوزيع غير العادل للملكية والثروة وتجهيل الفلاحين والفئات الكادحة الاخرى وصرفها عن النضال الطبقي والمطالبة بتوزيع الملكيات توزيعا عادلا على المنتجين وتصفية الطبقات (أو بالاصح الفئات الاجتماعية) ، الطفيلية ، التي تستهلك ولا تنتج، تاخذ ولا تعطي ، تتنعم بالخيرات المادية ولا تنتج هذه الخيرات ، تبذر فيما ينتجه الكادحون ولا تقدم أي جهد ، تعيش في الرفاه والنعيم ، والقصور ، والمنتجون الحقيقيون يعيشون في ادنى المستويات .

ويصف احمد وصفي زكريا انطباع المسافر في كورة الوعر (غربي حمص) من وجود رجوم عظيمة مجموعة وسلاسل مصفوفة بأيدي سكانها القدماء ، وكانوا على ما يظهر ارباب جد وعمل فشيدوا القرى التي كانت أحسن وأعمر مما هي عليه الان (١٩٣٤) عندما تحولت الى اراض تابعة للاقطاعيين .

فضياع الوعر وقراه في زماننا (١٩٣٤) شبه خرائب لضيق أراضيها وصعوبة العمل والاستغلال فيها مما جعل معظم سكانها في فقر مدقع زاده خمول ملاكيها سراة حماه وخاصة سراة حمص وتقاعسهم عن تعهدها باتقان الحرث واكثار الغرس واكتفاؤهم بأخذ النزر اليسير القليل مما يصيبهم من غلتها مرة في كل عام(٥) .

ومعنى هذا ان الملكية الاقطاعية لهذه المنطقة الوعرة الكثيرة الاحجار منعت

الفلاحين من العمل بجد ونشاط لتهيئتها وزراعتها بجد ونشاط . اما سراة حمص وحماه فكان اي مورد ياتيهم من هذه الاراضي دون بذل اي جهد يعتبرونه كافيا ، ولم تكن لديهم الحوافز لتحسين الزراعة وزيادة الانتاج . ويلاحظ ان هجرة الفلاحين من الوعر باتجاه الشرق الى اراضي الجفتلك لم تنقطع في عهد الانتداب الفرنسي واوائل الاستقلال .

فحيازة فئة من المتنفذين واصحاب السلطة من موظفين كبار ورجال دين كبار لاراضٍ واسعة شاسعة ادى اذن الى خلق طبقة اقطاعية طفيلية توضحت معالمها في اواخر الحكم العثماني وتبلورت اطرها في عهد الانتداب الافرنسي .

وبما ان الارض ، في مجتمع متخلف ، هي مصدر الثروة ، فان الصراع على ملكية الاراضي كان دائما وباستمرار على اشده بين الفئات المهيمنة او الطامعة في الهيمنة والوصول الى المراتب العليا .

وقد راينا ان مساحة الملكية الاقطاعية واتساعها خضع ايام العثمانيين الى المد والجزر وفقا لهيمنة السلطان وقوة الحكومة المركزية ومدى تحالفها أو صراعها مع الزعماء المحليين الاقطاعيين الذين ازدادت قوتهم أو ضعفت حسب الزمان أو المكان . كما انتقلت الملكية الكبيرة احيانا من يد اقطاعي الى يد اقطاعي اخر مرضي عنه من السلطات المركزية أو المحلية ، وهذا ما عالجناه في الجزء السابق .

أما في عهد الانتداب الفرنسي فقد اخذت الملكيات الكبيرة في الاستقرار وضمنت حرية «الملكية» الاقطاعية من المصادرة وغيرها ، واتسعت مساحة الملكيات الاقطاعية نتيجة الاستيلاء كما راينا ، على اراضي املاك الدولة لقاء التقرب والتزلف من المستشارين الفرنسيين وتأييد سياستهم والوقوف في وجه الحركة الوطنية .

فقرار (قانون) « ادارة بيع املاك الدولة الخصوصية غير المنقولة » الصادر عام / ١٩٢٦ / اكد الحق في ملكية الاراضي الاميرية عن طريق التصرف(٦) — وهذا ما سنعالجه بعد قليل . وبذلك اتاح الفرصة لكبار الملاك وشيوخ العشائر والمتنفذين وغيرهم من ازلام سلطة الانتداب للحصول على مساحات شاسعة من الاراضي الزراعية عن هذا الطريق .

ولم يكن صدور هذا القانون في السنة الاخيرة للكفاح الوطني الفلاحي المسلح ، من اجل كسب فئات اقطاعية وفلاحية غنية (كولاك) الى جانب سلطات الانتداب . ومساعدة شيوخ العشائر وغيرهم من متنفذي الريف وبعض أثرياء المدينة في الاستيلاء على الاراضي وتبدو هذه السياسة واضحة في المرسومين التشريعيين الصادرين عامي / ١٩٤٠ – ١٩٤١ / اللذين « منحا » اراضي الدولة غير المسجلة والواقعة الى الشرق من الحد الفاصل بين المعمورة والبادية الى شيوخ العشائر وتمكن عن هذا الطريق شيوخ العشائر والمتنفذون من تسجيل اراض واسعة وبخاصة في محافظة الجزيرة ودير الزور(٧) .

وهكذا فان الملكية الخاصة الاقطاعية ، التي مهد لها الطريق قانون الاراضي العثماني لعام /١٨٥٨/ ، جاءت قوانين الانتداب الفرنسي لترسخ هذه الملكية وتوسع رقعتها .

في هذا النوع من الملكية الخاصة الاقطاعية ساد مبدأ « من يملك لا يزرع ومن يزرع لا يملك » . وقد فرض على الفلاح المستاجر للارض او « الشريك » في زراعة الارض تقديم ريع اراض كبير للاقطاعي ، وفي الحقيقة فان أسلوب تاجير الارض للفلاح لقاء بدل نقدي جرى على نطاق محدود نظرا لفقر الفلاح وعدم مقدرته على دفع اجرة الارض مع نفقات زراعتها . وقد اخذ هذا الاسلوب بالانتشار بعد الحرب العالمية الثانية بعد توفر السيولة النقدية وبعد قيام فئات من الطبقة الوسطى والغنية باستئجار الاراضي واستخدام الفلاحين والاجراء او العمال المزارعين للعمل في الارض والانتقال الجزئي الى الاستثمار الراسمالي في الزراعة .



الملكيــة الزراعيــة

الملكية الصغيرة دون ٪١٠/هـ والمتوسطة بين ٪١٠ــ١٠٠/ هـ والكبيرةاكثرمن ٪١٠٠/هـ

الملكيات الارضيــة الخاصــة

المنطقة	الصغيرة	الوسطى	الكبيرة	ملكية الدولة	المساحة العامة
دمشق	١٧٨٠٠٠ ٪٢١	٢٨٨٠٠٠ ٪٣٤	٣٤٧٧٠٠ ٪٤٢	٢٤٥٠٠ ٪٣	٨٣٣٢٠٠
حوران	١٩٤٨٠٠ ٪٤٦	١٨٨٠٠ ٪٤٥	٢٧٠٠٠ ٪٦	١٠٩٠٠ ٪٣	٤٢٠٧٠٠
جبل العرب	١١٠١٠٠ ٪٣٣	١٧٥٠٠٠ ٪٥٣	٤٥٠٠٠ ٪١٤	٠٠٠	٢٣٠١٠٠٠
حمص	٣٧٥٠٠ ٪٤	١٣٠٤٠٠ ٪١٢	١٥٧٠٠٠ ٪١٥	٧٢٠٠٠٠ ٪٦٩	١٠٤٤٩٠٠
حماة	٨٣٥٠ ٪١	١٤٥٢٠٠ ٪٢٤	١٩٤٦٠٠ ٪٣١	٢٦٩٢٠٠ ٪٤٤	٦١٧٣٥٠
اللاذقية	١٧٥٠٠٠ ٪٢٨	٣٤٠٠٠٠ ٪٣٢	٢٠٧٠٠٠ ٪٣٣	٨٠٠٠ ٪	٦٣٠٠٠٠
حلب	٦٤٨٠٠ ٪١٣	٦٤٥٠٠٠ ٪٣٠	٧٤٤٨٠٠ ٪٣٥	٤٦٢٨٠٠ ٪٢٢	٢١١١٧١٠٠
الفرات	١٣٣٢٠٠ ٪١٥	٢٨٦٣٠٠ ٪٣٢	٢٤٦٣٠٠ ٪٢٠	٢٢٤١٠٠ ٪٢٥	٨٨٩٩٠٠
الجزيرة	٥٥٦٠٠ ٪٥	٥٢٨٣٠٠ ٪٥٢	٣٤٢٨٠٠ ٪٣٤	٩٥٦٠٠ ٪	٣٠٢٢٤٠٠
المجموع	١١٥٧٣٥٠ ٪١٥	٢٦٢٦٧٠٠ ٪٣٣	٢٣١٢٢٠٠ ٢٩	١٨١٥١٠٠ ٢٣	٨٩٠٦٤٥٠

يتبين من هذا الجدول ان ملكية الدولة التي اطلقنا عليها سابقا ، الاراضـي الاميرية سادت في محافظات حمص وحماة وحلب ، في حين سيطرت الملكية الصغيرة على محافظة حوران ، وكانت نسبتها عالية في جبل العرب واللاذقية ودمشق ، بينما

سادت الملكية الاقطاعية في معظم المحافظات عدا حوران وجبل العرب . ومن النسبة العالية للملكية الصغيرة / ٣٣٪ / يتبين ان قوة الفلاحين المتوسطين والاغنياء كانت قوة لا يستهان بها في الريف ، وهذه الفئة من الفلاحين دخلت في كثير من الاحيان في صراع مع الاقطاعيين الكبار في سبيل السيطرة على أراضي أملاك الدولة وامتلاكها كما نافست الفئات الغنية منهم الاقطاعيين في التقرب من السلطة والحصول على القروض والامتيازات المختلفة . ولكن الفئات المتوسطة والغنية من الفلاحين كثيرا ما وقفت في وجه الاقطاعيين وناوات السلطة العداء وانضمت الى المعارضة . وعلى العموم كـان الفلاحون الاغنياء والمتوسطون السند الاساسي في الريف لبرجوازية المدن . ولكن هذا السند كان اكثر تذبذبا من برجوازية المدن في علاقته مع سلطات الاحتلال والخضوع لها عندما تتحقق مصالحه الشخصية والطبقية .

أما في لبنان فلم تكن الملكية الاقطاعية سائدة الا في البقاع وبعض مناطق لبنان الشمالي والجنوبي في حين سادت الملكية الصغيرة والمتوسطة في سائر المناطق وبخاصة في جبل لبنان ، كما يدل على ذلك جدول توزع الملكية في لبنان في أواخر عهد الانتداب(٩) .

ملكية دون ٥٠٠٠ م٢	البقاع	لبنان الجنوبي	لبنان الشمالي	جبل لبنان
	٪٦٠	٪٦٥	٪٦٧	٪٨٨
ملكية اكثر من	٪٥	٪٣	٪٤	٪١

ملكيات صغيرة			ملكيات متوسطة			ملكيات كبيرة		
دون الهكتار	١ ـ ٥ ه	٥ ـ ١٠ ه	١٠ ـ ٢٥ ه	٢٥ ـ ٥٠ ه	٥٠ ـ ١٠٠ ١٠٠٠ ه	١٠٠ ـ ٥٠٠	٥٠٠ ـ ١٠٠٠	مافوق
١٤٨٥٢ ٪١	٧٠٢١٠١ ٪٥	١١٣٨١٧ ٪٧	٢٥٥٠٣٧ ٪١٧	١٦٧٥٦٦ ٪١١	١٥٣٤٥٣ ٪١٠	٣٦٤١٥٨ ٪٢٤	١٤٥٣٤٢ ٪٩	٢٤٨٦١٣ ٪١٦
	١٣			٣٨			٤٩	

ومعنى هذا الجدول ان المتلكات الكبيرة شملت نصف مجموع الاراضي الممسوحة ، في حين لم تزد المتلكات الصغيرة عن ١٣٪ واذا اخذنا بين الاعتبار ان الاراضي الزراعية التي تم مسحها هي في المناطق الماهولة والتي تكثر فيها نسبة الملكيات الصغيرة . ادركنا ان نسبة الملكيات الكبيرة في المناطق غير الممسوحة اعلى من ذلك بكثير .

قبل الانتهاء من اشكال الملكية الزراعية لا بد من المقارنة بين القطر السوري والقطرين المصري والعراقي في هذا المجال .

فبالرغم من انتشار الملكية الكبيرة الاقطاعية في سورية ولا سيما في شمالها ، فان الاقطاعية لم تكن رغم قوتها ، مسيطرة سيطرة مطلقة كما كان الحال في كل من مصر والعراق ، حيث سادت الملكية الاقطاعية معظم المناطق ، وكان للاقطاعيين النفوذ الكبير في معظم مجالات الحياة . وهذا الوضع هو الذي دعا مؤرخ الشام محمد كرد علي الشخصية « الاقطاعية البرجوازية » الى القول : « انا لا اخاف على الشام من الشيوعية لان من ملكوا عدة قرى ليسوا كثيرين فيها ... وانما ما اخشى الشيوعية عليه مصر والعراق خاصة(١١) . اذ ان الملكية الكبيرة اي الاقطاعية هي في راي كرد علي ـ الارض الخصبة لانتشار الشيوعية .

ولكن انتشار الملكية الصغيرة في سورية وعدم سيطرة الاقطاعية المطلقة ، كما هو الحال في مصر والعراق ، لم يكن يعني ان حالة الفلاح المعاشية كانت على ما يرام ، بل على العكس ، فالاعباء الاقطاعية والحكومية ارهقت كاهل الفلاح وحدت من تطوره وارتفاع وعيه وثقافته . وكان مستوى دخل الفلاحين ، ولا سيما الفقراء منهم منخفضا الى درجة رهيبة ، فلم يكن بامكانهم تجديد قوة عملهم الى المستوى الضروري من اجل العمل بنشاط في الارض وانتاج الخيرات المادية .

ويتجلى لنا بوضوح مستوى الدخل المنخفض لاغلبية سكان سورية المؤلفة من الفلاحين ، من معرفة دخل الفلاح السنوي المقدر من انتاجه في سنة / ١٩٣٨ ٪ الذي لم يتجاوز (ثمانين) ليرة سورية في العام اي / ٢٢ / قرشا في اليوم . وهذا الرقم رغم ضالته لا يمثل القوة الشرائية للفلاح لانه ليس بالدخل الصافي للفلاح . ويجب ان

نطرح منه الضرائب وقيمة البذار ومصاريف الانتاج ، فلا يبقى انتاجه اكثر من فرنك واحد في اليوم . بهذا المبلغ الزهيد كان عليه ان يسد جميع حاجاته ، مع العلم ان مستوى المعيشة العادي كان يكلف /١٩٣٨/ (خمسين) قرشا للفرد في اليوم تقريبا(١٢) .

فاذا علمنا أن سعر الكيلو غرام من لحم الخروف بلا عظم سنة /١٩٣٨/ بلغ / ٥٤ / قرشا وسعر كغ ليمون حامض من / ٨ ــ ٩ / غروش وسعر كلغ الموز البيروتي ــ ١٢ ــ قرشا وكيلو البطاطا ــ ٧ ــ قروش والبصل ــ ٤ ــ قروش وكغ السمن الديري من / ٦٦ ــ ٧٠ / قرشا ادركنا صعوبة الحياة بالنسبة للفئات الفقيرة من الفلاحين(١٣) .

ان شكل الملكية الخاصة الاقطاعية يتطابق من حيث الاستثمار مع نظام المحاصصة ، الذي ينال فيه المالك الريع .

والريع العقاري هو ذلك القسم او الحصة التي يبتزها صاحب الارض من الفلاح المحاصص او من مستاجر الارض لقاء الحق في استثمار الارض . فصاحب الارض يحصل على هذا القسم او الحصة دون أن يسهم هو نفسه في الانتاج . وقد اختلف معدل الريع العقاري تبعا لخصوبة الارض وهل هي مروية او بعلية وقربها من الاسواق وكذلك نسبة القوى الطبقية بين الفلاحين والاقطاعيين .

في عهد الانتداب كان معظم الريع العقاري يدفع عينا ، ونادرا ما دفع نقدا . وتراوحت نسبته في نصف المحصول في الارض المروية والى الثلث او الربع في الاراضي البعلية .

وعلى العموم وجدت اشكال المزارعة الرئيسية التالية (١٤) :

١ ــ طريقة المرابعة : فيها يقدم الاقطاعي للفلاح الارض والسكن والماشية ، والبذار ويدفع الضريبة . والفلاح لا يطالب باكثر من عمله وعمل عائلته . وعند توزيع المحصول ينال الملاك ثلاثة ارباع المحصول ويبقى الربع للفلاح « المرابع » .

٢ ــ طريقة الشراكة الحموية : فيها يقدم المالك السكن والارض في حين يقدم الفلاح العمل . اما النفقات الاخرى من بذار وماشية وغيرها فتدفع مناصفة . وبعد

دفع الضرائب وغيرها من النفقات يقسم المحصول مناصفة . والمالك لا يقدم اي جهد من اجل تجديد قوة انبات الارض ، في حين أن الفلاح مضطر كل يوم الى تجديد قوة عمله وعمل عائلته .

٣ ــ طريقة الشراكة الحلبية : وفيها يقدم الملاك البذار والمسكن والارض ويدفع الضريبة . في حين يقدم الفلاح الدواب والعمل . والنفقات الاخرى تكون مناصفة بين الطرفين وفي نهاية السنة وبعد دفع الضريبة يقسم المحصول مناصفة .

٤ ــ طريقة الخمس : يقدم الملاك الارض والسكن . ويدفع الضريبة ، في حين يقدم الفلاح العمل والدواب والبذار والنفقات الاخرى . وبعد نهاية السنة يسترجع الملاك الضريبة (٥ر١٢٪) أولا ثم خمس ما تبقى ، ويسلم الباقي للفلاح ، اي ينال من المحصول / ٣٠٪ / لقاء الارض فقط . ففي حين أن الفلاح الذي يقدم العمل والماشية والنفقات الاخرى ينال / ٧٠٪ / فقط .

ادت طرائق الاستثمار الاقطاعي هذه الى فقر الفلاح ، وبالتالي الى جهله ومرضه والى خوفه في كل لحظة من الموت جوعا ، لان باستطاعة الاقطاعي طرده من البيت والارض ، وهو مضطر للاستقراض ، خصوصا عند رداءة المواسم ، من اجل تجديد قوة عمله وعمل عائلته ويقع نتيجة ذلك فريسة في ايدي المرابين والبنوك من جهة ، وفي ايدي رجال « الحكومة » الذين يجبون الضرائب من جهة ثانية . اذ ان تحصيل الضرائب مع الريع العقاري كانت الوسيلة الهامة التي نهب بواسطتها الاقطاعيون ودولتهم عمل الفلاحين الاضافي، مما حرمهم من التمتع بالحد الادنى من مستلزمات الحياة .

ثانيا ــ املاك الدولة :

املاك الدولة نوعان : عمومية وخصوصية . ونحن يهمنا ، فيما يتعلق بالمسألة الزراعية ، املاك الدولة الخصوصية . وقبل الدخول في تفاصيلها لا بد من معرفة ما هي املاك الدولة العمومية .

فاملاك الدولة العمومية هي العقارات الثابتة المتخصصة للمنافع العمومية . والتي في يد الحكومة بصفتها حارسا عليها لا بصفتها مالكة لها ، كالطرق والجسور والسكك الحديدية والمتاحف وامثال ذلك مما تعود منفعته للعموم .

واخص صفات هذه الاملاك ، انه لا يجوز تملكها بوضع اليد ولا حجزها ولابيعها ولا التصرف فيها واستعمالها في غير المنفعة العامة التي جعلت لها .

ولا يمكننا القول أن الدولة مالكة للاملاك العمومية ، لان الملكية تتالف من ثلاثة عناصر :

حق التصرف وحق الاستعمال وحق الاستثمار .

وحق استعمال هذه الاملاك لا يعود للدولة ، بل للكافة بما فيهم الاجانب .

كما أن حق الاستثمار ليس موجودا ، لان هذه العقارات ليست معدة للاستغلال ولا تعطي ايرادا .

وكذلك حق التصرف ، فلا يمكن أن يكون محلا للبحث في هذه العقارات لان الاستعمال العام المخصصة له لا يمكن ان يكون لنفسه محلا للتصرف أو لانشاء حقوق عينية .

وقد عرفت المادة الاولى من القرار /١٤٤/ الصادرفي /١٠/ حزيران سنة /١٩٢٥ الاملاك العمومية بانها « جميع الاشياء المعدة بسبب طبيعتها لاستعمال الجميع أو لاستعمال المصلحة العمومية . وهي لا تباع ولا تكسب ملكيتها بمرور الزمن » (١٤) .

واملاك الدولة العمومية تشمل ــ بموجب قرار عام /١٩٢٥/ ــ شاطىء البحر حتى ابعد مسافة اليها الموج في الشتاء وشطوط الرمل والحصى ، ومجاري المياه من اي نوع كانت والمياه الجارية تحت الارض، والينابيع مناي نوع كانت ،والبحيرات والغدران ، والشلالات الصالحة لتوليد القوة المحركة .

اما املاك الدولة الخصوصية غير المنقولة فهي : العقارات ، التي تملكها الدولة بصفتها شخصا معنويا وهي غير مخصصة للمنفعة العامة . وقد رات السلطات الاستعمارية الافرنسية في املاك الدولة هذه ميدانا خصبا لتثبيت مواقعها في سورية ولبنان عن طريق وضع نظم لاراضي املاك الدولة الخاصة لمعرفتها وتحديدها وطرائق تقسيمها وبيعها او ايجارها بغية الحصول ــ حسب ادعاءات السلطات الاستعمارية

على نتائج حسنة من استثمارها على الوجه المطلوب الذي هو اكثر ملاءمة ونفعا للمصلحة العامة .

- بتاريخ /٥/ أيار /١٩٢٦/ أصدر المسيو هنري دي جوفنيل العضو في مجلس الشيوخ والمفوض السامي للجمهورية الفرنسية لدى سورية قرارا برقم /٢٧٥/بشأن ادارة وبيع أملاك الدولة الخصوصية غير المنقولة (١٥) .

ومع أن حيثيات القرار دعت الى قيام « الملكية الصغيرة الزراعية » الا ان الواقع العملي برهن على أن سلطات الانتداب سارت على سياسة مغايرة رمت الى توسيع « الملكية الزراعية » وترسيخ دعائمها . أن سلطات الاستعمار الافرنسي ، التي تنكرت لمبادىء الثورة الفرنسية البورجوازية التقدمية ، لم يكن بامكانها الافصاح عن اهدافها الحقيقية في ترسيخ دعائم الاقطاعية . ولهذا فانها ادعت زورا عن رغبتها في توسيع « الملكية الصغيرة » في حين مارست سياسة مخالفة ، ادت الى تبلور طبقة اقطاعية او شبه اقطاعية .

وقد جاء في المادة /٢٣٥/ من قانون /١٩٢٦/ فيما يتعلق باراضي الدولة ما يلي : اذا اثبت صاحب الافضلية بعد انقضاء مدة ثلاث سنوات انه احيا ارضا ، أو بنى عليها ابنية او غرس غرسا او رتبها ضمن الشروط المعينة في الانظمة الخاصة باملاك الدولة . فيكتسب مجانا حق تسجيل التصرف على القسم الذي أحياه أو غرسه او انشأ عليه أبنية او رتبه ، على انه يخسر حق التصرف اذا توقف بعد التسجيل ، وفي مدة السنوات العشر التالية للتسجيل عن استعمال حقه في مدة ثلاث سنوات متوالية .

ومع أن ظاهر هذه المادة يشير الى رغبة المشترع في تحسين الارض وغرسها وتعميرها ، الا ان الواقع العملي اشار الى ان المستفيد من هذه المادة هم المتمولون ، الذين يستطيعون صرف الاموال لاحياء الارض ، والمتنفذون ، الذين بامكانهم تزوير الوثائق ورشوة الموظفين أو الضغط عليهم لتسجيل التصرف . اما الفلاح الفقير فلم يكن يملك لا الثروة ولا النفوذ للحصول على حق التصرف بأراضي أملاك الدولة .

عرف قرار المفوض السامي الافرنسي الصادر في /٥/ أيار /١٩٢٦/ أملاك الدولة

الخصوصية بانها تشمل الاملاك الخصوصية غير المنقولة العائدة للدولة ـ بشرط الاحتفاظ بالحقوق القانونية العائدة للغير ـ جميع العقارات المبنية وغير المبنية والحقوق العينية غير المنقولة التي تنقص الدولة بموجب الشرائع والقرارات والقوانين النافذة . سواء كانت تحت تصرفها الفعلي أو تحت تصرف اشخاص اخرين .

والمادة الثانية من قرار عام /١٩٢٦/ نصت على انواع العقارات ، التي هي من املاك الدولة الخصوصية وهي (١٦) .

١ ـ الاراضي الاميرية التي تكون رقبة الملك فيها عائدة للدولة ، وحق التصرف للاشخاص .

٢ ـ الاراضي المتروكة المرفقة اي الاراضي الموضوعة تحت تصرف جماعات لاستعمالها او استثمارها كالمحتطبات والمراعي والبيادر والمشاتي المخصصة لقرية او عدة قرى .

٣ ـ العقارات المسجلة في سجل المحلولات (الاملاك الشاغرة ، وبدون صاحب او التي لاوارث لها) .

٤ ـ الاملاك المقيدة باسم الخزينة في سجلات الادارات العمومية ، وهي املاك تصادرها الدولة بسبب ما .

٥ ـ الاملاك المقيدة على سجلات دائرة املاك الدولة .

٦ ـ الاملاك المدورة اي الاملاك المحجوزة من قبل الخزينة .

٧ ـ العقارات التي ثبت انها للدولة بعد اجراء عمليات التحرير والتحديد .

٨ ـ الاملاك التي تشتريها الدولة ولا تكون داخلة في الاملاك العمومية .

٩ ـ القطع المتروكة من الاملاك العمومية ، التي تفقد صفة النفع العام .

١٠ ـ العقارات المتاتية من تركات شاغرة ، ومن تركات لا وريث لها ، والاملاك المتاتية من اهمال زراعتها ، والتي يتحقق قانونا شغورها ، أو عدم وجود وريث لها .

١١ ـ الاراضي الخالية والحراج والغابات والجبال غير المزروعة وبالجملة جميع الاملاك غير المنقولة التي تشملها ، في قانون الاراضي العثماني ، لفظة ، : « الاراضي الموات) (المادة ٢) .

الاراضي الاميريـة :

عرفت المادة /٦/ من قانون /١٩٣٠/ العقارات الاميرية بقولهـا : (العقـارات الاميريـة ، هي العقارات التي تكون رقبتهـا للدولـة ويجوز أن يجري عليها حق التصرف) (١٧) .

اما قانون الاراضي العثماني فقد عرف الاراضي الاميرية بأنها : (المحال التـي رقبتها لبيت المال ويجري امر احالتها وتفويضها من قبل الدولة من حقول ومروج ومراعي ومشاتي ومحاطب وامثالها) .

وواضح من القانون العثماني أن التصرف كان قاصرا على الارض دون الابنية التي تشيد فوقها أو الاغراس التي تغرس فيهـا ، لان القانون العثماني نص على منـع المتصرفين بالاراضي الاميرية من انشاء الابنيـة وغرس الاشجار ، الا باذن من مأمور التمليـك (١٨) .

اما قانون /١٩٣٠/ الافرنسي فقد الغى هذه الشروط واصبح مالك حق التصرف بالارض الأميرية باستطاعته ان يغرس فيها الاشجار ويشيد الابنية دون أن يطلـب رخصة من دائرة الطابو . ومعنى ذلك ان الاراضي الاميرية بموجب القانون الافرنسي اصبحت شبيهة بالاراضي المملوكـة من حيث الاستخدام . ولم تختلف عنها الا في حال اكتشاف معادن في الاراضي الاميرية ، فان ملكيتها وحق التصرف بها يعودان للدولـة .

ومن هنا نرى ان استخدام لفظة « العقارات الاميرية » في القانون الافرنسي بدلا من « الاراضي الاميرية » اراد بها المشترع الافرنسي التعميم للارض وما عليها مـن بناء واغراس ، اي تثبيت « حق الملكية الخاصة » بمفهومها البورجوازي بدلا مـن مفهوم « حق الملكية » بمفهومها الاقطاعي الشرقي في قانون الاراضي العثماني .

الاملاك المدورة « اي الاملاك المحجوزة من قبل الخزينة) ، وهي العقارات التـي ملكها السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ـ١٩٠٨) ابان حكمه ، والتي كانت تدار بواسطة مؤسسة خاصة بها تدعى « الخزينة الخاصة » دون أن يكون لخزينة الدولةالعثمانية علاقـة بهـا .

وكنا رأينا في مجلد سابق ان السلطان عبد الحميد ، الذي استغل منصب الخلافة وشعار الجامعة الاسلامية لتثبيت حكمه الاقطاعي ، كان قد سجل الاراضي الخالية باسمه وسرق الاراضي التي وضعت الحكومة يدها عليها عند وفاة اصحابها بلا وريث أو عند استيلاء الحكومة على الارض لقاء الديون التي عجز الفلاح المالك عن تسديدها نتيجة لكثرة الضرائب . وهكذا ـ امتلك السلطان عبد الحميد في بلاد الشام مساحة تقدر بنحو /١٥/ مليون دونم منها ستة ملايين استثمرت في أوائل الثلاثينات وثلاثـة ملايين كان بالامكان استثمارها ، اما الباقي فكانت تصلح للرعي لقلة امطارها .

بعد عزل السلطان عبد الحميد عن العرش عام /١٩٠٩/ على اثر ثورة الاتـراك الاتحاديين البورجوازية . اضطر للتنازل عن املاكه الخاصة ، اي الاراضي الاميرية أو ما عرف بالجفتلك ، لخزانة الدولة العثمانية واصبحت ملكا للدولة . وقضت معاهدة لوزان بعد الحرب الاولى بأن تشرف الدولة المنتدبةعلى هذه الاملاك الواسعة.

وكثيرا ما جـرى الخلط والالتباس لدى بعض الباحثين في عـدم التفريق بين الاراضي الاميرية الجارية بتصرف الاشخاص وبين الاراضي المدورة ، واطلق عليهما احيانا اسم املاك الدولة واحيانا « الاراضي الاميرية » .

والفرق بين الاراضي الاميرية والاراضي المدورة هو أن الاراضي الاميرية تكـون رقبتها للدولة وحقوق التصرف فيها عائد للغير ، أما الاملاك المدورة ، التي آلت الى الدولة المنتدبة بعد /١٩٢٠/ فهي عقارات رقبتها وحقوق التصرف فيها معا عائدان للدولة ، التي استوفت اجرة هذه الارض مقدرة حسب خصوبتها ورطوبتها ونفوذ المستاجر سواء كان فلاحا أو مزارعا (١٩) .

وقد استوفت الدولة « في عهد الانتداب من /١٧٫٥/ الى ٢٢٫٥٪ » من محاصيل المستأجرين لهذه الارض بما فيها العشر ، وبهذا بلغت واردات الدولة من هذه الارض

من خمسمائة الف ليرة سورية الى ستمائة الف في السنين المعتدلة ، اي التي كانت فيها الامطار واثمان الحبوب اعتيادية (٢٠) . وهذا المثال يبرهن على الشبه بين الدولة المنتدبة والدولة العثمانية في كونها اداة وجزءا من الطبقة الاقطاعية . او شبه الاقطاعية التي تكونت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين .

في عهد الانتداب لم تكن اراضي الجزيرة ، وهي في معظمها املاك دولة ـ قد دخلت حيز الاستثمار الزراعي . وسيكون لهذه الاراضي شان هام بعد الحرب العالمية الثانية . كما سنرى في المجلد اللاحق .

اما في عهد الانتداب فان معظم الاملاك الاميرية وقعت شرق حمص وسلمية والحمراء وفي اقضية منبج والباب وجبل سمعان وادلب . وبلغ مساحة المزروع منها في /١٩٣٢/ ستة ملايين دونم قامت عليها /٨٥٤/ قرية او مزرعة اشتغل عليها نحو عشرين الف اسرة فلاحية (٢١) .

وقد كانت الاراضي الاميرية سلعة في يد سلطات الانتداب تستطيع بواسطتها شراء زعماء القبائل وزاوات المدن ومتنفذي الريف عن طريق «تمليكهم» هذه الاراضي اما عن طريق الهبة او عن طريق الشراء الاسمي . ووجدت السلطات الاستعمارية في هذا الاسلوب وسيلة هامة من اجل تدعيم مركزها في الريف بين الفئات العليا التي لم يكن بعضها راضيا عن الانتداب الافرنسي في اوائل عهده ، او كان مترددا في السير معه . وكان لا بد من شراء هذه الفئات المتنفذة بمنحها الارض مصدر الثروة الاساسي آنذاك . وهنا يكمن سر قرار المفوض السامي سنة /١٩٢٦/ الصادر في معمعان الثورة السورية والقاضي ببيع الاملاك المدورة الى الاهلين اي ان المتنفذين الذين تريد السلطات كسب ولائهم او ترسيخ هذا الولاء . واستنادا الى سياسة كسب الانصار « باعت » سلطات الانتداب اكثر من /٢٥٠/ قرية من اصل /٨٥٤/ بين سنتي /١٩٢٦ــ١٩٣٢/ ووضعت كما يقول مصطفى الشهابي رئيس مصلحة الزراعة ، خطة لبيع /٥٠/ قرية سنويا ثم /١٠٠/ قرية (٢٢) .

ومع ان المادة السادسة والعشرين اقرت « التاجير مع الوعد بالبيع » لا يمكن

الا للفلاحين الا أن معظم الاراضي التابعة للدولة ذهبت ، كما سنرى ، الى شيوخ القبائل والاقطاعيين السابقين والمتنفذين في الريف وكبار الموظفين ، وبعض تجارالمدن ومتموليها . وكانت لجان تحديد وتحرير املاك الدولة الخاصة العوبة في يد المستشارين الافرنسيين « يهبون » الارض لمن يرضى عنه المستشار . وهكذا امست طريقة « تمليك » هذه الارض وسيلة لترسيخ دعائم النظام الاستعماري .

وهذه السياسة الاستعمارية القائمة على ترسيخ دعائم العلاقات الاقطاعية في الريف تكشف زيف « المدنية » التي يدعيها الاستعمار ، وتبين التناقض الواضح بين افكار الثورة الفرنسية البرجوازيةالتي بشرت بتوزيع اراضيالاقطاعيين على الفلاحين ووهبتها للاقطاعيين اعمدة الاستعمار الفرنسي في الريف .

لقد فقدت البرجوازية صفتها التقدمية منذ ان تحولت الى راسمالية احتكارية والى امبريالية تضطهد الشعوب وتنشط اساليب الانتاج الرجعية المتخلفة وتحد من تطور القوى المنتجة في الريف والمدينة .

ان برنامج سلطات الانتداب القاضي « بتوزيع » الاراضي المدورة على المتنفذين الاقطاعيين لم يكن قد تم انجازه عندما جاء الحكم الوطني البرجوازي (١٩٣٦ — ١٩٣٩) حكم الكتلة الوطنية ولكن الاقطاعيين الذين اخذ لعابهم يسيل وازدادت شراهتهم في سبيل الاستيلاء على الاراضي المدورة حاولوا الضغط على الحكومة الوطنية من أجل الاستمرار في توزيع هذه الاراضي عليهم .

فتقرير نائب السلمية في جلسة / ٣٠ تشرين الاول ١٩٣٧ / سليمان الامير علي في المجلس النيابي يقترح اعطاء المزارعين (اي متنفذي الريف) القرى العامرة والغامرة العائدة لاملاك الدولة مجانا على شرط أن تمنعهم من بيع أورهن هذهالاراضي لاجل مسمى او غير مسمى واعطاء المزارعين المنطقة الحراجية المسماة بلعاس لقاء تعهد تاخذه منهم بالمحافظة على أشجارها وتشجيرها .

ولما كان تنفيذ هذا الاقتراح سيثير ضجة شعبية وفلاحية ضد تصرف الحكومة وسيقوي من تسلط الاقطاعيين في الريف فقد احاله رئيس المجلس ذو النزعة

البورجوازية الى « لجنــة العرائض » اي رمى بـه في سلة المهملات ، ولكن فشـل الاقطاعيين في هذا الميدان لم يكن يعني فشلهم دائما . بل العكس هـو الصحيح . فسلطات الانتداب فسحت المجال لاعوانها وركائزها لاباغتصاب الاملاك المدورة فحسب بل الاملاك العامة التي تصلح للزراعة كالاراضي التي كانت مستنقعات ولها صفـة الاملاك العامة ثم جفت وبقيت على هذه الصفة كالاراضي العامة في الغاب والمروج وخلافها ، فقد تملك بعض المتنفذين وكبار الملاك مساحات واسعة من اراضي هـذه المستنقعات الخصبة وسجلوهاباسمائهم بمساعدةضباط الاستخبارات الفرنسيين(٢٣)

ان عملية الاستيلاء عمليا على الاراضي الاميرية لم تتم فقط عن طريق تسجيلها وتحويلها الى ملكية خاصة اقطاعية ، بل اتخذت مسارا اخرفي حال عدم تمكـن كبار الملاك والمتنفذين من تسجيل (تطويب) الارض . هذا المسار قام على « مبدأ » وضع هؤلاء الملاك يدهم على الاراضي الاميرية ثم تأجيرها للفلاحين وفق نظام المحاصصة(٢٤). وهذا مما كان يؤدي الى تراجع الانتاج الزراعي وازدياد بؤس الفلاح .

ثالثا ـ الارض المشاع :

حق الملكية في هذه الارض جماعي ، حيث يملك افراد القرية حصصا أو أسهمـا في اراضي القرية دون ان يخصص احد منهم بقطعة ارض معينة . ومع ان الارض المشـاع هي ملك للقريـة اي انهـا ملكية جمـاعية ، الا ان استثمارهـا جرى بشكل افرادي . فللفلاح حـق الاستثمار المؤقت ولكن ليس لـه حق التصرف بالارض . (٢٥) ودائما يصار الى توزيع جديد مرة كل ثلاث او اربع سنوات . ونـرى الفلاح ينتقل من بقعة الى اخرى فلا يستقر على ارض ولا يقوم باي اصلاح دائم ولا يقدم على تشجير أو تسميد ـ فهو بهـذا العمل ليس فلاحا بـل مستعمرا للارض يستعبدها سنة واحدة فينهكها ثم ينتقل ليفسد غيرها وينتهي به الامر الى افقـار نفسه وارضه (٢٦) .

لم يكن من السهل فرز الارض المشاع بين الفلاحين ، حتى يتمكن كل فلاح مـن العناية بأرضه بصورة افضل مادام ان اقامة الجمعيات التعاونية الاشتراكية فـوق هذه الارض لم يكن داخلا في الحسبان في تلك الازمان . وقد اعترضت عملية فـرز

الارض المشاع صعوبات كثيرة منها عدم جدية سلطات الانتداب في تطبيق ما اقرته . وجمود الفلاح وتخلفه الفكري ورغبته في المحافظة على كل شيء قديم متوارث وخوفه من الخسارة اذا جرى الفرز في غير صالحه . . .

في /١٠/ اذار /١٩٢٦/ اصدر المفوض السامي للجمهورية الافرنسية دي جوفنيل قرارا « بحل الاراضي المشاعة » لان التملك المشترك للارض كما ورد في القرار والقسمة الدورية هما مخالفان لاحكام القوانين النافذة . وحيث ان هذه العادات (أي مشاعية الارض) تضر بالجهود الشخصية وتؤذي تقدم الزراعة لذا تقرر(٣٧) :

١ ـ ان القسمة الدورية بين الاشخاص الذين يشغلون اراضي الفلاحة والبساتين والكروم والجنائن الخ المملوكة مشاعا خلافا للتعليمات المذكورة في سندات الملكية أو التي هي بدون سندات هي ممنوعة وتبقى ممنوعة .

٢ ـ ان العقارات المذكورة في المادة السابقة تحل وتقسم بين الاشخاص الذين يشغلونها اما وفقا للاتفاق الذي يحصل بين المشتركين في الملك واما اداريا . وفي حالة الحل الاداري وجب ان تقوم لجنة التحرير والاحصاء بالقسمة الاجبارية في كل قرية. بعد مرور ثلاث سنين ونصف على صدور قرار المفوض السامي المذكور اعلاه صدر في /١٩/ تشرين الثاني سنة ١٩٢٩ القرار رقم/١٥٩٨/ الموقع من الوزارة السورية بشأن تطبيق احكام القرار السابق القاضي بافراز الاراضي المشاعة . واوكل هذا القرار الى ادارة الكداسترو (دائرة المساحة) امر الكشف على المناطق المشاع وتحديدها المؤقت في كل منطقة حتى يتسنى للجنة التحرير والاحصاء تصنيف الارض وفرزها (٣٨) .

وقد تم حتى عام /١٩٤٣/ تسجيل مساحة قدرها /٨٨٣ر٥٤٤ر٣ / هكتارا من الاراضي ، بما فيها الارض الواقعة في لواء اسكندرون (٣٩) . وكان المستفيد الاكبر من هذا التسجيل كبار الملاك ، الذين الت اليهم معظم الاراضي المسجلة بما كانوا يتمتعون به من نفوذ وسلطة وعلاقة مع حكومة الانتداب . وفي المجلد المقبل سنبين من خلال لقاءاتنا مع الفلاحين في صيف ١٩٨٤ كيف ان الاقوياء هم الذين استفادوا من التسجيل بحيث ان الطبقة الاقطاعية وفئة الفلاحين الاغنياء ترسخت مواقعها عن طريق التملك في الثلاثينات .

والواقـع أن ما انجز من اعمال المسح والتحرير وتسجيل الارض كان قليـلا ، بالنسبة لمساحة الارض ، التي بقيت الى ما بعد الاستقلال على ما هي عليـه .

وليس بين أيدينا الان احصاءات عن الاعمال التي تمت بشأن فرز الاراضـي . ولكننا نستطيع القول : ان ما انجز لم يكن له شأن يذكر بالنسبة لمساحة الارض المشاع ، التي بقيت الى ما بعد الاستقلال على ما هي عليه .

ولذلك فان المناطق ، التي انتشرت فيها الارض المشـاع في شرق حلب وحمص وحوران وجبل العرب ، بقيت مناطق ذات انتاجية قليلة ، فلاحها مهمل فقير لايعلم كيف سيخرج من هذه الدوامة « المفروضة » عليه بحكم الاستمرار ولا حيلـة له في التغلب على شقائه واستهتار الدولة الاقطاعية ــ الاستعمارية .

والاراضي المشاع في ظل العلاقات الاقطاعية ــ الراسمالية وطرق التصرف بهـا كانت من اهم العقبات أمام تقدم البـلاد زراعيا . فهي ليست ملكا لفرد ليرغب في تحسينها ، كما أنها ليست تحت تصرف جماعة معينة ثابتة تهتم بها . ولهذا فان من امنيات الفلاحين في الارض المشاع انهاء عملية التحديد والتحرير ليتسنى لكل فلاح معرفة ارضه والاهتمام بها . والفلاحون الفقراء كانوا اكثر الناس رغبة في الاسراع بازالـة الشيوع . لان الشيوع كان عاملا كبيرا في تجميع مساحات كبيرة من اراضي الفلاحين في يد اصحاب النفوذ ومن هم على صلة بسلطات الاحتلال وكثيرا ما اشترى اصحاب النفوذ حصة صغيرة على الشيوع ثم لجاوا الى اثارة النزاع بين اهالي القرية وافتعال الحوادث لكي يتسلطوا على القسم الاكبر مـن اراضي القريـة (٢١) . وهكذا كانت الاراضي تتسرب الـى كبـار المـلاك وصغارهـم بما فيهـم الفلاحـون الاغنيـاء ووجهـاء القـرى أو اصحـاب النفوذ . وكانت مصلحـة الانتـداب الافرنسي تكمـن في تشجيـع ازالـة الشيوع وتطويـر الزراعـة الملائمة للاقتصاد الراسمالي الفرنسي ، عن طريق وضع هذه الاراضي في أيدي من يستطيع زراعتها وفق متطلبات ذلـك الاقتصـاد .

كما ان عملية التحديد والتحرير في ظل حكم استعماري وعلاقات اقطاعية وقبلية ادت الى استلاب اراضي الفلاحين وتملكها من قبـل اصحاب النفوذ ، ففي كثير مـن

القرى التي تم تحديدها وتحريرها كان اعوان السلطة المستعمرة يتخذون كل الوسائل لتسجيل الاراضي اثناء عمليات التحديد والتحرير باسم احد الوجهاء من المقربين أو من الزعماء أصحاب الجاه عند المستعمر ولم يكن الفلاحون ليعلموا بمواقيت اجراء عمليات التسجيل للاراضي العائدة لهم اصلا فكان المتنفذ يحضر بعض أعوانه بالاتفاق مع السلطة ليزعم هؤلاء الاعوان انهم فلاحون في الاراضي المملوكة للمتنفذ ، بينما يكون اصحاب الارض الحقيقيون من الفلاحين لا يعرفون ما يجري في غيابهم ، وهكذا فان قانون التحديد والتحرير ، وان كان قد نظم اصوله ، ونظم السجلات العقارية فانه كان وسيلة لانتزاع ملكيات الفلاحين في قرى معينة كما كان وسيلة لتجميع ملكيات واسعة بأسماء بعض ذوي الوجاهة والنفوذ(٣٢) .

رابعا ــ اراضي الاوقاف :

الاوقاف الاسلامية ، كما هو معروف ، نوعان(٣٣) :

١ ــ أوقاف خيرية وتنقسم هذه بدورها الى :

أ ــ أوقاف مضبوطة تدار من قبل مديرية الاوقاف ولذلك سميت مضبوطة . وهي إما أوقاف صحيحة موقوفة من قبل اناس يملكون رقبتها او أوقاف غير صحيحة (ارصادية) موقوفة من قبل السلاطين ، وفيها ما أوقف خاصة على مصالح الحرمين الشريفين وعلى الفقراء ، وفيها ما وقف عامة على المعابد والمؤسسات الخيرية وجهات البر .

ب ــ الاوقاف الملحقة ، وتدار من قبل المتولين المنصوبين عليها باشراف دوائر الاوقاف .

٢ ــ أوقاف ذرية وهي الموقوفة على ذرية الواقفين تهربا من المصادرات أيام العثمانيين ، وقد اصدرت المفوضية العليا للانتداب الافرنسي قرارا يقضي بمنح الاوقاف التي هي من هذا القبيل حق التحويل الى الملكية وبيعها اذا ما اجمع اهلها من ذراري الواقفين على هذا البيع .

وقد ادى توالي الاعوام وكثرة الورثة الى تقسيم الارض الموقوفة ذريا الى

حصص صغيرة جدا تصبح عديمة النفع لاصحابها ، ولهذا فكثيرا ما اهملت الارض ولم يجر عليها التحسين مما اخر التطور الزراعي .

ومن جهة اخرى فان ادارة الاوقاف لم تكن تسير حسب النصوص الشرعية ، وكانت الفوضى وعدم الضبط في الادارة يفسحان المجال امام متولي الاوقاف والمسؤولين عنه للسرقة والاحتيال وتجميع الاموال . ولهذا فان التنافس على تولي الاوقاف وادارتها كان شديدا بين العوائل ذات « الحق » في تلك المناصب . وهذا ما كان يجري أيام الحكم العثماني الاقطاعي والحكم الفرنسي الاستعماري(٢٤) .

والاحتلال الافرنسي الاستعماري لسورية ولبنان سعى منذ ايامه الاولى أن يفرض سيطرته بوسائل مختلفة عسكرية ومعنوية واقتصادية . وكان في عداد هذه الوسائل الاشراف على الاوقاف الاسلامية من أرض وعقارات وغيرها من الممتلكات . ففي /٢/ آذار /١٩٢١/ أصدر المفوض السامي الافرنسي قرارا بانشاء مراقبة عامة للاوقاف الاسلامية وربطها بالمفوضية العليا مباشرة(٢٥) . وعين مشرفا عاما فرنسيا لها . وكان القصد من وراء ذلك عدا عن التلاعب وسرقة الاوقاف الاسلامية ، شراء الضمائر والشخصيات وذوي النفوذ لتأييد الحكم الافرنسي .

وبدلا من أن تكون الاوقاف الاسلامية قلعة حصينة ضد الاحتلال الاستعماري حوّلها المستعمرون الفرنسيون عن طريق الاشراف عليها وعلى ماليتها الى اداة في خدمة اغراضها ، اذ لم يكن يعين في مناصب الاوقاف العليا وينال من خيراتها العميمة الا من سار في ركاب الانتداب(٢٦) .

ان هذه الاجراءات لم تؤد ، طبعا ، الى تحسين اوضاع الفلاحين العاملين في أراضي الاوقاف ، بل ان دقة الجهاز الاداري الافرنسي والوسائل الحديثة في الجباية ، جعلت أوضاعهم اكثر سوءا مما في السابق(٢٧) .

٢ ـ الضرائب الزراعية

كانت الضرائب المباشرة المجباة في عهد الانتداب الافرنسي ست ضرائب هي : ضريبة الاعشار ، ضريبة الاراضي (الويركو) ، ضريبة المسقفات ، ضريبة التمتع ، ضريبة الحيوانات ، ضريبة الطرق .

اولا ـ ضريبة العشر :

وهي من أهم الضرائب المباشرة التي ارهقت الفلاحين واستنزفت مواردهم منذ العهد العثماني وقد بلغت نسبتها المئوية في دولة سورية عام /١٩٧٢/ مقدار (٤ر١٨ ٪) من مجموع الضرائب المباشرة وغير المباشرة(٣٨) . ومن هذا الرقم يتبين العبء ، الذي وقع على كواهل الفلاحين .

وكما راينا في المجلد السابق فان ضريبة العشر هي من اقدم الضرائب ، ولها مع ضريبة الخراج تاريخ معقد ومملوء بالمآسي والآلام على الفلاحين دافعي هاتين الضريبتين . وفي العهد العثماني تعدلت هذه الضريبة تعديلا جوهريا ثماني مرات في الخمسين سنة الاخيرة من العهد العثماني .

والعشر هو ما يجبى من الارض الاميرية ـ دون الارض المملوكة ملكية خاصة ـ وهو ضريبتان احداهما تابعة لقانون ٧ رمضان ١٢٧٤ هـ = ١٨٥٧م وقدرها /٤/ في الالف من ثمن الارض والثانية اعظم شأنا واكبر تأثيرا في زراعة البلاد ، وهي العشر اي استيفاء عشرة في المائة من محاصيل الارض غير الصافية يضاف اليها اثنان ونصف باسم المعارف والمصرف الزراعي . اما الارض المملوكة وهي قليلة جدا فصاحبها لا يدفع العشر من غلاتها بل يدفع عشرة في الالف من ثمنها في كل سنة(٣٩) .

وتفسير ذلك حسب قانون /١٣٢١/ (١٩٠٥م) العثماني ان العشر ـ كضريبة على مجموع غلة الارض ـ يتوقف على نوع حيازة الاراضي هل هي من نوع الملك ام الميري . اذ ان ملكية النوع الاول عائدة الى صاحب الاراضي بينما ملكية النوع الثاني عائدة الى الحكومة . فمن في حوزته اراض اميرية يحق له أن يستثمرها

فقط . ومقابل هذا الحق على المستثمر ان يدفع للحكومة جزءا على نسبة مئوية من غلة الارض التي يستثمرها . وهذا الجزء الذي يشبه الايجار هو العشر(٤٠) . وكما قلنا فمن في حوزته اراض ملك فانه لا يدفع العشر .

وقد كان في الاصل مقدار هذا الجزء المئوي ، كما يستدل من اسمه ، عشرا، ولكن في القسم الاخير من القرن التاسع عشر اضيف اليه زيادات حتى اصبح / ١٢½ / بالمئة ، وهذه الزيادات هي واحد ونصف بالمئة للبنك الزراعي وللتعليم الابتدائي ونصف بالمئة لكل من تغطية العجز في الميزانية والاستعدادات العسكرية .

وبما انه لم تلغ هذه الزيادات ، فان الضريبة هي الآن ثمن الغلة وليست العشر كما كانت في الاساس . وعند تقدير العشر كان لابد من تقدير كمية الغلة وتحديد سعرها . وكان تقدير كمية الغلة يتم باتفاق بين الجابي والزارع . واذا اختلف هذان الاثنان فان مجلس الادارة في القضاء كان يعين المخمنين لتقرير كمية الغلة . غير ان حكم هؤلاء قابل للاستئناف الى مجلس الادارة الذي يعين اثنين من اعضائه ليقوما بوضع تقرير عن تخمين المخمنين . وبناء على هذا التقرير كان المجلس يصدر حكمه النهائي . وأما الاسعار فكان يحددها مجلس الادارة في القضاء باعتبار الاسعار الرائجة في السوق . وكان يحق لكل من الفريقين أن يستانف الامر اذا راى السعر مجحفا بحقوقه .

وقد كانت جباية العشر القسم الاكثر تعقدا في النظام كله . فكان يجبى عادة بطريقة الالتزام وهذا معناه المزايدة على حق الجباية الذي يناله بعض الأفراد ويدعون « الملتزمين » وهؤلاء يجمعون من الفلاحين أضعافا مضاعفة .

ولكي تحصل الحكومة على اعلى سعر ممكن الحصول عليه كانت تمدد وقت المزايدة الى عدة ايام . وكان حق الجباية في كل قرية يطرح بالمزاد العلني على حده ، ويفرض العشر على القرية بكاملها وليس على الفلاحين كافراد . وكان مجلس الادارة في القضاء يعين الحد الادنى لضريبة العشر بناء على المحصلات السابقة وحالة الغلة الحاضرة . فاذا لم تصل الارقام المفروضة في المزايدة الى الحد الادنى كانت الحكومة تقوم بجباية الضريبة بواسطة وكلاء من قبلها(٤١) .

كان نظام التزام الاعشار من اشد الانظمة جورا على الفلاحين وبخاصة المستضعفين منهم . وكان ملتزمو الاعشار ، وهم من المتنفذين او الحائزين على رضاء السلطـة ، يدفعون الى الحكومة ما يجب ان يدفعوا وياخذون من الفلاحين اكثر مما يجب ان ياخذوا . وكان ملتزمو الاعشار يرشون موظفي الحكومة او يؤثرون عليهم ، ويسرحون ويمرحون كما يشاؤون مستغلين جهل الفلاح واستسلامه احيانا نتيجة الضغط والارهاب والتهويل الممتد قرونا عديدة .

وقصارى القول فان ضريبة الاعشار ارهقت كواهل الفلاحين . وبالرغم من ان الاقطاعي دفـع ظاهريا قسما من الضريبة فان العبء الاساسي وقـع عـلى الفلاحين الاحرار او العاملين عند الاقطاعيين . وقـد جبيت هـذه الضريبة عينا بمقـدار / ١٢ر٦٣٪ / من المحصول عن طريق التلزيم او عن طريق الضريبة المقطوعة بنسبة متوسط المحصول خلال ثلاث او خمس سنين واستوفيت هذه الضريبة على ثلاثة اقساط متساوية دفع القسط الاول خلال آب والثاني خلال ايلول والثالث خلال تشرين الاول ، اما الاقساط التي لا تدفـع في الاوقات المعينـة فيضاف عليها فائـدة تسعة في المئة(٤٢) .

ولكن هذا الاسلوب لم يسد دائما ايام الانتداب الافرنسي،اذان التردد التشريعي الضريبي ساد في اوقات مختلفة ، ولم تطرح ضريبة العشر بشكل واحـد في جميـع الاقضيـة . وكان المتنفذون الى جانب جمع الاعشار عن طريق الالتزام .

في سنة /١٩٢٣/ حمل المزارعون « كبار الملاك » في مجلس دولة دمشق على اتباع طريقة التخمين في جبايـة الاعشار وايدوا طريقـة الالتزام . ومن اقوال احد ممثليهم محمود الشيشكلي : « ان اهالي دوما يدفعون الاعشار مضاعفة والحكومة تتكبد نفقات باهظة للمخمنين والمحكمين » فلماذا طالب كبار ملاك الاراضي باتباع طريقة الالتزام ؟ لقد كان ثابتا ان جبايـة الاعشار بطريقة الالتزام لم تكن في غير مصلحة كبار المزارعين. فكان هؤلاء او رجالهم يلتزمون جباية الاعشار من القرى فيعتقون قراهم من الدفـع ويحصلون من الفلاحين والمزارعين في قرى املاك الدولة ضريبـة العشـر مضاعفـة مرتين او ثلاثا(٤٣) .

ومن المعروف ان بدلات الاعشار كانت تنقص كلما ازداد نفوذ صاحب القرية والعكس بالعكس مع العلم ان الاقطاعي كان يجبي ضريبة الاعشار من الفلاحين بشكل منتظم ولا يسددها كاملة للحكومة وذلك وفقا لنفوذه ومقدار صلاته مع رجال الحكومة وسلطات الانتداب .

وكانت « الحكومة » تضطر احيانا لاسقاط ضريبة الاعشار او جزء منها لاسباب مختلفة على راسها سوء الموسم . ولكن الاسباب السياسية كانت دائما وراء هذا الاعفاء الذي أملت سلطات الانتداب من ورائه كسب (ثقة) هذه الفئة او تلك من سكان الريف كما هو واضح من مجموع البلاغات التالية الصادرة عن « رئيس الدولة السورية » أمام الثورة السورية (١٩٢٥ ـ ١٩٢٧)(٤٤) .

في محاضرته « أهم أدواتنا الاقتصادية وتلافيها » التي القاها في ردهة المجمع العلمي العربي بدمشق في /٣/ شباط سنة /١٩٢٨/ عالج الضليع من الامور الزراعية الامير مصطفى الشهابي مسألة كيفية وضع ضريبة العشر وطرائق جبايتها . ويرى الشهابي أن تعد ضريبة العشر من ضريبة تفرض على محاصيل الارض غير الصافية الى ضريبة تفرض على ريع الارض أي محاصيلها الصافية .

ننقل فيما يلي بعض المقاطع من محاضرة الامير مصطفى الشهابي ، الذي يبدو واضحا انه مع تحديث الزراعة ومع اشاعة الطرق الراسمالية فيها . وهو لا يعالج الموضوع من وجهة نظر تخفيف العبء عن الفلاح أو الغاء العشر بل يطالب بسياسة جديدة للجباية تسمح لصاحب رأس المال ان يستغل ماله في الزراعة دون أن يدفع عليه ضريبة . وفيما يلي راي الشهابي ، الشخصية العلمية المرموقة في ذلك الحين . قال الشهابي(٤٥) :

« مما يعرفه كل مستنير من أرباب الفلاحة أن وضع ضريبة على المحاصيل غير الصافية هو أعظم ضريبة على الزراعة وأكبر حائل دون تقدمها : ذلك أن الفلاح الذي يبتاع آلات حديثة وحيوانات عوامل قوية ويسمد الارض ويصلحها ويحفر القنى ويشيد ابنية للعمال الى غير ذلك من الاعمال الزراعية المفيدة يضطر الى انفاق مال كثير ، حتى ان فائدة راس المال واطفاءه قد يبلغان ثلاثة ارباع غلة الارض او

اكثر . اما الفلاح الذي يكتفي من الاعمال بحرث الارض حرثا سطحيا ونثر البذار باليد وحصد الزرع بالمنجل ودرس الحصائد بالنورج ــ اي الفلاح الذي يسير باعماله على الطريق التي كان يسير عليها الانسان منذ آلاف من السنين فان نفقاته تكون قليلة حتى ان فائدة راس ماله الصغير واطفاءه قد لا يبلغان ثلث غلة الارض او نصفها . ومن البديهي ان غلة ارض الاول ربما بلغت ضعفي غلة ارض الثاني او ثلاثة اضعافها، لكن محصول الاثنين الصافي اي الربع يكاد يكون واحدا ذلك ان الاول اذا استغل من الفدان ما ثمنه /٦٠٠/ قرش مثلا ، فهو ينفق ثلاثة ارباعها للحصول عليها فيبقى له /١٥٠/ قرشا . اما الثاني فاذا استغل في تلك المساحة مايساوي /٢٠٠/ قرش فهو لاينفق الا نصفها او اقل من النصف فيبقى له ربع يبلغ ما ئة قرش او اكثر . يتضح اذا ان ربح الذي يتبع قواعد الفن في زراعته لا يزيد الا قليلا على ربح الفلاح الجاهل . فاذا استوفت الحكومة عشرة في المائة من محاصيل كل من الاثنين غير الصافية بلغ ذلك العشر /٦٠/ قرشا عن الشخص الاول و /٢٠/ قرشا عن الثاني . فالستون قرشا اذا قيست بما ربحه الاول وهو /١٥٠/ قرشا بلغت /٤٠/ في المائة . اما العشرون قرشا فهي اذا قيست بما ربحه الثاني وهو /١٠٠/ قرش لم تزد على /٢٠/ في المائة . وهنا بيت القصيد . وهذه هي النتيجة التي اردت بلوغها وهي ان طريقة العشر من افسد الطرائق ، لان الفلاح الذي يكد وينفق ويسير بمقتضى قواعد الفن تتقاضاه الحكومة /٤٠/ في المائة من محصول ارضه الصافي . اما الفلاح الخامل الذي يعمل باقل كد وادنى كلفة فهو لا يطالب باكثر من عشرين في المائة من ذلك المحصول الصافي في ارضه . ومعناه انه بقدر ازدياد جهد الفلاح في اصلاح الارض وعمارتها تزداد نسبة ما تتقاضاه الحكومة من ريعها والعكس بالعكس ، فلا عجب اذن ان يرجح كثير من ارباب الزراعة اتباع الاساليب القديمة في استغلال ارضهم وان يقال ان العشر من اكبر الاسباب التي تحول دون رقي الزراعة وتقدمها في بلادنا.

وللعشر مضار اخرى مهمة وهي صعوبة جبايته . فقد حارت الحكومات المختلفة كيف تجبي هذه الضريبة اي كيف تصل الى معرفة مقدار الغلة في ارض كل زارع حتى تستوفي العشر منها فان اوجدت لجانا غرضها تخمين الغلات فقد يضل المخمنون او يتعمدون الخطا احيانا فيظلم الفلاح اذا جاء التخمين فوق الحقيقة والا فيخسر

بيت المال . واذا باعت الحكومة العشر بالمزايدة العلنية من الراغبين فيه فهم لايقدمون الا على (التزام) قرى الفلاحين فيظلمونهم بوسائل شتى دون ان يجسروا على الزيادة في عشر قرى الوجهاء . فيكون الضرر مزدوجا على الفلاح وعلى بيت المـال معـا . ناهيكم بما في هذه الطريقة من الاضرار السائرة كتعريض الحصائد في البيادر للنهب والحريق وكعدم امكان درسها في حينه واضطرار الفلاح الى تدارك ما يحتاج اليهِ من الحب بأغلى ثمن ، كل ذلك انتظارا لانتهاء أعمال المزايدة وقدوم صاحب العشر .وهذا الاخير يربح من بيت المال ومن الفلاح بل يضر بكليهما حتى كان العشر في كثير من القرى ضريبة وضعت لفائدة المتغلبـة .

ومن أغرب أضرار هذه الضريبة في البلاد التي لا تصلها بالعالم المتمدين سكـك حديدية أو مراكب بحرية ، انه اذا اجدبت الارض لانقطاع المطر في احدى السنين زاد ثمن الغلات بنسبة تفوق نسبة النقص في مقدار تلك الغلات ، ولهذا لا يستبعـد ان يزيد ثمن العشر في سنة كهذه عليه في سنة لا جدب فيها ، فتجبي الحكومة في سنـي الجدب اكثر ما تجبيه في سني الخصب والخير ، وكان المحل يفيدها ولكن ريثما يقضي على الفلاح وسائر الاهلين وتصبح الارض بائرة .

ومن وسائل جباية العشر الطريقـة التي يسمونها (التربيع) وهو أن تعمـد الحكومة الى معدّل عشر اربع سنين ماضية فتقره وتستوفي ضريبة محدودة مساوية له سواء أزرع الفلاح الارض أم لم يزرعها . وهذه الوسيلة وان كانت اصلح مـن وسيلتي التخمين والبيع بالمزايدة فهي لا تكون عادلة اذا قل المطر في احد الاقاليـم بعض السـنين . هذا عدا ان اساسها فاسد لانها وضعت كاصلها على المحصـول غير الصافي ولان متوسط عشر سنوات اربع في قرى الفلاحين يكون قريبا من العشر على الحقيقي غالبا . اما في قرى الوجهاء فيكون انقص لان المتغلبة من ارباب الوجاهـة قلما يدعون الحكومة تصل الى حقها .

يتضح مما ذكرت انه من العار علينا ان نظل في القرن العشرين متمسكين بطريقة العشر بعد أن أطرحتها كل الحكومات المتمدينة وبعد أن ثبت كالشمس في رابعة النهار انها لم تعد ملائمة لنا ، مذنوبنا السير بفلاحتنا على الاساليب الحديثة . ولكن ماهي الضريبة التي يجب أن نبدلها من العشر وعلى اي اسس يجب ان تقوم . هذه الضريبة

تسمى الضريبة العقارية وهي تشمل الارض وغير الارض وقوامها اولا انها توضع على محصولها الصافي ولهذا يظل راس المال الذي يستعمله الفلاح بعيدا عن أن تتناوله الضريبة في قسم من ريعه فيتسنى بذلك الفلاح ان يجود زراعته باستعمال ما يشاء من الاموال . ثانيا انها تكون ثابتة لاتزيد بازدياد الغلة وهذا ما يحمل الاكارين على استغلال الارض الى اقصى حد يستطاع . ثالثا : انها تكون في بلاد كبلادنا قابلة للنقص كلما اجدبت الارض لقلة المطر في الاقاليم الشرقية او اصيبت زروعها بحشرات فتاكة كالجراد (السونة) ونظائرها .

ابرمت الحكومة السورية بعد طول اناة وتفكير قرارا مرقما برقم /٣٣٩/ ومؤرخا في الـ ٢٣ من اذار سنة ١٩٢٧ في احداث ضريبة عقارية على الارض تقوم مقام العشر وخراج الارض معا . وهذا القرار لا يعمل به الا حيث انتهت اعمال مسح الارضين وأعمال التحديد والتحرير التي ترمي الى معرفة ما يملكه كل صاحب ارض على وجه الضبط والى وضع حاجز دون تعدي الاكارين بعضهم على بعض . ولا ريب انه يتعذر جدا تطبيق قرار الضريبة العقارية على أرض لاتعرف مساحتها بمخطط ولا تعرف لها حدود ثابتة ولهذا لم تشأ الحكومة ان تعمل به الا بعد ان تمسح الارض وتحددها وقد ارتكز القرار المذكور على اهم نظرية اقتصادية ذكرتها وهي ان الضريبة فيه وضعت على نسبة اجرة الارض اي وارداتها الصافية وهذه الواردات تعرف أما من عقود الايجار بعد ان يطرح من الاجرة ما قد ينفقه صاحب الارض في كري المجاري وتعهد القني والطرق وغيرها ، واما مما تغله الارض بعد ان تطرح نفقات الاستغلال وأرباحه من ثمن الغلة اي من محصول الارض غير الصافي . وجعلت الضريبة العقارية ثابتة فهي اذن حاوية الشرط الثاني الانف ذكره . اما الشرط الثالث وهو ان تكون الضريبة قابلة للنقص كلما اجدبت الارض او اصيبت زروعها باذى فلم يرد فيه شيء في القرار ولعل الحكومة تبحث عنه في المستقبل عندما تباشر العمل بمضمون ذلك القرار . وقد ضمنت المادة الثامنة عشرة منه أن لا تقل الضريبة عما يدفعه الاكارون في العشر في يومنا هذا وحددت الحد الادنى للضريبة بـ /١٢/ في المائة من اجرة الارض ولم تحدد الحد الاعلى لها ولا بد أن يظهر فيما بعد تفاوت كبير في نسبة ما يدفعه ارباب الزراعة في المائة من أجرة الارض في مختلف البلدان فتضطر الحكومة الى ازالة هذا التفاوت .

وقد استثنيت الارض البور التي خلصت للزرع من ازدياد الضريبة لمدة خمس سنين ، كما استثنيت لمدة ثماني عشرة سنة تلك التي تغرس زيتونا او فستقا او نخلا ولمدة عشر سنين تلك التي يغرس الفلاح فيها كرما او توتا او غيرهما من الاشجار المثمرة .

وبالجملة ان استبدال الضريبة العقارية او ضريبة الارض بالعشر يعد في نظر كل من لهم العلم في قواعد الاقتصاد الزراعي خطوة كبيرة الى الامام لاتنجلي فوائدها الا في المستقبل . واذا عمل بالقرار الانف ذكره مع تلافي ما تظهره التجارب فيه من النواقص نكون قد نجونا من معضلة اقتصادية كبرى ليست المجازفة فيها امرا يستسهل الاقدام عليه لا سيما والعشر من اهم موارد بيت المال .

هذا هو راي الامير مصطفى الشهابي في ضريبة العشر وطرق جبايتها واثارها الضارة . ونلخص فيما يلي اهم ما عالجه الامير المتنور مصطفى الشهابي في ضريبة كانت سائرة في طريق الاحتضار .

ذكر الشهابي ان ثمة ثلاث طرق لجباية الاعشار ولكل طريقة مضارها . فطريقة تخمين الغلات بواسطة لجان كثيرا ماكانت تضل سواء السبيل وتؤدي الى خسارة الفلاح في جميع الاحوال . وطريقة المزايدة العلنية (الالتزام) كانت تقع وطاتها على قرى الفلاحين اصحاب الملكيات الصغيرة . اما قرى الاقطاعيين فلم يكن الملتزمون يجسرون على الزيادة في عشرها . ومعنى ذلك ان الاقطاعيين يدفعون من غلالهم اقل من العشر والفلاحون اصحاب الملكيات الصغيرة يدفعون اكثر من النسبة المطلوبة وطريقة التربيع اعتمدت على معدل عشر اربع سنين متتالية وكانت تستوفى سواء زرع الفلاح أم لم يزرع .

ـ معنى ذلك ان جباية العشر بهذه الطرق ادى الى ظلم قرى الفلاحين اصحاب الملكيات الصغيرة من قبل الملتزمين ، الذين تجنبوا الزيادة في قرى الاقطاعيين .

ـ الملتزم يربح من بيت المال (خزينة الدولة) ومن الفلاح . وما لم يؤكده الشهابي هو ان معظم الملتزمين كانوا اما من الاقطاعيين او تحولوا مع الزمن الى اقطاعيين بعد ان ارهقوا القرى وعصروها واجبروا فلاحيها على « بيعها » للملتزمين .

– العشر من اهم الاسباب التي حالت دون رقي الزراعة لانه ساوى بين الفلاح المجد والخامل .

– ولهذا اقترح الشهابي وضع ضريبة جديدة توضع على اجرة الارض ، اي على محصول الارض الصافي بعد حسم النفقات ، حتى يبقى راس المال الذي يستعمله المنتج الزراعي بعيدا ان تتناوله الضريبة . وقد شرح الشهابي كيفية جباية هذه الضريبة منطلقا من تفكير راسمالي في جباية الضرائب ، في حين ان طرق جباية ضريبة العشر كانت حصيلة العلاقات الاقطاعية ، السائرة في طريق الاحتضار .

– وهنا اكد الشهابي على ضرورة الاسراع في أعمال التحديد والتحرير اذ يتعذر تطبيق ضريبة على ارض لا تعرف مساحتها .

ثانيا – ضريبة الاراضي :

وهنا علينا أن نميز بين ضريبتين على الاراضي (٤٦) احداهما ضريبة الويركو والثانية الضريبة الجديدة على الاراضي . فضريبة الويركو قديمة ويرجع اصلها الى العهد العثماني وهي تطبق على كل أراضي دولة سوريا ما عدا لواء اسكندرونة . حيث نفذت الضريبة الجديدة على الاراضي . وأما الضريبة الثالثة فيقصد بها أن تحل محل ضريبتي ويركو الاراضي والاعشار في دولة سوريا جمعاء .

والويركو على الاراضي ضريبة تفرض على اساس قيمة الاراضي . غير أنه في المدن تحسب قطع الارض الصغيرة المجاورة للابنية جزءاً من تلك الابنية وتخضع لضريبة المسقفات .

وقيم الاراضي التي اتخذت أساسا لضريبة الويركو قد حددت بتخمين عام جرى في سنة / ١٣٠٣ (١٨٨٧) .

لم يكن معدل ضريبة الويركو على الاراضي متساويا بل اختلف باختلاف كون الاراضي خاضعة لضريبة العشر أم لا . فالاراضي التي خضعت لضريبة العشر (الاراضي الأميرية) تدفع ضريبة تساوي خمسة من الف من قيمتها . واما الاراضي التي ليست خاضعة لضريبة العشر (أراضي الملك) فانها تدفع ضريبة تساوي / ١٦ /

بالالف من قيمتها ، وهذا النوع من الاراضي اي الاراضي الملك ضمن المساحة جدا اذ انه يتالف بالاكثر من بساتين الفواكه في ضواحي المدن الكبيرة ، ولهذا فان نسبة ضريبة الويركو المئوية لم تتجاوز / ٤ر٤٪ / من مجموع الضرائب في عام / ١٩٢٧ / .

وعملا بالقانون العثماني المؤرخ في ٢٤ / تموز سنة / ١٣٠٢ (١٨٨٦) الـذي يحدد ضريبة الويركو قام بتخمين الاراضي الخاضعة لهذه الضريبة لجنة تخمين مؤلفة من اربعة خبراء اثنان منهم تنتخبهما الحكومة واثنان ينتخبهما مجلس القرية . ويمكن لهؤلاء الاربعة أن يختاروا عضوا خامسا للجنة فيما لوتساوت الاصوات عندالتصويت. وهنالك شرط يقضي بأن ينقح التخمين مرة كل خمس سنوات ولكن قد اهمل هـذا الشرط فلم ينقح التخمين منذ فرضه اولا . على انه قد اعيد بعد تخمين بعض قطع من الاراضي اعترض على قيمتها اما من قبل اصحابها او من قبل الخزينة .

اما الضريبة الجديدة على الاراضي ، التي كان عليها ان تحل محل ضريبتي العشر والويركو كلتيهما (حالما يصبح ذلك ممكننا بعد اتمام عمليات مسح الاراضي) فهـذه الضريبة سنت في دولة سوريا سنة / ١٩٢٧ / وطبقت في سنة / ١٩٢٩ / فـي لواء اسكندرونة حيث بلغت عمليات المسح المدى الابعد .

وهذه الضريبة مؤسسة على قيمة ايجار الاملاك العقارية مهما يكن نوعها بعد أن تخمن قيمة ايجار تلك الاراضي تخمينا دقيقا . ثم يحسم من قيمة الايجار عشرة بالمئة يترك لصاحب الارض مقابل النفقات التي يتحملها في الاعتناء بملكه . ويحـدد معدل هذه الضريبة بالطريقة الاتية : يقسم مجموع الواردات من ضريبتي العشر والويركو على صافي قيمة الايجارات المخمنة للاراضي الخاضعة لهذه الضريبة . والغاية من ذلك أن تضمن الخزينة لنفسها الدخل الذي كانت تحصل عليه من الضريبتين السابقتين . وعلى كل حال يجب أن لا يكون المعدل اقل من /١٢/ بالمئة من قيمة الايجارات الصافية المخمنة . ويفرض زيادة على هذا المعدل الأساسي رسم قدره عشرة بالمئة من المعدل المذكورعلى الاملاك الواقعة ضمن نطاق البلديات ويدفع هذا الرسم الـى البلديات . كما انه يفرض رسم آخر اضافي قدره خمسة بالمئة من المعدل الاساسي على كل الاملاك ويدفع هذا الرسم الى البنك الزراعي .

وقد تألفت في كل قضاء لجنة تخمين لتحديد قيمة الايجار للأملاك الخاضعة للضريبة . وتقسم الاراضي الى احدى عشرة فئة . وكل فئة تقسم الى درجات (ست بالاكثر والافضل ثلاث) وذلك مراعاة لدرجات خصب الارض المتفاوتة في قطع كل فئة . فتعين اللجنة المذكورة قيمة الهكتار الواحد وقيمة ايجاره في كل درجة من هذه الدرجات مراعية في ذلك عوامل معينة كعقود الايجار ، والسعر الرائج في السوق ومعدل مجموع غلة الارض لمدة عدة سنوات بعد خسم النفقات والارباح وهلم جرا وتنظم قطع الاراضي في كل قضاء حسب الدرجات المذكورة المختلفة وتسجل قيمة ايجار كل قطعة في سجل خاص . والاعتراضات على التخمين تفحصها لجنة استئنافية .

وفي سنة / ١٩٢٩ / طبقت الضريبة الجديدة في سنجق الاسكندرونة على الاراضي في اربعين قرية . حيث كانت قد تمت عمليات تسجيل الاراضي وتخمينها التمهيدية . ثم في سنة / ١٩٣٠ / طبقت الضريبة المذكورة في عشر قرى اخرى ، ومنذ ذلك التاريخ ونطاق تطبيق هذه الضريبة يتسع بنسبة اتساع عملية مسح الاراضي . وقد تعين معدل هذه الضريبة في سنجق اسكندرونة بقرار رسمي على الوجه الاتي : / ١٢ / بالمئة يضاف اليه الضريبتان الاضافيتان /١٠/ بالمئة و /٥/ بالمئة المذكورتان آنفا . وبعد ان الغيت ضريبتا العشر والويركو حلت محلهما ضريبة الانتاج الزراعي وهي وريثة ضريبتي العشر والاراضي (الويركو) . فقد صدر في ١٨ / ٤ / ١٩٤٠ (عهد حكومة المديرين) مرسوم اشتراعي اوجد بموجبه « ضريبة الانتاج الزراعي » لتحل محل ضريبة العشر ، على أن تستوفى بنسبة / ١٠٪ / من الانتاج ولكن ذلك المرسوم لم ينفذ في حينه . الى ان جاءت حكومة الشيخ تاج الدين الحسني ، التي الغت في ٩ / ٦ / ١٩٤٢ / ضريبة العشر واوجدت ضريبة الانتاج الزراعي بنسبة / ٥٪ / من الانتاج . وفي ١٧ / ١ / ١٩٤٣ رفعت نسبة هذه الضريبة الى / ١٧٪ /(٤٧) .

وفي ٣١ / ١٢ / ١٩٤٤ اقر المجلس النيابي السوري ، قانونا جديدا بضريبة الانتاج رقم / ١٠٨ / وقد جاء في هذا القانون أن هذه الضريبة هي عوضا عن ضريبتي الاراضي (الويركو) والعشر . على ان تعفى من الضريبة ، حاصلات القرية المعدة للاستهلاك فيها وحاصلات الزراع المعدة لبذاره او مؤونته ، او علف ماشيته ، والمنقولة الى ارض زراعية له ، في غير القرية المنتجة فيها والاغراس (للنصب) ونقل الخضر

والتبن ، والخضر الطرية ، التي لا تصلح للكبس او التجفيف والحاصلات التافهة ، (وزير المالية يقرر الانتاج الذي يشمله الاعفاء) وما يطحن في القرى والنواحي للاستهلاك العائلي وما يطحن في مراكز الاقضية لمؤونة المزارعين ، سواء كانوا مقيمين في نفس مركز القضاء أو في القرى المجاورة له (المادة ١٢) .

وهذه الضريبة اخذت بدلا عينا ، بعد ان حددت أسعار الانتاج مرة في كل اسبوع، من قبل لجنة رئيسها المحافظ في المحافظة ، والقائمقام (مدير المنطقة) في القضاء ، وقد تحددالاسعار في اوقات غير معينة .

والضريبة هذه تستحق عند نقل الحاصلات خارج القرية ، وعند ورودها الى مراكز الاستهلاك او البيع ، أو عند تصديرها الى خارج البلاد السورية ، وعند دخولها الى أحد المعامل لاجل تحويلها (المادة ١٤) .

والحاصلات الاصلية او المحولة التي تنقل بدون اجازة،وقبل دفع الضريبة عنها، بلا سبب معقول ، فانها تعتبر مهربة وتصادر ، وتجازى أماكن التحويل بغرامة قدرها / ٥٠ ـ ٢٠٠ / ليرة سورية (المادة ٢٢) (٤٨) .

ثالثا ـ ضريبة الاغنام :

(الحيوانات) واتت من حيث دخلها في المرتبة الثانية بعد ضريبة العشر وكانت اكثر دخلا منها في سنتي / ١٩٣٠ و ١٩٣١ / وقد تراوحت نسبتها المئوية الى مجموع الضرائب من / ٨و١٠ / عام / ١٩٢٧ / الى / ٦و١٥ / عام /١٩٣١/ وكانت تفرض على الجمال والغنم والماعز . ولم تكن تفرض على الابقار ، التي اعتبرت من وسائل الزراعة ، ولا على الخيل والحمير والبغال المستعملة للنقل (٤٩) .

وحتى / ١٩٢٨ / كانت القبائل البدوية تدفع ضريبة « الودي » ، التي فرضت جملة على كل قبيلة حسب تقدير الحيوانات التي تخصها . ثم فرضت عليها ضريبة الاغنـــام .

وفي حال عدم الدفع بعد اتمام الاحصاء فان المالية كانت تحجز عددا من الحيوانات

معادلة ثمنه للضريبة ثم تباع بالمزاد العلني . ولهذا فان الرعاة الفقراء كثيرا ما عانـوا من مشكلة تامين المال اللازم للدفـع .

رابعا ـ ضريبـة بـدل الطريـق :

من الضرائب المباشرة التي ارهقت الفلاحين ايضا ضريبة « بدل الطريق » وهـي ضريبة احدثت ايام العثمانيين وكانت تؤدى بالعمل مدة معينة في انشاء الطريق العـام ثم اجيز استبدالها بتقديم عدد معين من الحيوانات او بالتعهد بانشاء مسافة معينة من الطريق وفقا لاحكام قانون ١٢٨٦ هـ = ١٨٦٩ م ثم صدر قانون ١٣٣٢ هـ = ١٩١٣م الذي فرض دفع مبلغ معين بدلا من العمل وارغم المكلف على العمل عند الامتناع عـن الدفع . وقد بقيت هذه الضريبة ايام الحكم الفرنسي ويجب ان يدفعها كل ذكر صحيح الجسم بلغ عمره / ١٨ / سنة ولم يتجاوز الستين ويعفـى منهـا رجـال الجيـش والـدرك(٥٠) . وبعد صدور قرار سنة / ١٩٣١ / منحت البلديات حـق استيفاء هذه الضريبة ، والتي اطلق عليها اسم ضريبة الاعناق .

بالاضافة الى هذه الضرائب وجدت ايضا ضريبة المسقفات المؤسسة في الاصـل على قيمة الاملاك . كما كانت ضريبة الويركو على الاراضي . وكذلك ضريبـة التمتع ، التي وقعت وطاتها على التجار والصناع وذوي المهن الحرة والموظفين .

اما الضرائب غير المباشرة فكانت تقسم الى نوعين : الرسوم الجمركيـة والمكوس المفروضة على رسوم المونوبول أي على التبغ ، والبنزين ، واحتكار الملـح والمشروبات وكذلك رسوم المعاملات والاوراق التمغة أي الطوابع .

والسؤال الآن أين كانت تنفق الواردات ؟ وما نصيب الزراعة منها ؟ فمـن أصل / ١٠ر٦٩٨ر٢٢٩ / ليرة مجموع واردات الضرائب بما فيها حصة سورية من واردات الجمارك ، لم ينفق على الزراعة والدوائر الاقتصادية سوى / ٢١٤ر٢٢٣ / ليرة ، في حين خصص للجندرمة والحرس السيار مبلـغ / ١ر٣٤٥ر٤٠٣ / ليرة . وللمعـارف (التربية) / ٧٦٩ر١٦٦ / ليرة .

هذا مع العلم ان الفلاحين كانوا دافعي الضرائب الرئيسيين . ويبدو ذلك واضحا من الجدول التالي :

موارد الدولة الرئيسية من الضرائب عام / ١٩٣٩ / وعام / ١٩٤٦ /

اسم الضريبة	عام ١٩٣٩	عام ١٩٤٦	نسبة الزيادة	مرتبة المورد ١٩٣٩	مرتبة المورد ١٩٤٦
المواد المشتعلة	٢٨٠ر٠٠٠	٦ر٢٥٠ر٠٠٠	٢٢٣٦٪	٩	٤
التبغ والتنباك	١ر٢٠٠ر٠٠٠	١٦ر٧٠٠ر٠٠٠	١٣٩٠٪	٣	١
ضمانة النقد الورقي	١٣٥ر٠٠٠	١ر١٠٠ر٠٠٠	٨١٥	١٣	١٠
الرسوم القضائية	١٦٠ر٠٠٠	١ر٠٠٠ر٠٠٠	٦٢٥	١٢	١٢
المواشي	١ر٢٥٠ر٠٠٠	٧ر٨٠٠ر٠٠٠	٦٢٠	٢	٣
الانتاج الزراعي الأعشار	١ر٣٢٠ر٠٠٠	٨ر٠٠٠ر٠٠٠	٦٠٦	١٤	٢
الملاهي	٢٧ر٠٠٠	١٥٠ر٠٠٠	٥٥٥	٧	١٤
الملح	٣٥٠ر٠٠٠	١ر٩٠٠ر٠٠٠	٥٤٢	٥	٧
الطوابع	٥٠٠ر٠٠٠	٢ر٤٠٠ر٠٠٠	٤٨١	١٠	٥
التمتع	٢٤٠ر٠٠٠	١ر١٠٠ر٠٠٠	٤٥٨	١١	١١
المسكرات	١٩٠ر٠٠٠	٧٥٠ر٠٠٠	٤١٥	٦	١٣
البرق والبريد	٣٩٠ر٠٠٠	١ر٥٥٠ر٠٠٠	٣٩٧	٨	٨
الصراع	٣٣٠ر٠٠٠	١ر٣٠٠ر٠٠٠	٣٩٣	٤	٩
العقارات المبينة	٦٠٠ر٠٠٠	٢ر٠٠٠ر٠٠٠	٣٣٣	١	٦
	٦ر٩٧٢ر٠٠٠	٥٢ر٠٠٠ر٠٠٠	٧٣١٪		

٣ ـ من آثار العلاقات شبه الاقطاعية والانتدابية في الريف :

ارهق الاستثمار الاقطاعي (المحاصصة) الفلاح ، بالاضافة الى الضرائب المباشرة وغير المباشرة ورمى به الى مهاوي الفاقة والجوع ، مما اضطره الى الاستقراض لتأمين قوت عياله او للحصول على البذار وادوات الانتاج . وبما ان البنوك لا تقرض الا على اساس رهن العقار الذي لا يملكه . فاضطر الفلاح الى اللجوء ، اما الى تاجر المدينة او الى السيد الاقطاعي ، واحيانا الى بعض اثرياء الريف .

وهذه الفوائد لم تكن نسبتها قليلة . فقد بلغت قيمة فائدة الاموال المقرضة في اوقات الخير بين / ٩ و ٢٠٪ / وارتفعت هذه النسبة الى / ٤٠ او ٤٥٪ / في الاماكن التي خلت من مؤسسات التسليف والاماكن النائية التي تندر فيها الاموال وكان معدل الفائدة هذا يرتفع بشكل مريع في اوقات محل المواسم فيبلغ / ١٥٠٪ /[٥٢] ، وهنا

نجد ان الانسان الذي يستثمر اخاه الانسان يغتنم قساوة الطبيعة وبخلها لكي يزيد من ارباحه ويعمل في الوقت نفسه على شقاء الغير ضاربا عرض الحائط بكل المثل والقيم التي يتغنى بها أمام الناس . كما ان الدولة ذات الطبيعة الاقطاعية اسهمت في عرقلة تطور الفلاح وسعادته وهنائه والمثال التالي يبرهن على ذلك : في اواخر صيف/١٩٣١/ سمحت الحكومة باقراض فلاحي حوران مبالغ من الاموال حتى يتمكنوا من زراعة الارض . ولكن مديرية المالية قامت باستيفاء حصتها من الاعشار حال دفع القيمة المستقرضة . هذا مع العلم ان الضرائب العشرية لا تتحقق الا اذا وجد المحصول . فعلقت جريدة الف باء على الخبر بقولها : « الحكومة تود ان تسجل على الفلاح أموالا اعفته منهاالطبيعة وتسجلها بفائدة ا ضا فهي تعطيه بالشمال لتقبضمنه باليمين »(٥٤)

انتقلت الارض بسبب الربى الفاحش ــ كما تذكر مجلة الطليعة الدمشقية التقدمية سنة / ١٩٣٦ / من الزراع الى الدائنين(٥٥) . وقد ازدادت هذه الظاهرة وضوحا في أواسط الثلاثينات وادت الى خسارة الفلاحين لكل شيء وانتقالهم الى العبودية . وهم بسبب عدم استطاعتهم على دفع الديون لا يهتمون باصلاح الارض التي لا يملكونها وبداوا في الهجرة من الريف الى المدينة .

وقد اشار الى هذه الظاهرة احد اعمدة البرجوازية السورية خالد العظم في حديث له في أوائل عام / ١٩٣٦ / اذ قال : « من العوامل التي تعانيها البلاد في أزمتها الحاضرة نزوح الفلاحين والقرويين الى المدينة وتوطنهم فيها . مما احدث تخمة في النفوس وكثافة عظيمة شلت يد العمل وشوشت نسبة التوزيع الصناعي »(٥٦) .

ومن الطبيعي الا يشير من (نشا في الحسب ونعم في الغنى ،ارستقراطيفيالنسب وديمقراطي في الحب)(٥٧) الى العوامل الحقيقية التي ادت الى هجرة الفلاحين الى المدينة ، بل على العكس ، فقد ارجع اسباب ــ الازمة المالية السورية ــ ليس الى ــ الازمة العالمية الكبرى ــ اي ازمة النظام الراسمالي ، بل الى ازمة موضعية لا تتاثر بتلك وانما تتاثر بنزوح الفلاحين والقرويين الى المدن(٥٨) فهو لا يتعرض لاسباب النزوح ، فالذي يهمه ــ لتفريج الازمة ، العمل على زيادة الانتاجو كثرة التصدير الى الخارج وعقد اتفاقات جمركية مع البلدان الاجنبية ــ .

ان ما تسعى اليه البرجوازية هو ــ تفريج ازمتها ، وليس تفريج ازمة الفلاحين ــ ان قساوة العلاقات الاقطاعية وبربريتها ، وكذلك سوط الدركي هو الذي اجبر الفلاح على النزوح من أرضه ومن لم ينزح بقي كابوس الفقر والجهل والمرض وعصا الاقطاعي وسوط الدركي مسلطا عليه . ومما يدل على ذلك ما ذكره محمد كرد علي وزير المعارف ايام الانتداب واحد أعمدة الفكر الاقطاعي البرجوازي في مذكراته بما يلي(٥٩) : ــ

« قرينتي تقول الام تهتم بأمر الفلاحين وتشفق عليهم وتحاول رفع الظلم عنهم وتعمل على فتح طرق وكتاتيب لهم وما هم الا نماردة لو اعفت الدولة ظهورهم من ضرب العصي والسياط لما استطعت انت على مكانتك ان تذهب الى مزرعتك آمنا على روحك ولو لا الاستبداد بهم ما استقام لكم امر معهم » .

لقد صدقت « القرينة » في ذلك فان التحالف بين الدولة والاقطاعيين لاضطهاد الفلاحين واستثمارهم هو من سمات عهد الانتداب ، كما صدقت ايضا بتصويرها روح الحقد الطبقي المتاجج عند الفلاحين المفتقرين الى الرغيف ضد مستثمريهم .

عندما خفت حدة لذع السياط وضرب العصي على هؤلاء « النماردة » بعد الحركة الشعبية العارمة في عام / ١٩٣٦ / وعلى اثر ضعف سلطة الانتداب أيام الحكم الوطني « تمنع أهالي بعض القرى عن تخمين محصولاتهم وبيان أسماء المكلفين فيها (٦٠) . ورفضوا دفع الضرائب . وربما كان لعملاء سلطات الانتداب الذين أرادوا إضعاف الحكم الوطني دور في دفع هذا التمرد ، الا ان بذور هذه العملية والتمرد كانت موجودة عند الفلاحين ودلت على مدى حقدهم على مستثمريهم ، واستعدادهم للنضال فيما لو توفرت الظروف المناسبة » .

تعرضت مجلة البرجوازية التجارية في احدى مقالاتها عن « ثروة البلاد الزراعية والطرق الواجبة لانعاشها(٦١) الى اسباب تأخر الزراعة ، فاشارت الى مساهمة الملكية الاقطاعية واسلوب المحاصصة في هذا التاخر ولكن باسلوب ناعم لبق عبر عن طموح البرجوازية الى رفع مستوى حياة الفلاح حتى تنتعش السوق الداخلية . كما برهن هذا الاسلوب الناعم في الوقت نفسه على ان البرجوازية السورية التجارية والزراعية لا تريد ان تمس الملكية الاقطاعية بالرغم من علمها الاكيد بأن هذه الملكية تساهم في إبقاء

البلاد متخلفة ولا تساعد على النمو الاقتصادي في البلاد. جاء في المقال المذكور ما يلي(٦٢) :

« فيتبين لنا مما سبق ان الزراعة في سورية لاتزال متاخرة وان هناك عوامل عديدة تعرقل سبيل تقدمها واهم هذه العراقيل كثرة الممتلكات الكبيرة من الاراضي والتزامها بالحصة وجهل المزارعين الطرق الاولية البسيطة التي لاتزال مستعملة في الزراعة .

اضف الى ذلك ان هؤلاء المزارعين مثقلون بالديون ويئنون تحت ضغط الضرائب الفادحة اجل ، لقد ضاق قليلا نطاق الالتزام بالحصة بعد بيع املاك الدولة في دولة سوريا ولكن لم يبذل جهد ما لتقسيم الممتلكات الكبيرة الخاصة الى ممتلكات اصغر .. والامية متفشية بين الفلاحين .. كما ان الفلاح لا يزال مثقلا بالديون .. » .

ان هذا المقطع من المقال السابق يعبر احسن تعبير عن راي البورجوازيةالتجارية السورية في الملكية الزراعية ، ودعوتها الى تفتيت الملكيات الكبيرة الى ملكيات صغيرة تكون مناخا اقتصاديا ملائما لنمو التجارة ، التي لا يمكن ان تزدهر الا في حال تحرر الفلاحين من الظلم الاقطاعي والفقر المرافق له .

لقد ادت سيادة العلاقات الاقطاعية الى تباين واضح في توزيع المداخيل والى ظهور طبقات وفئات اجتماعية مختلفة تستثمر الاقلية فيها الاكثرية وتعيش على اتعابها .

وبالرغم من ان اكثر من نصف سكان سوريا من الفلاحين(٦٣) ، الذين يعملون في الزراعة ، وبالرغم من ان اكثر من ثلاثة ارباع صادرات سورية ، هي من المواد الخام الزراعية ، وبالرغم من ان صناعتها قائمة بالاكثر على تحويل منتجاتها الزراعية الى بضائع مصنوعة أو معدة للصناعة فان نصيب الفلاحين من الدخل القومي لم يكن يتجاوز / ٢٢٪ / في أواسط الثلاثينات وهذه النسبة تظهر واضحة من الجدول التقريبي الذي نشره احسان الجابري في مجلة الطليعة التقدمية سنة / ١٩٣٧ /(٦٤) :

الفئة	النسبة المئوية من مجموع السكان	دخل الفئة من مجموع الدخل العام بملايين الليرات الذهبية	النسبة (٪) من الدخل القومي العام
١ ــ الفلاحون الذين يعيشون في ظل النظام الاقطاعي ويبلغ عدد عائلاتهم /٢٤٠/ الف عائلة ودخل العائلة السنوي /٢٠/ ليرة ذهبية وسطيا .	٤٠	١٤،٥	١٤،١٢
٢ ــ الفلاحون الاحرار الذين يتمتعون بملكية صغيرة من الاراضي وعدد عائلاتهم /٨٧/ الف عائلة ودخل العائلة الوسطي في السنة /٣٠/ ليرة ذهبية .	١٤،٥	٢،٦٢	٧،٧

الدخل الوطني ، في حين ان هؤلاء الفلاحين انفسهم هم الذين قدموا / ٦٩٪ / من كميات التصدير ، و / ٥٣،٥٪ / من قيمته(٦٥) ، عدا عن استهلاك الوطن الانتاجي وغير الانتاجي .

ونجد بالمقابل ان / ١٥٪ / من السكان « وتتألف من كبار وصغار الطفيليين من اقطاعيين ومستعمرين واصحاب المحسوبيات والسماسرة واصحاب الارباح المجانية الاخرى » حازوا على / ٥٤٪ / من الدخل القومي اي / ١٨،٣٣ / مليون ليرة ذهبية (٦٦) دون ان يقدموا اي جهد يذكر ودون ان يساهموا مطلقا في عملية الانتاج .

اما بقية الدخل الوطني فتذهب الى فئات سكان المدن المختلفة .

علاوة على ان جدول تصنيف الدخل القومي المذكور قبل قليل لا يميز بين عمال المدن والريف ، فهو لا يفرق ايضا بين فئات الفلاحين الاحرار المختلفة من فقراء ومتوسطين واغنياء . ولا نعلم اين الفلاحين الاغنياء ذوي اليسار ، هل وضعهم مع الفلاحين الاحرار ، أم مع الفئات غير المنتجة ؟ ومع هذا يمكننا القول ان المنتجين لم ينالوا الا القليل من انتاجهم ، وغير المنتجين حصلوا على القسم الاكبر من الانتاج دون اي جهد . وهذه هي عدم المساواة الاجتماعية بعينها ، التي سنراها في الفصل التالي .



حواشي الباب الثاني

١ ـ « قضية ملكية الارض ونشوء الملكيات الكبرى في لبنان » في القضية الزراعية في لبنان في ضوء الماركسية . منشورات الحزب الشيوعي اللبناني ، ص ـ ١٨١ ـ .

٢ ـ جاء في الفصل الثاني من القانون المذكور تمييز بين مختلف العقارات كما يلي : « المادة ٥ ـ العقارات الملك هي العقارات الكائنة داخل مناطق الاماكن المبينة كما هي ـ اي المناطق ـ محددة اداريا والقابلة للملكية المطلقة . المادة ٦ ـ العقارات الاميرية ـ هي العقارات التي تكون « رقبتها » للدولة ويجوز ان يجري عليها حق ـ التصرف ـ . المادة ٧ ـ العقارات المتروكة : المرفقة هي العقارات التي تخص الدولة ويكون لجماعة ما حق استعمال عليها مميزاته واتساعه معينان وفقا للعادات المحلية والانظمة الادارية . المادة ٨ ـ العقارات المتروكة المحمية هي العقارات التي تخص الدولة والبلديات وتكون جزءا من املاك الدولة . المادة ٩ ـ العقارات الخالية المباحة او الاراضي الموات هي الاراضي الاميرية التي تخص الدولة الا انها غير معينة ولا محددة فيجوز لمن يشغلها اولا ان يستحصل باذن من الدولة على حق الافضلية ضمن الشروط المعينة في انظمة املاك الدولة .

انظر النص الكامل للقانون في : مجموعة قرارات المفوضين السامين لسوريا ولبنان الكبير . اصدار محمد توفيق جانا . ج ٢ دمشق ـ قنوات ١٩٣٣ ، ص ٣ ـ ٦٣ .

٣ ـ عثمان سلطان « شرح احكام الاراضي » دمشق ـ ١٩٣٦ ـ ، ص ـ ٧ ـ .

٤ ـ عثمان ... ص ٧ ـ ٤٠ ... البرت خوري : « احكام الاراضي » في النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان ـ محرره سعيد حمادة بيروت ١٩٣٦ ، ص ـ ٥١ ـ .

٥ ـ احمد وصفي زكريا : « جولة اثرية في بعض البلاد الشامية » دمشق ١٩٣٤ ، ص ٣٤٠ .

٦ ـ انظر نص القرار في : مجموعة قرارات ... ص ٦١ ـ ٨٦ .

٧ ـ الهلالي عبد الرزاق : « قصة الارض والفلاح في الوطن العربي » بيروت ـ١٩٦٧ـ ، ص٣٣٢ .

٨ ـ راجع وزارة الاقتصاد الوطني : احصائيات مصلحة المساحة ، دمشق ـ١٩٤٥ـ السباعي بدر الدين : اضواء على الرأسمال الاجنبي في سورية ص ـ٢٢٦ـ ، السمان .. ص ١٩ .

٩ ـ بدر البرت : « الاقتصاد اللبناني » ، محاضرات في سنة ١٩٥٤ ، ص ١٨ ـ ١٩ .

١٠ ـ نقلا عن نجار ... ص ـ ٣٨ ـ .

١١ ـ كرد علي محمد « المذكرات » ج ٣ ، دمشق ١٩٤٩ ، ص ـ ٧٠٥ ـ .

١٢ ـ مصطفى ، رفاعي ، كرد علي .. ص ـ ١٥٧ ـ .

١٣ ـ دليل الجمهورية السورية عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ ، ص ـ ١٩٠ ـ .

١٤ ـ سلطان ... ص ٧٥ ـ ٧٦ .

١٥ ـ انظر نص القرار في : مجموعة قرارات ... ص ٦١ ـ ٨٦ .

١٦ — في سلطان ... ص — ١٠٤ — لتفاصيل والية والقانونية لاحكام الاراضي ، وانظر ايضا : قـرار — ٣١ — الذي يبين صلاحية ادارة املاك الدولة في سورية في ١٦—٢—٢٥ ، في مجموعة قرارات رئاسة دولـة سورية لعامي — ١٩٢٥ و ١٩٢٦ — .

١٧ — التصرف لغة ، تحويل الشيء من حالة الى اخرى . واصطلاحا : الاستعمال والانتفاع بما هو معدود من لوازم التملك . وقد اصطلح علماء التشريع العثماني على استعمال لفظ « التصرف » في الاراضي الاميرية والمسقفات والمستغلات الوقفية ذات الاجارتين بمعنى « حق الانتفاع والاستعمال » مجردا عن الرقبة باعتبار ان رقبة الاراضي الاميرية عائدة للدولة ، كما ان رقبة المسقفات والمستغلات الوقفية ذات الاجارتين عائدة لجهة الوقف ، وان المتصرف بعقار من هذه العقارات انما يملك حق استعماله والتمتع بمنافعـه . ولذلك يقال له — المتصرف بالارض الاميرية — او — المتصرف بالدار ذات الاجارتين — .

ومن هنا يبدو ان التصرف بالاراضي الاميرية موزع بين جهتين : —

احداهما — الدولة التي تملك التصرف بحق الرقبة . وحكم هذا التصرف ان الدولة تستوفي العشر من محاصيل الاراضي المذكورة وتتقاضى الخرج المعين عند الفراغ والانتقال وتعطي سندات التصرفـــــ الرسمية وتبيع المحلول من تلك الاراضي او تؤجره وفقا لاحكام القرار — ٢٧٥ — .

والثانية — المتصرفون الذين يملكون التصرف بالاراضي الاميرية بحق الزراعة . وحكم هذا التصرف انهم يستغلون الاراضي المذكورة ويستثمرونها بموجب اسناد التصرف التي تعطى لهـم مـن الدولـة ، والمعروفـة بـ « قوجان » والعلاقـة بين الدولـة التي هي (صاحب الارض) وبين المتصرف بحق الاستعمال والانتفاع تشبه — حسب راي صاحب كتاب « شرح احكام الاراضي » العلاقة بين المؤجر والمستاجر .

وصاحب حق التصرف بالاراضي الاميرية عليـه ان يدفـع الى الخزينة ايجارين الاول لقاء الحصول على السند من دائرة الطابو ورسوم نقل وارث ، والثاني كعشر يدفع سنويا الى خزينة الدولة .

وتفرض على المتصرف شروط اهمها مواصلة زراعة الارض ، واذا تركت بورا مدة خمـس سنـوات متواصلة دون عذر شرعي تعود الى الحكومة . ويمكن لصاحب الارض ان يسترجعها بعد دفع مبلغ من المال يسمى بدل المثل . واذا توفي صاحب التصرف ولم يترك ورثة شرعيين تعود الاراضي الى الدولة ، وعندها تطرح في المزاد العلني ويعطى حق التصرف بالارض لمن يدفع الثمن الاعلى .. راجع سلطان .. ص /١٤٠/

(١٨) سلطان .. /٤٥/ .

وحمادة . ص ٥٣ ، الذي نقل عن قانون / ١٩٣٠ / ...

(١٩) المصـدر السابـق .

(٢٠) الشهابي مصطفى ، من مقال لـه في مجلة المشـرق البيروتيـة — العدد / ٥٧ ، ١٩٣٢ / ص /٤٤٤ — ٤٤٥/ .

(٢١) المصدر السابـق .

(٢٢) المصدر السابـق .

(٢٣) الشريف منير : « قصة الارض في سورية » دمشق /١٩٦١/ . ص /٦٠/ .

٢٤ — حمادة ... ص /٥٤/ .

٢٥ — الشريف ... ص /٦٠/ مرسي فؤاد : محاضرات عن النقود والبنوك في البلاد العربية ، سورية ولبنان . القاهرة /١٩٥٨/ ص /٥٣/ .

٢٦ – نجار حليم : تراثنا الاجتماعي واثره في الزراعة – بيروت /١٩٤٩/ ص /٣٤/ .
٢٧ – انظر لنص القرار في : مجموعة قرارات ... ص /٩٥/ .
٢٨ – المصدر السابق ص /٩٧–٩٩/ .
٢٩ – الهلالي ... نقلا عن دورين ورين « الاصلاح الزراعي والانماء في الشرق الاوسط » .
٣٠ – حمادة ... ص /٥٧/ .
٣١ – الشريف منير : « قصة الارض في سورية » دمشق /١٩٦١/ ص /٦٤/ .
٣٢ – المصدر نفسه ص /٦٧/ .
٣٣ – دليل الجمهورية السورية عام /١٩٣٩–١٩٤٠/ ص /١٨٧/ .
٣٤ – ان نظام المسقفات والمستغلات الوقفية المؤرخ في ٩ /جمادى الاخرة سنة /١٢٨٧/ قد جعل العقارات الموقوفة على ثلاثة اقسام :

١ – الاوقاف المضبوطة .

٢ – الاوقاف المستثناة .

٣ – الاوقاف المستثناة .

ولما كانت الاراضي الاميرية الموقوفة وقفا غير صحيح منها ماهو داخل في عداد الاوقاف المضبوطة ومنها ماهو داخل في زمرة الاوقاف الملحقة وكان بعضها من الاوقاف المستثناة . فان ادارة هذه الاراضي تتبع شكل الادارة المقرر للنوع التي هي منه .

فالاوقاف المضبوطة :

هي التي تدار مباشرة من قبل نظارة الاوقاف وهي على نوعين :

الاول – الاوقاف المتروك أمر توليتها وادارتها وجميع شؤونها الى خزينة الاوقاف واكثر اوقاف السلاطين من هذا النوع . لان تولية هذه الاوقاف مشروطة للخليفة .

ولما كان ناظر الاوقاف هو وكيل الخليفة كان له ان يقوم بامر التولية بالوكالة عنه . وكذلك اوقاف اكثر الوزراء والامراء الذين انقرض نسلهم المشروطة لهم التولية ، وضبطت اوقافهم من قبل خزينة الاوقاف فناظر هذه الخزينة هو بحكم المتولي على الاوقاف المذكورة .

الثاني : الاوقاف التيمازال متولوها المشروطة لهم التولية موجودين ولكن بالنظر الى تحقق تبذيرهم واسرافهم وتبديدهم اموال الوقف ضبطت من خزينة الاوقاف ومنع متولوها من المداخلة فيها وترك امر ادارتها لنظارة الاوقاف على ان يخصص لمتوليها رواتب معينة ...

ولكن لما كانت الاراضي الموقوفة والاراضي الاميرية في كثير من المجال مختلط بعضها ببعض وكانت جباية اعشار قسم من الاراضي المذكورة من قبل نظارة الاوقاف وقسم آخر من قبل الخزينة وقسم منها من قبل متولي الاوقاف تؤدي الى حدوث مشاكل في امر تعيين الحصص العائدة لهذه الجهات الثلاث رات الحكومة العثمانية على اثر صدور فرمان التنظيمات الخيرية عام /١٢٥/ ان تقوم نظارة المالية بجباية اعشار اراضي السلاطين الموقوفة وغيرها فتاخذ منها مايعود لخزينة الدولة وتؤدى في كل شهر الى خزينة الاوقاف استحقاقها من هذه المحاصيل .

ثم بعد ذلك بقليل وضعت نظارة المالية يدها على جميع الاوقاف في الصحيحة . غير ان تذمر بعض متولي الاوقاف وشكاويهم جعل الحكومة مضطرة الى استثناء الاوقاف العثمانية الانف ذكرها وترك ادارة هذه الاوقاف الى متوليها كما كانت سابقا .

ثم ربطت الحكومة بعضا من اعشار القرى والمزارع الموقوفة ببدل مقطوع والبعض الاخر ببدل التخمين واخيرا استثنت نحو ستة عشر وقفا وقررت مداخلة الخزينة بشؤونها على ان تجري الحكومة احالة اعشارها باسم الوقف ثم تعطي اسناد الالتزام الى متوليها لاجل جباية اعشارها من الملتزمين .

وفي عهد الانتداب الفرنسي على البلاد السورية اصدرت المفوضية العليا قرارا بتاريخ ٢٢ اذار سنة /١٩٢٦/ ورقم /١٦٧/ يتعلق بكيفية تحديد العوائد المستحقة للاوقاف جاء فيه ماملخصه :

ان العوائد المستحقة للاوقاف والتي تتالف من العوائد الثابتة الناتجة عن تحويل حاصل الاعشار او غيرها من المداخيل العمومية المخصصة للاوقاف ومن التخصيصات والاعانات المتعلقة بالاوقاف المدورة والخيريـة ومن الاعشار وغيرها من المداخيل العمومية الممنوحة للاوقاف كملك لها ماعدا حاصلات المكوس ورسوم الفراغ والانتقال عن العقارات الوقفية ذات الاجارتين والاجارة الطويلة ... نقلا عن سلطان ... ص /٥٥/ .

٣٥ ـ انظر القرار رقم /٧٥٣/ بشان مراقبة الاوقاف العامة ووظائفها في : مجموعة قرارات .. ص ٦٨ ـ /٨٦/ .

٣٦ ـ هذا الراي تبنته الكتلة الوطنية » انظر : الكيالي عبد الرحمن : المراحل جـ/١ = ٢ = ٣/ وانظر أيضا : الشهابي مصطفى : محاضرات في الاستعمار . القاهرة /١٩٥٧/ .

راجع ايضا اسماء اعضاء مجلس الاوقاف الاسلامي الاعلى في مجموعة القرارات : ... ص /١٠٢/ .

٣٧ ـ دليل الجمهورية ... ص /١٨٧/ .

٣٨ ـ سعيد حمادة : « النظام الاقتصادي في سورية ولبنان » بيروت /١٩٣٦/ ص /٢٧٥/ نقلا عن ميزانية دولة سورية لسنوات /١٩٢٧ ـ ١٩٣٥/ .

٣٩ ـ المصدر نفسه .

٤٠ ـ الشهابي مصطفى : (اهم ادوائنا الاقتصادية وتلافيها) في مجلة المجمع العلمي العربي تشرين الثاني /١٩٢٨/ ص /٧٢٥/ .

٤١ ـ حمادة .... ص /٣٧٧ـ٣٧٨/ .

٤٢ ـ تقرير لجنة المالية في المجلس النيابي في جلسة ٩ كانون الثاني /١٩٣٨/ في مذكرات المجلس النيابي /١٩٣٨/ ص /١٠٩/ .

٤٣ ـ البني ، وصفي : من مخطوط له موضوع في سنة /١٩٤١/ ص /٨/ .

٤٤ ـ اسقاط بقايا الاعشار المخمنة في قضاء دوما عن سني /١٩٢٤/ وما قبلها بسبب احتراق القيود اثناء الثورة وعدم امكان تعيين مفردات تلك البقايا . اسقاط اعشار عام /١٩٢٥/ المطروحة على قضاءي درعا وازرع ، بناء على وعود الحكومة لزراع الفضية حوران باسقاط الاعشار المطروحـة عليهـم عن عام /١٩٢٥/ (تشرين اول ١٩٢٧ صفحة ١٠٨) . تنزيل اعشار قرية الزبيق من اعمال حمص عن عام /١٩٢٦/ لانه ثبت عدم زرع قسم منها ايام الثورة تشرين الثاني عام / ١٩٢٧ / ص ٢٠٣ اسقاط مبلغ

/..د.١٢٦٠/ قرشا من بدل تربيع اعشار قرية سرغايا عن /١٩٢٦/ - (٢١ - ١٢ - ١٩٢٦ ص ٥١٥) .
اسقاط مبلغ (٥١٥٥٢٠٠) من اصل تربيع اعشار قرى لواء حماه - (٢٧/١/٥٦) ص ١٨٠ بسبب
تسلط حشرة السونة . اسقاط مبلغ (٢٨٥٤٦٣) قرشا سوريا من اصل بدلات اعشار بعض قرى لواء
اسكندرون ، بسبب تسلط حشرة السنونة (٢٧/١/٢٤ - ص ٢١٥) اسقاط مبلغ / ٧٧٢٥٩٠ /
قرشا سوريا من اصل بدلات اعشار قرى وادي العجم (قطنا) لان هذه القرى لم تتمكن من القيام بالاعمال
الزراعية بسبب الاضطرابات التي حصلت فيها ايام الثورة (٢٦ - ١ - ٢٧ - ص ٢١٧) اسقاط قسم
من بدل تربيع اعشار قرية يعفور التابعة لوادي العجم لعام /١٩٢٦/ بسبب الخسارة الواقعة في
محصولات السنة المذكورة . اسقاط كامل اعشار قرية ام العواميد من قضاء اذرع لان اراضي القرية
اصبحت سنة /١٩٢٦/ بورا ، اذ ان اصحابها لم يتمكنوا من زراعتها بسبب احوال الثورة .

انظر مجموعة قرارات رئاسة الدولة السورية لعام /١٩٢٧/ .

٤٥ - الشهابي ... ص /٧٢٦-٧٣٠/ .

٤٦ - حمادة ... (٣٨٦ - ٣٨٩) وقد لخصنا ما كتبه حمادة حول هذه الضريبة .

٤٧ -

٤٨ - نقلا عن الشريف ... ص /٧٧/ ويعدد الشريف مساوىء هذه الضريبة كما يلي :

١ - انها تحدث مشاكل واختلافات بين الزراع والجباة ، من جهة الوزن او تقدير الكمية .

٢- انها تحدث مشاكل واختلافات كثيرة عند تقدير اسعار الانتاج ، وفي اكثر الاحيان يكون التقدير للاسعار ، أعلى من اسعاره ، وهذا مرهق للمنتجين .

٣ - انها اصبحت واسطة لسوء الاستعمال والرشوة .

٥ - انها غير تصاعدية ، وهذا ما يبقي القوي متمتعا بالرفاهية ولا يدفع لخزينة الدولة لخصنا ماكتبه حمادة حول هذه الضريبة .

- انها غير تصاعدية ، وهذا مايبقي القوى متمتعا بالرفاهية ولا يدفع لخزينة الدولة الا القليـــل .

٦ - انها لاتؤمن للحكومة حقها الحقيقي من الكبير ، الذي يستطيع التخلص من الضريبة او من بعضها ، بطرق خاصة ، ولاسيما عند بيع انتاجه ، في المكان الذي نتج فيه الى اهالي القرى الذين هم في حاجة اليه ، او تهريبه برا الى خارج الحدود السورية (مراكز موظفي الانتاج) .

٤٩ - حماده ... ص /٤٠٠/ .

٥٠ - تقرير لجنة المالية ... ص /١١٠/ .

٥١ - حمادة ... ص /٣٦٠/ .

٥٢ - دليل الجمهورية السورية في فجر السيادة والاستقلال دمشق /١٩٤٦/ ص /٣٩٩/ .

٥٣ - مجلة الطليعة الدمشقية . ايار /١٩٢٦/ ص /٢٦٠/ .

٥٤ - الف باء ٦ ايلول /١٩٣١/ .

٥٥ - الطليعة ايار /١٩٣٦/ ص /٢٦٠/ .

٥٦ ـ سلامة فائز : اعلام العرب في السياسة والادب . دمشق /١٩٣٦/ ص /٢١-٢٢/ .

٥٧ ـ المصدر ذاته ص /٢٣/ .

٥٨ ـ المصدر ذاته .

٥٩ ـ كرد علي : المذكرات جـ/٣/ ص /٨٦٢/ .

٦٠ ـ مذكرات المجلس النيابي ، جلسة /٦/ ت١٩٣٧/٢/ .

٦١ ـ النشرة الاقتصادية ... ص /٣٥-٥٥/ .

٦٢ ـ المصدر نفسه ، ص /٥٤/ .

٦٣ ـ سعيد حمادة يقدر نسبة الفلاحين ب /٦٠٪/ انظر : حماده سعيد : « النظام النقدي والمصرفي في سورية » بيروت /١٩٣٥/ ص /٦٨/ . وزير المعارف يصرح في المجلس النيابي بان /٦٧٪/ من السكان يشتغلون بالزراعة و /١٣٪/ هم من القبائل الرحل و /٢٠٪/ سكان المدن . مذكرات المجلس النيابي /١٩٣٧/ ص /٨٠/ .

٦٤ ـ الجابري احسان اين يعيش الشعب السوري . في الطليعة الدمشقية ك ١٩٣٧/١/ص٨٥٤ .

٦٥ ـ السباعي ... ص /٢٤٣/ .

٦٦ ـ الجابري ... ص /٨٥٤/ .

وصول مخصوص للضرائب التي تقبض من قبل مأموري الجباية

وصول مخصوص للضرائب التي تقبض من قبل مأموري الجباية

وصول مخصوص للضرائب التي تقبض من قبل مأموري الجباية

ـ وصولات ضريبة الاراضي والمسقفات لعام ١٩٢٧

الفصل الثالث

الطبقات والفئات الاجتماعية في الريف

١ ــ التوزع السكاني ومصالح الطبقات بين الوحدة الوطنية ونقيضها .

١ ــ سكان المدن والريف :

حسب احصاء /١٩٢٢/ التقديري بلغ عدد سكان سورية مع لبنان ٢ر١٣٩ر٦٣٨ نسمة موزعين كما يلي : دولة سورية / ٩٨٦و٨٢٩ / نسمة ، سنجق اسكندرونة / ٢١٢ر٠٠٠ / نسمة ، الجمهورية اللبنانية / ٦٢٩و٣١٩ / نسمة ، حكومة اللاذقية / ٢٦١ر١٦٢ / نسمة ، حكومة جبل الدروز / ٥٠ر٣٢٨ / نسمة(١) .

أما احصاءات عام /١٩٣٢/ فتقدر عدد سكان سورية بنحو ٢ر٩٨٧ر٤٢٥ نسمة منهم / ١ر٥٦٢ر٠٠٠ / نسمة في دولة سورية و / ٨٥٤ر٦٩٣ / نسمة في لبنان والباقي في بقية المقاطعات .

ولا حاجة الى القول أن هذه الارقام التقديرية لا يعتد بها بسبب اخطاء احصاء عام /١٩٢٢ / من جهة وعدم الدقة في تسجيل الوفيات والمواليد في سجلات وزارة الداخلية من جهة اخرى(٢) .

ومع ذلك فان هذه الاحصائيات تعطي ارقاما تقديرية تلقي ضوءا على عدد السكان. وهناك احصاء نشرته جريدة الاحرار في / ١٩ كانون الثاني ١٩٣١/ يشير الى توزع السكان في سورية في سنة ١٩٣٠ حسب حرفهم على النحو التالي(٣) :

	العدد	المعدل المئوي
الزراعة	١ر٧١٦ر٠٠٠	٦٢ر٠٠
الحرف الاخرى	٦٩٢ر٠٠٠	٢٥ر٠٠
البدو ــ القبائل الرحل	٣٦٠ر٠٠٠	١٣ر٠٠
	٢ر٧٦٨ر٠٠٠	١٠٠ر٠٠

واذا اعتمدنا على منشورات الجامعة الامريكية عام / ١٩٣٦ / فان عدد سكان المدن عام / ١٩٣٢ / بلغ / ١ر٢٨ر٥٣٨ / من مجموع سكان سورية البالغ عددهم ، كما

ذكرنا ٢ر٩٨٧ر٤٢٥ نسمة ، اي ان اكثر من نصف السكان يعيشون في الارياف . ان الاحصاءات في المدن هي اكثر منها دقة في الريف ، اي ان نسبة سكان الريف هي فـي الواقع اكثر من ٦٠٪ من السكان . وهناك امر آخر يجب ملاحظته وهو ان كل تجمع سكاني اكثر من خمسة الاف اعتبر مدينة ، ولكن قسما كبيرا من هذه « المدن » الصغيرة يعمل في الزراعة، فالاحصاءات مثلا تضع دوما ودرعا والباب والسلمية ومعرة النعمان ضمن المدن . ومعروف ان اعدادا كبيرة من هذه « المدن » تعمل في الزراعة او تعيش من وراء مورد زراعي وحتى رعوي .

ولأخذ فكرة عن المدن الكبيرة والصغيرة ننشر الجدول (٤) التالي لنتمكن من مقارنة سكان المدن مع الريف في اوائل الثلاثينات .

المدن التي سكانها فوق الخمسة الاف

دولة سورية		الجمهورية اللبنانية	
حلب	٢٣٢ر٠٠٠	بيروت	١٧٩ر٣٦٠
دمشق	٢١٦ر٠٠٠	طرابلس ـ الميناء	٥١ر٢٢٠
حمص	٦٥ر٠٠٠	زحلة	١٤ر٧٨٠
حماه	٥٠ر٠٠٠	صيدا	١٢ر٧١٠
دير الزور	٣١ر٠٠٠	جونية وضواحيها	١٢ر٠٠٠
ادلب	١٣ر٠٠٠	بعلبك	٦ر٠١٠
دوما	١٢ر٠٠٠	صور	٥ر٨٩٠
درعا	٨ر٠٠٠	شويفات	٥ر٥٠٠
الباب	٧ر٠٠٠	اميون	٥ر٠٠٠
سلمية	٦ر٠٠٠	جبيل	٥ر٠٠٠
معرة النعمان	٦ر٠٠٠		
المجموع	٦٤٤ر٠٠٠	المجموع	٢٩٧ر٤٧٠
سنجق اسكندرونة		حكومة اللاذقية	
انطاكية	٣٠ر٠٠٠	اللاذقية	٢٣ر٨٧٦
اسكندرونة	١٦ر٠٠٠	جبلة	٦ر٠٠٠
المجموع	٤٦ر٠٠٠	طرطوس	٥ر٠٠٠
المجموع	٣٤ر٨٧٦		
سويدا	٦ر١٩٢		
المجموع	٦ر١٩٢		
المجموع العام	١ر٠٢٨ر٥٣٨		

المناطق	سكان المدن التي سكانها فوق الخمسة الاف	سكان الارياف
دولة سورية	٦٤٤ر٠٠٠	٩١٨ر٠٠٠
لواء اسكندرون	٤٦ر٠٠٠	١٤٠ر٠٠٠
الجمهورية اللبنانية	٢٩٧ر٤٧٠	٥٥٧ر٢٢٣
اللاذقية	٣٤ر٨٧٦	٢٨٥ر٩٧٣
جبل العرب	٦ر١٩٢	٥٧ر٦٩١
المجموع	١ر٠٢٨ر٥٣٨	١ر٩٥٨ر٨٨٧

استنادا الى الارقام التقديرية السابقة واعتمادا على معرفة الواقع الميداني يمكن ابداء الملاحظات التالية :

١ ــ ان الاكثرية الساحقة من سكان سورية كانت تعيش في الريف وتعتمد في معيشتها على الزراعة والرعي وبنسبة اقل على بعض الحرف .

٢ ــ حركة الانتقال من الارياف الى المدن كانت لا تزال بطيئة في اوائل الثلاثينات وهذه الهجرة البسيطة من الريف استهدفت المدن الثلاث : دمشق ــ حلب ــ بيروت، وكثيرا ما كانت الهجرة مؤقتة وموسمية للعمل غالبا في البناء لمدة عدة اشهر ثم العودة الى الريف . وعلى الرغم من شكوى البرجوازية السورية من هجرة الريفيين الى المدن في أواسط الثلاثينات فان هذه الهجرة لاتقاس بما جرى فيما بعد في الخمسينات والستينات .

٣ ــ المدن بمعناها الصحيح لم تكن تتجاوز اصابع اليدين وهي : حلب ــ دمشق حمص ــ حماه ــ دير الزور ــ انطاكية ــ بيروت ــ طرابلس ، وهناك اشباه مدن مثل: ادلب ــ زحلة ــ صيدا ــ جونية ــ اللاذقية ــ ... الخ . والباقي هو عبارة عن قرى كبيرة اتسمت في الثلاثينات بكل مظاهر وصفات القرى الكبيرة .

٤ – يلاحظ ان عدد سكان المدن وحجمها في لواء اسكندرون واللاذقية وجبل العرب ضعيف جدا ، الى درجة تدفعنا الى القول ان هذه المناطق اشتملت على مراكز تجارية صغيرة وضعيفة ، ولم تكن قد عرفت الصناعة بعد . وحتى الانتاج الحرفي كان فيها هزيلا .

٢ – تفاوت وطنية نمو الطبقات ونمو وعيها :

ان ظاهرة هشاشة المراكز التجارية وانعدام الصناعة وضعف الحرف تقودنا الى استنتاج حقيقة هامة ، وهي ضعف وانعدام البورجوازية بمختلف شرائحها في هذه المناطق .

وكان لهذا الامر اثره البارز على مستوى تطور الحركة الوطنية (القومية) عامة وعلى الحركات الاجتماعية : العمالية ، الفلاحية ، وكذلك التحرك البورجوازي ، الذي كانت له في ذلك الحين سمات ايجابية فيما يتعلق باقامة السوق الموحدة للبلاد بأسرها اوانفصال هذه السوق وانعزالها . ففي حين كانت «وطنية» الاقطاعيين تقوم على مبدأ استثمار الفلاحين وعزلهم عن التطور اي انها تقوم على مبدأ العزلة والتبعثر والانفصال . فان الاساس الاقتصادي لوطنية البورجوازية يكمن في النضال لتامين سوق وطنية حرة ولالغاء الحواجز الاقطاعية ، التي تحد من حرية تنقل البضاعة .

أما وطنية الفلاحين عامة فقد كان اساسها النضال في سبيل الغاء الاستثمار الاقطاعي والحصول على الارض والحرية الفردية . وفي البلدان المستعمرة يضاف الى هذا الاساس الاقتصادي الاجتماعي لوطنية الفلاحين اساس اخر هو النضال ضد من يكرس العلاقات الاقطاعية ويمعن في نهب الفلاحين واستثمارهم ، اي النضال المناهض للاحتلال الاجنبي الاستعماري .. والطبقة العاملة الفتية ، التي كانت ولا تزال في طور التشكل في عهد الانتداب الافرنسي فان اساس وطنيتها متعدد الجوانب فهي من جهة مع اقامة السوق الوطنية الحرة والغاء الحواجز الاقطاعية ، اي انها مع التطور الراسمالي الصناعي تدعمه في نضاله ضد هيمنة الراسمال الاجنبي وفي سبيل

الاستقلال الوطني . وهي اي الطبقة العاملة تهفو بأبصارها الى خلق وطن حر ديموقراطي من حيث هو شرط ضروري للنضال ضد اشكال الاستغلال والاستثمار المتنوعة والانتقال الى الاشتراكية . ومن هذا الاساس الاقتصادي الاجتماعي لوطنية الطبقة العاملة والفلاحين يمكن فهم انطلاقها من الفهم القطري للوطنية الى الفهم القومي المرتبط بالشروط التاريخية لتكون الامة العربية والدعوة الى اقامة المجتمع العربي الاشتراكي الموحد في عصر انتقال البشرية من الراسمالية الى الاشتراكية . مع ملاحظة ان الوحدات القومية ، التي تمت في اوروبا (الوحدة الالمانية الايطالية) في القرن التاسع عشر جرت في عصر انتقال البشرية من الاقطاعية الى الراسمالية وفي وقت كانت البورجوازية لا تزال تحمل سمات ايجابية في اقامة السوق الوطنية الموحدة .

اما الوحدة العربية المنشودة فتتسم في ظروف داخلية ودولية مغايرة ، ففي مناطق اسكندرون واللاذقية وجبل العرب تمكن الاستعمار من فصل هذه المناطق والاعتماد على كبار الملاك لترسيخ أقدامه واقامة حكومات « اقطاعية » (كراكوزية) ولم تكن هناك طبقة بورجوازية قوية تقاوم هذه السياسة وتناضل للسوق الموحدة والدولة الواحدة . ولهذا فان مهمة النضال ضد تجزئة البلاد وقعت على عاتق الفلاحين كما سنرى في فصل النضال الوطني الفلاحي المسلح . وادى التطور في هذه المناطق الى نمو البورجوازية الصغيرة ، التي حملت ايضا راية الوحدة الوطنية، وكان لها دور بارز في مقاومة التيار الاقطاعي الاستعماري الانفصالي .

وهكذا نرى انه من خلال التطور الاجتماعي العام من جهة وخلال النضال ضد الاحتلال الاستعماري الافرنسي من جهة اخرى نمت المشاعر الوطنية وترسخت لدى الجماهير . وقد عرفت جميع القوى الوطنية بمختلف فئاتها الاجتماعية أن توحد صفوفها في وجه المستعمرين فاستطاعت الغاء الانتداب وتحقيق الوحدة السورية في اواخر الثلاثينات واوائل الاربعينات .

٣ ـ معالم الوعي القومي من منظار طبقي :

في عهد الانتداب الافرنسي (١٩٢٥ ـ ١٩٤٣) طرات تغييرات ملحوظة على

البنية الاجتماعية لسكان المدن والريف نتيجة امتداد العلاقات الراسمالية وانتشار الانتاج السلعي . مما ادى الى تطور طبقة بورجوازية محلية في المدن الداخلية وبخاصة دمشق وحلب . ومن جهة اخرى ادى تدفق البضائع الاجنبية ومزاحمتها للانتاج الحرفي وتقسيم بلاد الشام الى دويلات واقامة الحدود الجمركية فيما بينها ومع العراق والاناضول الى تراجع الانتاج الحرفي والى خلخلة في بنيانه الاجتماعي . وقد ادت جملة عوامل كثيرة الى نمو الفئات المتوسطة (البورجوازية الصغيرة) واتساع نشاطها في مختلف ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وفي الوقت نفسه كانت عملية تكون الطبقة العاملة تسير باطراد في مؤسسات الراسمال الاجنبي والصناعة الوطنية الناشئة .

أما في الارياف فان الطبقة الاقطاعية ، التي تشكلت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين ترسخت أقدامها نتيجة السياسة الاستعمارية وتصاعدت وطأة استثمارها للفلاحين . وهنا ايضا كانت الفئات الوسطى من الفلاحين الاغنياء وميسوري الفلاحين المتوسطين تتطلع الى توسيع قاعدتها المادية وتتأرجح بين مغازلة سلطات الانتداب وتأييد الحركة الوطنية . وكان الفلاحون الفقراء يئنون من وطأة النيرين الاستعماري (الاجنبي) والاقطاعي (المحلي) ومن هؤلاء كانت تتكون فئة العمال الزراعيين ومنهم العمال المتجولون ، الذين قدر الافرنسي (اشار) عددهم سنة / ١٩٢٤ / ب / ٧٠٠ر٩٢ / عامل جوال .

ومع اشتداد وطأة الاستثمار الاقطاعي وازدياد استثمار المرابين واصحاب المصارف للفلاحين وامتصاصهم لدمائهم اخذ القسم الاكثر فقرا وادقاعا من الفلاحين في الهجرة الى المدن للبحث عن وسيلة للحياة ، ولئن كانت هذه الظاهرة محدودة قبل الحرب العالمية الثانية ، الا انها ازدادت حدتها بعد الحرب . مما ادى الى انتشار البطالة في المدن . وقاد الى امرين متناقضين : فمن جهة نظر العاطلون عن العمل في المدينة نظرة ريبة الى القادمين الجدد ، الذين عرضوا عملهم بأجور متدنية ، ومن جهة اخرى اسهمت هذه العملية في اتصال المدن مع الارياف ، وكسر طوق العزلة السابق مما ادى الى تماذج السكان ونمو الوعي الوطني وتراجع نقيضه النزعة المحلية والعشائرية أو الطائفية .

ان دراسة توزع السكان بين المدن والارياف وآثاره الوطنية والقومية والاجتماعية بحاجة الى معاهد خاصة تمتلك السلاح الفكري الاشتراكي العلمي والعزيمة العربية الثورية ، بعيدا عن « اكاديميات » مثقفي الطبقة المستغلة (بكسر الغين) وسفسطائيتهم وادعاءاتهم العلمية الرامية الى تغطية الاستثمار وجعل الاجيال تعيش في اجواء الضباب الفكري والسطحية والاستنتاجات الضحلة .

وليس هدفنا الان التعمق في قضية نمو الوعي الوطني والقومي ومواكبة تطوره ونضجه . وما يهمنا هو علاقة هذا الوعي بالمسألة الفلاحية ، التي تشكل قطاعا هاما من قطاعات المسألة القومية ، فقد تنوعت الطبقات والفئات الاجتماعية في الريف تبعا لتنوع أشكال الملكية الزراعية . فبسبب تعدد أشكال الملكية الزراعية وتوزعها بين ملكية خاصة كبيرة أو صغيرة وملكية مشاعية وملكية الدولة الاقطاعية تعدد الطبقات الاجتماعية . فهنالك أقلية ممن يملكون الاراضي الواسعة والثروات الطائلة والى جانبهم جماهير غفيرة لاتملك قوت يومها وهي مضطرة للعمل عند « المالكين » وبين من يملكون ملكيات كبيرة ومن لا يملكون شيئا ، وجدت فئات تراوحت ملكيتها للارض بين مساحة ضئيلة أو عدد من الهكتارات .

ولهذا وبسبب التفاوت في الملكية الخاصة تكونت الطبقات والفئات الاجتماعية في الريف وتناقضت مصالحها وتفاوت مستوى وعيها الوطني ودرجة تحضرها .

وانطلاقا من البحث عن كيفية تملك الثروة والارض التي تجلب الثروة والجاه والوجاهة ، سنسعى لالقاء الاضواء على البنية الاجتماعية في الريف استنادا الى أشكال الملكية الزراعية وواقع العلاقات الاقتصادية الاجتماعية وتأثيراتها التراثية ، وما بين أيدينا من احصاءات ووثائق ومعارف نظرية وخبرة ميدانية سيساعدنا في القاء الاضواء على اللوحة الاجتماعية لسكان الريف من خلال الصفحات التالية :

٢ ـ الفلاحون الفقراء

وهؤلاء ينقسمون الى الفئات الاجتماعية الريفية التالية :

١ ـ الفلاحون الخاضعون للنير الاقطاعي (الفلاح المحاصص) :

وهم يعملون مجبرين ك (شركاء) مرابعين او خماسة في اراضي الاقطاعيين الذين يستعبدونهم والقسم الاكبر من غلالهم يستولي عليها الاقطاعيون، الذين يسكنون القصور الشامخة ، ويبذرون الاموال الطائلة المغتصبة من ثمرة عرق جباه الفلاحين في ملذاتهم وشهواتهم ، ويبددونها على موائد القمار واندية المراهنات ، وفي محلات الخلاعة والفحشاء والفجور .

وجميع الاصلاحات والترميمات التي يقوم بها الفلاحون الشركاء في اراضي الاقطاعيين ومزارعهم لا يدفع لهم اجر عنها .

ويأتي هؤلاء في اسفل السلم الاجتماعي ، وهم من افقر فئات السكان قاطبة ، وخضعوا لاستثمار واضطهاد الاقطاعي وتاجر المدينة والمرابي والراسمال الاجنبي واجهزة القمع سواء الخاضعة للسلطات المحلية او لسلطات الانتداب الاستعمارية . وهم لم يملكوا من الدنيا شروى نقير ، الى حد ان زواجهم خضع في كثر من الحالات لموافقة السيد الاقطاعي وكان الفقر والجهل والمرض .

كما ان السخرة ، تلك العادة الاقطاعية الذميمة التي عرفتها اقطاعية القرون الوسطى كانت لا تزال منتشرة في كثير من مناطق سورية . وقد ذكرت جريدة « الف باء » في ٢٠ / ١٢ / ١٩٣٠ لمراسلها في درعا « أن الاقطاعيين في قرية الزوية يسخرون الفلاحين في جلب الحطب والقيام بالاعمال البدنية الاخرى خدمة للمالكين الاسياد(٥)، وثمة عشرات بل مئات الامثلة عن بقاء السخرة في عهد الانتداب واضطرار الفلاحين لتقديم جزء اخر من قوة عملهم لقمة سائغة للاقطاعي او من دار في فلكه .

وقد ادت العلاقات الاقطاعية وطرائق الاستثمار المختلفة الى شطر المجتمع في الريف **الى شطرين شطر المالكين وشطر الفلاحين المرابعين . ولم تسمح الاحوال المادية والاجتماعية للفلاحين المرابعين المحاصصين بالاتصال والاحتكاك بمجتمع غير مجتمعهم . فالاقطاعي يسعى جاهدا لابقائهم معزولين عن العالم حتى يبقوا أسرى التسلط**

الاقطاعي . وهذه العزلة الاجتماعية ادت الى تكون شخصية خاصة لهؤلاء الفلاحين المرابعين ، هذه الشخصية وليدة البيئة المادية التي احاطت بهم منذ اجيال . فالفلاح المرابع الذي لا يملك من حطام الدنيا شيئا والذي يرى في كل ساعة عياله مهددين بالجوع والتشرد هذا الفلاح الذي لا يعرف الطمانينة والسعادة ، تتكون لديه نفسية خاصة هي حصيلة اوضاعه المعاشية . ويرى الفلاح المرابع الفرق الشاسع بينه وبين الاقطاعي صاحب « الملك » الذي يعامله معاملة « السيد » لعبده .

... ان كنز القناعة الذي لا يفنى ، هو الكنز الوحيد الذي ناله الفلاح المرابع من خيرات هذه الدنيا ، ان القناعة ملكيته الوحيدة . ولهذا ترى الفلاح المرابع يقنع بالقليل القليل جدا من خيرات الارض ، وبعدما تتيسر له مؤونته من البرغل او الذرة وبعض الضروريات الاخرى ، يكتفي بما رزقه الله ، فينام او يسهى مطمئنا قانعا . فالايام التي كان يقضيها الفلاح المرابع عاطلا عن العمل تفوق عدد ايام العمل . اما ساعات الفراغ الكثيرة فانه كان يقضيها ساهيا بالمضافة وكثيرا ما كان يفترش التراب في الشمس مستسلما لقدره(٦) .

لقد كانت الاراضي السهلية الساحلية ملكا للقاطنين من زعماء المدن من كبار الملاك(٧) ، ولكن فلاحي هذه الاراضي هم من الجبال،و « الفلاح هناك لا يعمل لانه مستاجر (اي محاصص) ويتوقع طرده بين آونة واخرى(٨) » ، فهل يعقل أن ينشط الفلاح ويعمل لكي يعيش غيره بنعيم وهو مهدد بالجوع .

وفي قرى عكار في شمال لبنان حيث نجد البون الشاسع بين فلاحي القرى الخاضعة للاقطاعية وفلاحي القرى المالكة لاراضيهم .

فالقرى الاقطاعية اشبه ماتكون بالبوادي . في حين تدب الحياة بنشاط في القرى الاخرى .

ومعنى هذا ان الغاء العلاقات الاقطاعية وتوزيع الاراضي على الفلاحين وتحويلهم الى مالكين للارض سوف يخلق منهم اناسا جددا ذوي اخلاق جديدة ونفسيات جديدة.

٢ ـ فلاحو أراضي املاك الدولة :

رغم ارتفاع مستوى معيشتهم بالنسبة الى الفلاحين العاملين عند الاقطاعيين الا انهم عاشوا في قلق دائم خوفا من تجريدهم من اراضيهم « الاميريـة » ... وكثيرا مادخلوا في صراع مع دولة الانتداب او مع ملاك الاراضي الكبار من اجل المحافظة على اراضيهم المعرضة دائما للسرقة والنهب من قبل الاقطاعيين او الطامحين في الاستيلاء على هذه الاراضي بمعونة الدولة المنتدبة حليفة الاقطاعيين .

و فلاحو املاك الدولة عملوا في انماط ثلاثة تابعة لاملاك الدولة :

١ ـ أملاك الدولة ، التي كانت لاتزال اراضي اميرية ونال حق التصرف بها كبار الملاك الذين جلبوا الفلاحين او اجبروا الفلاحين المتواجدين على الارض على العمل . وكان الريع العقاري الحاصل من جهود الفلاحين يوزع بين الدولة (ضريبة العشر) والاقطاعي ، الذي يأخذ حصته .

٢ ـ املاك الدولة ، التي نال الفلاحون حق التصرف بها مباشرة دون وساطة كبار الملاك او المتنفذين او شيوخ العشائر . وكان هؤلاء احسن حالا من الفلاحـين السابقين وهم لايدفعون الا العشر مع رسوم تسجيل حق التصرف .

٣ ـ فلاحو الاراضي المدورة ، التي اجرتهـا الدولـة الى الفلاحـين (واحيانا استأجرها كبار الملاك وشغلوا عليها الفلاحين) .وهنا تبدوالدولة كأحد كبارالاقطاعيين ولاننسى ان دولة الانتداب (ورثت) هذه الارض من الدولة العثمانية بصفتها املاكا خاصة للسلطان الاقطاعي عبد الحميد ، الذي اضطر عـام / ١٩٠٩ / للتنازل عـن ملكيتها للدولة .

ولفهم كيفية ادارة املاك الدولة نورد ماكتبـه المهندس الزراعي احمد وصفي زكريا اثناء زيارته عام / ١٩٣٣ / لقضاء منبج ، الذي كان معظم اراضيه من « املاك الدولة » التي كانت تدار من شعبتين الاولى في منبج والثانية في مسكنة . وكان مركز الشعبتين في قرية ابو قلقل على بعد / ١٧ / كم الى الجنوب من منبج . وفي قرية ابو قلقل ينبوع كبير انشىء في جواره في اواخر القرن التاسـع عشر بستان عظيم فيـه

اشجار باسقة متنوعة وبقول وافرة ، وفي طرفه دور خاصة باسر موظفي املاك الدولة. وفي اواخر العشرينات الفت الحكومة شعب هذه الاملاك ونقلتها الى مراكز الاقضية وبدلت شكلها السابق (٩).

من جهة ثانية لم تهتم حكومة الانتداب بنشر التعليم بين ابنـاء فلاحي اراضي املاك الدولة . ويورد مصطفى الشهابي في عام / ١٩٣٣ / رقما مخيفا يدل على جسامة الكارثة . فقد كتب وهو مدير املاك الدولة ان لادارة املاك الدولة في حمص وحماه وحلب نحو /٩٠٠/ قرية ومزرعة ليس فيها للحكومة سوى خمس مدارس مع ان حصة المعارف وحدها التي يدفعها سكان تلك القرى والمزارع مـن محاصيلهم تكفي لفتح خمسـين مدرسة (١٠).

٣ ـ العمال الزراعيون (المتجولون) :

وهم لايملكون اية وسيلة للانتاج ولكنهم احرار في تجوالهم وترحالهم ويساهمون في وصل خيوط المعرفة بين سكان الريف والمدن في فترة لم تكن لوسائل الاعلام اهمية كبيرة بعد ، ولم تكن طرق المواصلات قد انتشرت ايضا . خضـع العمال الزراعيون لاستثمار الاقطاعيين والفلاحين الاغنياء واصحاب الاستثمارات الراسمالية التي كانت تشق طريقها الى عالم الحياة الزراعية . كما ان قسما منهم كان يهاجر الى المدينـة وينضم الى طبقة كادحي المدن المعذبة وكونوا بذلك احدى طلائع الحركة الوطنية التي قدمت الضحايا ولكنها لم تحصل على المغانم المرجوة .

اطلق على العمال الزراعيين لقب العمال المتجولين ، وهذا يدل على طبيعة العمل الذي مارسوه . فقد عمل قسم منهم في اراضي الاقطاعيين بعض الوقت واشتغل قسم اخر في املاك الفلاحين الاغنياء وكونوا بذلك النواة الاساسية للعمال الزراعيين الذين سيعملون في الاستثمارات الزراعية الراسمالية التي اخذت في الانتشار في سورية بعد الحرب العالمية الثانية . اما قبل الحرب العالمية الثانية فقد اقتصر الاستثمار الزراعي الراسمالي على بعض المناطق ، ودل على ذلك ضآلة عدد الالات الزراعيـة المستوردة بين سنتي / ١٩٢٤ ـ ١٩٣٣ / (١١) .

ولاتوجد احصاءات دقيقة عن عدد العمال الزراعيين (المتجولين) في فترة الانتداب . ولكن المسيو « آشار » قدر عددهم في سنة /١٩٢٤/ ب /٩٢٫٧٠٠/ عامل زراعي (١٢) . وقد زاد هذا العدد اعتبارا من اوائل الثلاثينات وبلغ رقما قياسيا نظرا لتوفر حرف المواصلات وبدء دخول الالة الى الزراعة .

ودل على ذلك التقرير الذي نشرته وزارة الزراعة السورية عام / ١٩٤٦ / عن الاحصاءات الزراعية السورية اذ قدر عدد العمال الزراعيين قبل الحرب الثانية كمايلي (١٣) :

عدد العمال الزراعيين في سورية			
السنة	ذكور	اناث	المجموع
١٩٢٧	٣٠٨٫٠٠٠	٤٧٠٫٥١٠	٧٧٨٫٥١٠
١٩٢٨	٣٠٨٫٠٠٠	٧٧٨٫٥١٠	٤٧٠٫٥١٠
١٩٢٩	٥٠٥٫٦٠٠	٢٩٧٫١٠٠	٨٠٢٫٧٠٠

ويبدو ان وزارة الزراعة السورية اطلقت اسم العمال الزراعيين المعروفين وعلى الفلاحين الفقراء الذين ينتقلون في بعض فصول السنة الى اماكن العمل والحصاد وجني المحصول حتى بلغت هذه الارقام العالية .

اختلفت اجور العمال الزراعيين من منطقة الى اخرى وبالنسبة للجنس والعمر كما يبين ذلك الجدول التالي لاجور العمال في عام / ١٩٢٩ / بالقروش السورية (١٤) .

	لبنان	دمشق	حلب	اللاذقية	اسكندرون
الرجال	٦٠	٣٥	٢٠	٥٥	
النساء	٣٠	٢٥	١٥	٣٥	
الاولاد	٢٠	١٥	١٠	٣٠	

ويلاحظ انخفاض الاجور في مناطق دمشق وحلب بسبب كثرة الايدي العاملة فيهما وتطور الوعي النقابي في المناطق الاخرى ، كما يلاحظ الفرق الشاسع بين اجور الرجال والنساء التي تبلغ الضعف تقريبا .

وتذكر مجلة غرفة تجارة حلب متوسط اجـور العمال في ضواحي حلب عـام / ١٩٣٤ / كمايلي :

٧ فرنكات للرجال و / ٦ / للنساء اجرة حصادهم اليومي . و / ٥ / فرنكات للرجال اجرة الفلاحة دون الكدنة . و / ٤ ــ ٥ / فرنكات للعامـل الزراعي العادي و / ٥ ــ ١٠ / للرجال . و / ٤ ــ ٧ / للنساء العمال في بساتين حلب المجاورة (١٥) .

هذه الاجور المتدنية للعمال الزراعيين تبرهن على مدى الاستثمار البشع ، الذي طوق اعناق هذه الفئة المنتجة . وليست لدينا معلومات حول درجة ثورية هذه الفئات الكادحة المرتبطة مصالحها ارتباطا جذريا مع التحولات الاجتماعية المنتظرة .

٤ ــ الفلاحون الفقراء (اصحاب الملكيات الصغيرة) :

ان الاحصاءات عن عدد الفلاحين الفقراء ونسبتهم الى السكان قليلة جدا . وجل مانعرفه ان هذه الفئة ملكت / ٥٪ / من الاراضي التي لم تكن تكفي لاعالتها . مما اضطر فلاحي هذه الفئة للعمل ، أما في اراضي الفلاحين الاغنياء ، او للذهاب الى المدينةوبيع قوة عملهم لمدة عدة اشهر هناك . حيث مارسوا اعمال البنـاء والنقل وغيرهـا من الاعمال .

وهذه الفئة قريبة جدا من حيث مستواها الاجتماعي وفقرهـا مـن الفلاحين الخاضعين للنير الاقطاعي المباشر . وبسبب عملهم في المدن فان علاقتهم بكادحي المدن كانت وثيقة . وقد عاشوا ايضا جانبا من حياة الحركات الوطنية المقاومة للاستعمار التي تمركزت في المدن خلال فترة الثلاثينات .

وكانت هذه الفئة الفلاحية سريعة الانضمام للحركة الوطنية المعادية للاستعمار ، ومستعدة لتقبل الافكار التقدمية ، بسبب تحررها من الاقطاعية وبلوغها مستوىثقافي لاباس به . فهم قوة ثورية هامة كانت في طليعة من انضوى تحت لواء الاحزابالتقدمية فيما بعد .

٥ ــ الفلاحون البدو :

اي البدو ، الذين تحضروا وتركوا الخيام واحترفوا الزراعة مع تربية المواشي ،

ولم تكن حياتهم مستقرة ، فكثيرا ماكانوا يعودون الى حياة البداوة . وهؤلاء «الفلاحين» البدو عملوا لدى كبار الملاك وفي اراضي املاك الدولة وتمكن بعضهم من حيازة بعض الاراضي واخذ بعضهم يعمل في العمل المأجور في الزراعة مع انتشار الاسلوب الراسمالي في هذا القطاع . ومع الزمن كانت حياة الاستقرار تزداد تاصلا في نفوسهم وبخاصة بعد الاستقلال والسير في سياسة توطين البدو .

ويذكر المهندس احمد وصفي زكريا ، الذي قام في عام / ١٩٣٣ / بجولة في قرى جبل الاحص ان فلاحي هذا الجبل هم من البدو ، الذين تركوا حياة البداوة وسكنوا في القباب المخروطية الشكل « مابرحوا في ازياء البداوة وجلفتها وجهلها واعراضها عن النظافة في المسكن والملبس وعدم اجادة الحرث وتعهد الزرع (١٦) .

ويتعرف ذكريا ان سبب تخلف الفلاحين البدو هو انه لم يتح لهم من ينورهم ويرشدهم « على احوال فن الزراعة في عهد الانتداب .

في كثير من مناطق البلاد وقع الفلاحون الفقراء فريسة الديون . ولم يكن بامكان الفلاحين الفقراء الاستدانة من المصرف الزراعي بسبب شروطه غير المتوفرة لديهم من جهة ولان قروض المصرف كانت تذهب لاصحاب النفوذ والاكثر يسرا اي الى الفلاحين المتوسطين وبخاصة الى الاغنياء .

وعندما لم يكن بالامكان الاستقراض من المصرف لجأ الفلاحون الفقراء الى المرابين . وفي حوران حيث معظم الارض على الشيوع ـ اضطر الفلاح الحوراني للاستدانة من اصحاب رؤوس الاموال وخاصة في متمولي حي الميدان المعروفين بالبوايكية في معظم الاحيان . وكان البوايكية يقدمون الاموال للفلاح على ان يستردوا منه الديون بطريقة اشبه ماتكون بالاستنزاف السريع وليس البطيء ، اي ان المرابي في المواسم يأخذ كامل انتاج الفلاح ويضعه في مخزنه ويبيعه اويتصرف به بمعرفته ووفق مصالحه ويأخذ بعد البيع راسماله مع الفوائد الضخمة ولايعطي الفلاح الا النزر اليسير . وسرعان ماتتراكم الديون على الفلاح ويصبح تابعا لهؤلاء المرابين (١٧).

وفي ضياع العلا الشرقية الصغيرة ، التي سكنها البدو في اواخر العهد العثماني، واحترف قسم منهم الفلاحة وترك الخيام وسكن الدور والقباب ، وبقي قسم آخر

متبديا يرتزق بتربية الغنم ورعيها مشاركة مع اثرياء حلب وحماه . في تلك الضياع لم يتمكن الفلاحون من الصمود امام استثمار المرابين ووطاة الديون فاضطروا الى بيع اراضيهم الى « سراة حلب والمعرة وحماه » في اوائل الثلاثينات وعادوا الى حياة البداوة (١٨) .

يذكر احمد وصفي زكريا في رحلته عام / ١٩٣٣ / اسماء الاماكن والقرى التي سكنها الفلاحون البدو في منبج والغاب والباب والروج وعلى الحدود الفاصلة بين البادية والمعمورة . وهو يستخدم دائما التعبير التالي « وجل فلاحي هذا القضاء (او الضياع) اعراب لايزالون على الصعلكة وكثير من عادات البداوة » ثم يعدد القبائل التي ينتسبون اليها (١٩) .

٢ ـ الفلاحون المتوسطون

وقد ملكوا مع الفلاحين الاغنياء / ٣٣٪ / من الاراضي . وهذه الفئة من الفلاحين ملكت ارضا تكفيها للعيش وسد الحاجات المتواضعة في الريف . ولم تكن مضطرة معاشيا للعمل في اراضي الغير او في المدينة . وتمتع الفلاحون المتوسطون بنفوذ لابأس به في الريف ، ونافسوا في كثير من الاحيان الفلاحين الاغنياء . وقد وقفت الاقسام الرئيسية من هذه الفئة الى جانب النضال الوطني ودعمته بقوة ونشاط .

ولم يكن من النادر وقوع اصطدامات بين الفلاحين الفقراء والمتوسطين من جهة والفلاحين الاغنياء من جهة اخرى وذلك في المناطق ، التي تتصف بالملكيات الصغيرة . هذه الاصدامات كان محورها الاساسي النزاع حول ملكية الارض او المياه . فالفلاحون الاغنياء كانوا يسعون لتوسيع املاكهم والاستيلاء على مصادر المياه على حساب الفلاحين الاخرين فينشب الصراع . ومثال على ذلك ماجرى في قرية ديرعطية ، التي تبعد تسعين كيلو مترا شمال دمشق . فقد قام المتنفذون في القرية بالاستيلاء على اراضي البريكة والحميراء وهي ملك مشاع للجميع . ونجحوا في مسعاهم لفقدان التضامن في البدء لدى الفلاحين ، الذين حزموا امرهم فيما بعد وعزموا على الدفاع عن حقوقهم فنشبت في الاربعينات معارك بين الطرفين ادت الى وقع قتلى واحراق بيوت للفلاحين

الاغنياء . والمعروف انهؤلاء الفلاحين الفقراء والمتوسطيناسسوا اول جمعية تعاونية زراعية في سورية عام / ١٩٤٣ / .

والفلاحون المتوسطون نشيطون مهرة يتطلعون دائما الى تحسين اوضاعهم وتوسيع ممتلكاتهم بعرق جبينهم . والوصف الذي يقدمه محمد سليم الجندي لاهالي كفر نبل الواقعة غربي معرة النعمان والبالغ عدد سكانها / ٢٢٢٥ / منهم / ١٠٤٠ / ذكور و/ ١١٨٥ / اناث . كتب الجندي عن فلاحي كفر نبل (٣١/١) :

واهلها اكثرالناس نشاطاودابا على العمل، حرصا على اقتناء الثروة من طريق العمل. وهم يسايرون الزمن في اختيار ماهو اروج من انواع الزرع ، فعندهم انواع من التين الجيد ، وكان عندهم نوع من البطيخ الاصفر جيدا جدا ، ثم راوا ان نوعا منه يسمى القاوون اكثر رواجا في الاسواق ، فاخذوا يزرعونه ويتصرفون في معالجته وزراعته ، حتى خرج عندهم نوع من اجود انواعه واعذبها واطيبها ريحا .

واهل هذه القرية يحرصون على ان تكون جميع حاجاتهم من صنعهم ، ولذلك نجد لديهم مطاحن ومعاصر ، ومناسج ، وما شاكل ذلك ، واكثرهم اغنياء ، لبقون في صناعتهم ، بارعون في تجارتهم ، وقد اخذوا في العهد الاخير يشترون من اراضي القرى المجاورة لهم ، ويضمونها الى قريتهم .

والواقع ان هذه الفقرات لاتفي الفلاحين المتوسطين حقهم وهذا ماسنقوم به في المجلد اللاحق .

٣ ـ الفلاحون الاغنياء

وقد ملكوا ـ كما راينا ـ مع الفلاحين المتوسطين /٣٣٪/ من الاراضي ، والفلاح الغني أو بالاصح مالك الارض الصغير ، لا يعمل عادة بيده بل يقوم بتشغيل الفلاحين الفقراء أو العمال الزراعيين في أرضه وتحت اشرافه المباشر . وهو لا يختلف عن الاقطاعي في شيء الا في نمط معيشته البسيطة في الريف وفي عدم قدرته على البذخ ويتفق الاقطاعي والفلاح (الغني) على استثمار الفلاح المعدم ، ويفترق

عنه في قلة عدد المستثمرين الذين يستخدمهم وفي ليونة درجة الاستثمار والفلاح الفني مثل الاقطاعي انسان غير منتج .

وكثيرا ما دخل الفلاحون الاغنياء في نزاع مع الفلاحين المتوسطين او الفقراء من اجل استملاك الارض . ونافسوا الاقطاعيين احيانا وسرقوا اراضي املاك الدولة مثل الاقطاعيين . والفلاحون الاغنياء معادون على الغالب للاصلاح الزراعي ، وهم اجتماعيا قوة بعيدة عن التقدم . وقد سعت سلطات الانتداب الفرنسي لكسب ود الفلاحين الاغنياء لتستطيع عن طريقهم تمتين سيطرتها في الريف ، وقد ايد القسم الاكبر من الفلاحين الاغنياء الحكم الاستعماري الفرنسي وحصلوا على امتيازات كثيرة (٢٣) . وساعدوا الدولة في جباية الضرائب (٢٠) ووقفوا في فترات تراجع الحركة الوطنية على المكشوف الى جانب الانتداب ، في حين اتخذوا موقفا متذبذبا وغامضا عندما كانت الحركة الوطنية تبلغ اوج قوتها .

ومن الامثلة على ذلك ماجرى مثلا في أوائل عام /١٩٣٩/ عندما بدأ حكم الكتلة الوطنية (١٩٣٦–١٩٣٩) المتصدع بالانهيار تحت ضربات السلطات الفرنسية اليمينية وقوى المعارضة الداخلية المناوئة للكتلة والمؤلفة من اتجاهات متناقضة بعضها مرتبط بالاستعمار الانكليزي واخر بالافرنسي وثالث متعاطف مع الهتلرية واخيرا فريق رابع ذو اتجاهات وطنية ولكنه غير راض عن سياسة اللين والرضوخ للاحتلال وكانت سلطات الاحتلال الافرنسي التي انتعشت بعد تغلب اليمين على اليسار في فرنسا ، غير راضية عن المعاهدة السورية الفرنسية الموقعة في صيف /١٩٣٦/ من قادة الكتلة الوطنية وحكومة الجبهة الشعبية ، لان هذه المعاهدة سلبتها بعض صلاحياتها وجزءا من سلطاتها . وفي هذا الجو ، الذي تراجعت فيه قيادة الكتلة الوطنية (البورجوازية نصف الاقطاعية) برزت الى المقدمة قوى البورجوازية الصغيرة المدينية والجماهير الشعبية عامة في مختلف المدن السورية ولاسيما في حماة ودير الزور ومن ثم في حمص ودمشق والى درجة خفيفة في حلب . وكان لمدينة درعا الصغيرة دور في هذا المجال في الوقت الذي اسفرت فيه الفئات العليا في المنطقة عن وجهها واعلنت عن ولائها العلني للانتداب الافرنسي . والبيان المنشور في الحاشية (٢١) هو

في خطوطه العامة تعبير عن تمرد الفئات الدنيا بالتحالف مع العناصر التجارية ضد سلطة اغنياء الفلاحين من المشايخ . ولا ريب أن دراسة هذا البيان بحاجة ايضا الى الكشف عن تشابك العلاقات العشائرية في حوران والتناقض بين زعماء العشائر على « الزعامة » والحديث عن هذه الامور ليس من اهداف هذا البحث .

وتبدو مشاركة متنفذي الريف للسلطات الاستعمارية في نهب الفلاحين واستثمارهم واضحة في العريضة التي قدمها اهالي داريا في /١٢/ تشرين الاول /١٩٤١/ الى « فخامة رئيس الجمهورية السورية المعظم » جاء في الرسالة ما يلي : (٢٢) .

لفخامة رئيس الجمهورية السورية المعظم :

نعرض بأن السلطة الافرنسية فرضت على الاهلين بنتيجة الاحتلال عددا من البنادق اضطر الاهلون لتداركها بأن يجمعوا اثمانها ويقسموها فيما بينهم . وقد تولى ذلك فئة من الاهلين والمخاتير والامام واعضاء القرية وقد تبين لنا انهم جمعوا اموالا زائدة عما فرض رغم هذه الازمة الخانقة في قريتنا ـ داريا ـ فضلا عن بيع مقادير من الماء لحساب القرية للغاية نفسها لم يعرف مصير هذه المبالغ الطائلة التي جمعت . ومع هذا فان المختارين (....) والامام (....) لايزالون يجمعون الاموال مجددا بواسطة الجنود المتطوعة التابعة لمديرية مصلحة الاستخبارات العسكرية .

لذلك نلتمس التحقيق عن المبالغ المجموعة ومقاديرها وما صرف منها ومعاقبة المخالفين ...

وفي الجبال الوعرة المسالك كجبال اللاذقية مثلا برز الفلاحون الاغنياء وصغار الملاك كزعماء العشائر والقرى . ولهذا جذور تاريخية ترجع الى العهد العثماني وما قبله . حيث كان اذى عمال الحكومة وملتزمي ضريبة العشر يصب على الضعفاء عموما وعلى العشيرة الضعيفة . ولهذا اضطر الفلاحون للتكتل او حافظوا على تكتلهم السابق ورعوه لرد اذى الحكام وملتزمي الاعشار وغارات الغرباء (٢٣) .

ولهذا برز من بين هذه التكتلات « العشائر » رؤساء هم بمنزلة الفلاحين الاغنياء او صغار الملاك .

ومن اجل تدعيم مراكزهم وتقوية نفوذهم سن هؤلاء الرؤساء عادة جمع المال (فريقة) من رجال العشيرة ، كجعل سنوي يتناسب مع قوة العشيرة وحاجة الرئيس الى محاصيل الفلاحين والمال للانفاق على الضيوف . وبعض الرؤساء اعتاد جمع المال كضريبة وخاصة بعد الانتخابات . ولكن فلاحي بعض العشائر كالكلبية رفضوا ذلك

وحول هذا الموضوع كتب احمد وصفي زكريا عام /١٩٣٤/ ان السواد الاعظم من الفلاحين « مابرح في غاية الجهل والبؤس والانقياد الاعمى لكبرائهم ذوي الزعامة الزمنية ومشائخهم ذوي الزعامة الروحية وهؤلاء يستثمرون اتباعهم فيرهقونهم بمختلف الخدمات والاتاوات(٢٤) » .

ويقول منير الشريف الذي نشر في عام /١٩٤٦/ كتابا عن فلاحي جبال اللاذقية « ان عادة دفع المال قد ضعفت ... وستضعف عندما يرون (اي الفلاحين ، الحكومة تقضي مصالحهم بعدل (٢٥) » .

كتب منير الشريف كتابه في مستهل عهد الاستقلال وهو متعاطف مع سكان منطقة اللاذقية ويسعى لتوطيد دعائم الوحدة الوطنية . التي وقف ضدها رجال الانتداب من كبار الملاك والمتنفذين ورؤساء العشائر وجميع الراغبين في السيطرة على الفلاحين ومنعهم من التطور في ظل دولة مركزية . بورجوازية وطنية ... وهذا ماكانت تسعى اليه بهمة ونشاط القوى الحية في المجتمع ، الذي تنفس نسيم الاستقلال عام ١٩٤٣ وحقق جلاء القوات الاجنبية عام ١٩٤٦ وكان يسير في طريق بناء السوق الاقتصادية الوطنية الموحدة ، في وقت كانت المشاعر الوطنية والقومية تتعاظم وتتغلغل في وجدان اكثرية الشعب .

ومنذ اواخر الثلاثينات اخذ الوعي الوطني والطموح المتصاعد لتدعيم الدولة المركزية يتعمق في صفوف البورجوازية الصغيرة الريفية (الفلاحون المتوسطون والشرائح الدنيا من الفلاحين الاغنياء) وبدا ذلك واضحا في عدد من المناطق عندما حاولت سلطات الانتداب الافرنسي اثارة القلاقل في وجه حكم الكتلة الوطنية (١٩٣٦

- ١٩٣٩) وتشجيع النزعات الانفصالية ضد الحكم الوطني المركزي في دمشق .

وهذه القوى الحية بالاضافة الى جماهير الفلاحين الفقراء بمختلف مراتبهم هبت للنضال ضد سياسة التجزئة ، التي تخدم المصالح الاقطاعية والاستعمارية وتحديدا مصالح ازلام الانتداب من كبار الملاك وصغارهم وعدد كبير من اغنياء الفلاحين ، الذين كانوا على صلات قوية من المستشارين الفرنسيين في الارياف الذين اوجدوا لهم المناصب والوظائف . ومعنى ذلك ان الشرائح العليا من الفلاحين (اغنياء الفلاحين) لم تكن موحدة الراي ازاء الموقف من الحكم الاستعماري الانتدابي كما ان الصراعات فيما بينها ذات الجذور العشائرية والاقليمية والتنافس على « الوجاهة » والسلطان عمق التناقض في صفوف « وجهاء الريف » حيث توزعت ولاءاتهم بين سلطات الانتداب والحركة الوطنية مع رجحان كفة الموالين للانتداب،مادام لهذا الانتداب سلطة دنفوذ، اي ان الموالين للانتداب سرعان ما شرعوا في تغيير مواقعهم مع تزعزع الحكم الانتدابي وانهياره في سنوات الحرب العالمية الثانيــة . فالولاء هنا ولاء مصلحة للحفاظ على « الوجاهة » وماتجلبه من نفوذ وثروة واملاك واراض .

وهذا الانقسام في صفوف الفلاحين الاغنياء (الوجهاء) والولاء لسلطات الانتداب اختلفت درجته من منطقة الى اخرى تبعا لاوضاع كل المنطقة وعلاقتها التاريخية مع المدن وموقفها من الحكم المركزي ونسبة وزن القوى الاجتماعية اي نسبة نفوذ كبار الملاك والفلاحين الاغنياء والمتوسطين . كما ارتبط ذلك بدرجة وعي الفلاحين الفقراء وهل هم فلاحون يعملون في اراضي الاقطاعيين ام انهم يملكون قطعا صغيرة من الارض ويحوزون على هامش اوسع من الحرية بالقياس الى الفلاحين الخاضعين لكبار الملاك. ففي حوران مثلا المرتبطة تاريخيا بدمشق فان جهود المستشارين الفرنسيين ضباط الاستخبارات لم تثمر في كسب عدد كبير من وجهاء الريف واثارته ضد الحكم الوطني . بل ان القوى الوطنية ، للاسباب المذكورة انفا ، كانت هي الاقوى .

جاء في تقرير رئيس شرطة درعا الى وزارة الداخلية المؤرخ في /٩/ اذار /١٩٣٩/ ان المخازن في درعا اغلقت وسكان المدينة مع طلابها اضربوا احتجاجا على سياسة سلطات الانتداب ضد الحكم الوطني في دمشق .

وكتب رئيس الشرطة انه شاهد في يومي /٨و٩/ اذار /١٩٣٩/ « بعض مشايخ ووجهاء حوران يؤمون درعا . وقد علمنا بأن سبب حضورهم لتوحيد صفوفهم مع اهالي درعا وللقيام بحركة واسعة النطاق ضد .. لانهم يعتقدون فيهم عدم الاخلاص وانهم من طلاب الانفصال » (٢٦) .

ونؤكد مرة اخرى ان سلطات الانتداب الفرنسي كانت تشجع القوى الاقطاعية الانفصالية وتسعى احيانا لخلق هذه القوى لتكون لها سندا في مقاومة الحركة الوطنية والحكم الوطني والسيطرة على المناطق وعلى الفلاحين عن طريق هؤلاء وما يتمتعون به من نفوذ « ديني » أو عشائري او « عائلي » ومعنى ذلك ان الانتداب سعى لاخضاع الفلاحين واستعبادهم بوسائل عسكرية من جهة ووسائل « التحالف » مع قوى رجعية ظلامية في الارياف من جهة اخرى .

وكثيرا ما كانت سلطات الانتداب الافرنسي تساعد على رفع بعض المشعوذين والدجالين الى مصاف الزعماء الدينيين الشعبيين مستغلة الجهل والتخلف والارضية الاجتماعية الملائمة لنمو حركات تتشابك فيها تناقضات المجتمع وصراعاته .

٤ ـ كبار الملاك (الاقطاعيون)

في عهد الانتداب الافرنسي تبلورت « طبقة اقطاعية » او « شبه اقطاعية » تألفت حسب تكونها التاريخي والاجتماعي من الفئات التالية :

١ ـ كبار ملاك العهد العثماني ، الذين راينا في المجلد السابق انهم انحدروا من زعماء العساكر وكبار الموظفين وكبار رجال الدين القيمين على الاوقاف والتجار . وتمكن بعض هؤلاء من توسيع « ممتلكاتهم » في العهد الافرنسي بمساعدة المستعمر .

٢ ـ ازلام الانتداب والمتنفذون الجدد ، الذين سجلوا الاراضي باسمائهم وامسوا من طبقة كبار الملاك .

٣ ـ مشايخ العشائر ، الذين اخذوا يسكنون المدن بعد ان تحالفوا مع سلطات الانتداب وسجلوا الاراضي الاميرية باسمائهم مشكلين فئة اقطاعية كانت من اكثر الفئات المستغلة عداء للحركة الوطنية والتقدم الاجتماعي .

ان كبار الملاك ، بمختلف فئاتهم ، هم اشد الفئات الاجتماعية طفيلية ورجعية فهم احد اسباب التخلف ، ومنهم استمدت سلطات الانتداب الافرنسي قوتها في الريف ، كما منحتهم في الوقت ذاته نفوذا عظيما وقد تصرفوا بـ /٢٩٪/ من الاراضي اضافة الى ما نهبوه بمساعدة الدولة من الاراضي الاميرية .

كون الاقطاعيون فئتين مختلفتين هما : الاقطاعيون الكبار وتحدروا من اصل عربي أو تركي ، أو كردي ،والاقطاعيون الصغار الذين لم يتميزوا كثيرا عن الفلاحين الاغنياء من حيث الملكيــة مع اختلاف في السكن . فغالبا ما كان صغار الملاك من سكان المــدن ويعتمدون على مورد آخر غير الارض . ومع مطلع القرن العشرين . والانتشار الواسع للعلاقات « السلمية النقدية » اخذت تتشكل طبقة اقطاعية على صلة وثيقة بالتجارة والتجار ، كما ان قسما من التجار اخذ يطمح في الاستيلاء على الاراضي والدخول الى حد ما في صفوف الاقطاعيين .وهذه الفئة الاقطاعية البرجوازية «أو بالاصح مايعرف» بالاقطاعي المتبرجز او البورجوازي الطامح في الوصول الى الاقطاعية ، لـم تظهـر معالمها بوضوح الا بعد الحرب العالميــة الاولى . وكان لهذه الفئــة « الاقطاعيــة ـ البرجوازية» او « البرجوازيةـ الاقطاعية » نفوذ هام داخل الحركة الوطنية ،ولاسيما في صفوف الكتلة الوطنية ، وكانت همزة الوصل بين الاقطاعية الرجعية السائرة مع الاستعمار والبرجوازية الوطنيــة المقاومــة للاستعمار أو الراغبــة في الحصول على الامتيازات بأي ثمن .

وقد اشتهرت هذه الفئة بتذبذبها وتأرجحها لسرعة ما كانت تنتقل من معسكـر الى اخر . ولا يمكن فهم استراتيجية وتكتيك الحركة الوطنية دون فهم دور الاقطاعي المتبرجز أو البرجوازي الاقطاعي .

تركت العلاقات الاقطاعية في نفس الاقطاعي واخلاقه اثرا لا يقــل وضوحــا عــن اثرها في حياة الفلاح المرابع واخلاقه . فالاقطاعي سكن دارا فخمة في المدينة بعيــدا عن ارضه ومزارعه ، واوكل امر ادارة الارض الى وكيل يتحكم بالقرية ومرابعيهــا . وكان الاقطاعي على جهل بالزراعة وادارتها ولا تراه في القرية الا في موســم البيــدر . حيث يجيء لمقاسمة الفلاحين المرابعين المحصول وسرقة اتعابهم (٢٧) .

وكما ان « حق » اللاملكية الذي « تمتع » به الفلاح المرابع خلق منــه فلاّحا من طينة خاصة وطبعه بأخلاق معينة تكلمنا عنها ، كذلك فان « حق » ملكيــة الارضــ ، الذي تمتع به الاقطاعي خلق في نفسه روح الاستعلاء والعجرفة والتكبر عن العمــل والاستهتار بالاموال وصرفها بسبب وبـدون سبب . فمــا دام لم يتعب ويعرق في الحصول على هذه الاموال ، كان يصرفها بلا حســاب .

عاش الاقطاعي منذ صغره محاطا بالخدم والحشم والعناية الزائدة وربي في بيئة تربية جعلته يشعر بنفسه وكانه محور الكون ، وكأن الخلق انما خلقوا ليخدموا حضرته ولينفذوا اوامره . فالبيك او الاغا كان يربى على الكسل والخمول واحتقار العمل . فهو يركب الخيل ويصطاد الغزلان ويعتدي على نساء الغير ، وغيره يحرث الارض ويقدم له خيراتها . كما انه احتقر العلم أيضا .

ومادام الاقطاعي قدنشأ على عادة احتقار العمل وعلىروح السيطرة واستعباد الغير واضطهادهم واهانتهم ، فهو بالضرورة لن يهتم بالقضايا العامة ولا بالخدمة العامة او التضحية في سبيل المصلحة العامة ، مادامت « العامة » تشمل الفلاحين الذين هم في نظرة ادنى البهائم وطبقة دون طبقته (٢٨) .

كان لسكن الاقطاعي في المدينة بدون عمل وبالاسلوب الذي تحدثنا عنه اثر في زيادة مصروفه ، في الوقت الذي كانت وارداته من الارض محدودة . فادى هذا الى افلاسه الدائم ، اذ كان الافلاس صفة من صفات هذه الطبقة الطفيلية ، ولسان حالها يقول :

الله يعلم والايام شاهدة ... انا كرام ولكنا مفاليس

وقف هؤلاء « الكرام المفاليس » الى جانب الحكم الاستعماري بأمل المحافظة على « كرمهم » الاقطاعي والتغلب على « افلاسهم » المزمن ، والوقوف في وجه الحركة الفلاحية والجناح اليساري من الحركة الوطنية وقد سار على خطى الاقطاعيين منطلقا من الاسباب ذاتها ــ في تأييد المستعمر الدخيل قسم كبير من الفلاحين الاغنياء .

وقد اعترفت سلطات الانتداب الافرنسي بجميل هؤلاء عليها وقدرت « افعالهم » في مقاومة الحركة الوطنية فسهلت اعمالهم ومنحتهم الامتيازات المختلفة . ومن الامثلة على ذلك المكافاة التي نالها عدد كبير من ممثلي الاقطاعية والمتنفذين وشيوخ العشائر ، اذ منح كل منهم في شهري شباط وآذار « وسام الاستحقاق السوري تقديرا لاخلاصه وحسن مساعيه في خدمة الحكومة السورية » اي سلطات الاحتلال ايام الثورة السورية (١٩٢٥ــ١٩٢٧) . ومعروف ان « الحكومة السورية » برئاسة احمد نامي ، التي

منحت هذه الاوسمة ، كانت مجرد دمية في يد السلطات الفرنسية . ومنح الاوسمة جرى بايعاز من استخبارات جيش الاحتلال الافرنسي ، الى المفوضية العليا للانتداب الافرنسي في بيروت ، وبتوقيع المندوب الممتاز بيه راليت (٢٩) .

ومن المواقف المعروفة عن قسم من الاقطاعيين (كبار الملاك في حماة مثلا ايام الثورة السورية) محاولتهم ركوب الموجة الوطنية المتصاعدة في مدينة حماة تأييدا للثورة الوطنية في الجنوب ، والسعي لانتزاع قيادتها من يد بورجوازية المدينة (المثقفة والتجارية ومعلمي الحرف) التي كانت في ذلك الحين اضعف من الاقطاعية وخاضعة الى حد بعيد لسيطرتها . ولم تبدا بورجوازية حماة بالكفاح العلني ضد الاقطاعية الا بعد اكثر من خمس سنوات في اوائل الثلاثينات وعلى وجه الخصوص أيام الانتخابات النيابية في سنة ١٩٣٢ . اما ايام الثورة السورية (١٩٢٥ ــ ١٩٢٧) فلم يكن الصراع بين اقطاعية حماة وبورجوازيتها قد تبلور . ويروي بعض رجال الثورة ان اتصال الاقطاعيين بالعناصر الوطنية المتحمسة للثورة لم تكن دوافعه وطنية بقدر ما كان هدفه كشف هذه العناصر وافشال الثورة في مهدها وتقديم الخدمات للمستعمرين الافرنسيين والحصول منهم لقاء ذلك على مزيد من الامتيازات . ونعتقد ايضا أن الاقطاعيين خافوا من اندلاع الثورة في حماة وتحول هذه الثورة من ثورة وطنية معادية للاحتلال الى ثورة طبقية تضم حلفا من بورجوازية المدينة والفلاحين (وهذا ما جرى فيما بعد) ضد الاقطاعية وجبروتها . وزاد في خشية اقطاعيي حماة المواقف المعادية للاقطاعية التي اتخذها الثوار في اجزاء متفرقة من ريف حمص .

بعد اتصال اقطاعيي حماة بالعناصر الوطنية الحموية المؤيدة للثورة، أرسلت الوفود سرا من حماة للاتصال بزعماء الثورة في الجنوب (دمشق ــ جبل العرب) للاتفاق على عمل موحد ونشر الثورة في الشمال . ويروي الشاب الحموي منير المريس ، الذي كان في عداد الوفد تفاصيل تحركاته واتصالاته بأحد زعماء الثورة البارزين الدكتور عبد الرحمن الشهبندر . وكان الشهبندر في ذلك الحين يمثل فكريا يسار الحركة الوطنية ، وهو برجوازي ليبرالي من وجوه دمشق المشهورة سياسيا وطبيا وفكريا ووطنيا ، واثناء اتصال الوفد الحموي بالشهبندر في قاعدة الثورة في جبل العرب ، كشف الشهبندر للوفد الطبيعة الانانية اللاوطنية للاقطاعيين

عندما قال للريس عضو الوفد : « انا اعرف منك بذوات حماة واغنيائها .. اعرف منك بنجيب آغا البرازي وفريد بك العظم ، اللذين حدثتني عن تضامنهما مع اخوانك الشباب ... فهؤلاء اسرى مصالحهم وعقاراتهم وقراهم لا يجراون على القيام بأي عمل يغضب السلطة الحاكمة ، خشية ان تتعطل اعمالهم في قراهم وممتلكاتهم ، او تصاب بضرر أو يتبدل عيشهم الهنيء ، ويزول ما فيه من نعمة ورخاء » (٢٠) وسوف نعالج مواقف كبار الملاك من الكفاح الفلاحي الوطني المسلح بالتفصيل في فصل قادم .

وحول الوضع الطبقي في حماة كتب عام /١٩٣٤/ الخبير في قضايا الريف احمد وصفي زكريا « ان الاسر الكبيرة في حماة ، التي اوجدتها احداث ذلك العهد ـ اي ظروف ظهور الملكية الخاصة في أواخر العهد العثماني دابت على استصفاء العقارات في المدينة والمزروعات المؤلفة في القرى بشتى الوسائل حتى لم يبق منها، لاسيما في البرية ، من الارضين المملوكة لاهلها الا ما ندر . واصبح الحمويون من جراء ذلك فريقين متباينين ، العظامي الذي يسير فخورا لسعة املاكه ووفرة ارزاقه تدر عليه وهو مستريح ريعا ينفقه في نعمة ورفاه ، والعصامي وهم السوقة والفلاحون الذين يكدون مدى العمر للحصول على كفاف العيش والاجور التي حقت عليهم لاولئك العظاميين . والشحناء من جراء هذا التباين مستحكمة الحلقات بين الفريقين (٢١) .

ان هذه « الشحناء من جراء هذا التباين » هي الصراع الطبقي الناتج عن صراع بين من يملكون ولا يعملون وبين من يعملون ولا يملكون . واحمد وصفي زكريا الكاتب والرحالة الليبرالي المتنور راى بأم عينه الصراع المستحكم الحلقات بين الفلاحين والاقطاعيين . ومن صميم ذلك الصراع قويت الحركة الفلاحية وصلب عودها وافرزت في اواخر الاربعينات وأوائل الخمسينات الحزب العربي الاشتراكي الذي قاد الحركة الفلاحية في اواسط سورية ، وازدادت قوته ونفوذه باتحاده مع حزب البعث العربي الاشتراكي .

٥ ـ البدو

اقسامهم ـ عملهم ـ شرائحهم الاجتماعية ـ عشائرهم

في المجلد السابق تكلمنا باسهاب عن العلاقات في البادية ايام الدولة العثمانية .

وفي هذا الفصل سنحاول تتبع اوضاع البدو وما طرا عليهم من تغيرات في ظل السيطرة الاستعمارية المباشرة وترسخ العلاقات الاقطاعية من جهة واندفاع العلاقات الراسمالية من جهة اخرى . وقد رأينا من الافضل ان نخصص للبدو فصلا خاصا نظرا لاهمية البدو ودورهم في الريف زراعيا ورعويا، اضافة الى موقعهم الخاص في عملية الصراع بين قوى الاستعمار والقوى الوطنية .

وقد جرى في عهد الانتداب استقرار نسبي للبدو . وخفت حدة الهجرات البدوية من شبه الجزيرة العربية الى بادية الشام . كما ان ظهور الحدود الانتدابية وتقسيم البلاد العربية بعد الحرب الاولى حد من تنقل البدو ودفع باقسام منهم الى حياة الاستقرار بعد ان تمكنت سلطات الانتداب من ردع غزوات البدو المزدهرة أيام العثمانيين على « مناطق المعمورة » .

وقد تميز عهد الانتداب بسعي سلطاته لكسب ود زعماء العشائر ومنح بعضهم الأراضي الواسعة وجعلهم جزءا من الطبقة الحاكمة ، ولهذا فان فترة الانتداب اتصفت بانتعاش الارستقراطية البدوية وبدء نزوحها الى المدن بعد ان حازت على امتيازات كثيرة ، كانت الغاية منها توسيع قاعدة السلطة الاستعمارية في البادية وعلى أطرافها .

١ ــ من هم مستثمرو الجماهير البدوية :

خضعت جماهير البدو « الرحل ، ونصف الرحل ، والفلاحون البدو » لاستثمار رهيب من جهات متعددة هي :

١ ــ الارستقراطيةالبدوية منامراء ومشايخ ورؤساء عشائر وهذه الارستقراطية كانت تجمع من البدو (ضريبة) عرفت باسم« حق الشيخ » وتمارس على عامة البدو شتى ضروب الاستثمار والاستعباد باسم التقاليد والعادات .

٢ ــ تجار المدن وطفيليوها ، الذين نهشوا البدو واستثمروهم بطرائق متعددة ، فالتجار كانوا ولا يزالون يبيعون البضائع المصنوعة من نسيج وسواه ، الى البدو بالسعر الذي يضعه التجار دون نقاش ، لان البدوي بطبعه (لا يفاصل) ثم يشتري التجار من البدو الصوف والسمن بأسعار رخيصة جداً ويبيعونها بعد فترة بأسعار

عاليـــة . وهكذا كان التجار يربحون ، ولا يزالون ، من البدو بيعا وشـراء، وهـؤلاء المساكين يعملون طوال السنـــة في ظـروف قاسيــة وصعبة لينعـم تجـار المـدن وحواشيهم .

٣ ــ اغنياء الفلاحين استثمروا البدو ايضا عن طريق استخدام عـدد منهم لرعي مواشيهم لقاء اجر لا يساوي الا جزءا زهيدا من الجهد المبذول . ولكـن استثمـار الفلاحين الاغنياء للبدو لم تكن درجته عالية وقسوته كانت خفيفة بالقياس الى استثمار الاستقراطية البدوية والتجار .

٤ ــ الراسمالية الافرنسية بصفتها الدولة المنتدبة ، التي كانت تستثمر الشعب بمجموعه ومن ضمنه هذه الفئة المسحوقة من البدو .

كان البدو ولايزالون ــ اكثر الشرائح الاجتماعية تعرضا للاستثمار . ومـع ذلك فان احساسهم الطبقي كان معدوما او يكاد ، نظرا لثقل التقاليد البدويـة الموروثـة والجهل المطبـق وظروف الحيـاة القاسية ، التي يحيونها . وهم لذلك اكثر الفئات الاجتماعية تخلفا . وقد اتخذ البدو تجاه الحركة الوطنية مواقف متناقضـة فتـارة يؤيدون الثورات الوطنية (حبا بالنهب كما يتهمهم البعض) وطورا يقفون ضدها دون ان تكون ثمة ضوابط لذلك . ولا يتسع المجال هنا لايراد عشرات الامثلة عـن المواقف المتناقضة للبدو ، أو بالاصح لشيوخهم .

٢ ــ اقســام البــدو :

آ ــ البدو الرحل او الجمالة : وكانوا حتى العشرينات يعتمدون عـلى الابـــل ومنتجاتها ومشتقات هذه المنتجات في تأمين ضرورات حياتهم ، ثم اخـذوا في اقتناء الشياه وبخاصة الاغنام سواء لحسابهم الخاص او لحساب اغنياء اهل المدن والقـرى ومشاركة هؤلاء . كمـا ان سياسة الانتـداب في توسيـع القاعدة الاجتماعية لـلاك الاراضي وكسب هؤلاء الى جانبها دفعت رؤساء هذه القبائل ــ وغيرها ــ الى امتلاك الاراضي والضياع واستخدام الفلاحين المتحضرين واحيانا رجال القبيلة في زراعة الارض .

ب ــ البدو نصف الرحل : ويطلق عليهم اسم الشاوية والبقارة بسبب تربيتهـم للشاء والابقار ويطلق عليهم في مناطق الجزيرة والفرات اسم « الشوايا » والبدو نصف

الرحل يربون الغنم والماعز ويرحلون في الشتاء الى البادية انتجاعا لمرعى غنمهم ودفئهم ويعودون في الصيف الى قراهم وضياعهم على حدود المعمورة ، المؤلفة من بيوت الشعر او القباب ، ونادرا البيوت الحجرية . ولم يكن قانون العشائر الصادر في عهد الانتداب يشملهم وكان نوابهم يطالبون بذلك لما يحققه لرؤسائهم من امتيازات. والسبب انهم يمتهنون الزراعة الى جانب الرعي .

وكان للقبائل نصف الرحل علاقات قوية مع اغنياء مدن حلب وحماه وحمص ودير الزور ودمشق يشاركونهم في تربية الغنم وتجارة السمن والصوف ، التي تذهب أرباحها عمليا الى تجار السمن والصوف في المدن اولا والى امراء البدو ثانيا، ويخرج البدوي (الراعي) خاوي اليدين في نهاية الموسم مع انه المنتج الرئيسي والاساسي .

وأراضي القرى ، التي سكنها هؤلاء كانت تابعة اما الى رؤساء العشائر او الى كبار الملاك في المدن . وندر ان تكون ملكا للبدو ، واسمهم (عربان الديرة) وهم يدفعون للدولة ضريبةِ الاغنام العشر من الزروع و « الويركو » عن الارضين .

وأهم القبائل نصف الرحل الموالي والحديديون وبنو خالد والعقيدات (على ضفات الفرات) والبوطميس والوهب والولد علي واللهيب في اقضية حلب .

جـ ـ الاعراب الفلاحون : (الفلاحون البدو) وكنا قد اشرنا اليهم وصنفناهم مع الفلاحين الفقراء وهم عشائر متحضرة ، استقرت وهي تحترف الزراعة بالدرجة الاولى ورعي الماشية بالدرجة الثانية . ونلاحظ ان عملية الاستقرار وهجر بيوت الشعر وسكنى بيوت الحجر او القباب والعمل في الزراعة أكثر من تربية الماشية بدت ملامحها واضحة في فترة الانتداب الفرنسي (١٩٢٠ ـ ١٩٤٣) وتسارعت في عهد الاستقلال الاول وامست ظاهرة بارزة واحد منجزات التقدم الاجتماعي في الخمسينات والستينات .

هؤلاء الفلاحون ذوو الاصل البدوي استقروا في قرى املاك الدولة في انحاء منبج والباب وجبل الاحص ومطخ قنسرين ، وكذلك القاطنون في سهل العمق

وسهل الروج وسهل الغاب ، وفي انحـــاء ادلب وسرمين والطار والعـــلا . ومنهـــم في اطراف حماة قبيلة التركي (بين حماة وشيزر) وغيرهم من العشائر مثل بنو عز الرعية والمشارفة والجملان والخراشين .

٢ ــ أعمال البدو ... الرعي وأشكال الشراكة مع أغنياء الحضر :

انف البدو من الاعمال اليدويـــة واحتقرتها ارستقراطيتهم ، الى درجة ان هـــذه الارستقراطية كانت حتى الخمسينات ترفض بناتها من ارباب الصناعات والحرف مهما ضخمت ثرواتهم . وكذلك الامر بالنسبة للزراعة فكانوا ايضـــا يزدرونها ويمتهنـــون اهلها ويدعونهم (فلاليح) جمـــع فلاح ، لانها فيما زعموا تربطهـــم بالارض وتجرهـــم الى الخنوع والذل وتفقدهم الحريـــة والانطلاق اللذين هما غاية مناهم ، ومن اقوالهم في ازدراء الزراعـــة (الذل بالحرث والمهانـــة بالبقر) ويقابلون هـــذه الاقوال بكلمـــة (العز بالابـــل والشجاعة بالخيل) الا انهـــم منذ أن انقطعت سبل الغزو نضب معـــين السلب والنهب وتوالت سنو المحل والجدب وكثر موت الحلال (الماشيـــة) اضطروا الى الاتجاه نحو الزراعة بصورة وئيدة (٢٢). وفي الوقت نفسه كانـــت الارستقراطيـــة البدويـــة تستولي ــ بمساعدة سلطات الانتداب ــ على الاراضي وتتوسع في المساحات المزروعة وتتنافس على امتلاك الارض وتعين الحدود بـــين أملاك رؤساء العشائر . وفي البدء استخدمت الارستقراطية البدوية فلاحين من خارج عشيرتها للعمل في الزراعـــة بسبب جهل البدو في الاعمال الزراعية أولا وعدم استعدادهم للخضوع والاستقـــرار ثانيا . ثم اخذ البدو يستقرون بالتدريج ، كما سنرى في دراستنا عن الحركة الفلاحية في عهد الاستقلال بعد / ١٩٤٥ / .

كان الغزو فيما مضى ضرورة من ضرورات الحياة البدويـــة الرعويـــة والتنقـــل والهجرة والبحث عن الماء والكلأ . ومع ظهور الحدود الانتدابيـــة ســـعت السلطـــات الاستعمارية الانتدابية (فرنسا وبريطانيا) الى ضمان الاستقرار في البادية ، وبخاصة بعد التفكير في اقامة خطوط البترول بين كركوك وكل من طرابلس وحيفـــا . وبفضـــل الطيران وراكبي الهجن (الهجانة) المسلحين تسليحا جيدا استتب الامـــن في الباديـــة في أواخر العشرينـــات .

ورافق ذلك العلاقة الوثيقة بين سلطات الانتداب ورؤساء العشائر ، الذين حازوا على جزء من الغنيمة ، ونفذوا سياسة الانتداب في الاستقرار والقضاء على الغزو . وهذا الامر كان طبعا في صالح اهل المعمورة ، التي اخذت تتوسع باتجاه البادية مع استقرار الامن وانتشار السيارة وتقدم طرق المواصلات وسائر مظاهر الحضارة .

رافق عملية التطور هذه تغير في اساليب العمل الرعوي وانماط الحياة وتدريجيا في المفاهيم والعادات والافكار،وبخاصة بعد انتقال اقسام من البدو الى العمل الزراعي.

قبل انتشار السيارة كانت الخيل مفخرة البدو عليها يقطعون السباسب ويهاجمون العدو ويردون صدمات الغزو . وللخيل منزلة رفيعة في مضارب البدو . وقلما أحب البدو الاحتفاظ بذكور الخيل فيبيعونها ويشترون بدلا عنها تمرا وحبا وثيابا وأدوات الخيمة . ومن النادر ان يبيع البدو الفرس صفقة واحدة الا اذا طمع بالمال الكثير ، وكان بحاجة اليه . وللبدو في بيع الخيل طريقتان ذكرهما أحمد وصفي زكريا بالتفصيل (٣٣) .

كان للخيل في البادية وعلى حدود المعمورة صولة ودولة واعتزاز ، والفروسية هي احدى مفاخر العرب (٣٤). ثم اخذت اهمية الخيل تتراجع ولم يبق لها قيمة الا في ميادين السباق . .

أما الابل فهي صديقة البدوي ورمز الصحراء . وهي ايضا اخذت في التراجع في الخمسينات وتكاد تضمحل في الوقت الحاضر مع انتشار السيارة ووسائل المواصلات الحديثة .

بعد استتباب الامن في البادية ازدادت العلاقات الاقتصادية بين البدو الرعاة وسكان الارياف (المعمورة) وبخاصة المدن . وكان البدوي نادرا ما يأتي الى مراكز التبادل في القرى الكبيرة والمدن لبيع الصوف والسمن واحيانا جزءا من ماشيته ، فهناك تجار الغنم والصوف من اهل المدن . الذين يجوبون البادية ويشترون من البدو الغنم و الصوف والماشية بأسعار رخيصة ثم يبيعونها في المدن أو في الاسواق بأسعار غالية .

ومع تطور العلاقات الراسمالية امست في الثلاثينات والاربعينات معظم الاغنام التي يرعاها البدو ، لاغنياء القرى واثرياء المدن القائمة على سيف البادية . وكانت الشراكة بين هؤلاء ورعاة البادية تقوم على شكلين من الشراكة (٢٥) :

الشكل الاول للشراكة هو الغنومية :

وهي ان يشتري الحضري الاغنام ويسلمها للبدوي ، فيتنقل هذابها بين المعمورة والبادية حسب الفصول والمواسم ، وتقوم اسرة هذا البدوي بكل ماتطلبه الاغنام من عناية وخدمة وحلب نعاجها الرغوث وتحويل البانها الى زبدة وسمن وخاثر ، ويتناول الحضري عن كل نعجة رطلا من السمن علاوة على حملها الصغير ويأخذ البدوي ما زاد عن الرطل ، والنعجة الواحدة قد تعطي في سنة الخصب من الرطل الى الرطل والنصف الى الرطلين من السمن ، اما الصوف فيرجع كله الى البدوي لقاء تعبه ، واما الرسوم الاميرية المتحتم دفعها عن الاغنام فالحضري يدفع رسوم الاغنام الرغوث التي تلد حليبا في موسمها والبدوي يدفع رسوم الحائل اي الغنمة ، التي لاتلد وبالتالي لا تعطي حليبا ذلك الموسم ، وعلى البدوي ان يدفع ايضا كل النفقات من ضمان الماء وضمان الحقول المحصودة بما يسمونه (فراز) وخلاف ذلك ، والبدوي مسؤول ايضا عن ادارة الغنم وجلب الماء اليها من الاماكن البعيدة . واذا ماأراد الحضري ابدال هذا الشريك فان ذلك يكون في موسم (الفراز) اي زمن خضوب اللبن او قبيله . ويقدر ان ربع البدو لا يقومون بأمانة في هذه الشركات اذ يعيشون بما عهد اليهم من الغنم ويدعون ان الذئب اكلها او ان البرد او المرض انتابها الى ماهنالك من الاعذار التي يعود سببها الاساسي الى شعور البدوي (الراعي) بأنه مستثمر من اغنياء الحضر في الريف والمدينة وانهم يستغلونه ، فعلية ان يرد الصاع صاعين عن طريق تلفيق الاعذار حول موت الغنم ومرضها او هجوم الذئاب عليها (كلاها الذيب) وعمل الراعي هنا مشروع مادام يريد ان يسد رمق عياله وهو المنتج الحقيقي لما تدره الاغنام . ولذلك فان مالكي الاغنام من الحضر يسعون لاسترداد غنمهم والبحث عن راع (بدوي) آخر « اكثر امانة » حسب تعبيرهم .

الشكل الثاني للشراكة هو شركة العظم او الشركة الحلبيـــة ، وهذه تكون على شكلين :

الاول ، يبتاع كل من البدوي والحضري عددا متساويا من الاغنام فيأخذ البدوي بتربيتها واستثمارها وفاقا لما ذكرناه في الشكل السابق ، وتقسم الخسائر والارباح مناصفة . كما تقسم النفقات بينهما على السواء ، الا ان هذه الشركة قد اصبحت في الاربعينات نادرة ، ولاتزيد نسبتها على / ٥٪ / بين الشركات .

والشكل الثاني ، يشتري الحضري مثلا مائة نعجة بمائتي ليرة ويسلمها للبدوي بعد أن يأخذ عليه سندا بالقيمة وتعهدا بو فاء اثمانها من نواتجها فيبـــدأ البدوي بأداء جانب من اثمانها كل سنة فلا تمضي سنتان او ثلاث حتى يكون قد ادى القيمة بتمامها. فتصبح الغنم مناصفة بين البدوي والحضري فاما ان يجدد الشركة او يأخذ كلحصته ويبحث عن شريك .

٣ ــ التمايز الطبقي يزداد اتساعا :

ازداد في عهد الانتداب الافرنسي التمايز الطبقي بين افراد القبيلـة ومشايخها وبخاصة شيخ المشايخ . وقد شجعت سلطات الانتداب الفرنسي رؤساء العشائر على تملك الارض واستثمارها وتشكيل شريحة اجتماعية تدين بالولاء للاستعمار وتستخدم كخنجر في خاصرة الحركة الوطنية وكـأداة في يـد سلطـات الانتداب . وغضّت تلك السلطات الطرف عن قيام العشائر القوية بجباية حق الخوة من الفلاحـين المتاخمين للمعمورة . وسنت لهم قانون العشائر ، الذي تضمن امتيازات واضحة لصالحمشايخ العشائر البدوية .

فشيخ الفدعان (٣٦) مثلا سكن مع بعض اولاده فيقصر مجهز بكل وسائل الرفاهية العصريةكالمياه الجارية والحمامات والتدفئةالمركزية والكهرباء وحظيرة للسياراتالخ. في قرية جب العلي على السفح الشمالي لجبل شبيط ، كما كان يملك بضع قرى على ضفاف البليخ ، والفرات بجوار مسكنة ، وعدة قرى تمتد من جبل شبيط حتىمسكنة تملكها في نهاية العهد العثماني وفي عهد الانتداب . وشيخ الفدعان مجحم بن مهيد سار في ركاب الحملة الفرنسية التي احتلت وادي الفرات منطلقة من حلب .

وقد كان اول شيخ عشيرة بدوية استخدم السيارة في الغزو ، لانه استطاع في عام /١٩٢٩/ مع حفنة من رجاله ان يقضي على اكثر من /٢٠٠/ فارس من عشيرة جيس (قيس) المعادية وانتقم لعينه التي فقدها في احدى معـارك معهـم . وبفضل استخدام السيارة على نطاق واسع اصبح شيخ العشيرة قادرا على ان يرسل تعليماته وان يتلقى اخبار المراعي وقطعانه ، وان يذهب لتسوية الخلافات الناشبة قبـل استفحالها او ملاحقة قضايا عشيرته لدى مختلف الدوائر الرسمية بسرعة وتدعيما لمركزه اقتنى قصرا فخما في حلب ذاتها .

ولم يهتـم شيوخ الفدعان ابدا بتشجيع افراد قبيلتهم عـلى الاستقرار ومعاطاة الزراعة ، وكانوا ينزلون صيفا في بادية حلب دون ان يبلغوا جبل شبيط الا في حالات نادرة . اما في الشتاء فيتوغلون بالبادية حتى البشري والكوم . لكن البحث عـن المراعي والتمون بالتمور ، دفع بعضهم للوصول حتى وادي حوران في العراق ، وقد سبق لهم اكثر من مرة ان قضوا الشتاء هناك . ويرحلون من البادية في اواخر الربيع قاصدين اطراف المعمورة التي يتركونها في مطلع تشرين الاول .

ويلاحظ ان رؤساء العشائر ، الذين تملكوا الاراضي الواسعة استخدموا في البدء فلاحين لهم خبرة في الزراعة وابقوا عشائرهم على البداوة . وكان عبيدهم اداة بطش لاترحم ضد الفلاحين .

٤ ــ الوضع القانوني للبدو ايام الانتداب :

اصدرت المفوضية الفرنسية العليا في بيروت عددا من القرارات في سنين مختلفة بشأن ادارة البدو ومحاكمتهم وعقوبات الغزو والغزاة ، ثم بدلتها كلها ودمجتها في قرار واحد رقمه /١٣٢/ وتاريخه ٤ حزيران /١٩٤٠/ (٢٧) دل على مبلغ اهتمـام سلطات الانتداب الافرنسي بأمر البدو .

الملحق رقم /١/ عين العشائر الرحل وهي :

الروالة وتوابعها ، الاشاجعة ، السوالمة ، العبد الله ، الولد علي ، البدور ، الاحسنة ، السبعة البطينات ، الاسبعة الاعبدة ، الفدعان الولد ، الفدعان الخرصة

وولد سليمان ، شمر الزور ، شمر خرصة ، بني خالد ، الفواعرة ، الحديديون (الكومة ، الغناطسة ، الجملان ، البوحسن) الموالي (الشماليون والقباليون) العمور ، البوخميس ، اللهيب ، الكبار ، الوهب ماعدا فخذ السيادة الغياث النعير ، النجاد ، الصليب ، الحسن ، المساعيد ، الشرقات ، العضيمات ، الشنابلة ، السردية .

حسب الاحصاءات التقديرية ـ الواردة في الجدول الموضوع عام /١٩٤٣/ (٢٨) فان عدد البدو الرحل بلغ /١٥١١٨٥/ نسمة عاشوا في /٣١٦٠٢/ خيمة وملكوا /٢١٢٢٣٣/ جملا و /٣٣٢٠/ راسا من الخيل و /٢١٢٢٣٣/ راسا من الغنم و /٨٠٠٠/ راس ماعز . ومعنى ذلك ان نسبة الجمال هي /١٤/ جملا لكل عشرة اشخاص ونسبة الخيل راس واحد لكل /٤٥/ شخصا ونسبة الاغنام والماعز خمسة رؤوس لكل شخصين .

٥ ـ الحركة الوطنية وقضية البدو :

أولت القوى التقدمية داخل الحركة الوطنية امر البدو اهتماما ملحوظا ودعت الى معالجة قضيتهم « بحق ووجدان عربي عال » والصفحات التالية هي آراء الكاتب المعروف في حينه منير الشريف في كتابه « القضايا الاقتصادية الكبرى في سورية ولبنان » الصادر في آب /١٩٤٧/ كتب الشريف (٢٩):

لم يتخلص ابناء عمنا هؤلاء العرب الرحل ، من الاتراك ، حتى بلوا بالفرنسيين، الذين حكموهم حكما مباشرا ، مدة خمسة وعشرين عاما ، فلم يعملوا من اجل راحتهم وهناتهم شيئا ، وما عملوه معهم : انهم باعدوا بين قبيلة واخرى ، وبين هذه القبائل ، وبين سكان المدن ، والحكومة المحلية ، وكانوا يهيجونهم على عرب المدن الذين لا يعترفون للفرنسيين بالحكم لكي ينالوا من عزتهم وكرامتهم ويحولوا بينهم وبين مصالحهم .

وبعد ان انقذناهم من الفرنسيين ، يجب علينا الاهتمام بهم ، والعطف عليهم ، والعمل لمصلحتهم ومصلحة البلاد كما يلي :

١ ـ اعفاءهم من ضريبة الماشية بتاتا ، تلك الضريبة التي لا تصلح لهذا العصر .

٢ ـ ايجاد خزانات لمياه الامطار ، والينابيع الشتوية ، بين الجبال ، في البادية ، لتشرب الماشية منها وتروى بعض الاراضي القاحلة ، لتخرج الى سكان البادية : الخضار والحب .

٣ ـ فتح آبار ارتوازية ، في كل بقعة من بقع البادية ، لتعطي الماء الكافي لاهل البادية وماشيتهم .

٤ ـ العمل على فتح ترع المياه العاصي ، والخابور والفرات ، وبحيرة العتيبة ، لتصل الى اطراف البادية . لاحياء تلك القفار بالزراعة ، وتعويد سكان البادية الاعمال الزراعية ، وترغيبهم في الزراعة وجعلهم يلمسون فوائدها .

٥ ـ ايجاد قرى جديدة ، لهؤلاء البدو ، بالقرب من اعمالهم الزراعية ليأووا اليها ويتحضروا فيها .

٦ ـ ارسال معلمين لاولادهم في البادية ، يرحلون معهم ، ويعيشون بينهم ، لاخراج نشء جديد منهم ، يعرف معنى الحياة الجديدة ، ويهدي قومه الى الرشد .

٧ ـ تعليم التلاميذ ، والرجال والنساء امر دينهم الاسلامي ، والنظافة ، وحفظ الصحة ، ومبادىء الزراعة ، والعناية بالماشية ، والطيور الداجنة ، والحساب وتاريخ العرب ، وعلوم الاشياء .

٨ ـ ارسال اطباء الى هؤلاء البدو ، يقيمون بينهم ويرحلون معهم على ان يكون لكل عشرة الاف نسمة طبيب يعالج مرضاهم بالمجان .

٩ ـ ارسال اطباء بيطريين الى هؤلاء البدو ، لكل عشرين الف راس من الماشية، طبيب ، ولكل عشرة الاف معاون طبيب ، ليعنوا بتلك الماشية والطيور الداجنة ، وينقذوها من الامراض التي تهددها ويهتموا بتحسين نسلها ، استبقاء للخيول العربية الممتازة ، ولايجاد الاغنام التي تعطي اللبن بكثرة ويكون صوفها من النوع الجيد ، ولجعل الجمال ووبرها من الجنس المرغوب فيه .

١٠ ـ ارسال مهندسين زراعيين الى عرب تلك البادية ، ليعملوا مايمكن من الحقل الزراعي ، وتهيئة اسباب الحياة الزراعية ، وغرس الاشجار وخاصة الزيتون والعنب في الجبال ، وحمايتها من الماشية .

١١ ـ تقسيم المراعي في البادية على العرب الرحل ، وتعيين ايام خاصة لرعي بعض الاماكن ، لتكثر الاعشاب وتقوى ، وبذلك يكثر كلا الماشية .

١٢ ـ ايجاد الاعشاب الضرورية في البادية ، لرعي الماشية .

لقد اتضح ان هناك اعشابا صالحة للاراضي الصحراوية الجدباء ، العديمة الماء ، وقد اوجدت في اوستراليا والولايات المتحدة ، وافريقيا الجنوبية ، واوساط اسيا السوفيتية ، وبهذه الاعشاب ، يمكن للماشية ان تستغني عن الماء وخاصة في ايام الصيف ، لانها غنية بانسجتها وقد عاشت الاغنام في تلك الاصقاع عدة اشهر بلا شرب .

ان هذه الاعشاب النابتة في اواسط آسيا ، هي من جنسي (التف) و (الخب) اذ تحتوي على /٧٠٪/ من الماء وهناك اعشاب من اجناس (القطف ، والقتاد ، والحرض ، وزهر يعقوب والدبح ، والراوند البري ، والوسمة) ، وهي تحتوي في تركيبها على /٨٥ـ٩٥٪/ من الماء .

فعلى الحكومة السورية ان تدرس هذه الناحية وتاتي بهذه العشبة الى باديتنا حالا .

١٣ ـ ايجاد زرائب وحظائر شتوية لماشية البادية ، تأوي اليها عند اشتداد البرد في فصل الشتاء ، وعند اشتداد الحرارة في النهار في فصل الصيف .

١٤ ـ فتح مصرف لهم يقرضهم المال الذي هم في حاجة اليه ، بفائدة زهيدة ، ننقذهم من المرابين في المدن وظلمهم ، وتؤمن لهم حاجتهم من المال .

١٥ ـ تعليمهم النظام والتنظيم ، والطاعة ، والحرية والمساواة ، واحترام الحقوق والواجبات . ان اخلاقهم الفطرية الطيبة ، تقبل ذلك عن طيبة خاطر .

١٦ ـ ايجاد حسن التفاهم والمحبة بين القبائل جميعها ، ومصالحة القبائل التي لاتزال على خلاف مع قبائل اخرى ، ومحو كل اثر للثارات القديمة ، وتشجيع بعض رجال القبائل ليتزاوجوا من القبائل الاخرى ومع اهل المدن ، وذلك لتقريب القلوب ، واستبقاء الاخوة العربية .

١٧ ـ منع كل ضغط واذى عن هؤلاء البدو ، وجعلهم يعيشون احرارا كراما .

١٨ ـ تعليم شباب البدو ، الرياضة الحديثة ، والتعليم العسكري الاختياري ، لانهم مكلفون ايضا بالدفاع عن الوطن العربي .

١٩ ـ ادخال صناعة البسط الى أولئك البدو لتمهر نساؤهم في صنعها وعندئذ يفرشون بها بيوتهم ويبيعونها في المدن .

وكذلك تعليمهم صناعة الجبن المتقنة ، لصنعه في المجابن الفنية وخزنه ، ثم بيعه في الاسواق . وتعليمهم الطرق الجديدة في حفظ البيض من الفساد .

٢٠ ـ مساعدتهم على تامين معاشهم في السنين الماحلة ، لان موتهم جوعا جناية لا تغتفر ، وعار يلحق بنا ابد الابدين .



حواشي الباب الثالث

١ ـ حمادة ... ص /٤/

٢ ـ المصدر نفسه .

٣ ـ المصدر نفسه .

٤ ـ المصدر نفسه ـ ص /٨/ .

٥ ـ الف باء /٢٠/ كانون اول /١٩٣٠/ .

٦ ـ تناول هذه القضية بالبحث نجار حليم ... ص /٤٨/ .

٧ ـ مثل آل هارون وشريتح والازهري والمحمود وعلي ديب والدنادشة .. هذا مع العلم ان هناك ايضا ملاك كبار ينحدرون من الجبل مثل آل الكنج في جبلة وآل العباس وحامد في صافيتا .. الخ .

٨ ـ الشريف منير : « العلويون من هم واين هم » دمشق /١٩٤٦/ ص /١٩/ .

٩ ـ زكريا .. ص /٢٢٦/ .

١٠ ـ الشهابي مصطفى : « رحلة الى دير الزور والجزيرة » في مجلة المجمع العلمي العربي ـ كانون الثاني ١٩٢٣/ .

١١ ـ حماده ... ص /٩٢/ .

١٢ ـ حماده ... ص /١٠٣/ .

١٣ ـ النص عزه : احوال السكان في العالم العربي ، القاهرة /١٩٥٥/ ص /١٤٠/ .

١٤ ـ حماده ... ص /١٠٤/ .

١٥ ـ المجموعة الاقتصادية لغرفة تجارة حلب /١٩٢٤/١٩٢٥/ ص /١٣٦/ .

١٦ ـ زكريا احمد وصفي : « جولة اثرية في بعض البلاد السورية » دمشق /١٩٣٤/ ص /٢١١/ .

١٧ ـ مجلة العمران ، نيسان ـ آيار /١٩٧٠/ . ص /١٨٧/ .

١٨ ـ زكريا ... ص /٢٠٢/ .

١٩ ـ المصدر نفسه /٣٥٣/ .

الجندي محمد سليم : « تاريخ معرة النعمان » ـ دمشق /١٩٦٤/ ص /١٥٥/ .

٢٠ ـ انظر في هذا المجال (وظائف المخاتير في : « قانون المخاتير » الصادر بتاريخ ٢٤ تموز /١٩٣٣/ في : مجموعة القوانين ... ص /٧٢-٨٧/ .

٢١ ـ ١٩/ آذار من عام /١٩٣٩/ وزع في درعا وفي اكثر قرى حوران البيان التالي :

« من الشبيبة الحورانية ، الى ابناء حوران الاكارم ، الى كل من يجري في عروقه دم العروبة ... فقد دعا نواب حوران الاربعة فخامة السفير الافرنسي الى زيارة ازرع يوم /١٤/ آذار سنة /١٩٣٩/ واخذوا يذيعون بين الناس وبواسطة أولادهم انهم يقومون بواجب الضيافة ليس الا نعم ان اهالي حوران سباقون الى الضيافة ، الا أن الدعوة في هذا الزمن العصيب الذي يمر به الوطن السوري وبالنظر للظروف الخاصة الحاضرة ولكون السفير لايزور الا المناطق المشهورة بقلة الوطنية ... واذا اضفنا الى ذلك قول كبيرهم لفخامة السفير انني لو استطعت يا فخامة المفوض أن تطا قدمالك أجسامنا ودماءنا ونعوسنا لفعلت ، كما أن بعض موظفي الدائرة الاجنبية عانقوا بعض أبناء النواب بعد انتهاء الدعوة المزعومة ... واقامة الوليمة في أزرع وليس في درعا وهي مركز المحافظة خوفا من شبابها اكبر برهان على سوء النية.

يا اهل حوران ، يا ابناء يعرب ، يا أبناء غسان ، ياأهل الحمية الاسلامية ، يا أهل النخوة والمروءة ، أيفعل نوابكم هكذا وانتم صامتون ؟ لموا شعثكم ووحدوا كلمتكم وجابهوا نوابكم وحاسبوهم على عملهم المشين واردعوهم علهم يثبوا الى صوابهم ورشدهم ويرجعوا الى خدمة وطنهم العربي ودينهم الاسلامي الحنيف ، والا فانبذوهم نبذ النواة وفروا منهم ، كما يفر السليم من الاجرب . لقد نبهناهم ، اللهم اشهد » .

المصدر : مركز الوثائق التاريخية « دمشق » وثائق الدولة ، الاحزاب المصنف رقم /٢٠/ .

راجع تقارير رئيس شرطة درعا وفيها اخبار « اضطراب التلاميذ والحوانيت » والاجتماعات في المصنف المذكور .

٢٢ ـ الرسالة في حوزة مديرية الوثائق التاريخية بدمشق .

٢٣ ـ الشريف ... ص /٦٥-٨١/ .

٢٤ - زكريا ... ص /١٤٢/ .

٢٥ - كتاب منير الشريف « العلويون من هم واين هم » دمشق /١٩٤٦/ ص /٨٢/ .

٢٦ - مركز الوثائق التاريخية - وثائق الدولة ، الاحزاب /١٩/ اضطراب درعا .

٢٧ - انظر في هذا المجال نجار .. .ص /٥٣/ .

٢٨ - المصدر نفسه .

٢٩ - راجع اسماء الاقطاعيين ومتنفذي الريف ، ومشايخ العشائر الذين نالوا اوسمة الاستحقاق تقديرا لاخلاصهم وحسن مساعيهم في خدمة الانتداب ايام الثورة السورية ، في مجموعة القرارات .. من ص /٢٦٣/ - /٧٢٧/ .

والخبر التالي المنشور في جريدة « الاحوال » البيروتية في /١٦/ شباط /١٩٢٧/ له دلالته بهذا الخصوص جاء فيه : « تمكنت سلطات الانتداب من موالاة زعماء القبائل القوية الضاربة في شمال سوريا على ضفاف الفرات كالامير مجحم بن مهيد رئيس عشائر عنزة واولاد ابراهيم باشا والامير مشعل باشا زعيم قبائل شمر وغيرهم من رؤساء القبائل الاخرى » .

٣٠ - الريس ، منير « الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي . الثورة السورية الكبرى » بيروت /١٩٦٩/ ص /٢١١/ .

٣١ - زكريا ... ص /٢٥٧/ .

٣٢ - راجع في هذا المجال : احمد وصفي زكريا : « عشائر الشام » .

٣٣ - المصدر السابق - ص /٢٦٧/ .

٣٤ - لمصدر السابق - ص /٢٦٨/ .

٣٥ - لمصدر السابق - ص /٢٦٦/ .

٣٦ - راجع نص القانون في : الشريف منير « القضايا الاقتصادية الكبرى في سورية ولبنان » دمشق /١٩٤٧/ ص /٣٨٧/ .

٣٧ - راجع الجدول التفصيلي في : « دليل الجمهورية السورية » دمشق /١٩٤٦/ ص/٣٨/وكذلك الشريف ... ص /٧٠/ نقلا عن كتاب وضعته المفوضية الفرنسية سنة /١٩٤٣/ ونشرته المصالح المشتركة.

٣٨ - الشريف ... ص /٧٠-٧٣/ .

الباب الثاني

الحياة الثقافية والسياسية

• نماذج من الحياة الثقافية «الروحية» للفلاحين وعامة المدن
• الأحزاب والتجمعات السياسية أيام الانتداب

١ ـ العوامل الرئيسية المؤثرة في الحياة الثقافية

تأثر المناخ الفكري والنفسي ومستوى ثقافة سكان الريف وعامة المدن في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بجملة عوامل رئيسية واخرى ثانوية اهمها :

١ ـ نظام ملكية الارض ، التابعة في معظمها للدولة اي للسلطان وولاته والجهاز الاقطاعي الحاكم . ان نظام الاقطاعية الشرقية هذا ، المتميز بعدم وجود طبقة اقطاعية ترث الاملاك وتورثها ، وخضوع هذه الطبقة الاقطاعية المقيمة في المدن لسيف المصادرة، الذي يلاحقها بعد اقالتها من مناصبها خلق جوا اخلاقيا معينا لدى الفئات العليا اتسم بالحذر والرياء والخديعة والكذب والغدر وحيك المؤامرات ... الخ .

وقد ادى وجود طبقة اقطاعية مستقرة فترة من الزمن ، كما جرى الامر فياوروبا الى انبعاث جملة ظاهرات طبعت المدن وريفهازمنالحكم العثماني،بطابع خاصواثرتفي طبقتي الخاصة والعامة . بما فيها القوى العسكرية حامية النظام . وقد اثر وجود القوى الاقطاعية الدائم في المدن الى جانب سكان المدن وفوق راسهم ، اثر فياسباغلون خاص على المناخ الفكري للسكان المكتوين يوميا بنار الارهاب العسكري الاقطاعي الشرقي وشروره واثامه .

٢ ـ العلاقات التجارية المتسمة بتبادل المواد الخام ، التي انتزعتها الطبقة الاقطاعية الحاكمة من منتجيها كريع عيني ، بسلع الترف والابهة المستوردة من البلدان الاجنبية لتغذية عجرفة الباشاوات العثمانيين وسد حاجات حرمهم وحشمهم الى البذخ والترف وكل امر ليس له صلة بالانتاج الحقيقي .

ومع ان التجارة الداخلية وتبادل السلع بين المدن والقرى اخذ يتطور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، الا ان تطوره تراوح في مكانه ولم يؤد حتى نهاية القرن التاسع عشر الى تطور يخلق البذور الصالحة لنمو الراسمالية والانتاج الصناعي . اي ان الانتاج البضائعي البسيط تراوح في مكانه ولم يتطور باتجاه الانتاج البضاعي الراسمالي .

٣ ـ الصناعات الحرفية الطوائفية المبنية على العمل اليدوي وتنظيم الحرفيين في طوائف ذات تسلسل هرمي اسهم الى حد كبير في بلورة المناخ الفكري للعامة المؤلفة بمعظمها من طوائف الحرفيين فكان لكل طائفة حرفية تقاليدها وعاداتها الخاصة وسلوكها المعروف . وقد اسهم الوضع الاجتماعي والاقتصادي للحرفيين في دفعهم الى الانتظام في الطرق الصوفية ، التي عرفت ازدهارا ملحوظا في هذه الفترة . ولكنه ازدهار بالمعنى التراجعي للكلمة وليس بمعناها التقدمي الثوري . فصوفية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر صوفية جامدة مغلقة على نفسها ليس فيها الا الاساطير والخرافات وكانت كل طائفة حرفية تربط نفسها بولي وطريقة صوفية وتساهم في احياء حفلاتها الدينية . هذا الجو الفكري الصوفي المتزمت المتخلف للحرفيين هو في الواقع نتاج الركود الاقتصادي وبقاء المدن العربية تعيش حياة ساكنة راكدة عديمة التطور والحياة بسبب سيطرة النظام الاقطاعي الشرقي العثماني ، وعدم تمكن النواة البورجوازية من التطور والانطلاق .

ولهذا بقيت الطرق الصوفية مسيطرة على اذهان الجماهير في المدينة والريف ، على الرغم من صيحات حركة الاصلاح الديني الاسلامي في اواخر القرن التاسع عشر ، ذات المحتوى البورجوازي .

٤ ـ التراث القومي والديني ومايضم في ثناياه من عناصر ثورية نيرة واخرى رجعية متزمتة . وقد ادى التخلف الاقتصادي والركود الفكري الى قيام « رجال الثقافة » المتخلفين بالالتجاء الى الجوانب السلبية الرجعية المتزمتة من التراث والاعتماد عليها لتبرير الاستثمار الاقطاعي العثماني وتخدير عامة المدن وفلاحي الريف وصرفها عن النضال الثوري ضد مستثمريها . ومع ان مسيرات الطرق الصوفية اصطدمت

في كثير من الاحيان مع الطبقة الحاكمة عندما كانت مصالح الحرفيين معرضة للخطر الداهم ، الا ان الطرق الصوفية في القرنين الثامن والتاسع عشر لم تؤد دورا ثوريا عارما ، كما كان الامر عند نشوء بعض هذه الفرق . ولجات الطبقة الحاكمة العثمانية الى استغلال الطرق الصوفية ووضعها في خدمتها والسيطرة عن طريقها على الجماهير واخضاعها فكريا لنفوذها . فالصوفية ، التي كانت في كثير من الاحيان احتجاجا على النظام الاقطاعي الشرقي القائم اخذت تتحول احيانا الى اداة في يد هذا النظام لعرقلة التطور وبقاء التخلف والتحجر سائدين .

٥ – اثر الفكر البورجوازي الاوروبي بتياراته المتنوعة تاثيرا واضحا في العناصر البورجوازية الناشئة في الشرق العثماني . ومع ان تاثيره كان واضحا وجليا في المثقفين المستنيرين ، الا ان هؤلاء لم يكن بامكانهم ان يتغلغلوا في قلوب العامة ، باكثريتها الغالبة ، ويسيطروا على تفكيرها . واقتضى الامر فترة من الزمن الى ان شرع المثقفون المستنيرون في الربع الاخير من القرن التاسع عشر في حمل بعض الوية التطور البورجوازي مستعينين في مقارعة الرجعية الفكرية والسياسية بالرجوع الى الجوانب الثورية التقدمية من التراث ، والدعوة الى نبذ الجوانب السلبية او الجامدة التي تكرس التخلف الاقطاعي وتحد من التطور البورجوازي .

وقد اتهم رجال التنوير بدمشق بالوهابية احيانا (١) وبالماسونية ، التي دخلت دمشق سنة / ١٨٦٤ / احيانا (٢) اخرى ، والوهابية من جهة والماسونية من جهة اخرى كانتا الملاذ الامين للمثقفين البورجوازيين في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين .

وعندما اطل التطور البورجوازي براسه على المدن الشامية العثمانية كان منذ ولادته مهيض الجناح ، لان حملة لواء هذا التطور تالفوا في البدء من الفئات التجارية التي لم يكن بامكانها التصدي للطرق الصوفية والوقوف امام سيلها الجارف اذ ان كل محاولة بورجوازية لمقارعة الاقطاعية ورديفها الفكري الطرق الصوفية بمضمونها المتخلف المتزمت اتهمت بانها هجوم من المعتقدات الدينية . ولم تبدا المقاومة البورجوازية الجدية للفكر الاقطاعي ، الا عندما بدات قوى التنوير المتاخرة المتمثلة بجمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده ورشيدرضا بمقاومة الفكرالمتخلف .

حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وبالتحديد حتى مجيء الحملة المصرية كان الفكر السائد بين عامة المدن وفلاحي الريف هو الفكر الصوفي بتياراته المتخلفة الجامدة المتلائمة مع النظام الاقطاعي العثماني . وبعد الحملة المصرية ونتيجة عوامل متعددة اخذ الفكر البورجوازي يشق له طريقا بين الفئات المثقفة المستنيرة ولهذا لابد من اجل فهم تحركات العامة وانتفاضات الفلاحين وتململاتهم من الاطلاع على فكرها وعاداتها واخلاقها ونفسيتها حتى يتسنى لنا الا حاطة بكل ماكان يتجاذبها او يعتمل في صدورها . ويأتي في طليعة ذلك معالجة الطرق الصوفية ، التي كانت بمثابة احزاب العامة في ذلك الزمن ، ومجالها الاساسي في التنفيس عن كربتها واحزانها وهمومها ، وفي دفعها الى الثورة والتمرد او الخضوع والاستسلام .

٢ ــ طرق الصوفية

بلغت الصوفية اوجها (٣) في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، حيث ظهر عدد من كبار المتصوفة ، الذين تركوا اثرا واضحا في بلاد الشام والمشرق العربي عامة . واشهر المتصوفة ، الذين خلدت طرقهم في بلاد الشام هم : عبد القادر الجيلاني (ب ٥٦١ هـ) عمر بن الفارض والشيخ عبد الغني النابلسي (ب ١١٤٣ هـ / ١٧٣١ م) ، الذي شرح ديوان ابن الفارض واوغل في التفسير والتأويل . ولا تزال اقوال الشيخ عبد الغني وكراماته تتردد اصداؤها في الاوساط المتأثرة بالصوفية . وكذلك محي الدين بن عربي الذي اثار مذهبه اختلافا كبيرا في الاراء ، وجلال الدين الرومي وغيرهم .

في أيام الحكم العثماني ، أصاب الفكر الصوفي ، التخلف والانحطاط ، وتحول الى فكر سطحي متزمت ولكنه ادى حاجة ملحة تتناسب مع ظروف حياة الجماعات وعهد الفوضى والاضطراب والقلق السائدة انذاك . وكان انتشار تيار الصوفية وحلقاتها المتعددة وفرقها الكثيرة الوجه الآخر لمتطلبات المجتمعات العثمانية الاقطاعية الشرقية والحرفية .

وكان انتشار الفرق الصوفية على نطاق واسع ودخولها الى اعماق جماهير المدينة صدى للاحتجاج غير المباشر على نظام الحكم السائد آنذاك ، ومظهرا من

مظاهر الحياة الحرفية وحاجتها الى التكتل والدفاع عن مصالحها المهنية والمعاشية والحياتية ، وقد قامت هذه الجماعات الحرفية بتحويل المفاهيم الصوفية العقلية والروحية الى تعبيرات عملية واسس اخلاقية تسير حياتها الاجتماعية ، متبعة في ذلك تقاليد معينة وهي تمارس رياضة نفسية خاصة تحت اشراف شيوخها المحليين (٤) .

ويمكن القول الى حد بعيد ، ان فرق المتصوفة كان لها دويلاتها الخاصة بها في اطار الدولة العثمانية واحيانا خارج اطارها . فمواكب المتصوفة في شوارع وازقة القرى وولائمهم في البيوت واجتماعاتهم في المساجد والزوايا ، وتغلغل نفوذهم في المدن والقرى وامتداد سلطانهم الى مختلف فئات الشعب وتسربهم الى تصور الحكام والاغنياء . وقد زادت دويلات الطرق الصوفية من عروشها بالايمان وبما لها من سلطان في قلوب العامة وقسم كبير من الخاصة . وهذا مادفع توفيق الطويل الى القول « ان دولة الفقراء الصوفية كانت اثبت قدما واعظم نفوذا واقوى سلطانا من دولة بني عثمان (٥) » .

ولا شك ان نظام الاقطاعية الشرقية في عصوره الاخيرة ، وما ساده من ظلام وجهل وشدة وفقر وفوضى وقهر وظلم وعهر اسهم في ثبات دويلات الطرق الصوفية ورسوخ قدمها وشيوع تعاليمها بين الناس . ووصل الامر ببعض فرقها وخاصة الدراويش والمجاذيب – أو من تظاهر بالجذب لتغطية اهداف اجتماعية او سياسية – الى الضرب عرض الحائط باعراف البلاد وتقاليدها وحتى بدينها . ومن هذه الزاوية يمكن فهم بعض جوانب الصوفية بانها تعبير عن الاحتجاج على المجتمع الطبقي القائم ، بغض النظر عن الوسائل المتبعة في هذا الاحتجاج .

كانت اهم الطرق الصوفية التي انتشرت في مدن بلاد الشام وقراها هي (٦) .

١ – البكتاشية ، التي تغلغلت في صفوف الانكشارية .

٢ – المولوية ، التي اشتهرت بحفلاتها الدينية في التكايا والزوايا ، حتى اطلق عليهم اسم الدراويش الراقصين .

٣ ـ النقشبندية ، التي تعتبر نفسها اقرب الطرق واسهلها على المريد للوصول الى درجات التوحيد . هذه الطرق الثلاث لم يكن معترفا بها من الطرق الرئيسية الاربعة الصوفية وهي :

٤ ـ الرفاعية ، التي لمعت مع وصول احد مشايخها الى قصر السلطان عبد الحميد في اواخر القرن التاسع عشر ، وهو محمد ابو الهدى الصيادي منخانشيخون الى الجنوب من حلب وقد مثل الصيادي الجانب الرجعي من الصوفية ووقف في وجه حركة التجديد الاسلامي وقام بنشر عدد من الكتب الموضحة والمفسرة للطريقة الرفاعية(٧) . وسننشر طقوس هذه الفرقة من معرة النعمان في مقطع خاص .

٥ ـ الجيلانية او القادرية ، التي ظهرت في بغداد واحيط مؤسسها بهالة من التقديس والاساطير . وكان لها امتداداتها الواسعة في الريف السوري . ففي حماه ظهرت الكيلانية وفي البقاع القادرية وفي حوران الزعبية ، التي كان لها دور في الحياة الاجتماعية والسياسية في جنوب بلاد الشام (ارياف حوران والاردن وشمالي فلسطين) . وهذا ما سنعالجه في مجلد لاحق .

٦ ـ البدوية ، التي لاقت رواجا كبيرا في مصر ، ولم تنتشر انتشارا واسعا في بلاد الشام .

٧ ـ الدسوقية ، وظهرت في مصر ايضا ، وانتشرت في بلاد الشام وينسب اليها كثير من الخوارق .

٨ ـ بالاضافة الى هذه الفرق عرفت الشام أيضا السعدية والجباوية وغيرهمامن الفرق التي كانت في الواقع أحزابا للعامة وفق مفاهيم ذلك الزمن . وسنرى في مجلد لاحق ا ن الفلاحين استخدموا الاولياء لاخافة البدو ومنعهم من مهاجمة القرى ،فيوقت لم يكن للدولة تواجد حقيقي في الريف الا في ميدان جمع الضرائب وفرض الغرامات .

٣ ـ رجال الصوفية واعيان العصر

مع أن الانتاج الفكري للحضارة العربية اخذ بالهبوط منذ القـرن الثالث عشـر الميلادي ، الا أن بعض ومضات هذه الحضارة ظهرت هنا وهناك في القـرون التالية . ولكن مع مجيء القرن الثامن عشر امست الارض الفكرية العربية في بلاد الشام قاحلة الا من بعض الاشواك الجافة ذات المذاق المر ، واستمر الامر على هـذا المنوال فـي النصف الاول من القرن التاسع عشر ، ثم اخذت ، بفعل العوامل المذكورة آنفا ، بعض الاعشاب النافعة والازهار اليانعة بالظهور والتفتـح في خضم ذلك المحيط القاحل القاتل . واخذ الصراع يشتد بين القديم والمهتم بتوافه الامـور والمعتقد بالخرافات والاساطير وبين الجديد الساعي الى احياء التراث الحي والى اقتباس من الحضارة البورجوازية الناهضة في اوروبا .

ارّخ فكريا لهذه الفكرة عدد من الدمشقيين والحلبيين المهتمين بتاريـخ حلب «الشهباء» تناول فيه سائر رجال الدين ومشايخ الطرق واصحاب الكرامات بتفصيل زائد . وتعليقا على صدور كتاب الطباخ كتبت مجلة المجمع العلمي العربي ذات الاتجاه المستنير قائلة ان الطباخ « ترجم للمجاذيب ولكرامات المغفلين والمطنبر والعاشق والمعمار ممن عدهم في العوام(٨) » وتعليق مجلة المجمع العلمي العربي المستنيرة هـو احتجاج على نشر فكر متخلف جامد من بقايا عصر الانحطاط .

٤ ـ حركة التنويـر

في ذلك الجو الفكري السقيم كان من الطبيعي « ان تقل » كما قال القساطلي سنة ١٨٨٠ : « بضاعة المعارف لرواج بضاعة السيوف والعصي(١٠) » وفيما عـدا بعـض المدارس الضئيلة والمقتصرة على العموم على بعض ابنـاء الميسورين ، فان فرص التعليم المحدودة اقتصرت على الجوامع والزوايا والخوانق والكتاتيب .

ومع ان عدد المدارس في دمشق وحلب بلغ ٣٠٠ مدرسة ، الا ان « الجهل قضى على تلك المدارس واكل المتولون اوقافها فخربت » كما « استحلوا امـوال المـدارس والمعابد » و « استقل بعض ارباب النفوذ بالاوقاف (١١) » .

وتعويضا عن المدارس المندثرة قامت الكتاتيب ، التي اشرف عليها مشايخ الكتاب وهم اناس اقرب الى الامية منهم الى المتعلمين ، « وكانت وظيفتهم الرئيسية تعليم الاطفال قراءة القرآن بأجر زهيد (١٢) » .

أما الزوايا ، التي كثرت مع كثرةالطرق الصوفية ، وكانت مركزا لاقامة الاذكار والخوانق والرباطات (التكايا) فلم تلامس من المعرفة الا جوانبها السطحية . وندر ان درس كتاب ذو قيمة فيها ، واذا درس كتاب فيها ، كما جرى تدريس كتاب « الشفاء» لابن سينا في تكية السلطان سليم(١٣) ، فلن يطول امر هذا التدريس اذ سرعان ما يعم الظلام والتجهيل بسرعة غريبة(١٤) .

مثل الشيخ طاهر الجزائري(١٥) في دمشق وعبد الرحمن الكواكبي(١٦) في حلب الاتجاه المستنير داخل الاكثرية العامة ، وعبرا عن آمال الطبقة الوسطى ذات التفكير البورجوازي ، وساهما مساهمة واضحة وبخاصة الجزائري ، في خلق تيار فكري سياسي كانت له آثاره البعيدة في اعقاب الحرب العالمية الاولى وبعدها . وقد واجه هذا التيار مقاومة ضارية من التيار الرجعي .

والى جانب الجزائري لا يمكن اغفال اسماء الشيخ عبد الرزاق البيطار وجمال الدين القاسمي والشيخ سعيد الباني وصلاح الدين القاسمي والشيخ عبد القادر بدران . ويقيم الاستاذ زهير ناجي الشيخ عبد القادز بدران تقييما عاليا وبخاصة لانه فلاح من دوما . ويقول الاستاذ ناجي ان الشيخ بدران كان في طليعة المحاربين للبدع والخرافات وأصحاب الطرق الصوفية . ولعل الشيخ طاهر كان مستنيرا فقط أما الشيخ عبد القادر بدران فكان مستنيرا ثائرا . وفي الوقت الذي كان الشيخ طاهر اقرب الى ممثل للبورجوازية الطامحة الى السلطة ، فان الشيخ بدران كان ممثلا للفلاحين والعوام والبورجوازيين الثوريين المطالبين بقلب المجتمع .

ولكن الشخصية الدينية المتنورة ، التي انتقلت من محاربة البدع والخرافات الى الدعوة الى المساواة الاجتماعية ومقارعة الاقطاعية والاستثمار الاحتكاري الراسمالي فهو الشيخ عثمان زكي اليوسفي من معرة النعمان ، الذي سنتحدث عنه وعن بدران في نهاية هذا المجلد .

٥ — روحانيات الفلاحين وفروسيتهم والعابهم ضرورة تاريخية

روحانيات العامة غزيرة وبحاجة الى كتاب خاص ودراســة مستفيضة . وليس هدف هذا البحث الا تقديم بعض النماذج عن هذه الروحانيات لاخذ صورة اوضح عن الجو الروحي للعامة بما يساعد في فهم تحركاتها وهياجها من جهة أو ركودها واستكانتها من جهة أخرى . وروحانيات العامة هي مرآة صادقة للمجتمع الاقطاعي الشرقي المتخلف في الشرق ، الذي لم تتمكن قواه الثوريــة من نقلــه الى مجتمع متطور كما جرى في الغرب . ولهذا فان هذه الروحانيات عكست الجوانب المتخلفة لذلك المجتمع الاقطاعي الشرقي من جهة ، والتيارات الثورية المعتملة في قلب ذلك المجتمع من جهة اخرى .

ان العلاقة تبــدو وثيقــة بين التأثيرات المتبادلــة للبنيتين التحتيــة « العلاقات الاقتصادية الاجتماعيــة » والفوقية « الفكــر والايديولوجيا » فروحانيات العامة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تكيفت وتوافقت ، شأنها شأن الايديولوجية ، مع ضرورات المجتمع الراكد والمتصف بقمع الفئة المستثمرة للمنتجين الحقيقيين .

وقد مثلت الفئة العليا من رجال الدين ايديولوجية عصور الانحطاط الاقطــاعي الشرقي ، وكانت هذه الفئة تلجأ الى تلفيق الخرافات والاساطير والبركات واقــامة المزارات لكي تبتز اكثر ما يمكن من المال . وقد لاقت هذه الفئة نجاحــا باهرا ولمــدة طويلة من الزمن .

اما الفئات الفقيرة من رجال الدين ، التي انحدرت من الفلاحين أو عامة المدن فانها كانت اقرب الى حياة الجماهير وتعاطفت معها وأمدت حركة العامة وتململاتها بالمنظرين الفكريين لتحركاتها ، وكــون هؤلاء ، جزءا من المعارضة الثورية للاقطاعية الشرقية ،

ولهذا فان الاطلاع على روحانيات العامة يكشف لنا الوجهين المتناقضين للمجتمع الاقطاعي الشرقي : وجه الفئة المستغلة المستثمرة من الحكام وأعوانهم ، ووجه الفئات الاجتماعية المستثمرة المستغلة المنهوبة من جهة اخرى . وكثيرا ما اختلطت الاوجه وامتزجت الصور لدى انعكاسها في روحانيات العامة التي نحن بصددها .

وانسجاما مع البنية الاقتصادية الاجتماعية المتخلفة اتصفت روحانيات العامــة بالتخلف في الشكل والمضمون . ومع اهمال العلوم شاع الجهــل بين الناس وعششت

السذاجة في رؤوس العامة والخاصة وبدت في ضعف التحليل لظاهرات الطبيعة والمجتمع . فاذا أصاب البلد القحط او دهمه الجراد او حلت به الاوبئة (الطاعون والكوليرا) والامراض او ضربة الزلازل ، او اذا نزل بالبلد عدو داخلي او خارجي ، نرى الحكام وقادة العامة الفكريين في ذلك الزمن يتجهون الى التماس زوال هذه الظواهر بالادعية والاوراد والصلوات واقامة الذكر واخراج « السيارة » لكي تزايلهم هذه الشدة . كما ان مختلف تسليمات العامة رمت الى تخفيف وطأة الشدة سواء من الطبيعة او من النظام الاجتماعي السائد . ومن خلال هذا المنظار يمكن فهم كثير من روحانيات العامة وفروسيتها والعابها .

ومن الالعاب المشهورة في ذلك العصر لعبة السيف والترس ، التي تبدأ حبية مسالمة وتتحول في بعض الاحيان الى خصام دموي بين اللاعبين ، واحيانا بين المتفرجين الذين ينضمون الى احد اللاعبين . ولهذه اللعبة مراسم خاصة لا يمارسها الا من تخرج من مدرسة اللعب(١٧) .

ومع العاب الفروسية العملية هذه كانت العامة تعيش مع الفروسية في الخيال عن طريق روايات الفروسية مثل : سيرة عنتر ، وقصة الملك الظاهر ، وقصة ابي زيد الهلالي والزير ابي ليلى المهلهل . وكان رواة هذه القصص ذوي خبرة في اثارة مشاعر العامة والهاب خيالها وارضاء طموحها . وهذا ما قامت به ايضا وبصورة افضل لعبة « خيال الظل » أو « كراكوز » التي تضمنت نقدا لاذعا وتهكما صارخا ضد السلطة العثمانية ومؤسساتها(١٨) . ويذكر كرد علي أن « خيال الظل » كان من أشد العوامل تاثيرا في تهذيب الاخلاق وتقويمها ،بما يلقيه اساتذة الفن المشهور على السن تلك الخيالات من المواعظ الاخلاقية ، بعبارات ملؤها النقد . وكانوا يصورون في كلامهم العادات السيئة المتفشية في المجتمع ويتناولونها بالتجريح بصورة تنفر منها النفوس.

كما صوروا ظلم الحكام واصحاب النفوذ واغلاطهم . في صور نقد لطيف . وفي الحقيقة لم تكن سائر تمثيليات خيال الظل من المستوى الرفيع ، بل ان بعض هذه التمثيليات كان من النوع الرديء المليء ، كما ذكر جرجي زيدان ، وبالفحش وسوء الادب(١٩) . وهو بذلك يمثل مشاعر احط فئات المجتمع من العامة الرثة ، في حين

عبرت تمثيليات خيال الظـل الجيـدة عن مشـاعر العامة وتطلعاتها الى العيش بهناء وسـرور واحتشـام .

وكان الاحتفال بالاعراس احد مظاهر تسلية العامة والترويح عن نفسها . ومن العادات المتبعة آنذاك عادة « تهريب » العريس أو العروس وحجبهما لفترة من الزمن عن الانظار ، دفعا للاصابة بالعين ، فيختبيء ويعود . ويقول الفار انه يختفي لئلا يغار منه ملك الجان فيؤذيه . وقد تكون علة هذه الخرافات أنهم ، في أيام الفوضى تلك ، كانوا يخافون على العروس لئلا يفتك بها أحد الظالمين من الاغوات الانكشارية أو غيرهم مـن المتسـلطين .

وبسبب تراجع الطب ، الذي ازدهر في عصر ابن سينا والرازي ، وافتقار الناس الى العلاج والدواء ، برز مشايخ الطرق ومن لف لفهم « لشفاء » المرضى عن طريق الاتصال بالجن وتسخيرهم في خدمة الشيخ ، وبهم يشفي المرضى ويقضي حوائج من قصده ، من الناس بحاجة . وكانت زيارة الاضرحة والتبرك بالاولياء أو القديسين هي الملاذ الوحيد للخلاص من الامراض أو العاهات ، وهكذا امسـت مقامـات الاوليـاء والاديرة مراكز لتجمع الفلاحين البائسين الباحثين عن الشفاء والخلاص من العاهات .

وكان لرجال الدين في ذلـك الحـين ادعيـة خاصة لشفاء المرضى ، كمـا كان لمشايخ الطرق اوراد وتسابيح تحمي حافظها او قائلها من نائبات الدهر ، وكـان ذلك امرا طبيعيا في وقت خضع فيه الانسان خضوعا شبه كامـل للطبيعة وعواملها . وكان لابد للانسان المجرد من سلاح العلم والمعرفة من غذاء روحي يفرج كربه ويشحذ عزيمته ويلطف جو الحياة السقيمة الخشنة المحيطة به ، وقد أورد البديري مـؤرخ دمشق في منتصف القرن الثامن عشر أحد الادعية الخاصة بطرد المخاوف أيام السفر ، في وقت كثر فيه السلب والنهب والتشليح ....

٦ ــ مراسم الاذكار وعلاقتها بالحركة الفلاحية

وهي احدى الوسائل ، التي لجات اليها العامة ، للبحث عن طريق النجاة في الدنيا والآخرة . وبسبب جهل العامة وانعدام ثقافتها كانت حفلات رجال الطرق الصوفية ومراسم الاذكار ، وما يتبعها خير وسيلة لتنظيم شؤون العامة والدفاع عن بعض حقوقها

وادخال الطمانينة الى قلبها وضمان امور دينها ودنياها . وكانت الطرق الصوفية ، وما يتبعها من مراسم واحتفالات حاجة ماسة في مجتمع تسوده الفوضى وتنعدم فيه السلطة الحقيقية والقوانين الضامنة لارواح الناس وحقوقهم .

هذا المبدأ الصوفي للصوفية داخله مع الزمن العبث بالغايات الحقيقية من هـذه الاذكار وامسى رجال التنوير من المتدينين في مستهل هذا القرن ينادون بازالة معالم الطرق الدخيلة والاكتفاء في حفلات الاذكار بذكر الله تعالى بأدب وهـدوء . ووجدت طلائع مثل عبد القادر بدران نادت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بالغاء حفلات الاذكار . وفي منتصف القرن العشرين تجرأ عدد أكبر من المتنورين ونادوا بالغاء حفلات الاذكار نهائيا ، وتم لهم ذلك في منتصف هذا القرن (١٩٤٩) .

ولا يخفى ان المستعمرين الفرنسيين كانوا يشـجعون الطـرق الصوفيـة ويحضرون حفلاتها باستمرار وينفقون على بعض شيوخها . والمعروف ان المستشارين الفرنسيين كانوا زبائن دائمين على حلقات المولوية بدمشق ،وكلما اتى وفد اجنبي كانوا يصطحبونه للفرجة عليها ولاثبات تخلف الشعب وضرورة الاستعمار .

ونحن المؤرخين للحركة الفلاحية ، كمؤرخين للسواد الاعظم من شعبنا ، الـذي عانى ضروب الاضطهاد والاستعباد والاستثمار قروناطويلة ننقل ما نشره توتل للوصول الى اهداف مغايرة لها أراده توتـل .. فالايديولوجية الاستعمارية المتحالفـة مع ايديولوجيات ما قبل عصر الراسمالية والمرممة لبنيانها المنهار رمت الـى ترسيخ التخلف والجهل والظلامية لكي تستطيع الامعان فياستثمار الشعب وفرض سيطرتها . عليـه

ونحن ، المنادين بالتحرر القومي والاجتماعي والطامحين الى بناء المجتمع العربي الاشتراكي الموحد ، ننظر الى القضية من وجهة نظر مخالفة بل متناقضة لوجهة نظر الايديولوجية الاستعمارية النافخة المرسخة للايديولوجيات المحتضرة ، التي تجاوزها الـزمـن .

نحن نعتبر مانمثله من طموح الىالتحررالقوميوالاجتماعي امتدادا تاريخيالحركة التنوير والنهضة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القـرن العشرين .

فالايديولوجية الثورية العربية في النصف الثاني من القرن العشرين هي وريثة الصفحات النضالية لرجال النهضة في بلاد الشام من الكواكبي وطاهر الجزائري الى الشيخ عبد الرزاق البيطار والقاسمي والشيخ سعيد الباني . واذا دخلنا في العمق الثوري فان تيارا دينيا ادرك عمق القضية الاجتماعية وارتباطها الوثيق بمختلف القضايا . ومن هؤلاء الشيخ عبد القادر بدران الفلاح الدوماني ، الذي لم يكتف بمحاربة البدع والخرافات بل تطلع الى تحرير الفئات المضطهدة المظلومة . وفي ثلاثينات واربعينات هذا القرن ظهر في معرة النعمان الشيخ عثمان زكي اليوسفي ، الذي سار خطوات اعمق في ميدان الدعوة الى مقاومة البدع والخرافات والتحرر من النظامين الاقطاعي والراسمالي .

والغرض الاساس مما اقتطفناه عن طرائق الصوفية :

ـ فضح السياسة الاستعمارية وتعرية احابيلها في تشجيع الطرق الصوفية من جهة واستغلالها اداة لتوطيد حكمها من جهة ثانية وبالتالي ابقاء النظام الاستعماري والاقطاعي نظاما مسيطرا سائدا .

ـ القاء الضوء على نوعية مستوى ثقافة الفلاحين وسواد الشعب في عصر سيادة العلاقات ما قبل الراسمالية وتحديدا في زمن انتشار الايديولوجية الاقطاعية بمظاهرها المتعددة والمتنوعة . والانطلاق من هذا الضوء الى السعي لتحرير السواد الاعظم من الشعب من بقايا الايديولوجيات ما قبل الراسمالية التي يطلق عليها احيانا العقلية العثمانية . ولا يخفى ان هذه الجوانب التراثية ،التي ظهرت في عصور الانحطاط والانتقال الى العلاقات الاقطاعية الشرقية ، لاتزال جذورها على قيد الحياة في اذهان جماهير واسعة ، وحتى على صعيد الممارسات العملية لاتزال هذه العقلية العثملية تظهر هنا وهناك وباشكال وصور مختلفة ومتنوعة .. ومن هنا تنبع ضرورة القاء الاضواء على هذه العقلية بهدف التحرر منها والسير بالمجتمع في طريق التطور الحضاري والتقدم الاجتماعي ...

«السيارة» و «الدوسة» وغيرهما باب من ابواب التعبير عن فروسية العامة وتسليتها

ان اخبار العامة وافراحها الممزوجة باحزانها ولهوها وحياتها الدينية والقومية ، ان جاز التعبير ، متناثرة في كتب معاصري ذلك الزمن ، فالاستماع الى الحكواتي يتلو قصة عنتر او الزير او علي الزيبق ونيروز شاه ... الخ وحضور روايات خيال الظل ولعب الضومينو أو الضاما أو الطاولة أو الكاب ودك وعمي عميش ، والسماع الى نوبه بجق باش او قطر ميز ، وشرب التتن في الفليون او التنباك في النارجيله مع القهوة في المقاهي او في البيوت ، والتفرج على مواكب الوالي وكبار الحكام ، او مواكب الطرق الصوفية وتظاهراتها بما عرف بـ « السيارة » وحضور الاعراس والاشتراك في عراضاتها ومشاهدة العاب الفروسية .. كانت من السمات الروحية لذلك العصر .

كانت مواكب المشايخ اصحاب الطرق ومؤيديهم ومريديهم لزيارة الاضرحة المعروفة لمشاهير الزهاد والاولياء في ايام معينة من السنة احدى التسليات المهمة للعامة . وهذه المواكب المعروفة بالسيارة كانت تبعث الرضى والاطمئنان في قلوب المشاركين فيها . وكان ترتيب موكب السيارة كما وصفة العلاف كمايلي (٢١) : تقوم طائفة من المريدين لشيخ الطريقة الصوفية بالسير في المقدمة صفوفا مؤلفه من خمسة اشخاص او اكثر يلبسون طواقي ملونه بالاخضر والاحمر وعليهم اردية مثلها غالبا ووظيفتهم اثناء السير ان يذكروا الله في سيرهم جهرا . وخلف هؤلاء يسير حملة المزاهر وهي نوع من الدفوف تعطي صوتا بالقرع ليها ، يقرعونها بلطف وترتيب وهم يسيرون أيضا صفوفا وبينهم حامل اللواء الكبير « السيارة » له أطراف تنتهي بقطع من الحبال الرفيعة يمسك باطرافها بعض المريدين من المتورعين على مسافة من حامل اللواء لمساعدته في نشر اللواء وعدم عبث الرياح به . وبعدهم يأتي حامل الطبل الكبير وضارب الخليلية ، وهي عبارة عن صفحتين من النحاس ، يتبع الايقاع عليها حسب ضربات الطبل ، أو ان الطبل يتبع ضرباتها . ثم يأتي شيخ الطريقة راكبا على فرس ولابسا عمامه شيوخه الاوائل ، التي ورثها عنهم . وحوله عدد من المريدين حاملين اعلاما صغيرة كتبت عليها بعض الآيات القرآنية، كما ان لعلم الكبير ملون بقطع مختلفة كتبت عليها أيضا الايات الكريمة.

وخلفهم فئة المريدين من الشباب يحملون نقارات صغيرة يضربون عليهما . وخلف هؤلاء بقية المريدين والمشترين من بقية رجال الطرق .

هذا المركب المعروف بـ « السيارة » ينطلق من مقر زاوية الشيخ ، التي تقام فيها حفلات الذكر وتدرس فيها تعليم الطريقة الصوفية ، متوجها الى اقرب الاضرحة ثم الى ضريح اشهر مشايخ الطرق من أولياء الله ، حيث يزداد التهليل والتكبير ، واخيرا يعود الموكب الى مقره .

وكثيرا ما تجرى مراسيم « الدوسة » في اثناء الموكب حين ينكفىء الرجال من على وجوههم جنبا الى جنب ويسير الشيخ بفرسه فوق ظهورهم وسط التكبير والتهليل وهم لا يشعرون بشيء واذا احس احدهم بالم وجهر بمشاعره فيتهم في ايمانه ، ولذلك لايتجاسر الى الاعلان عن الم اذا شعر به .

ان مواكب « السيارات » ذات جذور صوفية ، ولكننا ادرجناها في باب تسلية العامة والترويح عن همومها ، لان هذه احدى نتائجها الرئيسة وفي تعبير عن حالة المجتمع الاقطاعي الشرقي في عصر الركود والتخلف .

٨ ــ مراسم الطريقة الرفاعية في معرة النعمان وقراها .

في عام ١٩٦٤ نشر في دمشق كتاب « تاريخ معرة النعمان » لواضعه محمد سليم الجندي الشخصية المتنورة المناهضة للاقطاعية . وقد قام الجندي وهو من عائلة معروفة في معرة النعمان بعد وصول ابو الهدى الصيادي ابن ريف معرة النعمان (خان النعمان وبخاصة بعد وصول ابو الهدى الصيادي ابن ريف معرة النعمان (خان شيخون) واحد شيوخ الطريقة الرفاعية الى استنبول في اواخر القرن التاسع عشر وتمكنه من احتلال قلب السلطان عبد الحميد وتوجيهه كما يشاء . ومع ازدياد سلطة الصيادي ، الذي اوقف كثيرا من الاراضي لآل الصياد وحرم الفلاحين منها كما سنرى ، ازدهرت الطريقة الرفاعية في عهد ابي الهدى الصيادي واستمرت فيالانتشار حتى منتصف القرن العشرين ، حيث اخذت جميع الطرق الصوفية بالتراجعوالتقوقع في جزر معزولة ، محاصرة بانتشار العلم والسيادة النسبية للتفكير العقلاني .

تعطينا قراءة انتشار الطرائق الصوفية ، وتعدد امراسمها ، صورة على ان روحانيات العامة هي مراة صادقة للمجتمع الاقطاعي الشرقي وتناقضاته ، التي تراكمت شرائحها بعضها فوق بعض على مدى قرون عديدة وعصور متنوعة عاشتها المجتمعات الشرقية ، كما عاشتها سائر المجتمعات باشكال متنوعة . ولهذا فان نشر ماكتبه ابن المعرة محمد سليم الجندي ـ عن مراسم احدى الطرق الصوفية في منطقة فلاحية اصيلة يقدم لنا نموذجا من نماذج الحياة الروحية للسواد الاعظم من شعبنا، قبل انتصار عصر التنوير والنهضة العربية .

ومن المتعارف عليه ان عصر النهضة العربية يمتد من منتصف القرن التاسع‌عشر الى مستهل القرن العشرين ، ولكن الصراع بين الافكار القديمة الجامدة . (ما قبل المجتمعات الراسمالية) والافكار الجديدة النهضوية المنفتحة استمرت حتى منتصف القرن العشرين ، وحتى يومنا هذا .

ومن هذا المنطلق فان نشر مراسم احدى الطرق الصوفية في كتاب مكرس لدراسة تاريخ الفلاحين .

ـ ضرورة فهم هذه المراسم الصوفية في سياق اطارها التاريخي والجو الذي وجدت فيه .

ـ معرفة بعض جوانب الحياة الروحية لشعبنا في عهوده الخوالي .

ـ تصور امكانات النضال الفلاحي والتطور الحضاري في ظل سيادة تلك الجوانب الروحية ، التي لاتزال بقاياها معششة هنا وهناك . .

والآن لنقرا ما كتبه الجندي :

« واصحاب الطريقة الرفاعية من اهل المعرة ، يخرجون في الغالب ، في زمن الربيع من كل عام ، الى زيارة الصياد ، بعد ان يعدوا العدد والاهب ، ويذيعوا ذلك » ثم يعينون يوما ، فيخرجون من الربط ، والزوايا ، وهم يضربون بالمزاهر ، والصفاقتين وينشرون الاعلام المنسوبة الى الاولياء ، والصالحين ، كعلم الرفاعي ، والجيلاني ، والصياد وغيرها ، فاذا بلغوا ربض المدينة ، امسكوا عن الضرب ، ولفوا الاعلام ،

وساروا مشاة وركبانا حتى اذا قاربوا قرية من القرى التي في الطريق ، او على مقربة منه ، خرج شيوخ تلك القرية ومن كان قريبا منها . لاستقبالهم . بالضرب بالمزاهر ، والطبول ، والصفاقات ، ونشر الاعلام . وقابلهم شيوخ المعرة . حتى اذا اقترب الفريقان حيا بعضهم بعضا ، ثم استداروا حلقة واحدة وتباروا في ضرب المزاهر والسلاح المعروف عندهم ، حتى تكل عزائمهم . ثم يسيرون معا ، او يودعهم شيوخ القرية ، فاذا مروا بقرية اخرى ، كان مثل ما كان في الاولى .

فاذا بلغوا رباط الصياد ، واستراحوا قليلا . توافدت مشايخ القرى القريبة . من الرباط وهم يضربون بالمزاهر ، وغيرها . فيخف لاستقبالهم شيوخ المعرة على نحو ربع ساعة ، ثم يعودون جميعا الى الرباط وهكذا . ثم يذبحون النذر ، والقرابين التي يجلبها اهل المعرة ، وغيرهم ثم بعد ان يطعموا العشاء ويصلوا العشاء ، يتحلقون حلقة واحدة في الايوان فيجلس الشيوخ المسمون بالخلفاء في الصدر . وامامهم الضاربون بالدفوف ، وغيرها . ثم يتسابقون في ذلك حتى تكاد المسامع تستك ، ثم يشرعون في ذكر الله على الاصول والنغمات المعروفة عندهم وهم جالسون ، ثم يقومون ويأخذهم الوجد ، ويريد كل شيخ ان يظهر مريدوه من البراعة في ضرب السلاح ، مالا يستطيع غيرهم ان يظهره . ويشتد الضرب وترتفع الاصوات . وتزبد الاشداق ، وتسمع من اصوات الذاكرين ، مالا يتفق مع ادب من يذكر الله . والله جليس الذاكر. اما السلاح الذي يتداوله اصحاب الطريقة الرفاعية ، ومنهم هؤلاء الزوار فله اسماء عندهم ، منها : السيف وهو معروف ، ومنها الشيش، وهو قضيب من حديد ،محدد الراس في اسفله كالدائرة ، وقد يكون غلظه اصبعا فأقل منها . وطوله قامة انسان ، وقد يزيد وينقص وهذا يدخلونه في البطون ، والصغير منه يدخلونه في البطون ، والخدود والاثداء ونحوها . ومنها الرحمانية ، وهي اطول من الشيش ، واغلظ ، ومنها الدبوس وهو اقصر من الرحمانية والغالب ان طوله لا يتجاوز ذراعا ، وله في راسه كرة كبيرة من خشب بقدر جمجمة الانسان ، فيها حبال من زرد من حديد، وراسه الثاني دقيق ، فاذا اراد الضرب ، فتله بين يديه حتى ينتشر الزرد الذي في راسه ، ويصير كانه دائرة من زرد ، ثم يرسله الى جهة السماء ، ثم يتلقاه بعينه او راسه ، او فمه ، او نحوه .

ومنها اللت ، وهو قضيب من حديد ، شبه الصفيحة ، يحمى في النار حتى يصير لونه كلونها ثم يطفئه الشيخ ، او المريد بلسانه .

وقد شهدت هذه الزيارة (اي كاتب هذا الوصف محمد سليم الجندي) نحو سنة ١٣١٧ هـ فصحبت الشيوخ من المعرة، الى المعرة، ورايت من اعمالهم مايضحك ويبكي ، فمن رجل يلحس النار او الحديد المحمى بلسانه ، حتى تطفأ ، وآخر بجا بطنه ، ثندوته بشيش ، وثالث يتلقى الدبوس بعينه ، او دماغه ، ورابع وخامس ...

والعادة عندهم ان المريد ، او التلميذ اذا اراد ان يضرب بالسلاح ، قدمه اولا الى شيخه فيرصده له ، ثم يطوف به على الشيوخ واحدا بعد واحد فيرصدونه ،

والرصد هو ان يمر السلاح بين شفتيه ، يبله بريقه ، فمتى فعل ذلك بطل تأثير السلاح في اعتقادهم ، بمعنى انه اذا دخل في الجسم وخرج ، لا يسيل الدم منه ، ولقد رايت في هذه الزيارة رجلا مسنا لم يبلغ درجة عالية من الطريقة ، اي لم يبلغ ان يكون خليفة ، فكان يعلي الدبوس الى سقف الايوان ، ويتلقاه بعينه ، واخرى بفمه، وثالثة براسه ، وكان يضرب غيره من المريدين في بطونهم ضربا يراه الرائي شديدا ، فلا يخرج منه دم . فاذا ضرب المريد نفسه ، ونزع السلاح من صدره او بطنه ، ثار الدم، او سال .

٩ ـ موكب ((السيارة)) وعيد الخضر في النبك (القلمون) نموذج من نماذج الحياة الروحية في الارياف :

لقد تعمدنا تقديم اكثر من نموذج عن المراسم الصوفية المتغلغلة في اعماق الجماهير الريفية والمدينية . وهذه النماذج ، التي اخترناها من حلب ومعرة النعمان والقلمون تقدم لوحات حية لاحد جوانب الحياة الروحية في الارياف ، التي لم يؤثر فيها ، في البدء هبوب رياح العصر الحديث ، اي رياح الثورة البورجوازية والتقدم الحضاري . فعلى الرغم من تأثر البلاد بالتحولات الاقتصادية ـ الاجتماعية الراسمالية ونمو الروح العقلانية في اوساط واسعة من المجتمع ونشاط رجال التنوير فان المراسم الصوفية بقيت تقاوم تحديات العصر واستمرت على قيد الحياة حتى

منتصف القرن العشرين . وتفسير ذلك ان تغلغل العلاقات الراسمالية في الريف لم يكن عميقا على مستوى جميع المناطق . ومادامت المراسم الصوفية هي احد افرازات المجتمعات ماقبل الراسمالية ، فان بقاء هذه المجتمعات يحتم بالضرورة استمرار بناها الفوقية . كما أن العادات والتقاليد المتأصلة في اذهان الجماهير منذ مئات السنين لا يمكن ازالتها بين عشية وضحاها بمجرد ظهور علاقات اقتصادية اجتماعية جديدة تتنافى مع مظاهر وسلوك العلاقات القديمة . ولابد من الاشارة هنا الى أن سلطات الاحتلال الاستعماري شجعت ، او على الاقل لم تقاوم ، المراسم الصوفية لانها وجدت في هذه الطقوس الدينية وسيلة من وسائل الهاء الجماهير وصرفها عن طريق النضال الوطني . وليس مصادفة ان الغاء المراسم الصوفية في الاماكن العامة تم عام ١٩٤٩ بعد مرور ثلاث سنوات على نيل الاستقلال الوطني .

ان ماسننقله عن وصف لموكب « السيارة » في النبك يقدم لنا جانبا من جوانب الحياة الروحية للسواد الاعظم من الشعب . ونحن لا يهمنا هنا الجانب الديني من هذه الطقوس ، بقدر ما يهمنا الجانب الاجتماعي والفكري المتمثل بمايلي:

ـ لقاء فلاحي عدد من قرى المنطقة حول ضريح ولي وتجمعهم مع بعضهم .

ـ انتقال الموكب من قرية الى اخرى واحداث ضجة او هزة روحية وما شابه .

ـ حمل السناجق والاعلام والضرب على الطبول والمزاهر والصنوج ، فيمايسمى « النوبة » .. واهم ما في النوبة هو « الطابق الحربي » ، الذي يهز المشاعر ويبعث الحماسة ويثير احاسيس مختلفة متنوعة لدى انسان لم يكن قد عرف بعد عالم الجرائد والاذاعة والتلفزيون و .. الفيديو صاحب السلطان الرهيب في هذه الايام .

الاناشيد !! اليست ذات مغزى خاص ؟ ..

ـ لعب « الشيش » اليس له مضمون ؟ .

ـ « الدوسة » المتمثلة بانبطاح الرجال على الارض ومرور فرس الشيخ فوق ظهورهم ، الا يمكن اعتبارها ضربا من ضروب « الفتوة » المعروفة في تاريخنا ، هذا بغض النظر عن عدم جدوى هذه « الفتوة » .. ومادام الانسان المحروم في المجتمع

الاقطاعي المملوكي والعثماني لم يكن يجد سبيلا للتعبير عن « فروسيته » و « فتوته » في ظل « الاستبداد الشرقي » ، فان الانبطاح على الارض ومرور فرس الشيخ فوق ظهره وادعاءه بانه لايشعر بالالم هو مظهر من مظاهر « الفتوة » الواقفة على راسها .

ان من يريد ان يدرس تاريخ الفلاحين وعامة المدن لايمكنه ان يهمل روحانياتها وبخاصة المراسم الصوفية . وما يثير اهتمام المؤرخ الفلاحي هو الظواهر الاجتماعية المرافقة والمتداخلة مع الطقوس الدينية . وهذه الظواهر هي ، في رأينا ، تعبير عن المشاعر المعتلجة في صدور الفلاحين وتنفيس عن همومها ومشكلاتها ، في وقت لم يكن بالامكان القيام بأي احتجاج مكشوف وسافر ضد القهر الطبقي للفئات المستغلة فكانت هذه التجمعات والمسيرات والالعاب نافذة للترويح عن الهموم والهروب من الواقع والتنفيس عن الطاقات الدينية بطرق صوفية . ولا شك ان الطبقات الحاكمة والمستغلة قامت بتوجيه هذه الطقوس او استغلالها في مسار يخدم استمرارية سيطرة الاقلية على الاكثرية ، وبالتالي الحفاظ على النظام الاقطاعي .

« عجائب الامس غرائب اليوم » عنوان كتاب نشره عام ١٩٣٦ موسى خنشت حول الحياة المادية والروحية لفلاحي القلمون في القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين . وفيما يلي مقاطع من كتاب خنشت حول المراسم الصوفية مما له علاقة بموضوعنا اي موكب « السيارة » وعيد الخضر في النبك . كتب خنشت :

بعد ظهر يوم عيد الفطر يتوارد الشباب على بيت مشايخ الطرق ، وياخذون في الضرب على الطبول والمزاهر والصنوج . وتحمل السناجق والاعلام ويركب الشيخ صاحب « السيارة » فرسا يقودها شاب ذو صوت جميل ينشد للشيخ وراءالسنجق اناشيد دينية . ويخترقون بـ « السيارة » ازقة البلدة وطرقها بموكب حافل تعلو فيه اصوات الرجال بالاناشيد والانغام المختصة بهذه الحفلة ، مثل « شيللاه احمد يارفاعي » او « موالي ياموالي ياموالي ابو العلمين سلطان الرجال » او « صلي ياربي وسلم عالنبي احمد المختار طه العربي » او « صياد ياصياد ياصياد والشيخ عبد القادر البغدادي » وغير ذلك من الاناشيد والاهازيج .

وكان بعض الشبان المسيحيين يشاركون الشبان المسلمين احيانا في تلك الحفلات

فيضربون معهم على المزاهر و « الخليليات » اي الصنوج . ويذهبون معهم لزيارة مقام « الغفري » خارج البلدة (اليوم يتوسط مقام الغفري ساحة مدينة النبك) وفي ظل جوزته المشهورة تشكل حلقة من الرجال الواقفين المتراصي الاكتاف المتلاصقي المناكب ، ويقيمون تحت شجرة الجوز ذكرا حافلا يذكرون به الله بلهجات وعبارات مخصوصة مثل « الله » و « الله حي » و « الله حي قيوم » لكل من هذه الادوار الثلاثة نغم او لهجة مختصة به ، يبدا بها الشيخ وهو واقف في وسط الحلقة حاملا بيده محجنه . فيلتفت الى اليمين مع انحناء قليل قائلا « الله » والى اليسار مرددا لفظ الجلاله . فيتبعه بذلك افراد الحلقة بالقول والميل والانحناء مؤلفين كتلةواحدة. ويأخذ الشيخ يسرع في لهجته وحركته رويدا رويدا . وفي اثناء ذلك ينشد ذوو الاصوات الجميلة اناشيد يوحدون الله ويمدحون بها النبي والاولياء . فيطرب بها الذاكرون وتأخذ بعضهم رعشة هي « نشوة الذكر » تبلغ حتى الغيبوبة والغشيان فترة قليلة. ويضرب المشايخ انفسهم وتارة خلائفهماي تلاميذهم بالسيوف .ويدخلون في بطونهم « الشيش » وهو نوع من النصال او الحراب المعدة لمثل هذه الحفلات . وعندما يستفيق المغشي عليهم من غيبوبتهم ، يبدا الشيخ بالدور الثاني قائلا « الله حي » فيلتفت الى اليمين قائلا « الله » ثم الى اليسار قائلا « حي » وكذلك في الدور الثالث يذكر وينحني ويميل كما يقتضي الحال .

ثم يعود الشبان الى حمل السنجق والاعلام والضرب على « النوبة » كما يسمونها وهي الطبول والمزاهر والصنوج . وينبطح الرجال حينئذ على بطونهم متلاصقين صفا طويلا ، ويقف الى جانبهم رجال على طول الصف، فيمر الشيخ بفرسه عليهم ، ويتبعه باقي المشايخ اقرانه . ويقوم الرجال بدون ان يصاب احد منهم بأذى وهذا ما يعرف باسم « الدوسة » او « الدعسة » .

وبعد الدوسة يعود الموكب من طريق اخر الى بيت شيخ الطريقة . حيثتوضع السيارة مع الطبول والمزاهر والصنوج الى عيد الاضحى للاحتفال مرة اخرى .

وكان يلاحظ ان النساء يسرن وراء الموكب . وكثيرا ما كانت النساء تقفن على السطوح او في نوافذ الطابق الثاني حتى يصل السنجق (السيارة) اليهن ، فتربط

احداهن منديلا باحد اطرافه طالبة الى الله الشفاء من مرض او الخلاص من مـازق حرج او غير ذلك .

وكانوا في النبك يحتفلون بأبهة بعيد الخضر (٢٣ نيسـان على الحسـاب الشرقي) وكان للخضر مقام عبارة عن جامع ومئذنة قديمة العهد مبنية من اللبن في أعلى مكـان في البلدة وكان هذا المقام مقدسا وينذرون له النذور الكثيرة . ولهذا المقام قيم او خادم يتصرف بما ياتيه من النذور . وعليه ان يقوم بكل ما يلزم من ترميم وتنظيف وانارة وما شابه ذلك ، وان يدعو كل سنة قبل حلول العيد بيومين او ثلاثة اهـل الحي ومشايخ ووجهاء البلدة الى تناول العشاء في مقـام الخضـر ليلـة عيـد الخضر والى اقامة الذكر بجامعه وكان القيم يدعو مشايخ يبرود وفليطة والمعرة وقارة ودير عطية من ذوي السناجق اي ابناء الطرائق .

وفي يوم العيد ياتي المشـايخ بسناجقهم واعلامهم « نوباتهم » ومعهم رجال ونساء لزيارة الخضر والتبرك ببركته . فيخرج مشـايخ النبك بسياراتهم أيضا ورجالهـم وهم يقرعون « نوباتهم » ويهجزون الاناشـيد الدينية الى ملاقاة الضيوف خارج البلد. وحينما يدنو هؤلاء ينزل المشايخ عن مطاياهم ويجثو حاملو النوبة على ركبهم ويأخذون في الضرب عليها « طابق حربي » كما يقولون اي ضربا مسـتعجلا .

وعندما ينتهي الطابق يقراون الفاتحة ويصافح بعضهم بعضا بالطريقة الخاصـة بهم . فيلاقي الشيخ زميله واضعا يده على كتفه ويتبادلان القبلات ثلاثا . وبعد انتهاء السلام يركب المشايخ خيولهم وتجتمع النوبتان فرقة واحدة ويسيرون امام سنجق الضيوف ، ووراء سناجق البلد ، والرجال حولهم يعدون بالمئات ويعودون أدراجهم بموكبهم الى مقام الغفري . فيزورون المقام ويعقدون تحت جوزته ذكرا . واحيانا كان الشيخ يشير الى احد مريديه فيأتي اليه عاريا الى اسفل الصدر ، بلا خـوف ولا وجل . فيصرخ الشيخ « ياجداه » ويدخل حربة في خاصرته حتى نصفها . ويأتي بحربتين . ويأخذ المضروبون على هذا النمط يخطون خطوات منتظمة ويميلون يمنـة ويسرة في وسط الحلقة ، متبعين حركة الذكر ، ويذكرون اسم الله مع الذاكرين ،غير مبالين بالنصال او الحراب المفروزة في اجسامهم . وبعد انتهاء الذكر يحمل الشبان السناجق والاعلام ويقرعون النوبة ويرجعون مخترقين البلدة بموكبهم ، يتقدمهم

المطعونون بالحراب . فيزورون مقام الشيخ علي القصير في الطرف الشرقي من النيك ويذكرون الله في ساحته ، في حين يدخل المشايخ الى مقامه لقراءة الفاتحة . ثم يرجع الضيوف الى مقام الخضر ويحلون ضيوفا فيه . حينئذ ينزل الشيخ فينشل الحراب من اجسام المطعونين ، ويأخذ من ريقه ويدهن به الجرح وهو يرتعش ويذكر اسم الله ويصرخ « ياجداه » .

بعدها يتقاسم أهل البلدة الضيوف ويدعونهم للمنامة في بيوتهم . وعند حلول وقت العشاء يرد الضيوف واهالي البلدة الى مقام الخضر ، حيث يجدون الاسمطة مفروشة وعليها الطعام وهو من « الشاكرية » والبرغل . فيأكلون ثم يهبون الى اقامة الذكر تلك الليلة . وفي عصر يوم العيد يخرجون بسياراتهم الى الغفري ، ويفعلون كما فعلوا في اليوم السابق ويزيدون عليه احيانا الضرب بالحراب والدبابيس والسيوف ويقيمون الدعسة . ثم يعودون للمبيت في البلدة وفي صباح اليوم التالي يعود الضيوف الى قراهم مشيعين بالحفاوة .

حواشي الفصل الأول

(١) ـ البارودي فخري : « مذكرات البارودي » دمشق /١٩٥١/ ج /١/ ص /٥٨/ .

(٢) ـ قساطلي نعمان : « كتاب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء » بيروت /١٨٧٩/ ص /٩٢/ .

(٣) ـ حول الصوفية راجع : « صليبا جميل » و « المعجم الفلسفي » المجلد الاول ص / ٢٨٢ / قاموس مايو الحديث . المجلد الثالث . مادة الصوفية .. فروخ عمر « تاريخ الفكر العربي الى ابن خلدون » بيروت / ١٩٦٦ / العوا عادل : « التصوف » في : « الفكر الفلسفي في مائة سنة » بيروت/١٩٦٢/.

(٤) ـ صباغ ليلى : « المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني » دمشق ١٩٧٣ ص /١٨٤/.

(٥) الطويل توفيق : « التصوف في مصر ابان العصر العثماني » القاهرة ١٩٤٦ ص /١٠٩/ .

(٦) ـ حول الطرق الصوفية راجع : الزركلي خير الدين : « الاعلام » عدة مجلدات كرد علي محمد: « خطط الشام » الجزء السادس ، ص /٢٧٦/ حاضر العالم الاسلامي : تاليف لوثروب ستوردار ترجمة عجاج نويهض . القاهرة /١٣٥٢/ هـ ، المجلد /٢/ ص /٣٤٩/ . الشطي محمد جميل : « أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر » . دمشق /١٩٤٦/ مردم بك خليل : « أعيان القرن الثالث عشر » دمشق ـ دائرة المعارف الاسلامية عدة مجلدات . المحبي : « خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر » ج /١/ ص /٣٢/ ج /٣/ ص /٣٠٨/ .

(٧) ـ من كتب ابو الهدى الصيادي المطبوعة : « كتاب الطريقة الرفاعية » تاليف الوارث النبوي.. السيد محمد أبو الهدى افندي ثم الرفاعي الصيادي لا زال ينسخ سواد الجهل ببيض الايادي امين »مصر /١٣٢٥/ و « كتاب العناية الربانية في ملخص الطريقة الرفاعية » تاليف الامام شيخ الطريقة، ومعدن السلوك والحقيقة، الجامع بين الرياستين ، السالك على سنن جده سيد الكونين.. » اصطنبول/١٣٠١/.

(٨) ـ مجلة المجمع العلمي العربي /١٩٢٣/ ص /٢٠١/ .

(٩) ـ الشطي محمد جميل « اعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر » .

(١٠) ـ قساطلي نعمان : « الروضة الغناء في دمشق الفيحاء » بيروت /١٨٧٩ / /٨٧/ .

(١١) ـ كرد علي محمد : « خطط الشام » دمشق /١٩٢٨/ ج /٦/ ص /١٦٥/ .

(١٢) ـ انظر وصفا حيا شيقا لهذه الكتاتيب في « مذكرات البارودي » ص / ٨ ـ ١٠ / وكان هنالك عدد من النساء يعلمن القرآن الكريم ويطلق عليهن اسم « الخجا » وهي مشتقة من كلمة « خواجة »

التركيــة ومعناها المعلم . وكانت « الفلقــة » الوسيلة « التربويــة » الوحيدة للتعليم . ويقول البارودي ان الكتاتيب لم تكــن الا زرائب لحبس الاطفال في النهــار حتى ترتاح امهاتهم منهم . اما معلمو الكتاتيــب فكانوا من اشباه المتعلمين ممن اغلقت في وجوههم ابواب الرزق فتسلطوا على هــذه الصنعــة للارتــزاق واشتهروا بالفظاظة والشراســة .

(١٣) ـ كرد علي محمد « خطط الشام » ص /٨٩/ .

(١٤) راجع مذكرات البارودي ... ص /١١/ .

(١٥) ـ استقينا معظم المعلومات غير المشار اليها عن الجزائري من : الباني محمد سعيد : « تنويــر البصائر بسيرة الشيخ طاهر » مطبعة الحكومة العربية السورية ، دمشق ١٩٢٠ ص / ٧٣ ـ ٧٥ / .

(١٦) ـ حول حياة الكواكبي راجع : قلعجي قدري : « عبد الرحمن الكواكبــي » بــيروت ١٩٦٣ . عمارة محمد : « مسلمون ثوار » القاهرة /١٩٧٢/ . موسى منير « الفكر العربي في العصر الحديث » بيروت /١٩٧٣/ وكتاب الكواكبي « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » مصر /١٩٣١/ .

(٧١) « مذكرات البارودي » ص ٤٦ ـ ٥٠ .

(١٨) ـ مجلة العمران ، السنة الثانية ، العدد ٢٠ .

(١٩) ـ كرد علي محمد : « خطط الشام » جـ ٦ ، ص ٢٧٩ .

(٢٠) ـ هذه المعلومات استقيناها من : احمد حلمي العلان : « دمشق في مطلع القرن العشرين » .

(٢١) ـ توتل ... ص / ٤٤ ـ ٤٥ /.

(٢٢) العلاف ... ص ١٢٩ ـ ١٣٢ .



الباب الثالث

موقع الحركة الفلاحية في الكفاح الوطني

نمرة التسلسل L ٦٤٨٦٦

حكومة حلب – قضاء

مقبوض خاص للضرائب التي تجبى من قبل الجباة

Quittance de percepteur

صحيفة المكلفين

المجموع		المسقفات		الأراضي		التمتع		بدل الطريق							
س	فروش	س	فروش	س	فروش	س	فروش	س	فروش	س	فروش	س	فروش	س	فروش
	[illegible]								١٠٠						

قد قبضت من اهالي ومن محلة المدعو لمبلغ المشروح اعلاه وقدره

باره وللبيان حرر سنة

نمرة التسلسل L ٨٤٩١٣

حكومة حلب – قضاء

مقبوض خاص للضرائب التي تجبى من قبل الجباة

Quittance de percepteur

صحيفة المكلفين

المجموع		المسقفات		الأراضي		التمتع		بدل الطريق							
س	فروش	س	فروش	س	فروش	س	فروش	س	فروش	س	فروش	س	فروش	س	فروش
	[illegible]				٥٢٨										

قد قبضت من اهالي [illegible] من محلة المدعو [illegible] المبلغ المشروح اعلاه وقدره [illegible]

باره وللبيان حرر سنة ٩٢٦

ـ وصل ضريبة الاراضي صادر عام ١٩٢٦

الفصل الأول

الفلاحون في غمرة الكفاح الوطني المسلح ١٩٢٠-١٩٢٧

- الانتفاضات والاعمال الوطنية المسلحة المحدودة الاثر .
- ثورة فلاحي الساحل الوطنية بقيادة الشيخ صالح العلي .
- ثورة فلاحي الشمال الوطنية بقيادة ابراهيم هنانو .
- هبة حوران في خربة غزالة ... مشاعر وطنية وكفاح ضد الاستغلال .
- الفلاحون في الثورة السورية الكبرى .
- ثمار الكفاح الوطني المسلح .

* * *

في الاسابيع الاخيرة للحرب العالمية الاولى وقبل أن يوقع الاتراك هدنة مودروس مع الحلفاء (فرنسا وبريطانيا) في ٣٠ تشرين الاول ١٩١٨ سارعت القوات الفرنسية بالنزول في بيروت في ٨ تشرين الاول ١٩١٨ ، ثم نزلت في سائر الموانىء من الاسكندرونة حتى صور وانزلت اعلام الثورة العربية عن المباني الرسمية وأمر الجنرال اللنبي فيصلا، قائد الجيوش العربية الشمالية ، بترك السواحل السورية الى الجيوش الفرنسية فنفذ فيصل الامر . وكان واضحا ان ذلك تم بموجب اتفاقية سايكس بيكو الاستعمارية الموقعة في ايار ١٩١٦ بين بريطانيا وفرنسا .

بعد انسحاب الاتراك في تشرين الاول ١٩١٨ قسمت البلاد السورية بأمر من القيادة البريطانية الى ثلاث مناطق عسكرية :

١ ـ المنطقة الشرقية : تديرها القيادة العربية برئاسة الامير فيصل وتشمل أرض الجمهورية السورية الحالية (عدا اللاذقية) مع شرق الاردن وحاصبياوراشياوالبقاع.

٢ ـ المنطقة الجنوبية : تديرها قيادة الجيوش البريطانية وتنحصر في فلسطين .

٣ ـ المنطقة الغربية:تديرها قيادة الجيوش الافرنسية وتشمل الساحل السوري من اللاذقية حتى الناقورة اي اسكندرون واللاذقية ولبنان .

اولا : الانتفاضات والاعمال الوطنية المسلحة محدودة الاثر :

١ ـ صبحي بركات في انطاكية :

في أيار ١٩١٩ قام صبحي بركات بن رفعت آغا ـ وهو من كبار الملاك في منطقة انطاكية ـ بمعونة اهل قرى منطقة القصير بهجمات على مفرزات الجيش الفرنسي المرابطة في جهات انطاكية . ولكن خصوم صبحي بركات ومنافسيه من كبار الملاك اعلنوا تأييدهم للاحتلال الفرنسي مثل احسان بك بن مصطفى باشا في قرى العمق ومصطفى آغا كيخيا ونجيب اغا برمدا ، والحاج ادهم الجدلك واحمد اغا التركمان في انطاكية . ومع أن تأييد اكثرية كبار الملاك للفرنسيين كان معناه اضعاف التحرك المناهض للاحتلال الفرنسي ، الا ان تأييد الجماهير الفلاحية لذلك التحرك ادى الى تمكن هذا التحرك من تحقيق بعض الانتصارات العسكرية في معركة السويدية (أيار ١٩١٩) ، ولهذا أوفدت القيادة الفرنسية في انطاكية محمد بك الشركسي صاحب (مالك) قرية قسطون للتوسط لدى صبحي بركات وكسبه الى جانب الاحتلال الفرنسي .

في ذلك الوقت من عام ١٩١٩ رفض صبحي بركات الوساطة لان الحكومة العربية (الفيصلية) كانت تشجعه من حلب من جهة ، وكان يعتقد من جهة ثانية ان الفرنسيين سيجلون من شمالي سورية في الوقت الذي اشتدت المقاومة التركية للفرنسيين في كيليكيا . ولكن احتلال الفرنسيين لسورية الداخلية في تموز ١٩٢٠ دفع صبحي بركات لتغيير مواقعه والانضمام الى الفرنسيين. فقام خفية بصحبة صديقه الاقطاعي صاحب

قرية قسطون محمد الجركس بالتوجه الى حلب ومقابلة حاكمها الفرنسي «دولاموت» ومنها توجه الى بيروت وقابل الجنرال غورو وتعهد امام الجنرال الفرنسي بتهدئة الاوضاع الثورية في الشمال(٢) ،مقابل حصوله على امتيازات شخصية وتدعيم مواقعه كاحد كبار ملاك الارض في انطاكية ومن ثم تعيينه رئيسا لدولة سورية ، واخيرا استقر به المقام في الحي الاوروبي في استنبول .

ومع أن قسما من الثائرين سار مع صبحي بركات بعد ان اصابه الوهن واستسلم للفرنسيين ، الا أن فريقا هاما من المجاهدين بقيادة الشيخ يوسف السعدون رفضوا الخنوع والاستسلام وصمموا على خوض المعركة التي استلم رايتها ابراهيم هنانو .

٢ ـ الامير الفاعور في الجولان

الامير محمود الفاعور شيخ عرب الفضل القاطنين في الجنو بالغربي من الجولان تحرك مع عربانه وعدد من المتطوعين من منطقة الجولان واحتل ليلا بلدة مرجعيون. وقام بهجمات اخرى على حاصبيا وراشيا ، ولكن القوات الفرنسية المرابطة في قلعة مرجعيون سرعان ما شتتت شمل القوات فانهزم العربان ولم يستمر في القتال الا الشهيد احمد مريود مع عدد من الفرسان الذين قاموا بغارات على المراكز الفرنسية المرابطة في غربي البقاع . وبعد احتلال الفرنسيين لدمشق امسى الفاعور من انصار الانتداب الفرنسي . ومن المعروف أن الجنرال غورو في طريقه لزيارة الامير محمود الفاعور في ٢٣ حزيران ١٩٢١ قامت احدى العصب الوطنية برئاسة البطل احمد مريود من جباتا الخشب باطلاق النار عليه بالقرب من القنيطرة . وعلى الاثر قامت السلطات الفرنسية بحملة عسكرية على قرى جبل الشيخ وبعد ان قتلت عددا من الفلاحين ونهبت القرى ودمرتها قامتبفرض الغرامات الحربية على قرىجباتا الخشب والابوفاني وطرنجة والاحمر وتل الشيخة ومجدل شمس وجباتا الزيت بحجة أن العصابات انطلقت منها . وفيما بعد استشهد احمد مريود مع عدد من اخوانه في عام ١٩٢٦ وهو يدافع لصد هجوم القوات الفرنسية على جباتا الخشب .

٣ ــ جبل صهيون :

في ١٦ نيسان ١٩١٩ اندلعت انتفاضة جبل صهيون،التي كان سببها المباشر قيام الفرنسيين باعدام احد ابناء المنطقة (العشيرة) بدون ان يقترف اي ذنب . وقد هاجم الفلاحون الحامية الفرنسية في مخفر بابنا (على بعد ٣٠ كم شرق اللاذقية) وحاصروا المخفر مدة اسبوع كامل وكادوا يحتلونه لولا ورود النجدات من اللاذقية . وقد خسر الفرنسيون في تلك المعركة خمسة عشر جنديا وضابطين وسقط من الوطنيين عشرون شهيدا .

وقد انتقم المستعمرون الفرنسيون بحرق بعض اهالي بابنا في بيوتهم وهم احياء ، وقدر عدد من مات حرقا نحوا من ٦٠ ــ ٧٠ شخصا . وبسبب القمع الاستعماري اضطر قسم من فلاحي المنطقة للجلاء الى منطقة جسر الشغور هربا من انتقام المحتلين الفرنسيين .

وفي الوقت نفسه جرت مناوشات بين الفلاحين والفرنسيين في كل من قريتي ترتاح وسلمى (٤).

٤ ــ الموالي جنوب حلب :

لم تكن علاقة سلطات الاحتلال الافرنسي في بداية عهدها حسنة مع عشيرة الموالي، التي تقضي فصل الشتاء في المنطقة المحاذية للخط الحديدي بين حلب وحماة . وبعد الغارات بين الموالي وجيرانهم قام هؤلاء بقطع الخط الحديدي واحراق المحطات في نيسان ١٩٢١ . وفي شهر ايار ١٩٢١ جرت صدامات بين فرسان الموالي والحملات الفرنسية القادمة من حلب وحماه . ومع ان القوات الفرنسية تمكنت من التغلب على الموالي ، فان فرسان الموالي الحقوا خسائر جسيمة بالفرنسيين ، وقد تعرضت قبيلة الموالي لمحن ونكبات ومصائب كانت شديدة الوطأة عليها (٥) . ويلاحظ انها تميزت عن القبائل الاخرى بتعاطفها مع ثوار ١٩٢٥ .

٥ ــ دير الزور :

في ٦ تشرين الثاني ١٩١٨ غادر اركان متصرفية دير الزور الاتراك البلدة ، التي انتخبت مجلسا اهليا لتصريف الامور اتفق اعضاؤه أن يتولى رئاسته بالتناوب يوميا

احد رؤساء الاحياء الثلاثة ، التي تألفت منها المدينة حسب طبيعتها العشائرية . ثم جرى الاتفاق على تسمية اعضاء الحكومة من واحد وعشرين عضوا يمثلون احياء المدينة وبالتالي عشائرها . وفي عهد هذه الحكومة ، التي عاشت ثلاثة وثلاثين يوما شهدت المدينة نشاطا قوميا ووطنيا بين الشباب وتأسس نـاد عربي برئاسة ثابت العزاوي المعروف بثقافته الواسعة وغيرته الوطنية ، والذي تطور فيما بعد في اتجاه معاد للاستغلالين الاقطاعي والراسمالي .

وفي ٤ كانون الاول ١٩١٨ وصلت قوة صغيرة تابعة للامير فيصل حلت « الحكومة الاهلية » والفت مجلسا اهليا جديدا . ولكن الانكليز سرعان ما احتلوا دير الزور في ١١ / ١ / ١٩١٩ بموافقة الحكومة العربية الفيصلية بدمشق . وقد اثار الاحتلال الانكليزي نقمة الاهالي في دير الزور وبخاصة الشباب المثقف ، الذين اخذوا يتصلون بالقوى المناهضة للاحتلال داخل ولة العربية الفيصلية بدمشق . وهذا مما دفع رمضان اشلاش ، وهو من موظفي حكومة الفيصلية ، الى استنفار العشائر البدوية لمهاجمة دير الزور وتحريرها من الانكليز في ١٢ / ١٢ / ١٩١٩ وجعلها جزءا من الدولة الوطنية العربية (الفيصلية) . ومع أن الامير فيصل عارض عمل رمضان شلاش ، الا أن هذا شق عصا الطاعة على الحكومة الفيصلية وتحدى أوامر فيصل المؤدية الى بقاء الانكليز في دير الزور . ولكن حركة رمضان شلاش لم تدم طويلا وبخاصة ان سكان دير الزور نظروا بقلق الى تحركات البدو واخطار نهب المدينة [٦].

بعد ميسلون احتل الفرنسيون دير الزور في صيف ١٩٢١ . وبعد قليل حرض رمضان شلاش عشيرة العكيدات لمهاجمة مطار دير الزور واحتلاله في ليلة ١٦ — ١٧ ايلول ١٩٢١ . فجرد الفرنسيون حملة أجبرت شيوخ العكيدات على الاستسلام . ومع ذلك لم يستتب الامن في ريف دير الزور الا بعد مرور عدة سنوات بعد أن تمكنت السلطات الفرنسية من السيطرة على عشائر البادية ومدت نفوذها الى الجزيرة بين عامي ١٩٢٢ — ١٩٢٣ بعد مناوشات متعددة كان اهمها هجوم العصابات المسلحة على مخفر بهندور في ٢٨ تموز ١٩٢٣ [٧] .

ثانيا : ثورة فلاحي الساحل الوطنية بقيادة الشيخ صالح العلي :

في ١٥ كانون الاول ١٩١٨ عقد في قرية الشيخ بدر (محافظة طرطوس) اجتماع برئاسة الشيخ صالح العلي [٨] ضم خلقا كثيرا [٩] تداول المجتمعون في أمر احتلال

الفرنسيين للساحل السوري وكيفية مقاومته وقر رايهم على مكاتبة الحكومة الوطنية القائمة في دمشق برئاسة الامير فيصل وفي الوقت نفسه كان عدد من « الزعماء » يفاوض الفرنسيين ويحرض الناس على استقبالهم . وفي مقدمة هؤلاء ابراهيم الكنج المعروف جيدا في ريف جبلة . كما قام « زعماء » آخرون من آل عباس الاقطاعيين في صافيتا بمصادرة الامدادات المرسلة للشيخ صالح العلي .

على اثر حركة صالح العلي قامت السلطات الفرنسية في بانياس باعتقال بعض من شارك في الاجتماع وسيرت كتيبة مشاة لاخضاع الشيخ صالح العلي ، الذي تصدى للحملة عند قرية النيحا (غربي وادي العيون) وهزمها فانسحبت بعد أن خلفت وراءها عددا من القتلى .

وعندها سرع الشيخ صالح العلي بجمع المتطوعة ، الذين اشرف على تدريبهم عدد من ضباط الجيش العربي السوري ، الذين ارسلتهم الحكومة العربية في دمشق كمستشارين عسكريين .

وبفضل هذه الاجراءات تمكن الشيخ صالح العلي من صد الحملة الفرنسية الثانية على الشيخ بدر في ٢ شباط ١٩١٩ التي استمرت من الشروق حتى المغيب ، وكان ربح هذه المعركة المعنوي والادبي ، اقوى من الربح المادي الذي احرزته . وتدفق المتطوعون من الفلاحين من كل حدب وصوب ، وكثر الزاحفون الى منطقة الثورة من ابناء المنطقة حتى ضاقت بهم مراكز التدريب ... واتخذت الثورة شكلا شبه نظامي ، واخذت رقعتها في الاتساع(١٠) .

وفي تلك الاثناء تشكلت « محكمة عسكرية » تعاقب كل من يجرؤ على خيانة الثورة، ويتآمر على سلامتها . وشكلت لجان للقيام بتحقيقات في كل ما له علاقة بالكيد لها والتجسس عليها . وقد اختير لرئاسة « المحكمة » علي زاهر ، من قرية حمام واصل ولعضويتها محمود علي اسماعيل من قرية الحطانية ، ومحمود ضوا ، من قرية العصيبة . ثم انيط برئيس المحكمة الاشراف الاداري على منصب الثورة وحل الخلافات التي تنشب بين الاهلين . كما عهد لعضوي المحكمة ، علاوة على عضويتهما ، باعمال مالية وتفتيشية . وعين كتاب وجباة ، ومراقبون ، ومحاسبون . وظلت المحكمة تتابع اعمالها الى أن اعتقل المستعمرون الفرنسيون رئيسها واعضاءها ومساعديهم ثم اعدموهم رميا بالرصاص في قرية القمصية (١١).

ويلاحظ ان الشيخ صالح العلي كان يراقب ، حسب ظروف ذلك العهد ، اعمال الثائرين ويبث العيون والارصاد . وقد بلغه ان بعض الانانيين المنخرطين في صفوف الثورة بقصد الاساءة والتخريب ويعمدون الى نهب القرى ، وسلب الاموال ، وقطع الطرقات ، وانهم يستغلون اسم الثورة ويحملون شعاراتها . فكان يسعى دائما لاعادة المنهوبات لاصحابها ومعاقبة المسيئين الى سمعة الثورة (١٢).

وفي أواخر ربيع ١٩١٩ وصلت الى الشيخ صالح العلي امدادات مرسلة من الحكومة العربية في دمشق عن طريق حماة مصياف . هذه الامدادات وصلت محملة على البغال وهي ٣٠٠ بندقية و ١٠٠ شوال طحين و ١٠٠٠ ليرة عثمانية ذهبية. وهذه الامدادات اسهمت في تمكين الشيخ صالح العلي من خوض اعنف المعارك وامجدها في وادي ورور في النصف الثاني من حزيران ١٩١٩ . وبعد أن استدرج الفلاحون الثوار الحملة الفرنسية الى الوادي اطبقوا عليها الخناق وافنوا منهم عددا كبيرا . كما استشهد عشرات الوطنيين من الفلاحين .

وبعد هذا النصر استطاع ثوار الشيخ صالح العلي طرد الفرنسيين من قلعة المرقب المشرفة على بانياس ثم مدوا نشاطهم الى منطقة قدموس في أوائل عام ١٩٢٠ واحتلوا القدموس بعد استسلام حاميتها في منتصف آذار ١٩٢٠ .

واشتد عضد ثورة الشيخ صالح العلي بقدوم الفوج الملي الذي تشكل في ربيع ١٩٢٠ وضم عددا من المقاتلين من مختلف المناطق السورية (حماه — حمص — طرطوس — جبلة — بانياس — الحفة — اللاذقية) (١٣) .

ويلاحظ الاشتراك الفعال للفلاحات في المعارك ، وكانت المرأة تقف الى جانب الرجل تعضده وتتحمل جزءا من مسؤولياته وتنقل اليه الماء والطعام الى جبهة القتال، وتجلس وراءه تحمسه ، وتشد من عزيمته وتعينه في القتال. وقد استشهد منهن الكثيرات ابان المعارك ، وفي غضون الحملات . وكانت النساء تقوم مقام الرجال في الزراعة والحصاد يسددن الفراغ الذي احدثه غياب رجالهن .

وشهدت اشهر نيسان وحزيران من سنة ١٩٢٠ معارك دامية بين الوطنيين من الفلاحين والمحتلين الفرنسيين في منطقة السودة (شمال شرقي بانياس) وقد سقط خلال تلك المعارك قتلى وجرحى كثيرون من الوطنيين وخاصة من قرى راس الكتان ،

ضهر المطر ، والعنازة ، العجمة ، الحنفية ، الشيخ علي طرزو ، كوكب . قلعة الخوابي التي هدمها الفرنسيون وأحرقوها وكانت مركزا لقيادة الثورة (١٤).

في أوائل شهر تموز من عام ١٩٢٠ احرز الوطنيون من الفلاحين انتصارات رائعة في منطقتي المرقب وبانياس ، ولكن سقوط الحكومة الوطنيـــة العربية في دمشـــق في أواخر تموز واحتلال الفرنسيين لسورية الداخلية كان معناه بداية النهاية لثورة الشيخ صالح العلي ، التي امست مطوقة من سائر الجهات بقوات فرنسية ، فيما عدا الاتصال الواهي والضعيف بثورة ابراهيم هنانو في الشمال الشرقي .

وبدأ الهجوم الفرنسي من ناحية الشرق عن طريق مصياف . واعتقد الشيخ صالح العلي ان الخطر قادم من الشرق فاتجه مع خيرة قواته الى هناك . ولكن الهجوم مـــن الشرق لم يكن الا تغطية وتمهيدا للهجوم الذي كان يعده العدو مـــن الغرب . واخذت القوة الفرنسية الاساسية تزحف نحو الشيخ بدر القاعدة الاساسية للثـــورة . وقد احتلت الجيوش الفرنسية منطقة الشيخ بدر ناشرة الذعر والرعب وحارقة القرى الثائرة . مما اجبر الشيخ صالح الى السير نحو الشمال محاولا تجديد المقاومة هناك .

وهناك في الشمال جرت اعنف المعـــارك في كانون الثاني ١٩٢١ في البودي ، التي احتلها المستعمرون واشعلوا فيها النار . فجن جنون الفلاحين وهم يرون ألسنة اللهيب تندلع من دور سكناهم ، وانقضوا على الفرنسيين الحائلين بينهم وبين قريتهم ، وهناك دارت معركة عنيفة استعمل فيها السلاح الابيض . ولم تغب شمس ذلك اليوم حتى اندحر الفرنسيون منسحبين من القرية .

ولكن الفرنسيين حشدوا قوات كبيرة في جبلة وتقدموا في اواخر كانون الثاني ١٩٢١ باتجاه قرية « بشراغي » عاصمة الثورة في الشمال ومركز الشيخ صالح بعد انسحابه من جنوب الجبل . واخذت الكتائب الفرنسية تتدفق باتجاه الجبال وجرت معارك في عدد من قرى الشمال وفقدت قيادة الثورة اشرافها المباشر على سير المعارك وأصبح فلاحو كل قرية يعملون بصورة مستقلة واتخذ الانهزاميون والزعماء من تفكك الجبهة مجالا لاحباط العزائم ونشطت حركتهم بين الفلاحين الثائرين وحملهم على القاء السلاح ، الذي امسى شحيحا في أيدي الثوار (١٥).

وصدر حكم فرنسي باعدام الشيخ صالح نشر في بلاغ مطبوع وزعته الطائرات على سائر انحاء الجبل . ولما عجز المستعمرون الفرنسيون عن اعتقال الشيخ وجدوا من الانسب اصدار العفو عنه ، واذاعة العفو بواسطة الطائرات . وراى الشيخ ان لا خلاص للفلاحين من انتقام الفرنسيين،لانهم اخفوه الا باستسلامه ... فارسل يخبر مستشار جبله الفرنسي بموافقته ، ويستقدمه الى قرية بشراغي .. وبعدها عاد الشيخ الى قريته واعتكف فيها وهذا لم يمنعه من ابداء رايه في الايام الوطنية العصيبة .

وفي اول عيد للجلاء عن سورية عام ١٩٤٦ كان الشيخ من كبار المدعوين المحتفى بهم . حيث القى خطابا وطنيا .. وعاد الى مسقط راسه الى ان وافته المنية عام ١٩٥٠ .

بسطت السلطات الاستعمارية سيطرتها على الجبل بالحديد والنار بعد ان القت في غياهب السجون باعداد وفيرة من الفلاحين الثائرين واعدمت عددا منهم واحرقت القرى الثائرة وقضت على المعارضة وافسحت المجال للمتنفذين للسيطرة وفرض النفوذ ومشاركة سلطات الاستعمار في استغلال الفلاحين واستثمارهم . وفي فترة الانتداب الافرنسي تمكن عدد من زعماء العشائر من تسجيل القرى باسمائهم وشكلوا جزءا من الطبقة الاقطاعية في سورية .

وبدا الجيش الفرنسي بتحصيل الضرائب بمساعدة ذوي النفوذ من القرى المحتلة عن ثلاث سنوات . فكان الفلاحون يبيعون ماشيتهم ، وقسما من اراضيهم لتسديد الضرائب الفادحة لاولئك المستعمرين وعملائهم من ذوي النفوذ في المدن والارياف .

ثالثا : ـ ثورة فلاحي الشمال الوطنية بقيادة ابراهيم هنانو :

١ ـ الفلاحون بين الاستسلام والراديكالية :

بعد احتلال الفرنسيين لاسكندرون قاموا باحتلال انطاكية وحارم بمساعدة البريطانيين ، الذين ضغطوا على الحكومة العربية لعدم القيام بأي اجراء معاكس والتسليم بالامر الواقع ، وقد اثار هذا الاجراء ، الذي ايده معظم كبار الملاك في حارم والمناطق المجاورة وعارضه قسم من كبار الملاك ذوي النزعة الوطنية ، الذين سعوا لحشد الفلاحين وقيادتهم في النضال ضد الاحتلال الفرنسي . فتشكلت في كفر تخاريم لجنة للجهاد لم تكلل اعمالها بالنجاح ، اعقبتها لجنة تشريعية تجمع الاموال والتبرعات

من الاهلين لتمويل الثورة . وفي ارمناز شكل المعادون للاحتلال حكومة ثورية لتنظيم الشؤون الادارية والمالية [١٦].

وكنا قد ذكرنا كيف صبحي بركات ، الذي قاد التحرك المسلح ضد الفرنسيين سرعان مااستسلم للفرنسيين بعد هزيمة الحكومة العربية فيدمشق واحتلال الفرنسيين للداخل . وبقي الجناح الراد يكالي الوطني من كبار الملاك ، الذي استمر رافعا راية النضال الوطني المناهض للاحتلال الفرنسي حتى النفس الاخير . وهذا الجناح الوطني الراد يكالي اعتمد اعتمادا كليا على الروح الوطنية لدى جماهير الفلاحين في كفر تخاريم وسلقين وجبل الزاوية وغيرها من المناطق الثورية في منطقة ادلب. كما حاول الاستفادة من الصراع بين الاتراك الكماليين والفرنسيين .

٢ ـ ابراهيم هنانو والقيادة الوطنية الثورية للفلاحين :

قاد ابراهيم هنانو (١٨٦٩ ـ ١٩٣٥) ماعرف باسم ثورة الشمال (١٩٢٠ ـ ١٩٢٢) وبذل كل مايملك في سبيل نجاحها . كان والد ابراهيم هنانو من الملاك ومن اعيان كفر تخاريم . ولم يكن الوالد راضيا عن اتجاه ابنه الى الدراسة ودخول الوظائف وترك مزارعه [١٧] .

كان ابراهيم هنانو عضوا في المؤتمر السوري في عهد الحكومة العربية ولم يكن راضيا عن سياسة الجناح الداعي الى المساومة مع الفرنسيين . وفي حلب عمل رئيسا لديوان المحافظة وكان على اتصال وثيق بالحركات الوطنية الثورية في منطقة انطاكية واحد قادتها والمنظم الرئيسي لها خصوصا بعد تراجع العناصر المتخاذلة من امثال صبحي بركات .

وفي حلب عهدت السلطة الوطنية العربية الى الضابط الوطني الملازم المجاهد ابراهيم الشغوري من اهالي كفر تخاريم ، ليكون ضابط الارتباط بين الحكومة العربية والمجاهدين ، فتولى امر تدريب الثوار على استعمال القذائف اليدوية ،ووضع الخطط الحربية لضرب المواقع العسكرية الفرنسية ، فكان هذا الضابط مخلصا في تطبيق ماعهد اليه من اعمال ثورية خطيرة ، فاصطفاه الزعيم هنانو لمرافقته وجعله امين سر

قيادة الثورة ، وظل وفيا لواجباته متفانيا في خدمة الثورة وزعيمها حتى النهاية (١٨).

من العمليات التي قام بها ابراهيم الشغوري انه قاد في / ١٨ / نيسان / ١٩٢٠/ خمسين فلاحا مجاهدا (اربعون من كفر تخاريم وعشرة من سلقين) وحاصر قلعة حارم التي تحصن فيها مئتا جندي فرنسي .

وقد ادى هذا الحصار الى انتشار لهيب الثورة في المناطق المجاورة . حيث سارع عدد كبير من المسلحين للالتحاق بالثورة واحكام الحصار على القلعة . ولم يتمكن الفرنسيون من فك الحصار المضروب على القلعة مدة تزيد على الشهرين الا بعض وصول النجدات الفرنسية من الساحل (١٩) .

والملاحظ هنا ان الثوار بقيادة الشغوري قاموا بالمحافظة على دار الحكومة وسجلاتها الرسمية تفاديامن النهب والاتلاف . وقد حاول بعض العربان المخيمين في المنطقة المجاورة انتهاز الفرصة والاوضاع السائدة ، والتعدي على السكان بالنهب والسلب فمنعهم المجاهدون وحالوا دون التعديات والفوضى اثناء حصارهم لقلعة حارم وسيطرتهم على المنطقة في فترة النهوض الوطني الذي عم سورية بعد اعلان الاستقلال في / ٨ / آذار / ١٩٢٠ / وقبل هزيمة ميسلون تموز / ١٩٢٠ / .

الاجواء الثورية المناهضة للاحتلال الاستعماري الفرنسي دفعت بنواة المقاومة الى تشكيل « حكومة » في ارمناز لتنظيم الشؤون الادارية والمالية . وقد امرت هذه « الحكومة » باسقاط جميع الضرائب عن المواطنين الا اثنتين :

ـ ضريبة العشر : على المنتوجات الزراعية وتؤخذ عينا .

ـ ضريبة المواشي : وتؤخذ بمعدل خمسة قروش عن كل راس من الماشية .

الامر الهام ، الذي يستدعي الانتباه ، هو سير هنانو على خطة دعوة زعماء ووجهاء مناطق الشمال (ادلب ـ كفرتخايم ـ جسر الشغور ـ حارم) والتداول في امر اشعال الثورة وتوسيع نطاقها ، وهذا مما اضفى على الثورة الوطنية الفلاحية في الشمال طابعا ديموقراطيا يحمل سمات الشورى المتلائمة مع ظروف ذلك العهد ومفاهيمه ونسبة القوى الطبقية السائدة في الريف . ويعود احد اسباب هذه الشورى الى حقيقة ان

ابراهيم هنانو لم يتزعم الثورة من منطلق عشائري او طائفي . فهـو لم يكن صاحب عصبية قبلية او طائفية (٢٠) ، على الرغم من تحدره من فئات ملاك الارض كما ان إتمام دراسته وجولاته في المدن كونت لديه مفاهيم جديـدة وجعلتـه على اتصال بالافكار القومية العربية ، واطلاع على بعض جوانب الحركات الثورية العالمية .

ومن اجل تامين الدعم العسكري والمعنوي للثورة سافر ابراهيم هنانو الى تركيا في آواخر شهر آب / ١٩٢٠ / واتصل في مرعش بممثلي القيادة الكمالية (نسبة الى كمال « اتاتورك ») وعقـد معهم اتفاقـا في ٦ ايلول ١٩٢٠ مـن اجـل دعم الثـورة بالاسلحة والذخيرة .

من جهة اخرى كان لابراهيم هنانو اتصالات خطية مع لينين قائد ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا . وكان هنانو يحتفظ برسائله مع لينين حتى وفاته ، وقد تحدث بشأن هذه الرسائل الى يوسف ابراهيم يزبك (٢١) .

ويبدو بوضوح ان ابراهيم هنانو كان عن طريق تركيا على اطلاع على مجريات ثورة اكتوبر واهدافها . يدل على ذلك بيانه المؤرخ في ايلول / ١٩٢٠ / والموجه الى قناصل الدول الاجنبية والذي جاء فيه (٢٢) :

« اننا لانقصد من قيامنا هذا الا حفظ استقلالنا ليمكننا تأسيس موازنة عادلة على اسس الحرية والمساواة بين جميع الطوائف ... هـذا وانا لاننفك ندافـع عن اوطاننا حتى الموت ، فلسنا بمسؤولين عما يسفك من الدماء في غايتنا المشروعة نحن السوريين نموت ونتبلشف (اي نصير بلاشفة نسبة الى ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا / ١٩١٧ /) ونجعل البلاد رمادا ولانخضع لحكم الظالمين » .

هذه العوامل المتعددة والظروف ، التي احاطت بابراهيم هنانو جعلت منه قائدا ثوريا يتميز كثيرا عن معظم ـ ان لم نقل جميع ـ قادة الثورات الوطنية الفلاحية في سورية في فترة الكفاح المسلح (١٩١٨ ـ ١٩٢٧) فهو بعيد عن العصبية العشائرية والطائفية مثقف على اطلاع واسع على احوال البلاد السورية والمناورات السياسية وعن طريق تركيا امسى على معرفة بالحركات الثوريـة في العالم وفي مقدمتهـا ثورة اكتوبر . كما ان ابراهيم هنانو لم ينس امر الاتصال بالبورجوازية المحلية في مدينـة

حلب وطلب يد المساعدة من العناصر الوطنية الواعية داخل تلك البورجوازية ...

ولكن .. ثمة امر حد من نشاطات وامكانات ابراهيم هنانو وهو القاعدة الاجتماعية ، التي اشتركت في الثورة والمؤلفة عموما من فلاحين غارقين آنذاك في غياهب الجهل والامية وخاضعين لجملة عوامل كانت تتحكم في الريف السوري في عهد السيطرة الاقطاعية العثمانية ، وتفرض على الفلاح نمطا من الحياة والتفكير والمفاهيم الغيبية ، التي تعرقل انتشار الروح الثورية وتهيء ارضية صالحة للعناصر المتخاذلة والفوضوية او الراغبة في التعاون مع المستعمر المحتل .

كما ان ضعف او هامشية البورجوازية المحلية في المدينة (المقصود هنا حلب) لم يساعد على انتشار افكار التنوير والنهضة وابقى الاكثرية الساحقة من السكان على جهل مطبق بما كان يجري من ثورات تحررية في العالم ، وبالتالي تقلص انتشار الافكار الليبرالية في فترة النهوض الوطني المسلح في العشرينات .

ومعنى ذلك ان ابراهيم هنانو ومن التف حوله من نواة وطنية فلاحية واعية نسبيا لم تكن قادرة رغم نضالها المستميت ، على تنظيم الثورة تنظيما دقيقا صارما يمنع اعداءها من استغلال نواقصها لضربها من الداخل .

وعلى الرغم من ذلك فان هنانو كان يجوب المناطق الداخلة ضمن نفوذ ثورته للاشراف على تنظيم الحركات والتنقلات وتمهيد السبل امام القوات الوطنية وتهيئة الوسائل لتامين الفذاء والعتاد الحربي ، والف محكمة للثورة للنظر في حسم الخلافات والحوادث التي تقع في المناطق الخاضعة لسيطرتهم ، ومحاكمة الخونة والجواسيس . كما اهتم باعمال اللجنة الوطنية التي كانت تجمع الضرائب من الاهلين .

والبادرة النادرة ، التي قام بها هنانو ، حسب ماترويه الكتب ، هي اقدامه على احراق اثاث بيته ومحتوياته المنقولة وغير المنقولة ، والمطحنة الكائنة في احدى قريتيه (الست عاتكة والحامضة) وجمع ادوات الفلاحة كيلا تقع غنيمة بايدي المحتلين ولكي يقدم نموذجا ثوريا للمجاهدين ويدفعهم الى التضحية والفداء .

٣ ــ الثورة ، تنظيمها ، حلفاؤها ، واوضاعها :

ومن اجل سهولة قيادة الثورة اتخذ هنانو مركزين لاقامته الاول في قرية كللي ، التي لتوسط جبلي باريشا والوسطاني ، والمركز الثاني في جبل الزاوية لاتصاله جنوبا بمنطقة الغاب وغربا بجبال الساحل ، حيث نشطت ثورة الشيخ صالح العلي . وفي جبل الزاوية برز المجاهد مصطفى الحاج حسين واعوانه .

في خريف / ١٩٢٠ / قسم هنانو المناطق الثائرة الى ثلاث مناطق :

١ ــ منطقة القصير وتضم / ٤٠٠ / متطوع بقيادة الشيخ يوسف السعدون الذي اشتهرت اسرته بالنفوذ الديني والسياسي (المحلي) .

٢ ــ منطقة كفر تخاريم وتضم / ٢٥٠ / متطوعا بقيادة نجيب عويد المعروف بتشدده ازاء الفوضويين والنهابين ومستغلي الثورة ومرتكبي الاعمال المنكرة وقد اعدم / ٨٦ / شخصا من الخونة والجواسيس والذين اشتركوا في السلب والنهب وارتكبوا الاعمال المنكرة . وكان يعيش عيشة الكفاف من ربع ايراده الضئيل . وعويد نموذج للفلاح الثوي الحازم العصامي الذي لاتاخذه في الحق لومة لائم .

٣ ــ منطقة جبل الزاوية وتضم حوالي / ٢٠٠ / متطوع بقيادة مصطفى الحاج حسين .

اضافة الى متطوعة الحفة بقيادة عمر البيطار .

وقام هنانو بعد عودته من تركيا باذاعة بيان على الشعب معلنا الثورة ، كما وجه بيانا آخر الى قناصل الدول الاجنبية رمى من ورائه الى كسب الراي العام العالمي الى جانب الحركة الوطنية ، وهذا دليل على ماذكرنا من تمتع هنانو بالشخصية الثورية واهتمامة بالشؤون الدولية في اطار ظروف ذلك العصر .

ومن اجل ان يقيم جسرا مع ثورة الشيخ صالح العلي ، الذي ارسل له رسولا من اجل تعاون الثورتين احتل متطوعة هنانو جسر الشغور في / ٢٨ / تشرين الثاني / ١٩٢٠ / بعد معركة استسلمت على اثرها الحامية الفرنسية . كما صد المتطوعة بقيادة نجيب عويد الحملة الفرنسية في ادلب القادمة من حلب لاستعادة جسر الشغور،

التي احتلها الفرنسيون سبع عشرة مرة ، وفي كل مرة كانت العصابات الثائرة تجليهم عنها نظرا لاهمية موقعها الاستراتيجي على نهر العاصي ، وهي الطريق الاساسي بين حلب واللاذقية .

ومن اجل ضرب الثورة قام الفرنسيون بتعبئة القوى واحتلال كفر تخاريم احد مراكز الثورة الهامة . ولكن نجيب عويد تمكن مع اخوانه من استرداد كفر تخاريم في اوائل كانون الاول ١٩٢٠ .

وشهدت الاشهر الاولى من عام ١٩٢١ عددا من الصدامات بين الفلاحين الثوار والجنود الفرنسيين كان ابرزها معركة جبل الاربعين في اعالي منطقة جبل الزاوية . وفي تلك المعركة اشتركت فلاحات جبل الزاوية في المعركة اشتراكا فعليا وكن يشرن الحماس بزغاريدهن واهازيجهن ويجلبن الماء والعتاد للمقاتلين . وقد استشهدت في تلك المعركة شقيقة الشهيد ابو عدلة . وكانت نتيجة المعركة سقوط اربعين قتيلا من جنود الاحتلال واستشهاد حوالي اربعين فلاحا ثائرا (٢٣) .

وفي نهاية شهر آذار / ١٩٢١ / قذف الفرنسيون بقوات كبيرة تحميها الطائرات وتتقدمها المصفحات . وكان الثائرون يشكون عجزا فادحا بالعتاد والذخيرة ـ بعد ان سدت تركيا السبل بوجوههم ، وحالت بينهم وبين التزود بالسلاح منها (٢٤) .

بعد ان تراجعت قوى الثورة واضطر المجاهدون للانسحاب من جبل الاربعين في ربيع / ١٩٢١ / وانقطعت المعونة العسكرية التركية ارسل هنانو ساعده الايمن نجيب عويد الى جهات حماه لتدبير بعض الاسلحة والذخيرة ، ولكنه عاد دون الوصول الى مبتغاه . مما اضعف الثورة ، التي حرمت امدادات الشمال (تركيا) وامدادات الداخل . اذ ان التبرعات والجبايات الداخلية لم تكن تكفي لسد احتياجات الثورة الى الاسلحة والذخيرة والنفقات المختلفة .

ومن العوامل ، التي ادت الى ضعف الثورة وانعزالها في الاشهر الاخيرة من ايامها عدم تمكن النواة الثورية من المحافظة على نقاء الثورة واهدافها النبيلة في طرد المحتلين المستعمرين ومع ان هنانو وبخاصة نجيب عويد كان شديدا ضد اعمال الشقاوة السلب والنهب وقام باعدام عددمن المخربين الجواسيس والنهابين واللصوص

الذين ارتكبوا اعمال الشقاوة باسم الثورة وكان في طليعة من اعدمهم نجيب عويد التركي عاصم بك ، الذي قام بمهاجمة قرية الصقيلبية الواقعة قرب حماه ونهب منها كل مااستطاع نهبه . سا دفع نجيب عويد الى استدراجه واعدامه (٢٥) .

٤ ـ الانسحاب :

في تلك الايام الحالكة من اوائل صيف / ١٩٢١ / وبعد ان تبين ان الثورة تجتاز ايامها الاخيرة دعا ابراهيم هنانو لمؤتمر عام حضره جميع قادة الثورة للبحث في افضل السبل الواجب اتباعها بعد ان نفدت الذخيرة وشح المال وانعدم مصدر وصول الاسلحة والذخيرة وشدد الفرنسيون النكير على النواة الثورية . وعندما اقترح نجيب عويد الالتجاء للاراضي التركية المتاخمة ادرك هنانو بثاقب بصره ان التجاءه لتركيا سيجعل من الممكن وصم ثورته بالتعاون مع رجال هذه الدولة ولذا فقد رد على عويد بقوله (٢٦):

« والله لو خيرت على ان اكون مسلما تركيا او مسيحيا عربيا لاخترت الثانية ، ولذا فاني افضل اجتياز الصحراء الشاسعة الى شرقي الاردن لاعيش في كنف حكومة عربية » .

وبعد المداولة انشطر المؤتمرون الى فئات ثلاث :

القسم الاول : ــ اقعده كبر السن وكثرة الاولاد ففضل البقاء في الوطن .

القسم الثاني : ــ انطلق الى تركيا واستقر في القرى الجنوبية ، وفي مقدمة هؤلاء نجيب عويد والشيخ يوسف السعدون ومصطفى الحاج حسين ، ولوحظ ان عويد والسعدون لم يقوما بأي عمل من اعمال اخلال الامن في سورية تستغلـه تركيا لمصلحتها او يفسره الاهلون بانه من أعمال الشقاوة والسطو وابتزاز المال من الاثرياء وعلى العكس فان عددا آخر من اللاجئين كانت الحكومة التركية تستخدمهم كوسيلة للضغط كلما تعكر صفو العلاقات بين فرنسا وتركيا (٢٧) .

القسم الثالث : ــ الذي اخذ برأي هنانو بالذهاب لشرق الاردن وبلغ عدده ستين مجاهدا ضم عددا من الضباط الوطنيين والجنود البلغار ، الذين التحقوا بثورة

هنانو بعد ان هربوا من الجيش الفرنسي وقدموا حياتهم في سبيل القضية الوطنية لشعب اخر غير شعبهم .

ومن اجل اعطاء فكرة عن الانسحاب البطولي لا براهيم هنانو في مناطق سهلية لا يوجد فيها موانع للاحتماء واللجوء وهي غير مأمونة الجانب بسبب مواقف العشائر المعروف ننقل فيما يلي ما كتبه منير الريس نقلا عما سمعه الريس مباشرة من هنانو في منزل جميل مردم في دمشق . ورأينا ان ننقل حرفيا ماكتبه الريس لان الرحلة الاسطورية لهنانو وما كتبه الريس على لسانه تقدم لنا صورا عن الحياة في اوائل العشرينات قبل أن تدخل السيارة وتزيح بالتدريج رحلات القوافل وتقضي على الخانات وتزيل كثيرا من معالم عهد الجمل والحصان لتضعنا امام عوالم جديدة . وفيما يلي ما كتبه الريس على لسان هنانو :

بلغنا قرية « عنز » من قرى سلمية ، ومكثنا فيها بانتظار الاصيل حتى نتابع السير نحو الجنوب ، ودليلنا هزاع أيوب الذي تعددت رحلاته في هذه الطريق سيرا على الاقدام ، واذا بسيارة تصل الى القرية تحمل الشيخ سلطان الطيار من زعماء العشائر يحمل الي رسالة من » الكابتن » فوزي القاوقجي الضابط في الجيش الفرنسي ، يعلمني فيها انني وعصابتي مطوقون بالقوات الفرنسية ، وبقوات قبائل البادية ، وان لانجاة لنا منها ،ويعرض علي ان ادخل معه في مفاوضات على الاستسلام لقاء تعهده بضمان حياتي وحياة من معي من افراد العصابة ، ومعاملتهم معاملة الاسرى ريثما يصدر عنا عفو من المفوض السامي الفرنسي فغضبت لهذه القحة ، واجبت الشيخ سلطان رسول القاوقجي بالرفض ، واصدرت امري لجماعتي بالرحيل ، قبل أن يتم تجهيز الطعام الذي كانت القرية تعده لنا ، وانطلقنا نضرب في البادية ، نغذ السير في مهامها وقفارها ، الى ما بعد منتصف الليل . وكان لا بد من الراحة والاستجمام ، فجنحنا الى الراحة في القفر ، وانتبذ دليلنا هزاع أيوب مكانا لوحده، واستغرق في النوم من التعب . فلما افقنا في عتمة الفجر نستأنف سيرنا لم ننتبه لغيابه ، وفي الصباح افتقدناه ، فلم نجده ، وتابعنا السير ، واشرفت الشمس على الشروق ، واذا بأحد اخواني ينبهني الى ان غبارا ساطعا من ورائنا يخفي قوة من الفرسان تلاحقنا ، فالتفت الى الغبار استكشف بالمنظار عدد المطاردين ، واصدرت

امري بأن تتجه العصابة الى ارض وعرة كنت اراها غير بعيدة عنا ، يتخذونها للدفاع، وبأن يهيأ الرشاش الثقيل الذي معنا فورا لوقف الغارة التي لانعرف عدد فرسانها من كثرة الغبار . وما كاد اصحابي ينزلون الرشاش عن الدابة ، حتى سطع غبار اخر من الغرب ، وآخر من الشرق ، وآخر من الجنوب .بل ثار الغبارمن حولنا ، وظهرت الفرسان من تحته تغير بكل قوة جيادها علينا ، حتى ان المسؤول عن الرشاش لم يعد يستطيع ، لاضطرابه ، تثبيت سلاحه ، واطلاق النار فترجلت وعملت معه على تثبيت الرشاش وتركيبه ، واذا بفارس من اخواني يمسك بكتفي ، ويشدني عن الرشاش منبها الا فائدة منه ، فقد وصلت الخيل المغيرة علينا ، وداهمتنا قبل ان نستطيع اطلاق النار ، وقبل ان يصل اكثر اخواني الى الوعرة التي وجهتهم اليها . وفعلا بدات الخيل تمر بنا تباعا ، والرصاص يملأ الفضاء ، حتى ان فارسا من البدو، مر بي كالسهم ، وقبض على ذراعي ليلقيني عن جوادي ، ولكن قوة اندفاع فرسه ابعدته عني ، وانقذتني من السقوط . والتفت حولي ، فرايت في السهل امامي جهة وعرة ، لا تتدفق الخيل منها ، وخطر لي ان امرق منها ، ولكزت جوادي ، ودفعته اليها ، وبيدي مسدسي من نوع « برابيللو » اطلق منه الى الوراء لابعد الفرسان عن اللحاق بي . وكان جوادي من كريم الخيول العربية ، فما كاد يجتاز بي الوعرة ، ويخرجني من نطاق الحشر ، حتى رايت فارسا من رفاقي ، ضرب قبلي في نفس الاتجاه ، فلويت عنان جوادي نحوه لنكون اثنين خيرا من ان يضيع كل منا في جهة من مجاهل البادية . ولما دنوت منه عرفت انه صبحي اللاذقاني المعروف بصبحي حليمة ، فحاذيته ، وكوكبة من الفرسان البدو تلاحقنا بجيادها العربية الاصيلة ، واستمر السباق والطراد طويلا بيننا وبينهم ، ورصاصهم ينهمر علينا ، والله يحفظنا ، ويقينا شره ، فيطيش ، وكلما تتالت الساعات في هذا السباق : قصر عدد من المطاردين ، وقل عديدهم، حتى اصبحوا عشرات، بعد ان كانوا مئات ، وتوسطت الشمس قبة السماء، واصبحت الجياد من شدة الحر والانهاك ، تكاد ترتمي .والشهر تموز ، عندئذ قلت لصاحبي ان فرسينا هلكتا من الطراد ، فلنعرج الى هذا التل الذي تراه ، ونتخذه موقعا للدفاع ، حتى يستجم فرسانا ، وعرجنا نحو التل ، وترجلنا وراءه ، وصعدنا الى قمته ، وافترشنا الارض استعدادا للقتال ، واذا

بالمطاردين ، يتوقفون ، ويتشاورون ، ويدركون اننا مستميتان ، واننا سنصرع كل من يدنو منا ، ثم يلوون اعنة جيادهم ، ويعودون من حيث اتوا ، حتى غابوا عن انظارنا . على ان فرحتنا بالخلاص من المطاردة لم تكتمل ، فقد راينا فرس صبحي اللاذقاني ترتعش ، وتسقط ، وتنفق من التعب والعطش ، ورايت صاحبي ينهار امام هذا المشهد ، يجيل ناظريه في الصحراء الجرداء القاحلة المترامية الاطراف ، الملتهبة بلهيب الحر ، تمتد كالبحر ، فلا يدري كيف سينجو منها ، فواسيته بكلمة ، وشجعته ، وقلت له ان راحلتي لي وله ، نتناوب ركوبها ، وقد يهيء الله لنا من امرنا فرجا ، ثم اقترحت عليه ان نحدد قبل غياب الشمس اتجاهنا ، ونسير توا نحو الغرب لندرك المنطقة العامرة من سورية، قبل ان نموت جوعا وعطشا في البادية القفراء النفراء ، حتى ولو وقعنا بيد الفرنسيين ، وكان الموت نصيبنا ، فالموت مدركنا في الحالين ، الا أن هناك املا بأن نختفي وننجو من الفرنسيين . اما الموت في البادية عطشا فلا نجاة منه . رايت صاحبي يعود اليه الامل ، فهب يفك لجام ورسن فرسه النافق لعلهما ينفعان في متح الماء من بئر قد نصادفه في طريقنا ، ثم يبحث في خرجها وخرج جوادي لعله يجد فيهما مايبل حلقينا الجافين . فعثر فيهما على تفاحة ذابلة ، وقطرات من الماء في وعاء الماء (المطرة) بللنا بها الحلق ، وجلسنا ننتظر الاصيل لنسير نحو الغرب ، آملين ان ينعشنا برد الليل .

وفعلا نشط جوادنا في الليل ، وتناوبنا ركوبه ، وقد هده الجهد والجوع والعطش حتى بلغنا مكانا متعرجا من الارض ، تكثر فيه التلول ، صادفتنا فيه اشجار متفرقة من البطم التي تكثر في احراج سورية ، لم يستطع الجواد على جوعه وعطشه ان يقتات بها ، فادركنا اننا في جبل البلعاس شرقي سلمية وحمص . وهذا الحرج كان كثير الشجر الا ان ايدي البدو ، وايدي متعهدي الحطب في الحرب العالمية قضت على اكثر ما فيه ، فقررنا بعد منتصف الليل ان نركن للراحة ، ولوساعة واحدة او ساعتين نستجم خلالها ، ويستجم الجواد ، وانتحينا جانبا من التلاع ، ونجمت من جراء الاستجمام مشكلة ، شغلت بالي ، فرفيق دربي من عامة الشعب الذين التحقوا بالثورة ، وهو في مثل وضعنا ، اخشى ان يبلغ به الياس حدا تسول له نفسه اغتيالي والاستئثار بجوادي ينجو به من خطر الصحراء ، ويذهب الى الفرنسيين مبشرا بانه

قتل ابراهيم هنانو قائد ثورة الشمال الذي تدفع فرانسا الوف الليرات الذهب ثمنا لراسه ، وقد منت شيوخ العشائر بعشرات الوف الليرات الذهبية ان جاءوا بهنانو حيا او ميتا . لذلك كان لا بد من الحذر ، دون ان يشعر رفيق الدرب ، واقترحت عليه ان لاننام معا ، وان نتناوب السهر ، وطلبت منه ان يسلمني بندقيته ، وينام بدوره ، ثم اوقظه لانام بدوري ، وسلمني عن طيب خاطر بندقيته ، ونام مطمئنا ، وانا سلمت جفني للنوم ، بعد ان اطمانيت الى ان لا سلاح بيده يغتالني به ، نمت بعد انوضعت البندقيتين تحت فخذي ، وبعد ساعتين ، نبهت رفيقي ، واستأنفنا المسير حتى الضحى ، فبانت لا عيننا دروب صغيرة تتلاقى لتؤلف دربا أوضح نحو هدف ، سلكناه حتى وصلنا الى كهف وبجانبه بئر ماء ، فكانت فرحتنا لا توصف ساعة تأكدنا من وجود الماء في البئر . وسارعنا الى المطرة نربطها برسن الفرس النافق ولجامها ورسن جوادي حتى بلغت الماء ، ونضحنا بها غرفة قدمناها للجواد الذي حمحم وهو يرشفها رشفة واحدة ، واعدنا الكرة مئات المرات حتى ارتوى الجواد وارتوينا ،ودبت بنا الحياة مع الامل من جديد ، واوينا الكهف نستظل فيه الشمس المحرقة غير وجلين من الجوع ، فالمرء ، بعد وجود الماء ، يتحمل اياما الجوع .

فوجئنا بعد الظهر ، ببدوي دخل علينا الكهف فجاة ، ولما رآنا انطلق يعدو ، ويصيح يدعو عددا من الرعاة كانت مواشيهم في طريقها الى البئر ، ويستعجلهم . ورايناهم مسلحين ، اخذوا يتراكضون نحونا ، وصياحهم يدل على ما ينوون ، فقلت لصاحبي ان الجواد الخائر القوى من الجوع لا يستطيع حمل اثنين ، وأنت ليس معك مال تخشى عليه ، وليس لهؤلاء مطمع الا ببندقيتك ، ونحن لا نريد أن نخوض مع هؤلاء معركة ، لا ننا قد نلجأ الى منازل عشيرتهم ، فنقتل اذا قتلنا احدهم ، ولا نريد ان نستسلم ليسلبونا الجواد واسلحتنا ، لذلك سلمني بندقيتك لا نطلق بالجواد والسلاح بعيدا عن المكان ، وابق انت في مكانك ، فانهم لا يؤذونك اذا لم يجدوا معك مالا وسلاحا ، بل ربما يطعمونك من زادهم ، وامتطيت صهوة الجواد ، وانطلقت في الجهة المعاكسة لغارة الرعاة ، الف وادور ، واتجه نحو الغرب ، تحت وابل الرصاص، حتى غبت عن انظارهم ، واخذت بعدها امشي الهوينا ، وقبيل الغروب لا حت لي

خيام تتجه اليها قطعان الماشية ، فاضطررت لان اعرج نحوها ، لانني وجوادي كنا باشد الحاجة الى ما يقيم اودنا .

وفي غبشة الغروب دخلت الحي باحثا عن اكبر بيت فيه ، اعرف انه بيت رئيس الحي ، فلما وجدته ترجلت عن جوادي امامه ، وكنت ارتدي « القلبق » التركي او الشركسي على راسي ، وهو يصنع من فرو الخراف ، اجنة ، قبل ان تولد ، وفي عنقي منظار يتدلى ، وفي حزامي مسدس حربي ، وكان زيي عسكريا أو شبه عسكري وعدة حصاني تزدان بالفضة ، سرجها وطوقها ، فهب صاحب البيت يرحب بالضيف كعادة الاعراب ، وتسلم من يدي عنان الجواد ، واكرم وفادتي ، ولما تفرق رجال الحي من منزله ، بعد أن ارتووا من شرب القهوة ، سألني : « هل يمكن أن أتعرف الى ضيفي ؟ » ، قلت : « انني مفتش عد الاغنام في قضاء سلمية ضللت الطريق ، اهتديت الى هذا الحي ! » قال وهو يبتسم : « انني اعرف كل جباة سلمية ، وموظفي ماليتها، بل كل موظفيها ، فلست انت منهم والله ! فلا تكتم عني امرك فانا اهل للكتمان ،وانت ضيفي ، ومن واجبي ان اساعدك ! .. » قلت ، وقد تبدى لي في وجه مضيفي ،وهو شيخ عشيرة بني خالد ، عدم الاقتناع فيما قلت ، فعدت الفق قصة اخرى أكثر انطباقا على مظهري ، فقلت : « أتريد الصدق ؟ انني ضابط شركسي من عمان ، فار من الجيش التركي ، واخشى ان يقبض علي الفرنسيون ، ويسلموني الى الحكومة التركية ، بموجب ما بينهما من اتفاق ، فاحاكم بالموت ، واقتل جزاء فراري ...وكل ما أود منك ان تساعدني على الوصول الى شرقي الاردن فأهلي هناك من اغنياء الشركس ، سيجزون من يوصلني اليهم جميل الجزاء ، بل سيغنونه بالمال ... » ، فظهر الاقتناع على وجه محدثي ، ثم الاهتمام ، وطمأنني بانني اصبحت في حرز امين، وانه سيساعدني على الوصول الى اهلي ، وسيجد لي الدليل الذي يرشدني الطريق، ولكن يجب الآن ان انتقل من هذا البيت الكبير الذي يطرقه كل قاصد للحي ، وكثيرا ما يكونون من رجال الدولة ، وضباط قوة البادية وجنودها الذين تطوف دورياتهم كل مكان ، وهؤلاء خطر علي وعليك ان عرف أحدهم بأمري . وفورا نقلني الى بيت صغير في «الحي» « خربوش » ، وطلب مني ان اخلع ثيابي ، وارتدي ثوبا عربيا ، ثم جاءني بثوب عتيق رماه لي ، وكنت رايته يقلب بين يديه منظاري ، وسوطي من الفضة

قبضته ، فاهديتها اليه ، وقلت له خذ المسدس ايضا ان شئت ، فشكرني واعتذر عن المسدس بانه سلاح حربي ضخم يجلب النقمة ، وربما تساءل من رآه من اين وصل الى يدي . اما المنظار والسوط فيمكن شراؤهما ، وليس اقتناؤهما ممنوعا . وكان مضيفي الشيخ يمنيني بانه ارسل من يبحث لي بين العشائر القريبة عن دليل يعرف الطريق جيدا الى شرقي الاردن ، لان المسافة شاسعة ، ومجاهل الصحراء لا يعرفها الخريت بين الادلة . ثم عاد لي وزوجه يوما ليقول لي انه لم يجد الدليل الماهر الذي يرضى بأن يرافقني الى شرقي الاردن ، دون ان يقبض الاجر سلفا ، اذ لا يصدق الاعراب ان اهلك سيجزونهم ، بعد وصولك اليهم . وكنت احتزم ملابسي الداخلية حزاما للنقود ، فيه اكثر من مئة وعشرين ليرة ذهبية ، سرعان ما مددت يدي اليه احل اربطته ، وانا اسائل الشيخ عن المبلغ الذي يريده الدليل اجرا الى عمان ، والقيت اليه بعشر ليرات ذهبا مما كان معي ، ثم التفت لارى عيني الرجل وعيني زوجته تلمع نهما وشرها على ما في « الكمر » من ذهب وهاج ، فادركت انني اخطات ، وعرضت حياتي للخطر ، يوم كشفت لهما عما معي من دنانير دهبية ، وسارعت اتلافى الخطا فالقيت بالحزام كله ، بما فيه من ذهب الى الرجل ، وقلت له : « كل هذا المال لك ، ادفع منه اجر الدليل ، وخذ ما تبقى لك حلالا هبة مني اليك جزاء مساعدتك اياي ! .. ولا اريد منك لقاء ذلك الا ان توصلني الى اهلي في عمان ! .. » ، وتلقى الشيخ البدرة بيديه حامدا لي اريحيتي ، وهب وزوجه يخرجان ، وهما يقطعان على نفسيهما العهد بان يجدا لي الدليل ، بل اكثر من دليل ، ليبلغني اهلي عزيزا كريما، وبذلك ضمنت ان لا يغتالني الشيخ البدوي طمعا في مالي ، اذ لم يبق على جسمي غير الثوب الذي تفضل به من قبل علي . وانقضى اكثر من يومين ، وانا سجين الخربوش مختفيا عن عيون الناس ، واذا بالشيخ وزوجه يدخلان علي ، في صباح احد الايام ، يقول لي الرجل انه عجز عن ان يجد لي دليلا من حوله من العشائر ، وانه يرى لسلامتي وسلامته ان اغادر الحي فورا ، واذهب انى شئت ، فقلت له : « ويحك .. بعد ان اخذت مالي كله ، ضننت علي باعرابي يرافقني ، ويهديني سواء السبيل الى بلدي ، ويوصلني الى اهلي ؟ هلا اعطيتني شيئا من المال استعين به في طريقي الطويل الى عمان ؟ ! » قالت زوجه : « بالله يا أبا فلان ! هلا أعطيت ضيفك بعض الدنانير ينفقها

في رحلته الشاقة ! » ، فمد الرجل اصابعه الى داخل الحزام الذي اتى به ، والقى الي بثلاثة او اربعة دنانير قائلا : « هاك .. بعض المال .. وقم ارحل عن هذا الحي!» قلت أن ماتعطيني لا يكفيني ثمن طعام وعلف لدابتي . فهلا زدت لعلني اجد في طريقي من استاجره دليلا ببعض المال ؟ » ، وشفعت لي مرة ثانية الزوجة ، فالقى الي ببعض الدنانير ، وتوالت توسلاتي وشفاعة زوجه ، حتى اصبح في يدي بضعة عشر دينارا استرددتهما من مالي .. وكان سمح لي بالجواد وسرجه وعدته كلها ، كي لا تدل يوما على وجودي عنده كشخص ملاحق .. فقلت له : لا اريد السرج والعدة .. خذهما واعطني سرجا عربيا عاديا رخيصا يتناسب مع هذا الثوب الخلق الذي البسه على جسمي ! قال : « لا اريد جوادك ولا عدته ، لا نهما يجلبان الي الشبهة ، ويثيران الريبة في بيتي ، فالاعراب لا تقتني مثل هذا السرج الفرنجي ! » قلت « اعطني اذن ما استر به هذه العدة والسرج عن العيون ! » وعاد الي بقطعة قماش عتيقة ، كانت في الزمن الغابر خيمة يستخدمها الجنود الالمان ، والقاها بين يدي ، فقمت استر بها السرج ، واطوي العدة في الخرج ، واربطها بخرقة بقطعة من حبل حتى تثبت فوق السرج ، ثم رجوت الشيخ ان يعطيني ما استر به راسي من حر الشمس غير « القلبق » الذي يدل علي انني ضابط تركي ، ويثير الشبهة ، لانه لا يتناسب مع الثوب العتيق ، فاعتذر ، ثم جاءني بخرقة ثانية هي نصف كفية عتيقة مثلثة الاضلاع ، وبوصلة من الحبال ربطتها فوقها حول راسي ، ولم أجد عنده حذاء، فركبت جوادي حافي القدمين ، وعدتي المسدس الذي لم يشأ أن يأخذه مني ، لانه مسدس حربي كما قال من قبل .. ولكزت الجواد في اتجاه الغرب ، وانا العن الساعة التي وقعت فيها بين يدي هذا البدوي الشيخ عديم الذمة .. الطماع .. حتى اذا ارتفعت شمس الضحى ، بلغت القرى المعمورة ، فأخذت اتجنبها ، واسلك طرقا تبعدني عنها متجها الى الغرب ، حتى صادفتني ساقية ماء سقيت منها جوادي ، وشربت ، ثم مرغت ساقي وقدمي وذراعي ووجهي بوحلها ، ومسحته بعد أن جف حتى لا تعرف ملامحي ، وحتى تتناسب قذارتي مع الخلقان الذي البسه . وفي وقت الظهيرة دخلت مدينة حمص من جهة الشرق، وتغلغلتفي حي الخالدية، نسبة للمسجد المسمى مسجد خالد بن الوليد فيه ، وهو حي اكثر اهله فقراء ، خطر لي ان اطرق بابا من ابوابه ، لاودع فيه حصاني لقاء اجر ، ثم اتسلل الى المسجد اقضي فيه نهاري

مصليا نائما في زاوية من زوايا باحته او حرمه ، حتى اذا لفني الليل ، تسللت منه الى دار صديقي عمر الاتاسي ، وزميلي في المؤتمر السوري الذي اعلن استقلال سورية في الثامن من شهر آذار عام ١٩٢٠ ، كي يهيىء لي سرا سبيل الوصول الى شرق الاردن وتميزت الابواب التي كنت امر بها ، حتى وقع نظري على باب ذي خصاص يدل على فقر ساكني الدار ، طرقته في حمارة القيظ ، واذا بشاب يفتح الباب ، سالته ان كان في استطاعتي ربط جوادي في داره لقاء اجر ، ريثما اذهب الى المدينة اقضي فيها حاجتي واعود ، فقال الشاب : « اهلا وسهلا بالعم .. ان في استطاعتك ايضا ان تجد لدينا انت وجوادك مكانا للراحة والمبيت ، فهلا دخلت اولا ، واسترحت من عناء السفر ، فالوقت الآن وقت قيلولة ونحن في هاجرة النهار .. تفضل ياعم وادخل ، فانت في دارك وبين اهلك ! » .. شجعني كلام الشاب ، فترجلت ، وقاد الشاب الحصان الى مربط في صحن الدار ، وادخلني غرفة ، على فقر ما فيها ، نظيفة ظليلة ، وفرش لي حصيرا ، ووسائد لاجلس عليها وانام ، ولكنه انتبه الى قذارتي ، فقال : « ما رايك ياعم بحمام بارد في عتبة هذه الغرفة تنظف به جسمك ، وسآتيك بثياب تلقي بها عنك هذه الاثواب الوسخة ؟ » ، ولم يترك لي الشاب مجالا للاعتراض بل ذهب ، ونقل الى العتبة صفائح الماء البارد ، بعد ان انتشلها من بئر الدار امراة ، عرفت بعدئذ انها امراة اخيه صاحب الدار ، فاغتسلت ، ولبست ثيابا يعبق منها اريج النظافة ، وجلست في المكان الذي اعد لي ، ورجوت الشاب ان يذهب بدينار مما كان معي ، يهيىء لي ببعضه غداء من السوق ، وعليقا لجوادي ، فلبى الطلب ، ونمت هادئا ، وفي الاصيل فتح باب الدار ، ودخل رجل بلباس وطني مؤلف من القنباز والكفية والعقال ، ادركت انه صاحب البيت . ويظهر ان زوجته لوحت له من المطبخ حيث نقل الجواد بناء على طلبي ، بحجة ابعاده عن الشمس ، والواقع اردت ابعاده عن العيون ، عند فتح باب الدار واغلاقه ، فخف الرجل الى المطبخ ، وتميز الجواد ودار بين الزوجين همس احتمل دقائق ، ثم اقبل الرجل علي في الغرفة ، وحياني وجلس .. وكان لا بد من السؤال التقليدي : من اي ديرة الضيف ؟ » ، قلت : « من جهات المعرة ايها الاخ ! سرقت لي اغنام ، فركبت في اثرها الى البادية لعلني اهتدي اليها ، واستردها .. ولكن خاب املي ، وسلبني قطاع الطرق ملابسي ، حتى رماني القدر في داركم ! .. » قال « ولكن جوادك ايها الصديق هو جواد الزعيم

ابراهيم هنانو ، عليه تنطبق كل الاوصاف التي رواها البدو والجنود الذين طاردوه شخصيا في البادية فهلا صدقتني القول وطمأنتني عن سلامة الزعيم ؟ » وبانت اللهفة والصدق في عينيه ، فكان لا بد لي من طرح اكذوبتي الاولى قلت : ومن اين عرفت ان الجواد حصان هنانو ؟ » ، قال : « انا جنباز خيل . قضيت عمري في هذه المهنة، والناس كلهم يلهجون اليوم بقصة الزعيم هنانو ، وجواده الكريم الذي انقذه من كل خيول البادية التي طاردتـه طمعا بالجائزة التي منت بها فرنسة شيوخ العشائر . والالسن تلهج بالدعاء لله أن يحفظ الزعيم فلا يهلك جوعا وعطشا في الصحراء القاحلة ولا يقع بيد الفرنسيين اعدائه واعداء البلاد ، فهلا اخبرتني صدقا ان كان هذا حصانه وهلا طمأنتني عنه ! » ، قلت : « طب نفسا ، وقر عينا فهذا حقا حصان هنانـو ، وانا رفيقه الذي نجوت معه في الطراد ، وهو في مكان امين ، وحرز حريز ، لا خـوف عليه‌ان شاء الله ، وقد اوفدني الى حمص بمهمة انا في سبيل انجازها له ، فهل انت مستعد لمساعدتي ؟ » قال : ان روحي فداء الزعيم هنانو . وبيتي وزوجي واخي وكل اسرتي .. هلا حدثتني عن مهمتك فأنا رهن اشارتك ! ... ، فاغرورقت في عينـي الدموع من صدق لهجـة الرجل واخلاصه ، وادركت ان في وطني شعبا ، هذا الرجل نموذج حي له ، شفت اقواله نفسي مما لقيت لدى شيخ بني خالد ، هو ابعد ما يكون عن شيم العرب .. ولم اجد بدا بعد الاكرام الذي اخذ يتعاظم ، والحرص على سلامتي، والصدق الذي لمسته من ان اطلع مضيفي على الحقيقة ، وان اعتـرف لـه بانني ابراهيم هنانو ، فانكب على يقبل قدمي من شدة الفرح ، وانا ارفعـه عنهمـا ، وطلبت منه ان يسهل اتصالي بعمر الاتاسي . فغضب لذكر هذا الاسم عـلى لساني ، وقال : « مالنا وهؤلاء الافنديـة الذوات الذين ليس في اخلاقهم ضمان ولا ثقة، ونحن نرى نعال اكثرهم تخفق على ابواب المستعمرين ، سعيا وراء مصالحهم .. انهـم عبيد مصالحهم ، لا نطمئن نحـن الفقراء من عامـة الشعـب البهم .. وانا الفقير جنبـاز الخيل مستعد لان ابذل روحي في سبيـل وصولك الى المكـان الامـين الـذي يكفل سلامتك ، ولست اريـد ان يعلم احـد غيري بوجودك هنا .. وسأقوم مـن هـذه الساعة باعـداد العدة لسفرك الى شرقي الاردن من الطريق الامينة ،وسيكون سفرنا من هنا الى دمشـق ، ومن الطريق العامـة ، ولكن بعد ان اغير ملامح الحصان ، واجد

لك الزي المناسب الذي لا يلفت النظر ، ولا يثير الشكوك ، فاذا بلغنا دمشق ، ضمنت منها سفرك الى جبل الدروز ، فهل انت ضامن في الجبل من يساعدك على الوصول الى شرقي الاردن ؟ » قلت : « نعم ! لي فيه من اثق بوطنيته واخلاصه وقدرته على العمل » ، قال : « حسنا ساعد العدة ، وليس امامي غير تغيير اوصاف جوادك الذي أصبح اشهر من داحس والغبراء ، والابجر والخضراء في قصص العرب ، ولكنني انا الجنباز سأغير معالمه وابدل اوصافه ، واجعل منه جوادا آخر ، لا يمكن لاعظم خبير في الخيل ان يعرفه ! »

وفعلا جاء في اليوم الثاني بأصباغ ، وبمقص للشعر ، وبدأ بتغيير اوصاف الجواد، فقص شعر ذيله ، وبعض شعر لبدته ، وصبغ الغرة بين ناصيته ، والبياض في ارجله، وقص وصبغ حتى اذا رأيته حسبت انه فرس آخر ، ثم ذهب الى السوق ببعض نقودي واتاني بلباس كامل لزي اغوات عكار ، واخبرني انه استأجر رهوانة لعشرة أيام ، واننا سننطلق معا في الاصيل الى دمشق ، ومن طريقها العام نسير في الليل، ونستجم في النهار تحت ستار الحر في شهر تموز ، حتى نبلغ غايتنا . وانطلقنا على هذا النحو ، وفي أول مرحلة بلغنا « حسياء » حيث قضينا فيها النهار ، وبلغنا النبك في المرحلة الثانية ، ثم القطيفة . وكان رفيقي خير مؤنس لي ، ليس فيه علة الا انه كان يشرب الخمر في الطريق متذرعا بانه يقوي اعصابه في مهمته الخطيرة !. وكان معه بطحة يملؤها بالعرق ، كلما فرغت ، من القرى التي نلبث فيها أو نمر بها . ولما بلغنا ثنية العقاب في طريقنا من القطيفة الى جوبر بجوار دمشق ، صادفنا دورية من دركيين ترود المكان الذي تكثر فيه حوادث الشقاوة والسطو والسلب ، وخاصة في الليل ، فطلبا منا التوقف ، وفي ضوء عود ثقاب تعرفا الى وجوهنا ، فطلب أحدهما أن نسمح له بتحري ثيابنا وجيوبنا ومتاعنا من اجل رسائل لاتحمل طابع البريد .. فحملها ، على حد زعمهما ، ممنوع حسب الاوامر الصادرة الى المخفر ، ويتعرض حاملها الى غرامة نقدية !.. فقلت لهما : « مهلا .. فليس معنا رسائل ، وما نحن إلا عابرا سبيل نقصد دمشق لاشغال لنا فيها » ، قال أحدهما : « لا بد من التفتيش ، فلدينا اوامر مشددة حول ذلك ! » ، ثم دنا من رفيقي الجنباز ، واخذ يبحث في جيوبه . حتى اذا عثر على علبة التبغ صادرها باسم تبغها المهرب ، وعلى مسدس قديم من نوع « طبنجة »

لا تساوي قيمته ريالين في ذلك الوقت تسلح صاحبي به من حمص، فصادره الدركيان باسم سلاح ممنوع حمله ، ثم عثرا على زجاجة العـرق (البطحـة) ، وفيها ثلثاها ، فصادراها ايضا ، وهمهما شرب ما فيها على الطريق !.. وكنت في تلك اللحظة افكـر بنفسي وبالمسدس الحربي « برابيللو » الذي احمله ، واخشى ما اخشاه ان يقودنـي حمله الى المخفر ، فتكتشف هويتي، واسلم للفرنسيين، لذلك قررت ان اقتل الدركيين في حال اصرارهما على تفتيشي ، وافر بالجبال ، مهما كانت العواقب ، ولكـن اللـه ابى أن يبلغ بي هذا المدى ، فقد التفت الي احد الدركيين ، وانا ادافع عـن صاحبـي وتتنه ، ومسدسه ، وخمره ، واعارض مصادرتها ، وقال : « اننا يا آغا لن نفتشك احتراما لك ، ولكن لا بد من مصادرة هذه الاشياء الممنوعـة من رفيقك !» ، ثم لكزا جواديهما نحو القطيفـة ، ورفيقي الجنباز يكاد يجن جنونه ، فقـد صودر سلاحه ، واصبح بدون خمر ولا تبغ في طريق يستغرق قطعها بضع ساعات اخرى !.. ولما رايت حزنه وحنقه ، مددت يدي اليه بريالين ، وقلت : « الحق بالدركيين » على الرغم انني ما صدقت أن اخلص من بلائهما .. وادفع لهما المبلغ رشوة ، فانهما سيعيـدان اليك حاجتك » . ولحق بهما ، وكان له ما اراد ، وعاد مسرورا يشرب ، ويدخن ويغني ، ويعتز بحمل « الطبنجة » ، وبلغنا قبل الصباح قريـة جوبر ، فمكثنا الـى الاصيل ، وكان اصيـل يوم الاحد ، وحي القصاع غاص بالناس ، تجاوزناه ، دون أن نلفت النظر ، الى حي الخراب ، وحللنا في خان ترتاده قوافل جبل الدروز ، وقضينا في الخان ليلة ، وفي اصيـل اليوم الثاني ، ودعت رفيقـي الجنباز الـذي لا انسـى فضله علي ، ورافقت قافلة الى جبل الدروز ، وقصدت القرية التي يسكنها ابو نايف علي عبيد ، وهو شخصية وطنيـة في الجبل ، رغم عدم معرفتي به من قبل ، قصدته والقا من اخلاصه ، فلما بلغت داره استقبلني ولده نايف ، ورحب بي ترحيبا حـارا كضيف ، وانزلني في غرفة الضيافة ، ثم ذهب يدعو اباه من مضافـة احـد اصدقائه، ولما جاء الاب رحب اكثر ، ثم فاجاني ، دون سابق معرفـة بيننا قائلا : « الست في حضرة القائد المجاهد ابراهيم هنانو ؟ » ، قلـت : « نعم يا ابا نايـف ، ولكـن كيف عرفتني ؟ » ، قال : « كان هزاع ايوب ضيفي هنا منذ بضعـة أيام ، وقـد ضاع منكم صبيحة هوجمتم في الباديـة ، إذ رحلتم ، وخلفتموه مستغرقا في النوم ، ولم يستطع

اللحاق بكم ، بسبب تعرضكم للهجوم ، وجد وحده يقطع الباديــة ، حتى جاءني هنا، وحدثني عنكم ، وسالته عن اوصافكم ، فلما وقعت عيناي عليكم الآن عرفت أن ضيفي ابراهيم هنانو . » ، وقام ابو نايف علي عبيد بالواجب ، وهيأ لي السفر والرفاق الى عمان في شرقي الاردن ، واجتمعت هناك باخواني احرار الشام اللاجئين، وعرفت منهم أن الامير عبد الله بن الحسين خيب ظنهم فيه ، وبوالده ، واسرته ، إذ جعـل ارضاء الانكليز ديدنه وسياسته التي لا يحيد عنها ، في سبيل ارضائهم ، لذلك ضاعـت كـل الآمال الي بنيناها على هذه الاسرة حول مساعدة سورية في محنتها . قلت لا بد لـي من مقابلة عبد الله بنفسي ، والتحدث اليه في الموضوع ، وتوجهت الى الصيوان الذي نصبه في مرتفع من جبل عمان لديوانــه ، في انتظار بناء القصر الاميري ، وقابلتــه على انفراد ، واستنجزتــه الوعود التي قطعها والده وهو واخوته للعـرب ، وقلـت ان الفرصة اليوم سانحة لتنظيم ثورة في جنوب سورية تطرق ابواب العاصمة دمشق ، وغوطتها ، تعتمـد على مساعدة شرقي الاردن ، وانا لا اريـد منكم رجالا ، بل كـل ما أريده سلاحا وقليلا من المال ، ثم تعتمد الثورة على نفسها ، بعد ان تقوى وتشتـد وتتسـع ! » ، قـال : « ان الشـعب السوري خيب آمالنـا ، تخلـى عـن أخـي فيصــل ، وقوضــه عرشـــه ، وخـــان بيعتـــه ، حتـــى أصبـح أخــي ملكا شريدا بلا عرش ! .. » ، وجرى بيني وبين الامير الهاشمي جدل حاد أثبت له فيه وطنيــة الشعب العربي في سورية ، وتضحياتــه ، وبـذل كـل مرتخص وغـال في سبيل حريته ، وحملت اخاه فيصلا ، وبعض من تعاون معهم مسؤولية ضياع العرش، وضياع استقلال سورية ، وانحيت باللائمة على سياسته كملك ، وتردده ، ومسايرته الانكليز والفرنسيين المستعمرين ، واكدت له انالشعب مستعد الان لان يبذلالمهج وكل نفيس في سبيل استرداد استقلاله ، واعادة العرش الهاشمي وحمايته ، وليس يطلب من الذين يندبون ضيــاع عرشهم ، بسبب سياستهم ، الا ان يقدموا له القليــل من المساعدة . وبعد هــذا الحديث والجدل ايقنت الا رجاء للعرب في هذا الامير العميل، وخرجت من لدنــه مغضبا ، ورحت الى اخواني استحثهم أن يتدبروا لي جواز سفر من الاردن استطيع به ان اغادر البلاد العربية الى الغرب للتداوي ، ففعلوا ، وغادرت عمان الى فلسطين بطريقي الى الغرب ، ولكن الانكليز كانوا لـي في عمــان بالمرصاد ،

فقبضوا علي في فلسطين ، واسلموني الى اعدائي الفرنسيين الذين نقلوني الى السجن العسكري في حلب ، والفوا محكمة لمحاكمتي ، كما هو معروف من الناس ، محاولين ان يحملوني مسؤولية اعمال فردية ، وقعت في ثورة الشمال ، اسموها اعمال شقاوة وقتل وسلب ونهب ، فدافعت من نفسي ، واثبت ان مثل هذه الحوادث تقع في الجيوش النظامية احيانا عندما تحتل بلدا اجنبيا ، ولم تقع بامري ، بل من قبل افراد حوسب بعضهم ، ان لم يكن كلهم ، على ما ارتكبوا من اعمال خارجة عن اهداف الثورة، ولما اعياهم إثبات مسؤوليتي ، اضطروا الى براءتي، من تلك التهم ، واعتبروا ثورتي وطنية ، واخلوا سبيلي ، بعد ان بقيت في سجنهم أكثر من ستة شهور .

٥ ـ من ابطال ثورة الشمال :

٢ ـ هزاع ايوب :

اصله من قرية جبالا التابعة لمنطقة معرة النعمان ، ولد عام /١٨٩٦/ وبعد مقتل والده على يد العثمانيين رحل مع أهله الى عشيرة الموالي واشترك مع هذه العشيرة في مناهضة الفرنسيين . وبعد ان اعتقل بسبب تهريبه للسلاح سعى رئيس ديوان ولاية حلب ايام الحكم الفيصلي ابراهيم هنانو الى اطلاق سراحه ، ومنذ ذلك الحين توطدت علاقته مع ابراهيم هنانو واشترك في معارك الشمال ، وابدى بطولات مشهودة . وكان برفقة هنانو عندما قرر اجتياز البادية الى شرقي الاردن . وكان رسول الثوار بين الاردن وسورية ومن التجا الى تركيا من مجاهدي ثورة الشمال . وكان يجتاز البادية الشامية في ذهابه وايابه مما عرضه للمخاطر .

وفي عام /١٩٢٦/ قبض الفرنسيون على المجاهد هزاع ايوب في حارم . وسيق مكبلا بالحديد الى سجن خان الكمرك في حلب ، وكان يحمل هوية باسم مستعار ، فتقدم بعض الشهود وعرفوا الفرنسيين بانه هزاع ايوب نفسه ، وبقي مصرا على انكاره ، ولقي في السجن اشد انواع الضرب والتعذيب ، وكان يحمل بعض الرسائل الثورية الخطيرة منها رسالة بخط هنانو موجهة الى رضا باشا الركابي ، وفي الطريق اوقع نفسه في قناة ماء فاتلف ما يحمله من أوراق كانت كافية لاعدامه واخيرا قرر الفرنسيون اعدامه ، وانيطت حراسته بالدركي العريف المرحوم يوسف الصدير

من أهالي معرة النعمان ، فاشفق عليه وهربا سوية وتمكنا من الوصول الى عمان، وقد حكم العريف بالسجن خمسة عشر عاما ، وتوفي متوطنا في شرقي الاردن .

ب ــ الضابط البلغاري خريستو(٢٨):

أثناء ثورة الشيخ صالح العلي اسر المجاهدون في معركة مصابين (شرقي قلعة الخوابي) اثنين من الجنود البلغار يعملون في الفرقة الاجنبية . وبعد تراجع ثورة الشيخ صالح العلي التحق الجنود البلغار بثورة ابراهيم هنانو .

وفي شباط /١٩٢١/ ارسل ابراهيم هنانو المجاهد المعروف السيد هزاع ايوب بمهمة من منطقة الثورة الى اللاذقية ، يحمل رسالة من جندي بلغاري وقع اسيرا في يد ثوار هنانو رفيق بلغاري له الضابط خريستو في الفرقة الاجنبية الفرنسية ، فذهب متنكرا يسوق حمارا يحمل بيضا وغير ذلك من الاشياء التي تلفت النظر الى انه بائع متعيش ، وصل هزاع ايوب فوقف امام الثكنة العسكرية ، واتصل برفيق الجندي البلغاري وسلمه الرسالة ، وقد قبض الضابط خريستو على هزاع ايوب وهدده بالقتل للاقرار بالحقيقة ، وكان الضابط قد خشي مغبة الامر ، وان يكون من وراء ذلك دسيسة تودي بحياته ، ولما ايقن الضابط البلغاري صدق هزاع ايوب اتفق واياه وكان الضابط الوكيل صادق المغربي يقوم بالترجمة بين خريستو وهزاع، فاتفقوا على اللحاق به ليلا في موقع على بعد ثماني كيلو مترات جنوبي الطريق العام من اللاذقية ، وبعد العشاء حضر الضابط وصادق المغربي من المغاربة وتسعة عشر جنديا ، وهم يسوقون بغالا محملة بصناديق العتاد الحربي والرشاشات، فالحوا بالمسير كيلا تلحق بهم القوات الفرنسية ، فتفشل الخطة المرسومة ، واوصلهم هزاع الى هنانو وكان آنئذ في قرية (قيماس) في الجبل الوسطاني فاستقبلهم هنانو واستبشر بمقدمهم خيرا .

وقد حضر هذا الضابط ورفاقه المعارك الحربية ، ولما انتهت الثورة انسحبوا مع هنانو الى البادية في تموز /١٩٢١/ حيث شاركوا في معركة (مكسر الحصان) بالقرب من جبل البلعاس واحاط بهم العربان وقد اغرتهم الجوائز المالية الفرنسية بمطاردتهم ، فدافعوا عن انفسهم دفاع المستميت ، وقد قتل الضابط خريستو

برصاص مسدس احد مشايخ البدو المهاجمين وكان نصيب هؤلاء الجنود الصغار القتل ولم ينج منهم الا اثنان استسلما الى الفرنسيين .

رابعاً ـ هبة حوران ... مشاعر وطنية وكفاح ضد الاستقلال :

بعد سقوط دمشق في يد الفرنسيين وانسحاب الملك فيصل منها الى درعا اخذت موجة العداء للمحتلين الفرنسيين تتعاظم ، وكانت الطائرات الفرنسية قد القت المناشير محذرة الحوارنة من تأييد الملك فيصل والقيام بأي عمل عدائي لفرنسا . وفي الوقت نفسه لم يكن الملك فيصل وحاشيته متفقين على رأي موحد في امر مقاومة الاحتلال الفرنسي .

وشهدت أيام النصف الاول من آب /١٩٢١/ نشاط سياسي ملحوظ في معظم قرى حوران وانتشرت الشائعات المختلفة والمتناقضة حول السياسة الفرنسية . ولكن امرا واحدا بات اكيدا وهو فرض سلطات الاحتلال الغرامات على المناطق السورية وفي مقدمتها حوران . وسرت اشاعات ان الحكومة العميلة للاحتلال الفرنسي ، والتي لم يكن في يدها من الامر شيء ، دعت زعماء حوران وشيوخها الى دمشق للبحث معهم بشأن جمع الغرامات التي فرضها الفرنسيون على منطقتهم والاتفاق معهم على كيفية الدفع ، فأبوا الحضور ، ولهذا تقرر سفر وفد وزاري لـ « اقناع » الحوارنة بدفع الغرامات المفروضة عليهم وملء جيوب المحتلين الفرنسيين وعملائهم من السوريين بالاموال المجباة باسم الغرامات . وانتشرت اشاعة اخرى انتشار النار في الهشيم مفادها ان الوفد الوزاري القادم يحمل معه كمية من الذهب لتوزيعه على شيوخ حوران وارضائهم . ومن ثم جمع الغرامات من الفلاحين عن طريق المشايخ (٢٩) .

ولكن الامر ، الذي لم يكن اشاعة او من عالم الخيال هو وصول قوة عسكرية صغيرة الى حوران عن طريق القطار مؤلفة من عشرين جنديا من المستغل لاستكشاف الاجواء وجس النبض . فمانع الحوارنة مجيء هذه القوة واجبروها على العودة في القطار الى دمشق .

ولهذا رأى رئيس الوزراء الدروبي ضرورة زيارة حوران معتقدا أن بامكانه تهدئة الخواطر واقناع زعماء حوران بشأن الغرامات التي فرضها الفرنسيون ولم يأبه الدروبي بالبرقية التي ارسلها متصرف حوران الى وزير الداخلية يعلمه بأن

الشعب الحوراني في هياج ، وان الوضع الراهن يستوجب تأجيل الزيارة ريثما تهدأ الحال . وكان المتصرف مطلعا على أمواج الغضب العارمة في النفوس من جراء الاحتلال الاجنبي و فرض الغرامات . وكانت الطلقات النارية من فرسان الحوارنة تسمع في درعا ، مركز المحافظة ، محذرة ومعلنة رفض دفع الغرامات (٢٠) . اذن الاجواء الثورية مهيأة للقيام بتحرك جماهيري فلاحي سياسي ومسلح ضد الغزاة المستعمرين وغراماتهم . ولكن القيادة الفلاحية الممثلة في المشايخ والوجهاء لم تكن على استعداد للقيام بثورة مناهضة للاحتلال . وتدل القرائن على ان القسم الاكبر من المشايخ كان يضع رجلا في معسكر الفلاحين الناقمين الغاضبين ويستعد لوضع الرجل الثانية في معسكر الحكومة الدروبية عميلة الاحتلال الفرنسي والمصفقة له بعد ميسلون . وخبرة الفلاحين واسعة في السياسة التي اتبعها المشايخ ووجهاء القرى في حوران ، وفي معظم المناطق السورية ، حيث انهم كانوا السند الاساسي للسلطة الاقطاعية العثمانية في جمع الضرائب من الفلاحين والحصول على نصيب يكثر أو يقل حسب وضع السلطة المركزية وقوتها . في تلك الاثناء من أواسط آب /١٩٢٠/ انتشرت ، كما ذكرنا ، الاشاعة « بين العوام » بأن رجال الحكومة سيوزعون الاموال على زعماء العشائر لمساعدة الحكومة في جمع الغرامات . فبت الراي بوجوب قطع الطريق على رجال الحكومة في محطة خربة غزالة ومنعهم من اتمام مهمتهم في كسب الزعماء وجمع الغرامات عن طريقهم .

في /٢١/ آب ١٩٢٠ غادر الوفد الحكومي دمشق عن طريق القطار متجها الى حوران لا لكي يحمل اليه الحرية والحياة والاستقلال بل ليحمل له الرضوخ والذل ويحسن له العبودية والاضطهاد واخيرا لكي يجبي منه الغرامة ، التي فرضتها عليه السلطة الفرنسية . وقد تألف الوفد الحكومي على النحو التالي :

— علاء الدين بك الدروبي رئيس الوزارة ، الذي لعب في أحداث ميسلون دورا خيانيا اذ قام بجمع السلاح من المتطوعة وكان على اتصال بالفرنسيين يزودهم بالمعلومات ، والملك فيصل لايزال في دمشق. وحينما دخلت الجيوش الفرنسية دمشق رحب بها الدروبي واذاع في /٥/ آب بيانا ينذر فيه الاهلين والموظفين ، ويبرر اعمال الجنرال غورو ويخلق له الاعذار ، ثم أقام القائد الفرنسي مادبة تكريمية التى فيها خطابا التى فيها على فرنسا المستعمرة . وقد اثار موقفه نقمة الاوساط الشعبية ونال جزاءه على يد فلاحي حوران .

ـ عبد الرحمن باشا اليوسف رئيس مجلس الشورى وامير الحج الشامي قبل ١٩١٤/ ايام العثمانيين وكان على صلة وثيقة بالرجعية العثمانية قبل الحرب . وكان اليوسفي يظن ان له دالة على بعض مشايخ حوران تعود الى علاقاته التاريخية مع الحوارنة اثناء مروره على راس قافلة الحج السنوية .

ـ عطا الايوبي وزير الداخلية ، الذي عرف بعلاقاته الحسنة مع الجميع .

ـ الشيخان عبد القادر الخطيب ، وعبد الجليل الدرا .

وفي محطة خربة غزالة وهي سوق اقتصادية ومركز لتجمع سكاني موسمي احتشدت جماهير الفلاحين وهي تهزج معلنة عزمها على منع الوفد الحكومي من تحقيق مآربه والاتصال بالمشايخ وجمع الغرامات ١/٣٠ وحسب رواية حنا ابو راشد فان الفلاحين كانوا « يصيحون » فلتسقط الوزارة المؤلفة من الفرنساويين ».

في البدء ظن اعضاء الوفد ان الجموع جاءت لاستقبالهم وسرعان ماذهلوا وسقط في يدهم عندما ادركوا ان الجموع الفلاحية المحتشدة جاءت لمنعهم من تحقيق غايتهم في فرض الاستغلال والاستعباد تجاه هذا الموقف ، الذي لم يتوقعه رسل الظلم والاستعباد والاستغلال . اندس الدروبي في قاطرة الدرجة الثالثة ، ولكن الجموع الثائرة سرعان ما اهتدوا اليه وقتلوه ذبحا . وانهزم عبد الرحمن باشا اليوسف الى دار المحطة فلحق به الفلاحون وهناك ذبحوه بعد أن اطلقوا عليه الرصاص . أما عطا الايوبي والشيخان الخطيب والدرا ، فاستغلوا اختلاط الحابل بالنابل واختفوا لدى تجار محطة خربة غزالة وهم من حي الميدان في دمشق (٣١) ، الذين كانوا يسهمون في نهب خيرات الفلاحين واستغلال جهودهم .

على اثر ذلك جهزت السلطة حملات تاديبية على اهالي حوران وجرت مناوشات بين الجنود الفرنسيين والفلاحين الحوارنة في دير علي وغباغب لم يستطع فيها الحوارنة الصمود طويلا لاسباب كثيرة منها :

ـ خمود المقاومة في دمشق وضرب الحركة القومية فيها . وكانت حوران ، بعد انسحاب فيصل « بلا زعيم ولا قائد ولا نظام » ١/٣١ عندما زحفت عليها القوات الفرنسية .

- الطبيعة الجغرافية السهلية لحوران واختراق الخط الحديدي لها من الشمال الى الجنوب مما يسهل عملية نقل الجيوش والعتاد بسهولة . كما ان وقوع حوران على طريق الحج التقليدي واهتمام الدولة بتحويلها الى نقطة انطلاق واستقبال للحجاج بين الاهالي نوعا من المسالمة والولاء لمركز الولاية في دمشق .

- عدم رغبة المشايخ في قيادة النضال حتى النهاية وميلهم الى المساومة والاستسلام وتعدد الزعامات العشائرية وتصارعها واختلافها ازاء الموقف من المستعمرين .

وبعد تجريد الحملات التاديبية على حوران فرض الفرنسيون الغرامات الباهظة ، التي بلغت مليون ليرة ذهبية جمعت على اقساط ثلاثة ، خلال مدة ثلاث سنوات وجردوا الاهالي من السلاح بالاضافة الى القاء الطائرات الفرنسية القنابل على القرى واحراق الجند لبيادر الحبوب بعد نهبها . واحتجاجا على هذا الطغيان ارسلت لجنة الاتحاد السوري في مصر بتاريخ ٢٣/ ايلول /١٩٢٠/ الى الدول الاوربية الاحتجاج التالي (٣٢) .

« ذهل السوريون لقراءة البلاغات الفرنسية الصادرة بتاريخ /٢٣/ اغستوس واول سبتمبر سنة /١٩٢٠/ المنبئة بتدمير الجيش الفرنسي تدميرا منظما لمقاطعة حوران الزراعية التي هي اهراء سورية . الطيارات تخرب القرى باكملها قاتلة للنساء والاولاد بلا رحمة . نحن نستصرخ الامم المتمدنة ومنها الامة الفرنسية ضد هذه الاعمال الوحشية التي يقصر عنها الوصف وتورث الاحقاد » .

وفي العشرين من ايلول سنة /١٩٢٢/ اعدمت السلطة الفلاحين عوض صلاح الدين المصري وحسين الحاج ويوسف العيسى وزعل اليوسف بتهمة قتل الدروبي واليوسف في خربة غزالة .

وقد حاول عملاء الاستعمار والعناصر المتخاذلة والمساومة ، القاء تبعة اعدام الفلاحين وفرض الغرامات الباهظة على القرى ، على ثوار خربة غزالة محاولين تبرئة ساحة الاستعمار الافرنسي ومن سار في ركابه في سياسة افقار حوران واستنزاف جهود فلاحيه وعصر مدخراته بما فرض عليه من الغرامات والاتاوات والضرائب وتركيعه وفرض الاستسلام عليه وانهاكه حتى لا يتمكن من القيام باعمال مناهضة للاستعمار .

الفلاحون في الثورة السورية الكبرى

١ ـ الفن الحربي لفلاحي الجبل في معركتي الكفر والمزرعة :

طارت الشرارة الاولى للثورة السورية الكبرى من جبل العرب ، لسوء معاملة « كاربييه » الحاكم الفرنسي على الجبل . وكانت نتيجة مطالبة وجهاء الجبل باقالة كاربييه نفي عدد من زعماء الجبل الى الحمة وتدمر .

وهنا سارع سلطان باشا الاطرش المعروف بمقاومته السابقة للاحتلال الفرنسي الى القرى (٢٣) الجنوبية محرضا على الثورة . وتمكن في /١٧/ تموز /١٩٢٥ من احراق دار البعثة العسكرية الفرنسية في صلخد ، وفي اليوم التالي تمكن فلاحو قرية عرمان من اصابة طائرة حربية اضطرت للهبوط اضطراريا وأسر طياريها . فخرجت على الاثر في /٢١/ تموز /١٩٢٥/ فرقة افرنسية مؤلفة من ـ١٧٤ـ جنديا من السويداء لالقاء الرعب في قلوب الفلاحين والقبض على الثائرين ، ولكن الثوار اخذوا زمام المبادرة وباغتوا مخيم الفرقة بالقرب من قرية الكفر وتمكنوا بعد معركة دامت ساعتين من الاستيلاء على المخيم ، وقتل معظم أفراد الحملة ، واستشهاد عدد من الثوار (٢٤) ودل ذلك على مبادرة الثائرين في استخدام الارض والسرعة في التنفيذ والتنسيق الجيد بين عناصر الهجوم . اضافة الى الشجاعة المعروفة لدى فلاحي الجبل .

كان من نتائج معركــة الكفر تشجيع اعداد كبيرة مــن فلاحي الجبل ورعاته في الانضمام الى الثورة وتحرير مدينة السويداء بعد محاصرة الحامية في القلعة . التي اخذت تتلقى الامدادات عن طريق الطائرات . وهنا ظهرت مهارة الثائرين في اصطياد هذه الطائرات واسقاط سبع طائرات منها في الفترة الواقعة بين /٣١/ تموز و /٢/ ايلول ١٩٢٥ .

المهارة الحربية للثائرين تجلت بوضوح في معركة المزرعة على بعد /١٧/ كم غربي السويداء فمن اجل فك الحصار المضروب على قلعــة السويــداء جهز المستعمرون الفرنسيون حملة بقيادة الجنرال ميشو مؤلفة من عدة الاف ومدفعية ثقيلة وفرقــة مصفحات ودبابات ..

وضع الخطط الحربية لمهاجمة الحملة الفرنسية ، الفلاحون الذين تمرسوا على النضال ضد الحملات التي شنتها الدولة العثمانية عليهم وعشقوا نسيم الحرية واسترخصوا دماءهم في سبيل الذود عن ديارهم . وهب فلاحو القرى المجاورة ومشايخها الــى المعركــة للهجوم العام في ١٩٢٥/٨/٣ على جنود الاحتلال الفرنسي وهــم يحملون ماتيسر لهم الحصول عليه من اسلحة نارية واسلحة بيضاء بل حتى من الات الحصاد. وفي مساء /٣/ آب /١٩٢٥/ لم تعد للجنرال الفرنسي اية سلطة على قواته المتفككة . فأعطى الامر بالانسحاب تاركا في ساحة المعركة ما يزيد على الالف قتيل* وعتادا حربيا هاما ومدافع وبنادق وكمية كبرى من الذخيرة . اما الوطنيون فقد خسروا في معركة المزرعة حوالي /٢٥٠/ شهيدا .

فكيف تمكن الفلاحون بأسلحتهم العتيقة من هزيمة هذه القوة المسلحة تسليحا جيدا وثقيلا ؟

« ... كانت هــذه هي المرة الاولى التي يجابــه بها فلاحــو الجبل المصفحات والطائرات ... وفي صباح الثاني من آب/١٩٢٥/ تقدمت المصفحات والخيل الكشافة في طريق الدور /٢١/ كم عن السويداء ، فاستنفر المحاربون من قرى الجبل كافــة

---

* ـ قدر العيسمي في كتاب « محافظة السويداء » عدد القتلى بتسعة آلاف .

واقروا في اجتماعهم العام الذي جرى حول نبع قراصة ان يجابهوا القوة الفرنسية (٣٥) . . . » .

كانت الحملة تتجه نحو السويداء وهدفها انقاذ الحامية الفرنسية المحاصرة في القلعة ومن ثم اخضاع الجبل . . . وعندما راحت الخيالة بازاء قرية الدور انقضت عليها خيالة المجاهدين فوقع هؤلاء في كمين فلم يسلم منهم الا القليل . . .

وفي هذه الاثناء كانت المصفحات تفتح الطريق امام الجيش بينما راح المجاهدون يسدونه بالحجارة الضخمة مستترين بجدران الكروم الكثيرة والتلال الصخرية في حين كانت الطائرات تقذف بحممها القرى والتجمعات .

كانت معركة تل الخروف صدمة للثوار اقلقت نفوسهم . لذلك فترت همتهم فثبتوا حتى الظهر ثم تراجعوا تحت وطاة المدفعية والطائرات . فاتجه قسم منهم بقيادة سلطان الاطرش نحو ماء المزرعة ومنها انتقل الى قرية سليم في حين تراجعت القوى الاخرى يائسة نحو الجبال .

اعتبر المجاهدون ان المعركة قد انتهت وان طريق السويداء اصبح مفتوحا ، غير ان الخيالة المرابطين في نجران وحول نبع قراصة لم ييأسوا بل انقضوا عندالظهيرة على ساقة الجيش من الجهة الشمالية .

وكانت الساقة مؤلفةمن مشاة وزنوج سنغاليين ومن عدد من السيارات والدواب تحمل الارزاق والذخيرة وتحرس الجميع الرشاشات وبعض المصفحات . اشترك في الانقضاض على ساقة الجيش المرابطون من نجران وقراصة وبعضهم بتحريض من زوج المجاهد عباس ابي عاصي من نجران بعد ان رفضت أن يمد ثائر يده الى الزاد الذي اعدته لهم الا اذا وعد في العودة لساحة القتال ثم اشتركت قرى الثعلةوالسجن وعريقة وسميع والدور والمجدل وكفر اللحف وريمة الفخور وكان الانقضاض صاعقا عنيفا استسلمت على اثره الفرقة استسلاما تاما واسر ضابطها الفرنسي ومن بقي من افرادها حيا . ثم احرق المجاهدون ثلاث مصفحات مع ذخيرتها ونهبوا الارزاق والدواب وانطلقوا الى قراهم عند الغروب وهم يملؤون الفضاء حداء ورصاصا ، فانتشر خبر الانتصار والغنائم كالبرق فيانحاء الجبل فعادت الى نخوتها وحماستها. وفي

مساء اليوم نفسه كان الجيش مطوقا من كل جهة بنفوس عامرة بأمل نصر محقق .

... وفي الصباح فقدت الطائرات قدرتها على ضرب الثوار لانهم كانوا قد اختلطوا بالجيش في ملحمة رهيبة خلدت ضروبا من الفروسية واعادت للسيف العربي زهوه واعتداده وفقدت اسلحة الجيش الثقيلة والبعيدة المدى ميزتها فاصبحت المبادهة في ايد ي فرسان المجاهدين . فامر الجيش بالتراجع فكانت حركة تراجعه أذكاء لهم فتبارى ضاربو السيوف .. ومن اشهر ابطال المزرعة الشهيد سليمان العقباني الذي قتل بحد سيفه مالايقل عن الستة عشر من الرجال تركهم مجندلين ...

وفي هذه الاثناء كانت اكداس القتلى تسد طريق المصفحات فانقض عليها المجاهدون وتسلقوا ابراجها وقتلوا سدنتها من كواها وراحوا يقلبونها باكتافهم ويشعلون فيها النار ولم ينج منها الا ثلاث حملت احداها الجنرال ميشو قائد الحملة (٣٦) . ولم يتابع الثوار تقدمهم نحو دمشق بعد ان اصبح الطريق امامهم مفتوحا لانهم لم يكونوا قد تهيأوا لذلك من قبل .

٢ ـ بين الجبل ودمشق :

كان من ابرز النتائج السياسية لهزيمة الجيش الفرنسي في المزرعة امتداد روح الثورة الى المناطق السورية الاخرى وخاصة دمشق . وبدء الاتصالات بين زعماء الثورة في الجبل وقادة الحركة الوطنية في دمشق ممثلة بحزب الشعب وزعيمه الدكتور عبد الرحمن الشهبندر .

وقد ادت هذه الاتصالات الى قطع مفاوضات الصلح التي كانت قد بدات بين الفرنسيين وزعماء الثورة في الجبل . وكان لذلك اثره الهام والعميق لان الثورة في الجبل لم تبق ثورة محلية اقليمية . بل تحولت الى ثورة وطنية ذات اهداف اشمل واوسع (٣٧) ، وامتدت رقعتها الى معظم مناطق سورية الجنوبية وبخاصة دمشق وغوطتها .

كان أولى نتائج المفاوضات بين وفد الحركة الوطنية الدمشقية وسلطان الاطرش الاتفاق على تحرير دمشق ، بمساعدة قوة من الجبل . ولكن الحركة الوطنية في دمشق

المثلة في حزب الشعب والشهبندر لم تكن قد استعدت للثورة المسلحة . فلم تستطع نجدة القادمين من الجبل وبخاصة بعد اعتقال الهيئة الادارية لحزب الشعب في ٢٦ /آب/١٩٢٥/ وتوارى الشهبندر عن الانظار . وسرعان ما تصدت الطائرات الفرنسية لطلائع الخيالة القادمة من الجبل ، والتي لم تكن على خبرة في وسائل التمويه الحربي فتشتتت في /٢٤/آب ولم يتمكن من الوصول الى الغوطة الا عدد قليل من الفرسان لم يستطع ان يقوم بأي دور لان فلاحي الغوطة لم يكونوا قد استعدوا للثورة .

ان اتصال الجبل بدمشق وتحرك ثوار الجبل باتجاه دمشق لتحريرها بمساعدة وطنييها كانت له أبعاد دلت على نمو الروح القومية وعدم اقتصار الثورة الوطنية على منطقة ضيقة ، وهذا هو سبب تسمية ثورة /١٩٢٥/ بالثورة السورية الكبرى .

٣ ـ معركة المسيفرة بطولة فلاحية ، رغم الفشل :

بعد هزيمة المزرعة اخذت السلطات الفرنسية تستعد للمعركة المقبلة وتحشد الاليات والرواجل في حوران متمركزة في محطة خربة غزالة . وقام القائد الفرنسي الجديد غاملان بفتح محطة تموين عسكرية في قرية المسيفرة ، التي تقع في منتصف طريق خربة غزالة السويداء وذلك لامداد وحداته عندما تتقدم باتجاه السويداء وخاصة بالمياه التي تفتقر اليها قرى الجبل . وفي /١٤/ ايلول /١٩٢٥/ تمركزت في قرية المسيفرة اربع كتائب مشاة تمركزت حول القرية وفي داخلها واقامت التحصينات والخنادق . مما جعلها تسيطر على الارض السهلية المحيطة بالقرية .

عندما اقتربت طلائع الحملة من قرى الجبل جرى اجتماع عاجل في قرية سهوة البلاطة في صباح /١٦/ ايلول ، وبدأ التشاور بشن الهجوم على نقطة المسيفرة قبل ان يتمركز فيها الجيش الذي يدعمها والمتجمع في خربة غزالة ودرعا . ولكن القيادة (سلطان الاطرش) لم تحبذ التعرض للعدو في منطقة سهلية . الا أن الحماسة السورية ما لبثت ان سيطرت بين الاهازيج الحربية والنخوات الشعبية .. وهكذا انطلق حملة البيارق خلفهم الثوار في رابعة النهار باتجاه سهل المسيفرة . وكانت الحماسة قد اعمتهم الى درجة انهم لم يخطروا اهالي الثعلة وجوارها بذلك الهجوم،

ومع الغروب انطلقوا من قرية كناكر الى ام ولد ومن ثم بدأ الهجوم على المسيفرة بعد منتصف الليل على امل مباغتة الفرنسيين وهم نيام .

ومع ان سلطان باشا الاطرش لم يستحسن الهجوم في سهل مكشوف الا ان رايه كما يذكر سلامة عبيد ـ لم يكن ملزما . فان الانتصارين السابقين في الكفر والمزرعة لم يكونا نتيجة لاوامر اصدرها سلطان القائد . وانما كان هجوما جماعيا كان فيه القائد واحدا من المهاجمين . ولم يكن هو واضع الخطة والآمر بتنفيذها ، ولذا كان الثوار يعتقدون بامكانية الانتصار في هجوم جماعي دون التقيد براي القائد ، هذا الراي الذي لم يكن دائما ملزما لكل ثائر . فقد كان الثائر او المجاهد ـ والكلام لعبيد لا يستطيع ان يتصور نفسه جنديا تحت قيادة سلطان بقدر ما يتصور نفسه انه رفيق لسلطان او زميل له في المعركة (٣٨) .

ومع بدء المعركة تراجع البعض واستطاع البعض الاخر ان يشق لنفسه ـ بقيادة محمد عز الدين الحلبي الذي قتلت فرسه فوق الاسلاك الشائكة ـ طريقا الى القرية بشجاعة نادرة . فدارت في المنازل والازقة معركة عنيفة استطاع الثوار على اثرها ان يتمركزوا داخل البلدة وان يصدوا نجدة من خيالة العدو حاولت ان تدخل البلدة (٣٩) .

وفي صباح السابع عشر من ايلول شن الثوار الذين لم يتمكنوا من دخول المسيفرة ليلا هجوما نهاريا في محاولة لسحق مقاومة العدو . الا انهم اضطروا الى التراجع تحت ضغط نيران العدو المستميت وغارات الطائرات ، التي بلغت سبعا وعشرين غارة خلال ثلاث ساعات .

وفي مساء /١٧/ ايلول اضطر الثوار للانسحاب من المسيفرة مخترقين طوق الحصار بالقوة بعد ان خسروا حوالي /٢٧٠/ رجلا من اشد رجالهم اي بمعدل سبع خسارتهم في سنتي الثورة .

يضاف الى ذلك ان المستعمرين اعدموا ثلاثة من وجهاء قرية المسيفرة بحجة تعاونهم مع الثوار . وكان اهل المسيفرة قد هجروها عندما استقرت طليعة الحملة

فيها . وننقل فيما يلي فقرة من كتاب «دوتي» احد افراد الجيش الفرنسي تبين وضع المسيفرة انذاك . كتب دوتي : (٤٠)) .

« والمسيفرة مجموعة كثيبة من البيوت ذات السطوح الترابية يتوسطها جامع. وكان من تبقى فيها من السكان البؤساء ينظرون الينا شزرا . وما عتمنا ان علمنا انهم متواطئون مع العدو وانهم يعملون لحساب الدروز ينقلون اليهم المعلومات الكاملة عن تحركاتنا وعن قوتنا ايضا » .

وكتب دوتي عن اليوم الثاني من المعركة ما يلي : « ثم بدأ تطهير القرية كل القرية ومن ثم امر الكولونيل اندريا ان تجمع الجثث في صفوف امام القرية لتكون عبرة ، اذ ان هذه القرية (المسيفرة) كانت تعتبر قرية طائعة قبلت الخضوع للسلطة الفرنسية ودفعت الضرائب الا أنها اثبتت انها قرية غدارة » اي انها تعاونت مع الثوار .

بعد هذا الانتصار الجزئي في المسيفرة تحركت حملة غاملان باتجاه السويداء وتمكنت بعد عدد من المناوشات من دخول السويداء ، التي كانت خالية من السكان وانقاذ الحامية في ٢٤ / ٩ / ١٩٢٥ .

ظن الثوار ان دخول السويداء كان الضربة القاضية ، ولهذا بدأ يتوافد على الجنرال قائد الحملة بعض الزعماء ومن يتبعهم من الاهالي بقصد التسليم . وكان في طليعة المستسلمين الامير حمد الاطرش في عرى . ولكن سرعان مافوجيء اهالي الجبل بانسحاب الحملة كاملة(٤١) .

ويعود احد اسباب الانسحاب المفاجيء الى تخوف القيادة من حصار جديد بعد ان قطع الماء عن القلعة وهددت طرق تموينها ، لاسيما ان النواة الاساسية للثورة في الجبل لاتزال متوثبة للهجوم . والسبب الاهم للانسحاب المفاجيء هو اندلاع الثورة فجاة في حماه وخوف القيادة الفرنسية من انتشارها . ولذا اضطرت الى استقدام النجدات وتجميع القوى .

انتعشت النفوس في الجبل لاخلاء السويداء وزاد في انتعاشها قدوم رشيد طليع ببعض الاعانات التي بدات ترد من المهجر بطريق فلسطين والاردن ، وتجديد الاتفاق مع الدكتور الشهبندر لماجمة دمشق ثانية ، ووصول اخبار قيام الثورة في حماه .

٤ ـ قرى الغوطة بؤر وطنية للكفاح المسلح :

يلاحظ ان التحرك الوطني الثوري في دمشق وغوطتها تاخر عن المعارك ، التي جرت في الجبل . وكنا راينا ان حملة فلاحي جبل العرب باتجاه دمشق في آب ١٩٢٥ منيت بالفشل قبل وصولها الى دمشق . ولم تتمكن القوى الوطنية الثورية في دمشق من تحريك الجماهير اوقسم منها في ذلك الحين . وبعد هذا الاخفاق اخذت القوى الوطنية المناهضة للاحتلال الفرنسي تغادر دمشق وتلتجيء الى الغوطة لتجعل منها بؤرة ثورية تنطلق منها الى دمشق والى المناطق المجاورة .

حدثت اولى معارك الغوطة في ١٣ / ١٠ / ١٩٢٥ اي بعد معركة المسيفرة ودخول القوة الفرنسية السويداء في ٢٤ / ٩ / ١٩٢٥ . وعدم قيام الثورة في آن واحد في عدد من المناطق مكن قوى الاحتلال الاستعماري الفرنسي من الاستفراد بالقوى الوطنية وتوجيه الضربات لها منفردة .

شهد شهر تشرين الاول ١٩٢٥ عددا من المعارك بين الثوار والفرنسيين في جوبر ١٣ / ١٠ / ١٩٢٥ والمليحة ١٤ / ١٠ / ١٩٢٥ والضمير ١٥ / ١٠ / ١٩٢٥ وكان الامر الهام هو اتفاق كلمة المجاهدين على مهاجمة دمشق في ١٨ / ١٠ / ١٩٢٥ وحققوا نجاحا ملحوظا وكادوا يختطفون المفوض السامي الفرنسي سراي في قصر العظم ، مما ادى الى قصف دمشق بالقنابل في مساء ١٨ / ١٠ / ١٩٢٥ .

ومنذ اوائل تشرين الثاني ١٩٢٥ اعتصم الثوار الوطنيون في الغوطة ، التي امنت لهم اشجارها وحيطان بساتينها وانهارها عوامل النجاح في حرب العصابات كالقدرة على الاختفاء والحماية من انظار العدو ونيرانه الارضية والجوية . كما قدم فلاحو الغوطة المعونة بمختلف اشكالها للمجاهدين .

وتعرضوا بسبب ذلك لانتقام قوى الاستعمار وبطشها بالقرى وقتل المشتبه بهم وحرق البيوت وفرض الغرامات ونهب مايجدونه في بيوت الفلاحين .

ان طبيعة الارض ودعم الفلاحين للثورة في مراحلها الاولى ومشاركتهم فيها مكن ثورة الغوطة من الاستمرار مدة طويلة ومن خوض معارك عديدة دامت من تشرين الاول

١٩٢٥ وحتى اواخر عام ١٩٢٦ . وبعض العصابات تمكنت من البقاء حتى آيار ١٩٢٧ . حيث جرت آخر معركة استشهد نتيجتها الامير عز الدين الجزائري .

وفي الحاشية اثبتنا اسماء القرى التي ضربتها الطائرات الفرنسية ودمرتها او اصابتها باضرار خارج جبل العرب . ومن الجدول يتبين بوضوح فعالية مشاركة قرى الغوطة في الكفاح المسلح (١/٤١) .

٥ ـ فلاحو القلمون والثورة :

في اواخر ١٩٢٥ امتدت الثورة الى جبال القلمون التي خضعت كليـة للثائرين وشكلت منطقة دعم اساسية للغوطة الثائرة وقد سعى الفلاحون الثائرون الى مـد نشاطهم لمنطقة القصير وعرقلة سير القطر بين رياق وحمص .

وقد اذاع مجاهدو القلمون بيانا دعوا فيه الى تاليف هيئة او لجنة خاصة في كل قرية تتكون من وجهاء القرية واعيانها للاشراف على اعمال الثورة . ودعا البيان الى اجبار المقتدرين على شراء السلاح وتسليح من لاقدرة له. كماحث البيان على تخصيص مستودع في كل قرية لخزن واردات الاعشار ، التي يجب ان تجبى من الاهالي بموجب وصولات تعطى باسم (الحكومة الثورية السورية (٤٢)) .

كان مركز الثورة في النبك ، التي تجمع فيها في الاسبوع الثاني من آذار ١٩٢٦ مجموعات فلاحية مسلحة او راغبة في التسليح من قرى القلمون الثائرة ، وكذلك عدد من فلاحي دوما وحرستا مع مجموعة من المثقفين الثوريين من المـدن ، وقـد ادت الخلافات المحلية ورغبة بعض رؤساء العصابات الثائرة في اخضاع خصومهم المحليين والقيام بتجميع الثروات بصورة غير مشروعة عن طريق الكسب واللهو وجمع الامتعة وفرض الغرامات الى توجيه الجهود الفلاحية الثائرة وجهة تخالف اهداف الثورة . ولم يستطع فوزي القاوقجي وسعيد العاص من تنظيم الفلاحين الثائرين وتوجيههم باتجاه العدو المستعمر . ولهذا لم يتجمع في منطقة الصدام مع الحملة الفرنسية القادمة من حمص الاعدد قليل من الثائرين ، الذين اضطروا للانسحاب بعد قتال بسيط في ١٢ آذار ١٩٢٥ في مضيق عيون العلق بعد استشهاد المجاهد فؤاد رسلان من حمص وابراهيم صديقي المغربي الاصل والدمشقي المولد والضابط والمعلم السابق .

ومع ان الحملة الفرنسية واجهت في ١٤ آذار ١٩٢٦ مقاومة عنيفة على مشارف النبك ابدى فيها الثوار وبخاصة اهالي النبك ضروبا من الشجاعة . الا ان الثائرين اضطروا للانسحاب من النبك في ١٥ / ٣ / ١٩٢٦ حيث سيطرت القوى الفرنسية على القلمون مرة اخرى وامست تهدد الجناح الشمالي للغوطة الثائرة ».

٦ ـ حملة الجبل الى جبل الشيخ والبقاع الجنوبي :

بعد ان اطمأن ثوار الجبل على اثر انسحاب الحملة الفرنسية من السويداء في اواخر ايلول ١٩٢٥ تالفت في نهاية تشرين الاول حملة قوية برئاسة زيد الاطرش لمساعدة فلاحي جبل الشيخ . وكانت الحملة وهي تعبر سهول حوران تتحاشى المواقع الفرنسية وتسير في الليل وتكمن في النهار اتقاء قصف الطائرات الفرنسية التي تمكنت من الاهتداء اليها قرب قرية الخيارة فاستشهد من جراء القصف مجاهدان وعدد من اهالي القرية نفسها . وقد اتخذت هذه الحملة من قرية مجدل شمس الواقعة على سفح جبل الشيخ مركزا لها . كما توجه جانب من تلك الحملة الى وادي التيم في البقاع الجنوبي واستولى على حاصبيا في ١١ تشرين الثاني . وقام بهجمات شجاعة على قلعة راشيا . واخيرا انتهت العمليات الثورية في تلك المنطقة في ربيع ١٩٢٦ .

كان على قيادة الحملة في وادي التيم ان تراعي التوازنات الطائفية وترد سهام السياسة الاستعمارية الى نحورها والهادفة الى تحويل النضال الوطني الى اقتتال طائفي ومذابح اهلية. ولهذا فان قائد الحملة زيد الاطرش اذاع بيانا (٤٢) « الى اخواننا المسيحيين في قضاءي حاصبيا وراشيا المحترمين أعزهم الله » استهله بعبارة « الدين لله والوطن للجميع » ، جاء فيه : « بلغنا من الوطنيين الاعزاء أن بعضكم داخلهم خوف من وجود الحملة الوطنية في جوارهم فأخذوا ينزحون توهما منهم أن الثورة قد تصيبهم بأذى . فساءنا هذا الخبر لانهم اخوان لنا لا فرق بينهم وبين اي كان من الطوائف الاخرى ... وقد اضطررنا بسبب موقفكم هذا الى مخاطبتكم بصفتكم الطائفية على اننا لم نفعل ذلك تنزيها للثورة الوطنية من شوائب النزعات البعيدة عن الروح القومية ... »

موقف البعث العربي الاشتراكي
من المسألة الفلاحيـــة
التمهيـد والبـدايات

لم تعبر المنطلقات السياسية والاجتماعية لحزب الشعب والكتلة الوطنية عــن المصالح القومية والوطنية لجماهير الشعب ولاسيما مصالح الفئات الاجتماعية الصاعدة ومصالح الجماهير الفلاحية والفقيرة المحرومة وخاصة من خلال دعوتهما لانتهاج ثـورة فكرية سلمية وعدم الجدية في مقارعة المستعمر . فاجتمعت عام ١٩٣٣ مجموعة مــن الشباب المثقف المستنير على شكل مؤتمر أطلقت على نفسها عصبة العمل القومي ، وقد دعت العصبة في الجانب السياسي من بيانها الختامي والصادر عن مؤتمرها ذاك الـى المطالبة بسيادة العرب واستقلالهم المطلقين والى الوحدة العربية الشـــاملة ، اما في الجانب الاقتصادي فقد دعا البيان الى توحيد الجهود الاقتصادية في مختلف الاقطـــار العربية ، وضم رؤوس الاموال الصغيرة للقيام بمشاريع كبيرة ، وازالة الحواجـــز الجمركية بين البلاد العربية عن المنتجات والصناعات العربية ، واعتبار مصلحة المجموع فوق المصالح الخاصة ، كما دعت العصبة في بيانها الى محاربة الشركات الاجنبية ، وعدم الاعتراف بما منحت او ستمنح من امتيازات ، ودعا الى تاميمها والعناية بالطبقة العاملة والعمل على نشر الوعي والثقافة بين صفوفها ورفع مستوى القرية اجتماعيا وثقافيـا وصحيا ، كما دعا المؤتمر الى مقاومة الاقطاعية والحد من نفوذها ، وتحديد مقدار التملك العقاري بنسب تساعد على النمو الزراعي .

وعلى الرغم من هذا الوضوح في الدعوة الى عدم الاعتراف بامتيازات الشركـات الاستعمارية والدعوة الى تاميمها ، وتحديد الملكية العقارية ، ومحاربة الاقطاعية ، فان عدم التجانس في البنية الطبقية للعصبة ، واحتدام التناقضات الاجتماعية داخلها اديـا الى انقسامها بين يمين مؤيد للبرجوازية ومهادن للاقطاع ، ويسار يعبر عن مطامح الفئات المتوسطة والصغيرة . وقد انضم قسم من هذا اليسار الى حركـة البعث العربي التي

بدأت مسيرة عمل نضالي وفق منطلقات نظرية جديدة ، ويعتبر عام ١٩٤٣ نقطة تحول حاسمة في التاريخ السياسي لسورية نتيجة الظروف السياسية والاقتصادية المستجدة . فقد أعادت سلطات الاحتلال الفرنسي العمل بالدستور الذي وضعته الجمعية التأسيسية التي كانت قد انتخبت عام ١٩٢٨ ، واجريت نتيجة لذلك انتخابات برلمانية لاقامة برلمان جديد ، وانتخاب رئيس للجمهورية وقد كان الحدث الابرز في ذلك العام ظهور « حركة البعث العربي » اول مرة لا كحزب سياسي فقط ، وانما ممثلة لايديولوجية شعاراتها الاساسية هي الوحدة والحرية والاشتراكية .

لقد جاء تأسيس الحركة في الوقت الذي اخذت فيه البنية الاقتصادية والاجتماعية لسورية تطرأ عليها تغييرات جذرية ، ذلك ان فترة الحرب العالمية الثانية والسنوات التي أعقبتها كانت فترة ازدهار حقيقي للاقطاع الزراعي ، وبداية نشوء البرجوازية التجارية وصعودها ، ففي الوقت الذي كانت فيه البلاد ترزح تحت وطأة احتلال جيوش الحلفاء ، كانت الجماهير ولاسيما الفلاحية في الارياف تكدح في الاراضي التي تملكها الاقطاعيون ، وكبار الملاك العقاريين ، والطبقة الوسطى والفقيرة في المدن تعاني الفاقة، وما يشبه المجاعة أحيانا ، بينما كان الاقطاعيون وكبار الملاك يكدسون مئات الملايين من بيع المحاصيل لقوات الحلفاء لتموين جيوشهم بينما تحرم الجماهير الواسعة ، وخاصة في المدن من الخبز اليومي . وكان التجار بدورهم يكدسون الملايين أيضا بسبب الاحتكار والتعامل في السوق السوداء والمتاجرة مع جيوش الحلفاء ، مما ادى الى اتساع الطبقة الوسطى في المدن ، وازدياد نسبة المتعلمين من أبنائها وتكوين فئات ثقافية ذات أصول فقيرة .

في هذه الظروف الدقيقة والصعبة ظهرت حركة البعث العربي ، وقد استمدت من التراث الثوري العربي والعالمي منطلقها الاشتراكي ، وأكدت الحركة منذ انطلاقتها الاولى ، كل ما اعترف به فيما بعد ، أن النضال من أجل الوحدة القومية لشعوب البلدان المستعمرة هو نضال ضد الاستعمار، وضد المصالح العامة للامبريالية ، هذه المصالح المرتبطة بكيانات التجزئة ، وان تحقيق الوحدة العربية شرط اساسي لدخول المجتمع العربي مرحلة البناء الاشتراكي وأن ثمة علاقة عضوية موضوعية وعلمية بين مسيرة الجماهير العربية نحو وحدة كيانها القومي ومسيرتها لبناء الاشتراكية . وان هذين الهدفين متلاحمان في عملية تاريخية واحدة .

لقد كرست حركة البعث العربي هذا الموقف عندما اكد بيانها التاسيسي ان الحركة تمثل التاريخ العربي الحي ضد الرجعية الميتة ، والتقدم المصطنع ، وبهذا المعنى فقد رفضت طريق التطور البرجوازي الراسمالي ، واعتبرت أن الطبقات الرجعية (الاقطاع والراسمالية) طبقات ميتة لانها لم تستطع أن تحقق التقدم المنشود كما جرى في أوربا ، ولذلك اعتبرها البيان طبقات ميتة وان الانجازات التي تدعي انها حققتها انما هي تقدم مصطنع يأتي في اطار القشور ولا ينفذ الى عمق البنية التحتية في علاقات الانتاج السائدة . وقد توضحت بصورة جلية الاتجاهات الديمقراطية والاشتراكية في فكر حركة البعث وهي تطور نفسها من حركة الى حزب خلال عملية التطور اللاحقة والذي جاء عبر سياق المعارك النضالية التي خاضتها ، واتخذت مسألة بناء المجتمع الجديد وقضية الكادحين عموما ابعاداً جديدة ، كما استأثرت المسألة الزراعية وقضية الفلاحين باهتمام بالغ في الوثائق الصادرة عن المؤتمر التاسيسيّ للحزب . فقد افرد الدستور المقر في ذلك المؤتمر منطلقات اقتصادية هامة يمكن ان نلمح فيها النقاط التالية :

١ ــ لقد جاء في الدستور : ان « حزب البعث العربي الاشتراكي » اشتراكي يؤمن بأن الثروة الاقتصادية ملك الامة ، وان التوزيع الراهن للثروات في الوطن العربي توزيع غير عادل » .

٢ ــ رفض الحزب أسلوب الاستثمار والاستغلال الاقطاعي عندما حدد ان المواطنين متساوون بالقيمة الانسانية ومنع استثمار جهود الاخرين ، ودعا الى تحديد الملكية الزراعية بالشكل الذي يتناسب ومقدرة المالك على الاستثمار الكامل دون استثمار جهد الاخرين وتحت اشراف الدولة وفي اطار برنامجها الاقتصادي .

٣ ــ لم يكتف الحزب بالنظر الى مسألة تحديد ملكية الارض بل تعدت نظرته الى وسائل التمويل والاستثمار في مواجهة العلاقات الربوية التي كان يمارسها التجار واصحاب الخانات القديمة والتي كان يئن تحت مظالمها الفلاحون . لذلك اكد الحزب على ضرورة الغاء الربابين المواطنين ودعا الى تاسيس مصرف حكومي يتولى هذه المهمة ويغذي المشروعات الزراعية والصناعية .

٤ ــ اكد الحزب ضرورة سن تشريع عادل للعامل تحدد بموجبه ساعات العمل اليومي ويمنحه عطلة اسبوعية واجازة سنوية ماجورة ، ودعا الى صيانة حقوق العامل بالتامين الاجتماعي في الشيخوخة وتعويض العمل الجزئي أو الكلي اثناء العمل .

٥ ــ دعا الحزب الى تشكيل نقابات حرة للعمال والفلاحين واعطاهم الحق المطلق بذلك ، كما دعا الى تشجيع تاسيس تلك النقابات لتصبح اداة قادرة على الدفاع عن حقوق الطبقات الكادحة وتعمل على رفع مستواها المعاشي واكد ضرورة تمثيل تلك النقابات في محاكم العمل العليا ، حتى لاتبقى جماهير العمال والفلاحين اسيرة النفوذ الاقطاعي والراسمالي الذي يسيطر على ادارة القضاء . وشدد على اهمية تشكيل محاكم خاصة تختص بقضايا العمل بشكل عام والعمل الزراعي بشكل خاص للفصل في الخلافات بينهم وبين مديري المعامل وممثلي الدولة .

٦ ــ اكد الحزب ضرورة الغاء التفاوت الطبقي نتيجة الوضع الاجتماعي السائد والفاسد ، ودعا الى النضال في صف الطبقات الكادحة المضطهدة من المجتمع حتى يزول التفاوت والتمايز ، ويستعيد المواطنون قيمتهم الانسانية كاملة وتتاح لهم الحياة في ظل نظام اجتماعي عادل لاميزة فيه لمواطن على آخر سوى كفاءة الفكر ومهارة اليد .

٧ ــ وانطلاقا من الدور الذي يحتله البدو ونمط حياتهم في ضعف الانتاج الوطني فقد اعتبر الحزب البداوة حالة اجتماعية ابتدائية تضعف الانتاج ، وتجعل فريقا من الامة عضوا مشلولا يعرقل النمو والتقدم ولذلك فقد دعا الى ضرورة النضال الدائب لتحضير البدو ، ومنحهم الاراضي ، والغاء نظام الاستثمار العشائري المستغل وتطبيق القوانين والانظمة النافذة على البدو .

لقد راى الحزب أنطلاقا من دراسته لتجربة حركة التحرر العربية واخفاقاتها خلال العقود الاولى من القرن العشرين ان اية نظرية نضالية لايمكن أن تستكمل الا في ضوء التجربة النضالية التي تصقلها ، وعلى الرغم من ذلك فاننا نستطيع تلمس جوانب التكامل ــ في ذلك الوقت المبكر نسبيا ــ في المشروع الاشتراكي الذي طرحه الحزب . لقد اثبتت السنوات اللاحقة من النضال ولاسيما في سنوات تعدد الانقلابات العسكرية وتتاليها والتي كان احد اسبابها محاولة لجم القوى الطبقية الصاعدة لمصلحة الطبقات الاقطاعية والراسمالية المستغلة ــ ان الحزب كان امينا على توجهاته تلك فاتسعت قواعده لتضم عددا كبيرا من فلاحي الريف الفقراء باعتبارهم اداة نضالية هامة على طريق نضاله . وقد كرست البيانات التي اصدرها الحزب خلال تلك السنوات « البطالة والغلاء وتاميم الريجي ونداء الى العمال والفلاحين وازمة الماء والغذاء في جبل العرب » الاصداء الحقيقية لتطلعات الجماهير الكادحة بشكل عام وجماهير الفلاحين في الريف بشكل خاص .

انتفاضـــة حمـــــاه :

بعد اندلاع الثورة في جبل العرب تعاظم الشعور الوطني في مدينة حماه في أوساط الفئة المثقفة المناهضة للاستعمار الفرنسي كما برز تيار مناهض للاقطاعية وكبار الملاك في مدينة حماه وريفها .

لقد تفجر المثقفون والطلبة حماسة وطنية وحقدا على الانتداب الفرنسي ، والى جانب هذه القوة الوطنية المثقفة كانت القوى الاقطاعية في حماه تمارس دورين ، فهي من جهة تعقد أوثق الصلات مع سلطات الاحتلال الفرنسي من اجل تسيير مصـــالحها ، وحماية ممتلكاتها ، وتأمين واردات اراضيها الاقطاعية ، ومن جهة اخرى كانت تشـعر بالمد الوطني المتعاظم فتتطلع الى ركوب الموجة ، وتسخير هذا المد خدمة لمصالحهـا الطبقية والظهور بمظهر الزعامة الوطنية ، وفرض السلطان .

وفي تلك الاثناء ظهر الضابط العربي فوزي القاوقجي (من طرابلس الشـــام) في الجيش الافرنسي السوري المختلط حيث كان في العام ١٩٢٥ ضابط المصالح الخاصـة بالوكالة في مدينة حماه ، وقام بنشاط سري ملحوظ من اجل التحضير للثورة في حماه .
في صباح ١٩٢٥/١٠/٤ احتلت جموع المجاهدين في حماه مخافر الشرطة دون اراقة دماء ، ثم توجهت الى دار الحكومة حيث نشبت معركة مع سرية فرنسية كانت تحرس الدار، اضطرت للانسحاب ، وقام الثوار بكسر باب السجن واخراج مايزيد عن خمسـمائة سجـين .

وفي صباح ١٩٢٥/١٠/٥ فشلت قوة الفرسان الفرنسيين بالتقدم باتجاه المدينة ومع وصول النجدات من حمص وحلب تمكن الفرنسيون بعد معارك في الشوارع من احتلال المدينة ، وانسحب الثوار منها .

وكان من اهم نتائج ثورة حماه اجبار الفرنسيين على الانسحاب من جبـل العرب ، وتوجيه القوات نحو حماه ، وهذا ماساعد ثوار الجبل على التقاط أنفاسهم ، ثم توسيع هجماتهم الى خارج الجبل في مناطق الغوطة والقلمون واقليم البلان .

وعندما ادرك فوزي القاوقجي فشل ثورة حماه ، انسحب مع عـدد من الثوار من حي الحاضر في الليل باتجاه الشمال ، وضم الى قواته بعض مسلحي البدو من عشـيرة الموالي ، وهاجم بهم مخفر الحمراء وبلدة معرة النعمان واحرقت قوته محطة كوكب على الخط الحديدي شمالي حماه ، ومن ثم ابتعد الى البادية ، والتجـا الى شرقي الاردن ، ثم عاد وشارك في معارك الثورة في الغوطة والقلمون .

ـ عوامل نجاح واخفاق الكفاح الوطني المسلح

لم يكتب للثورات المسلحة ضد الاحتلال الاستعماري الفرنسي النجاح بسبب عوامل كثيرة خارجية وداخلية :

١ ـ العوامل الخارجية :

اتى في طليعة العوامل الخارجية قوة الامبريالية الفرنسية ، التي خرجت من الحرب العالمية الاولى منتصرة بعد أن قضت على منافستها الامبريالية الالمانية وعقدت الصفقات الاستعمارية مع الامبريالية البريطانية من اجل تقسيم مناطق النفوذ في العالم وفي طليعتها المشرق العربي . وعلى الرغم من ان النظام الراسمالي دخل في اولى ازماته العالمية فان الامبريالية الفرنسية ، وكذلك البريطانية ، كانت لاتزال في اوج قوتها وجبروتها ولديها قوى تدميرية وبشرية (من مرتزقة المستعمرات)باستطاعتها تدمير المراكز الثورية وقمع التحركات الوطنية بوحشية والانتقام من الاهالي المؤيدين للثورة بصورة بربرية .

ومع ان ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا حطمت الحلقة الاضعف في السلسلة الراسمالية ، الا ان روسيا البلشفية (السوفياتية) لم يكن بامكانها في ذلك الحين مد يد العون المادي والعسكري الى ثورات التحرر الوطني والقومي . واقتصر تأييدها على وسائل الدعاية المتوفرة في حوزتها آنذاك ، وهي وسائل لم تكن قادرة في حينه على الذهاب بعيدا خارج حدود روسيا السوفياتية المحاصرة .

والقوى التقدمية في فرنسا لم تكن ايضا من القوة الى درجة تستطيع معها كبح جماح المستعمرين الفرنسيين . واقتصر تأييد تلك القوى على مساعدة الوطنيين السوريين معنويا ونشر اخبار نشاطاتهم في جريدة الاومانيته وافساح المجال امامهم لنشر اخبار الثورة واهداف الحركة الوطنية السورية ومراميها وبرز في هذا المجال الشهيد عـادل الكندي الذي كان خص جريدة الاومانيتيه بمقالاته الغزيرة . وكـان

له مع النائب الشيوعي المعروف مارسيل كاشان مالا يقل عن ثلاثمائة جواب على الرسائل التي بعث فيها الشهيد اليه (٤٤) . ومعروف ان عادل الكندي التحق بالثورة وشارك في معارك الغوطة وسقط شهيدا في ميدان الوغى بعد ان اسهم في تنوير جزء من الراي العام الفرنسي على جرائم المستعمرين .

وفي الجمعية الوطنية الفرنسية وقف النائب اليساري دوريو مطالبا بوضع حد للدماء والوحول التي خلفتها السياسة الاستعمارية الفرنسية في سورية ، ولما رد عليه رئيس الجمعية بأن فرنسا تحارب (النهابين) اجاب دوريو بأن النهابين هم اولئك الذين يحاربون خارج وطنهم (٤٥) .

ومن الجانب العربي افتتحت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني مكتبا دائما لها في جنيف قام باعمال الدعاية للحركة الوطنية السورية ونجاح نشاطها المسلح ، ولكن اعمال المكتب بقيت ضعيفة ولم تؤد الى نتائج ظاهرة . وظروف ذلك العهد لم تكن تسمح بتضامن عربي فعال والثورات العربية كانت منفصلة عن بعضها البعض . هذا مع العلم ان قصيدة علي عبيد العامية تشير الى معرفة الثوار السوريين بثورة الريف في مراكش (٦/١) !

٢ ـ العوامل الداخلية الموضوعية :

على الرغم من اهمية العوامل الخارجية الا ان نجاح او اخفاق الثورات كان متوقفا الى حد كبير على الاوضاع الداخلية والظروف الموضوعية المرتبطة بمستوى تطور القوى المنتجة في الريف والمدينة والعلاقات بين الطبقات والفئات الاجتماعية ومواقفها من الانتداب الفرنسي .

الاسباب الموضوعية الداخلية التي مكنت المستعمرين الفرنسيين من القضاء على الثورات المسلحة وعمودها الفقري الفلاحين فهي التالية :

نقص الاسلحة والذخيرة وصعوبة تامينها . فتركيا في الشمال تسعى لعقد الصلح مع المستعمرين واستخدام الحركات المسلحة السورية كورقة ضاغطة بين يديها . والاستعمار البريطاني في العراق والاردن وفلسطين لايعارض قيام حركات مناوئة

للفرنسيين لاضعافهم . ولكن الى حد عدم انتشار رياح الثورة الى مناطق الانتداب البريطاني . وهو اي الاستعمار البريطاني ، لايريد اغضاب الفرنسيين بعد ان تقاسم الغنيمة واياهم .

وحتى الامير عبد الله حاكم شرقي الاردن جمع شيوخ شرقي الاردن بتفويض من الانكليز وطلب منهم عدم التدخل ومساعدة الثورة السورية واقام مراقبة فعالة على الحدود(٦٢) . وكان استقبال الامير عبد الله لقائد ثورة الشمال فاترا ، الى درجة دفعت هنانو للجوء الى فلسطين . مما ادى الى تسليمه من قبل الانكليز للفرنسيين.

سابعا ـ ثمار الكفاح الوطني المسلح :

ادت الانتفاضات والثورات الوطنية المسلحة الى خسائر مادية في الريف والى خراب عشرات القرى وتعطل المواسم الزراعية . وكانت الخسائر كبيرة في جبل العرب والغوطة الى درجة خلت فيها بعض القرى من ساكنيها نتيجة التدمير او الاحراق . وعدا آلاف الشهداء الذين سقطوا في ميادين الجهاد فقدت البلاد ، وبخاصة الريف ، اعدادا كبيرة من القوى البشرية ، التي قضت عليها نيران المدافع وهمجية قوى الاحتلال ، التي كانت تقتل على الشبهة وبالجملة . وهذه الدماء المطلولة في ميادين القتال والجهاد اسهمت في نيل الاستقلال وفي اجبار سلطات الانتداب على التراجع والقبول بعدد من المطالب الوطنية ، وفي مقدمتها توحيد دولتي دمشق وحلب والسماح باجراء انتخابات عام ١٩٢٨ ووضع دستور للبلاد .

ولكن اهم ثمرات الكفاح المسلح هو نمو الروح الوطنية والقومية وتراجع الروح العشائرية والطائفية والاقليمية . فثورة الشمال بقيادة ابراهيم هنانو كانت على اتصال بثورة الشيخ صالح العلي في جبال اللاذقية . والثورة السورية الكبرى اخرجت سكان جبل العرب من عزلتهم التي عاشوا فيها في العهد العثماني عندما كانت سلطات دمشق العثمانية تجرد عليهم الحملات التاديبية . اما في ثورة ١٩٢٥ فقد تعمد دم ابناء الجبل مع دماء فلاحي الغوطة وثوار دمشق ومن انضم اليهم من المناطق الاخرى .

ومن جهة اخرى ازداد التآلف بين المسيحيين والمسلمين على الرغم من الدعاية الاستعمارية الساعية الى التفرقة واعمال النهابين والمندسين على الثورات بغرض السلب والنهب والاعتداء على القرى المسيحية . وكانت القيادة الثورية الواعية تقمع بعنف احيانا وبالحسنى احيانا اخرى محاولات التعديات ذات المحتوى الديني او الطائفي . فنجيب عويد اعدم عاصم بك التركي لانه هاجم قرية الصقيلبية

حواشي الفصل الأول

١ ـ آل الجندي ادهم : « تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي » دمشق ١٩٦٠ ص ٧٠ ... والحكيم يوسف « سورية في العهد الفيصلي » بيروت ١٩ ، ص ١٢٠ .

٢ ـ آل الجندي .... ص ٧١ .

٣ ـ المصدر نفسه ، ص٧٥ .

٤ ـ هندي ... ص ٥٩ .

٥ ـ آل الجندي .. ص ٢٤٨ .

٦ ـ المصدر نفسه ، ص ١٤٩ ـ ١٥٢ .

٧ ـ هندي ... ص ٨٥ ـ ٨٨ .

٨ ـ ولد الشيخ صالح العلي سنة ١٣٠٠ هـ في قرية (المريقب ـ منطقة طرطوس ، ناحية الشيخ بدر . وكان والده علاوة على مركزه الديني زعيم عشيرة البشارغة المنتشرة في سائر انحاء الجبل . وبعد وفاة والده بايعه الاهل والاتباع بالزعامة . نقلا عن اليونس عبد اللطيف : « ثورة الشيخ صالح العلي » ص ٦٧ .

٩ ـ حسب تعبير اليونس . ان الشيخ صالح العلي وجه دعوة الى « بعض زعماء ووجهاء ومشايخ الجبل للاجتماع على الشيخ بدر » ... اليونس ... ص ١٠٥ .

١٠ ـ الهندي ... ص ١٩٦ .

١١ ـ اليونس ... ص ١١٣ .

١٢ ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .

١٣ ـ المصدر نفسه ، ص ١٧٠ .

١٤ ـ المصدر نفسه .

١٥ – الهندي ... ص ٦٣ .

١٦ – آل الجندي ... ص ٤٧ .

١٧ – مجلة « العمران » تموز آب ١٩٧٢ .

١٨ – آل الجندي ... ص ٦٥ .

١٩ – المصدر نفسه .

٢٠ – الهندي ... ص ٧٠ .

٢١ – عرف هنانو بعدائه الشديد للنعرات الطائفية . وقد سعى جهده لمنع مستغلي الطائفية لصرف الثورة عن مسارها . وفي الوقت نفسه عمل بمعونة ساعده الايمن نجيب عويد على التقليل ماامكن من اعمال السلب والنهب ، التي تقوم بها عموما عناصر من الشرائح الهامشية والمتفسخة والمنحلة في المجتمع .

٢٢ – في كتابه « حكاية اول نوار في العالم وفي لبنان » المطبوع في بيروت ١٩٧٥ ، كتب يزبك « اخبرني الزعيم ابراهيم هنانو في احدى ليالي اصطيافه ببحمدون ان لينين اوفد اليه ضابطا من القفقاس عرف هنانو قبل بضع سنوات وعمل معه في خدمة الحكومة العثمانية في ولاية حلب . وكان الضابط يحمل رسالة مكتوبة بالتركية يعرض فيها مساعدة الثورة السورية ... وسالت الزعيم هنانو عن مصير الرسالة فاجاب ابو طارق رحمه الله : « انها عدة رسائل وليست واحدة ، تبودلت بيني وبين بطل البولشفيك لاجل اشعال نيران الثورات على الفرنسيين والانكليز في تركية وسوريا والعراق وفلسطين ومصر » ... قلت (والكلام ليزبك) وقد احتفظ ابراهيم هنانو برسائل لينين بكثير من التقدير والاحترام ، وذكرناها في احاديثنا غير مرة ولما عدته في مرضه الاخير (خريف ١٩٣٥) في بيته المتواضع بحلب سالته عنها ، فرفع عينيه الى خزانة خشبية بنية اللون في غرفة نومه الفقيرة ، وكان صوته قد تلاشى والكلام يتعبه ، ودل الى علبة بسكوت مربعة الحجم ، وعمل اشارة تفهمني أن اوراقه يحرص على الاحتفاظ بها موجود فيها . وسالته : « كل الاوراق ؟ » فرفت عيناه بالايجاب » .

٢٣ – الهندي ... ص ٢٢٢ .

٢٤ – الهندي ... ص ٧٨ .

٢٥ – يونس ... ص ٦٢ .

٢٦ – هندي ... ص ٨٠ .

٢٧ – المصدر نفسه .

٢٨ – الريس منير « التاريخ الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي – الثورة السورية الكبرى » بيروت ١٩٦٩ .

٢٩ ـ آل الجندي ... هذا راي شاهد العيان : اسعد داغر في كتابه : « ما رأني على هامش القضية العربية . القاهرة ١٩٥٩ . ص ١٤٨ .

٣٠ ـ آل الجندي ... ص ١٧٧ .

٣١ ـ المصدر السابق .

٣٢/٣١ ـ في العدد ٤١٦ روت جريدة (سورية الجديدة « الخاضعة لنفوذ سلطات الاحتلال الافرنسي حادثة خربة الغزالة بصورة طمست فيها وحشية الاستعمار وشرهه في جمع الغرامات وافقار الفلاحين . وصورت الجريدة الامر كله (سوء تفاهم « متجاهلة المحتوى الوطني اولا والطبقي ثانيا لحادثة خربة الغزالة . وسننقل ما روته الجريدة على علاته لانه يعكس نوعا ما مقاومة الفلاحين الحوارنة للاحتلال الاجنبي وللغرامات العسكرية ، على الرغم من محاولة الجريدة طمس ذلك ، ولابد من الاشارة الى ان ما اطلق عليه» « المرحوم عبد الرحمن باشا » هو عبد الرحمن باشا اليوسف احد كبار الاقطاعيين في سورية وكان قبلا احد اعمدة الحكم العثماني في دمشق وبعد انهيار الدولة الوطنية في تموز ١٩٢٠ اندفع في تاييد الحكم الافرنسي ولاقى جزاء موقفه في خربة الغزالة . اما علاء الدين الدروبي فهو من عملاء الافرنسيين المعروفين. ولهذا فان قتل الاقطاعي وعميل افرنسي له مغزاه البعيد . روت الجريدة ما ملخصه : « لما حصل الانقلاب الاخير وصارت دمشق حكومة لها وزراء حصل بين الحكومة الدمشقية وبين اهالي حوران سوء تفاهم ادى الى الشقاق . ارسلت الحكومة وفدا لازالة ذلك وكان مع الوفد عبد الرحمن باشا رئيس مجلس الشورى يومئذ فساروا ممتطين السفين البري الحجازي (الشمندفير) حتى وصلوا الى المحل المسمى بخربة الغزالة فاستقبل الوفد جم غفير من الحورانيين المحتشدين هناك قرب المحطة .. حتى سمع اطلاق البنادق والبارود فسال المرحوم عبد الرحمن باشا احد الحورانيين الواقفين امام المحطة عن الامر والسبب فقال له ان الحورانيين في هياج عظيم . وبينما هم على ذلك اذ يرمي البنادق وقد اشتد فكثر الخوف والرعب في قلوب الركاب .

... ثم لم يمض قليل على ذلك حتى شوهد احد الحورانيين مضرجا بدمائه فزاد ذلك في هياج تلك الجماهير المجتمعة فهجموا على القطار . ولما انجلى ذلك الهياج المشؤوم اسفر عن وجود المرحوم (عبد الرحمن باشا) شهيدا مضرجا بدمائه مطروحا امام (عنبر) المحطة وممن قتل علاء الدين بك الدروبي (من انطاكية) . ثم ختم صاحب الجريدة مقاله بقوله:وقد اكد لنا حضرة المخبر بان الحركة كانت مدبرة من قبل لانه لم يشاهد احدا من المشايخ في خربة الغزالة ولما وصل القطار الى درعا كانت الجموع محتشدة ايضا ولو يطول وقوف القطار هناك لجرى في درعا كما جرى في خربة الغزالة .

نقلا عن بدران ، عبد القادر : « الكواكب الدرية في تاريخ عبد الرحمن باشا اليوسف صدر سورية» دمشق ١٩٢٩ ص ١١٣ .

٣٢ ـ مجلة العمران وقد سقط رقم العدد وتاريخه من ارشيفنا .

٣٢/٣٣ ـ داغر ... ص ١٥٠ .

٣٣ ـ السفرجلاني محي الدين « تاريخ الثورة العربية » دمشق ١٩٦١ ص ٧٤ .

٣٤ ـ ولد سلطان الاطرش عام ١٨٨١ في « القرية » ودرس قواعد القراءة والكتابة ، في بلدته ، كما

جرى تلقينه علم الفروسية على يد عمه فائز بك . وكان في غياب والده ، ذوقان بك ، يقوم مقامه ، في خدمة الضيوف ، حتى انه كان يزيد الضيافة للضيوف ، من ذبح الغنم والماعز ، والاكثار من السمن ، وخلاف ذلك ، حتى اشتهر بالكرم ...

وفي خضم الحملات العثمانية ضد الجبل اعدم والد سلطان في دمشق وتمكن سلطان من الهرب ورجع الى الجبل ، وكان اثناء الحرب العالمية الاولى ضد دخول القوات التركية الى الجبل وجرت بينه وبين نسيب البكري ، احد ممثلي الحركة القومية العربية بدمشق ، مراسلات من اجل الانضمام الى الثورة العربية المتقدمة من الحجاز بقيادة الامير فيصل ... وفي ايلول ١٩١٨ رفع راية الثورة العربية ، بعد اجتماع عقد في عنز ، ومشى نحو « بصرى اسكي شام » واحتل قلعتها في ٢٥ ايلول ١٩١٨ ، وكان في مقدمة الجيش العربي الذي حرر دمشق من الحكم العثماني .

وفي حديث له منشورمع حنا ابي راشد حول سؤال : « ما رايك بحكومة وطنية سورية متحدة ؟ .. »

اجاب سلطان : « هذا جل رغبتي ، ولكن لا ارضاها ملكية ، بل ارضاها جمهوريـة ديمقراطيـة حرة ، اريدها مستقلة استقلالا لا غبار عليـه » .

ومعروف ان الطائرات الفرنسية هدمت دار سلطان في « القرية في تموز ١٩٢٢ وهي مؤلفة من « دار واسعة جدا ، وسبع مربعات واصطبل للخيل ، وفي خارج الدار ، مضافة واسعة ، معدة للضيوف »

نقلا عن : حنا ابو راشد : « جبل الدروز » بيروت طبعة ثالثة ١٩٦٥ ، ص ٢٤٥ .

ومعروف ان سلطان اضطر في اواخر ١٩٢٦ الى الانسحاب مع عدد من المجاهدين الى الاردن ، وفي فترة ما ابعدته السلطات الانكليزية الى السعودية (الجوف) ، وعاش حياة تقشف وشظف الى ان اصدر عنه وعن القائد الفكري للثورة السورية عبد الرحمن الشهبندر العفو في عام ١٩٣٧ فعاد الى القريا .

(٢/٢٨) ـ حنا ابو راشد « جبل الدروز » ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٤٧ .

٣٥ ـ اعتمدنا بصورة واضحة واساسية على كتاب : سلامة عبيد : « الثورة السورية الكبرى » ١٩٧١ .

٣٦ ـ عبيد ... ص ١٣٠ .

٣٧ ـ المصدر نفسه .

٣٨ ـ المصدر نفسه ص ١٥٤ .

٣٩ ـ المصدر نفسه ص ١٥٤ .

٤٠ ـ المصدر نفسه ص ١٤٤ .

٤١ ـ نقلا عن المصدر السابق ص ١٤٥ .

٤٢ ـ المصدر السابق ص ١٥٢ .

٤٢/١ ـ ثبت باسماء القرى التي ضربتها الطائرات الفرنسية ودمرتها او اصابتها باضرار خـارج جبل الدروز :

اسم القرية	التابعية الادارية	مصدر الخبر
الحراك	حوران	جريدة الف باء ٢٨ اغسطس ١٩٢٥
الحريك	حوران	جريدة الف باء ٢٨ اغسطس ١٩٢٥
نعيمة	حوران	الاهرام في ٦ اكتوبر ١٩٢٥
سهوة القمح	حوران	الاهرام في ٦ اكتوبر ١٩٢٥
مجد لشمس	وادي العجم	الف باء ١١ اكتوبر ١٩٢٥
سحيتا	وادي العجم	الف باء ١٠ سبتمبر ١٩٢٥
حضر	وادي العجم	الاهرام ١٠ سبتمبر ١٩٢٥
حرفة	وادي العجم	الاهرام ١٠ سبتمبر ١٩٢٥
عين الشعرة	القنيطرة	الف باء ١٧ نوفمبر ١٩٢٥
الريسة	وادي العجم	الف باء ١٧ نوفمبر ١٩٢٥
المعرة	حلب	المقطم ٢٣ اكتوبر ١٩٢٥
خان شيخون	حلب	المقطم ٢٣ اكتوبر ١٩٢٥
جوبر	دمشق (الغوطة)	المقطم ٢٣ اكتوبر ١٩٢٥
سقبا	دمشق (الغوطة)	المقطم ٢٣ اكتوبر ١٩٢٥
قابون	دمشق (الغوطة)	المقطم ٢٣ اكتوبر ١٩٢٥
الاشرفية	دمشق (الغوطة)	المقطم ٢٣ اكتوبر ١٩٢٥
جرمانا	دمشق (الغوطة)	المقطم ٢٣ اكتوبر ١٩٢٥
المليحة	دمشق (الغوطة)	المقطم ٢٣ اكتوبر ١٩٢٥
جسرين	غوطة دمشق	الف باء في ١٦ اكتوبر ١٩٢٥
الهيجانة	غوطة دمشق	الف باء في ١٦ اكتوبر ١٩٢٥
تل مسكي	غوطة دمشق	الف باء في ١٦ اكتوبر ١٩٢٥
الغزلانية	غوطة دمشق	الف باء في ٢٨ اكتوبر ١٩٢٥
حران	غوطة دمشق	الف باء في ٢٨ اكتوبر ١٩٢٥
تل العواميد	غوطة دمشق	الف باء في ٢٨ اكتوبر ١٩٢٥
عتيبة	غوطة دمشق	الف باء في ٢٨ اكتوبر ١٩٢٥
نشابية	غوطة دمشق	الف باء في ٢٨ اكتوبر ١٩٢٥
مضايا	غوطة دمشق	الف باء في ٢٨ اكتوبر ١٩٢٥
كفر سوسة	غوطة دمشق	الف باء في ٢٨ اكتوبر ١٩٢٥

واذاعت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني تحقيقا قام به ابناء دمشق عن اسماء قرى اصابتها القنابل الفرنسيين باضرار كبيرة او دمرتها فبلغت اربعين قرية غير المذكورة .

نقلا عن : ذوقان قرقوط « الحركة الوطنية السورية » دمشق ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

٤٣ ـ السفرجلاني ... ص ٥٩٠ .

٤٤ ـ السفرجلاني ... ص ٢٦٥ .

٥) ـ هندي ... ص ١٦٢ .

(٥٤/١) ـ ويسترعي الانتباه وصول اخبار ثورة الريف المغربي بقيادة عبد الكريم الخطابي في قصيدة على عبيد العامية ، التي وصف فيها اعمال الحكام المستعمرين الفرنسيين وجاء فيها :

مات الشريف وساد اهل الرذالي ... لاهل النميمة صاير اليوم فرناس

ان كنت شاطر بس دبر فعالي ... عقب الحميد يا فتى موسم دراس

الكرم تسع شهور يبقى دوالي ... تشوندا حطب محدود على الارض يباس

بسمي معدال اليوم حال التوالي ... (عبد الكريم) اللي ظهر هالحين من فاس

حالة جبلنا اليوم كله خجالي ... اكبر رجاله للطرق عاد كناس

نقلا عن : حنا ابو راشد ... ص ٢٣٤ .

جبل الدروز أبي راشد ص ٢٣٤ .

٤ ـ السفرجلاني ... ص ١٥٨ .

* * *

الباب الرابع

الكفاح الوطني

من أجل الأرض ورفع الحصة ومواقع مختلف القوى الطبقية ومواقفها

- مواقف مختلف القوى الاجتماعية من نضال الفلاحين الطبقي من اجل الارض وزيادة حصتهم من المحصول ·

- النضال الفلاحي ومطالب الريف ايام الانتداب ·

الفصل الأول

مواقف مختلف القوى الاجتماعية من نضال الفلاحين الطبقي من أجل الأرض وزيادة حصتهم من المحصول

* تنظيمات الاقطاعية للدفاع عن مصالحها . نقاط الاتفاق بين الاقطاعيين والفلاحين ، الاغنياء والفقراء ، مطالب هذه الفئات .

* موقف البرجوازية المتوسطة والكبيرة .

* موقف تيارات البرجوازية الصغيرة .

اولا ـ منظمات الاقطاعيــة للدفــاع عــن مصالحهــا

نقــاط الاتفــاق بــين كبــار المــلاك والفلاحــين

١ ـ تنظيمات الاقطاعيــة ومطالبهــا :

حاول الاقطاعيون تنظيم انفسهم عـدة مرات ، ولكن هذا التنظيـم لم يأخذ صفة الشمول او الدوام بل اقتصر على منطقـة معيـنة ولمـدة محدودة . وكان الهـدف من وراء هذا التنظيـم الحصول على بعض الامتيازات او تخفيف الاعبـاء الواقعـة على كامل الاقطاعيين ـ بالرغم من قلتها ـ الى الحد الادنى . ومع ان ثمة احزابا سياسية صغيرة الفها الاقطاعيون او سيطروا عليها ، الا ان هذه الاحزاب لم تتبن او لم يكن بامكانها تبني مطالب الاقطاعيين على المكشوف وبشكل مباشر .

كما ان بعض الاقطاعيين دخلوا ايضا في الكتلة الوطنيـة البرجوازيـة وحاولـوا عن هذا الطريق تحقيق مصالحهم الطبقية كما رأينا .

اطلق الاقطاعيون على انفسهم اسم « المزارعين » واحيانا « الزراع » ، مما اوحى، وهذا خـلافا للواقع ، انهم مـارسوا مهنة الزراعـة بأيديهم . وانهم دخلوا في عداد المنتجين .

عقد « المزارعون »(الاقطاعيون) في تموز ١٩٣٠ سلسلة من الاجتماعات في دمشق في منزل الاقطاعي الكبير محمد علي العابد ، الذي ورث هذه الاراضي عن طريق والده عزة باشا العابد . السكرتير الخاص للسلطان عبد الحميد ، الذي استطاع عن طريق هذا المنصب ان ينهب الاموال المنقولة وغير المنقولة ويسجلها باسمـه ، شانـه شأن جميـع كبار موظفي الدولة العثمانية . وعزة العابد كـان قبـل ذهابـه الـى استنبول رئيس مصلحة الجاسوسية في ولايـة سورية وهـو مـن اعمـدة الحكـم الاستبدادي للسلطان عبد الحميد .

كان من جملة هذه الاجتماعات مثلا لقاء ١٤ تموز ١٩٣٠ في منزل محمد علي العابد وقد خطب في هذا الاجتماع جميل مردم بك ومحمد علي بك العابد وفخري بك البارودي وجوزيف قدسي ونصوحي بك البخاري وعارف القوتلي ومنيف اليوسف وغيرهم . وقرروا تأييد مطالبهم السابقة : تعديل الضرائب وتأجيل الديون وتخفيض الفائدة ومساعدة المزارعين وتحسين احوالهم(١) .

ونلاحظ أن من بين الخطباء اشخاصا ينتمون الى الطبقة التي أطلقنا عليها اسم « الاقطاعية البرجوازية » والتي لم تكن معالمها البرجوازية قد توضحت بعد. ان ما نريد الاشارة اليه هو ان هؤلاء « المزارعين » لم يكونوا بمعزل عن البرجوازية السورية بل شكلوا قسما من لحمها ودمها وكان التناقض البرجوازي ــ الاقطاعي مشوبا باتفاق في المصالح ووجهات النظر في كثير من الاحيان . وهذه خاصة من خصائص البرجوازية السورية قبل الحرب العالمية الثانية .

من المعروف ان معظم المزارعين الاقطاعيين استقرضوا الاموال من خزينة الدولة آملين التهرب من وفاء الديون والخلاص باي شكل من الفوائد . ومع ان الدولة من السلطات المحلية وسلطات الانتداب كانت في خدمة الاقطاعيين ، الا ان حاجة « الدولة » الى الاموال ولاسيما أيام الازمات اضطرها للمطالبة بديونها السابقة لدى الاقطاعيين ، الذين قاموا بهجوم معاكس للخلاص من دفع ديونهم وفوائدها .

وكانت اجتماعات تموز سنة ١٩٣٠ مظهرا من مظاهر تنظيم الاقطاعية لنفسها ، كما جرى مثلا في اجتماع عدد كبير من « المزارعين » في ٢٢ تموز ١٩٣٠ للتداول ــ كما تقول جريدة الشعب ــ فيما صاروا اليه لمناقشة الاساليب ، التي ينبغي أن يوجهوا اليها انظار الحكومة لتتبعها في خطتها . ومعنى ذلك ان الاقطاعيين أرادوا الاشراف على سياسة الدولة وتوجيهها وفق مصالحهم الطبقية الاقطاعية ومن اجل تحقيق هذا الهدف قرروا ارسال تقرير مفصل الى المفوض السامي والى الحكومة المحلية . كما انتخبوا وفدا من : امين افندي الدالاتي ــ يوسف بك قدسي ــ سعيد افندي حمزة (نقيب الاشراف) مصطفى افندي العلبي ــ عبد النبي افندي الجيرودي ــ عادل بك القوتلي ــ نسيب بك الكيلاني ــ رضا بك مردم بك(٢) وقد قابل

« وفد الزراع » هذا المسيو برونو احد كبار موظفي دار المندوب في دمشق وبعد ان شرحوا له وضعهم وعد بدراستها بعناية .

ولم يكتف اقطاعيو دمشق بهذا القدر بل قرروا في الاجتماع المذكور « تاليف لجنة الدفاع عن مصالح المزارعين » وهذه اللجنة عقدت في اواخر شهر تموز سلسلة من الاجتماعات للمطالبة بامتيازات جديدة لكبار الملاك(٣) .

وعلى اثر هبوط اسعار الغلال بشكل مريع بسبب الازمة العامة الراسمالية وما نتج عنه في الواقع من خسارة فادحة للفلاح والاقطاعي على السواء « عقد المزارعون اجتماعا في منزل آل الحسيبي في ٨ تشرين الثاني ١٩٣٠ ووضعوا المقررات التالية التي رفعوها الى رئيس الوزارة وهي(٤) :.

١ ـ رفع الضريبة التي اضيفت في سنة ١٩٢٥ على بدل العشر .

٢ ـ رفع ضريبة الدخولية عن جميع المحاصيل الزراعية لان هذه الضريبة عشر ثان .

٣ ـ تخفيض فائدة ديون المصرف الزراعي الى /٥/ في المائة انعاشا للمزارعين .

٤ ـ نطلب حماية منتوجات بلادنا الزراعية بوضع ضريبة كافية على المحاصيل الاجنبية المستوردة والتي تشابه محاصيلنا الزراعية .

٥ ـ تخفيض ضريبة وتعداد الاغنام نظرا لهبوط اسعار السمن والصوف والشعر .

ويبدو من هذه المطالب انها ليست في صالح الاقطاعيين فقط ، بل في صالح الفلاحين ايضا ولاسيما الاغنياء والمتوسطين منهم . هذه المطالب اصطدمت بسياسة الحكومة ورغبتها في تحصيل الضرائب وجمع الاموال من اي سبيل .

وقد حاولت الحركة الوطنية الاستفادة من هذا التناقض بين الاقطاعيين والدولة وجذب قسم من الاقطاعيين الليبراليين الى صفوف الحركة الوطنية او ابقائهم على الحياد في الصراع الدائر بين القوى الوطنية والاستعمار . والكتلة الوطنية التي تزعمت النضال الوطني بين / ١٩٢٧ ــ ١٩٤٠ / ، حاولت السير في هذا الطريق وكسب جميع القوى الاجتماعية للوقوف امام الحكم الاستعماري الانتدابي . فقد اعلن

الدكتور توفيق الشيشكلي ، عضو الكتلة الوطنيـــة في جلسة المجلس النيابـي في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣٢ بأن « البلاد والعباد يئنون مـن المصائب ، فالعامـل والـزارع والمستاجر والملاك يصرخون ويرزحون تحت الاثقال كما هو ظاهر لكم مـن العرائض . فمعامل الصناعة بائـدة لا تجد قانونا يحميها والعامل لا يجد عملا يلجـأ اليه والزارع مصاب بزرعـه والتاجر يشكو جور المستاجر ما يصيبه من عدم حمايـة الصناعـة الوطنيـة »(٥) .

وكان الشيشكلي يرجو في معرض حديثه هذا بعض الاقطاعيين والفلاحين الاغنياء في المجلس النيابي ، عدم (تشكيل حزب برلماني باسم حزب الزراع) لان جسم سورية النحيل لا يستطيع تحمل المشاكسات والمحاولات الحزبية » رجا الشيشكلي هـؤلاء النواب ان يكونوا حزبا واحدا إزاء ما يهدد البلاد » .

ومن مراجعة اسماء اعضاء « حزب الزراع البرلماني »(٦) يظهر ان معظم اعضائـه تغلب عليهم صفة الفلاح الغني المتنفذ في الريف وممن عمل مع سلطات الانتداب او سايرها . ولذا فان تاليف هذا الحزب كان اضعافا للكتلة الوطنيـة التـي طمحت في جذب فئة الفلاحين الاغنياء الى جانبها على اعتبار ان « كل الامة » كمـا قال عضـو الكتلة فائز الخوري « كتلـة وطنيـة » .

كانت الغرف الزراعيـة مراكز تجمع للاقطاعيين ولقسم كبير من الفلاحين الاغنياء للدفاع عن مصالحهم واجبار الحكومة على تحقيق رغباتهم والعمـل لحل التناقضات القائمـة بين الدولة ، ذات الاتجاه الاقطاعي ، الساعيـة الى الحصول على اكبر كمية ممكنـة من الضرائب وبين الاقطاعيين ومتنفذي الريف الراغبين في اعفائهم من الضرائب او تخفيف العبء عنهـم ، والقائمـة على كواهل الفئات الاجتماعية الاخرى . في هذه الفترة ظهر شكل آخر لتنظيم الفلاحين الاغنياء وملاك الاراضي عموما هو « اللجنـة التنفيذية للمؤتمر الزراعـي » التي تقدمت بمطالبها الى المجلس النيابي لعـام ١٩٣٧ من اجـل « انصاف الزراع وتخفيف الضرائب عنهم بما يوافق الحق والعدل »(٧) .

وفي الكلمة التي القاها عبد العزيز الحلاج في جلسة المجلس النيابـي في ١٥ أيـار ١٩٣٧ تعبير عن التناقض بين الحكومة الاقطاعيين ورغبـة هؤلاء في دفع اقل ما يمكن

من الضريبة . « لقد مل الزراع » كما قال الحلاج « من كثرة مراجعاتهم للحكومات السابقة لتنقذهم من الحالة التي وصلوا اليها وتنصفهم من الضرائب الباهظة التي لم يعد في وسعهم تحملها . ولكن ويا للاسف لم يلب لهم مطلب »(٨) .

حاول الزراع من الاقطاعيين والفلاحين الاغنياء ، متنفذي الريف ، اكثر من مرة نهب اموال المصرف الزراعي الحكومي، عن طريق التهرب من دفع القروض المستحقة مما اضطر المصرف الزراعي الى طرح املاك الاقطاعيين ومتنفذي الريف للبيع . ومع ان هذا الامر كان يجري على نطاق محدود في الحالات النادرة ، نظرا للسلطة المطلقة التي تمتع بها الاقطاع وبفضل الوسائل المختلفة التي كان بامكانه اتباعها للتهرب من دفع اقساط المصرف الزراعي فان هذه المصادرة المحدودة لاملاك الاقطاعيين ناهبي اموال المصرف الزراعي ازعجت كبار الملاك . وهذا ما دفعهم للمشاركة في وضع النظام الجديد للمصرف سنة ١٩٣٧ في أن يكون موافقا لرغبات الاقطاعيين . وأن تراعى فيه حقوق المزارع البائس »(٩) كما ذكر الحلاج ، والملاحظ حسب منطق الحلاج ان من يملك ارضا يستطيع بموجبها ان يقترض من المصارف يعتبر (بائسا) ، فما وضع الفلاح الفقير والفلاح الذي لا يملك حتى بيته ؟ الا يدل ذلك على نهم الفئات الاقطاعية وسعيها لنهب اموال الشعب في المصرف الزراعي بالاضافة الى استثمارها للفلاحين تحت شعارات « المسكنة » و « البؤس » و« الحق والعدل » .

ومع الاعتراف بأن اموال المصرف الزراعي وضعت في خدمة الاقطاعيين والفلاحين الاغنياء ، الا أن عددا من الفلاحين المتوسطين استفاد منها على نطاق محدود . وظهر ذلك جليا في المناطق الفلاحية التي لاتسود فيها العلاقات الاقطاعية على نطاق واسع.

ففي جلسة ٢٩ ايار ١٩٣٧ طالب نائب حوران اسماعيل الحريري بتأجيل الديون والعفو عن كافة فوائد المصارف الزراعية(١٠) . وهذا المطلب شمل بنعمه ، بالاضافة الى الفلاحين الاغنياء ، عددا كبيرا من الفلاحين المتوسطين . وهنا علينا الا ننسى وضع حوران وعلاقة سكانه مع مرابي دمشق وتجارها ، الذين استنزفوا خيراته عن طريق الديون وما ترتب عليها من ربا .

٢ ـ نقاط الاتفاق بين الاقطاعيين والفئات العليا من الفلاحين :

كان من آثار الازمة العالمية الراسمالية لسنة ١٩٢٩ قيام جبهة عفوية من الاقطاعيين والفلاحين للوقوف امام رخص اسعار المنتوجات الزراعية ، ولتخفيف الضرائب وعلى راسها ضريبة العشر والحصول على القروض .

فعدا عن الاجتماعات والوفود التي شكلها « الزراع في دمشق » قام الفلاحون بفئاتهم الثلاث في حوران بحملة لتخفيف وبلات الازمة . فعقد لهذه الغاية في /١٤/ حزيران ١٩٣٠ مؤتمر زراعي في حوران حضره شيوخ حوران وزراعها . وطالب المؤتمر بتنزيل ٣٨٪ من اصل الاعشار بسبب هبوط اسعار الغلال والاضرار التي اصابت الزراعة (١١) . وفي صيف ١٩٣٠ سرت روح التذمر بين فلاحي حوران نتيجة الربا الفاحش الذي تقاضاه المرابون والتجار من الفلاحين مما اثر على الانتاج الزراعي واضطرار الحكومة لبحث هذا الامر ، اما ما يهم الحكومة فهو زيادة المحصول حتى تستطيع جباية اكبر كمية من الضرائب والعشر .

نلاحظ مما تقدم اتفاق وجهات النظر بين الاقطاعيين الفلاحين (الاغنياء والمتوسطين) في مسألة تخفيف عبء ضريبة الاعشار ، واخذ القروض من المصرف الزراعي ، وحماية الانتاج الزراعي وكان هذا من العوامل التي وحدت سياسيا الاقطاعيين مع قسم كبير من الفلاحين الاغنياء .

في ايلول ١٩٣٢ قدم سكان قرية الكرك الشرقي من لواء حوران الى وزارة المالية عريضة عليها تواقيع كثيرة . وفي هذه العريضة عرض الفلاحون ما قاسوه من الفاقة والجوع ، بعد ان دفعوا الاعشار واستوفى المصرف الزراعي معظم ديونه ، مما ادى الى نفاد مؤونتهم ولم يبق لهم بذار للموسم القادم . وطلب فلاحو الكرك الشرقي ان يمنحهم المصرف الزراعي بعض القروض ليتمكنوا من اعاشة عائلاتهم وتامين بذار السنة المقبلة (١٢) .

واثناء جلسة المجلس النيابي في /٢٩/ ايار ١٩٣٧ طالب نائب حوران اسماعيل الحريري بالعفو عن البلاد الحورانية عن جميع البقايا المتراكمة عليها من اعشار والويركو حتى نهاية ١٩٣٦ بسبب الفقر . كما طالب في /١/ ايار ١٩٣٧ نائب الجزيرة

باعفاء بقايا ضرائب الاغنام والاعشار عن اهالي الجزيرة حتى عام ١٩٣٥ (١٤) . وسار على خطاه نائب اعزاز محمد هادي بكار فطلب اعفاء الفلاح من بقايا الضرائب حتى عام ١٩٣٤ وفي جلسة /٢٤/ نيسان ١٩٣٧ طالب نائب قرقخان باعفاء بقايا الاعشار والويركو حتى نهاية سنة ١٩٣٦ (١٥) .

ويلاحظ هنا أن الجميع طالبوا بما يعفوا عن (بقايا) الضرائب . ولكن من كان بامكانه في ذلك الوقت التهرب من دفع الضرائب طوال سنوات ؟ انه الاقطاعي والفلاح الغني .. ومع الاعتراف بأن قسما من الفلاحين الفقراء والمتوسطين سيستفيدون من اعفاء (بقايا) ضرائب الاعشار والاغنام ، ولكن المستفيد الاول والاخير هو الاقطاعي والفلاح الغني ، اللذين كان باستطاعتهما بعكس الفلاح الفقير ، التهرب من دفع الضريبة في حينها وبذلك تتراكم عليها الضرائب وبقاياها بانتظار الساعة المناسبة للتهرب من الدفع .

ان شعار « العفو عن بقايا الضرائب المتراكمة» من العشر والاغنام ، كان المستفيد الاول منه الفئة الغنية المتنفذة في الريف ، ولم تكن البرجوازية السرية الناشئة القابضة على ناصية الامر منذ اواخر ١٩٣٦ والساعية للحصول على اكبر كمية من الاموال لسد نفقات الدولة المتنامية راضية عن طلب « العفو عن البقايا » ، وجرت في المجلس النيابي معارك حامية الوطيس بين الاقطاعيين ومتنفذي الريف من جهة ، وبين البرجوازية من جهة ثانية حول الاعفاء من بقايا الضرائب أو عدمه . ومع أن اكثرية المجلس ذي الميول الاقطاعية او الفلاحية الغنية كانت الى جانب الاعفاء ، الا ان دهاء البرجوازية ومرونتها وامتلاكها للسلطة مكنها من احباط مشاريع العفو عن « بقايا » الضرائب .

بالرغم من التناقض الرئيسي والجوهري بين الفلاحين والاقطاعيين ، وبالرغم من التناقضات المختلفة داخل الفئات الفلاحية ، الا ان امورا مشتركة جمعتهم في مصلحة واحدة وهي استبدال الضرائب الزراعية « وتخفيف » وطاتها او الغائها وانعكس هذا الواقع بشكل واضح في تقارير النواب او العرائض المرفوعة الى المجلس النيابي (١٩٣٦-١٩٣٩) وكان هذا واضحا اثر الحركة الشعبية الجماهيرية المعادية

للانتداب وإثر قيام الحكومـة الوطنية ونشاط مختلف فئات المجتمـع سعيها وراء مطالبها ونضالها من أجل تحقيق مصالحها .

فمنذ الايام الاولى من حياة المجلس النيابي شكت في جلسة /٢٦/ كانون الاول ١٩٣٦ عريضة اللجنة التنفيذية للمؤتمر الزراعي بدمشق ، ما اصاب الزراع مـن المصائب وطلبت الغاء ضريبة العشر (١٦) .

وفي /٢٢/ نيسان ١٩٣٧ طالب تقرير نائب انطاكية باستبدال ضريبتي الاعشـار والويركو وجعلها ضريبة واحدة تدعى (ضريبة الاستملاك) لان الاعشار قاضية على امال الزراع . (١٧) .

كما طالب عربان عشائر الفضل في القنيطرة في مضبطتهم باعفائهم من دفع عشرة غروش رسم تعداد عن كل راس غنم (١٨) . اما نائب حماة عمر الدلال فطلب في /٢٤/ نيسـان ١٩٣٧ جعل ضريبة الاراضي الزراعية (ويركو) لا تزيد عن عشر العشر المترتب عليها ، والغاء ضريبة (الاطلاعية) أي المراعي عن المواشي (١٩) . واقترح نائب ادلب الغاء الضريبة العشرية والغاء ضريبة الاراضي واستبدالها بضريبة عادلة . وطالبت عريضة من حماة بالغاء الاعشار . ودعا تقرير نائب حمص رفيق الحسيني في /١/ ايار ١٩٣٧ الى تخفيض الضرائب عن الفلاح ودرس المشروع الزراعي دراسة قيمة وطالب مختار قرية غصم (حوران) ورفقاه في عريضتهم في /٢٥/ ايار ١٩٣٧ بتنزيل الاعشار بسبب الجفاف (٢٠) .

كان نصيب العرائض والتقارير المطالبة بالغاء العشر او تخفيفه الاهمال من رئاسة المجلس النيابي البرجوازية . فقد احال فارس الخوري المحامي وصاحب المشاريـع الصناعية ، هذه المطالب الى « لجنة العرائض » في المجلس ، التي لم تجتمع اكثر من ثلاث مرات خلال حياتها البرلمانية ولم تستطع ان تبت في امرها ، ولم يكن لديها اية قيمة . وكان معنى احالة المضابط الى لجنة العرائض هو رميها في سلة المهمـلات . فالحكم البرجوازي لم يكن له مصلحة في تخفيف الضرائب الزراعية ، بله الغاءها ، وقد سعى الحكم البرجوازي لجمع اكبر كميـة من المال لحساب خزينـة الدولة ، حتى يستطيع تثبيت أقدامه في السلطة التي طالما سعى زمنا طويلا للوصول اليها .

في الوقت الذي جرى فيه الاتفاق بين الاقطاعيين من جهة والفلاحين من جهة اخرى على تخفيض ضريبة العشر وحماية المنتجات الزراعية من المنافسة الاجنبية ، وفي الوقت الذي لم يبلغ فيه الصراع بين الجانبين من اجل الحصول على قروض المصرف الزراعي درجة عالية احتدم النضال على اشده بين الاقطاعيين والفلاحين العاملين في « اراضيهم » او في اراضي املاك الدولة التي سعى الاقطاعيون لاختلاسها.

ويخطىء من يظن ان النضال الطبقي في الريف كان معدوما في عهد الانتداب . ويرجع سبب هذا الظن الى موقف مفكري البرجوازية ومؤرخيها الهادف الى طمس نضال الفلاحين من اجل الارض والخبز ، او الى عدم الاهتمام بهذه النضالات ، التي قام بها ، حسب رأيهم « الرعاع » و « السوقة » و « العامة » ممن يريدون تهديم الملكية « المقدسة » الاقطاعية . ومع ان معلوماتنا عن النضال الفلاحي لاتزال محدودة فلا ينفي هذا ، وجود النضال الفلاحي ، والامل معقود على كشف هذا النضال المجيد الذي خاضه الكادحون ضد مستثمريهم بالرغم من الظروف الصعبة التي عاشها الفلاحون انذاك ، الواقعون تحت نير الاقطاعي والحكم الاجنبي الاستعماري ، وعزوف قادة الحركة الوطنية البرجوازية عن الفلاحين احتقارا لهم او خوفا من اغضاب « اسيادهم » الاقطاعيين . كما ان القوى الاشتراكية التي وجب عليها أن تدافع عن الفلاحين وتستمد القوة منهم كانت لا تزال ضعيفة غير قادرة على التحرك بحرية .

ثانيا ــ موقف البرجوازية الكبيرة المتوسطة :

ترى ، ما المستوى الذي بلغه النضال الطبقي في الريف ؟ والى اي حد بلغت شدة التناقضات بين الاقطاعيين والفلاحين ، بين من يملكون وسائل الانتاج ولا يعملون ، وبين من يعملون ولا يملكون وسائل الانتاج ؟ .

ويعتقد البعض ان النضال الطبقي في الريف كان معدوما ايام الانتداب الفرنسي، لان التناقض الرئيسي بين الاستعمار والحركة الوطنية غطى على كل صراع . ومع الاعتراف بصحة هذه الموضوعة ، الا ان التناقض بين المالكين وغير المالكين ، بين الاقطاعيين والفلاحين ، كان يظهر احيانا على سطح الاحداث ولكن سرعان ما يغور في الاعماق ، حيث يمارس تأثيرا غير مباشر لا يرى بالعين التاريخية المجردة .

لقد لعبت عدة عوامل في اضعاف حدة النضال الطبقي واثرت في تخلف القوى المنتجة في الزراعة مثل : جهل الفلاح ورسوخ التقاليد الاتكالية وسائر العادات البالية التي لم يقض التطور المستمر عليها . كما ان الحلف الرجعي بين الاستعمار الانتدابي والاقطاعية كان سيفا مسلطا على رقاب المستثمرين والفقراء المعدمين .

١ ـ موقف البرجوازية في الوثائق الرسمية :

ظهر أثر الصراع الطبقي والنضال الفلاحي دليلا في كل مناسبة بحثت فيها المسألة الزراعية بعد انهيار الدولة العثمانية سنة ١٩١٨ ومباشرة عند صياغة مشروع الدستور الذي وضعه المؤتمر السوري ايام الدولة الوطنية العربية السورية المستقلة أواخر تموز ١٩١٨ تموز ١٩٢٠ ففي تلك الاثناء استطاعت العناصر البرجوازية الممثلة للفئات التجارية والمثقفين والمدعومة من الحرفيين وجماهير دمشق أن تقطع الطريق على الاقطاعيين الطامعين سنة ١٩٢٠ في الاستيلاء على أراضي الدولة وأملاك السلطان عبد الحميد . نصت المادتان السادسة والثلاثون والسابعة والثلاثون من مشروع دستور ١٩٢٠ (٢٢) على أن « الاراضي والاملاك التابعة للحكومة السابقة هي ملك الدولة السرية » . وبالرغم من ذلك فان الاقطاعيين لم يعدموا المسائل المختلفة التي تمكنهم من الاستيلاء على هذه الاراضي عن طريق الشراء أو الاستئجار ، فقد جاء في المادة /٣٧/ ما يلي : « لا يجوز بيع الاملاك والاراضي المدورة أو ايجارها الا بقانون خاص ويشترط في ذلك القانون مراعاة الزراع الوطنيين أولا ومصلحة المقاطعة وسكانها ثانيا » .

ان من يدرس نصوص مشروع دستور ١٩٢٠ يلاحظ أن هذا الدستور لم يعط حكما نهائيا في مصير اراضي أملاك الدولة . وكانت نسبة القوى الطبقية في الريف وكذلك في المدينة هي التي ستحدد من سيملك هذه الاراضي ولمن ستكون الغلبة . ولكن احتلال المستعمرين الفرنسيين لدمشق في تموز ١٩٢٠ قضى على هذا الدستور وعلى جميع مظاهر الدولة بالاعتداء على أراضي الفلاحين وزاد هذه العملية تسارعا موقف البرجوازية من المسألة الزراعية .

فأثناء فترة الانتداب لم تقم البرجوازية التجارية والبرجوازية الصناعية الناشئة بأي عمل جاد ملموس من أجل مساعدة الفلاحين .

وقد برهنت الاحداث ان الفئات اليمينية من هذه البرجوازية ، لا سيما الجناح « البرجوازي الاقطاعي أو الاقطاعي المتبرجز وقف ضد كل عمل او اجراء يمكن ان يؤدي الى تحرر الفلاحين أو على الاقل تخفيف الظلم اللاحق بهم . ونظر هذا الجناح الى الفلاحين نظرة الاقطاعي اليهم ، نظرة الاحتقار والاستعلاء ، واعتبرهم مجـرد اداة انتاج تجلب لهم الخير والنعيم وتجلب لهم الشقاء والبؤس والعذاب .

فبالرغم من التناقض والصراع بين البرجوازية والاقطاعية في سورية أيام الانتداب فان البرجوازية لم تفكر في المساس «بقدسية» الملكية الاقطاعية . فقد ورد في المادة ١٣ من دستور الجمعية التاسيسية سنة ١٩٢٨ (٢٢) ، الذي وضعته البرجوازية المتأثرة بالضغط الاقطاعي « حق الملك في حمى القانون » فلا يجوز ان تنزع من احد ملكيته الا بسبب المصلحة العامة في الاحوال المنصوص عليها في القانون وبعد التعويض عليـه تعويضا عادلا مسبقا والمقصود بالمصلحة العامة الدولة البرجوازيـة ذات النزعـة الاقطاعية المزمع او المؤمل انشاؤها بعد المصادقة على الدستور . كما ان نزع الملكية الاقطاعية أو البرجوازية وفق الدستور لن يكون لمصلحة الفلاحين والعمال او لمصلحة المجتمع ، بل لاجراء بعض الاصلاحات الفنية مثل شق طريق او بناء ملعب او إقامة مؤسسة حكومية ... الخ .

بعد أن «ضمن القانون» في مادته الثالثة عشرة «حق الملك» الاقطاعي اوالبرجوازي جاءت المادة /١٤/ لتعلن ، ان مصادرة الاموال مصادرة عامة ممنوعة دون تحديـد لطبيعة هذه الاموال ومصادر الحصول عليها . ومع اننا ضد مصادرة اموال من جـدا واجتهد وحصل اموالا محدودة بتعبه ، دون ان يستثمر الاخرين ، فان عدم مصادرة اموال تجار الحروب وكبار المحتكرين والاقطاعيين مسالة فيها نظر . وتجيز حتـى المذاهب الاجتماعية المعتدلة مصادرتها احيانا .

لقد هدفت المادتان /١٣-١٤/ من دستور ١٩٢٨ الى ادخال الطمأنينة الى قلب الاقطاعيين الذين نهبوا اراضي الفلاحين واراضي الدولة ، وسدت هاتان المادتـان الطريق امام قيام اصلاح زراعي مهما كانت حدوده ضيقة من قبل الدولة البرجوازية ولعل الناحية الايجابية في هاتين المادتين هي تطمين العناصر التجارية وغيرها من الفئات

الراغبة في انشاء صناعة وطنية تسهم في تقدم البلاد وتطورها الاقتصادي والاجتماعي

• في /٤/ تشرين الثاني ١٩٣٢ اقرت الكتلة الوطنية في مؤتمرها الوطني « القانون الاساسي » للكتلة . (٢٤) في هذا القانون لا نجد اي اثر لبرنامج اقتصادي ، فيماعدا الدعوة الى رفع مستوى الحياة الاجتماعية والاقتصادية وليس هذا الامر مستغربا على كتلة ضمت ثلاث قوى : برجوازية ، اقطاعية ، واقطاعية متبرجزة . وقد دعت في برنامجها الى « السلم الطبقي » والاخاء بين الطبقات الاجتماعية المتصارعة وبث الاخلاق الاقطاعية البرجوازية تحت ستار القومية ولهذا فان مفكري الكتلة الوطنية وجدوا من الافضل تحاشي البحث في القضايا الاجتماعية وارجاء الصراع بين الاقطاعية والبرجوازية الى فترة اخرى .

هوامش الفصل الاول

٢ ـ الشعب ـ ٢٣ تموز ١٩٣٠ .

١ ـ الف باء ـ ١٦ تموز ١٩٣٠ .

٣ ـ الشعب ـ ٣٠ تموز ١٩٣٠ .

٤ ـ الشعب ـ ٩ تشرين الثاني ١٩٣٠ .

٥ ـ القبس ـ ١٦ تشرين الثاني ١٩٣٢ .

٦ ـ اعضاء الحزب هم : نوري الشعلان (شيخ مشايخ قبائل رولة) ، سليم الغا دعاس (من اغوات جيرود ، الذين نصبهم العثمانيون في القرن التاسع عشر لحماية الطرق من البدو) ، امين سمكوح ، جميل الشماط (من عائلة معروفة في سرغايا وصديق للفرنسيين) ، خليل عبد الرحمن ، فارس الزعبي ، اسماعيل الحريري ، محمد المفلح (هؤلاء الثلاثة من عائلات الوجاهة في حوران) ، خليل ابراهيم باشا ، انظر القبس ـ ١٦ تشرين الثاني ١٩٣٢ .

٧ ـ مذكرات المجلس النيابي لسنة ١٩٣٧ ـ ص ٥٣٦ .

٨ ـ المصدر نفسه ـ ص ٥٣٦ .

٩ ـ المصدر نفسه .

١٠ ـ المصدر نفسه ـ ص ٨٩٩ .

١١ ـ الشعب ـ ١٨ حزيران ١٩٣٠ .

١٢ ـ الشعب ـ ٢٢ حزيران ١٩٣٠ .

١٣ ـ القبس ـ ٤ ايلول ١٩٣٢ .

١٤ ـ مذاكرات المجلس النيابي لسنة ١٩٣٧ ـ ص ٢٨٥ .

١٥ ـ المصدر نفسه ـ ص ٨٨٩ .

١٦ ـ مذاكرات المجلس النيابي لسنة ١٩٣٦ ـ ص ١٤٦ .

١٧ ـ المصدر نفسه ـ ١٩٣٧ ـ ص ١٠٨ .

١٨ ـ المصدر نفسه ـ ص ١٦٢ .

١٩ ـ المصدر نفسه ـ ص ١٦٧ .

٢٠ ـ المصدر نفسه ـ ص ١٧٣ .

٢١ ـ الشعب ـ ٢٧ آب ١٩٢٠ .

٢٢ ـ انظر نص مشروع الدستور في العياشي غالب : الايضاحات السياسية واسرار الانتداب الافرنسي في سورية ، بيروت ١٩٥٥ ـ ص ٦٥ ـ ٧٠ .

٢٣ ـ انظر النص الكامل لدستور سورية المنشور بقرار من المفوض السامي للجمهورية الفرنساوية في : النشرة الرسمية للاعمال الادارية للمفوضية العليا . العدد ١١ ـ ١٥ حزيران ١٩٣٠ ـ ص ١٥٠ .

٢٤ ـ انظر النص الكامل للقانون الاساسي في : الكيالي .. ج ١ ـ ص ١٨٤ .

٢٥ ـ الشريف ... ص ٣٤ .

الفصل الثاني

الفلاحون والقضية القومية بين النظرية والتطبيق

- بذور الافكار الاشتراكية بين التخلف والتاثيرات الخارجية مرورا بالتراث .
- الفلاحون بين الثورتين الوطنية القومية والاجتماعية الطبقية .
- الحركة الفلاحية قوة اساسية من قوى الحركة الوطنية والقومية العربية .



اولا ـ بذور الافكار الاشتراكية بين التخلف والتأثيرات الخارجية مرورا بالتراث:

ان عملية تكون الافكار المنادية بالمساواة والتحرر الاجتماعي قديمة قدم عملية تكون الافكار الداعية الى عدم المساواة والتفاوت الاجتماعي والى استغلال الاقلية للاكثرية الساحقة من بني البشر . فمنذ ان اخذت فئات معينة من المجتمع تستأثر بالثروة وحجبها عن الاخرين مستثمرة اياهم ومحاولة اخضاعهم لسلطانها ماديا وروحيا، ظهرت ايديولوجيتان متناقضتان :

الاولى : ايديولوجية الطبقة المستثمرة المبشرة بحق قسم ضئيل من الناس باستثمار الاكثرية ووضعها في خدمتها .

والثانية : ايديولوجية الطبقة المستثمرة المنادية بالمساواة الاجتماعية وبالغاء استثمار الانسان للانسان . وبين هاتين الايديولوجيتين ظهرت نظريات عديدة تحاول الجمع والتوفيق بين الايديولوجيتين السابقتين والاخذ من كل منهما بمقدار . وهذه النظريات التوفيقية تعبر في الواقع عن نزعات الفئات الوسطى المتأرجحة بين المستثمرين والمستثمرين .

وتاريخنا العربي لا يخرج في خطوطه العامة عن هذه القاعدة ، قاعدة تكون ايديولوجيتين مختلفتين ، ايديولوجية الطبقة الحاكمة الحائزة على القسم الاكبر من خيرات الانتاج ، وايديولوجية الطبقات الدنيا المتطلعة الى حياة افضل . ولا يخلو تاريخنا العربي ايضا من مفكرين حاولوا الجمع بين الايديولوجيتين او زعموا انهم فوق الايديولوجيات .

ان ايديولوجية الطبقات الدنيا العربية المنادية بالانعتاق والتحرر الاجتماعي وبالثورة على الظلم والاستعباد والاستثمار هي الان الينبوع الدافق للتقدميين العرب في نضالهم ضد الرجعية والاستعباد والاستعمار . ومن معين هذه الايديولوجية نهل ايضا انصار التيار الاشتراكي في عهد الانتداب خلال مسيرة نضالهم الوطني والاجتماعي .

وهذه الحقيقة اشار اليها روجيه غارودي الذي قال : ان الانسان المسلم في بلد اسلامي يمكنه ان يصل الى الاشتراكية العلمية عن طريق جدلية ابن رشد ومادية ابن خلدون وثورة القرامطة ذات التراث الاشتراكي الخيالي (١).

ولكن التراث التاريخي لا يكون الا جانبا واحدا من جوانب عملية تكون الافكار أو التأثير فيها . وثمة جوانب اخرى تؤثر ايضا تأثيرا فعالا في هذه العملية وفي مقدمتها درجة تطور القوى المنتجة . لان درجة وعي الناس مرتبطة ارتباطا عضويا بمستوى تطورهم العام .

ان التيار الاشتراكي الواضح المعالم ظهر في اوروبا بعد تطور الراسمالية ، وتطور وصلب عوده في خضم كفاح الطبقة العاملة ضد الاستثمار الراسمالي . ولو فرضنا ان الراسمالية لم تنشأ وتزدهر في اوروبا لما كان بالامكان تطور الافكار الاشتراكية وبلوغها درجة النضج في تلك القارة .

وبما ان التاريخ العربي الحديث لم يعرف الراسمالية بمراحلها المتطورة ، فان الحركة العمالية العربية خاصة والحركة الاشتراكية في الوطن العربي عامة بقيت في فترة ما بين الحربين في مراحل تطورها الاولى .

ولهذا لم يكن بامكان الطبقة العاملة ، التي كانت لا تزال في دور النمو والتكون في فترة ما بين الحربين ، تقديم المساعدة الجدية للفلاحين . فالطبقة العاملة ذاتها كانت ضعيفة اقتصاديا وفكريا وسياسيا ، والضعيف لا يستطيع مساعدة ضعيف مثله .

فكريا كانت الافكار الاشتراكية السند الحقيقي والاساسي للفلاحين في نضالهم ضد الاستثمار الاقطاعي . ولكن الاشتراكية لم تاخذ طريقها الى سوريا ولبنان والوطن العربي عامة عن طريق الطبقة العاملة ،بل عن طريق قسم من المثقفين الثوريين المتحدرين

من البورجوازية الصغيرة ، الذين اعتنقوا الاشتراكية بعد اطلاعهم عليها عن طريق المصادر الفرنسية او الانكليزية . وبفضل هؤلاء المثقفين الاشتراكيين اخذت الافكار الاشتراكية منذ أواخر العشرينات تشق طريقها عبر دروب ضيقة متعرجة صعبة المسالك (٢). فالامية المتفشية في كل مكان ، والمفاهيم الضبابية المسيطرة على العقول، والسيطرة الاستعمارية المناوئة لكل شيء تقدمي وضعف الطبقة العاملة ، وتأثير الافكار الرجعية الاقطاعية والاستعمارية ، أمور حدت من انتشار الفكر الاشتراكي وعرقلت لفترة من الزمن تأثيره الافقي والعامودي .

ولهذا فان مهمة رواد الاشتراكية الاوائل لم تكن سهلة في محيط اجتماعي اتصف بضعف الطبقة العاملة وبتخلف الفلاحين واميتهم . ولكن ثمة عاملا ايجابيا دفع بالافكار الاشتراكية الى الامام وهو النضال الوطني المعادي للاستعمار . لقد كان النضال الوطني خير تربة لنمو الافكار الاشتراكية التي ارشدت شغيلة العالم والشعوب المستعمرة الى طريق تحررهم الاجتماعي والقومي . ولهذا فان اعتناق الافكار الاشتراكية في البلدان المستعمرة ، ومن ضمنها وطننا العربي ، لم يكن وقفا على الطبقة العاملة ، كما هو الحال في البلدان المتطورة صناعيا ، بل ان افكار الاشتراكية لاقت قبولا لدى القسم الثوري من مثقفي البورجوازية الصغيرة ... لماذا ؟ ... لان الفئات المثقفة الثورية وجدت في الاشتراكية العلمية او في بعض اقسامها سلاحا فكريا ضد الرجعية والتخلف والسيطرة الاستعمارية . هذه العناصر المثقفة الثورية نقلت الافكار الاشتراكية الى اللغة العربية ، وانطلاقا من هذا الواقع فان الحركة الفلاحية وجدت في هؤلاء المثقفين الثوريين من سار معهم من الفئات العمالية الواعية خير حليف لها في نضالها من أجل الارض وتحسين ظروف حياة الفلاحين .

اسهمت كتابات رواد الاشتراكية في تعريف قراء العربية ببعض جوانب الفكر الاشتراكي ، وفي نشر الوعي الوطني والقومي والطبقي ، وفي الربط بين الفكر التقدمي العالمي والفكر العربي التقدمي ،قديمه وحديثه .وقد افصح التيار الديمقراطي الثوري ومن خلفه التيار الاشتراكي عن خلجات التحولات الاجتماعية الاقتصادية في اقطار الوطن العربي ، وردد اصداء الصراع العالمي المحتدم انذاك بين الديمقراطية والفاشية، وبين الاشتراكية والراسمالية . لقد آمنت العناصر البورجوازية الصغير الثورية

بالاشتراكية ، التي تستهدف حرية الانسان وبناء مجتمع لا اضطهاد فيه ولا استثمار. وادركت هذه العناصر — كما ذكر الدكتور كامل عياد (٣) « ان الاشتراكية ، التي بدات تنتصر في كل العالم ، هي الشرط الاساسي لتحقيق القومية والديمقراطية والانسانية » لذلك انضمت هذه العناصر البورجوازية الصغيرة الثورية « الى الطبقة العاملة ، لان حركتها انما تخدم في الحقيقة الوحدة القومية ، ولان نضالها انمايستهدف ازالة الانقسام بين ابناء الشعب الواحد والقضاء على اسباب هذا الانقسام وعوامله ».

ولكن التيار الديمقراطي الثوري « وكذلك الاشتراكي » لم يستطع ، بالرغم من انجازاته ومآثره في فترة ما بين الحربين من نشر افكاره على نطاق واسع بسبب الامية السائدة بين الجماهير والظروف الموضوعية التي عاشتها هذه الجماهير ، وكذلك بسبب عدم وضوح الرؤية الفكرية عند القسم الاكبر من انصار التيار الديمقراطي الثوري . كما ان الافكار الاستعمارية والرجعية السائدة التي قادت الارهاب الفكري قامت بنصيب كبير في مقاومة الافكار التقدمية وفي ارهاب انصار الفكر التقدمي ، بغية ابقاء جماهير الريف والمدينة خاضعة فكريا وسياسيا للطبقات المالكة .

فالانتداب الافرنسي سعى لخنق كل صوت ينادي بالتحرر القومي أو الاجتماعي. فقانون التجمعات العثماني الرجعي الصادر في ٣٠ آذار ٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م وقانون الاجتماعات العثماني الصادر سنة ١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧ م بقيا ساريا المفعول ايام الانتداب . وبالاضافة اليهما اصدر المسيو دي جوفنيل عضو مجلس الشيوخ والمفوض السامي للجمهورية الفرنساوية في / ٥ / ايار سنة ١٩٢٦ اعتبر بموجبه « الاغراء على تغيير الانظمة الاساسية للهيئة الاجتماعية جريمة ضد السلام العام »(٤) والقصد من وراء هذا القرار واضح فهو يرمي الى قمع الحركة الوطنية المسلحة من جهة وتهديد العناصر المتواجدة او التي ستوجد في المستقل وتطالب بتغيير العلاقات الاجتماعية والقضاء على الاستثمار الاقطاعي . ولم يمض وقت طويل حتى اصدر المفوض السامي قرارا آخر في / ١٢ / شباط ١٩٣٢ « بشان قمع الجرائم التي من شانها الاخلال بالنظام العام » (٥) والمقصود بالمخلين بالنظام العام هم اولئك المناضلون المنادون بالتحرر الاجتماعي أو القومي .

ثانياً ـ الفلاحون بين الثورتين الوطنية القومية والاجتماعية الطبقيـــة :

ان الصراع بين من ينتجون الخيرات الزراعية ولا ينالون الا ما يسد الرمق أو يقل، وبين من يحوزون على هذه الخيرات دون ان يسهموا في عملية الانتاج قديم قدم العصور التاريخية .

لقد تعرضنا في القسم السابق من هذا الكتاب الى بعض مظاهر هذا الصراع في تاريخنا العربي في العهد العثماني ، وحاولنا ان نستعرض ايضاً اهم الانتفاضات الفلاحية التي حدثت في القرن التاسع عشر وكانت ايذاناً بانبعاث النهضـــة العربيـــة الحديثة وسبباً من اسباب قيامها . كما تناولنا ايضا النضال الفلاحي في مطلع هذا القرن ضمن اطار حركة التحرر العربية في بلاد الشام ضد السيطرة العثمانية الاجنبية .

والنضال الفلاحي في عهد الانتداب الافرنسي (١٩٢٠ ـــ ١٩٤٣) ليس الا جانبا من جوانب الكفاح بين من ينتجون ولا يملكون وبين من يملكون ولا ينتجـــون ، في ظـــل ظروف جديدة نسبيا . فالنضال الفلاحي في سوريا ايام الانتداب الافرنسي شكل جانبا من جوانب النضال الوطني ضد السيطرة الاجنبية ، وكان في الوقت نفســه امتدادا لحركات التحرر القومي العربية وكذلك لحركات التحرر الوطني العالمية بمـــا فيهـــا الحركات الفلاحية في بلدان اسيا وافريقيا . وقد عرفت هذه الحركات بمجموعها ولكن بنسب متفاوتة ـــ نهوضا ثوريا جبارا على اثر الضربة التي اصيبت بها الراسماليـــة في اواخر الحرب العالمية الاولى بعد قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ .

كان من احدى نتائج انهيار الدولة العثمانيـــة الاقطاعيـــة سنـــة ١٩١٨ تحـــرر الفلاحين العرب في شرق الوطن العربي من كابوس الايديولوجية الاقطاعية العثمانيـــة، التي كانت تخدر ثوريتهم وتثبط عزائمهم وتحد من روحهم الكفاحية في النضال ضـــد الحكم التركي والنضال الاجتماعي ضد الاقطاعية .

ومع ان الاستعمار الافرنسي تحالف مع الاقطاعية وسعى لترسيخ دعائمها فـــي الريف والاستفادة من نفوذها، الا ان الايديولوجية الاقطاعية كانت قد تصدعت اركانها بعد انهيار الدولة العثمانية ، التي كانت تعتمد عليها . فانهيار احدى البنى الفوقيـــة (الدولة العثمانية) للاقطاعية في الشرق الاوسط اثر في القاعدة الاقتصادية الاجتماعية

وسرعان ما اخذ الخلل يتسرب في دعائمها . ولكن علينا الا ننسى هنا ايضا ان تصدع البنية الاقطاعية وتخلف القوى المنتجة كان ايضا من العوامل الهامة لزوال الدولة العثمانية .

بعد انهيار الدولة العثمانية ومجيء السلطة الاستعمارية الافرنسية ، لم يعد بامكان ايديولوجيي السلطة طلب الولاء لها والخضوع لسلطانها المطلق كما كان الامر ايام الدولة العلية العثمانية . فالسلطة الاستعمارية الافرنسية سلطة غريبة قوميا ودينيا عن البلاد ، وليس من السهل ايجاد المبررات النظرية للخضوع للسلطة كما كان الامر في السابق . وهذا مما اسهم في انطلاق الحركة الوطنية والقومية وتمكنها من حشد الجماهير المؤمنة بالكفاح الوطني المناهض للاحتلال الاجنبي . وهذا مما ساعد الحركة الفلاحية في الوقوف على رجليها ، واسهم نسبيا في دفع النضال الفلاحي ، الذي قدم بدوره طاقات جديدة للنضال القومي والوطني .

والظاهرة البارزة في حركة التحرر العربية هو تحولها بعد الحرب العالميّة الاولى الى حركة جماهيرية واسعة بعد ان كانت مقتصرة قبل الحرب على فئات اجتماعية محدودة .

١ ـ العلاقة بين الثورتين القومية والاجتماعية :

عرف التاريخ نوعين رئيسيين من الثورات هما :

اولا ـ الثورة الاجتماعية الناجمة عن قيام طبقة اجتماعية (او عدة فئات اجتماعية) بالثورة ضد طبقة اجتماعية (او فئة اجتماعية) اخرى تستثمر الاولى او تحد من تطورها وتقدمها .

وثانيا ـ الثورة الوطنية او القومية الناجمة عن قيام الشعب او اكثريته بمقاومة الغزو الاجنبي للوطن او طرد المحتل ، الذي يدنس ارض الوطن .

لكن الحدود الفاصلة بين الثورتين الاجتماعية والقومية حدود غير واضحة المعالم في كثير من الاحيان . وغالبا ما تتداخل الثورتان ببعضهما ، وفي حالات ليست بالنادرة تتحول الثورة الاجتماعية وتتطور الى ثورة قومية ، واحيانا تتحول الثورة القومية الى ثورة اجتماعية . فالثورة الاجتماعية تنقلب الى ثورة وطنية في حال وقوع اعتداء خارجي

للقضاء على الثورة الاجتماعية ولاعادة الطبقة الحاكمة في عهد ما قبل الثورة . ومثال على هذا النوع من الثورات الثورة البرجوازية الفرنسية (١٧٨٩ ــ ١٧٩٤) وهي ثورة البرجوازية المتحالفة مع الفلاحين والطبقات الشعبية في المدن ، ضد الاقطاعية ، ولكن التدخل الاجنبي النمساوي البروسي الذي جرى لصالح الاقطاعية المنهارة حول الثورة من ثورة اجتماعية طبقية الى ثورة وطنية لم تتخل عن اهدافها الطبقية في القضاء على النظام الاقطاعي واقامة النظام الراسمالي .

وكذلك الحال بالنسبة للثورة الاشتراكية في روسيا عام ــ١٩١٧ــ التي كانت ثورة اجتماعية طبقية قامت بها الطبقة العاملة بالتحالف مع الفلاحين لتصفية الاستثمار بشكليه الراسمالي والاقطاعي .

ولكن التدخل المسلح من قبل الحلفاء ــ الانكليز والفرنسيين والاميركيين .... الخ ــ لاعادة الطبقتين المستثمرتين السابقتين الاقطاعية والبرجوازية ، اللتين حطمتهما الثورة اسبغ على الثورة الاشتراكية في روسيا طابعا وطنيا قوميا .

كما ان الثورة الوطنية ــ القومية ــ كثيرا بل غالبا ما تتطور الى ثورة اجتماعية طبقية . وفي مرحلة التطور هذه يندمج النضال القومي بالنضال الاجتماعي كما هو الحال في العديد من بلدان اسيا وافريقيا . وعندما يندمج الوطني ــ القومي ــ والاجتماعي مع بعضهما جنبا الى جنب فان اخماد نار الثورة يغدو في عالم المستحيل .

ان الوعي القومي الوطني لدى السكان المظلومين والمسحوقين تحت وطأة الفقر والجهل في البلدان التي تحررت او هي في طريق تحررها ، هو من حيث جوهر الامر ، في ظل سيادة الامبريالية الاجنبية ، وضعف البرجوازية المحلية ، شكل ابتدائي عفوي للوعي الطبقي . وان توطيد الوعي القومي الوطني هذا يؤدي الى ارتفاع مستوى الوطنية وتأثيرها في الحياة ضعيف . ليست النزعة القومية البرجوازية من حيث كنهها ، بل ديمقراطية ثورية . اي انها لاتبتغي للجماهير الكادحة التحرر القومي وحسب ، بل التحرر الاجتماعي ايضا .

اما اذا كانت مواقع البرجوازية الوطنية على درجة من القوة النسبية فان الصراع

حول جوهر النزعة القومية يحتدم لفترة من الزمن ، تطول او تقصر ، تبعا لنسبة القوى الاجتماعية المتصارعة .

ان حركات التحرر الوطني في اسيا وافريقيا ، ومن ضمنها حركة التحرر العربية ، هي حركات تحمل في احشائها دائما محتوى اجتماعيا طبقيا يفور في الاعماق احيانا ويطفو على السطح احيانا اخرى تبعا لنسبة القوى الطبقية المشاركة في الحركة والظروف المحيطة بها . فالنضال الوطني القومي في بلد يناهض الاحتلال الاجنبي هو في جوهره نضال فئات اجتماعية متعددة توحدت في البلد المحتل ضد الطبقة الحاكمة الاجنبية (ومن يؤيدها أو يسير في ركابها من الفئات الاجتماعية داخل البلد المحتل) التي تستثمر شعب بلادها مثلما تستثمر الشعوب الاخرى . ولهذا فان حركة التحرر الوطني في اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية هي في جوهرها حركة نضال ضد الراسمالية الاحتكارية العالمية تؤدي الى اضعاف النظام الراسمالي بمجموعه .

قبل الحرب العالمية الاولى لم تكن ثورات التحرر الوطني تتخطى اطار الثورات الديمقراطية البرجوازية ، التي لم تكن تفعل ، كمابينت تجربة ايران وتركيا التاريخية غير ان تمهد السبيل امام تطور الراسمالية . اما بعد الحرب العالمية الثانية وبعد انهزام المانيا الهتلرية وظهور المعسكر الاشتراكي ، الذي ادى الى تغير نسبة القوى الطبقية في المسرح العالمي . فان امكانية تحول ثورات التحرر الوطني المعادية للامبريالية ، بصورة سريعة نسبيا ، الى ثورات معادية للراسمالية ، ومن ثم الى ثورات اشتراكية اضحت كبيرة وممكنة .

وفي فترة مابين الحربين العالميتين الاولى والثانية (١٩١٨ — ١٩٣٩) مرت حركة التحرر الوطني بمرحلة الانتقال بمضمونها من ثورة ديمقراطية برجوازية — قبل الحرب الاولى — الى ثورة معادية للراسمالية — بعد الحرب الثانية — وليس من العبث الاستعاضة في سنة — ١٩٢٠ — في وثائق الحركة العمالية العالمية ، عند الحديث عن قضية القوميات ، عن كلمات « الحركة البرجوازية الديمقراطية » بكلمات « حركة التحرر الوطني الثورية » . ان هذه الاستعاضة لم تكن شكلية بل استتبعها واقع ان الفرق بين الحركة الاصلاحية قبل الحرب الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) والحركة الثورية

بعدها كلن قد لبدى انذاك بما يكفي من الوضوح في البلدان المستعمرة والتابعة(١١) .
وهذا الحكم ينطبق اول ما ينطبق على حركة التحرر العربية بعد الحرب العالمية الاولى التي شهدت نهوضا ثوريا جبارا شاركت فيه الجماهير الشعبية في المدينة والفلاحين في الريف ، الذين حملوا السلاح في ثورة — ١٩١٩ — في مصر وثورة — ١٩٢٠ — في العراق وثورة الريف المراكشي (١٩٢٢ — ١٩٢٧) والحركات الوطنية المسلحة في سورية التي توجت بالثورة السورية (١٩٢٥ — ١٩٢٧) .

٢ — دور الفلاحين في حركة التحرر :

تألفت حركة التحرر الوطني العربيـة في سورية ايام النضال ضد الاحتلال الامبريالي الافرنسي ١٩٢٠ — ١٩٤٥ من فئات اجتماعية واسعة شملت البرجوازية الوطنية والفئات المتوسطة والفقيرة من سكان المدينة والفلاحين بشرائحهم الثلاث .

دخلت الحركة الوطنية العربية في سورية ، بعد الحرب العالمية الاولى في طور جديد اختلف اختلافا جذريا عن طور ما قبل الحرب العالمية الاولى . فقبل عام ١٩١٨ تركز النضال العربي ضد الحكم العثماني من اجل الحصول على الاستقلال الذاتي او التام . ولم يشارك في الحركة القومية العربية قبل عام ١٩١٤ الا المثقفون الوطنيون والبرجوازية الوطنية الناشئة بالاضافة الى اعداد محدودة جدا من الاقطاعية الليبرالية . اما بعد عام ١٩١٨ وبعد تصدع النظام الامبريالي وانهزام الدولة العثمانية وتحرر الجماهير المؤمنة من كابوسها ، فان الجماهير الشعبية العربية الواسعة اخذت تشارك تدريجيا في حركة الكفاح المناهض للاستعمار . واتخذ هذا الكفاح الوطني في كثير من الاحيان مظهرا دينيا معاديا للمستعمرين « الكفار » . وهذا ما اكسب الحركة الوطنية العربية في سورية — وفي كل قطر عربي متقدم — طاقات بشرية لا تنضب في النضال ضد الغزاة المستعمرين ومن اجل نيل الاستقلال الوطني . وهذه العملية دفعت بالفلاحين اكثر فاكثر الى ميدان النضال .

في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ تبلور هدف الحركة الوطنية في طرد المستعمرين الغزاة واقامة دولة وطنية مستقلة، وهنا برزت البرجوازية الوطنية التجارية ، التي حملت بعض اقسامها في التحول الى برجوازية صناعية ، كقوة قائدة

في حركة التحرر الوطني . وقد اصطدمت مصالحها بشكل عام مع سياسة الانتداب الافرنسي الرامية الى تمكين الراسمال الاحتكاري الافرنسي من السيطرة على سورية واستثمار شعبها . كما أن هذه البرجوازية نادت بوحدة بلاد الشام التي قسمها الانتداب الاستعماري ، وحلمت باقامة سوق مشتركة واسعة نسبيا ، ولا يخفي ان عناصر فعالة مثل الطلاب والمعلمين وبعض المحامين والاطباء كالتي تحدرت قبل سنة ١٩٤٥ من صفوف البرجوازية الوطنية والبرجوازية الصغيرة اسهمت بنشاط في ايقاد جذوة النضال الوطني .

ولكن القوى الضاربة الاساسية في النضال الوطني تكونت من الفلاحين بمختلف اقسامهم ومن شغيلة المدن المؤلفة من الحرفيين والعمال وغيرهم من الفئات الكادحة . وهذه الفئات الاجتماعية ــ الدنيا ــ قدمت القسم الاكبر من شهداء الحريةوالاستقلال وحصلت على الجزء الزهيد من المكاسب المادية والمعنوية ، التي اتت في اعقاب الاستقلال . فقد قامت البرجوازية الوطنية الشابة التي حاولت احتكار قيادة النضال الوطني ، بتحوير وتحريف تاريخ النضال الوطني وطمس الدور الاساسي والفعال للجماهير الشعبية ، التي اندفعت الى التضحية والفداء والى السير في النضال الوطني حتى نهايته ، وقطع الطريق على الفئات البرجوازية الراغبة في المساومات او اقتسام الغنائم مع سلطات الانتداب ومن يسير في ركابها (٦) .

حمل الفلاحون العبء الاكبر من النضال الوطني في الفترة الاولى من الاحتلال الاستعماري الافرنسي وكانت انتفاضة الفلاحين في حوران في ٢١ آب ١٩١٠ ، أولى ردود الفعل ضد الحكومة « الدروبية » العميلة للاستعمار ، كما كانت احتجاجا عنيفا ضد دفع الغرامات التي لم تكن الا شكلا من اشكال النهب والاستثمار البشع لفلاحي حوران . ولم تنقطع حركات الفلاحين المسلحة طوال السنوات الاولى من الاحتلال الافرنسي . وكان من ابرزها الحركات الفلاحية المعادية للاستعمار في جبال العلويين ١٩١٩ ــ ١٩٢١ وفي جبل الزاوية ١٩١٠ ــ ١٩٢١ . ومن ادلة المكانة الرفيعة التي تمتع بها الفلاحون داخل الحركة الوطنية، النداء الذي اذاعه ابراهيم هنانو في ٦ كانون الثاني ١٩٢١ والذي ابتدأ بمخاطبة الفلاحين وحثهم على الجهاد . لقد افتتح النداء بالعبارة التالية : « ايها الفلاحون والقرويون يا بني وطني .. ويا أبناء سورية الاشاوس (٧) .

اما الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، احد قادة الحركة الوطنيـة العربيـة في سورية والممثل لاحد اتجاهات البرجوازية الصغيرة ، التي كانت قبل منتصف العقد الرابع تحمل بذورا تقدمية وثورية بارزة فقد القى في ٥ حزيران سنة ١٩٢٥ خطابا في بهو الاوبرا العباسية بدمشق تظهر فيها علامات تأثره بالفكر التقدمي العالمي بشكل او بآخر . فهو يعطي الاهمية الاولى للعامل الاقتصادي في تحليل التاريخ ويشـير الـى صراع الطبقات في اوروبا والى استثمار المتروبول للمستعمرات والى طبيعة الحـرب العالمية الاستعمارية الاولى وانها حرب بين الراسماليين ولا مصلحة للشعوب فيها ، وهو يدعو اخيرا الى (الاشتراكية المعقولة) .

جاء في خطاب الشهبندر المنوه به سنة ١٩٢٥ ما يلي (٨) :

« تكاد تكون جميع الانقلابـات التـي حدثت في عصر التاريخ ناشئة عن العامل الاقتصادي . ان كيان اوروبا يهدد في يومنا هذا بحرب عـوان تدعى حرب الطبقات وخلاصتها ان تسعة اعشار الامم الغربية وهم العمال يشتغلون اناء الليل واطراف النهار لاشباع بطون العشر الباقي واملاء جيوبهم وهم الملقون .. وقد كانت نتيجة الصراع الاوروبي الاخير نحوا من ثلاثين مليونا من اغنى البشر وجلهم من الطبقة الثالثة ذهبوا على مذابح الاطماع المالية .. » .

« ... ومهما كان عـذر الفاتحين في احتلالهم البلـدان الغريبـة عنهـم فان الزيوت والانهار والشلالات والاتربة والمعادن والاخشاب والحبوب هي عند « التحليل النهائي » وراء الدعوة الفارغة ، التي يتظاهرون بها ، ونعني ذلك ان رؤوس الاموال استرخصت الموارد الوطنية ، فاندفعت تطلب لها مستودعا في الخارج يدر عليها اللبن والعسل ، فلم تر خيرا من البلاد البكر واتخاذ سكانها عمالا بالاجور الرخيصة » .

واكد الدكتور الشهبندر في خطابه « ان تسرب اموال البلاد المغلوبة على امرها من جيوب ابنائها يوما بعد يوم سينتهي بهم الى الافلاس حتما » ثم اعرب الشهبندر عن اعتقاده بان « الاشتراكية المعقولـة (لا تناقض ـ عقيـدة الشرقيين) وسينتهي الافلاس بالبلاد المستعمرة الى حشرها في صف العمال فيتعاون الجميع علـى تحرير الانسانيـة البائسة من مخالب الاصفر الرنان » .

وهذه اشارة صريحة وجريئة بالنسبة لسنة ١٩٢٥ ودعوة الى التعاون بين الحركة العمالية العالمية وحركات التحرر الوطني في المستعمرات ، قل أن تعرض لها سياسي ، ومفكر برجوازي في ذلك الحين . اما « الاشتراكية المعقولة » التي اعتقد الشهبندر بصلاحها بالنسبة الى الزمن الذي طرحت فيه وعلى سمع من الناس ، فجاءة نادرة المثال وهي تعكس موقف الفئات الليبرالية من البرجوازية الصغيرة المتأثرة بالفكر التقدمي في الغرب والرازحة تحت الحكم الاستعماري .

شارك الفلاحون على نطاق واسع وجماهيري في ثورة ١٩٢٥ ، التي كانت استمرارا منطقيا ونقطة الاوج للحركات الفلاحية المعادية للاستعمار ، التي نشبت في انحاء متفرقة من سورية ، وصدى للمظاهرات الشعبية ، التي قامت في مدينة دمشق، في ٢٢ نيسان ١٩٢٢ وفي نيسان ١٩٢٥ .

لقد حققت الثورة السورية احلام قادة الحركة الوطنية العربية في بلاد الشام قبل الحرب العالمية الاولى في انشاء تحالف بين المدينة والريف ، بين البرجوازية وجماهير المدينة من جهة ثانية . فيما مضى واثناء قيام الدولة العربية الوطنية في دمشق ١٩١٨ – ١٩٢٠ منعت سياسة الملك فيصل والاقطاعية السورية من تحقيق هذا الحلف ، وكان ذلك احد العوامل الهامة التي أدت الى فشل المقاومة في ميسلون ، لان جماهير المدينة المؤلفة من الحرفيين والتجار انعزلت عن الفلاحين الذين سعت السياسة الاقطاعية لتجميدهم وابقائهم (يتفرجون) أثناء الصراع الدائر بين قوى الاستعمار الفرنسي الغازي وقوى الحركة الوطنية ومعقلها الجبار مدينة دمشق . أما خلال ثورة ١٩٢٥ – ١٩٢٧ فقد تم تحقيق الحلف بين القوى الوطنية في كل من المدينة – مدينة دمشق – والريف – ريف سورية الجنوبية .

كان الكفاح المسلح الذي خاضته الحركة الوطنية في سورية من ١٩٢٠ – ١٩٢٧ من اهم العوامل التي اجبرت المستعمرين الافرنسيين على التراجع امام الحركة الوطنية وتقديم بعض التسهيلات أمام نشوء الصناعة الوطنية . أما من الوجهة السياسية فقد ظهر تراجع الافرنسيين في السماح باجراء الانتخابات للجمعية التأسيسية سنة ١٩٢٨ التي ربحت فيها عناصر وطنية أخذت تتجمع في الكتلة الوطنية ، التي تزعمت حركة النضال الوطني حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

ومع ان الفلاحين كونوا في سورية القوة الضاربة الرئيسية في فترة الكفاح الوطني المسلح ١٩١٩ ـ ١٩٢٧ الا انهم لم يكونوا القوة القائدة في هذا النضال . ان المستوى التكتيكي المنخفض في الانتاج الزراعي آنذاك ادى الى انتاجية منخفضة ، ومردود زراعي قليل نسبيا بالقياس الى البلدان الصناعية ، وقلة الارض ، التي ملكها الفلاحون المتوسطون والفقراء الى حد ماالاغنياء ايضا، اسهمت في عدم مقدرةالفلاحين على تسلم قيادة النضال الوطني . يضاف الى هذا العامل عوامل اخرى ايضا منها تشتت الفلاحين بسبب طبيعة الانتاج الزراعي وعدم تمركزهم الى درجة تمكنهم من العمل كعضوية اجتماعية موحدة في بلد كان يفتقر الى طرق المواصلات .

ان تشتت الفلاحين هذا وتخلف انتاجهم ادى الى تبعثر الجهود وهدر الطاقات وظهور القيادات المختلفة المتصارعة احيانا على الزعامة . مما افسح المجال امام قوى الاحتلال الافرنسي الى ضرب القوى الفلاحية المشاركة في النضال الوطني كل على حده . وحتى ثورة ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ وهي انضج الثورات الوطنية واكثرها اتساعا مكانيا وامتدادا زمنيا ، لم تتمكن من التخلص من هذه النقيصة ، نقيصة التشتت والخلاف بين كتلها المختلفة ، التي تزعمتها عناصر من الفلاحين الاغنياء ، المتنفذين في مناطقهم بفضل الروح المحلية العشائرية العائلية السائدة .

وعلى الرغم من مختلف الجهود المبذولة لنقل ثورة ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ الى وسط سورية وشمالها ، الا ان هذه الجهود ذهبت هباء بسبب سيطرة العلاقات الاقطاعية في هذه المناطق سيطرة شبه تامة ، ووقوف الاقطاعيين وكبار ملاك الاراضي الى جانب سلطات الاحتلال ضد الحركة الوطنية . وبسبب تخلف التطور الروحي للفلاحين الخاضعين للنير الاقطاعي آنذاك الذين لم يكن بامكانهم حمل السلاح والانضمام للثورة وقد قاوم ملاك الارض الكبار كل فكرة ثورية في مناطقهم لعلمهم الاكيد بان النضال ضد النير الاجنبي (الاستعمار) سوف ينداز ايضا ضد النير الاقطاعي .

وهذا احد الاسباب التي ادت الى حصر الثورة السورية في المناطق الجنوبية، المعروفة بانتشار الملكية الصغيرة للارض على نطاق واسع .

كانت القيادة العملية للعصابات المقاتلة ضد الاستعمار الافرنسي في يد الفلاحين

الاغنياء الذين لم يتمكنوا من توحيد جهودهم ولم يرضوا بقيادة موحدة صارمة ، لان وجود قيادة موحدة ،سيحد من مطامحهم الشخصية ونزواتهم التسلطية . وفي المناطق التي سيطرت عليها الثورة السورية ـ والحكم نفسه ينطبق على الثورات الاخرى ـ سرعان ما تبنى معظم زعماء العصابات وهم من الفلاحين الاغنياء عيوب التنظيم الاقطاعي ومظالم السلطة الاقطاعية (العثمانية سابقا) والسلطة الاستعمارية . وهذا ما جعلهم معقوتين من السواد الاعظم من الفلاحين . وقد قـوض هؤلاء الزعمـاء من الفلاحين الاغنياء بانفسهم دعائم الثورة الوطنية القائمة على اكتاف الفلاحين الفقراء والمتوسطين وبعض الفلاحين الاغنياء . وتروي مصادر الثورات السورية في فترة الكفاح المسـلح ١٩١٩ ـ ١٩٢٧ اخبارا غزيرة عن وقوع قسم كبير من هؤلاء الزعماء في اسر العقليـة الاقطاعية واسر العقلية التسلطية، وهذا مما ادى الى فقدان القيادة الموحدة والى عزلة الثورة تدريجيا عن جماهير الفلاحين الواسعة ، التي كانت تقدم العون المادي والمعنوي بسخاء لرجال الثورة .

وثمة فجوة اخرى اتصفت بها سائر الحركات الفلاحية في العالم وهي أن المنتصرين سرعان ما كانوا يتفرقون كل الى ارضه بعد احراز نصر محلي لا يكفي للوصول الى النصر النهائي . وهذا مما اتاح للسلطة الاستعمارية ومن تعاون معها في الداخل ، التي ملكت تنظيما عسكريا واسلحة حديثة وجهاز دولة ان تنتقم من حركة الفلاحين الوطنية وتسدد اليها ضربات وحشية ساحقة .

تدل تجارب التاريخ ايضا على ان جيش الفلاحين ، سواء في نضاله الاجتماعي او الوطني لا يمكنه ان ينتصر الا اذا توفرت له قيادة مناسبة متحدرة عادة من بيئـة اجتماعية اخرى على مستوى من التطور ارفع . وبما ان الطبقة العاملـة لم يكن لها وجود يمكنها من القيام بهذه المهمة فان هذا الامر امر قيادة الحركة الوطنية وقع على عاتق البرجوازية الصغيرة (المدينية) المثقفة الثورية ، التي وجدت في ظل الاحتلال الاستعماري الافرنسي مجالا ضيقا جدا لاستخدام كفاءاتها ومؤهلاتها ، ولم تكن ترى آفاق المستقبل مفتوحة امامها . ولكن الاقسام الثورية من البرجوازية الصغيرة التي شاركت في الثورة وحققت تحالفا بين المدينـة الثورية والريف الثوري كانت ضئيلـة

العدد ، ولم يكن بمقدورها ردع بعض زعماء العصابات الراغبين في السلب والنهب ، على الرغم من محاولاتها المتكررة التي اتخذت اسلوب الاقناع. اما البرجوازية التجارية فكانت مواقفها تتارجح بين تأييد الثورة ومحاولة الاستفادة منها ، وبين الخضوع للانتداب والحصول على بعض المكاسب منه ، وهي في مواقفها المتارجحة هذه ، كانت تنتظر نتيجة المعارك للانضمام الى هذا الفريق او ذاك ، ولكن لا يجب الا ننسى ان العناصر الليبرالية من البرجوازية التجارية عطفت على الثورة وقدمت لها احيانا العون المالي . ان ضعف البرجوازية التجارية المحلية كان من احد الاسباب التي حرمت الثورة من قيادة موحدة .

ان ذلك لا يعني أن البرجوازية بقيت ايام الانتداب ضعيفة على الدوام . لقد اخذت هذه البرجوازية تقوى تدريجيا واستفادت من تراجع سلطات الانتداب الافرنسي بعد انتهاء الثورة السورية سنة ١٩٢٧ لتحتل بعض المواقع السياسية والاقتصادية ، ولكي تتزعم النضال الوطني في مرحلة الكفاح الوطني السلمي ١٩٢٨ ــ ١٩٣٩ .

وفي مرحلة الكفاح الوطني السلمي ١٩٢٨ ــ ١٩٣٩ هذه، التي استخدمت وسائل المظاهرات والاضرابات واصدار البيانات وتقديم المطالب والمشاركة في الحكم ، انحسر دور الفلاحين ، الذين انهكت قواهم في فترة الكفاح المسلح واقتصر النشاط السياسي والنضال الوطني على المدن واحيانا مراكز الارياف الكبيرة . وفي هذه الفترة تمكنت الاقطاعية المتحالفة مع سلطات الانتداب من تشديد القبضة على الفلاحين وعصرهم واستثمارهم ، وهذا مما دفع بالنضال الاجتماعي الطبقي الى الامام ، وجعله ظاهرة بارزة لكثير من مناطق الريف ، الذي خضع لنير مزدوج : نير الاقطاعية المحلية ونير الراسمال الاحتكاري الاجنبي ، المتمثل بسلطات الانتداب .

ثالثا ــ الحركة الفلاحية قوة اساسية من قوى الحركة الوطنية والقومية العربية:

خضع القسم الاكبر من الاقطار العربية الى الحكم الاقطاعي التركي زهاء اربعة قرون استمر حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ١٩١٨ وبالرغم من طول هذه المدة فان الركود والتاخر كانا الصفتين السالبتين في العهد العثماني . خلال القرون الاولى من الحكم الاقطاعي العثماني كانت القوى المنتجة تسير نحو الانحدار باطراد مخلفة وراءها

الانحطاط والتخلف بعد العهود السابقة ، التي في هذا القطر او ذاك بدرجات متفاوتة .

لكن تغيرات اقتصادية ، اجتماعية عميقة ، وتاثيرات خارجية حملتها رياح الثورة البرجوازية الفرنسية ، بدات منذ نهاية القرن الثامن عشر ومستهل القرن التاسع عشر ، تهز أركان المجتمع العربي في هذا القطر او ذاك بدرجات متفاوتة .

ادت هذه التغيرات والتاثيرات بالاضافة الى جور الحكم التركي ، الى بداية نشوء الحركة الوطنية العربية القومية وتطورها في منتصف القرن التاسع عشر . وقد تطورت هذه الحركة . في البدء ببطء ، ثم عرفت تسارعا نسبيا على أعتاب الحرب العالمية الاولى .

هدفت الحركة القومية العربية في مشرق الوطن العربي الى القضاء على الحكم التركي والى الحد من طغيانه على الاقل ، وطالبت باجراء بعض الاصلاحات . وقد سعت بعض اجنحة هذه الحركة الى التعاون مع الحكم التركي . لا سيما بعد ثورة الاتراك الاتحاديين ضد السلطان عبد الحميد في سنة ١٩٠٨ .

مع ان الاحتلال الاستعماري لم يبدا في مشرق الوطن العربي ــ عدا بعض سواحل شبه الجزيرة ــ الا اثناءالحرب العالمية الاولى ومع انتهائها ، الا ان التغلغل الاقتصادي والثقافي التكنولوجي ، بدا في منتصف القرن التاسع عشر . وقد عمق الموقف من الاستعمار وانقسام الحركة العربية .

كان لتمايز التركيب البنيوي للمجتمع العربي اثناء الحكم الاقطاعي العثماني اثره الجوهري في تشعب اراء رجال الحركة العربية ازاءالحكم العثمانيوالنفوذ الاستعماري كما اسهم في اختلاف استراتيجية كل تيارات الحركة الوطنية القومية ازاء مختلف القضايا السياسية والاجتماعية .

فما هي الفئات المؤيدة للحركة العربية وما هي الفئات المعارضة ؟

* الى الاقطاعيون ،في طليعة القوى المعادية للحركة العربية. فقد قاوم الاقطاعيون بضراوة كل تطور يمكن ان يجري في البلاد ويؤدي الى تحرر الفلاحين من نير الاقطاعية، وايدوا بلا تحفظ الاحتلال التركي بحكم موقفهم الطبقي ووضعهم القومي الغريب .

ومع هذا فان قسما من الاقطاميين الذين يوصفون عادة بالليبرالية وقف احيانا، مع بعض التردد ضد الحكم التركي وطالب باجراء الاصلاحات السطحية . ولكن هذا القسم الليبرالي من الاقطاعية كان مستعدا للتعاون مع الحكم التركي في كل لحظة يستطيع فيها الحصول على حصة الاسد من غنيمة الحكم .

* كان موقف برجوازية الكومبرادور ـ اي البرجوازية المرتبطة مصالحها بالراسمال الاجنبي ـ مزدوجا فهي اي برجوازية الكومبرادور ، لم تكن مسرورة تماما من الحكم التركي ومستعدة للوقوف ضده ولكنها لم تناد بالتحرر التام من كل سيطرة اجنبية ، بل سعت الى احلال السيطرة الاستعمارية التي تهيء لها سبيل الحصول على الارباح الاسطورية . وقد تجمعت هذه البرجوازية في مدينة بيروت وطالبت ـ بسبب ارتباطاتها الاقتصادية ـ باحلال الحكم الاستعماري الفرنسي مكان الحكم التركي ، وحاولت الى حين توجيه الحركة الوطنية في اتجاه سياستها .

* اما البرجوازية الوطنية ، التي غلبت عليها قبل الحرب الاولى صفة البرجوازية التجارية المرتبطة بالانتاج المحلي ، فقد ناضلت ، باسلوب ملتو متسم بالخوف ، ضد الحكم التركي ، ودعت الى قيام سوق داخلية موحدة وهادنت الاستعمار آملة الحصول عن طريقه على مساعدة تؤدي الى تحررها من الحكم الاقطاعي التركي .

* وقف في طليعة الحركة الوطنية القومية العربية المثقفون ، الذين درسوا في دمشق واستنبول وباريس وغيرها من المدن وتشبعوا بالاراء القومية ، وحلموا في تحقيق الوحدة العربية واقاموا لهذا الغرض الجمعيات السياسية المختلفة .

لقد كان المثقفون طليعة الحركة القومية وعقلها المدبر وساعدها الايمن في نضالها المعقد . ومع ان قسما من المثقفين لم يكن يعارض الحكم التركي اذا ضمنت مصالحه ، ومع ان قسما آخر لم يكن ضد الحكم الاجنبي الاوروبي ، الا ان اكثرية المثقفين وقفت ضد الحكم التركي وضد التغلغل الامبريالي ، وقدم تيارها العام خدمات جلى للقضية القومية .

* بالرغم من ان الجماهير الشعبية الكادحة في المدينة ، من الحرفيين والصناع والباعة والعمال كانت مخدوعة بالطابع الديني الكاذب للحكم العثماني ، الا انها كانت

تئن من ثقل وطاة الحكم الاقطاعي التركي وضرائبه الكثيرة وتهفو الى تحسين اوضاعها المعاشية . وهذا ما دفعها غريزيا الى تأييد الحركة الوطنية القومية دون ان تشارك فيها بشكل عملي فعال .

وهنا لا بد من التنويه الى غياب الطبقة العاملة ، التي يمكنها ان ترفع عاليا راية النضال ، لان افتقار البلاد الى الصناعة، وغلبة المؤسسات الحرفية الصغيرة والكبيرة، لم يساعد على نشوء الطبقة العاملة في فترة الحكم العثماني .

* خضع الفلاح العربي ايام الحكم التركي الى نيرين ـ نير الحكم الاقطاعي التركي ، ونير الاضطهاد القومي ـ الذي كانت درجاته تشتد وتخف حسب الظروف. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر خضع الفلاح لنير ثالث ، هو نير الراسمال الاجنبي (الانكليزي ـ والافرنسي ـ والالماني) الذي اخذت وتيرة استثماره تزداد حدة مع تطور الراسمالية ، وتحولها الى راسمالية احتكارية امبريالية .

أدى الاستثمار الوحشي للفلاحين الى قيام عدة انتفاضات فلاحية ، لم تكن منظمة ، ولكنها اسهمت في اضعاف السيطرة العثمانية على سورية ، واعطت للحركة الوطنية القومية دفعات قوية الى الامام .

وقد عقد رجال الحركة الوطنية والقومية الامال العراض على الفلاحين في النضال من أجل تحرر الاقطار العربية الخاضعة للدولة العثمانية . وشجعت تمردات الفلاحين ضد الحكم الاقطاعي التركي رجال الحركة الوطنية على السير في هذا السبيل وتحقيق وحدة المدينة والريف ضد الحكم الدخيل .

لكن ظروفا كثيرة ، لا مجال لذكرها ، قادت الى عدم تحقيق وحدة القوى الوطنية في المدينة والريف . وكان كفاح الحركة الوطنية القومية في مشرق الوطن العربي على جبهتين جبهة النضال ضد السيطرة التركية ، وجبهة مقاومة الاستعمار ، من اعقد المشكلات واكثرها خطورة . ولم تكن الحركة الوطنية آنذاك قد بلغت درجة عالية من التطور تستطيع حل مهماتها المعقدة والكفاح على جبهتين في آن واحد .

ثم جاءت الحرب العالمية الامبريالية الاولى فوضعت الحركة الوطنية امام ظروف ومهمات جديدة اتصفت سنوات ما بعد الحرب العالمية الاولى بتعاظم النهوض الجماهيري

الثوري وبتطور الوعي الوطني والقومي وصموده امام هجمات قوى الاحتلال الامبريالي.
واخذت تظهر داخل الحركة الوطنية القومية العربية فئات اجتماعية جديدة لم يكن لها
اي اثر . كما ان فئات اجتماعية اخرى كانت موجودة سابقا اخذت تشارك في النضال
وبنشاط ملحوظ . فالطبقة العاملة العربية الناشئة اخذت تبرز الى الميدان كقوة للنضال
الوطني والقومي والفلاحون مارسوا ادوارا اكثر نشاطا مما في السابق الى درجة ان العبء
الاكبر ايام النضال المسلح ١٩٢٠-١٩٢٨ وقع على كاهلهم . كما قام الحرفيون بدور
هام . واتصفت مواقف البرجوازية الوطنية بالتارجح والتردد والخوف من الاستعمار
من جهة ، ومن راديكالية الحركة العربية من جهة اخرى ، التي كانت تدفع الحركة
لاخذ مضامين اجتماعية اكثر وضوحا .

وثمة امر ميز حركة التحرر العربية - ولا يزال - عن غيرها من معظم الحركات
الوطنية في العالم وهو ان الامة العربية صارعت الاستعمار - ولا تزال - وهي مجزاة
مفككة . وهذا مما ادى الى ضعف الحركة وتمكن الاستعمار من كبح جماحها . وقد
لعب اتساع رقعة الوطن العربي واختلاف الظروف الاجتماعية والاقتصادية والفكرية
بين قطر وآخر في عرقلة تطور الحركة العربية بشكل مطرد في فترة ما بين الحربين .
وجاءت الصهيونية المتحالفة مع الاستعمار والطامعة في اغتصاب فلسطين وغيرها من
الاراضي العربية لتضيف خاصة جديدة لخصائص حركة التحرر العربية .

ايدت الاكثرية الساحقة من جماهير الامة العربية ، ولا سيما في المراحل الاخيرة
من الحرب النضال المعادي للتسلط الاستبدادي العثماني بأمل التحرر والحصول على
الاستقلال . ولكن القضاء على الدولة العثمانية وانتصار الحلفاء سنة ١٩١٨ لم يؤد الا
الى استبدال النير الاقطاعي التركي بالنيرين الاستعماريين البريطاني والفرنسي. ومع
هذا فان انهيار الدولة العثمانية وزوال الحكم الاقطاعي التركي كان حدثا تاريخيا هاما،
وخطوة اجتماعية الى الامام ، حررت قوى وطنية جبارة من الفلاحين وجماهير المدن
الفقيرة المضللة بشعارات الطبقة الحاكمة التركية . لقد نشط انهيار الدولة العثمانية
الحركة الجماهيرية واكسب حركة الاستقلال العربي صفاء وقوة لم تعهدها من قبل ،
كما قلب تدريجيا ميزان القوى داخل حركة التحرر العربي لصالح الجماهير الكادحة.

اي ان حركة التحرر العربي اخذت نتيجة اشتراك الجماهير النشيطة فيها تتجه رويدا رويدا نحو اليسار ، في حين اخذ يمين الحركة يساوم الاستعمار او يعقد الصفقات معه ، وفي كثير من الاحيان يرتمي في احضانه مستسلما هائما بدفء التربع على كراسي الحكم المزيفة المحروسة بحراب جند الاحتلال .

ولكن حركة التحرر الوطني العربية في بلاد الشام والعراق لم تصل الى هذه النتيجة بفضل انهيار الدولة العثمانية فحسب ، بل ان ثمة عوامل عديدة اثرت في مجرى تطور حركة التحرر العربي ، وكان لهذه العوامل متضافرة الاثر الفعال في النمو المطرد لحركة التحرر العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٨ .

بالاضافة الى الظروف الدولية ، التي اثرت في مجرى تطور الحركة العربية في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، اثرت الظروف الداخلية التاثير الحاسم والاساسي في بعث وانطلاق الحركة الوطنية والقومية مبلورة مطالبها واهدافها المختلفة .

وهكذا فان الحركة الوطنية العربية بعد الحرب العالمية الاولى وانهيار الدولة العثمانية دخلت في مرحلة جديدة كل الجدة . بدات تعيش حياة مغايرة للسابق . فقد كان الهدف الاول والشاغل الرئيسي للحركة الوطنية قبل عام ١٩١٨ النضال ضد الحكم العثماني والظفر بالحكم اللامركزي او الحصول على الاستقلال التام، في حين غدا هدف الحركة الوطنية بعد الحرب طرد المستعمرين الغزاة وتاسيس دولة وطنية مستقلة . كما كانت الدعوة الى توحيد بعض أجزاء الوطن العربي الذي تعمق تجزيئه من أولى مطالب الحركة الوطنية بعد ١٩١٨ .

اتى في طليعة الظروف الداخلية التي رافقت تاسيس الدولة العربية السورية ١٩١٨ — ١٩٢٠ بقيادة الملك فيصل وضع تنظيم القوى الطبقية في سورية ، ولا سيما البحث في عوامل النضال المستخدم من أجل السلطة بين القوى الاقطاعية والبرجوازية الشابة .

في بدء الاحتلال وقف قسم كبير من الاقطاعيين ضد الاحتلال الفرنسي وقاد بعض الاقطاعيين النضال ضد الاحتلال الاستعماري . ويرجع احد اسباب هذا الموقف الى خوف الاقطاعية السورية من قيام « جنود الثورة الفرنسية » بتوزيع الاراضي على

الفلاحين كما جرى في فرنسا في اواخر القرن الثامن عشر . ولكن السلطات الاستعمارية الافرنسية التي سرعان ما تنكرت لمباديء الثورة، قدمت الضمانات للاقطاعيين وبرهنت لهم عمليا أن « جيوش الشرق » لم تعد الوارث الحقيقي للتقاليد المجيدة لجنود الثورة البرجوازية الديمقراطية الفرنسية ١٧٨٦ — ١٧٩٤ بل هم جنود الاستعمار والامبريالية جنود كل حركة رجعية ومتخلفة . وهكذا اخذت القوى الاقطاعية التي وقف بعضها في البدء ضد الاحتلال الافرنسي تنتقل تدريجيا الى شريك الاستعمار في استثمار الجماهير الشعبية ولا سيما الفلاحين، وتحولت الى خادم مطيع ينفذ مايؤمر به ويعيش على فتات مائدة النهب الاستعماري . وقد ساعد ، تخلف الجماهير الفلاحية وفقرها الشديد وجهلها الفظيع الاقطاعيين في حرية المناورة والمساومة وفي مقاومة كل حركة جماهيرية فلاحية تنادي بشعارات اجتماعية او وطنية .

وفي تلك الايام شاركت البرجوازية التجارية المتمركزة في دمشق في قيادة الحركة الوطنية وعلى الرغم من ضعفها الاقتصادي الشديد فان آمالها ومطامحها لم يكن لها حدود . وعلى هذا الاساس دخلت معترك النضال من اجل استقلال سورية وفي سبيل تجسيد القوى الوطنية المختلفة . كما سعت احيانا للحد من نفوذ القوى الاقطاعية ، المستعدة للمساومة مع الاستعمار داخل الحركة الوطنية وكان للبرجوازية التجارية مصلحة في توحيد اجزاء سورية الشمالية (سورية ولبنان) مع سورية الجنوبية (فلسطين وشرق الاردن) وخلق سوق وطنية موحدة ، تستطيع الوقوف امام النهب الاستعماري الانكليزي والفرنسي.

ولكن مشاركة البرجوازية التجارية في الحركة الوطنية بقيت مشروطة تشوبها عيوب كثيرة ، بعكس المثقفين من طلاب ومعلمين (وكذلك اطباء ومحامين) المنحدرين بغالبيتهم من الطبقة البرجوازية ، لقد كان المثقفون من انشط القوى الوطنية واكثرها حركة وديناميكية واقلها لمساومة والتراجع امام المستعمرين . كما قام الضباط العرب الذين خدموا سابقا في الجيش العثماني بدور ملحوظ ، لا سيما في رسم الخطط الحربية في فترة الكفاح المسلح ١٩١٩—١٩٢٨ . .

ومع ان قيادة الحركة الوطنية تمركزت في ايدي البرجوازية الناشئة وبعض اقسام

الاقطاعية فان القوى الاساسية للحركة التحررية تالفت من جماهير المدن والفلاحين .
وكنا قد ذكرنا سابقا ان النضال المسلح، الذي قاده اغنياء الريف في المناطق التي سادتها الملكية الصغيرة والمتوسطة تالف بسداه ولحمته من الجماهير الفلاحيـة الحاقدة على احتلال الغزاة الامبرياليين الحالمة بتحسين اوضاعها المعاشية .

انتقل ، كما راينا ، ثقل النضال الوطني في فترة الكفاح الوطني السلمي بعد ١٩٢٨ الى المدن ، في الوقت ، الذي هدأ فيه الريف نسبيا . ولكن سلطات الاحتلال الافرنسي كانت تخشى دائما تصاعد موجات النهوض الجماهيري الفلاحي الوطني وتأخذ الاحتياطات اللازمة لقمعه .

ومن الامثلة على ذلك وعلى شكيمة الفلاحين ومشاركتهم في النضال الوطني ما جاء في تقرير وكيل محافظ دمشق الى مقام وزارة الداخلية في ٢٢ كانون الاول ١٩٤٤ بشأن نقل الجنود الافرنسيين من ثكناتهم في المدينة ووضعهم في الريف ما يلي :
« تعلمون يا معالي الوزير ان من أهم الاسباب التي حدت وقتئذ بالسلطة الفرنسية الى وضع هذه السرايا العسكرية خارج مدينة دمشق هي رغبتنا في القاء الرهبة على قلب الفلاحين وافهامهم أن جنودها حاضرة ناظرة للبطش بهم اذا ما ساورت نفوسهم تلك الفكرة التي حملتهم على اعلان ثورتهم الاولى سنة ١٩٢٥ » .

وبغض النظر عن الدوافع لوضع « السرايا العسكرية » في الريف في فترة صعود النضال الوطني عام ١٩٤٤ فان الحذر من هبات وطنيـة فلاحية جديدة كانت تقضي مضاجع المستعمرين الافرنسيين الشاعرين بضعفهم وبأن الارض تميد تحت اقدامهم . ولذلك شدد المستعمرون من اضطهادهم للفلاحين ومن تعاونهم مع « حلفائهم » لمنع الثورة الوطنية من الانتصار وتحقيق اهدافها في ظروف دوليـة مناسبة ، بعد تراجع الجيوش الهتلرية واحراز الجيش الاحمر ، جيش العمال والفلاحين انتصارات باهرة جددت الامال بقرب نهاية الاستعمار ونوال الاستقلال وتحقيق بعض مطالب الفئات الاجتماعية الدنيا .

وفي هذه الظروف لم يكن بامكان قيادة الحركة الوطنية المتمثلة في التجمع البرجوازي وبعض قطاعات ملاك الاراضي الليبراليين ، من الوقوف موقف

المتفرج من قضايا الفلاحين . وهكذا اتبعت الكتلة الوطنية ، التي استعادت مجدهـا في صيف ١٩٤٣ جزءا من السلطة ، سياسة لفلفة الامور وتهدئة الصراع ، في كل مكان وجد فيه كبار ملاك الاراضي والفلاحين .

ومن الامثلة على هذا الموقف ما جرى في جلسة ١٩ آذار ١٩٤٥ عندما ناقش مجلس النواب تقرير اللجنة القضائية (٩) بالموافقة على مشروع القانون القضائي بالغاء القرار رقم ٣٨٨ الصادر في ٧ / ١٠ / ١٩٢٦ والمتعلق بتاليف محكمة عليا لحل الخلاف بين آل الصيادي في حمص وفلاحي قرية الزراعة من اجل ملكية اراضي القرية . وقـد سن المجلس قانونا جديدا بتكليف أحد القضاة العقاريين للنظر بتعيين من له حق التصرف بالاراضي المذكورة على اعتبار انها أراض اميرية (اي اراضي املاك دولة) ويتبين مـن جلسة المجلس النيابي هذه ان قضية ملكية الارض لم توضع لها حلول واضحة بـل بقيت معلقة ، هذا مع العلم ان استمرار الاقطاعيين وكبار الموظفين في نهـب الاراضي الاميرية والخاصة استمر كما كان في السابق، في العهدين العثماني الاقطاعي والافرنسي الامبريالي . لكن المقاومة الفلاحيـة ، المؤيدة من القـوى التقدميـة ، كانت تتصاعد باستمرار حتى توصلت الى وضع قانون الاصلاح الزراعي في سنة ١٩٥٨ .

* * *

حواشي الفصل الثاني

١ — نقلا عن «الطليعة» المصرية ، يناير ١٩٧٠ .. حوار عربي مع جارودي .
الفصلين الرابع والخامس .

٢ — حنا ، عبد الله : «الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان ١٩٢٠ = ١٩٤٥ دمشق ١٩٧٣» مقدمة

٣ — عياد ، كامل : «عمر فاخوري ، مكسيم غوركي ، اديب عربي ، اديب روسي» مطبوعات جمعية التعاون بين سوريا والاتحاد السوفياتي — فرع التاليف والترجمة والنشر — ص ٩ .

لم تغب مسالة العلاقة بين الثورتين القومية التحررية والاجتماعية الاشتراكية عن انظار القسم الاكبر من ممثلي التيار الديمقراطي الثوري ، كما سنرى بعد قليل .

وقد عكست مجلة الطليعة الدمشقية التقدمية ، التي صدرت من عام ١٩٣٥ الى ١٩٣٩ — هذه العلاقة في مقال كتبه في اواخر الثلاثينات الدكتور كامل عياد جاء فيه : «ان حركة الطبقة العاملة انما تخدم في الحقيقة الوحدة القومية ، لان نضالها انما يستهدف ازالة الانقسام بين ابناء الشعب الواحد والقضاء على اسباب هذا الانقسام وعوامله ١٣٧ .

وكان الدكتور كامل عياد في ربيع ١٩٣٦ متفائلا جدا مع اندفاع الموجة الشعبية المقاومة للراسمالية والفاشستية والامبريالية ، فتحت عنوان «مرحلة جديدة في تطور الشرق» ١٣٨ ، كتب الدكتور عياد في مجلة الطليعة الدمشقية بان «الجماهير تتحرك ... فحيثما يتجه النظر اليهم في اقطار الشرق المختلفة يلاحظ حركة شاملة ذات اتجاه معين تشير الى ان البلاد الشرقية اخذت في الانتقال الى مرحلة جديدة من مراحل التطور» ...

في الصين وفي الهند وصل التطور الجديد الى مرحلة بعيدة .. وما يدعو الى الاهتمام يقظة جماهير الفلاحين في بلاد النيل .. » وختم الدكتور عياد مقاله قائلا : « ... يؤلف الفلاحون في الشرق ٨٠ ــ ٨٥ في المئة من مجموع السكان . وقد كان كافيا لهؤلاء الفلاحين الذين عاشوا حتى الان خاضعين لغيرهم من اصحاب الاراضي والمرابين ان تذكر لهم مسالة الغاء الدين وتقسيم الاراضي حتـى يهبـوا أو يثـوروا . وحركة جماهيرية مثل هذه الثورة لا يمكن تعيين حدودها واستبانة خطوطها الاساسية .. انهـا الثورة الحقيقية التي لا تجدي أية وسيلة ضدها . لقد بدات الجماهير في الشرق تتحرك .. » .

٤ ــ من مجموعة قرارات المفوضين الساميين لسوريا ولبنان الكبير ، منذ الاحتلال الفرنسي حتى اليوم . اصدار محمد توفيق جانا ، جـ ١ دمشق ص ١١ .

٥ ــ جوكوف ورفاقه : « العالم الثالث » قضايا وآفاق . موسكو ١٩٧١ ــ ص ٢٢ .

٦ ــ آل الجندي ، ادهم : « تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي » دمشق ١٩٦٠.

٧ ــ راجع نص خطاب الشهبندر في « الايام » الدمشقية في ٢٢ نيسان ١٩٣٦ .

٨ ــ التقرير في حوزة المديرية العامة للاثار بدمشق .

٩ ــ الجريدة الرسمية ١٩٢٥ ص ٢١٦ .

* * *

الفصل الثاني

النضال الفلاحي ومطالب الريف أيام الانتداب

اولا ـ الوان من النضال الطبقي الفلاحي ايام الانتداب :

في الفترة الاولى من الاحتلال الاستعماري الافرنسي اطلقت سهام الوعي الطبقي ضد هذا الاحتلال الامبريالي واتخذ النضال الفلاحي طابعا وطنيا رمى الى تحرير البلاد من نير الاستعمار . وفي الفترة الثانية للاحتلال ١٩٢٨ ـ ١٩٣٩ فترة النضال الوطني السلمي ، انحسر النضال الفلاحي نسبيا عن حلبة المعركة التحريرية الوطنية وتقوقع الفلاحون بسبب الارهاب والغرامات المفروضة عليهم من قبل سلطات الانتداب وفي هذه الفترة لوحظ تصاعد النضال الطبقي الفلاحي الموجه ضد الاستعمار الاقطاعي ، والمتميز بابتعاد الفلاحين النسبي عن النضال الوطني ضد الاحتلال ، وانحصار هذا النضال في المدن .

ان هذا المسار الهام ، الذي اتبعته الحركة الفلاحية ـ وهي جزء هام من الحركة الوطنية ـ لم يكن يعني انعدام النضال الطبقي الفلاحي ضد الاقطاعية في المرحلة الاولى ، كما انه لا يعني عدم مشاركة الفلاحين مطلقا في النضال الوطني في الفترة الثانية . والهدف هنا هو تتبع المجرى العام للحركة الفلاحية دون الروافد والفروع ، التي قدمت استثناءات متعددة .

ومع ان المصادر غير الاشتراكية لم تكن تهتم بالنضال الفلاحي ، الا ان هذا كان يتردد في تلك المصادر بصورة مقتضبة احيانا ومشوهة احيانا اخرى . ربما ان المصادر

الاشتراكية التي في حوزتنا عن النضال الفلاحي في عهد الانتداب قليلة فاننا مضطرون لتتبع نضالات الفلاحين في المصادر غير الاشتراكية حتى نتمكن من اعطاء صورة تقريبية عن النضال الطبقي الفلاحي ايام الانتداب . ونحن على ثقة بأن توفر الامكانات العلمية في المستقبل ستسهل امام الباحث في الحركة الفلاحية سبل الوصول الى الحقائق المطموسة او الملقاة في زوايا الاهمال والنسيان .

كتب مراسل جريدة الشعب الدمشقية من حماة في ١٦ آب ١٩٣٠ ما يلي : « لا يمضي يوم الا ونسمع أن فلاحي القرية الفلانية أعلنوا العصيان على أصحابها تمنعوا عن تسليم ما عندهم من المحصولات الزراعية وادعوا الملكية بحجة مرور الزمن . وهنا يقع الخلاف بين صاحب الملك والعامل الفلاح ويرجعون الى لجان التحديد والتحرير(١) . وهذا الخبر سنتناوله بالتفصيل في الفصل الثالث اعتمادا على ما سمعنا من الفلاحين عن ذلك « العصيان » .

لقد عم الصراع الاجتماعي مناطق متعددة من الريف السوري في خريف سنة ١٩٣٠ . وهذا روته جريدة الاحوال البيروتية بانه « جرى تذمر وشكوى في قضاء الباب من الزراع والملاكين والصغار لكثرة اعتداء ذوي النفوذ من الاقطاعيين عليهم ومحاولة تهجيرهم والاستيلاء على قراهم (٢) » .

ويدل هذا النص على ان الصراع الاجتماعي الطبقي جرى بين الفلاحين المالكين للارض (فلاحين فقراء ومتوسطين واغنياء) وبين الاقطاعيين الراغبين في اكل الاخضر واليابس . ويظهر من النص أن الاقطاعيين لم ينجحوا في ازاحة وتهجير الفلاحين من اراضيهم لبقاء العملية في حدود « المحاولة » وهنا لانملك مع الاسف المعلومات الوافية عن اعتداء ذوي النفوذ من الاقطاعيين على الفلاحين ، وهل وصل الامر الى الصدام المسلح الدموي والى وقوع قتلى ؟ ...

نشرت جريدة « الف باء » في ١ ايلول ١٩٣١ بان « شجارا كبيرا نشب منذ حين بين فريق من آل البارودي في حماة وبين مزارعيهم في قرية «كرتاز» ادت الى وقوع عدة جرحى وقد أحيلت هذه القضية مع التحقيقات الى النيابة العامة لتدقيقها وابداء رايها فيها(٣) .

وهنا لم تشر الجريدة الى اسباب هذا الصدام المسلح بين الاقطاعيين من آل

البارودي والفلاحين في قرية كرتاز . ويبدو أن هذا الصـراع نشب في ايـام جنـي المحاصيل، اذ جرى الخلاف على تقسيم المحصول ونسبة ما يخص كلامن المستثمرين

اخذت الهيئات السياسيـة والطبقات السائدة تحسب حسابا لنمو الحركـة الفلاحية وصارت تتخوف من كل عمل بسيط قام به الفلاحون ، ودل ذلك على ازدياد الهوة عمقا بين المستثمرين والمستثمرين في الريف في اوائل الثلاثينات .

كتبت جريدة التقدم الحلبية في اوائل اب بان الفقر والجوع والشقاء اصبحت من صفات الريف في حلب . وتساءلت الجريدة عن صحة القائل « بان الفلاحين اقتاتوا بعشب الارض بسبب فقدان الغذاء » « ومن فقد عنده القوت اخذ يشارك جاره في قوته » كما أن البعض حملوا اعلام الشقاوة . واللصوصية واخذوا يسلبون (٤) .

ونشرت جريدة « القبس » الدمشقية في /٣/ تشرين الثاني ١٩٣٥ لمراسلها في حماة الخبر التالي « تمرد الفلاحين في غربي حماة في الرسالة الماضية ذكرت لكم حادث اعتداء العصاة في قرية بارين على حارس الزور من قبل آل الكيلاني المدعو زيدان وقد حمل الجريح الى مصياف وبعد التحقيق نقل الى حماة بين الموت والحياة » (٥) . وهنا نلاحظ أن الفلاحين بدأوا يتصدون لازلام الاقطاعية ومأجوريها بمرحلة أولى لمواجهة عدوهم الاساسي .

اما جريدة القبس البرجوازية ـ الاقطاعية فتصف انفاضة الفلاحين ب (التمرد) وتصف الفلاحين بـ (العصاة) (٦) ولكن على من ؟ .. وهل تعتبر ثورة الفلاحين على الاقطاعيين عصيانا ؟ ... انها في نظر الاقطاعيين وحلفائهم عصيان وتمرد أما في نظر الفلاحين وحلفائهم فهي انتفاضة وثورة ونضال من اجل استعادة الحقوق المسلوبة .

اما في قضاء منبج فقد بدات التململات الفلاحية بالظهور على الرغم من تمكـن الاقطاعيين من قمعها وهذا ما كتبته جريدة الايام في ١٤ نيسان « كنـا روينـا سابقا شيئا عن الاقطاعية العمياء في قضاء منبج التي يمثلها (ديكتاتور) هذا القضاء محمود نديم (واوضحنا ما يقترف من الاثام في الاعتداء على حقوق الناس واغتصاب أراضـي ومزارع الفلاحين الذين لا يملكون حولا ولا طولا) . وقد قامت جريدة الايام بالهجوم عليه لانه حاول اثارة الفتنة في ايام الحركـة الجماهيريـة عام ١٩٣٦ ويبدلان هـذا

« الاقطاعي » « الديكتاتور » كان من زلم الاستعمار ولم ترق له الحركة الجماهيرية المعادية للاستعمار .

مع النهوض الجماهيري العارم في منتصف الثلاثينات تصاعدت ايضا مقاومة الفلاحين في جبال الساحل لشركة الريجي الاستثمارية الاجنبية ، التي تكلمنا عنها مفصلا في مجلد سابق وكانت مقاومة الفلاحين لشركة الريجي الاستعمارية محور نضال طبقي ووطني في آن واحد .

فتحت عنوان « الفلاحون العلويون يطردون عملاء الريجي في قراهم » كتبت جريدة « صوت الشعب » اليسارية البيروتية في ٢٢ ايار ١٩٣٧ . جاءنا من اللاذقية ان طغيان شركة الريجي هناك يفوق كل حد . وان الفلاحين يقاسون الويلات من جورها . وقد وقع حادث في هذا الاسبوع يدل على سخط الفلاحين من تحدي الريجي واستبدادها . وهذا مما دفع الى طرد عمال الشركة من المخمنين والمهندسين والكتاب واشبعوهم ضربا ، فعادوا (الحديث حوالي منتصف ايار ١٩٣٧ الى اللاذقية وهم يجرون ذيول الخيبة والخذلان . ونحن نحتج على تصرفات الشركة واستهتارها بمصالح الشعب ونضم صوتنا الى صوت الفلاحين لمطالبة الحكومة باتخاذ موقف حازم من الريجي التي ضجت منها البلاد) (٧) .

وروى مراسل (صوت الشعب) في بنت جبيل جنوب لبنان أخبار مقاومة الاهالي لشركة الاحتكار والاستثمار الريجي ومظاهرتهم لمنع سماسرة الشركة من مسح الاراضي وتحديدها . واثناء المظاهرة رفع بعض الشباب تابوتا وضعت فيه الآلات الزراعية ، وجلل بالسواد علامة استبداد الشركة بالفلاحين . وقد رفع على التابوت علم كتب عليه لبس الفلاح والعامل . وقد طلب المراسل من الحكومة أن تسمع هذه المرة لشكاوى الشعب من هذه الشركة الاستثمارية التي انهكت البلاد (٨) .

وذكرت الجريدة ان الشركة في جبيل تساير بعض الاقطاعيين وتعطيهم كميات زائدة عن حاجتهم وعن حقهم للزراعة وفي الوقت نفسه تحرم منه الفلاحين الفقراء الذين لا مورد لهم الا زراعة التبغ (٩) .

ثانيا ـ مطالب سكان الريف ونماذج منها في عهد الحكم الوطني : الكتلـوي ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩

أوائل الثلاثينات تركزت اهتمامات يسار الحركة الوطنية بشأن القضية الزراعية على انتشال الفلاحين مـن تعاستهم وحالتهم السيئة وتامين وسائل المعيشـة لهم ومقاومة السياسـة الاستعمارية في الريف ومساعدة البدو الرحل على التخفيف مـن بؤسهـم .

وتبقى أهم قضية تشغل البال في ذلك الحين قضية الموقف من الملكية الاقطاعيـة والغاء الامتيازات الاقطاعية .

وفيما يلي أهم المطالب، التي نادى بها يسار الحركة الوطنية في أوائل الثلاثينات(١٠)

١ ـ الغاء الديون عن صغار الفلاحين .

٢ ـ اعفاء صغار الفلاحين من دفع الضرائب والغاء ضريبة الاعشار الغاء تاما .

٣ ـ الغاء عقوبة السجن بسبب الديون .

٤ ـ ان تقدم الحكومة المساعدات اللازمة من وسائل المعيشة والبذار الى الفلاحين الذين تنقصهم وسائل المعيشة والبذار .

٥ ـ حرية الصيد للفلاحين برا وبحرا .

٦ ـ نزع ملكيـة الينابيع من ايدي اصحابها لتصبح المياه عامة لجميع الفلاحين يستخدمونها في حاجياتهم الضرورية .

٧ ـ جر المياه الى جميع القرى المعدومة منها .

٨ ـ الغاء ضريبة بدل الطريق المنتشرة خاصة في اللاذقية وجبل العرب .

٩ ـ قانون حماية العمال الزراعيين .

١٠ ـ تحديد ساعات العمل وتحديد الحد الادنى للاجور في المزارع والحقول .

١١ ـ وضع قانون الضمان الاجتماعي ومساعدات العمال الزراعيين وقت البطالة .

١٢ ــ حرية نزول البدو في جميع الاراضي غير الصالحة للزراعة .

١٣ ــ اعفاء فقراء البدو من ضريبة الاغنام .

١٤ ــ مساعدات حكومية للبدو الذين يريدون السكن في ارض معينة .

١٦ ــ مصادرة اراضي المزارعين الاجانب واراضي الارساليات الدينية وكبار الاقطاعيين وتوزيعها على فقراء الفلاحين .

٢٧ ــ الغاء جميع الامتيازات الحاصل عليها الاقطاعيون الغاء تاما .

وفي أواخر الثلاثينات نجد خلاصة المطالب البرنامجية للفلاحين مرفوعة الى المجلس النيابي السوري ومدونة خلاصتها ، بعد قراءتها في جلسة ١٤ ايار ١٩٣٧ وتتضمن الاقتراحات الواجب اتباعها من اجل انعاش الفلاح وتحسين حاله واجراء الاصلاحات الضرورية لرفع مستوى حياته وتجنب ويلات الفقر والفاقه .

هذه المطالب ،التي تتسم بانهااقتراحات عملية انية وليست اهدافا استراتيجية نتقلها كما وردت الى المجلس النيابي وهي :

أولا ــ حماية الفلاح في الموسم اذ تهبط اسعار المحصولات بسبب كثرة العرض الناتجة بالدرجة الاولى عن ملاحقة الحكومة والدائنين للفلاح المدين ويمكن ذلك بتأسيس مستودع حكومي في كل منطقة يودع فيه الفلاح حبوبه لتباع حسب سعر معين تحدده الحكومة وبذلك يتخلص الفلاح في الوقت نفسه من تلاعب التجار المحتكرين واستبدادهم في الاسعار .

ثانيا ــ وضع قانون يحمي الفلاحين من المرابين الذين يقرضون الفلاحين بفائدة تتجاوز دائما مائة في المائة ويستولون على القسم الاعظم من دخلهم فلا يبقى لهم بعد دفع الضرائب والديون ما يتمكنون به سد رمقهم فكيف يمكننا ان ننظر منهم اصلاح اراضيهم سواء بتشجيرها او ريها او تسميدها او شراء الادوات والحيوانات التي تساعد على زيادة الانتاج ولا يمكن حصول النتيجة المطلوبة من وضع القانون اذا لم تؤسس مصارف زراعية تمد الفلاحين بقروض طويلة الاجل مقابل فائدة زهيدة وبشروط سهلة توفر الاستفادة من ذلك للجميع .

ثالثا ـ البدء بوضع مشاريع واسعة للري .

رابعا ـ الاكثار من المشاتل او حقول التجارب الزراعيةفي مختلف المناطق والاكثار من المتخصصين الزراعيين وتعيين واحد منهم في كل منطقة تكون وظيفته الاشراف على الزراعة واعمال الفلاحين لمساعدتهم وتدريبهم ومحاربة الافات والامراض الزراعية.

خامسا ـ فتح المدارس في كل القرى بدون استثناء والاكثار من الدروس الزراعية فيها وجعلها حقيقة على حساب الحكومة وعدم اجبار الفلاحين على دفع اجرة بناية المدرســة مثلا .

سادسا ـ الاعتناء بالحالـة الصحية في القرى وتعيين اطباء وبناء مستوصفات صحية كافية في كل منطقــة .

سابعا ـ تشجيع لتشكيل جمعيات التعاون الاستهلاكية الفلاحين اي مساعـدة الفلاحين وتدريبهم على تاسيس جمعية تعاونية لكل قرية او عدة قرى فتفتح دكـانا او مخزنا يشتري منه الفلاحون ما هم بحاجة اليه من مواد الاستهلاك وسواهـا حتى يتخلص الفلاحون من جشع بعض (الدكنجية) المنتشرين بكثرة في القرى والذيـن يقرضون الفلاح احيانا رطل السكر مثلا بثلاثة اضعاف قيمته على ان يسددهم ذلك وقت البيـدر .

ثامنا ـ منع مصادرة مقدار الغلال اللازمة لمعيشة الفلاح ومنع مصادرة بـذاره وارضه واثاث بيته وماشيته اللازمة لعمله مقابل الضرائب والديون .

تاسعا ـ تعديل نظام الضرائب بشكل يزيل الحيف الواقع على الفلاح وحده. فمما لا جدال فيه ان العدل مفقود في توزيع الضرائب . فالضرائب المباشرة يجبى القسـم الاعظم منها من الفلاحين في حين ان اصحاب المصارف مثلا يربحون عشرات الالـوف من الليرات ويدفعون اقل من صغار الفلاحين. وهذه الضرائب الثقيلة عـلى الانتـاج الزراعي هي من اهم الاسباب التي تشله وتمنع تطوره .

عاشرا ـ وضع حد نهائي لكـل المعاملات غير الانسانية المخجلة التي تسيء الـى سمعة الحكم الوطني والتي يلقاها الفلاح من قبل بعض الاقطاعيين والجباة او رجال

الدرك كالضرب والاضطهاد والشتم والحبس الاستبدادي احيانا ومنعهم من استخدام الفلاحين في امورهم الشخصيـة وفي خدمتهم وتكليف الجابي باستصحاب حاجاتـه كي لا يرغم المزارع الى اعالتـه ومطيته .

وفي ٢٩ أيار ١٩٣٧ نشرت جريدة «صوت الشعب» مقاطع من كتاب النظام النقدي والمصرفي في سورية لسعيد حمادة تحت عنوان : خلصوا الفلاح من جشع المـرابين ، هل يترك العهد الجديد نظام الاقطاع على حاله ... وقصدت بالعهد الجديد حكم الكتلة الوطنية » ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ .

وعادت « صوت الشعب » في العدد التالي ٥ حزيران ١٩٣٧ لتكتب عـن الربـا تحت العنوان «المرابون علقات على جسم الفلاح. حديث مع فلاح من ضواحي دمشق » وقد ختم كمال امين المقابلة التي اجراها الفلاح بعدة شعارات هي :

ساعدوا الفلاح بمشاريع الري : انقـذوا الفلاح من وطاة الضرائب الفاحشـة ووزعوا هذه الضرائب توزيعا عادلا، انقذوا الفلاح من المرابي هذه العلقة النتنة الفظيعة. انظروا الى حالة الفلاح فبانعاشه فقط تستطيع سوريا تحقيق نهضتها الوطنيـة . الواقـع ان العـدد الثاني من صوت الشعب كان غنيا باخبار الفلاحين ومشكلاتهم ونضالهم ومطاليبهم .وكان من اهم ماورد كبير نتائج الجفاف والضربات الطبيعية. ويمكننا ان نقول ان قضيـة الري هي العامل الاول في الانعاش الزراعي فجميع الاصلاحات الاخرى لا يمكن الاستفادة منها بصورة مستمرة اذا بقيت المواسم خاضعة بصورة مطلقة لبخل السماء او جودها بالامطار. فمهما كثرت المصارف وقلت الضرائب ووضعت القوانين الحامية للفلاحين فانها تظل جميعها عديمة المفعول اذا توالت أعوام المحـل ويجب تامين الاموال اللازمة لهذه المشاريع ولو بعقد قرض داخلي يخصص لها .

في عهد الحكم الوطني الاول ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ (حكم الكتلـة الوطنيـة) نجد في ادبيات يسار الحركة الوطنية وصفا ممتعا لحالة الفلاحين والبلاء النازل عليهم هـذا البلاء الذي يتنوع حسب مختلف المناطق ولكن هناك ـ وننقل فيما يلي حرفيا عـن المقال المنشور في نيسان ١٩٣٧ ـ (ويلات مشتركة) .

نلخيصها فيما يلي :

١ ـ الضرائب الفاحشة بالنسبة لدخلهم الصغير .

٢ ـ المرابي الذي يمتص دماءهم .

٣ ـ تاجر الحبوب المحتكر الكبير الذي ينهبهم .

٤ ـ الجابي والدركي اللذان يضربان الفلاح ويستبدان به ولا ياكلان عند الجباية الا الدجاج والديوك على حساب الفلاحين .

٥ ـ كبار الاقطاعيين واصحاب الاراضي الكبيرة الذين يعاملون الفلاح معاملة العبد ويشغلونه تحت السوط وياخذون قمحه ليطعموه الشعير .

٦ ـ الامراض والاوبئة الفتاكة .

٧ ـ الجهل والمرض .

هذا عدا ذكر البنوك والاجنبية منها على الخصوص التي تخرب بيوت الفلاحين صغارهم وكبارهم . فالطفيليات التي يجب على الفلاح ان يرضيها كثيرة جدا . وهو مجبور على ارضائها ولو كلفه ذلك تضحية محصوله واثاث بيته ولقمته وجسمه بل اولاده واطفاله ودمائه هو مجبور على ارضائها سواء كان الموسم حسنا او رديئا وسواء نزلت الامطار او بخلت السماء بامطارها .

فالفلاح معلق على المطر ، وقد ينزل وقد لا ينزل . ولكن الجابي والاقطاعي والمرابي ومحتكر الحبوب الكبير معلقون جميعا على الفلاح سواء نزل المطر او لم ينزل . والفلاح مجبور على ارضائهم كيفما كان الامر لانه (عبدهم بل ملكهم) والفلاح يستطيع ان ياكل الشعير او يجوع او يموت جوعا . اما الجابي والاقطاعي والمرابي والمحتكر فيجب ان ياكلوا فوق شبعهم بل ويتخموا .

ويمضي كاتب المقال قائلا : ان حالة الفلاح هذه لا تزال كما كانت (فقد اخذت المدينة بعد المعاهدة) ١٩٣٦ تتنفس قليلا وارتفع عنها شيء من كابوس الاضطهاد القديم . اما القرية قرية الفلاح فلا نغالي ابدا اذا قلنا بانها لم تشعر بتاتا بنسمة العهد الجديد ولم تشعر بتاتا باي تبديل .

فلا يزال يجد نفسه امام فطرسة الدركي والجابي واستبداد الاقطاعي وجشع المرابي ونهم كبار المحتكرين .

فيجب أن تشعر القرية ايضا ان يشعر الفلاح ايضا ان هناك شيئا قد تغير او يتغير في سوريا . والفلاح لا يطلب كثيرا حتى يشعر بهذا التغير والتبدل .

انه يطلب خبزا . او ليس من حقه وهو منتج الخبز ان يطلب خبزا ؟! .

ويسترعي الانتباه الدقة في المقال المذكور فيما يتعلق بالفلاحين فهو يقول ونعني بكلامنا عن الفلاحين اكثريتهم ، جماهيرهم الواسعة المؤلفة من : صغار الفلاحين الذين يملكون ارضا يشتغلون عليها بانفسهم والفلاحين المتوسطين الذين يستغلون بانفسهم ويشغلون غيرهم معهم ايضا المرابعين والفلاحين الذين يشتغلون عند الاقطاعيين وتلك الجماعة من الفلاحين الذين حالتهم حسنة الى حد ما وارضهم كبيرة نوعا ما ولكنهم معرضون مع ذلك لاستبداد الاقطاعي الكبير وتعديه باعلى ارضهم وضياع حقوقهم . كانت الصحف التقدمية تسعى لنشر مطالب الفلاحين والافصاح عن همومهم في اواخر الثلاثينات وفيما يلي نماذج منها :

ـ ارحموا البدوي والفلاح من الحمى القتالة (قال مراسلنا الحمصي) في السهول المجاورة لمدينة حمص بدو يقطنون بيوت الشعر وقد غزتهم منذ اول ايلول الماضي حمى التيفوئيد واصبح اكثرهم مصابين بها وحتى تفشى هذا المرض الوبيل الى القرى واصبح اكثر الفلاحين المساكين مصابين به ولا يوجد طبيب ينقذهم من هذا المرض الفتاك الذي اخذ في العام الماضي ٢٥ بالمئة من سكان هذه الاماكن .

فهل تعتني ادارة الصحة بهؤلاء المساكين الذين لم تمكنهم حالتهم المادية بان يجلبوا طبيبا يداويهم (ص س في) ٨ـ١٠ـ١٩٣٧ .

الريف السوري يتكلم .. مراسم بلا تنفيذ مستوطنات بلا اطباء ومدارس بلا معلمين الميادين في ٨ لمراسل صوت الشعب الخاص محمد رشيد الصومعي ... (ص س في ١٤ـ١٠ـ١٩٣٧) .

فلاحو سوريا ومطالبهم من الحكومة اهالي قضاء القلمون يطلبون فتح مدارس .

تالفت في النبك جمعية باسم قرى القلمون ولمطالبة الحكومة بفتح مدارس رسمية في جميع القرى .

ان الشعب يطلب من الحكومة ان ترفع عن عاتقه نير الجابي المسلط فوق راسه والذي يستعمل انواع القساوة كحجز امتعته التي ينام عليها وحجز مواشيه التي هي ساعده الايمن . كاننا لم نزل في القرون الوسطى. كما انه يطلب منع رجال الدرك من استبدادهم واحتقارهم للفلاحين . (صوت الشعب في ١٩ـ٩ـ١٩٣٧) .

صوت من الريف السوري في القلمون : اعتقال الفلاحين وابعادهم لماذا لأنهم يلجأون الى القضاء للدفاع عن حقوقهم ..

خطر المجاعة يهدد فلاحي حوران . انين يتعالى وضجيج يرتفع من صدور فلاحي حوران وشكوى مريرة تنبعث من اعماق اكواخهم الخالية من المؤنة الضرورية والتي شاءت التدابير الاخيرة ان تجعلها تحت سيطرة المرابين والجباة والحراس القضائيين. من مقال كتبه في صوت الشعب سليمان العبد الله المقداد من بصرى الشام في ٢٧ـ٨ـ١٩٣٩ .

وهكذا نرى ان التيار الوطني التقدمي في اواخر الثلاثينات اعار اهتمامه للقضايا التالية :

١ ــ الاهتمام بالقضايا المطلبية لسكان الريف من الفلاحين ودفعهم حسب الامكانات الى رفع صوتهم والنضال من اجل حقوقهم .

٢ ــ الاهتمام باسعار المحصولات الزراعية التي يبذل الفلاح جهدا شاقا في انتاجها

٣ ــ القاء الاضواء على النظام الضريبي والمطالبة بتوزيع الضرائب توزيعا عادلا وبالتالي تخفيف اعبائها عن الفلاحين .

٤ ــ الهجوم على الربا والمرابين والبرهنة على انهم جزء متمم لنظام الاقطاع .

٥ ــ فضح محتكري الحبوب والتجار والسماسرة .

٦ ــ توجيه النار الى الريجي ، الشركة الاجنبية الاستثمارية التي تنهب الفلاحين .

٧ ــ اماطة اللثام عن القيود الاقطاعية التي تعرقل تطور الزراعـة وتؤخر تقدم الفلاح .

٨ ــ محاولة احياء التراث الثوري الفلاحي المناهض للاقطاعيـة في العصـور الخوالي .

٩ ــ الربط بين المسالة الفلاحية والمسالة الوطنية ظهرت بعض خيوطه واضحة في البيانات او الخطب او مقالات الجرائد على اساس ان انعاش الفلاح يؤدي الى تقدم البلاد ونهضتها الوطنية .

والواقع ان ماذكرناه ليس الانقطة من بحر المطالب الريفيـة التي انصبت على المجلس النيابي السوري المنتخب في اواخر ١٩٣٦ بعد الحركة الجماهيرية الشعبية الوطنية في اوائل هذه السنة . والمطالب المذكورة في هـذا الفصل ماخوذة من وقائع الجلسات الرسمية للمجلس السوري خلال ثلاث سنوات .

ماان اجتمع المجلس النيابي السوري في ٢١ كانـون الاول ١٩٣٦ وانتهى مـن انتخاب رئيس الجمهورية ومكتب المجلس وتاليف الوزارة والتصديق على معاهدة عام ١٩٣٦ حتى اخذت مئات بل آلاف البرقيات والعرائض تنهال على المجلس من مختلف طبقات الشعب بعضها تعرض للقضية الوطنية والقسم الاكبر منهـا تعرض للقضايا المطلبية الاجتماعية المتعلقة بمختلف الفئات الاجتماعية من العمال ، الفلاحين ، الموظفين المثقفين ، الحرفيين الملاك الدائنين والمدينين صغار التجار والبرجوازيـة التجاريـة والصناعية الخ ..

بدات هذه البرقيات والعرائض تصل الى المجلس منذ الايام الاولى لاجتماعـه واعتبارا من جلسة ٢٦ كانون الاول ١٩٣٦ شرعت رئاسة المجلس في قراءة خلاصة لهذه البرقيات والعرائض التي اصبحت من الكثرة الى درجة ازعجت رئيس الوزارة جميل مردم بك الذي احتج في جلسة ٣١ كانون الاول ١٩٣٦ قائلا « اذا كان المجلس يريد ان يستمع لكل مضبطة فمن المؤكد انكم ستجدون انفسكم امام طغيان من الاستدعاءات. والمصلحة تقضي ان تؤلف لجنة للنظر في مثل هذه المضابط فاجابه رئيس المجلس فارس الخوري وهو من الحقوقيين الليبراليين اللامعين في ذلك الحين بان المـادة ٢٧ مـن

الدستور (دستور ١٩٢٨ المنشور سنة ١٩٣٠) تنص على ان « للسوريين مجتمعين او منفردين الحق في ان يقدموا للسلطات والمجلس النيابي وفقا للقانون العرائض والاستدعاءات في الامور المتعلقة باشخاصهم او بالشؤون العامة ، ولذا فان الرئاسة مجبرة على اطلاع المجلس على كل ماورد اليه » .(١١)

وبفضل المادة ٢٧ من دستور ١٩٢٨ يمكن للباحث ان يعرف الكثير من مطالب الراي العام ، لان خلاصة العرائض والبرقيات المقدمة للمجلس تعكس بلاشك جزءا مما كان يرغب الشعب في تحقيقه ولاسيما الفئات الدنيا منه. وفي الفقرات التالية سننقل موجز المطالب المتعلقة بالفلاحين او الاقطاعيين فقط تاركين مطالب الفئات الاخرى وهي خارج نطاق هذا البحث وسيكون العرض في التسلسل الزمني لورود العرائض حتى يطلع القارىء على جزء من مشكلات الريف في اواخر الثلاثينات .

وفيما يلي نماذج من مطالب الفلاحين كما وردت ملخصة في بدء محاضر جلسات المجلس (١٢) .

ـ « عريضة من رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الزراعي بدمشق يشكو مقدمها مااصاب المزارع من المصائب ويطلب الغاء ضرائب العشر (جلسة ٢١ / ١١ / ١٩٣٦) في الجلسة نفسها طالب نواب حماه بتحسين احوال المحافظة ولاسيما اقامة طرقات معبدة وتامين مياه الشرب .

ـ « عريضة من اهالي حماه يطلبون اعفاءهم من رسوم مرعى الاغنام (جلسة ١٧ / ٤ / ١٩٣٧) .

ـ « عريضة من اهالي كفر تخاريم تطالب بتخفيف ضريبة بدل الطريق . جلسة ١٧ / ٤ / ١٩٣٧) .

ـ « عريضة من قضاء الزوية تطالب باصلاح طرق المواصلات والمعارف والعفو عن المكتومين فيه » .

ـ « عريضة الناخبين الثانويين لدرس مشروع جر المياه المسماة عرة وتحويل الطريق » . جلسة ٢١ / ٤ / ١٩٣٧) بلغ عدد العرائض الواردة الى المجلس النيابي

في غضون يومي ١٩ و ٢٠ نيسان ٤٥ عريضة معظمها تطعن بصحة انتخاب هذا النائب وتؤيد انتخاب منافسه . وقد علق رئيس المجلس فارس الخوري على هـذه العرائض الواردة في غضون يومين قائلا :

وبهذه المناسبة اريد ان اوجه كلامي الآن ، ليس للنواب فحسب وانما لأفرادالأمة جمعاء هو ان يقتصروا في مراجعة المجلس النيابي وتقديم المضابط والاستدعاءات على الامور الهامة لان سياسة المضابط اصبحت بضاعة بالية يجب الانتباه والتثبت مـن صحتها (وعنى بذلك مضابط الطعون بالانتخابات) انا افهم ان يراجع احـد الناس طالبا من المجلس النيابي تصحيح قانون موجود » .

ــ « مضبطة من ازرع ومن المسمية وسملين، يطلبون انتخاب خبراء يقدرون أثمان الاراضي التابعة لاملاك الدولة السورية التي بيدهم » . (جلسة ٢٢ نيسان ١٩٣٧) .

تلي في هذه الجلسة تقرير نائب حماه الشيشكلي يفيد « بان ثمانين في الماية من الاهالي مصابون بالديدان المعائية وان اربعين بالمائة منهم مصابون بالزحار الرجرجي (ديزانتيري) لا يوجد في حماه بين الاباء من لم يضيع ربع اولاده في طفولتهم اذا لم يكن النصف ومنشأ هذه الامراض كلها هو ماء نهر العاصي الملوث بالمياه القذرة يقترح جرء المياه الصالحة للشرب من الينابيع الكائنة في الجبل الغربي » .

ــ «تقرير نائب انطاكية باستبدال ضريبتي الاعشار والويركو، وجعلها ضريبة واحدة تدعى (ضريبة الاستهلاك) لان الاعشار قاضيـة على امال الزراع » . (جلسـة ٢٢ نيسان ١٩٣٧) .

ــ « تقرير نائب حمص سليمان المعصراني باقتطاع مبالغ مـن الرواتب الكبيرة للقيام بمشاريع عمرانية او زراعية :

خمسة بالمائة من الرواتب التي تبلغ من الاربعين الى الستين ليرة سورية .

عشرة بالمائة من الرواتب التي تبلغ من الستين الى الثمانين ليرة سورية (هكـذا بالتدرج الى ان يطلب اقتطاع ثلاثون بالمائة من الرواتب التي تتجاوز المائة وخمسين ليرة سورية » . (جلسة ٢٢ نيسان ١٩٣٧) .

ـ « تقرير نائب ادلب وحيد دويدري جاء فيه « وجدت الحكومة جيشا من الموظفين الوطنيين وغير الوطنيين كل واحد منهم اذا حسبت راتبه السنوي تجده ربما لا يكفيه مالعطيه قرية من القرى للحكومة اي ان اهل القرية كلهم يشقون في سبيل سعادة ذلك الموظف .. ومن حسم خمسة بالمئة تسد الحكومة عجزها فاما عمدت الى الى حسم ربع الرواتب على الاقل فانها ستجمع من الاموال في خزينتها مايكفيها لفتح معامل ومصانع وتشغيل رجال وشبان كادت تقتلهم البطالة ويقضي عليهم الفقر . ايها الاخوان من منكم لم ير في شوارع دمشق وفي ازقة حمص وحماه وحلب ودير الزور الفقراء يلتحفون السماء ويشكون قلة الطعام والفقر . اقترح حسم عشرين في المئة من عموم رواتب الموظفين » . (جلسة ٢٢ / ٤ / ١٩٣٧) .

ـ « اقتراح من نائب جبل الاكراد لحماية الاحراش وتعبيد طريقه وتعيين مامور للتمليك وارسال مدرسين يعرفون اللغة الكردية » . (جلسة ٢٢ / ٤ / ١٩٣٧) .

ـ « اعطاء املاك الدولة في جبل بلماس الى مزارعين صالحين للمحافظة على اشجارها . نائب بادية الشام نائب بادية حلب ـ نائب حمص ، نائب السلمية » . (جلسة ٢٢ نيسان ١٩٣٧) .

اثناء مناقشة الميزانية في جلسة ٢٢ / ٤ / ١٩٣٧ قال سليمان المعصراني نائب حمص : « ان في البلاد فقرا وفيها جوعا وفيها بطالة وفيها كساد تجارة وتوقف صناعة وتاخر تجارة اي انها اسوا حالة اقتصادية . واقترح المعصراني في مشروع قانون موقت اقتطاع مبالغ من الرواتب الكبيرة للقيام بمشاريع عمرانية زراعية عامة لتخفيف ازمة البطالة .

ـ اما حكمت الحراكي نائب معرة النعمان الاقطاعي فقال في جلسة ٢٢ / ٤ / ١٩٣٧ « اكرر طلبي بشان تعيين اطباء سيارين لهذه الغاية لمكافحة الامراض السارية ومداواة المرضى المصابين بالامراض العادية في القرى والعمل على تحسين القرية من الوجهة الصحية من حيث المياه والمساكن وماشبه ذلك (تصفيق) يلاحظ بوضوح ان رعاية الفلاح صحيا من قبل الحكومة فيها محافظة وتجديد لقوة عمله الضرورية للاقطاعي .

ـ « مضبطة من عربان عشائر الفضل في القنيطرة يطلبون اعفاءهم من دفع عشرة قروش رسم تعداد عن كل راس غنم » (جلسة ٢٤ / ٤ / ١٩٣٧) .

ــ « احداث طريق معبدة بين اعزاز والباب ، والعفو عن البقايا من الاموال الاميرية التي بذمة الزراع لغاية ١٩٣٤ . تشكيل صف سادس في المدرسة الاميرية في اعزاز » (تقرير نائب اعزاز في جلسة ٢٤ / ٤ / ١٩٣٧) .

ــ « تقرير من نواب العشائر لاصلاح طريق حماة ــ سلمية » (في جلسة ٢٤ / ٤ / ١٩٣٧) .

ــ « تقرير من نواب العشائر لاصلاح طريق حماه ــ سلمية » ١ ــ جعل ضريبة الاراضي الزراعية (ويركو) لاتزيد عن عشر العشر المترتب عليها ، ٢ ــ الغاء ضريبة الاطلاعية (الراعي) عن المواشي » (جلسة ٢٤ / ٤ / ١٩٣٧) .

ــ « تقرير من نائبي منبج وجبل الاكراد يطلب » الغاء قانون الاجراء (الموضوع أيام الحكم التركي) الذي ينص على حبس المدين عندما يتعذر عليه تادية دينه . (جلسة ٢٤ / ٤ / ١٩٣٧) .

ــ « تقرير من نائب الباب يطلب : تعبيد الطريق بين الباب وحلب (جلسة ٢٤ / ٤ / ١٩٣٧) .

ــ « تقرير من نواب بادية الشام وبادية حلب وسلمية جاء فيه : » ان جدب المواسم وقلة الامطار في هذه السنة والسنين السابقة جعلت الفلاح يسعى لارواء مزروعاته بواسطة الاقنية والمحركات والغرافات وعدم انتظاره مطر السماء. وحيث يوجد كثير من الاقنية الرومانية في منطقة سلمية لاتزال مدثورة . نطلب اعطاء اعانات الى اربابها لاخراج مياهها وتفجير ينابيعها وفي ذلك مافيه من النفع العائد للاهلين والخزينة معا » . (جلسة ٢٤ / ٤ / ١٩٣٧) .

ــ تقرير من نائب قرقخان (اسكندرون) جاء فيه : « تعرفون جيدا مايقاسيه الزراع من الضريبة » المفروضة عليهم بصورة التربيع منذ عام ١٩٢٥ حتى تاريخناهذا بعد ان عدلت الحكومة عن جباية هذه الضريبة عن طريق الالتزام .. ارجو اصدار مشروع باعفاء بقايا الاعشار الويركو حتى ابتداء هذه السنة » . جلسة ٢٤ـ٤ـ١٩٣٧

ــ اقترح نائب ادلب نوري الاصفري في جلسة ٢٤/٤/١٩٣٧ ما يلي : « تنزيل

رواتب الموظفين وانقاص عددهم ، الغاء الضريبة العشرية والغاء ضريبة الاراضي واستبدالهما بضريبة عادلة » .

ـ « استنطاف من مختار وبعض اهالي ناحية معرة مصرين يطلبون ايجاد طريق معبد مابين معرة مصرين وادلب » . جلسة ٢٤ـ٤ـ١٩٣٧ .

بسبب كثرة العرائض الواردة الى المجلس بمعدل ٢٥ عريضة في كل جلسة عدا تقارير النواب علق رئيس المجلس فارس الخوري في جلسة ١٩٣٧/٥/١ بما يلي : « الاصل في قبول العرائض الواردة من الافراد الى المجلس النيابي ان يكون صاحب العريضة قد سبق وراجع المرجع الرسمي في الحكومة ولم يلب له طلب عادل وعندها يراجع المجلس من قبيل الشكوى . . لهذا فلجنة العرائض بسبب تكاثر العرائض التي ترد عليها لا بد لها ان تهمل البحث في مثل هذه الاوراق » .

وكانت لجنة العرائض اشبه بسلة المهملات ، تحول لها العرائض المرفوضة سلفا، اما العرائض التي رغب رئيس المجلس في تحقيق طلباتها فكان يحولها الى اللجان الاخرى . والمعلوم ان لجنة العرائض لم تجتمع طيلة حياة المجلس (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) سوى ثلاث مرات دون ان تبت في اية قضية وعلى الرغم من تنبيه الرئيس فان سيل العرائض والبرقيات لم ينقطع طيلة حياة المجلس .

ـ تقرير نائب حمص رفيق الحسيني في جلسة ١٩٣٧/٥/١ طلب فيه « تخفيض الضرائب عن الفلاح ودرس المشروع الزراعي دراسة دقيقة . »

ـ تقرير نائب القلمون محمد خير عقيل في جلسة ١٩٣٧/٥/١ طلب فيه : « تعبيد الطريق المسمى حاجولا من القطيفة الى النبك واحداث مدرسة اميرية في كل من قريتي معرة باش وعسال الورد » .

ـ تقرير من نواب حوران محمد المفلح ومصطفى المقداد وفارس الزعبي طلبوا فيه : « تعبيد بعض الطرق ، ارواء اراضي حوران العطشى باستثمار مياه شلال تل شهاب ، تاسيس مدرسة تجهيزية ، اعادة بناء مستشفى ، تحويل ضريبة العشر الى ضريبة استهلاك انعاشا للمكلف السوري واعفاءهذا المكلفمدة خمس سنواتليتسنى له تسديد ما عليه من ديون متراكمة » . (جلسة ١٩٣٧/٥/١) .

— تقرير نائب اعزاز محمد هادي بكار طلب : « اعفاء الفلاح من بقايا الضرائب حتى ١٩٣٤ ، واضافة صف سادس الى مدرسة اعزاز » .

— تقرير نائب الجزيرة طلب : « اعفاء بقايا ضرائب الاغنام والاعشار من اهالي الجزيرة حتى عام ١٩٣٥ » . (جلسة ١٩٣٧/٥/١) .

• جاء في تقرير نائب حمص رفيق الحسيني في جلسة ١٩٣٧/٥/١ : « ... اما الفلاح في بلادنا فهو في بؤس مؤلم وفقر شديد . فالمحل والضرائب وابتعاده عن الاساليب الزراعية الحديثة واتباعه الاساليب القديمة لن يمكناه من استثمار ارضه ... اماالقيام بالاصلاح الزراعي فلايكون الا بالاستفادةمن قواعد علميةومبادىء فنية وبتنظيم لتشريع زراعي واقتصادي يتلاءم مع اوضاع البلاد وحالتها الاقتصادية » . يلاحظ بوضوح اغفال النائب لمسؤولية الاقطاع في تأخر الفلاح. ومن سياق الكلام يفهم أن الاصلاح الزراعي لا يعني توزيع اراضي كبار الملاك على صغار الفلاحين بل يعني الاصلاح التقني في الزراعة .

— تقرير نائب اعزاز محمد هادي بكار : « ان حالة الفلاح الفلاح في الشمال لا تساعد على دفع الضرائب المتراكمة عليه وهو في عجز من كل سنة ، فأرجو اعفاء الفلاح من بقايا الضرائب حتى سنة ١٩٣٤ » . (جلسة ١٩٣٧/٥/١) .

من المعلوم ان فقراء الفلاحين ومتوسطيهم قلما استطاعوا التهرب من دفع الضرائب . اما الفلاحون الاغنياء والاقطاعيون ، فكانوا نادرا مايدفعون الضرائب في حينها بسبب ما يتمتعون به من نفوذ في مناطقهم وخوف الدرك والجباة وموظفي المالية منهم ولذلك فان شعار « اعفاء الفلاح من بقايا الضرائب » هو في الواقع اعفاء الفلاحين الاغنياء والاقطاعيين منها .

في جلسة ١٩٣٧/٥/٤ طالب نواب دير الزور : « حفر الابار لشراب الاغنام ». سيارين لمكافحة الامراض ، انشاء المدارس ، اعفاء بقايا ضرائب الاغنام والاعشار » .

في جلسة ١٩٣٧/٥/٤ طالب نواب دير الزور : « حفر الابار لشرب الاغنام » . وطالب نائب حوران بـ « انشاء جسور على طريق درعا — بصرى » (جلسة ١٩٣٧/٥/١١) .

« مضبطـــة من احمـــد عبده شومان من اهالي قريـــة كفر سجنة التابعة لقضاء المعرة تتضمن الشكوى من مدحت بك الحراكي الذي اغتصب اراضيـــه ومنعه مـــن الفلاحـــة فيها « أحال الرئيس هذه العريضة الى لجنة العرائض أي رمى بها في ســـلة المهملات . ولا يخفى ان مدحت الحراكي هو نائب معرة النعمان في المجلس (جلســـة ١١/٥/١٩٣٧) .

ـ « استدعاء من ابراهيم حمدوي ورفيقـــه احمد من سكان قريـــة الهبيط من قضاء المعرة يسترحمون اجراء الكشف والتحقيق عن اعمـــال وافعال ناصح بك العظم في قريتهم من سلب الاراضي من أصحابها وهدم البيوت » . احالها الرئيس الى لجنة العرائض . (جلسة ١١/٥/١٩٣٧) .

ـ « عريضة من السيد خالد بكداش يطلب وضع قانون يحمي الفلاحين من المرابين والبدء بوضع مشاريع واسعة للري ، وتأسيس مستودع حكومي في كل منطقـــة يودع فيه الفلاح حبوبـــه لتباع حسب سعر معين تحدده الحكومة والاكثار مـــن المشاتـــل في مختلف المناطق وفتح مدارس في كل القرى ومنـــع مصادرة مقدار الغلال اللازمـــة لمعيشة الفـــلاح ومنع مصادرة بذاره وارضه واثاث بيتـــه وتعديل نظام الضرائب ». (جلسة ١١/٥/١٩٣٧) .

ـ « عريضة من مصطفى دعبول ورفقاه من أهالي دير عطية يطلبون اصلاح القناة الرومانية الممتدة من اراضي دير عطيـــة الى مزرعة البريكة » ، أحالها الرئيس الـــى اللجنة الزراعية في ١٥/٥/١٩٣٧ .

في جلســـة ١٥/٥/١٩٣٧ القى النائب عبد العزيز الحلاج الكلمة التاليـــة : (لقـــد مل الزراع من كثرة مراجعاتهم للحكومات السابقة . لتنقذهم من الحالـــة الحرجـــة التي وصلوا اليهـــا .

وتنصفهم من الضرائب الباهظة التي لم يعـــد في وسعهم تحملها . ولكن وياللاسف لم يلب لهم مطلب .. يرجـــون انصافهم وتخفيف الضرائب عنهم بما يوافـــق الحـــق والعدل وها ان مؤتمر الغرف الزراعيـــة واللجنـــة التنفيذية للمؤتمر الزراعي تقدموا

بمطالبهم ... ان من جملة ما يشكو منه الزراع هو المصرف الزراعي الذي اكل منهم اضعافا مضاعفة ولم يتورع عن طرح املاكهم للبيع وتسجيلها باسمه بقيمة دون قيمتها . وان حكومتنا الموقرة ادركت الحاجة الملحة لعمل نظام جديد للمصرف تراعى فيه حقوق المزارع البائس » .

- بضعة من مختار قرية غصم احمد الفيصل ورفقاه يطلبون تنزيل الاعشار مع طلبات المصرف الزراعي . بسبب الجفاف » (جلسة ١٩٣٧/٥/٢٥) .
- عريضة من اهالي قضاء منبج يسترحمون تاجيل الاموال الاميرية المتراكمة عليهم وتامين البذار من المصرف الزراعي للعام المقبل » . (جلسة ١٩٣٧/٥/٢٥) .

- جاء في تقرير النائب اسماعيل الحريري في جلسة ١٩٣٧/٥/٢٩ ما يلي (بما أن أراضي حوران جميعها مشاعة مما ادى لاضرار الاهلين وعدم تحسين الزراعة ارجو العناية بتعيين لجنة لدراسة ولتحديد وتحرير اراضي حوران رحمة بحالة الزراع المحتاجين لمعاملتهم بالعطف والحنان سيدي) ثم طلب (بالعفو عن البلاد الحورانية عن جميع البقايا المتراكمة عليها من الاعشار والويركو حتى نهاية ١٩٣٦ بسبب الفقر والمحل) وطلب (تامين الري لحوران والمدارس والعفو عن المكتومين وتأجيل الديون والعفو عن كافة فوائد المصرف الزراعي) .

- جرى في جلسة ١٩٣٧/٥/٢٧ نقاش طويل بين النواب حول تأجيل الديون بسبب انخفاض سعر الفرنك في ايلول ١٩٣٦ وكان النواب بين موافق على التأجيل ومعارض له او داع للتوفيق بين الطرفين ومما قاله نائب حلب عبد القادر السرميني:

(... ان تأجيل الديون جبرا على أصحابها - سواء كان بفائدة او بدونها - هو كرم في مال الغير وافتئات على حقوقه لان الدائن قد يربح في امواله اكثر من الفائدة التي تعطى له بناء على التاجيل الجبري .. ان تاجيل الديون جبرا على أصحابها كي يستفيد من هذا التأجيل المدين الغني والمدين الفقير هل هو مذهب اشتراكي او شيوعي او بلشفيكي او شيء اخر ؟ انه لا هذا ولا ذاك ولا ذلك) ..

- « عريضة من قرى حوران ومورك وحلفايا وغيرها التابعة الى محافظة حماه

يسترحمون النظر بعين العطف الى فداحة ضريبة الويركو التي تحصل منهم » . احالها الرئيس الى لجنة المالية . (جلسة ١٩٣٧/٥/٢٧) .

– في جلسة ٢٧–٥–١٩٣٧ تقدمت لجنة الاقتصاد بتقرير يتضمن وضع قانون لتنشيط استعمال الالات الزراعية ومضخات وتراكتورات (هنا شرح رئيس المجلس ما هو التراكتور وكيفيةعمله بدليل ان قسما من النوابلم يكن قد سمع في ذلك الحين بهذا الاسم ، وذلك باعفاء اصحاب هذه الالات الزراعية من رسوم الحكومة او البلدية).

وهنا اعترض نائب ادلب حكمة الحكيم (اعتقد انه طبيب) قائلا (قدمت سابقا تقريرا طلبت فيه اعفاء الالات الزراعية الخشبية البسيطة من الرسوم وهي التي يستعملها صغار المزارعين وفقراؤهم فرفضت اللجنة اقتراحي هذا وهاهي اليوم تتقدم بمشروع يعفي كبار المزارعين من رسوم المواد المستعملة التي يستعملونها في محركاتهم فما معنى هذا التناقض ؟ ان الفقير احق بالرحمة ؟) .

نلاحظ ان المجلس النيابي لم يعدم بعض النواب ذوي الاتجاه الليبرالي الشعبي الذين دافعوا عن حقوق فقراء الريف مثل نائب دمشق فخري البارودي ونائب حلب ادمون الرباط ونائب ادلب الطبيب حكمت الحكيم الذي عرف بدفاعه اكثر من مرة عن الفلاحين الفقراء ، كما جرى ايضا مناقشة الموازنة في المجلس النيابي في٢٥كانون الثاني تكلم نائب ادلب حكمت الحكيم عن وضع الفلاح فقال : (الفلاح المسكين يشتغل ويكد شتاء وصيفا ويبذل اقصى جهوده ولكنه لا ياكل القمح الذي ينتجه انما ياكل شعيرا وان نصف محصوله يؤخذ منه ويؤدي من الباقي الضرائب الانتاجية وما اشبه فكان على الحكومة ان تعالج امر حصة الفلاح وترفع الضرائب عنه فهو الان يتحمل الغرم ولغيره الغنم .)

وان الميرة تسيء التصرف في كل شيء في الوزن والتسلم والمعاملات وهي تعني تسلط الاجانب على الوطنيين . (نقلا عن : (صوت الشعب) في ٢٨ كانون الثاني١٩٤٥)

– في جلسة ١٩٣٧/٥/٣١ طالب واحد واربعون نائبا ، من نواب العشائر وكبار ملاك الاراضي واغنياء الفلاحين وبعض نواب المدن بعدم تحصيل بقايا الضرائب على

اختلاف انواعها منذ عام ١٩٢٨ لغاية ١٩٣٤ كنا ذكرنا ان شيوخ العشائر وكبار ملاك الارض الاغنياء الفلاحين هم الذين تمردوا على دفع الضرائب . اما صغار الفلاحين ومتوسطيهم فنادرا ما يستطيعون التهرب من دفع الضرائب في اوقاتها وكذلك الحال بالنسبة لاكثرية سكان المدن فمجال تهربهم من دفع الضرائب ضيق ولهذا فان عدم تحصيل الضرائب عن السنين السابقة ، هو في صالح الشرائح العليا من سكان الريف. التي تقدمت فعلا في جلسة ١٩٣٧/٥/٣١ طالبة الاعفاء وعدم تحصيل الضرائب هو ضد مصلحة الحكومة الوطنية البورجوازية ، التي استلمت جزءا من السلطة في اواخر عام ١٩٣٦ ، ولذلك فان نواب البورجوازية وقفوا بقوة ضد هذا الاقتراح واستطاعوا افشاله على الرغم من انهم اقلية. ولو عرض الاقتراح على التصويت لنال الاكثرية لان معظم نواب الريف لا يدفعون الضرائب، فالمعركة الطبقية بين البورجوازية من جهة والاقطاعيين والمتنفذين في الريف من جهة اخرى واضحة المعالم ، اتخذت هذا الشكل (دفع الضرائب) وهو في صالح البورجوازية وحكومتها و (عن السنين السابقة وهو في صالح الاقطاعية وقسم من اغنياء الريف . وفي خضم هذا الصراع برز اتجاه دافع عن مصالح (الفقراء المعدمين) ولنعرض الان كيف تمكن مثقفو البرجوازية من افشال مشروع نواب العشائر والاقطاعية في جلسة ١٩٣٧/٥/٣١ . رشدي كيخيا ــ (نائب حلب) فانا اقترح على مجلسكم الموقر ان يرد هذا الطلب وان لا يقبل به مطلقا صيانة لاموال الامة وتأديبا لمثل اولئك الناس الذين يأكلون اموال الفقير ويتنعمون بنتائج كده وتعبه وعرق جبينه (تصفيق) .

فخري البارودي ــ انا اضم صوتي الى صوت الاستاذ كيخيا واقترح التقسيط مع انني كنت في عهد المجلس السابق ممن طلبوا اعفاء المكلفين من البقايا .

عبد القادر السرميني . . (نائب حلب) انا اضم صوتي الى صوت الزميلين واقول ان المجلس السابق الذي اجتمع ١٩٣٢ قرر اسقاط ديون كثيرة وكان السبب في ذلك ان كثيرين من نواب المجلس كانوا مدينين للحكومة .

الدكتور عمر الدلال ــ (نائب حماة) اؤيد ما تكلم به الاخوان لان على المجلس النيابي ان يحتفظ بأموال الخزينة واذا جاز له اسقاط شيء من البقايا عن بعض

افراد الامة فليكن هذا الاسقاط عن الفقراء المعدمين لا عن اصحاب الاطيان الكثيرة والاملاك الواسعة الذين ملات اموال الامة بطونهم . اما الفقير الذي لا يملك شيئا فاعفاؤه من البقايا عمل انساني يجوز للحكومة ان تنظر فيه (لقد مثل تيار الدفاع عن الطبقات الدنيا الفقيرة عدد من النواب وفي مناسبات مختلفة مثل النائب ادمون رباط والنائب حكمت الحكيم والدلال والبارودي الخ ..).

وبعد أن تكلم عدد من النواب بين مؤيد ومعارض كان واضحا ان المشروع اذا عرض على التصويت فسينال الاكثرية وستربح الاقطاعية وتخسر خزينة الدلة لحكومة بورجوازية ولذلك فان فارس الخوري رئيس المجلس حسم الموضوع على الشكل التالي :

الرئيس — على كل حال مثل هذا التقرير الذي سمعتموه لا استطيع ان اطرحه على التصويت لانه لم يقدم حسب الاصول البرلمانية ... (وهنا عدد هذه الاصول الشكلية) ... فالعفو عن بقايا الضرائب يجعل الفائدة محصورة : بالمتاخرين عن الدفع اي الذين تمردوا او الذين لم يستطيعوا دفع ماعليهم اما بواسطة أو بسبب عجزهم الدفع) . (ثم انتهت الجلسة) .

— (مضبطة من مختار وامام وهيئة اختيارية قرية قلدون يسترحمون حفر بئر في قريتهم وتعيين استاذ لتعليم ابنائهم وفتح طريق معبد لها . (جلسة ١٩٣٧/١٠/٣٠) .

— من بيان وزير المالية في جلسة ١٩٣٧/١٠/٣٠ عن موازنة الجمهوريةالسورية لعام ١٩٣٨ ... ولم تكد الحكومة تفرغ من ذلك وتشرع في تنفيذ موازنة عام ١٩٣٧ حتى اخذت تتدنى اسعار الليرة السورية التي بنيت تلك الموازنة عليها فارتفعت بالمقابل اسعار الحاجيات ارتفاعا محسوسا ادى الى زيادة اعباء الخزينة وتناقص قيمة الاعتمادات المفتوحة لنفقات الدولة .

... وهكذا فقد كانت مهمة الحكومة شاقة جدا في اعداد موازنتين في خلال سنة واحدةوفيظروف اضطربت فيهااسعار النقد والحاجاتوقامت الحكومةبمشاغل

أخرى كثيرة كما قدمنا ذلك مع اهتمامنا باصلاح القوانين المالية ووضع نصوص جديدة بدلا عنها تتلاءم مع حاجات البلاد الحقيقية ومصالحها) .

ـ عريضة من مؤتمر الحزب الشيوعي في يبرود يطلب تعويض جزء من الخسارة التي لحقت بمنكوبي بلدة يبرود من التبرعات المختصة لمنكوبي القلمون وفسح مجال للاهالي لجلب الاحطاب من الاحراج القريبة منهم وتوقيف الجباة عن تحصيل ضريبة الاعشار) احالها الرئيس الى لجنة العرائض . (جلسة ١٥/١١/١٩٣٧) .

ـ (عريضة من السيد فائق الكيالي من دمشق يلفت نظر هيئة المجلس الموقر لاعمال جابي قضاء القلمون والمعضمية وحجزه دواب الفلاحين المخصصة للزرع والفلاحة وحجزه البذار والمؤن وخلط الشعير مع القمح فوق البرغل والطحين وقبضه من احد المكلفين مبلغ ٣٣٤٠ قرشا سوريا واعطائه لقاء هذا المبلغ وصلا بمبلغ ٣٠٢٢ الى غير ذلك من السلفات) ـ احالها الرئيس الى لجنة العرائض . (٢٣/١١/١٩٣٧) .

في ٣١ كانون الثاني عام ١٩٣٧ أجلت الحكومة الديون المدنية دون فائدة اصلا بمرسوم اشتراعي رقم ٦ لغاية ٢٦ ايلول ١٩٣٧ أصدرت الحكومة المرسوم الاشتراعي رقم ٩٣ مددت فيه العقود المرسوم رقم ٦ استثنت الحكومة من هذه الديون بدلات الايجار والديون التجارية والسبب في هذا الاجراء نزول اسعار الفرنك الافرنسي وبالتالي الورقة السورية لصالح الراسماليين الفرنسيين .

ولم يستطع المجلس النيابي ان يبت في الامر في شتاء وربيع ١٩٣٧ وتركه للحكومة وكانت معركة الدائنين والمدينين معركة رهيبة قاسية الى درجة ان اثني عشر نائبا طلبوا في جلسة ١٩ كانون الاول ١٩٣٧ عقد جلسة سرية لمناقشة قضية الديون لان (قضية الديون اصبحت من اهم القضايا التي تشغل اليوم الراي العام وانه من الواجب مناقشتها مناقشة مجردة من كل العوامل المؤثرة ...) .

وقد عالج المجلس قضية الديون في عدة جلسات في اواخر عام ١٩٣٧ دون أن يصل الى نتيجة .

ـ (برقية من سكرتير مؤتمر الملاكين وحيد الحكيم يحتج على مشروع زيادة الضرائب ٦٠ بالمئة) احالها الرئيس الى لجنة المالية (جلسة ٢٣/١٢/١٩٣٧) .

— (عريضة من الامير نوري الشعلان وشركاه يسترحمون انقاذهم من المغدورية التي لحقت بهم من جراء مضاعفة الضرائب على اراضيهم) . احالها الرئيس الى لجنة العرائض . جلسة ٢٣-١٢-١٩٣٧ .

— (عريضة من ملاكي ومزارعي قضاء الرقة : بشان رفع الحيف الحاصل لزراع قضاء الرقة من جراء ارسال المالية لجنة (جلسة ١٩٣٧/١٢/٢٩) .

— مضبطة من ملاكي ومزارعي حوران يحتجون على القرار القاضي بضم ستين في المئة على الاملاك والاعشار وغير ذلك) . (جلسة ١٩٣٧/١٢/٣٠) .

يلاحظ من نبع مطالب سكان الريف فقيرهم وغنيهم ان هذه المطالب تدفقت على المجلس النيابي في عام ١٩٣٧ وقل ورودها في العامين التاليين . ويعود سبب احجام جماهير الريف عن التشديد على مطالبها الاقتصادية فيما بعد شعور هذه الجماهير بالخطر الداهم على الحكم الوطني الكتلوي . اذ ان سلطات الاحتلال الافرنسي التي اضطرت للتراجع في عامي ١٩٣٦ — ١٩٣٧ سرعان ما شددت النير على الحكم الوطني محاولة سلبه صلاحياته التي اكتسبها بفضل نضال الجماهير والمعاهدة المعقودة مع حكومة الجبهة الشعبية وكان سكان الريف ازاءهذا الموقف ان يضعوا جانبا ولمدة معينة مطالبهم الاقتصادية ويهتموا بالدفاع عن الحكم الوطني بعدماشغالهفي امور يمكن تاجيلها . والمتتبع لتاريخ النضال الوطني في سورية يرى هذه الظاهرة صعود المطالب الاقتصادية في فترات الهدوء وتراجعها الى الخلف في الايام العصيبة لتحل محلها المطالب الوطنية عامة .

ومن العرائض ذات المغزى الوطني العميق والافق البعيد في اكتشاف دور الاستعمار الاميركي في ترسيخ دعائم الصهيونية في فلسطين عريضة من دوما باسم المجاهدين وقعها عنهم محمود خيتي وفيما يلي نصها :

(نحن المجاهدون نستنكر اشتراك بلادنا السورية العربية في معرض نيويورك في زمن جارت على فلسطين فيه سياسة الولايات المتحدة فكانت عونا للصهيونية علينا فنناشدكم الله باسم وحدة الوطن وباسم فلسطين الشهيدة أن تحولوا دون تمثيلنافيه

عن دوما ،عن المجاهدين : محمود خيتي وفي جلسة ١٣كانون الاول ١٩٣٨ وردت اربع عرائض من دوما وحرستا تؤيد عريضة خيتي .

حواشي
الفصل الثاني

١ ــ الشعب ، في ١٨ اب ١٩٣٠ .

٢ ــ الاحوال البيروتية ، في ١١ ايلول ١٩٣٠ .

٣ ــ الف باء ، في ١١ ايلول ١٩٣١ .

٤ ــ نقلا عن ــ القبس ــ في ٨ اب ١٩٣٢ .

٥ ــ القبس ، في ٣ تشرين الاول ١٩٣٥ .

٦ ــ القبس ، جريدة الكتلة الوطنية البرجوازية ذات المشارب الاقطاعية وهذا ما اوقعها في تناقض احيانا بين مطامع برجوازية وانانيات اقطاعية وفي حقل التنافس البرجوازي الاقطاعي وقفت ــ القبس الى جانب البرجوازية ولكنها اختارت في ميدان الصراع الفلاحي الاقطاعي الجانب الاقطاعي وازداد اختيارهــا هذا كلما كانت البرجوازية تسير نحو مواقع السلطة تاركة وراءها تقاليدها الثورية السابقة وبدا ذلــك واضحا مثلا في كانون الثاني ١٩٤٦ اثناء المشادة القلمية بين جريدة ــ صوت الشعب ــ الشيوعية ونجيب الريس صاحب جريدة ــ القبس ــ البورجوازية حول حادث الاعتداء الذي قام بــه احد كبار اصحــاب الاطيان في سوريا على فلاح ضعيف وقامت ــ الطريق ــ بدورها في هذا المضمار فكتب منير سليمان مقالا في مجلة (الطريق) رد فيــه ايضا على صاحب) القبس (الذي دافع عن السادة الاقطاعيين) الطريـــــق في ٥ شباط ١٩٤٦) .

وفي مقال اخر من الطريق وصف حي لتطــور (القبس) البرجوازيــة من جريــدة تقدمية الى جريدة تسير باتجاه مواقــع الرجعيــة جاء في المقــال : وحكاية القبس هذه محزنــة . فقــد كانت حقا يوما مــن الايام قبسا فيه فتيل ونور ثم مد صاحبها يده فعرك الفتيلة واطفا النور فبقي الدخان والرائحة وظــــن انه يستطيع منذ الان ان يعيــش عــلى ماضيــه .

٧ ــ صوت الشعــب ٢٢ ايــار ١٩٣٧ .

٨ ــ صوت الشعــب ٢٩ ايــار ١٩٣٧ .

٩ ــ صــوت الشعــب ٥ حزيــران ١٩٣٧ .

١٠ ــ ((لماذا يناضل الحزب الشيوعي غايتــه القصوى وشيء من بروغرامه تموز ١٩٣١ ، ص١٥ــ١٦ .

١١ ــ لجنــة العرائض هي تحدي اللجان التي شكلها المجلس النيابي السوري ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ مثــل لجنــة المالية ولجنــة الداخلية ولجنة الاقتصاد ولجنة الموازنــة .. الخ وكان رئيس المجلس يحيــــل العرائض الراغب في تطبيــق ما تطالب بــه الى هذه اللجان لم يضع مشاريع القوانين اللازمــة لها وكــان من الملاحظ ان مطالب البرجوازيــة الصناعية تنفذ فورا ويتخذ بشانها مشروع القانون اللازم وبعــد ان تكاثرت مطالب الجماهير الشعبية الحاكمة بتحقيق بعض مصالحها على اثر قيام الحكم الوطني شكلت فــي المجلس النيابي (لجنــة العرائض) التي لم تجتمــع خلال حياة المجلس ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ اكثر مــن ثلاث مرات ولم تتخذ اي اجراء او قرار، مع العلم ان الطلبات المحالة اليها بلغت الالاف . انظر فيما يتعلق بعريضة الفلاحين ، مذكرات المجلس النيابي ١٩٣٦ــ١٩٣٩ ــ ص ١٨٣ .

١٢ ــ فيما يتعلق بالبرقيات والعرائض الواردة الى المجلس النيابي اغفلنا الاشارة الــى الصفحــات لكثرتها وسنقتصر على ذكر المصادر دون سواها وهي :

ــ مذاكرات المجلس النيابي ١٩٣٨ .

ــ مذاكرات المجلس النيابي ١٩٣٦ــ١٩٣٧ .

ــ الجريدة الرسمية للجمهورية السورية السنوات ١٩٣٦ ــ ١٩٣٧ ــ ١٩٣٨ ــ ١٩٣٩ .

فهرس المجلد الثالث

الموضوع	الصفحة
الفصل الاول	
ـ الحكم العثماني في بلاد الشام	٧
الفصل الثاني	
ـ اشكال ملكيـة الارض	٢٥
الفصل الثالث	
ـ الصراع بين القوى الاقطاعية الحاكمة قبل القرن التاسع عشر	٤٥
الفصل الرابـع	
ـ صور من الحياة في الولايات العربية الشامية في القرن التاسع عشر	٧٩
الباب الثـاني	
ـ تصدع النظام الاقطاعي العثماني	١١٩
الفصل الثـاني	
ـ تكيف الاقطاعية العثمانية مع العلاقات الراسمالية	١٣٣
الفصل الثالث	
ـ البنيـة الاجتماعيـة في الريف والبدو	١٥٥
الفصل الرابـع	
ـ البـدو والمسالة الزراعيـة	١٦٧
الفصل الخامس	
ـ صور من مظاهر الحياة الاقتصادية ـ الاجتماعية	١٨٥
الباب الثالث	
ـ تخلخل البنية الاقتصادية وقيام التحركات الاجتماعية	٢٢٥
الفصل الثـاني	
ـ التحركات الاجتماعيـة في مدينـة حلب	٢٥٩
الفصل الثالث	
ـ الانتفاضات الفلاحيـة في القرن التاسـع عشـر	٢٧٣
الفصل الرابـع	
ـ الحركات القوميـة والقضيـة الزراعيـة مع الحرب العالمية الاولى	٣٠٤
الفصل الخامس	
ـ قريتـا شـين وجبلايـا	٣٥٤
الباب الرابـع	
ـ دور القوى الطبقيـة في الحركة القومية العربية	٣٢٧

الموضوع	الصفحة
الفصل الاول	
ـ الوضع المعاشي في سنوات الحرب الاولى	٣٧٩
الفصل الثاني	
ـ الثورة العربية في الحجاز ، وابعادها القومية	٣٩٥
الفصل الثالث	
ـ بلاد الشام ، بعد انهيار الدولة العثمانية	٣٩٩
الفصل الرابع	
ـ الدولة الوطنية العربية (١٩١٨ ـ ١٩٢٠)	
ـ القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية (١٩٢٠ ـ ١٩٤٣)	٤٢٩
الفصل الاول	
ـ الامبريالية الفرنسية في سورية ولبنان	٤٣٣
الفصل الثاني	
ـ اشكال الملكية الزراعية والضرائب	٤٥٦
الفصل الثالث	
ـ الطبقات والفئات الاجتماعية في الريف	٥٠٧
الفصل الرابع	
ـ معالم زراعية مندثرة	٥٥١
الباب الثاني	
ـ الحياة الثقافية والسياسية	٥٦٩
الفصل الثاني	
ـ الاحزاب والتجمعات السياسية	٥٩٩
ـ موقف مؤسسي البعث العربي الاشتراكي	٦٣٠
الباب الثالث	
ـ موقع الحركة الفلاحية في الكفاح الوطني	٦٤٣
ـ الفلاحون في الثورة السورية الكبرى	٦٨٢
الفصل الثاني	
ـ الكفاح الوطني والحكم الكتلوي	٧٢١
الباب الرابع	
ـ الكفاح الفلاحي من اجل الارض	٧٩٩
الفصل الاول	
ـ مواقف القوى الاجتماعية من نضال الفلاحين	٨٠١
الفصل الثاني	
ـ الفلاحون والقضية القومية	٨٣٩
ـ النضال الفلاحي ايام الانتداب	٨٦٧



الطباعة والتجليد: دار البعث للطباعة